GRACE NOTES

by **Philip Yancey**



عامٌ كاملٌ من التأمُّلات اليوميَّة الملهِمة

فيليپ يانسي

GRACE NOTES

by **Philip Yancey**



عامٌ كاملٌ من التأمُّلات اليوميَّة الملهِمة

فيليب يانسي


نغمات النعمة



عامٌ كاملٌ من التأمُّلات اليوميَّة الملهِمة

فيليپ يانسي

ترجمة: د. أوسم وصفي



Originally published in English under the title:
Grace Notes

Published by arrangement with The Zondervan Corporation L.L.C.
a subsidiary of HarperCollins Christian Publishing, Inc.

نغمات النعمة

الطبعة العربية الأولى ٢٠١٩م

أوفير للطباعة والنشر

ص.ب. ٣٠٦٢، عمّان ١١١٨١، الأردن

هاتف: ٣٣٨١ ٤٦٣ ٦ ٩٦٢+

Email: info@ophir.com.jo
www.ophir.com.jo



رقم الإيداع: ٢٠١٨/ ١٢/ ٦١١٨

ISBN 978-90-5950-263-5

تصميم العنوان: الخطّاط إبراهيم يعقوب

”على الكاتب أن يجتهد ليكونَ

ذلك الشخصَ الذي لا يفوتُه شيء“.

هنري جيمس (Henry James)

المحتويات

المقدِّمة

عشتُ ثلاثة عقود متفرِّغًا للكتابة، وهذه مدَّةٌ طويلة بما يكفي لكي يقترح أحد الناشرين هذا الكتاب الذي يحتوي على قراءات مأخوذة من أكثر من عشرين كتابًا، ومقالات عدَّة. وبينما أتصفَّح هذه القراءات، أشعر مثلما شعر ريپ ڤان وينكل (Rip Van Winkle) حيث أستعرضُ خبراتٍ وأفكارًا منذ نحو عشرين أو ثلاثين عامًا. فيها شكَكتُ وآمنت وشكَكتُ من جديدٍ، وتغيَّرت ونَمَوتُ.

لقد نلتُ أيضًا امتيازَ السَّفر إلى بلدانٍ عدَّة، كي أراقب الكنيسة وهي تعمل في إطار ثقافاتٍ متنوِّعة، وأحاور بعضًا من الشخصيَّات المبهرة، منها مَن يُعدُّ قدوة، ومنها مَن يستحقُّ اللائمة. ودائمًا ما أعود إلى مكتبي وأجتَرُّ تلك اللقاءات في مقالاتٍ وكُتب. لقد اكتشفتُ أنَّ لدى بعض الأشخاص فكرةً رومانسيَّةً عن حياة الكاتب. ذات مرَّة تلقَّيتُ رسالة من طالبة تتساءل ما إذا كنتُ أحتاج إلى متطوِّعة. "أستطيع أن أنجزَ لك البحث، أو العملَ المكتبيّ. أو ربَّما إذا كان في وُسعي فقط أن أجلس لأشاهدَكَ تكتب".

أرسلتُ إليها رفضًا رقيقًا، في حين كان ينبغي أن يكون ردِّي: **"عزيزتي الشابَّة، أأنتِ مجنونة؟ لا، ليس في وسعك أن تشاهديني وأنا أكتب! أنا لا أطيق وجودَ إنسانٍ آخر في الغرفة نفسها. إنَّ الكتابة عمل من أكثر الأعمال خصوصيَّة، وربَّما أكثرها هَوَسًا، ولا يجرؤ أحدٌ أن يتجاوز هذه الحدود. علاوةً على أنَّك سرعان ما ستشعرين بالملل الشديد. هل جرَّبتِ أن تمضي اليوم كلَّه تحملقين في صخرة، أو أن تشاهدي شاشة تلفاز مُغلق؟ لعلَّ ذلك يكون أكثر إثارة من مشاهدة كاتب يعمل"**.

يجلس الكاتب بمفرده في الغرفة أمام كُومةٍ من الأوراق أو أمام كمبيوتره، يتعامل مع رموز مجرَّدة، محاولًا ترتيبها، ثمَّ إعادة ترتيبها. وكما يشرح فيليپ رُث (Philip Roth) تلك العمليَّة بالقول: "إنِّي أُقلِّبُ الجُمَلَ على كلِّ جهة. هذه هي حياتي. أكتب جملةً ثمَّ أقلِّبها، بعد ذلك أنظرُ إليها، ثمَّ أقلِّبُها من جديد. أعودُ ثانيةً فأكتبُ جملةً أُخرى بدلَ الأولى. ثمَّ أحتسي كوبًا من الشاي، بعد ذلك أقلِّبُ الجملةَ الجديدةَ. ثمَّ أقرأ الجملتَين، وأقلِّبُهما معًا. بعدها أستلقي على أريكتي وأفكِّر، ثمَّ أنهض وألقي بهما بعيدًا، وأبدأ من جديد". لقد وصفَ رُث يومي بكلِّ دقَّة.

بين كلِّ الفنون، تُعَدُّ الكتابة الأكثر تواضعًا. يستخدم الفنَّانون التشكيليُّون ألوانًا، ويعمل النحَّاتون أعمالًا ثلاثيَّة الأبعاد، وكلا الوَسَطين أكثر جاذبيَّة من تلك الرموز المجرَّدة التي يتعامل بها الكتَّاب. وفي أشكال الفنون الأخرى- السينما والرقص والموسيقا- يتواصل المبدع مع جمهوره مُباشرةً، وبصورة حِسِّيَّة، أمَّا الكتابة فتتطلَّبُ خطوةً وسيطةً، وهي القراءة. لذا على القارئ أن يبذلَ مجهودَ القراءة والفهم كي يصلَ إلى المعاني المُجرَّدة نفسها التي كان قد قَصَدَها الكاتِب. فعندما تعرِضُ نُسخَةً من رواية "**الملك لير**"*(King Lear)*

مثلًا لقبيلة من هنود الأمازون، فستبدو لهم مثل فلفلٍ أسودَ مطحونٍ ومَرشوشٍ على صفحات بيضاء.

تكشف الدراسات أنَّ الكتَّاب يقعون في مراكز متقدِّمة في قائمة أصحاب المِهَن المعرَّضين لخطر الإدمان. فهم يُدَخِّنون بشراهة، ويحتسون القهوة بإفراط، ويلجأون إلى الكحول بمعدَّل مُقلق. لماذا؟ لأنَّ عليهم يوميًّا أن يتعاملوا مع شكوكهم العميقة: "ليس لديَّ ما أقوله، لقد قُلت كلَّ شيء من قبل. أنا مزيَّفٌ ومُنافِقٌ، وأكتب بصورة نَمَطيَّة".

علاوة على ذلك، فإنَّ الكتابة هي عمل غير مُتجسِّد يجعل صاحبه يحاول أن يُشرك أجزاءَ الجسد الأخرى، حتَّى إنْ كان ذلك تحريكَ كأسٍ أو لفافة تبغ من المنضدة إلى الفم وبالعكس. لحُسن الحظّ، أعيش في كولورادو، وهي ولاية تتمتَّع بالطبيعة الخَلَويَّة الخلَّابة التي تومئ إليَّ يوميًّا لأعاود الاتِّصالَ بالكوكب بطُرُق أكثر صحَّة (وفي أثناء تلك العمليَّة، أتجنَّب الكتابة).

وعندما أتكلَّم أمامَ جمعٍ من الناس، أشعر كأنِّي خرجتُ لتَوِّي من كهف لأواجه النور المُبهر ومُكَبِّرات الصوت. فيسألني أَحَدُهُم قائلًا: "ما أهمُّ خمسة تَوجُّهات تواجِه الكنيسة اليوم؟" فتطرفُ عينيَّ في مواجهة الضَّوء. ثمَّ يسأل شخصٌ آخر قائلًا: "كيف ترى تأثيرَكَ في العالم؟". وردًّا على كلِّ هذه الأسئلة، أودُّ أن أقول: "وكيف لي أن أعرِف؟ لقد كُنتُ جالسًا في غرفة مكتبي الذي يقع في الطابق تحت مستوى الشارع". لكنْ بدلَ ذلك، أبتسم بأدبٍ وأحاول أن أقول شيئًا ذا معنى.

~

دون شكّ، يأتي السؤال المعتاد: "هل كنتَ تتمنَّى دائمًا أن تكونَ كاتبًا؟" وعليَّ أن أعترف بأنِّي مثل أغلب الأطفال الأميركيِّين كنتُ أريد أن أكونَ رجلَ إطفاء أو لاعب بيسبول. لكنْ لاحقًا لمَّا التحقتُ بالدراسات العُليا في كلِّيَّة ويتون (Wheaton)، كان عليَّ أن أجد عملًا لأدفعَ مصاريفَ الدِّراسة. وعندما قرعتُ بابَ مقرَّات هيئات مسيحيَّة عدَّة كانت بالجوار، كان العرض الوحيد الذي حصلت عليه هو من مؤسَّسة هارولد ميرا (Harold Myra) التي كانت في ذلك الوقت الهيئة المسؤولة عن نشر صحيفة "**الحياة الجامعيَّة**" *(Campus Life)*، وهي صحيفة موجَّهة إلى اليافعين من طلبة الجامعة. وفي السنة الأولى، كتبتُ تقاريرَ عن أمور مختصَّة بالجامعة، وكتبتُ نسخةً من النشرة الخاصَّة بالجامعة، ونظَّمتُ ملفًّا للصور، فكان عملي عمومًا مساعدَ محرِّر.

لقد خلق هارولد، صاحب دار النشر تلك، روحًا عامَّةً تُعلي من شأن الكتابة فوق أيِّ شيءٍ آخر. وكان يُرشدُ فريقه من العاملين الصِّغار بصبر قلَّ نظيره. كان يقول مثلًا، وهو يميل إلى الخلف بظهره في كرسيِّه الخشبيّ: "فيليپ، هذه المقالة هي ليست سوى ٨٠٪ فقط ممَّا يجب أن تصل إليه". وقد فهمت لاحقًا أنَّ هذا

التصريح هو طريقة مهذَّبة لقول: "هذه المقالة سيِّئة، ويجب أن تعيدها من البداية". لقد تعلَّمتُ حرفيًّا كلَّ ما تعلَّمته في أثناء العمل. العمل اللغويُّ في استخدام الأفعال الصحيحة، وبناء الجُملة، ثمَّ بناء الفِقرات والمقالات، وفي النهاية الكُتُب. يمكن أن يتعلَّم المرء أن يكتب، وعندما بدأتُ كنتُ لا أعرف شيئًا تقريبًا.

واكتشفتُ لاحقًا أنَّ عمليَّة تأمُّل خبرات الحياة وتمثيلها على الورق يناسب طبيعة شخصيَّتي الحَذِرة الانطوائيَّة. كنت أستطيع إجراء مقابلات مع شخصيات مختلفة، وأراقب العالم من نافذة موقعي الآمن بوصفي صحفيًّا. لقد أمدَّني الوقت الذي أمضيته في صحيفة "**الحياة الجامعيَّة**" بتدريب ممتاز، حيث لم أجد تحدِّيًا أصعب من الكتابة عن أمور الإيمان في حياة يافعين أميركيِّين مدلَّلين. لقد تعلَّمتُ أنَّ القارئ هو الذي يُدير الصفقة، وليس الكاتب؛ فعندما تفشل في الحفاظ على لفت انتباه القارئ، فستصيرُ خارج المهنة.

كثير من الكُتب المسيحيَّة وضعها متخصِّصون من نوع ما: راعي كنيسة، أو لاهوتيٌّ، أو مُعلِّمٌ، أو أيُّ تخصِّص آخر. أمَّا أنا فبدأتُ حياتي المهنيَّة أعملُ صحفيًّا، ويعني هذا أنِّي لست متخصِّصًا. ومنذ ذلك الحين تمسَّكتُ بهذه الهُوِيَّة. وبعد ذلك بوقت، وجدتُ صوتي- صوتَ سائح على درب الروحانيَّة المسيحيَّة- مجروح من الكنيسة، أبحث في أمور الإيمان، لكنِّي أعودُ أدراجي. أشعرُ بالعرفان الصادق لأنِّي أمتلك تلك المهنة التي تتيح لي أن أعكسَ على الورق ما أصارع به داخليًّا؛ فهي دعوة تعكس قصَّة حياتي.

بعد نحو عشر سنوات في صحيفة "**الحياة الجامعيَّة**"، وجدتُ أنِّي غرقت في التفاصيل الإداريَّة لعمليَّة النشر. ووجدت أنِّي أُمضي وقتي أدرسُ أراقب التوزيع، وأراجع موازنة التسويق بدل الكتابة. فاتَّخذتُ القرارَ الجريءَ أن أصيرَ كاتبًا حرًّا. وفي الوقت نفسه، انتقلتُ من الحياة في الضاحية إلى قلب مدينة شيكاغو، وكأنِّي أؤكِّدُ تلك النقلة.

ينتمي الكثيرُ من الفقرات المنتقاة في هذا الكتاب إلى تلك الحقبة من حياتي. لقد فتحَتْ حياة المدينة أمامي عالمًا جديدًا، لا سيَّما عندما عملَتْ زوجتي اختصاصيَّةً اجتماعيَّةً ما بين الفئات المحتاجة في المدينة. عشنا في وسط المدينة، بجانب ملعب ريغلي (Wrigley Field)، وأثبتَتْ شيكاغو أنَّها مكانٌ مثيرٌ لصحفيّ. عندما ينتابني "انسداد الكتابة" (Writer's block)، أنزل للمشي في الشوارع، فأرى شخصًا قد انتابتْه نوبةُ صَرع، أو يُلقى به خارج إحدى الحانات، أو يصرخ في أحد راكبي الدرَّاجات الناريَّة المارِّ بسرعة.

في الوقت نفسه، انضمَّت صحيفة "**الحياة الجامعيَّة**" إلى مجموعةٍ من المجلَّات التي تنشرها دار "**المسيحيَّة اليوم**" *(Christianity Today)*، وبدأتُ بالكتابة بانتظام فيها. وبالتناوب مع تشَك كولسون (Chuck Colson)، أخذتُ عمودًا شهريًّا، وستجدون في هذا الكتاب اقتباسات عدَّة من ذلك العمود. كما بدأتُ في ذلك الوقت أسافر خارج البلاد، أحيانًا للبحث في مقالات، وفي مرَّات أخرى ضمن رحلات تنظِّمها دور النشر. في تلك الرحلات، تعلَّمت أن أحترم المناظير التي يرى بها الناس في الدول المختلفة عن الولايات المتَّحدة، وعن

نسخة المسيحيَّة التي ترعرعتُ فيها. وأقترح لمن يعاني التشاؤم بشأن التركيبة الدينيَّة الصناعيَّة في الولايات المتَّحدة، أن يزور أماكن مثل البرازيل أو الفلبين أو الصين، ويُمضي وقتًا بين الناس الذين يقبلون الإنجيل بوصفه خبرًا سارًّا غير مزيَّن بأيِّ شيء آخر.

في سنة ١٩٩٢م، اتَّخذتُ خطوةً دراميَّة كبرى بالانتقال من وسط شيكاغو إلى سفوح جبال روكي، في كولورادو. في المكانَين كنتُ أعمل في مكتب في الطابق تحت مستوى الشارع، لكنْ يا له من فرق! من نافذة مكتبي في بيتي في شيكاغو كنت أنظر إلى رُكَب المارَّة في الشوارع، وكانت الحياة البرِّيَّة هناك تتألَّف من الحمام والسناجب. أمَّا الآن فأرى من نافذة بيتي أشجار الصنوبر والجبال ذات القمم المكسوَّة بالثلوج، ومواكب من الثعالب والغزلان والظِّباء والدببة والقطط البرِّيَّة- ومن وقتٍ إلى آخر يمكن أن أرى أحد أُسود الجبال- وكلُّها تتجوَّل في حديقة بيتي.

انتقلنا جزئيًّا لأنَّ الحياة صارت مزدحمةً جدًّا في شيكاغو، والجزء الآخر لأنِّي شعرتُ بتغيير في بؤرة كتاباتي. بوصفي صحفيًّا كتبتُ قصصَ الآخرين، حان الآن الوقت لأهتمَّ بما يحدث داخلي نحو كتابات أكثر تأمُّليَّة وشخصانيَّة. لقد احتجتُ لأنْ أفحصَ إيماني الشخصيَّ وأسجِّل خطواتي في تلك الرحلة. ما زلتُ أتعجَّبُ أنِّي استطعتُ أن أكسبَ معيشتي من فعل ذلك. الآخرون الذين يعمَلون في مهن أخرى مختلفة، عليهم أن يتعاملوا مع صراعهم الإيمانيِّ بوصفه أمرًا جانبيًّا، خارج مجال عملهم. أمَّا أنا فأتقاضى أجرًا عمَّا كنتُ أفعله.

في هذه العمليَّة، احتفظتُ بهُويَّتي الصحفيَّة، وأشعرُ بأنِّي مدعوٌّ إلى تمثيل المسيحيِّ العاديِّ السائح في دربه. ربَّما لأنِّي كبرت في خلفيَّة كنسيَّة معتلَّةٍ، فإنِّي أتجنَّب تمثيل المؤسَّسة المسيحيَّة بأيَّة صورةٍ رسميَّة. أنا لستُ خادمَ كنيسةٍ مرسومًا، وليسَتْ هناك مؤسَّسةٌ عليَّ أن أحميَ سُمعتَها. وأنا كاتبٌ حرٌّ يُمكنه أن يستكشفَ أسئلته إلى حيثما تقود هذه الأسئلة، دون أن أقلقَ بشأن النتائج. أذهب إلى المتخصِّصين وأتعلَّم ما استطعتُ تعلُّمه، ثمَّ أنقُلُ الإجابات التي أجدها مفيدةً إلى صورةٍ قابلة للقراءة.

إنَّ كلَّ كاتب يلمس موضوع الروحانيَّة يمكن أن يتوحَّد مع توماس ميرتون (Thomas Merton) في قلقه من كَون كتبه تعبِّر عن الحياة الروحيَّة على نحو بالغ الثقة، في حين تُعدُّ حياتُه مبتَلاةً بالقلق والشكوك، بل الرعب أيضًا. وكثيرًا ما ينمو لديَّ الانطباع أنَّ للكلمات التي أكتبها قيمةً باقيةً أكثر من قيمة حياتي نفسها، وأشعر بأنَّه كلَّما وصلتُ إلى مستوى مرتفع في كتاباتي عن الحياة الروحيَّة، أُسيء تمثيل حياتي الفوضويَّة. إنَّ تحرير الكلمات وتصحيحها أسهل جدًّا من تحرير الحياة وتصحيحها. وعندما تصلني رسائل من قرَّاء يخبرونني فيها بمدى تأثير كلماتي فيهم، أشعر بأنِّي أريدُ أن أعترض. "نعم! لكنَّك لا تعرفني- تكلَّم إلى زوجتي". إنَّ الكلمات تمنحُنا، نحن الكُتَّابَ عن أمور الإيمان، قوَّة انتصاريَّة لا نستحقُّها في الواقع.

في أحيانٍ عدَّة، كتبتُ عن سنوات التحاقي بإحدى كلّيَّات اللاهوت، دون البَوح بِاسْمها. لم أكن أدركَ إلى أيِّ مدى ضايقتُ الناس هناك، وذلك حتَّى زرتُ الكلِّيَّة، وتكلَّمت إلى بعض من المعلِّمين والإداريِّين هناك. سألني أحد الأساتذة قائلًا: "لماذا تجرحنا؟ لماذا تركِّز فقط على ما هو سلبيّ؟" لقد منحناك جائزة الزميل الأفضل للجامعة في إحدى السنوات، وأنت تعود وتُشهِّر بنا في كلِّ فرصة تجدها سانحة". حاولت أن أستمعَ ببساطة بدلَ أن أدافعَ عن نفسي. لقد علمتُ أنَّه كان يتصرَّف في إطار ردِّ فعل للقوَّة المجحفة للكلمات المكتوبة والمنشورة، التي انتشرت بواسطة كتبي في طول البلاد وعرضها، ناقلةً فقط وجهة نظر واحدة محدودة وغير كافية ومسبِّبة للإحراج.

لماذا نفعل ذلك نحن الكتَّابَ؟ "لكثرة الكتب لا نهاية"، قال كاتب الجامعة ذلك متنهِّدًا منذ ما يزيد على ثلاثة آلاف سنة، ونحو ربع مليون كتاب سيظهر هذا العام فقط في الولايات المتَّحدة. لكنَّنا لا نزال ننحتُ سيلًا لا ينقطع من الكلمات، التي تحمل إمكانيَّة الإيذاء، كما تحمل فُرص العزاء. تحملُ كلُّ الكتابة شيئًا من الكبرياء. وعندما أكتب الجملة التالية، فأنا أحملُ بالتأكيد الاعتقاد المتصلِّف أنَّها تستحقُّ أن تمضي فيها وقتَك لتقرأها: "بوصفي إنسانًا لم يسبق لك ربَّما أن قابلتَه، أطالبُك بالانتباه، لأعرِّضك لكلماتي وأفكاري. أنصت إليَّ من فضلك، دون أن تكون لديك إمكانيَّة أن تبادلني الآراء".

أعتقد أنَّنا نفعل ذلك لأنَّنا لا نملك شيئًا آخر نقدِّمه أكثر من وجهة نظر. لقد تلوَّن كلُّ ما أكتبه بألوان تأتي من خلفيَّتي الأُسَريَّة، ومن تربيتي في الجنوب وفي البيئة الأصوليَّة، ومن مسيرة سياحتي في الدروب الخلفيَّة. أستطيع أن أكتب من قلبي عن خبرتي الشخصيَّة، وليس عن خبرتك دون شكّ. لكنْ بصورة أو بأخرى عندما أقدِّم خطواتي الكنسيَّة أو الأسريَّة البطيئة المتثاقلة، فربَّما يثير ذلك ردَّ فعلٍ لدى القارئ، مثل صوت صادر من وتر غيتار رنَّان. وكما يقول ووكر پيرسي (Walker Percy)، فإنَّ الكاتب يساعد ربَّما على كشف ما يعرفه القارئ بالفعل، لكنَّه لا يعرفُ أنَّه يعرفه.

لقد كتبتُ عن "الكنيسة المسمومة" التي ترعرعتُ فيها– كنيسة ناموسيَّة وغاضبة وعنصريَّة من الجنوب. أنا أمزحُ عندما أعلن أنِّي في "حالة تعافٍ" من هذه الكنيسة، وأتعلَّم أنَّ ما كانت هذه الكنيسة تقدِّمه بوصفه الحقَّ المطلق، كان خطأً. ونتيجة لذلك، عندما بدأتُ الكتابة، رأيت نفسي شخصًا على الحافَة، أكثر اطمئنانًا عندما أطرح الأسئلة، أكثر ممَّا أقدِّم إجابات. من كُتُبي الأولى، أذكر العنوانَين "**أين الله عندما أتألَّم**" *(Where is God when it Hurts)*، و"**عندما لا تمطر السماء**"[1] *(Disappointment with God)*. ويكشف هذان العنوانان ما كنتُ أصارعُ معه، والطريقة التي وضعتُ نفسي بها في هذه القضايا.

ذاتَ مرَّة، أطلقت على الأشخاص الذين كنت أصغي إليهم وصفَ "ساكني الحدود"، وهؤلاء هم

العالقون في أرضٍ لا يسكنُها أحدٌ ما بين الإيمان وعدم الإيمان. بعضُهم يقتربون من الكنيسة بحذر، وينجذبون إلى يسوع لكنَّهم، يُحبطون من أتباعه. وبعضهم هرب من الكنائس بسبب خبرات سيِّئة، لكنْ لا يزالون يحنُّون إلى التعزية التي كانوا يشعرون بها هناك. لقد أمضيتُ أنا نفسي وقتًا على الحدود، وأريد أن أُكرم هؤلاء الذين يقفون هناك دون شعور بالانتماء، وأعبِّر لهم عن احترامي.

لا أريد أن أدافعَ عن الكنيسة، لكنِّي أتوحَّد مع هؤلاء المجروحين، وأحاول توجيههم إلى الخبر السارِّ للإنجيل. لقد قال يسوع إنَّ الحقَّ يحرِّرنا، وإنَّه جاء ليعطيَنا حياةً فيَّاضة أفضل. إذا لم تكن حياةً حرَّةً فيَّاضة، فهي ليست رسالة يسوع. وإذا لم تبدُ بوصفها خبرًا سارًّا، فهي ليسَتِ الإنجيلَ.

إنَّ صنعَتي هي الكلمات، لذا فأنا أنتقيها وأحرِّكها وأفرِّقُ ما بينها وأتأمَّلُها. لقد فعلت ذلك مع كلمات مثل: "النعمة أو الهبة أو الموهبة أو العفو". لقد لاحظتُ أشكالًا من هذه الكلمة تظهر في أماكن غير مُتوقَّعة: صفحات الرياضة (رياضيُّون يتمتَّعون بالموهبة)، وفي ساحات الانتظار (مدَّة ساعة معفاةٌ من الأجر)، وفي تدريبات الموسيقا (نغمات النعمة [Grace Notes]). وجعلَني هذا أحاول أن أدقِّق النظرَ أكثر؛ لأنَّ كلَّ هذه الاستخدامات للكلمة هي استخدامات إيجابيَّة وجاذبة، لكنْ كثيرًا ما يوصَمُ المسيحيُّون بسمعة سيِّئة. يظنُّ الناس في المسيحيين أنَّهم متزمِّتون وديَّانون. وكان غريبًا أنَّ النعمة أتَتْ لتنقُلَ صورةً عكسَ قصدِ الله، حيث إنَّها تُعاش بواسطتنا. ومن هناك بدأ يتشكَّل كتاب "**ما أعجب النعمة**" *(What's So Amazing About Grace?)*.

لكَمَ أتمنَّى لو استطعتُ أن أصرِّح قائلًا: "فلأُخبرْك بخُطَّتي العَشْرية، عن خُطَّتي للتعبير عن إيماني في إطار ثقافة ما بعد الحداثة". في الواقع، أنتقلُ من موضوع إلى موضوع بحسب ما يُثير ضيقي في ذلك الوقت. وعندما أنظر إلى الوراء، أرى مواضيع تتكرَّر على مرِّ السنين، مثل الألم والنعمة. وأيضًا أرى كتاباتي تدور من حوافِ الإيمان متَّجهةً نحو المركَز. وإذا تأمَّلتَ مواضيع كتبي الأخيرة تجد أنَّها عن يسوع والنعمة والصلاة- جميعها أمورٌ مركَزيَّةٌ في الإيمان.

إذا كان أحَدُهم قد اقترح منذ عشرين عامًا مثلًا أنِّي سأؤلِّفُ كتابًا عن الصلاة، لضَحِكتُ ملءَ الفم. لقد احتاجَ الأمر إلى سنوات عدَّة لأستشعرَ الرغبةَ في اكتشاف مثل هذه الموضوع. وأقول إنِّي استشعرتُ الرغبة وليس المقدرة. لقد انتهجتُ في هذا الكتاب أيضًا حسًّا صحفيًّا، وأتيتُ بقائمة من الأسئلة لأولئك الذين ربما يستطيعون تقديم بعض الإجابات. إنَّ لدينا ميِّزةً لا تُقدَّر وهي التواصل مع إله الكون، لكنَّ الصلاةَ تظلُّ لكثيرين طَقْسًا مملًّا وغير مفهوم في الحياة. هل يمكن تغيير ذلك؟ هل أومنُ حقًّا بالصلاة؟ بدأت بطرح أسئلة كهذه، وقادتني إلى كتاب.

أنا في الواقع أكتبُ كتبي لنفسي. أتناول موضوعًا يؤرِّقني وأغوص فيه، دون أن أدري أين سأظهر على السطح. ربَّما يغوص شخصٌ آخرُ خلفي، لكنِّي عندما أؤلِّفُ الكتابَ، أكون بمفردي تمامًا، أصارعُ القضايا

وأسوقُ قطعان الكلمات (وهي مثل الحيوانات الصغيرة، تحاول الهروب). لقد أمدَّتني الكتابة بطريقةٍ لتفعيل إيماني كلمةً بكلمة. وما أدهشَني أنَّ كلماتي ساعدت على تشجيع آخرين في إيمانهم.

في الماضي أيَّام السيجار الملفوف بالأيدي، كان في كوبا تقليدُ استئجار قُرَّاء يقرأون للعمَّال. وبينما هم يعملون في صَمْتٍ، كانوا يسمعون ساعةً بعد ساعةٍ الأعمال الأدبيَّة تُقرأ بصوتٍ مسموع. لقد كان هذا يساعد على مرور الوقت، كما لاحظ المشرفون أنَّه يرفع أيضًا من معنويَّات العاملين. استمتعَ العاملون بلفِّ السيجار برواية "**كونت مونتي كريستو**" *(The Count of Monte Cristo)* حتَّى إنَّهم راسَلوا الكاتب ألكسندر دوما (Alexander Dumas) ليسمح لهم بتسمية أحد أنواع السيجار بِاسْم روايته، وهذا هو أصل تسمية السيجار "مونتيكريستو" (Montecristo) الذي لا يزال مشهورًا اليوم. أشكُّ إنْ كان دوما يفكِّر أنَّه سيكون من بين قرَّائه عمَّالُ مصنع للفِّ السيجار في كوبا، لكنَّ إمكانيَّة صياغة الأفكار والمشاعر في كلمات سمحت له بأن يعبر المحيط ويدخل لغةً أخرى، ويزور مكانًا بعيدًا عنه بآلاف الأميال.

تسمح الكلمات للكاتب بأن يقفز فوق أكثر من هُوَّة فاصلة، ويدخل في وعي بشر آخرين. إنَّ الصفقة التي تُبرَمُ ما بين الكاتب والقارئ عادةً ما تحدُثُ في السِّرّ، في مكان وزمان غير معلومَين للشخص الذي أبرمَها. لم أرَ يومًا شخصًا في أثناء قراءته أحَدِ كُتُبي، لكنِّي كثيرًا ما أسمع من القرَّاء الذين يؤكِّدون لي أنَّهم يقرأون. وأنا أتمنَّى أنَّ شيئًا ممَّا أكتب قد يعطي شعورًا بالرِّفقة والاستئناس لمن يَشُكُّون، وتعزية لمن يُعانون، ونِعمة لمن لم يحصلوا على الكثير منها في كنائسهم.

ذات مرَّة تلقَّيتُ رسالةً من إندونيسيا مكتوبةً بإنكليزيَّة ركيكة: "لقد كنتُ أقرأ كتابك «**يسوع الذي لم أكن أعرفه**» *(The Jesus I Never Knew)*. هذه بركات حقيقيَّة. أقرأها ثلاث مرَّات. في مرَّات كثيرة لم أستطع النوم ليلًا وأنا أفكِّر في ما كتبتَه. إنَّ كتابك يساعدني أن أرى يسوع، ليس فقط بوصفه شخصًا عاش ومات على الأرض منذ ٢٠٠٠ سنة، بل بوصفه شخصًا حقيقيًّا قام من الأموات منذ ٢٠٠٠ سنة، ولا يزال مُتاحًا اليوم".

في رحلة إلى لبنان عام ١٩٩٨م، قابلتُ امرأةً قالت لي إنَّها قرأت كتابي "**عندما لا تُمطر السماء**" في أثناء الحرب الأهليَّة اللبنانيَّة. كانت تحتفظ به في ملجأ تحت الأرض يختبئون فيه من الغارات. عندما كانت تشتدُّ نيران المدفعيَّة حول شقَّتها الكائنة في طابقٍ مرتفع، كانت تنزل على الأدراج المظلمة بالاستعانة ببطَّارية صغيرة لتصلَ إلى الملجأ، وهناك تضيء شمعة وتبدأ تقرأ كتابي. لا أستطيع أن أصفَ مدى شعوري بالتأثُّر لما سمعتُه منها. ففي اللحظة التي كان فيها المسيحيُّون يموتون في سبيل إيمانهم؛ وعندما كانت أجمل مدينة في الشرق الأوسط تُحالُ أنقاضًا، سافرَتْ كلماتٌ كتبتُها في شقَّتي في شيكاغو إلى هناك لتعزِّي امرأةً خائفة.

سيِّدةٌ أخرى من بيروت كتبت عن الكيفيَّة التي ساعدَها بها كتابي "**ما أعجب النعمة**" لتغيِّرَ موقفَها من

مقاتلين سرقوا شقّتها. أقرأ هذه الرسائل، وأفكّر في نفسي قائلًا: **لقد كان في ذهني المرض المزمن، وليس الحرب الأهلية. وما كُنت أصارع لاحتماله، كان الجيران الذين يشغِّلون الموسيقا بصوت عالٍ وليس مقاتلين في الحرب الأهليَّة اللبنانيَّة الذين يقتحمون الشقق دون استئذان. ومرَّة تلو الأخرى يُدهشني الله عندما يستخدم كلماتٍ كتبَتْها ذاتي غير النقيَّة، بدوافعها المختلطة لتُثمر بوسائلَ ما كنتُ لأتخيَّلها.**

قال لي صديقٌ ذات مرَّة: "الكلمات التي تكتبها والكُتُب التي تَنشُرُها، مثل أولادك. تفعل معهم أفضل ما تستطيع، لكنْ في النهاية لا تستطيع إلَّا أن تتركهم يعيشون حياتهم الخاصة بطريقتهم، فيذهبون إلى حيث يريدون، ويؤثِّرون كيفما يريدون". كم أنَّ هذا حقيقيٌّ!

يجمعُ هذا الكتاب مختارات من "أولادي وبناتي" الذين كُتِبوا على مدار عقود عدَّة، وظهروا في اثنين وعشرين كتابًا، وخمسٍ وأربعين مقالة، علاوة على بعض الفِقرات غير المنشورة. وعندما أراجع هذه المختارات، فإنِّي أشعر بالعرفان على امتياز العمل بالكلمات التي تستطيع أن تصل إلى أماكن لم أفكِّر بتاتًا بالوصول إليها.

قال أحد الطلبة الذي كان سي. أس. لِويس يعطيه دروسًا في فيلم "**أراضي الظلال**" *(Shadowlands)*: "إنَّنا نقرأ كي نعرف أنَّنا لسنا وحدَنا"، وهذا حقيقيٌّ. ومَن يكتبون منَّا، يفعلون ذلك آملين ألَّا نكونَ وحدنا.

فيليپ يانسي، كولورادو، ربيع ٢٠٠٩م

1) كتاب "عندما لا تمطر السماء" هو من منشورات أوفير للطباعة والنشر. ومن الواضح أنَّ العنوان العربيَّ ليس ترجمةً مباشرةً للعنوان الأصليِّ (الناشر).

ملاحظة للقارئ

يجمع هذا الكتاب ٣٦٦ قراءة مأخوذة من كتابات فيليپ يانسي. وقد حُرِّرت كلُّها لتكونَ متساوية في الطول تقريبًا، علاوةً على بعض التعديلات التحريريَّة التي أُجرِيَتْ على بعضها كي تصيرَ أكثر وضوحًا.

القراءات التي توافق بعض التواريخ ذات الدلالة تحاول أن تخاطبَ الحدثَ الذي تشير إليه التواريخ (مثلًا ٩/١١)، وبعض الموادِّ ذات الصلة يمكن أن نجدَها متزامنة مع تواريخها (مثلًا، تميل الموادُّ ذاتُ المدلول السياسيِّ لأن تكونَ قريبةً من تاريخ الانتخابات، والموادُّ المتعلِّقة بعيد الميلاد تظهر في شهر كانون الأوَّل/ ديسمبر...إلخ). وكذلك تتبعُ بعض القراءات الرزنامة الكنسيَّة، وهذا قد يُحدِثُ مشكلةً؛ فتواريخ بعض المواسم الكنسيَّة تختلف من سنة ميلاديَّة إلى أخرى. لذلك وضعنا هذه الموادَّ بصورةٍ تقريبيَّة لتكونَ قريبةً من التواريخ حيث يُحتمَلُ إقامتها. مثلًا، القراءات التي تشير إلى موت يسوع، تبدأ في الظهور من الثالث عشر من آذار/ مارس وتستمر حتَّى مطلع شهر نيسان/ أپريل.

والوضع المثاليُّ يقترحُ أنَّ على القارئ الذي يتبع رزنامةَ الكنيسة أن يبدأَ هذه القراءات قبل عيد القيامة بأسبوعَين، متخطِّيًا إلى الأمام إلى قراءاتٍ تالية حتَّى يصل إلى التاريخ المنشود. بالمثل، فإنَّ قراءةً بخصوص الصعود ومجموعة من القراءات الخاصَّة بيوم الخمسين وُضِعَتْ في الخامس من أيَّار/ مايو، ومن ١٥-١٨ أيَّار/ مايو، حتَّى لو اختلفَتِ التواريخ الفعليَّة من سنة إلى أخرى.

هناك في نهاية الكتاب، هوامش وصفيَّةٌ تعطي معلومات إضافيَّة عن المصادر الأصليَّة لهذه الاقتباسات.

كانون الثاني/يناير

١. حجر رشيد
٢. العدسة المُكبِّرة للإيمان
٣. اقتراب الله
٤. يسوع البروزاك
٥. الرؤية الجديدة
٦. وجبات فخمة لمصلحة الفقراء
٧. نوال حياة
٨. أصعب مهنة في العالم
٩. مُرشد الظِّلِّ
١٠. لاهوت من نكات قذرة
١١. مشكلة اللذَّة
١٢. لحظات الطَفو
١٣. رؤية المسيَّا
١٤. غير المرغوب فيهم
١٥. خسارة الحروب الثقافيَّة
١٦. بلا طُرُق مُختصرة
١٧. الإرشاد الليليُّ
١٨. نظرة إلى الخلف
١٩. الحضور
٢٠. الصلاة بالطريقة السليمة
٢١. يسوع ونورمان العاصف
٢٢. التطويبات المعكوسة
٢٣. مكافآت مستقبليَّة
٢٤. إله عادل في النهاية
٢٥. مراهنة الله
٢٦. كنيسة منتصف الليل
٢٧. مُعلِّمون مدمنو خمر
٢٨. الاهتمام بالنَّكِرات
٢٩. التواضع الحقيقيُّ
٣٠. أيادٍ لا يمكن إسكاتُها
٣١. صلاحٌ يُذهِب العقل

حجر رشيد

خُذ خطوة إلى الوراء قليلًا وتأمَّل الأمر من وجهة نظر الله. لكَونِهِ روحًا لا يحدُّه الزمان أو المكان، اقترض الله من وقتٍ إلى آخر أشياءَ مادِّيَّة، مثل عُلَّيقة مُشتعلة وعمودٍ من نار، لكي يتركَ انطباعًا واضحًا على كوكب الأرض. وفي كلِّ مرَّة، كان الله يتَبنَّى شيئًا لوقتٍ مُحَدَّدٍ كي يُرسِل رسالة به، ثمَّ يتخطَّاه. أمَّا في يسوع، فقد حدث أمرٌ جديد: أصبح الله واحدًا من مخلوقات الأرض؛ حَدَثٌ غير مسبوق، ولا شبيه له، وفريد تمامًا.

الله الذي يملأ الكون، اخترق ذلك الكون لكي يصبح طفلًا في بيئة زراعيَّة بسيطة. وحاله حال كلِّ الأطفال الرُّضَّع، كان عليه أن يتعلَّم المشي والكلام وارتداء ملابسه بنفسه. في التجسُّد، "أعاق" ابن الله عَمدًا نفسه، مُستبدلًا بالمعرفة الكُلِّيَّة دماغًا بشريًّا تَعَلَّمَ أَصوات اللهجة الأراميَّة صوتًا صوتًا، واستبدل بالحضور الكامل، ساقين بشريَّتين لا يحملانه بعيدًا واستبدل به أحيانًا حمارًا. كما استبدل بالقوَّة الكُلِّيَّة ذراعَين يقويان على نَشرِ الخشب، لكن لا يقويان على الدفاع عن النفس. وبدلًا من أن يمتدَّ بصره ليرى مئة مليار مجرَّة في الوقت نفسه، لم يصل بصره لأبعد من الزقاق الضيِّق في قريته في الناصرة، أو كُومة من الحجارة في صحراء اليهوديَّة القاحلة، أو شارع مزدحم في العاصمة أورشليم.

وبفضل يسوع، فإنَّنا لا نتشكَّك في رغبة الله في العلاقة بالبشر. هل يريد الله بالفعل اتِّصالًا حميمًا بنا؟ لقد تخلَّى يسوع عن السماء ليؤكِّد ذلك. وبصورة شخصيَّة، أسَّس الجسر الذي يصل الله بالبشر، بين العالم المرئيِّ والعالم غير المرئيّ.

يُشبِّه ريتشارد نيبور (H. Richard Niebuhr) إعلان الله في المسيح بحجر رشيد تشبيهًا دقيقًا؛ فقبل أن يُكتَشَف هذا الحجر، لم يستطع الدارسون سوى أن يحزروا معاني الرسوم الهيروغليفيَّة. لكن في يوم تاريخيٍّ لا يُنسى، اكتُشِف هذا الحجر الأسود الذي كُتِبَ عليه النصُّ ذاته بثلاث لغات مختلفة. وبمقارنة الترجمات جنبًا إلى جنب، استطاع العلماء إتقان اللغة الهيروغليفيَّة، واستطاعوا أن يروا بوضوح ما كانت رؤيته ضبابيَّة في السابق.

ويستمرُّ نيبور ليقول إنَّ يسوع أتاح لنا أن "نعيد بناء إيماننا"؛ إذ يمكننا أن نثق بالله لأنَّنا نثق بيسوع. وإذا شكَّكنا في الله، أو وجدناه غير مفهوم، وغير قابل للإدراك، فإنَّ أفضل علاج هو أن نتفرَّس في يسوع مباشرة، حجر رشيد الإيمان.

من كتاب: محاولة اللقاء مع إله غير منظور

٢ كانون الثاني/يناير

العدسة المُكبِّرة للإيمان

إنَّني أيضًا أتصوَّر أن يسوع أشبه "بالعدسة المُكبِّرة" لإيماني، وهذه عبارة تحتاج إلى بعض الشرح. أفخَرُ أنَّني أمتلك قاموس أكسفورد للغة الإنكليزيَّة، الذي يحتوي على كلِّ كلمة في اللغة الإنكليزيَّة. وبانتمائي إلى إحدى رابطات الكتابة، حصلت على نسخة من القاموس موجودة في كتاب واحد مقابل ٣٦,٩٥ دولارًا فقط. وتحتوي النسخة على نصِّ القاموس بأكمله، لكن مع عيب واحد: أنَّ حجم الكتابة صغير جدًّا، حتَّى إنَّه لا أحدَ يستطيع قراءته بالعين المجرَّدة، ممَّا اضطرَّني إلى شراء عدسة مكبِّرة ممتازة من النوع الذي يستخدمه العاملون في مجال الجواهر النفيسة، وهي بحجم الطبق الكبير، ومُركَّبة على حاملٍ دوَّار. وباستخدام هذه العدسة، مع مساعدة عدسة أخرى أصغر تُمسك باليد، يمكنني أن أدخل عالم الفروق شديدة الدقَّة بين ألفاظ اللغة الإنكليزيَّة.

لقد تَعَلَّمتُ الكثير عن العدسات المُكبِّرة في أثناء استخدام قاموسي؛ فعندما أسلِّط العدسة على الكلمة، فإنَّها تبدو واضحة ونَضِرَة في المنتصف، أي في البؤرة، لكن تصير الكلمات مشوَّشة أكثر فأكثر كلَّما اتَّجاهنا من المركز إلى الأطراف. وبصورة موازية، فإنَّ يسوع صار بؤرة إيماننا، لذا أتعلَّم باستمرارٍ أن أُحافظ على عدسة إيماني مُركَّزةً عليه.

لقد عشت على الأطراف كثيرًا في رحلتي الروحيَّة، وكذلك في مهنة الكتابة، أتأمَّل أسئلة لا يمكن إجابتها عن مشكلة الألم، وغموض مفهوم الصلاة، والتدبير الإلهيِّ في مقابل الإرادة الإنسانيَّة الحرَّة، وغيرها من الأمور. وعندما أفعل ذلك، تصبح رؤيتي مشوَّشة. وفي تلك الأحوال، عندما أنظر إلى يسوع، يعود كلُّ شيء إلى سابق وضوحه.

أعترف أنَّ الكثير من العقائد المسيحيَّة المُستقرَّة تضايقني؛ فماذا عن الجحيم؟ وماذا عن الذين ماتوا ولم يسمعوا رسالة المسيح؟ وأعود إلى إجابة الأسقف أمبروز (Ambrose)، الذي أثَّر في حياة القدِّيس أغسطينوس، الذي سُئِل راقدًا على فراش الموت، إن كان يخاف مواجهة دينونة الله. أجاب أمبروز مبتسمًا: "إنَّ لدينا سيِّدًا صالحًا". وهكذا فإنَّني أتعلَّم أن أثق بالله في شكوكي وصراعاتي وذلك بأن أحاول أن أعرف يسوع. قد يبدو ذلك نوعًا من التمَلُّص من المواجهة، لكنَّني أعتقد أنَّه يعكس محوريَّة يسوع في كلِّ كتابات العهد الجديد. علينا أن نبدأ به ليكونَ نُقطَةً مِحوَرِيَّة نتحرَّك منها إلى الأطراف.

بالنظر إلى يسوع، أحصل على بصيرة نحو الله وما يشعر به حيال ما يحدث هُنا في الأسفل؛ إذ إنَّ يسوع يعبِّر عن جوهر الله بطريقة لا نستطيع أن نُسيء تفسيرها.

من كتاب: محاولة اللقاء مع إله غير منظور

٣ كانون الثاني/يناير

اقتراب الله

ما الفرق الذي أحدثه يسوع؟ من جهتنا ومن جهة الله، أتاح يسوع نوعًا من الحميميَّة لم يكن موجودًا من قبل. في العهد القديم، كان من يلمس تابوت العهد من بني إسرائيل يسقط ميتًا؛ لكن من كانوا يلمسون يسوع، ابن الله الذي جاء في الجسد، كانوا يُشفون. اليهود الذين لا يسمحون لأنفسهم أن ينطقوا أو حتَّى يَتَهَجَّوا حروفَ اسمِ الله، علَّمهم يسوع طريقة جديدة بها يخاطبون الله: أبا أو "بابا". لقد اقترب الله في يسوع كما لم يقترب قبلًا.

في كتاب اعترافات القدِّيس أغسطينوس، يصف أغسطينوس كيفيَّة تأثُّره بهذا القُرب الإلهيّ؛ إذ كان قد تعلَّم من الفلسفة اليونانيَّة أن الله كاملٌ وغير محدود، خارجٌ عن الزمن وغير قابل للفساد، لكنَّ أغسطينوس لم يفهم كيف يمكن أن يدخلَ شخص مهووس بالجنس وغير منضبط مثله في علاقة بالله. جرَّب أغسطينوس مذاهب وفلسفات عدَّة كانت شائعةً في عصره لكنَّها لم تُشبعه، حتَّى قابل في النهاية يسوعَ بحسب الإنجيل، الجسر الممتدَّ بين إنسانٍ عاديٍّ، والإله الكامل القدُّوس.

تكشف الرسالة إلى العبرانيِّين هذه الخطوة المُبهرة لتحقيق الحميميَّة مع الله، فيسرد الكاتب في البداية ما كان مطلوبًا ممَّن يطلبون الاقتراب إلى الله في زمن العهد القديم: مرَّة في السنة، في يوم الكفَّارة، يستطيع شخص واحد، وهو رئيس الكهنة، أن يدخل قدس الأقداس. وكان هذا الطقس يتضمَّن اغتسالًا طقسيًّا عدَّة مرَّات، وملابس خاصَّة، وخمس ذبائح حيوانيَّة منفصلة. ومع كلِّ ذلك، كان رئيس الكهنة يدخل قدس الأقداس في رُعب شديد لابسًا أجراسًا في ثوبه، رابطًا حبلًا حول كاحله حتَّى إذا مات وتوقَّف صوت الأجراس، يسحب الكهنة الآخرون جثَّته بذلك الحبل.

أمَّا الرسالة إلى العبرانيِّين فتقدِّم مقارنة حَيَّة: نستطيع الآن أن "نتقدَّم بثِقة إلى عَرشِ النعمَة" بلا خوف. الجرأة بالتقدُّم إلى قدس الأقداس، صورةٌ لا مثل لها في إصابة القارئ اليهوديِّ بالذهول. لكن عندما مات يسوع، انشقَّ حجاب الهيكل من أعلى إلى أسفل، فاتحًا الطريق إلى قدس الأقداس. لذلك فإنَّ كاتب العبرانيِّين يكتب تبعًا لذلك قائلًا: "لنتقدَّم بثقة إلى الله".

هذا ما يُسهم به يسوع في مشكلة الإحباط نحو الله: بفضله، نستطيع أن نأتي إلى الله مباشرةً. لا نحتاج إلى وسيط بشريٍّ؛ لأنَّ الله نفسه صار الوسيط إلى نفسه.

من كتاب: عندما لا تمطر السماء

٤ كانون الثاني/يناير

يسوع البروزاك

تُرى كيف تكون نتائج يسوع إذا أجرى اختبارًا للشخصيَّة؟

تختلف الشخصيَّة التي تظهر لنا في صفحات الإنجيل بصورةٍ جذريَّة عن تلك التي كنت أسمع عنها بينما كنتُ أكبُرُ. إنَّها الصورة التي ألاحظها في بعض من أفلام هوليود القديمة عن يسوع. في هذه الأفلام، كان المُمثِّل الذي يؤدِّي شخصيَّة يسوع يُرَدِّد الحوار الخاصَّ به بصوت منتظم النبرة دون أيِّ مشاعر، ويعيش الحياة كشخصيَّة هادئة وسط شخصيَّات مهتاجة متطرِّفة، لا شيء يزعجه، ويُقَدِّمُ الحكمة بصوت مُسطَّح، ونبرة صوت محسوبة. إنَّه ما يمكن أن يُطلق عليه يسوع البروزاك.[1]

على العكس من ذلك، فإنَّ الأناجيل تقدِّم لنا يسوع رجلًا ذا "كاريزما" قويَّة تجعل الجموع يجلسون حوله ليستمعوا إليه على مدى ثلاثة أيَّام بلا توقُّف وبطونهم خاوية. يسوع الأناجيل يتحرَّك بحماسة ووَجدٍ إذ نراه "يتحنَّن" على الجموع. وتكشف الأناجيل عن طيف واسع من مشاعر يسوع: تعاطُف مفاجئ مع شخص مصاب بالبرص، تهَلُّل بالفرح لنجاح تلاميذه، نوبة غضب نحو الفرِّيسيِّين متحجِّري المشاعر، نَوح على مدينة لم تقبل رسالته، صرخات ألم شديد في جتسيماني وعلى الصليب.

حضرت ذات مرَّة خلوة تنظِّمها إحدى حركات خدمة الرجال، وكانت حول "التلامس مع المشاعر" والخروج من الأنماط المتحفِّظة للذكورة التقليديَّة. وبينما كنت أستمع للرجال يشاركون قصص صراعاتهم للتعبير عن أنفسهم واختبار الحميمة والاستئناس بعضهم بعضٍ، لاحظت كيف أنَّ يسوع عاش حالة من الإشباع الذكوريِّ المثاليِّ، ما زال البشر يصارعون بعده بتسعة عشر قرنًا لكي يصلوا إليها؛ ففي ثلاث مرَّات، على الأقلّ، بكى يسوع أمام تلاميذه، كما لم يُخفِ مخاوفه ولم يتردَّد في طلب المساعدة، فقال لتلاميذه: "نفسي حزينة جدًّا حتَّى الموت". وأضاف: "اسهروا معي". كم قائدًا قويًّا في عصرنا يجعل نفسه مكشوفًا لهذه الدرجة؟

لقد كان يسوع يتواصل بصورة حميمة وسريعة مع من يقابلهم من الناس. سواء كان يتكلَّم مع امرأة عند بئر، أم مع قائدٍ دينيٍّ في حديقة، أم مع صيادٍ على بُحيرة. كان يدخل مباشرة إلى لبِّ الموضوع، وسرعان ما كان هؤلاء الناس يكشفون ليسوع أعماق حياتهم وأسرارهم. لقد كان يسوع يستدعي جوعًا عميقًا من قلوب الناس، حتَّى إنَّهم كان يتجمهرون حوله فقط ليلمسوا ثوبه.

من كتاب: يسوع الذي لم أكن أعرفه

٥ كانون الثاني/يناير

الرؤية الجديدة

لكي آخذ التكليف الإلهيَّ على محمَل الجِدّ، عليَّ أن أتعلَّم أن أنظر إلى العالم بصورة تختلف عن السائد والمألوف، وذلك كما فعل يسوع. وبدلًا من أن أبحث عن الناس الذين يرفعون معنويَّاتي ويؤكِّدون ذاتي، أبحث عمَّن يحتاجون إلى رفع معنويَّاتهم وتأكيد ذواتهم. وبدلًا من التقرُّب إلى الشخصيَّات المهمَّة من أصحاب الموارد لكي يؤدُّوا لي خدمات، أبحث عن الأشخص ذوي الموارد المحدودة؛ وبدلًا من الأقوياء، أبحث عن الضعفاء، والمرضى بدلًا من الأصحَّاء. أليس بهذه الطريقة يصالح الله العالم لنفسه؟ ألم يؤكِّد يسوع أنَّه جاء من أجل الخطاة لا الأبرار؟ من أجل المرضى لا الأصحَّاء؟

يقول مؤسِّس بيوت "الفُلك" (L'Arche) لإعاشة المعاقين ذهنيًّا وتأهيلهم، جان ڤانيير (Jean Vanier) إنَّ الناس ينظرون إليه كأنَّه مجنون، فهو ابن الحاكم العامِّ لكندا الذي تلقَّى تعليمًا ممتازًا، والذي يعيِّن عاملين مؤهَّلين تأهيلًا عاليًا (كان الراهب هنري نوين [Henri Nouwen] واحدًا منهم) لخدمة الأشخاص المعاقين والعَيش وسطهم. أمَّا ڤانيير فيتجاهل منتقديه ويقول إنَّه يفضِّل أن يكون مجنونًا يتبع جهالة الإنجيل على أن يتبع تفاهة قِيَم العالم. علاوةً على ذلك، فإنَّ ڤانيير يصرُّ على أن يحصل الخدَّام أيضًا على فائدة، لا أن يحصل عليها فقط من يخدمونهم. فالمعاقون، مهما كانت درجة إعاقتهم، يتجاوبون مع الحبِّ بصورةٍ فِطريَّة، وعندما يفعلون ذلك فإنَّهم يوقظون أهمَّ ما في الإنسان: الرحمة والسخاء والتواضع والمحبَّة. وهكذا فإنَّهم يُشبعون بالحبِّ من يقدِّمون لهم الحبَّ، ويخدمون من يخدمونهم.

استمتعت في الهند مرَّةً بالعبادة بين مرضى الجذام (البرص). ويجدر بالذكر أنَّ أغلب الأبحاث المتقدِّمة التي جرى التوصُّل إليها في مجال علاج الجذام جاءت نتيجة لعمل الأطبَّاء المُرسلين، الذين كانوا وحدهم راضين أن يعيشوا بين هؤلاء المرضى، ويخاطرون بتعريض أنفسهم لهذا المرض الخطير. ونتيجة لذلك، فإنَّ الكنائس كانت تزدهر في أغلب المراكز الكبيرة لعلاج الجُذام.

كما زُرت في ميانمار بيوتًا لإعالة من فقدوا أسرهم بسبب مرض نقص المناعة المكتسبة (الإيدز)، حيث يحاول المتطوِّعون المسيحيُّون أن يعوِّضوا هؤلاء الأطفال الحنان الذي سرقه منهم هذا المرض. وفي مركز جان ڤانيير في تورنتو، شاهدت قسًّا حاصلًا على شهادة عليا في اللاهوت، يقدِّم رعاية يوميَّة لرجل معاق ذهنيًّا في منتصف العمر لا يستطيع أن يتكلَّم كلمة واحدة. كما أنَّ مِن أكثر الخدمات الكنسيَّة التي حضرتها حماسة وتأثيرًا، تلك التي حضرتها في سجون تشيلي وپيرو. فبين البسطاء والمهمَّشين والمكسورين والمرفوضين، يتأصَّل حضور الله.

من كتاب: إشاعات من عالم آخر

وجبات فخمة لمصلحة الفقراء

بدأ مارسيل روسِل (Marcel Roussel) عمله سنة ١٩٤٩م وسط البيئة الفقيرة التي خلَّفتها الحرب العالميَّة الثانية في فرنسا، وكان مُتأثِّرًا بالأعداد الكبيرة من البشر التي لم تلمس الكنيسة حياتهم وصل روسِل إلى قناعة بأنَّ الكنيسة، بدلًا من أن تبقى في مكانها، يجب أن تذهب إلى المحتاجين، ولا سيَّما في أماكن العمل. ألم يكُن يسوع نجَّارًا وبولس صانع خيام؟ وخَلُصَ روسل إلى هذه الحقيقة: أنَّنا في كلِّ مكان، في السجون وفي الفنادق وفي كلِّ مواقع العمل، يمكننا أن نبدأ حوارًا مع الله. ولتحقيق هذا الهدف عيَّن روسِل مجموعة من النساء الشابَّات للعمل من أجل ذلك الهدف بصفة مرسلات في أماكن العمل.

في البداية، التحقت هؤلاء النساء بأعمالٍ في المصانع، وكُنَّ يجتمعن معًا للصلاة والدراسة. لكن بعد عدَّة سنوات، فكَّر الأب روسِل في فتح مطعمٍ فيه تعيش هؤلاء المُرسلات ويعملنَ و"يُنِرن كأنوارٍ في العالم". كان أوَّل مطعم من هذا النوع باسم "الماء الحيِّ" (L' Eau Vive) وقد افتُتِح سنة ١٩٦٠م، وسرعان ما قاد نجاحه إلى افتتاح فروع أخرى، مثل مطعم "الماء الحيِّ" (Agua Viva) في ليما، وقد تناولتُ العشاء فيه ضِمن زيارة لي هناك سنة ١٩٨٧م. وبدأ هذا المطعم يجتذب الأغنياء وأصحاب التأثير والنفوذ في ليما. كما توجد بعض الإشارات التي تعلن للزائر القصدَ الروحيَّ للمطعم؛ حيث كُتِب على الغلاف الداخليِّ لقائمة الطعام: "يسوع حيٌّ! ولذلك نحن سعداء". وكلُّ مساء، في الساعة العاشرة والنصف تمامًا، تأتي النادلات معًا ليغنين ترنيمة تعبُّديَّة مسائيَّة للضيوف.

علاوةً على هذه الإشارات، تقول الأخت ماري (Marie)، إنَّ العمل نفسه يجب أن يكون هو الشهادة. وتقول: "لا تسألنا عن حياة الصلاة الخاصَّة بنا، انظر إلى الطعام الذي نقدِّمه. هل طبقك نظيف ومُرتَّب بعناية؟ هل يعاملك النادل باحترام ومحبَّة؟ هل تشعر بالسكينة في هذا المكان؟ إن كان الأمر كذلك، فنحن نخدم الله".

وبروح الأخ لورنس (Brother Lawrence)، فإن الخدَّام يطهون، ويخدمون الموائد، وينظِّفون الأرضيَّات، ويعبدون- كلُّ ذلك لمجد الله. لكنَّ العاملات المرسلات أدخلن إضافة جديدة، فهنَّ يقدِّمن وجبات طعام فاخرة، ومن الربح يخدمون الأطفال الفقراء في ليما. لذلك تجد أنَّه في وقت لاحِق من اليوم نفسه، تمتلئ القاعة الأنيقة نفسها بالأمَّهات من الأحياء الفقيرة في ليما حيث يتلقَّين تعليمًا عن أساسيَّات النظافة الشخصيَّة، وتربية الأطفال، والصحَّة الجسديَّة والروحيَّة. وبمجرَّد انتهاء عمل كلِّ أفراد الفريق في المطعم،

يكرِّسون أنفسهم لخدمة الفقراء، وتطبيق برامج التنمية المجتمعيَّة التي تُموَّل من أرباح المطعم.

"وجبات فاخرة لمصلحة الفقراء"، مجلَّة المسيحيَّة اليوم، ١٥ كانون الثاني/ يناير ١٩٨٨م

٧ كانون الثاني/يناير

نوال حياة

"يتمجَّد الله في الإنسان الذي يحيا بصورة كاملة". قال هذه العبارة لاهوتيُّ القرن الثاني للميلاد القدِّيس إيرينايوس، لكن للأسف لا تعكس هذه الصورة حال كثيرين من المسيحيِّين المعاصرين. سواء كان ذلك حقيقيًّا أم لا، فإنَّ المجتمع[2] يرانا بوصفنا مجموعة من المتزمِّتين المكبوتين- أناسًا لا يعنيهم الاحتفال بالحياة، بل كُلُّ هَمِّهِم الإشارة بإصبع الاعتراض.

من أين حصل المسيحيُّون على سُمعة من يكرهون الحياة ويريدون تقليصها بدلًا من تحسينها؟ يسوع نفسه وعد قائلًا: "أمَّا أنا فقد أتيتُ لكي تكون لهم حياة وليكون لهم أفضل [حياة فَيَّاضة]". ما الذي يمنعنا من تحقيق الحياة الفيَّاضة؟

قرَّر الكاتب فريدريك بوشنر (Fredrick Buechner) ذات مرَّة أن يستخدم مواهبه الأدبيَّة ليستكشف حياة القدِّيسين. أوَّل ثلاثة قدِّيسين اختارهم هم برندان (Brendan) وغودريك (Godric) والشخصيَّة الكتابيَّة يعقوب. لقد أدهشته هذه الشخصيَّات؛ لأنَّه كلَّما بحث في حياتهم، اكتشف أشياء مخفيَّة. وتساءل: ما الذي جعل هذه الشخصيَّات الثلاث تتمتَّع بالقداسة؟ وفي النهاية، استقرَّ على الكلمات التالية ليصفهم بها: أنَّهم كانوا ممَّن "يبثُّون الحياة" في الذين حولهم. لقد كانوا شخصيَّات حماسيَّة، تحيا من قلبها، وتُخاطِر بشجاعة، وهكذا كانوا يزيدون مَن حولهم شعورًا بالحياة.

عندما استمعت إلى بوشنر يقدِّم هذا التعريف للقداسة، تذكَّرت مباشرة صديقي بوب (Bob) الذي كان والداه يشعران بالقلق حيال حياته الروحيَّة لأنَّه لا يقضي سوى وقتٍ قليلٍ "مع الكلمة" وفي الكنيسة. لكنَّني لم أقابل إنسانًا يتمتَّع بالحيويَّة مثله؛ فقَدْ كان يرعى الحيوانات الضالَّة! ويقوم بخدمات نجارة لأصدقائه، ويتسلَّق الجبال، ويقفز بالمظلَّات تعلَّم الطبخ، وبنى منزله بنفسه. وبالرغم من أنَّ بوب نادرًا ما يستخدم الكلمات الدينيَّة، فقد لاحظتُ أنَّ كلَّ مَن حوله يحبُّونه، بمن فيهم أنا، وكان كلُّ مَن يقضي وقتًا معه يشعر بأنَّه أكثر حيويَّة. لقد كان يشعُّ فرحًا في العالم، واحتفالًا بالحياة مثلما يمكِنُك أن تعتقد أن الله يشعر تجاه العالم الذي خلقه. وعلى الأقلِّ باستخدام تعبير بوشنر، لقد كان بوب قدِّيسًا.

لقد عرفت كثيرين ممَّن ينتمون إلى ذلك النوع من المسيحيِّين، الذين يَبُثُّونَ حَياةً في الذين حولهم. كان مكتشف اختبار الشوكة (Tine) للكشف عن السلِّ، مسيحيًّا مشيخيًّا تقيًّا اسمه جاك ماكونيل (Jack McConnell)، كما أنَّه ساعد في تطوير عقار التايلينول والتصوير بالرنين المغناطيسيِّ (MRI). وفي النهاية، قرَّر أن يكرِّس تقاعده لتوجيه جهود زملائه من الأطبَّاء المتقاعدين لعمل عيادات لتقديم الخدمة الطبِّيَّة للفقراء.

وفي ما وراء البحار، تعرَّفت إلى مرسَلين يصلِحون مركباتهم بأنفسهم، ويجيدون عدَّة لغات، ويدرسون النباتات والحيوانات المحلِّيَّة، ويعطون المرضى الحُقَن في غياب الأطبَّاء. وعادة ما لا يشعر هؤلاء الأشخاص الذين يَشِعُّون بالحياة، بالانتماء المريح إلى الكنائس الأميركيَّة الكبيرة. لكنَّهم الأكثر تمثيلًا للحياة الفيَّاضة التي وعد بها المسيح.

عمود "الصفحة الخلفيَّة"، مجلَّة المسيحيَّة اليوم، ٢٣ تشرين الأوَّل/ أكتوبر ٢٠٠٠م

٨ كانون الثاني/يناير

أصعب مهنة في العالم

تناولت العشاء ذات مرَّة في بيت أحد المنتمين إلى جماعة الآميش (Amish)، حيث سمعت منهم عن طريقتهم الفريدة في اختيار راعٍ لكنيستهم. في ذلك الجزء من البلاد، قليلون جدًّا من الآميش يحصلون على تعليم يتجاوز الصفَّ الثامن (الإعداديَّ)، كما لا يحصل أيٌّ منهم في الغالب على تعليم أو تدريب لاهوتيّ. لاختيار الراعي، تصوِّت كلُّ الرعيَّة على أسماء الأشخاص الذين لديهم إمكانيَّة رعويَّة، وكلُّ من يحصل على ثلاثة أصوات فما فوق يتقدَّمون ويجلسون حول منضدة حيث يجدُ كلٌّ منهم كتاب ترانيم موضوعًا أمامه، وداخل الكتاب يجد واحدٌ منهم بطاقة تفيد بتعيينه الراعي الجديد. وعلى مدى السنتَين التاليتَين، على الراعي الجديد أن يعظ عظتَين في الأسبوع كلٌّ منها نحو تسعين دقيقة.

وعندما سألت صديقي الآميش: "ماذا لو لم يشعر الراعي المختار بأنَّه مؤهَّل؟". نظر إليَّ بِحَيرة، وأجاب: "إذا شعر بأنَّه مؤهَّل، فلا نريده. إنَّنا نريد شخصًا متواضعًا ينظر إلى الله".

لا أنصح بهذه الطريقة في دعوة الرُّعاة (مع أنَّها تشابه طريقة العهد القديم في إلقاء القرعة)، لكنَّ تعليقه الأخير جعلني أفكِّر. لقد قال توماس ميرتون (Thomas Merton) ذات مرَّة إنَّ أغلب ما نفعله، نحن الرعاة، من تعليم الأشخاص، وإسداء النصح والمشورة لهم، والصلاة من أجلهم ما هي إلَّا أمور يجب أن تفعلها كلُّ الرعيَّة بعضها مع بعض.

هل أصبح تركيزنا المعاصر على الوصف الوظيفيِّ والكفاءة المهنيَّة، يجبرنا على إهمال المواصفات الأهمِّ للراعي، أي الاحتياج لأن يعرف الله؟ أذكر أنَّ القائد الهندوسيَّ غاندي، الذي كان يقود أكثر من مليار إنسان، حتَّى في خضمِّ المباحثات الساخنة حول الاستقلال عن التاج البريطانيِّ، رفض أن يتنازل عن مبدئه الذي بمقتضاه كان يكرِّس كلَّ يوم اثنين للصمت. لقد كان يعتقد أنَّ الفشل في إكرام ذلك اليوم من التغذية الروحيَّة سوف يجعله أقلَّ فاعليَّة طَوال الأيَّام الستَّة الأخرى.

يدفعني هذا لأتساءل: كيف سيصبح قادتنا الروحيُّون إذا أعطيناهم يومًا في الأسبوع من الصمت، والتفكير العميق والتأمُّل، والدراسة الشخصيَّة؟ وكيف ستزداد كفاءة كنائسنا عندما نضع الصحَّة الروحيَّة للراعي، لا كفاءته المهنيَّة، لتكونَ الأولويَّة الأولى عندنا؟

عمود "الصفحة الخلفيَّة"، مجلَّة المسيحيَّة اليوم، ٢١ أيَّار/ مايو ٢٠٠١م

٩ كانون الثاني/يناير

مُرشد الظِّلّ

التقيتُ الكاتب الإنكليزيَّ سي. أس. لويس (C. S. Lewis) للمرَّة الأولى في ثلاثيَّة روايته الفضائيَّة. لقد كان لها تأثير عميق في حياتي، إذ جعلت الفائق للطبيعة يبدو قابلًا للتصديق حتَّى إنِّي لم أستطع إلَّا أن أتساءل: ماذا إذا كان ذلك حقيقيًّا؟

التحقتُ بالجامعة في أواخر ستِّينيَّات القرن العشرين، بعد وفاة لويس سنة ١٩٦٣م بسنوات قليلة. وصارعت مع كُتُبِهِ كما يُصارع الإنسانُ خَصمًا في مُناظرة. وبتردُّد، شعرتُ بنفسي أنجذب، كما حدث مع لويس نفسه، وحُملت إلى ملكوت الله وأنا أصرخ وأركل بقدميَّ. ومنذ ذلك الحين ظلَّ لويس رفيقي الدائم، كأنَّه مرشد يجلس في الظِّلِّ خلفي يشجعني أن أُحسِّن من أسلوب كتابتي، وتفكيري ورؤيتي.

علَّمني لويس أسلوبًا لمُقاربة الأشياء، أحاول أن أتَّبعه في كتاباتي. وفي ذلك أقتبسُ وليم جيمس (William James): "في مجال الدين وما هو فائق للطبيعة، يُصبح منطقنا المحكيُّ مُقنعًا فقط عندما تتأثَّر مشاعرنا غير المحكيَّة نحو الواقع منجذبةً إلى تلك النتيجة المنطقيَّة ذاتها". وبكلمات أخرى، فإنَّنا نادرًا ما نقبل طرحًا منطقيًّا لم يتلامس في الوقت نفسه مع حدسنا المباشر نحو الحقيقة. والتحدِّي الذي يواجهه الكاتب هو أن يخاطب هذا الحَدس المباشِر، كما فعل لويس فِيَّ في ثلاثيَّة رواية الفضاء قبل حتَّى أن أقرأ كتبه الدفاعيَّة.

لقد كانت خلفيَّة لويس في الإلحاد والشكِّ تعطيه دائمًا فهمًا وتعاطفًا مع القرَّاء الذين لا يقبلون كلامه، إذ دخلَ هو نفسه في شدٍّ وجذب كبير مع الله، واكتشف في النهاية أنَّ الإله الذي في الطرف الآخر من الحبل، مختلفٌ تمامًا عمَّا كان يظنّ.

وبالمثل، كان عليَّ أنا أيضًا أن أتغلَّب على صورةٍ لله، شوَّهتها كنيسة غاضبة ناموسيَّة. لقد صارعت بشدَّة ضدَّ صورة الله تُصوِّره متنمِّرًا كونيًّا متربِّصًا بالبشر، لكَي أكتشف أنَّ الله هو إله الرحمة والنعمة.

أشكُّ أنَّ لويس توقَّع النجاح الجامح لكتاباته والأفلام المبنيَّة عليها، والمنتجات الكثيرة المستوحاة من أفكاره، والتي انتشرت على نحو ذائع الصِّيت. إذا كان قد أُخبِر بهذا وهو على قيد الحياة، لجَزَعَ وتراجعَ؛ فقد كان يقول دائمًا إنَّنا نحن معشر الكُتَّاب لسنا أسماءً، بل مُجرَّد صفات، نشيرُ إلى الاسم الكبير للحقّ. وهذا ما فعله لويس، بكلِّ أمانة وبراعة، ولكونه حقَّق هذا، فإنَّ مئات الآلاف من الناس عرفوا ذلك الاسم، بمن فيهم أنا.

عمود "الصفحة الخلفيَّة"، مجلَّة المسيحيَّة اليوم، عدد تمُّوز/ يوليو ٢٠٠٨م

١٠ كانون الثاني/يناير

لاهوت من نكات قذرة

تمتَّع سي. أس. لويس بالموهبة الأدبيَّة التي تمكِّنه أن يصيغ فكرته في سطر واحد. وذات مرَّة قال ببساطة شيئًا كهذا: في غياب أيِّ دليل آخر، يمكن إثبات أساسيَّات اللاهوت الطبيعيِّ من ظاهرتَين بشريَّتَين: النكات القذرة وموقف الفرد من الموت.

لنبدأ بالنكات القذرة. تتمحور هذه النكات بصورةٍ خاصَّة حول أمرَين: الإخراج والتكاثر، وهما اثنتان من أكثر العمليَّات "طبيعيَّة" على وجه الأرض؛ لكنَّنا نتعامل معهما بتعالٍ وخجل وكأنَّهما غير مألوفتين، بل فكاهيَّتان. ومع أنَّها وظائف نشترك فيها مع كلِّ الحيوانات، فإنَّها تبدو غريبة للبشر.

ومن جهة الموت، فإنَّ البشر يتصرَّفون بصورة أبعد ما تكون عن الحيوانات في حضوره. إذ تتعامل الطبيعة مع الموت بصورةٍ طبيعيَّة تمامًا، أمَّا البشر، فوحدهم يتعاملون معه بصدمة واشمئزاز، كما لو كُنَّا لا نستطيع اعتيادَ هذه الحقيقة الكونيَّة المتكرِّرة.

ويقترح لويس أنَّ هذه السِّمةَ البشريَّة (مثل ظاهرة الضمير التي كثيرًا ما يجري تناولها في هذا الشأن) تكشف عن حقيقة ذلك الشقاق داخل البشر. كلُّ إنسان هو روح مخلوقة على صورة الله، لكنَّها مرتبطة بجسد مادِّيّ، فتأتي النكات القذرة والهوس بالموت لتكشف إحساسًا بالقلق وعدم الانسجام فينا بينما نمكث في هذه البيئة. علينا فعلًا أن نشعر بعدم التوافق، لأنَّنا في نهاية الأمر، كائنات أبديَّة تعيش في أوضاع فانية. ونفتقر إلى الإحساس بالوحدة الداخليَّة لأنَّه قد انفتح فينا مُنذ زمن طويل شقٌّ كبير بين كيانَيْنا، الأبديَّ والفاني؛ ويُعزي اللاهوتيُّون هذا الشقَّ إلى سقوط الإنسان.

وبحسب الرؤية الكتابيَّة للبشريَّة، من الطبيعيِّ أنْ نخجل من ذكر الإخراج ونخاف من الموت؛ فمثل هذَين العملَين يبدوان غريبَين لأنَّهما كذلك فعلًا لكائنات روحيَّة مثلنا. في كلِّ الأرض، لا يوجد غيرنا مثالًا لانسكاب الروح الأبديَّة في المادَّة الفانية المحدودة. والقلق الذي نشعر به ربَّما يكون هو الشعور البشريَّ الأدقَّ، الذي يذكِّرنا أنَّنا لسنا "في بيتنا" هنا.

ويستخدم سي. أس. لويس صيغة مبالغة بقوله إنَّه رغم صعوبة أن يستخرج المرء لاهوتًا جوهريًّا كهذا من النكات القذرة ومن التوجُّه من الموت، فإنَّ من الأصعب إنكار كلِّ أشكال اللاهوت الطبيعيِّ في وجه هذه الشائعات التي تنمُّ على سموِّنا ومثيلاتها.

من كتاب: كُنتُ أتساءَل فقط

١١ كانون الثاني/يناير

مشكلة اللذَّة

لماذا يُعدُّ الجنس متعة؟ لماذا الأكل متعة؟ لماذا توجد ألوان؟ منذ أيَّام، بعد أن قرأت آخر كتاب عن "مشكلة الألم" (وقد قرأت الكثير منها)، راودتني فكرة، لماذا لم أرَ كتابًا عن مشكلة اللذَّة؟ ولم أقابل فيلسوفًا يجول مفكِّرًا مُتحيِّرًا بشأن السؤال الأساسيِّ: لماذا نختبر اللذَّة؟

من أين تأتي اللذَّة؟ يبدو هذا لي سؤالًا كبيرًا، وكأنَّه المقابل الفلسفيُّ، المُوَجَّه إلى المُلحِدين، مقابل سؤال الألم المُوَجَّه إلى المَسيحيِّين. أليس على الملحدين والإنسانيِّين العلمانيِّين، التزامٌ مساوٍ لشرح أصل اللذَّة في عالم، بحسب رأيِهِم، يحكمه غياب المعنى والمصادفة؟

شخصٌ واحد، على الأقلّ، واجه الأمر بصورة مباشرة في كتابه الذي لا غنى عنه "**الإيمان القويم**"[3]، الذي فيه تتبَّع جي. كاي. تشسترتون (G. K. Chesterton) حقيقة أنَّ سبب اهتدائه هو شخصيًّا للمسيحيَّة كان قضيَّة اللذَّة. وذلك لأنَّه وجد أنَّ الفلسفة المادِّيَّة ضعيفة جدًّا في تفسيرها لذلك الإحساس بالدهشة واللذَّة الذي أحيانًا ما يميِّز الحياة في هذا العالم- إحساسٍ يعطي ما يشبه البُعد السحريَّ لبعض الممارسات البشريَّة البسيطة مثل الجنس، وولادة الأطفال، والإبداع الفنِّيّ.

إن اللذَّة تُمثِّل خيرًا عظيمًا وخطرًا جسيمًا في الوقت نفسه؛ فإنَّنا إذا بدأنا بالسعي وراء اللذَّة بوصفها هدفًا في حدِّ ذاته، فقد نفقد في الطريق إلى ذلك رؤية ذاك الذي أعطانا هذه العطايا، مثل الرغبة الجنسيَّة، وبراعم التذوُّق في اللسان، ومركَز اللذَّة في الدماغ، والقابليَّة لتقدير الجمال. وكما يخبرنا سفر الجامعة، فإنَّ التكريس التامَّ للَّذَّة في حدِّ ذاتها، سوف يؤدِّي في النهاية، وبصورة عكسيَّة، إلى حالة من اليأس التامّ.

اشتُهِر المسيحيُّون بصورةٍ أو بأُخرى بأنَّهم مضادُّون للَّذَّة، هذا مع أنَّهم يؤمنون بأنَّ اللذَّة هي من اختراع الخالق نفسه. إنَّ لدينا، نحن المسيحيِّين، اختيارًا: أن نقدِّم أنفسنا بوصفنا أشخاصًا متزمِّتين ومُملِّين تَخَلَّوا عن نصف المتعة التي في الحياة لكونهم يُجِدُّونَ من انغماسهم في لذَّة الجنس والأكل وغيرها من اللذَّات الحسِّيَّة، أو أن ننطلق للاستمتاع باللذَّة إلى النهاية، وذلك يعني الاستمتاع بها كما قصد الخالق.

لن يقبل الجميع الفلسفة المسيحيَّة للذَّة بوصفها عطيَّة إلهيَّة يُستَمتَع بها بأفضل صورة في إطار حدود مقصودة من الخالق؛ فقدْ يتهكَّم بعض من المتشكِّكين على أيِّ شكل من أشكال الحدود أو التقنين. لكنَّ لديَّ لهؤلاء المتشكِّكين، بعض الأسئلة البسيطة: لماذا الأكل مُمتع؟ لماذا توجد ألوان؟ ما زلت أنتظر شرحًا وافيًا لا يتضمَّن وجود الله.

من كتاب: كُنتُ أتساءَل فقط

١٢ كانون الثاني/يناير

لحظات الطَّفو

لن أنسى ما حييت تلك المقابلة مع القوَّة العجيبة للفنّ لمَّا زرت روما؛ ففي اليوم الأوَّل، استيقظت قبل الفجر بوقت كافٍ، واستقللتُ الحافلة إلى نهر التيبر (Tiber) الواقع مباشرة خارج مدينة الڤاتيكان. ثُمَّ وقفت على الجسر المُزيَّن بأعمدةٍ نحت فيها تماثيل الملائكة بيَدِ بيرنيني (Bernini) لأشاهد شروق الشمس. وببطء وهدوء، تمشَّيت عابرًا عدَّة بنايات لأصل إلى كنيسة القدِّيس بطرس. وتجوَّلت في مساحاتها الهائلة في وقت كان غايةً في الهدوء لدرجة أنَّ كلَّ خطوة من خطواتي كان يتردَّد صداها بين جدرانها الجميلة. وباستثناء بعض الراهبات التقيَّات اللاتي كُنَّ ساجدات يُصلِّين، كُنتُ بمفردي حينها.

وبعد فترة، صعدت السلالم إلى سطح الكنيسة، الذي منه أمكنني تفحُّص التماثيل والنظَر من فوق إلى الميدان بأكمله، فرأيت طابورًا طويلًا يتلوَّى خارجًا إلى الميدان. لم يكونوا سائحين، وإنَّما فرقة ترتيل مكوَّنة من مئتين من المغنِّين الأكْفاء الذين جاءوا بالحافلة من ألمانيا. وبينما كانوا يتجمَّعون، كنت أتابع من شُرفة القُبَّة التي صمَّمها مايكل أنجلو حتَّى كَوَّنَت الفرقة دائرةً كبيرة تحتي مباشرة، وبدأوا يرنِّمون بعضَ الكلمات دون مصاحبة آلات موسيقيَّة كانت باللغة اللاتينيَّة، وبعضها بالألمانيَّة. وداخل هذا المخبأ الرائع تحت القُبَّة الهائلة التي تُهيِّئ أفضل وضع للصوتيَّات، شعرت بأنَّني مُعلق وسط موسيقاهم مثل من طفى على سطح المياه، وكأنَّني إذا رفعت يداي، ستحملني موسيقاهم.

لقد كان مايكل أنجلو بلا منازع أفضل فنَّان عاش على وجه الأرض، وقد اعترف في مرحلة متأخِّرة من حياته أنَّ أعماله الفنِّيَّة زاحمت إيمانه الشخصيَّ، وعندما كانت حياته تقترب من نهايتها كتب هذه الكلمات:

هذا الوَجد الغاشم
جعلني أتَّخذ من الفنِّ إلهًا ومَلكًا لحياتي
لكنَّني مع الوقت أدركت حجم الخطأ الفادح
وكيف أنَّ رغبة الإنسان الجامحة يمكن أن تحمل معها بؤسه.
لقد سرقت منِّي تفاهات العالم
الوقت الذي كان يمكن أن أعطيه لكي أتأمَّل في إلهي.

ربَّما. لكنَّ مايكل أنجلو وأمثاله، منحونا بعملهم الفنِّيِّ الشاقِّ أن نتحوَّل نحنُ عن تفاهات العالم، وأعطونا الوقت لكي نتأمَّل عن إلهنا. وإنَّني، في تلك البُرهة القصيرة داخل كنيسة القدِّيس بطرس، سَكنتُ فضاءً مجيدًا ليس على هذه الأرض، بل هي لحظة من الزمن، ليست من هذا العالم. لقد صنع بي الفنُّ صنائعه.

من مقال "ما يمكنك ولا يمكنك أن تفعله"، موقع فيرست ثينغز، شباط/ فبراير ٢٠٠٩م

١٣ كانون الثاني/يناير

رؤية المسيَّا

قرأت سنة ١٩٩٣ تقريرًا إخباريًّا عن "رؤية المسيَّا" في الجزء المُسمَّى "كراون هايتس" (Crown Heights) في بروكلين، نيويورك حيث يعيش عشرون ألفًا من المنتمين إلى أحد مجتمعات اليهود المتديِّنين (الحسيديم). وفي سنة ١٩٩٣م اعتقد عدد كبير منهم أنَّ المسيَّا كان يقيم بينهم في شخص الحاخام مناحيم مندل شنيرسون (Menachem Mendel Schneerson).

انتشرت الأخبار عن الظهور العلنيِّ لهذا الحاخام مثل النار في الهشيم في شوارع هذه المنطقة، وسرعان ما اندفع أبناء هذه الجماعة بمعاطفهم السوداء، وضفائر شعرهم اللولبيَّة ليتجمَّعوا على جَانِبَي الطريق إلى المجمَع حيث كان هذا الحاخام معتادًا أن يُصلِّي.

كان هذا الحاخام يبلغ من العمر واحدًا وتسعين سنة، وقد أصابته جلطة في السنة السابقة ولم يعد قادرًا على الكلام منذ ذلك الوقت. وعندما أُزيح الستار أخيرًا وحضر الحاخام، رأى المتجمهرون على جانِبي الطريق رجلًا هزيلًا ذا لحية طويلة لم يستطع أن يفعل شيئًا سوى أن يلوِّح، ويومئ برأسه ويحرِّك حاجبيه. لكن لم يمنع هذا الحضورَ من الغناء بصوتٍ واحد "يعيش سيِّدنا ومعلِّمنا، وملكنا المسيح، إلى الأبد". وتعالت الأصوات حتَّى أشار الحاخام إشارة غامضة بيده، ثمَّ أُسدِلَ الستارُ عن المشهد. بعدها راحوا يغادرون ببطء، وهم يتذوَّقون اللحظة في حالة من النشوة.

عندما قرأت هذا التقرير الأخباريَّ أوَّل مرَّة كدت أضحك بصوت عالٍ- مسيحٌ مُسِنّ أخرس في بروكلين؟ (تُوُفِّي سنة ١٩٩٤م) ثمَّ صدمتني الفكرة: إن ردَّ فعلي على الحاخام شنيرسون مطابق لردِّ فعل الشعب في القرن الأوَّل على يسوع. مَسِيّا من الجليل؟ ابن نجَّار؟ فقط؟

جعلني هذا الموقف المُتَهَكِّم الذي اتَّخذتُهُ نحو الحاخام وأتباعه أدرك طبيعة ردود الفعل التي واجهها يسوع طوال حياته. كان جيرانه يقولون: "أليست أمُّه مريم، وإخوته يعقوب ويوسف، وسمعان ويهوذا؟ من أين أتى هذا الإنسان بتلك الحكمة وهذه القوى المعجزيَّة؟" كما تهكَّم بعض المواطنين وهم يقولون: "الناصرة؟ أمن الناصرة يخرج شيءٌ صالح؟". حتَّى أسرته كانت تحاول أن تعزله عن الناس، معتقدين أنَّه كان مختلًّا. كما أنَّ القادة الدِّينيِّين حاولوا أن يقضوا عليه. أمَّا الجماهير، فكانت متقلِّبة، تارَّة يقولون إنَّه "مجنون أو فيه روح شرِّير"، وتارَّة يحاولون أن يختطفوه ليجعلوه ملكًا.

من كتاب: يسوع الذي لم أكن أعرفه

١٤ كانون الثاني/يناير

غير المرغوب فيهم

كان يسوع يهوديًّا...لكنَّه في مواقفَ عدَّة، لم يتصرَّف بصفةِ يهوديّ. لقد كان التصميم المعماريُّ للهيكل يُعَبِّر عن الاعتقاد اليهوديِّ بضرورة وجود سُلَّم من الرُّتب يرتفع درجة درجة نحو الله. كان مسموحًا للأمم و"مختلطي العِرق" مثل السامريِّين أن يدخلوا فقط رواق الأمم الخارجيَّ؛ وكان هناك جدارٌ فاصل يفصلهم عن النطاق التالي، الذي كان مسموحًا بدخوله للنساء اليهوديَّات. أمَّا الرجال اليهود، فكان مسموح لهم بالدخول إلى مرحلة أقرب. كان مصرَّحًا بدخول القدس للكهنة فقط.

وهكذا فإنَّ المجتمع نفسه كان مجتمعًا مقسَّمًا طبقات دينيَّة تُعبِّر عن درجات متفاوتة من القداسة، وكان الفرِّيسيُّون يحرصون على الحفاظ على هذا النظام بدقَّة شديدة وبصورة يوميَّة. كما كانت قوانينهم وممارساتهم الطقسيَّة مثل غسل الأيدي وتجنُّب النجاسة بكلِّ صورها تجسِّد محاولاتهم الدؤوبة أن يجعلوا أنفسهم مقبولين أمام الله. ألم يضع الله قوائم بالحيوانات المقبولة ذبيحةً (الطاهرة)، وغيرها من الحيوانات غير المقبولة (النجسة)؟ ألم يمنع الله الخطاة، والنساء الطامِثات، وأصحاب التشوُّهات الجسديَّة، وغيرهم من "غير المرغوب فيهم" من دخول الهيكل؟

وفي وسط هذا النظام الطبقيِّ الدينيِّ، ظهر يسوع لا يتردَّد في التفاعل الاجتماعيِّ مع الأطفال، أو الخطاة، أو حتَّى السامريِّين. لمس "النجسين" وسمح لهم بأن يلمسوه، سواء كانوا بُرصًا أم مشوَّهين، أم نساء مصابات بالنزيف، أم مجانين أم من فيهم أرواحٌ نجسة. وبالرغم من أنَّ القوانين المذكورة في سفر اللاويِّين حدَّدت يومًا للتطهير بعد لمس مريضٍ، فقد كان يسوع يجري مناسبات للشفاء بالجملة، ويلمسه عشرات المرضى، ولم يعبأ بتاتًا بقواعد الطهارة المطلوبة بعد التلامس مع المرضى أو الموتى.

في واقع الأمر، قَلَبَ يسوع الحكمة المقبولة في عصره، رأسًا على عقب. لقد كان الفرِّيسيُّون يؤمنون بأنَّ التلامس مع المريض ينجِّس الإنسان، لكن عندما كان يسوع يلمس الأبرص، لم يكن يتنجَّس، بل كان الأبرص يبرأ. وعندما غسلَت امرأة تعيش حياة لاأخلاقية قدمَي يسوع، ذهبت وقد غُفر لها، وتغيَّرت حياتها. وعندما تمرَّد يسوع على العادات السائدة ودخل بيت رجل أمميّ، شَفى عبد ذلك الرجل. وكما يعبِّر والتر وينك (Walter Wink) "تغلَّبت عدوى القداسة على عدوى النجاسة".

وباختصار، نقل يسوع التركيز من قداسة الله (الحصريَّة) إلى رحمة الله (الاستيعابيَّة). وبدلًا من رسالة "لا دخول لغير المقبولين" أعلن أنَّه "في ملكوت الله لا يوجد غير مقبولين".

"اكتشاف يسوع"، مجلَّة المسيحيَّة اليوم، ١٧ حَزِيران/ يونيو ١٩٩٦م

١٥ كانون الثاني/يناير

خسارة الحروب الثقافيَّة

تناولت ذات مرَّة موضوع "الحروب الثقافيَّة" أمام تجمُّع كبير بعنوان "نحو قناعة ديمقراطيَّة ليبراليَّة"، حيث ضمَّ أقلِّيَّة قويَّة من اليهود. وقد اخترِتُ لأمثِّل المسيحيِّين الإنجيليِّين في جلسة ضمَّت رؤساء "قناة ديزني" (Diseny Channel) و"ورنر برذرز" (Warner Brothers)، ورئيس "كلية ويلسلي" (Wellesley College).

ولكي أُعِدَّ حديثي، ذهبت إلى البشائر الأربع لأحصل على الإرشاد، فاكتشفت أنَّ يسوع لم يكن سياسيًّا قطُّ. والآن، في كلِّ مرَّة تأتي الإنتخابات الأميركيَّة، يبدأ المسيحيُّون يتجادلون ما إذا كان هذا المرشَّح "رجلَ الله" (أو امرأة الله) المُعَيَّن للبيت الأبيض. وإنَّني لأجد أنَّه من الصعب أن أتخيَّل يسوع يفكِّر، مثلًا، ما إذا كان طيباريوس، أو أوكتاڤيوس، أو يوليوس قيصر هو "رجل الله" للإمبراطوريَّة.

لقد صُدِمتُ بما يفعله المسيحيُّون عندما يخسرون الحروب الثقافيَّة. في موجات الاضطهاد في ستِّينيَّات القرن العشرين، مثلًا، كان المؤمنون الصينيُّون يتعرَّضون للغرامات، أو السجن والتعذيب. وبالرغم من هذا الاضطهاد الحكوميِّ، فقد اندلعت نهضة روحيَّة، يمكن أن تكون هي الأكبر في تاريخ الكنيسة. أكثر من خمسين مليون إنسان أعلنوا ولاءَهُم لملكوتٍ غير مرئيٍّ بالرغم من أن الملكوت المرئيَّ كان يجعلهم يعانون بسبب ذلك.

عندما جاء دوري للحديث، قلت إنَّ الرجل الذي أتبعه وهو يهوديٌّ من القرن الأوَّل، كان أيضًا متورِّطًا في حروب ثقافيَّة. لقد تصدَّى لمؤسَّسة دينيَّة متحجِّرة وإمبراطوريَّة وثنيَّة. هاتان القوَّتان اللتان كانتا متعارضتين، إلَّا أنَّهما تآمرتا معًا للقضاء عليه. ماذا كان ردُّ فعله؟ لم يكن ردُّ فعله الحرب والصراع، بل أن يقدِّم حياته من أجل أعدائه، ويشير إلى هذه العطيَّة بوصفها دليلًا على محبَّته. ومن بين كلماته الأخيرة التي قالها قبل موته: "يا أبتاه اغفر لهم لأنَّهم لا يعلمون ماذا يفعلون".

وبعد الندوة، جاءني أحد المشاهير التلفزيونيِّين يمكن أن يميِّزه معظم القرَّاء إذا ذكرت اسمه وقال لي: "يجب أن أقول لك إنَّ ما قلتَه طعنني في القلب مباشرة. لقد كنتُ مستعدًّا أن أُقاومك، لأنَّني لا أقبل الجناح اليمينيَّ المسيحيَّ، وافترضت أنَّك منهم. إنَّني لا أتبع يسوع، فأنا يهوديّ. لكنَّك عندما تكلَّمت عن غفران يسوع لأعدائه، أدركت كم أنَّني بعيد عن تلك الروح. في الواقع، لديَّ الكثير لأتعلَّمه من روح يسوع".

"اكتشاف يسوع"، مجلَّة المسيحيَّة اليوم، ١٧ حَزِيران/ يونيو ١٩٩٦م

١٦ كانون الثاني/يناير

بلا طُرُق مُختصرة

أعتقد أنَّ أغلب الأسئلة المتعلِّقة بالإرشاد، و"كيفيَّة عمل الأشياء"، أسئلةٌ يُساء توجيهها. نمطيًّا، هي مطالب تفتقر إلى الصبر نتميَّز بها نحن الأميركيِّين حيث نريد دائمًا طُرُقًا مختصرة للوصول إلى النتيجة "السحريَّة"، والمنافع الناجمة عن الاتِّصال بالله القدير. لكن لا يوجد طُرُقٌ مختصرة، ولا يوجد سحر، وعلى الأقلِّ، لا يوجد ما يمكن وضعه في خُطَّة من ثلاث نقاط. ما يوجد هو إمكانيَّة قضاء عُمرٍ كامل في السعي وراء العلاقة الحميمة بالله، الذي، كما اكتشف كاتب المزمور، أحيانًا ما يبدو قريبًا وأحيانًا بعيدًا جدًّا، وأحيانًا نشعر به مُحبًّا راعيًا، وأحيانا نشعر وكأنَّه نسينا.

هل يقدِّم الله إرشادًا؟ نعم، أعتقد أنَّه يفعل. في أغلب الأحيان تكون قيادة الله خفيَّة وغير مباشرة، وذلك بأن يمدَّ عقولنا بالأفكار، أو يتكلَّم بشعور ثقيل من عدم الرضا. أيضًا كثيرًا ما يُلهمنا لكي نختار خيارات أفضل، ما كنَّا لنختارها من دونه. وأحيانًا ما يكشف لنا تجارب خطرة تَخفى على عيوننا، وربَّما يقودنا بإعادة ترتيب بعض الأحداث والمواقف (ولا يزال الله يقود برؤى وأحلام وأقوال نبويَّة، لكنَّني لا أستطيع أن أتكلَّم عن هذه الأشياء؛ فهي تقع خارج نطاق خبرتي).

يمدُّنا هذا الإرشاد الإلهيُّ بعون حقيقيٍّ، لكن بطرق لا تُلغي حُرِّيَّتنا الشخصيَّة.

لكنَّني لا أستطيع أن أقاوم فكرة أنَّ موضوع الإرشاد الإلهيِّ، الذي يجذب الآلاف إلى المؤتمرات وحلقات الدراسة ويبيع الآلاف من الكتب، هي فكرة مُبالغ فيها إلى حدٍّ كبير. وأظنُّ أنَّها تحتاج فقط إلى القدر نفسه من الاهتمام الذي يوليه الكتاب المقدَّس لها، ليس أكثر كثيرًا.

يفرِّق العالم الاجتماعيُّ برونيسلاف مالينوڤسكي (Bornislaw Malinowski) ما بين السحر والدين. السحر هو محاولة الإنسان عبر العصور أن يناور الآلهة ليفعلوا ما يريده، أمَّا الدين فهو أن يُخضِعُ الإنسان نفسه لمشيئة الإله. ولا يمكن اختزال الإرشاد الحقيقيِّ في طُرُق مختصرة، أو "مصباح سحريّ". بل يجب أن يقع تحت تصنيف الدين، وليس السحر، بحسب مالينوڤسكي. عندئذ، سوف يأتي الإرشاد في إطار علاقة التزام بينك وبين الله. وعندما توجد هذه العلاقة، فإنَّ الإرشاد لا يكون الهدف في حدِّ ذاته، ولكنَّه يصبح وسيلة يستخدمها الله لإثراء إيمانك.

من كُتيِّب: الإرشاد

١٧ كانون الثاني/يناير

الإرشاد الليليُّ

لديَّ اعترافٌ لأُقَدِّمَه. إنَّني لا أدرك إرشاد الله إلَّا عندما أنظر إلى الخلف، بعد مرور الشهور أو ربَّما السنوات. وقتها يصبح لكلِّ شيء معنى، وتتَّضح يد الله في الأمر. لكنْ في وقت اتِّخاذ القرار نفسه، فأغلب ما أشعر به هو الارتباك والتشويش وعدم اليقين. في الواقع، كانت أغلب حالات الإرشاد في حياتي خفيَّة وغير مباشرة.

أتذكَّر، مثلًا، مفترق طرق مهمًّا في حياتي المهنيَّة. بينما كُنتُ أعمل في مجلَّة "الحياة الجامعيَّة" (Campus Life)، شعرت بشدٍّ وجذبٍ بين اتِّجاهين لا يمكن المصالحة بينهما. الأوَّل يجذبني نحو العمل الماليِّ والإداريِّ والتسويق ووضع الموازنات وغيرها من هذه الأمور. والاتِّجاه الثاني هو الاتِّجاه إلى رئاسة التحرير والكتابة. ولشهور عدَّة حاولت المزج بينهما، دون أن أستطيع أن أقرِّر بصورةٍ قاطعة. كان كلُّ مجال يتيح فُرَصًا للخدمة المسيحيَّة، ويقدِّم مردودًا شبه متساوٍ، كما أنَّني كنتُ أستمتع بالدورين معًا. ونصحني أغلب من حولي أن أتَّجه إلى مجال الإدارة وذلك بسبب حاجات المؤسَّسة وقتها. وكثيرًا ما كنتُ أصلِّي من أجل هذا الموضوع، لكنَّني لم أحصل على إرشاد ملموس.

وبمرور الوقت بدأت ألاحظ نمطًا شبه متكرِّر: أنَّني خارجيًّا، كنت أستطيع أن أتعامل مع ضغوط الإدارة وأبدو صحيحًا في الظاهر، لكنِّي كنت أصارع مع نوبات شديدة من الأرق، حتَّى إنَّني في بعض الليالي كنت أحصل على ساعتين فقط من النوم. واستغرق الأمر نحو سنة كاملة لكي ألاحظ تفصيلة أخرى، وهي أنَّني عندما كنت أعمل في مشروع من مشاريع الكتابة، كنت أنام جيِّدًا، وعندما أعمل في مجال الإدارة، يعاودني الأرق. وحاولت أن أتجاهل هذه العلامات لبضعة شهور أخرى، لكنَّ الأمر مع الوقت أصبح واضحًا بصورةٍ ساخرة (إن كان لي أن أصف عدم النوم بهذا الوصف).

وذات مرَّة، كنت أعمل أسبوعًا كاملًا في مشاريع كتابة، ثمَّ أسبوعًا كاملًا في الإداريَّات. وبالفعل كنت أنام كالطفل الصغير في أسابيع الكتابة، ونادرًا ما أنام في أثناء أسابيع الإدارة. وتساءلت، هل يمكن أن يكون ذلك إرشادًا إلهيًّا؟ لقد سمعت أنَّ الله يتكلَّم في الأحلام، لكنْ أيتكلَّم أيضًا بواسطة عدم النوم؟

ولم يتغيَّر الوضع حتَّى استطعتُ أخيرًا أن أستنتج أنَّ رسالة عدم النوم هي أوضح رسالة إرشاد أستطيع أن أحصل عليها. والآن عندما أنظر إلى الوراء، تبدو شديدة الوضوح ومُباشرة.

من كُتيِّب: الإرشاد

١٨ كانون الثاني/يناير

نظرة إلى الخلف

كثيرًا ما أفكِّر في الأوضاع التي قادتني إلى كتابة بعض من الكتب التي أَلَّفتُها. فمثلًا، جاء كتاب "أين الله في وقت الألم؟" بعد موقف رفض تعرَّضتُ له. بدأت القصَّة هكذا: جاءتني فكرة سنة ١٩٧٥م رأيت أنَّها فكرة رائعة لكتاب جديد. وقتها كنت قد اكتشفت لتوِّي كتابًا لجون دون (John Donne) عنوانه "تأمُّلات روحيَّة في مناسبات طارئة" (Devotions Upon Emergent Occasions)، وهو تأمُّلات كتبها دون عندما كان يعاني مرض خطير. كانت مبادئ الكتاب عظيمة، لكنَّ اللغة الإنكليزيَّة العتيقة التي تنتمي إلى حقبة "ترجمة الملك جيمس" (King James Version) للكتاب المقدَّس تجعلها مغلقة أمام القارئ المعاصر. فكتبتُ إلى عدَّة ناشرين، لكي أقدِّم تناولًا عصريًّا لهذا الكتاب مثلما فعل كين تايلور (Ken Taylor) بترجمة الملك جيمس، ورأيت مثلًا أن يكون عنوان ذلك الكتاب "دون يعود إلى الحياة"، أو "قراءة جديدة لجون دون". وقضيت ساعات في عَمَل بعض النماذج. كُلُّهُم راقَتهُم الفكرة بصفتها تدريبًا أدبيًّا جميلًا، لكنَّهم لم يروها كتابًا قابلًا للتسويق في العصر الحاليّ.

كان رئيسي في العمل في ذلك الوقت هو هارولد مايرا (Harold Myra) وكان اقتراحه أنَّ المشكلة ليست فقط في اللغة القديمة، بل أيضًا في أنَّ السياق كان قديمًا أيضًا، وكذلك طريقة التفكير. فقال لي: "لماذا لا تكتب أنت كتابًا عن معضلة الألم والمعاناة، وباستخدام أمثلة وطريقة تفكير معاصرة؟".

وبينما كنت أُجري البحثَ من أجل هذا الكتاب، قابلت پول براند (Paul Brand) وهو مرجعيَّة عالميَّة في موضوع الألم. وقد تعرَّفت إليه بمحض "الصدفة"؛ فبينما كانت زوجتي تنظِّف خزانة قديمة في مخزن خاصّ بإحدى المؤسَّسات الخيريَّة المسيحيَّة، جاءتني قائلة: "ها هي مقالة عن الألم مُتضمَّنة في تقرير عن أحد المؤتمرات الدوليَّة. أعتقد أنَّها ستعجبك". في الواقع، أبهرتني وجهة نظر د. براند الفريدة، فبدأت أرتِّب للقائه بأسرع ما يمكن. وفي النهاية، علمت بوجود مخطوطٍ لبعض من أحاديثه التعبُّديَّة كان قد احتَفَظَ بِهِ في أحد أدراجه لنحو عشرين سنة. وكان هذا المخطوط المُكوِّن للكتابَيْن اللذين كتبتهما: **"امتزت عجبًا"** *(Fearfully and Wonderfully Made)*، و**"على صورته"** *(In His Image)*.

وعندما أنظر إلى الخلف، أرى كم تبدو يد الله واضحة في هذا الاختيار وغيره من الاختيارات. لقد كنت

دائمًا أظنُّ أنّ الإرشاد يُدرَك بنظرة إلى الأمام. لكن من خبرتي الشخصيَّة، لا يبدو الإرشاد واضحًا إلّا عندما أنظر إلى الماضي. أمَّا في الحاضر، فيجب أن تكون بؤرة تركيزي هي العلاقة بالله. هل أنا مُتجاوِبٌ معه بطاعة وثقة؟

ومن مقولات سورِين كيركغارد (Soren Kierkegaard): "إنَّ الحياة يجب أن تُفهَم بالنظر إلى الخلف، وتُعاش بالنَّظَر إلى الأمام".

من كُتيِّب: الإرشاد

١٩ كانون الثاني/يناير

الحضور

تعلَّمتُ منذ وقتٍ طويل ألَّا أطرح نفسي السؤال: "هل تشعر بالرغبة في الجري اليوم؟"؛ إذ تعلَّمت أن أجري دون سؤال. لماذا؟ أستطيع أن أفكِّر في أسباب عدَّة. يسمح لي التدريب الرياضيُّ اليوميُّ بأن آكل كلَّ ما أُريد دون أن أقلق بشأن زيادة الوزن. كما أنَّه مفيدٌ على المدى البعيد للقلب والرئتين. ويتيح لي أيضًا القيام بأنشطة أخرى، مثل التزلُّج وتسلُّق الجبال. كلُّ هذه الفوائد تمثِّل نوعًا من "المُجازاة الآجلة".

وكما هي الحال للرياضة البدنيَّة، فإنَّ الكثير من فوائد الصلاة تأتي بسبب الانتظام والمواظبة، وببساطة، الحضور أمام الله. تقول الكاتبة نانسي ماريس (Nancy Maris) إنَّها تحضر الكنيسة بالتوجُّه نفسه الذي تذهب به بصفتها كاتبة إلى مكتبها كلَّ صباح، حتَّى إذا جاءتها فكرة، تكون موجودة لتستقبلها. إنَّني أتعامل مع الصلاة بالتوجُّه نفسه. في الكثير من الأيَّام يكون من الصعب أن أشعر بفائدة مباشرة للصلاة، لكنَّني مع ذلك أستمرُّ، سواء أشعر بالفائدة أم لا. أحضر أمام الله في الصلاة راجيًا أن أعرفه بصورة أفضل، وربَّما أسمع منه ما لا يُمكن سماعه إلَّا بالصمت والاختلاء الهادئ.

لسنوات طويلة قاومت الصلاة بوصفها روتينًا يوميًّا، معتقدًا أنَّ التواصل مع الله يجب أن يكون حُرًّا وتلقائيًّا. ونتيجة ذلك كُنتُ أُصلِّي بصورة غير منتظمة وأحصل على قدر قليل من الإشباع. وفي النهاية، تعلَّمت أنَّ التلقائيَّة هي ثمرة الانضباط ولا تأتي من تلقاء نفسها. فمثلًا، قضى ليوناردو دافنشي عشر سنوات يرسم فقط آذانًا وسواعد وأيادي، وأجزاء متفرِّقة من الجسم البشريِّ من مناظر متعدِّدة. ثُمَّ في يوم من الأيَّام، قرَّر أن يتوقَّف عن هذه التدريبات ويبدأ في رسم ما يراه. أيضاً الرياضيُّون والموسيقيُّون لا يصبحون عظماء من دون التدريب المستمرّ. ولقد اكتشفت إنَّني أحتاج إلى الانضباط والالتزام لكي أحصل من وقت إلى آخر على تلك الأوقات الاستثنائيَّة من التواصل الحميم الحُرِّ مع الله.

تأتي الكلمة الإنكليزيَّة التي تُشير إلى "التأمُّل" (Meditate) من كلمة لاتينيَّة تُستخدم أيضًا للإشارة إلى "التدريب الموسيقيِّ السابق للعرض" (Rehearse). ويحكي ڤيرجل (Virgil) عن صبيٍّ راعي ماشية "يتأمَّل" على الناي الخاصِّ به. وعادة ما تبدو صلواتي مثل نوعٍ من التدريب المُسبق. فأبدأ كالموسيقيِّ بلعب نغمات أساسيَّة مثل الصلاة الربَّانيَّة، وأتدرَّب على "مقطوعات" معروفة مثل المزامير، وأجرِّب بعض الألحان الجديدة. ما أفعله على أيِّ حال هو أن أكون حاضرًا.

من كتاب: الصلاة: هل تُحدث أيَّ اختلاف؟

الصلاة بالطريقة السليمة

أتَّفق مع مقولات مثل: "لن أستطيع بتاتًا أن أصلِّي كما كان مارتن لوثر يصلِّي"، وأُخرى مثل:"لن تكون لي بتاتًا الروح نفسها التي كانت للأمِّ تيريزا"؛ فنحن لسنا مدعوِّين لاستنساخ أشخاص آخرين على الأرض، بل لنحقِّق ذواتنا الفريدة. قال توماس ميرتون: "برأيي، أن أكون قدِّيسًا، يعني أن أكون نفسي".

وقد تعلَّمت منذ وقت طويل أنَّني لن أصل بتاتًا إلى مهارات زوجتي الفطريَّة بصفتها اختصاصيَّة اجتماعيَّة أو راعية بيت للمسنِّين؛ فعندما أُقابلُ مثلًا أحد الجيران على الأدراج، فإنَّني أُجري ما يُشبه مقابلة صحفيَّة معهم. أمَّا زوجتي، فسرعان ما تُدرك همومهم الشخصيَّة. كما أنَّ ممارساتنا إلى الصلاة تعكس اختلافًا آخر: فأنا أميل للصلاة في أوقاتٍ محدَّدة منتظمة، أمَّا هي فتصلِّي في دفقات متباينة على مدى اليوم.

باستثناء أن نكون حقيقيِّين أمام الله، لا توجد طريقة هي الوحيدة السليمة للصلاة. كلٌّ منَّا هو خليطٌ خاصٌّ جدًّا من نوعيَّة الشخصيَّة والمنظور والتعليم والمواهب والضعفات والتاريخ الخاصِّ مع الكنيسة ومع الله. وكما تقول روبرتا بوندي (Roberta Bondi): "إذا كنت تصلِّي، فإنَّك حينئذٍ تُمارِسُ الصلاة بالطريقة السليمة". وعلى مدار السنين، غيَّرت الكنيسة نقطة تركيزها في الصلاة؛ إذ كان المسيحيُّون الأوائل يُصلُّون من أجل القوَّة والشجاعة لمواجهة الاضطهادات، وبعد أن صارت المسيحيَّة ديانة الدولة الرومانيَّة، صاغت كنيسة الدولة صلوات مهيبة. ثمَّ في العصور الوسطى، كان التركيز على التوبة وطلب الرحمة. وبعد ذلك، قاد آنسلم (Anslem) وبرنارد دي كليرڤو (Bernard de Clairvaux) الكنيسة إلى إعادة اكتشاف محبَّة الله ورحمته. ثمَّ أطلق القديس فرنسيس (St. Francis) موجة من الفرح والبهجة في الصلاة. كما اكتشف مايستر إكهارت (Meister Eckhart) وتيريزا الآڤيليَّة (Teresa of Avila) وجورج فوكس (George Fox) الصمت الداخليَّ السرِّيَّ للقلب، ومارس الأخ لورنس حضور الله في العمل اليوميِّ الروتينيِّ. وبعد ذلك كان توجُّه لوثر نحو التقوى العمليَّة، وكالڤن (Calvin) نحو إجلال الله. ويظلُّ التنوُّع قائمًا حتَّى اليوم.

لقد وقفت ذات يوم في كاتدرائيَّة أرثوذكسيَّة روسيَّة وشاهدت جَدَّات يبكين، رغم أنَّهنَّ لا يكدن يفهمن كلمة من الصلاة السلاڤونيَّة القديمة. واستمعت إلى مشيخيِّين كوريِّين في شيكاغو يرنِّمون ويصلُّون بصوتٍ عالٍ طوال الليل. وفي بعض الكنائس للأميركيِّين من أصل أفريقيٍّ، تكاد لا تسمع الصلوات من فرط صيحات "آمين!" و"الآن اسمع يا ربّ!". وفي اليابان، وقت الصلاة الجمهوريَّة، يصلِّي الجميع في وقتٍ واحدٍ وبصوتٍ عالٍ. ويستمرُّ أعضاء إحدى كنائس البيوت الصينيَّة في ألمانيا في الممارسات الشديدة نفسها

التي كانوا يمارسونها في بلادهم؛ ففي بعض الأوقات يصلّون على مدى ثلاثة أيَّام متَّصلة. وفي أوكرانيا، يقف المصلُّون للصلاة، وفي أفريقيا يرقصون.

من كتاب: الصلاة: هل تُحدث أيَّ اختلاف؟

٢١ كانون الثاني/يناير

يسوع ونورمان العاصف

عندما جاء وقت تعليم التطويبات في الصفِّ الذي أدرِّس فيه في "كنيسة شارع لاسال (Lasalle Street Church) في شيكاغو، اتَّبَعتُ روتيني المعتاد وهو مراجعة الأفلام التي صُنعت عن يسوع ومشاهدتها. وحيث إنَّني شاهدتُ خمسة عشر فيلمًا، استغرقَتْ مهمَّة تحديد الأجزاء المطلوبة ومشاهدتها عدَّة ساعات من وقتي كلَّ أسبوع، وقد مضى أغلبها في انتظاري جهاز الڤيديو ليتقدَّم بسُرعة إلى الأمام وإلى الخلف أجزاء كبيرة من الأفلام للوصول إلى الأجزاء المطلوبة. وذات يوم، كُنتُ أعمل فيه ذلك، بينما أشاهد قناة سي. أن. أن الإخباريَّة في الوقت نفسه. وحين وصل الجهاز إلى الدقيقة الثامنة والثانية العشرين من فيلم سيسيل دي ميل (Cecil B. DeMille) "ملك الملوك" (King of Kings)، بينما كُنتُ أتابع أخبار العالم على هذه القناة الإخباريَّة، ضغطتُ على زرِّ تشغيل الڤيديو، لأنتقل مباشرة من العصر الحاليِّ إلى الأرض المقدَّسة في القرن الأوَّل الميلاديّ.

كان الكثير يحدث سنة ١٩٩١م عندما كنت أُدرِّس التطويبات؛ فهناك اندلعت حرب الخليج الثانية. ومثل كثير من الأميركيِّين، لم أكد أصدق أنَّ هذه الحرب التي كانت مصدر خوف لوقت طويل، قد انتهت بهذه السرعة وبينما كان جهاز الڤيديو يبحث بين المشاهد المتتالية من فيلم يسوع في الخلفيَّة، كان مختلف المعلِّقين على شاشة سي. أن. أن يوضِّحون على الخرائط والجداول ما حدث توًّا في الكويت، ثُمَّ ظهر الكولونيل نورمان شوارتسكوف (Norman Schwarzkopf) فجأة.

كانت القناة قد أعلنت توقُّفًا في البرنامج، للانتقال إلى تغطيَّة حيَّة للمؤتمر الصحفيِّ لقائد قوَّات التحالف في الصباح التالي لانتهاء المعارك. لبعض الوقت، حاولت أن أستمرَّ في التحضير لدرسي، فشاهدت خمس دقائق من نسخة فيلم پاسوليني (Pasolini) ليسوع وهو يقدِّم التطويبات، ثُمَّ بعض الدقائق من القائد شوارتسكوف قائد الحملة العسكريَّة.

وسرعان ما تركت جهاز الڤيديو تمامًا؛ فقد أثبت نورمان العاصف قدرته على الاستحواذ على انتباهي بينما كان يتكلَّم عن الحملة الأخيرة. والغزو المُتخفِّي بحرًا، واستطاعة قوَّات التحالف التقدُّم. شكر الكويتيِّين والبريطانيِّين والسعوديِّين وكلَّ المشاركين في القوَّات متعدِّدة الجنسيَّات. وبوصف الجنرال قائدًا واثقًا بحملته العسكريَّة وشديد الفخر بجنوده الذين نفَّذوه، قدَّم أداءً رائعًا. وأتذكَّر أنَّ الفكرة التي دارت في خُلدي وقتها كانت: "هكذا ينبغي أن تُدار الحروب".

(يتبع في التأمُّل التالي)

من كتاب: يسوع الذي لم أكن أعرفه

التطويبات المعكوسة

(يتبع من التأمُّل السابق)

انتهى تقرير الجنرال شوارتسكوف، وانتقلت قناة سي. أن. أن إلى بعض الإعلانات، فعُدت إلى جهاز الڤيديو لأُشاهد الممثِّل ماكس ڤون سايدو (Max von Sydow)، الذي يلعب دور يسوع الأشقر الرقيق، يقدِّم نسخة بعيدة عن الواقع للموعظة على الجبل في فيلم "أعظم قصَّة رُويت يومًا" (The Gratest Story Ever Told). وتكلَّم حينها بلكنة اسكندناڤيَّة ثقيلة وبطيئة قائلًا: "طوبى...للـمساكين...بالروح...لأنَّ...لهم...ملكوت...السموات". كان عليَّ مع الوقت أن أضبُط نفسي على الإيقاع البطيء، لا سيَّما خاصَّة بعد أن كنت أستمع إلى العاصفة الخارجة من فم الجنرال شوارتسكوف، تطلَّب الأمر منِّي عدَّة ثوانٍ قبل أن أستوعب المفارقة، فكأنَّني كُنتُ أستمع إلى الموعظة على الجبل معكوسة!

كانت رسالة الجنرال: طوبى للأقوياء، وطوبى للمنتصرين. طوبى للجيوش الغنيَّة بما يكفي لكي تمتلك قنابل ذكيَّة وصواريخ، وطوبى للجنود الأشاوس.

لقد أعطتني هذه الصُّدفة الغريبة التي وضعت الحدثين جنبًا إلى جنب بهذه الطريقة، شعورًا بالصدمة ربَّما يشابه الشعور الذي شعر به الذين سمعوها أوَّل مرَّة. فبدلًا من أن يحصل يهود القرن الأوَّل على قائد يتمنَّونه مثل شوارتسكوف، حصلوا على يسوع. ثمَّ ها هو يسوع يقدِّم لشعب مقهور يرنو إلى التحرُّر من الاستعمار الرومانيِّ، نصيحة غريبة يصعُبُ قبولها: اشكروا الله على فقركم.

كان يسوع يتبنَّى المحبَّة بدلًا من الانتقام من الأعداء. إلى أيِّ مدًى يمكن أن تصمد مملكة مبنيَّة على مثل هذه المبادئ أمام روما؟

ربَّما في موقف مثل حرب الخليج الثانية، كان يسوع يقول: "طوبى لمن قُصِفَت بيوتُهُم وصاروا في العراء، طوبى للخاسرين والذين فقدوا رفاقهم، طوبى للمضطهدين الذين لا يزالوا يعانون بسبب هذه الحرب".

ويقول أيُّ دارس للُّغة اليونانيَّة، أنَّ كلمة "طوبى" هي كلمة هادئة جدًّا وجماليَّة من جهة المضامين القويَّة التي كان يسوع يشير إليها في رسالة التطويبات. وتشير الكلمة اليونانيَّة إلى ما يشبه صيحةً قصيرةً تعبِّر عن الفرح، مثل: "يا لسَعدك!".

كان لسان حال يسوع: "يا لسَعد البائسين!".

من كتاب: يسوع الذي لم أكن أعرفه

٢٣ كانون الثاني/يناير

مكافآت مستقبليَّة

تقابلت ذات صيف مع مجموعة من مؤسَّسة "ويكلف" (Wycliffe) لمترجمي الكتاب المقدَّس في مقرِّهم الرئيسيِّ المُنظَّم بدقَّة، والواقع في صحراء أريزونا. كان الكثيرون منهم يعيشون في بيوت متنقِّلة، وكان اجتماعُنا في مبنى من الخرسانة ذي سقف معدنيّ. وقد أبهرني مقدار الالتزام والتكريس الذي تميَّز به هؤلاء اللغويُّون المِهنِيُّون الذين كانوا يستعدُّون لحياة فقيرة شاقَّة في أماكن عملهم النائية التي سوف يذهبون إليها. وكانوا يحبُّون أن يرنِّمون ترنيمةً تقول: "ها أنا أرسلك، للعمل بلا مكافأة، لتخدم بلا نفقة، بلا محبَّة، بلا شهرة، لا يعرفك أحد...". وعندما استمعت إلى هذه الترنيمة خطر لي أنَّ فيها خطأ؛ فهؤلاء المرسلون لم يخطِّطوا للعمل بلا مكافأة، بل كانوا يخدمون الله، واثقين في المقابل بأنَّه سوف يجعل حياتهم وخدمتهم تستحقّ، إن لم يكن الآن، ففي الأبديَّة.

كنت أذهب في الصباح للجري في الطرق الترابيَّة المتعرِّجة وسط نباتات الصبَّار العالية في صحراء أريزونا، ولخوفي من الأفعى ذات الجرس، والعقارب، كُنتُ لا أكاد أرفع رأسي من الأرض. وفي صباح أحد الأيَّام بينما كُنتُ أجري على طريق جديد، رفعت عينيَّ لأرى منتجعًا متلألئًا أمامي كسرابٍ لامع فيه حمَّامَا سباحة أوليمپيَّان، وغرف لرياضات الأيروبيك، ومسار مرصوف للجري، وحدائق غنَّاء، وملاعب كرة قدم، واسطبلات للخيول. عرفت لاحقًا أنَّ هذا المكان يتبع إحدى عيادات اضطرابات الأكل التي تخدم مشاهير نجوم السينما والرياضيِّين.

وفي أثناء عودتي بالجري البطيء نسبيًّا إلى مباني مؤسَّسة ويكلف المتواضعة غير المُرتَّبة، أدركتُ بوضوح الفرق بينها وبين المباني المُبهرة التي شاهدتها لتوِّي. وواجهتني المفارقة: مؤسَّستان إحداهما تعمل من أجل خلاص النفوس، وتُعِدُّ الناس لخدمة الله الآن وفي الأبديَّة، والأخرى تعمل من أجل خلاص الأجساد، لإعداد الناس للاستمتاع بهذه الحياة. من الواضح أيُّ المؤسَّستَين يُمجِّدُها العالم.

في التطويبات، أكرم يسوع الذين ربَّما لا يستمتعون بامتيازاتهم في هذه الحياة. وكان يؤكِّد للفقراء والحزانى والودعاء والجياع والمضطهدين والمساكين بالروح، أنَّ خدمتهم لن تمرَّ دون مكافأة. كتب سي. أس. لويس: "إنَّنا مخلوقات فاترة قنوعة جدًّا في ما يختصُّ باللذَّة. نتعلَّق بلذَّات الطعام والشراب وطموح النجاح والشهرة، في حين نتجاهل وعودًا بسعادة لانهائيَّة مُقدَّمة إلينا. إنَّنا مثل طفلٍ جاهل يريد أن يستمرَّ في اللهو بعمل كعكات من الطين في زقاق في حيٍّ فقير، لأنَّه لا يستطيع أن يتخيَّل حقيقة أنَّه مدعوٌّ لقضاء إجازة فاخرة على شاطئ البحر".

من كتاب: يسوع الذي لم أكن أعرفه

٢٤ كانون الثاني/يناير

إله عادل في النهاية

لقد أصبح التركيز على المكافآت المستقبليَّة أمرًا ليس "عصريًّا" عند الكثير من المسيحيِّين. وقد لاحظ راعي الكنيسة التي كُنت فيها سابقًا، بيل ليزلي (Bill Leslie)، هذه الملاحظة، فقال: "كلَّما أصبحت الكنائس أكثر ثراءً وأكثر غنًى، تغيَّرت تفضيلاتها من الترانيم التي تقول مثلًا: «ليس هذا العالم موطني، إنَّني مجرَّد عابر سبيل»، إلى ترانيم تقول: «إنَّه عالم أبي»".

في الولايات المتَّحدة، أصبح المسيحيُّون مستريحين حتَّى إنَّهم لم يعودوا يشعرون بأيِّ قُربٍ من الحالات المتواضعة التي كان يخاطبها يسوع في التطويبات.

لكنَّنا لا نجرؤ أن نُنكِرَ قيمة المُكافآت المُستقبليَّة. يحتاجُ المَرءُ فقط لأنْ يستمع إلى الأغاني التي كان يؤلِّفها العبيد الأميركيُّون ليدرك مدى التعزية التي يحصُل عليها الإنسان من الإيمان. مثلًا ترنيمة: "تمايلي أيَّتها العَرَبة الجميلة، الآتية لتأخذني إلى بيتي الأبديّ". وترنيمة: "عندما أصل إلى السماء، سوف أرتدي ثيابي الجديدة، وأهتف بصوت يُسمع في طول السماء وعرضها"، و"سريعًا سوف نتحرَّر، عندما يدعونا الربُّ إلى بيتنا". لم يكن لديهم الكثير من الرجاء في هذا العالم، لكنَّهم عاشوا رجاء العالم الآتي.

لم أعد أتهكَّم على الوعود المذكورة في التطويبات بوصفها "الكعكة التي في السماء"، كما يُقال. ما فائدة أن يرجو الإنسان المكافآت المستقبليَّة؟ ما الفائدة من ثقة الرهينة الأنغليكانيِّ تيري وِيْت (Terry Waite) وإيمانه أنَّه لن يقضي بقيَّة عمره مُقيَّدًا بباب في شقَّة قذرة في بيروت، وإنَّما عالم من الأسرة والأصدقاء، والرحمة والمحبَّة والموسيقا والطعام والكتب الجيِّدة، ينتظره إذا استطاع أن يجد القوَّة الكافية ليصمد لوقت أطول قليلًا؟ ما الفائدة التي جناها العبيد من إيمانهم بأنَّ الله لا يرضى بعالم فيه ذلك العمل الذي يكسر الظهور، والأسياد المُسلَّحون بالسياط والأحبال الغليظة؟ إنَّ الإيمان بمستقبل أفضل هو الإيمان بأنَّ ذراع الله القويَّة تميل نحو العدل، بأنَّه يومًا ما سوف يُنزِلُ المتكبِّرين من على الكراسيِّ ويَرفَع المتَّضعين، ويُشبع الجياع خيرات.

إنَّ الرجاء في مستقبل أفضل لا يلغي بأيَّة حالٍ حاجتنا لأن نصارع من أجل العدالة هنا والآن في هذا العالم، بل يسمح لنا بالإيمان بإله عادل في النهاية. يرنُّ وعد يسوع بالمجازاة في المستقبل مثل جرسٍ في عالم آخر، يعلن أنَّه، مهما بدت الأمور، لا مستقبل للشرِّ، وسينتصر الخير في النهاية.

من كتاب: يسوع الذي لم أكن أعرفه

٢٥ كانون الثاني/يناير

مراهنة الله

يقول بول تورنييه (Paul Tournier): "هناك أمران لا نستطيع أن نفعلهما بمفردنا: أن نتزوَّج، وأن نعيش الحياة المسيحيَّة". وفي رحلتي الشخصيَّة مع الكنيسة، أدركت أنَّ الكنيسة تلعب دورًا حيويًّا، بل ضروريًّا؛ فنحن "مجتمع الله الجديد" على الأرض.

إنَّني مُدرك، على نحوٍ مؤلم، أنَّ الكنيسة المثاليَّة التي بلا عيوب مَحْضُ سراب. نجدُ في الكثير من الكنائس تسلية أكثر من العبادة، وتَماثُل أكثر من التنوُّع، وحصريَّة أكثر من الإرساليَّة، وناموس أكثر من النعمة. ولا شيء يجعل إيماني يضطرب أكثر من الإحباط من الكنيسة المنظورة.

لكنَّني يجب أن أُذَكِّرَ نَفسي بكلماتِ يسوع لتلاميذه: "ليس أنتم اخترتموني بل أنا اخترتكم". لقد كانت الكنيسة مخاطرة من الله، بل يُمكننا أن نقول: "مُراهَنة" الله. ووصلت إلى درجة أنَّني أصبحت أرى في مجتمع الكنيسة المعيوب إشارة إلى الرجاء في التغيير. لقد قدَّم الله للجنس البشريِّ أعظم مُجاملة عندما اختار أن يعيش بيننا نحن الآنية الخزفيَّة.

قرأت الكتاب المقدَّس بأكمله، وبصورة متواصلة، مرَّات عدَّة، من التكوين إلى الرؤيا، وفي كلِّ مرَّة تدهشني حقيقة أنَّ الكنيسة هي المُحصلة النهائيَّة، والتحقيق لما كان في عقل الله منذ البداية. إنَّ العضويَّة في الكنيسة كجسد المسيح هُويَّة جديدة عابرة لكلِّ حواجز العرق والجنسيَّة والنوع، وهي تُحقِّقُ مُجتمعًا لا يوجد مثله في العالم. ببساطة، اقرأ الفقرة الأولى من كلٍّ من رسائل بولس الرسول إلى مجتمعات متنوِّعة متناثرة على طول الإمبراطوريَّة الرومانيَّة وعرضها. إنَّهم جميعًا "في المسيح"، وهذا هو ما يهمُّ أكثر من الجنس والعرق واللون والخلفيَّة الاجتماعية والاقتصاديَّة أو أيَّة فئة أخرى تُقسِّم البشر.

إنَّ هُويَّتي في المسيح أهمُّ من هُويَّتي الوطنيَّة أو عرقي أو طائفتي البروتستانيَّة. الكنيسة هي المكان الذي فيه أحتفل بهذه الهُويَّة أفعِّلها في وسط أناس بينهم الكثير من الاختلافات، لكنَّهم يشتركون في ذلك الشيء الواحد. إنَّنا مسؤولون أن نعيش نوعًا من المجتمع البديل ليشاهدنا عالم يتحرَّك بصورة متزايدة نحو القَبَليَّة والانقسام.

من كتاب: الكنيسة: لماذا نهتمّ؟

كنيسة منتصف الليل

زرت ذات مرَّة "كنيسة"استطاعت دون مقرَّات طائفيَّة، أو موظَّفين مدفوعي الأجر، أن تجتذب ملايين الأعضاء الملتزمين كلَّ أسبوع- اسمها "مدمنو الخمر المجهولون". وقد ذهبت بدعوة من صديق اعترف لي لتوِّه بمشكلته مع الكحول، وقال لي: "تعال، وأظنُّ أنَّك سترى لمحة من الطريقة التي كانت الكنيسة الأولى تعيش بها".

في الساعة الثانية عشرة في مُنتصف ليلة من ليالي الاثنين، دخلت بيتًا مُهترئًا كان قد استُخدِم لستَّة اجتماعات سابقة في ذلك اليوم نفسه. امتلأ الجوُّ بسُحُب دخان السجائر المثيرة للعيون، وكأنَّ قنابل غازٍ قد ألقيت فيه. ولم يمرَّ وقتٌ طويل قبل أن أفهم ما كان يعنيه صديقي في المقارنة بالكنيسة الأولى.

كان "وقت المشاركة" مثل وصف تقليديٍّ للمجموعات الصغيرة، يمتاز بالاستماع المتمعِّن والإحساس العميق، وردود الفعل الدافئة، والكثير من العِناقات. كلُّ من حضر كان يقدِّم تقريرًا عن تقدُّمه الشخصيِّ في صراعه مع الإدمان. ضحكنا كثيرًا، وبكينا كثيرًا أيضًا. وفي الأغلب، بدا الأعضاء مستمتعين في قضاء الوقت مع أشخاص يستطيعون أن يروا أعماقهم بلا أقنعة. لم يكن هناك سبب يمنعنا من أن نكون صادقين، فنحن جميعًا في قارب واحد.

لا تملك زمالة مدمني الخمر المجهولين أيَّ مبنى، وليس لها مقرٌّ رئيسيٌّ في أيِّ مكان في العالم، أو مركَزٌ إعلاميٌّ، أو موظَّفون، أو مُشيرون مدفوعو الأجر أو مستشارون استشاريُّون يتجوَّلون بالطائرة في أرجاء البلاد. كان المؤسِّسون الأوائل لهذه الزمالة قد وضعوا ضوابط من شأنها منع أيِّ شيء يمكن أن يؤدِّي إلى أيِّ شكل من أشكال البيروقراطيَّة، مؤمنين بأنَّ البرنامج يعمل فقط إذا ظلَّ بسيطًا، وعلى مستوًى حميم: مدمن كحول متعافٍ يكرِّس حياته لمساعدة مدمن كحولٍ متعافٍ آخر. وبسبب هذه البساطة أثبتت هذه الزمالة نجاحها حتَّى تفرَّع منها ٢٥٠ نوعًا آخر من أنواع مجموعات المساندة المختلفة التي نشأت على غرارها؛ من مدمني الشوكولاته المجهولين إلى مجموعات مساندة مرضى السرطان.

ومن جهة صديقي، كان الانخراط في مجتمع مدمني الخمر المجهولين أشبهَ بخلاصٍ حَرفيّ. كان يعرف أنَّ سقطةً واحدةً قادرةٌ على إرساله إلى القبر. وأكثر من مرَّة كان شريكه في التعافي يردُّ على مكالماته التليفونيَّة في الرابعة صباحًا ليذهب إليه ويجده جالسًا في النور الساطع لأحد المطاعم التي تفتح على مدار الأربع والعشرين ساعة، يملأ كُرَّاسته مثل تلميذ مدرسة مُعاقب، بعبارة واحدة مكرَّرة: "يا ربّ، ساعدني أن

أستمرَّ للدقائق الخمس التالية دون خمر".

من كتاب: الكنيسة: لماذا نهتمّ؟

٢٧ كانون الثاني/يناير

مُعلِّمون مدمنو خمر

تُسَدَّدُ في زمالة مدمني الخمر المجهولين الحاجات بطريقة لا تقوم بها الكنيسة المحلِّيَّة- أو على الأقلّ لم تقُم بها مع صديقي. سألته عن السمة الواحدة المفقودة في الكنيسة المحلِّيَّة والتي كانت موجودة في الزمالة، فنظر طويلًا إلى كأس القهوة الذي في يده، ثمَّ قال بصوت هادئ هذه الكلمة: الاعتماد.

ثمَّ أخذ يشرح قائلًا: "لا يستطيع أيٌّ واحد فينا أن يُكمل بمفرده- أليس لهذا السبب جاء يسوع؟ إلَّا أنَّ أغلب مرتادي الكنائس يثيرون حولهم جوًّا من الاكتفائيَّة والتقوى والاستعلاء. لا أشعر بهم يعتمدون على الله أو بعضهم على بعض. تبدو حياتهم مرتَّبة وعلى ما يُرام. لذلك عندما يذهب مدمن الكحول إلى الكنيسة فإنَّه يشعر بالنقص والدونيَّة".

وفي النهاية قال: "الأمر مضحك. أكثر ما أكرهه في نفسي وهو إدماني على الكحول، هو الشيء الوحيد الذي استخدمه الله ليعيدني إليه. بسبب إدماني، أدركت أنَّني لا أستطيع أن أعيش دون الله. يجب أن أعتمد عليه لكي أواصل الحياة كلَّ يوم. ربَّما بهذا يمكنني أن أقول إنَّ إدماني على الكحول قد افتداني روحيًّا. ربَّما دعوة الله إلينا نحن المدمنين هي أن نعلِّم القدِّيسين معنى أن يكون الإنسان معتمدًا تمامًا على الله وعلى مجتمع الله على الأرض".

من كنيسة منتصف الليل هذه التي كان يذهب صديقي إليها، تعلَّمت الحاجة إلى الاتِّضاع، والصراحة التامَّة، والاعتماد الكامل- على الله وعلى مجتمع من الأصدقاء المتعاطفين. وكلَّما تأمَّلت ذلك، وجدتُ أنَّ هذه الصفات هي بالتحديد الصفات التي كانت في ذهن يسوع عندما أسَّس الكنيسة.

جاءت زمالة مدمني الخمر المجهولين نتيجة لاكتشاف بِل ويلسون (Bill Wilson)؛ فقد استطاع بِل أن يظلَّ رصينًا ومتوقِّفًا عن الشراب مدَّة ستَّة أشهر بعد أن سافر إلى خارج بلدته في سفرة عمل، حيث فشلت إحدى الاتِّفاقيَّات الخاصَّة بعمله. وبينما كان يتجوَّل يائسًا في بهو الفندق، سمع أصوات ضحكٍ وقرع كؤوس، فاتَّجه صوب الحانة، وهو يقول في نفسه: "أحتاج إلى الخمر".

وفجأة جاءته فكرة جديدة تمامًا: "لا بل لست أحتاج إلى الخمر، بل أحتاج إلى مدمن كحول آخر". سار حينها في اتِّجاه البهو مرَّةً أخرى نحو الهاتف، وبدأ سلسلة من الاتِّصالات أوصلته إلى الدكتور بوب سميث (Bob Smith). بعدها أسَّسا معًا زمالة مدمني الخمر المجهولين.

إنَّ الكنيسة هي المكان الذي فيه يمكنني أن أقول، بلا خزي: "إنَّني لا أحتاج إلى الخطيَّة، بل أحتاج إلى

خاطئ آخر".

من كتاب: الكنيسة: لماذا نهتمّ؟

٢٨ كانون الثاني/يناير

الاهتمام بالنَّكِرات

دخل الغرفة التي اتَّفقنا أن نلتقي فيها، رجلٌ نحيف يميل شعره إلى الشيب. اعتَذَرَ عن الدم الذي على معطفه الأبيض، شارحًا أنَّه كان لتوِّه يشرِّح أحد حيوانات الأرماديلو (المدرَّع)، الذي ينتمي إلى الفصيلة الوحيدة غير الآدميَّة التي تُعيل بكتيريا الجُذام (البرص). كان يرتدي ملابس بعيدة عن "الموضة"، ويسكن في كوخ مُستأجر على الأرض التابعة لمستشفى لويزيانا، ويقود سيَّارة اقتصاديَّة مهترئة. كان قلب پول براند لا يزال قلب مُرسَل، غير مُنبهر بالرفاهية والشهرة.

استمرَّت زيارتي الأولى له أسبوعًا. جلست بجانب براند وهو يدرس الأطراف المتقرِّحة للمرضى، وزُرتُ المختبرات التي كان يُجري فيها بحوثه. وفي الليل في الكوخ الخشبيِّ، كنت أشاركه وزوجته مارغريت (Margaret) وجْبَتهم من الأرُزِّ والكاري. كانت مارغريت طبيبة عيون محترمة. وبعد العشاء، ينهض پول على قدميه الحافيتين تاركًا المائدة، بينما أشغِّل جهاز التسجيل وأستهلُّ حواراتي معه في مواضيع عدَّة، من الجُذام، إلى اللَّاهوت، إلى مكافحة الجوع في العالم، إلى التحوُّل الاجتماعيّ. وكنت أجده قد فكَّر في كلِّ هذه المواضيع بدرجة ما من العُمق. كان يقتبس شيكسپير[أ] ويناقش أصول الكلمات اليونانيَّة واللاتينيَّة والعبريَّة. وفي أثناء التوقُّف للراحة كان يعلِّمني أشياء مثل، كيفيَّة اختيار التينة الناضجة حيث راقَب الفراشات وهي تومِض وتحوم مرَّات عدَّة قبل أن تندفع إلى التينات الأكثر نُضْجًا. كما علَّمني كيفيَّة بناء الطيور الناسجة الأفريقيَّة عشوشها المُعَقَّدَة التركيب باستخدام رِجلٍ واحدة ومنقار.

أمَّا الحوارات المُميَّزة فهي التي كان يتذَّكر فيها مرضاه في الهند. لم يكونوا سوى "نَكِرات" أسبغ عليهم بسخاءٍ عنايته الطبِّيَّة البالغة. وعندما بدأ عمله الرائد، كان هو جرَّاح العظام الوحيد الذي يعمل بين خمسة عشر مليونًا من ضحايا الجُذام. لقد أجرى ومارغريت عشرات العمليَّات الجراحيَّة لبعض من هؤلاء المرضى، ليعيد إلى الحركة والاستخدام أيادي مُلتوية ومُتيبِّسة، بواسطة عمليَّات مُبتكرة لنقل الأوتار، وإعادة تركيب الأقدام. علاوة على عمليَّات الوقاية من فَقْد الإبصار، وإعادة تركيب الحواجب، وتصميم أنوف جديدة بدل التي دمَّرها الجُذام.

كان يحكي لي التاريخ الأُسريَّ لمرضاه، والرفض الذي اختبروه عندما بدأ المرض يظهر عليهم، وتجارب النجاح و الفشل لأنواع العلاجات المختلفة. وفي أثناء ذلك، كثيرًا جدًّا ما دمعت عيناه واضطرَّ إلى التوقُّف لمسحهما. لم يكن يحسب هؤلاء نَكِرات، بل كان يراهم أشخاصًا مخلوقين على صورة الله، فَكَرَّس حياته لكي يحاول أن يُكرِم هذه الصورة الإلهيَّة.

من كتاب: على صورة الله

٢٩ كانون الثاني/يناير

التواضع الحقيقيُّ

لقد كُنتُ ود. براند فريقًا غريبًا. كان هو جرَّاحًا فِضِّيَّ الشَّعر يتميَّز بالتحفُّظ البريطانيِّ السليم، وكنت صحفيًّا شابًّا متشوِّقًا ذا شعر أشعث في منتصف العشرينيَّات. كنت وقتها قد أجريت مقابلات عدَّة: مع ممثِّلين وموسيقيِّين وسياسيِّين ورجال أعمال ناجحين ورياضيِّين أولمپيِّين وفائزين بجائزة نوبل وفائزين بجائزة پوليتزر في الأدب.

لكنَّ هُناك ما جذبني إلى د. براند على مستوى أعمق من أيِّ مستوى من التواصل كان بيني وبين أيَّة شخصيَّة أخرى سبق أن حاورتها. لقد مات أبي بعد عيد ميلادي الأوَّل مباشرة، وبطرق مختلفة، أصبح د. براند أشبه بنموذجٍ أبويٍّ لي. وعندما قابلته كنت قد أصبحت راشدًا، ولم أكن محتاجًا لأن أمرَّ بتمرُّد المراهقين وألم تكوين الشخصيَّة المستقلَّة. فجلست عند قدميه منذ لقائنا الأوَّل.

ربَّما كانت هذه المرَّة الأولى التي أُقابِل فيها تواضعًا حقيقيًّا. أشار بولس الرسول إلى يسوع بوصفه نموذجًا في التواضع: "فليَكُنْ فيكُم هذا الفِكرُ الذي في المَسيح يَسوعَ أيضًا: الّذي إذ كانَ في صورَةِ اللهِ، لَمْ يَحسِبْ خُلسَةً أنْ يكونَ مُعادِلًا لله. لكنهُ أخلى نَفسَهُ، آخِذًا صورَةَ عَبدٍ، صائرًا في شبه الناس". عندما تقابلت مع د. براند، اكتشفت أنَّني كُنتُ أخلط بين التواضع والصورة السلبيَّة عن الذات. كان پول براند يعرف جيِّدًا مواهبه: كان دائمًا الأوَّل على دفعته الدراسيَّة في كلِّ مراحل تعليمه، وحصل على الكثير من الجوائز تقديرًا له على إنجازاته. لكنَّه كان يدرك أنَّ مواهبه هي بالحقيقة "عطايا"، أي معطاةٌ له من خالق مُحبٍّ، وكان يستخدم تلك المواهب في الخدمة بأسلوبٍ مُشابهٍ لأسلوب المسيح.

عندما قابلته أوَّل مرَّة، كان لا يزال يحاول التأقلم على الحياة في الولايات المتَّحدة. كانت رفاهية الحياة اليوميَّة تصيبه بالتوتُّر، وكان يشتاق إلى حياة بسيطة قريبة من الأرض. لقد تعرَّف إلى رؤساء دول وملوك ومشاهير، لكنَّه نادرًا ما كان يذكر أسماءهم. كان يتكلَّم بوضوح عن فشله، ودائمًا ما كان يُرجع الفَضل إلى العاملين معه. أمَّا ما كان له أكبر الأثر فيَّ، فهو أنَّ رجلًا من أكثر الرجال الذين التقيتهم عبقريَّةً، قرَّر أن يكرِّس حياته لمجموعةٍ من أكثر الناس تعرُّضًا للإهمال والازدراء على هذا الكوكب- أفرادٍ من طبقة المنبوذين (الذين لا يُلمسون) في الهند، وهم المُصابون بالجذام.

من كتاب: على صورة الله

٣٠ كانون الثاني/يناير

أيادٍ لا يمكن إسكاتُها

في حزيران/ يونيو ٢٠٠٣م تلقَّيت مكالمة تليفونيَّة تخبرني بأن د. براند سقط على الأرض وهو يحمل صندوقًا من الكتب لينزل به إلى مكتبه في الطابقِ الأرضيِّ من الكوخ الذي يقيم فيه، وارتطم رأسه بالدرابزين؛ فكان وقتها يرقد في المستشفى في غيبوبة في مستشفى في سياتل. كان مقرَّرًا أن أُسافر مع زوجتي بعد أيَّام قليلة في رحلة إلى نيوزيلندا، وبعد عِدَّة مكالمات مُلحَّة، استطعنا إقناع شركة الطيران أن تغيِّر مسار رحلتنا لتمرَّ بسياتل.

وفي رسالة إلكترونيَّة قرأتُها في الطائرة، تَذَكَّرَت پولين (Pauline)، ابنة د. براند، مشهدًا من فيلم "الأسد والساحرة وخزانة الملابس"[4]: "عندما رأت الفتاتان جسد الأسد أصلان وقد حلقوا شعره وقيَّدوه لكي يُجرِّدوه من كرامته ووقاره، لم يدروا أنَّهم كانوا يؤكِّدون هذه الكرامة. كانت تلك هي حال أبي بعد أن حلقوا نصف شعر رأسه، ووضعوا عليها نصف دائرة من الغُرزِ الجراحيَّة بعد الجراحة، علاوة على أنابيبَ عدَّة لصقوها بوجهه ورقبته وصدره. ووسط كلِّ هذا بدا وجهه العجوز مهيبًا...".

وعندما وصلت إلى المستشفى وجلست بجانب سريره، غلبتني المشاعر بغتةً ولم أستطع الكلام. لنحو ثلاثين سنة، ظلَّ د. پول براند العملاق الذي في حياتي، الذي كُنتُ ألجأ إليه للمشورة والحكمة والإلهام والإيمان. أمَّا حينها فما بقي منه سوى قشرة خارجيَّة هشَّة من جسده المادِّيِّ. مِلتُ نحوه وقبَّلت جلد رأسه الحليق الناعم كجلد طفل وليد.

وفورًا مدَّ يده اليُسرى ليمسك بشيء، فوضعتُ يدي في يده. وبغرابة، بدأ يفحصها بأصابعه، مُمرِّرًا أصابعه فوق أصابعي، يعتصرها ويختبرها ويحلِّلها. وفعل الشيء نفسه بيده اليُمنى لمَّا وقفتُ إلى جانب سريره. إنَّها غريزة اكتسبها من خمسين سنة بصفته متخصِّصًا في جراحة اليد، ظلَّت مطبوعة في التوصيلات العصبيَّة لمخِّه حتَّى في غيبوبته. لقد كان كثيرًا ما يقول لي إنَّه يستطيع أن يتذكَّر أيادي مرضاه أكثر ممَّا يتذكَّر وجوههم. الآن لا يستطيع أن يتكلَّم، وربَّما لا يستطيع حتَّى أن يفكِّر، ويستطيع بالجهد أن يتنفَّس، لكنَّه يستطيع أن يمدَّ يديه اللتين قدَّمتا الشفاء لكثيرين.

(يتبع في التأمُّل التالي)

من كتاب: على صورة الله

٣١ كانون الثاني/يناير

صلاحٌ يُذهِب العقل

(يتبع من التأمُّل السابق)

ثُمَّ بعد أيَّام قليلة، من رسالة إلكترونيَّة عبرت نحو نصف الكرة الأرضيَّة، عرفت أن د. پول براند تلفَّظَ النفس الأخير في الثامن من تمُّوز/ يوليو، قبل عيد ميلاده الثمانين بأسبوع. طَوال ذلك الأسبوع، في أوقات غير متوقَّعة– عند استيقاظي، أو في أثناء الاستحمام، أو في أثناء الصلاة– كُنتُ أجد نفسي أبكي. وكانت زوجتي تسأل: "ماذا بك؟"، فكنت أجيب إجابتي الوحيدة: "أفتقد د. براند". وظلَّت عبارة تذهب وتجيء في ذهني: لست مستعدًّا للمسير بمفردي.

وعندما جاء دوري للحديث في خدمة تأبينه، أوَّل ما فعلته هو أنَّني خلعت حذائي وجوربيَّ ووقفت حافي القدمين. هذا ما بدا لي مناسبًا لكي أُكرم بطريقة بسيطة رجلًا كان ينتهز كلَّ فرصة ليخلع حذاءه، وشكَّل جماعة ضغط ضدَّ سياسات "لا حذاء، ولا قميص، إذًا لا خدمة"، وقضى آلاف الساعات يبحث عن أفضل طريقة لحماية أقدام المصابين بالجذام التي فقدت الإحساس، والذين تشكِّل الأحذية والصنادل الضيِّقة خطرًا عليهم.

إلى الآن لست مستعدًّا للمسير بمفردي. لكنَّ سيري الصعب في رحلة الإيمان هذه يعتمد كثيرًا على القوَّة التي حصلت عليها من عملاق الإيمان الذي استندت إليه مدَّة ثلاثين سنة، كما يستند المرء إلى شجرة هائلة وسط الغابة. وكما سمعنا في خدمة التأبين، فإنَّ الآثار التي تركها د. براند قد امتدَّت لمسافة طويلة ومساحة عريضة، عبر القارَّات. وقد أثَّرت ليس فقط في زملائه الجرَّاحين، بل أيضًا في الممرِّضات، وفي مرضى الجذام، وفي الجيران، وفي الأشخاص العاديِّين الذين تلامسوا مع حياته.

لا أعرف شخصًا جسَّدت حياته عبارة المسيح المشهورة: "من أضاع حياته من أجلي، يجدها" أكثر من د. براند. من منظور الثقافة المهووسة بالنجاح، يُعدُّ قضاء جرَّاح عظام حياته المهنيَّة بين الأكثر فَقرًا والأكثر تعرُّضًا للقهر على هذا الكوكب، مثال صارخ من أمثلة "إضاعة الحياة". لكنَّ د. براند عاش حياة مُشبَعة وغنيَّة، كأكثر من عرفتهم، جامعًا بين التواضع والعرفان، والإحساس الهائل بالمغامرة.

أشعر بالامتياز، لأنِّي أسهمتُ بدور ما، بصفتي كاتبًا شريكًا معه، في تسليط الضوء على حياته. إنَّك تحتاج فقط لأن تقابل قدِّيسًا حقيقيًّا واحدًا لكي تؤمن، وقد نلتُ إمتيازًا لا يُقَدَّر بقضائي ساعات طويلة أتعرَّف إلى ذلك التابع الأمين والمميَّز ليسوع. من أجل ذلك يا پول براند، لك شكري.

من كتاب: على صورة الله

1) البروزاك هو عقار مضادٌّ للاكتئاب يجعل الإنسان هادئًا بصورة استثنائيَّة.
2) المقصود هو المجتمع الأميركيُّ ونظرته إلى المسيحيِّين المؤمنين المحافظين (المترجم).
3) كتاب "**الإيمان القويم**" (Orthodoxy) من منشورات أوفير للطباعة والنشر (الناشر).
4) كتاب "الأسد والساحرة وخزانة الملابس" للكاتب سي. أس. لويس من منشورات أوفير للطباعة والنشر (الناشر).

شباط/فبراير

عالَمان

كان المُعلِّم اليهوديُّ جوزيف شنيرسون (Joseph Schneerson) يمنتمي إلى طائفة الحسيديم في أثناء بدايات الشيوعيَّة في روسيا. ويروى عنه أنَّه قضى الكثير من الوقت في السجن، مضطهدًا من أجل إيمانه. وذات صباح سنة ١٩٢٧م، بينما كان يصلِّي في مجمع لينينغراد، اندفعت الشرطة السرِّيَّة إلى المجمع وأُلقِيَ عليه، وأُخذ إلى قسم الشرطة حيث عذَّبوه طالبين إليه أن يتوقَّف عن أنشطته الدينيَّة، فرفض ذلك. عندئذ، لوَّح المحقِّق بمسدَّس أمام وجهه قائلًا: "جعلت هذه اللعبة الصغيرة الكثير من الناس يغيِّرون آراءَهم". فأجاب الحاخام شنيرسون: " يمكن أن تخيف هذه اللعبة الصغيرة فقط أولئك الذين لهم آلهة كثيرة وعالمٌ واحد. أمَّا أنا؛ فلأنَّ لديَّ إلهًا واحدًا وعالمَين، لا آبَه كثيرًا بهذه اللعبة الصغيرة".

يظهرُ موضوعُ "عالَمَان"، أو مملكتان، كثيرًا في تعليم يسوع، وهناك قصَّتان في الأصحاح السادس عشر من إنجيل لوقا ترسمان خطًّا فاصلًا واضحًا بين هذين العالمَين. يقول يسوع: "إنَّ المُستعليَ عِندَ الناس هو رِجسٌ قُدَّام الله" مُعلِّقًا على قصَّة الوكيل الحكيم. أمَّا القصَّة الثانية، فهي قصَّة الغنيِّ ولعازر، وتتناول الفرق بين العالمَين. يزدهر الغنيُّ في هذا العالم غير آبهٍ أن يصنع شيئًا لحياته الأبديَّة، ومن ثمَّ يواجه التبعات، مُقابل المتسوِّل الذي يتضوَّر جوعًا، والذي يُعدُّ فاشلًا في هذه الحياة لا شكَّ، لكنَّه يحصل على المكافأة الأبديَّة.

يحكي يسوع مثل هذه القصص للمستمعين اليهود الذين يمتلئ تراثهم بقصص عن الآباء الأثرياء، مثال إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وملوك أقوياء، مثال داود وسليمان، وأبطال منتصرين. لكن يظلُّ يسوع يؤكِّد تلك القِيَم المتناقضة بين العالمَين. ربَّما يكون لِمَن قيمَتهُم قليلة في هذا العالم (الفقراء والمضطهدين مثل لعازر) قاماتٌ عُليا في ملكوت الله. ودائمًا ما كان يسوع يقدِّم هذا العالم بوصفه مكانًا نستثمر فيه للعالم الآخر، لكي نكنز فيه كنوزًا للدهر الآتي.

وفي سؤال يجمع بين العالمَين بصورة مُبهرة، يسأل يسوع: "ماذا ينتفع الإنسان لو رَبِح العالم كلَّه وخسر نفسه؟".

من كتاب: التَقِ الكتاب المقدَّس

٢ شباط/فبراير

هموم المال

كان لدى يسوع الكثير ليقوله عن المال، أكثر من أيِّ موضوع آخر. لكن بعد مرور ألفي سنة، يظلُّ لدى المسيحيِّين مشكلة في فهم ما قاله حقًّا. أحد أسباب ذلك أنَّه نادرًا ما يُقدِّم نصيحة "عمليَّة"؛ فهو يتجنَّب التعليق على أيِّ نظام اقتصاديٍّ بعينه. وكما في لوقا ١٢، فهو يرفض أن يتدخَّل في خلافات شخصيَّة حول الأمور الماليَّة. كان يسوع يرى المال أساسًا بصفته قوَّة روحيَّة. وقد لخَّص أحد الرعاة الأمور الخاصَّة بالمال في ثلاثة أسئلة:

كيف حصلت عليه؟ (هل ينضوي الأمر على ظُلم، أو غشٍّ، أو قهر للفقراء؟)

ماذا تفعل به؟ (هل تقوم تكنزه؟ هل تستغلُّ آخرين؟ هل تضيعه على رفاهيَّات لا حاجة إليها؟)

ماذا يفعل هو بك؟

ومع أنَّ يسوع يتناول هذه القضايا الثلاث، فإنَّه يركِّز على القضيَّة الأخيرة بالتحديد. وكما يشرح، فإنَّ المال يعمل عمل الأوثان نفسه؛ إذ يمكنه أن يتحكَّم في حياة الإنسان الشخصيَّة ويسيطر عليها، ويشتِّت انتباهه بعيدًا عن الله. ويتحدَّى يسوع الناس لكي يتحرَّروا من سلطان المال، حتَّى وإن كان ذلك يعني التخلُّص منه كليًّا.

يلخِّص لوقا ١٢ مأخذ يسوع من المال تلخيصًا جيِّدًا؛ فهو لا يدين كلَّ امتلاكٍ للمال ("أباكم السماوي يعلم أنَّكم تحتاجون إلى هذه كلِّها [الطعام والشراب والملابس]")، لكنَّه يحذِّرنا بشدَّة أن نضع رجاءنا على المال ليؤمِّن لنا المستقبل. وكما تشير قصَّة الغنيِّ الغبيّ، سوف يفشل المال في النهاية في حلِّ أكبر مشكلات الحياة.

لذا يحثُّ يسوع سامعيه أن يكنزوا في ملكوت السموات؛ لأنَّ مثل هذه الكنوز يمكن أن تفيدهم في هذه الحياة، وفي الدهر الآتي. كان دائمًا يقول: "لا تهتمُّوا"، لكن ثقوا أن يسدِّد الله احتياجاتكم الأساسيَّة. ولكي يؤكِّد هذه النقطة، يقدِّم مثالًا، هو الملك سليمان، أغنى إنسان في العهد القديم. ولليهود المُعتزِّين بقوميَّتهم، يُعَدُّ سليمان بطلًا عظيمًا، لكنَّ يسوع يراه من منظورٍ آخر: لقد تبدَّدت ثروة سليمان منذ زمنٍ بعيد، وحتَّى في أوج ازدهاره لم يكن مُبهِرًا مثل زهرة بريَّة في الحقل. لذا من الأفضل أن تثق بالإله الذي يُسبغ عنايته على الأرض كلِّها، عن أن تقضي حياتك قلقًا بشأن المال والممتلكات.

من كتاب: التَقِ الكتاب المقدَّس

من الخيام إلى المراكز التجاريَّة

في بدايات سنة ٢٠٠٩م، سافرتُ في رحلة مع فريق من المملكة المتَّحدة إلى منطقة الخليج العربيِّ حيث شاهدنا مشاهد غريبة علينا: رجلٌ يمشي في المركز التجاريِّ (المول) وخلفه زوجاته الأربع، ونساءٌ يرتدين ملابس سوداء تغطِّي أجسادهنَّ بالكامل ويتكلَّمن من خلف النقاب بهواتفهنَّ النقَّالة الحديثة وهنَّ يتمشَّين على الشاطئ وسط الأوروپيَّات اللاتي يرتدين ملابس البحر.

منذ جيلَيْن مضيا، كان السكَّان المحلِّيُّون في الخليج بَدوًا يرتحلون عبر الصحراء في قوافل على ظهور الجمال. أمَّا الآن، فيمثِّلون نحو ١٠ ٪ فقط من السكَّان في بعض البلدان، والباقون وافدون يعملون من أماكن مثل الهند والفيليپِّين، علاوةً على رجال أعمال أثرياء.

وفي أثناء هذه الرحلة كانت لي فرصة التكلُّم في أربعة من الإمارات العربيَّة، وفي الكويت. ويوجد في هذه البلاد ما لا يزيد على حفنة من المؤمنين المسيحيِّين المحلِّيِّن. وتسمح الحكومات للكنائس بخدمة الأجانب، ما لم يُحاولوا تغيير إيمان المحلِّيِّين. كما يُمكن أن يخدم مبنىً واحد من المباني الكنسيَّة عشرات الكنائس (يصل العدد في الكويت إلى خمسة وسبعين كنيسة تعبد في المبنى نفسه)، حيث يأخذ كلٌّ منها دوره في استخدام المبنى. من المؤكَّد أنَّ الله يبتسم راضيًا عن هذا القدر من الوحدة الكنسيَّة- المفروضة من الحكومات هناك.

خدم المرسلون الأوائل، في القرن الماضي، خدمة جيِّدة وتركوا انطباعًا جيِّدًا. العيادة التي أسَّسها صموئيل زويمر (Samuel Zwemer) في البحرين، لا تزال تحمل صندوق البريد رقم "١" هناك. كما قدَّمنا أيضًا خدمة عبادةٍ في مستشفى الواحة (Oasis Hospital) المهيَّأة على أعلى مستوى في أبو ظبي والتي أسَّسها المرسلون سنة ١٩٦٠م. في هذا المستشفى، ولَّد الأطبَّاء والقابلات سبعة عشر فردًا من أفراد الأسرة الحاكمة بأمانٍ وسلام. ونتيجة لهذه الخدمة، انخفض معدَّل وَفَيات الأطفال في هذه البلاد من ٥٠٪ إلى ١٪.

إنَّني أكنُّ احترامًا كبيرًا للخدَّام المسيحيِّين الذين اختاروا هذا الجزء من العالم. وبينما كنت مقيمًا في بيت الضيافة، قابلت زوجين شابَّين لطيفين يخدمان في أفغانستان، في منطقة تقع دائمًا تحت تهديد عنف جماعة طالبان. في هذه الثقافة، ببساطة، لا يظهر الرجال والنساء في العلن معًا، لذلك لا يمكنهما مثلًا الخروج معًا في موعد رومانسيٍّ، هذا إنْ وُجِدَ أصلًا مكان يذهبان إليه. كانا من وقت إلى آخر يسمعان صوت جارة تصرخ لأنَّ زوجها يضربها، ولا يستطيعان فعل شيء سوى مداواة جراحها لاحقًا. ويحاولان تقديم تعليم أساسيٍّ في دولة تصل نسبة المتعلِّمين فيها إلى ٣٧٪.

(يتبع في التأمُّل التالي)

مذكِّراتُ رحلاتٍ غير منشورة، الشرق الأوسط، ٢٠٠٩م

٤ شباط/فبراير

كنيسة حيِّ الزبَّالين

(يتبع من التأمُّل السابق)

ومن بلاد الخليج سافرنا إلى القاهرة. تقع مباني المدينة ذات اللون البنِّيِّ على جانبَي طُرق مشقوقة في الصحراء لأميال في كلِّ الاتِّجاهات. يأتي يوميًّا من المحافظات المختلفة ملايين ليعملوا في القاهرة، ليضيفوا إلى تعداد المدينة المكتظَّة أصلًا بملايين غيرهم. وبعكس بلدان الخليج، يوجد في مصر مجتمع مسيحيٌّ تاريخيٌّ، يشكِّل نحو ١٠٪ من السكَّان، يعودون إلى عصر القدِّيس مرقس الذي بشَّر بالإنجيل في مصر.

وفي يوم من أيَّام الآحاد، زرت "كنيسة حيِّ الزبَّالين" في ضاحية المُقطَّم، وهي منطقة أحياء فقيرة يسكنها نحو ٣٠.٠٠٠ إنسان يعيشون على مهنة جمع القمامة. وتعتمد القاهرة، بسبب عدم وجود صناعة منتظمة لجمع القمامة، على جامعي القمامة الذين يطوفون الشوارع ويجمعون القمامة من البيوت والشوارع في أكياس بلاستيكيَّة. وبعد نقل القمامة إلى المنطقة التي يعيشون فيها في المقطَّم، يبدأون بفرز البلاستيك والمعادن القابلة لإعادة التدوير، ويبيعونها مقابل دخلٍ متواضع.

منذ نحو ثلاثين سنة، اكتشف أحدهم مدخل كهف كبير بالقرب من هذا الحيِّ الفقير، ومع الوقت نَقَل المسيحيُّون هناك ما يقرب من ١٤٠ ألف طُنٍّ من الأحجار من داخل هذا الكهف لبناء مسرحٍ يسع ٣٠٠٠ مقعد. ومع الوقت، نَمَت الكنيسة في عدد مُرتاديها وتجاوز عدد المقاعد، وهم الآن يجتمعون في ما يشبه المسرح الرومانيَّ المحفور في الصخر ويسع ١٣ ألفَ مقعد. ونحت نحَّات بولنديٌّ مشاهد كتابيَّة في صخر الجدران، كما أنَّ الأرض جميلة ومزروعة وتُشكِّل واحة جمال في قلب صحراء من الفقر. وقد أُتيحت لنا فرصة حضور اجتماعات خاصَّة هناك، اتَّسم بعضها بالسرِّيَّة.

إنَّه جزءٌ مختلف من العالم فعلًا- جزءٌ يظلُّ في قلب اهتمام العالم. لقد شاهدت ثقافة غريبة، وسمعت رجاءً موجَّهًا إلى الأميركيِّين ألَّا يحكموا على الشرق الأوسط بأسره بسبب مجموعة صغيرة من الإرهابيِّين، وعدت شاعرًا بالعرفان لكوني أعيش في ديمقراطيَّة فيها ضمانات حقيقيَّة لحقوق الإنسان، ومعاملة محترمة للمرأة وللأقلِّيَّات.

مذكِّراتُ رحلاتٍ غير منشورة، الشرق الأوسط، ٢٠٠٩م

دعوة داشاو

اجتمعت ذات مرَّة بأحد الرعاة الذين يتمتَّعون باللطف والحكمة. كان ذلك الراعي في أثناء خدمته في الحرب العالميَّة الثانية قد شارك في تحرير معسكر التعذيب الكائن في مدينة داشاو الألمانيَّة. وهكذا سألته عن خبرته في هذا الأمر.

"عُيِّنتُ مع زميلي للخدمة في إحدى شاحنات الجيش. كانت الشاحنة ممتلئة بالجثث، مرصوصة في صفوف مُرتَّبة، تمامًا كما يُرصُّ خشب المدفأة. كانت مهمَّتنا تشبه نقل الأثاث من مكان إلى مكان. قضيت ساعتين في تلك الشاحنة، وكانت المشاعر السلبيَّة تأتي في صورة أمواج، أمَّا الغضب فكان مستمرًّا، وكان كالوقود لعملنا.

ثُمَّ عُدنا لتولِّي أمرِ ضبَّاط النخبة الألمان (SS) الذين كانوا يتولَّون مسؤليَّة داشاو، وكانوا موضوعين تحت الحراسة في أحد العنابر. حينها طلب أحد قادتنا متطوِّعًا ليصطحبَ مجموعة من هؤلاء الضبَّاط المساجين الاثني عشر إلى أحد مراكز التحقيق. وبعد بضع دقائق من اختفائهم بين الأشجار، سمعنا صوت قرقعة السلاح الآليّ. وسرعان ما خرج تشَك (Chuck) المتطوِّع يتمشَّى خارجًا من خلف الأشجار، ولا يزال الدخَّان يتصاعد من فُوَّهة سلاحه. وقال بنظرة مُشمئزَّة: «لقد حاولوا كلُّهم الهَرَب».

هذا هو اليوم الذي شعرت فيه بدعوة الله لي لأكون راعيًا. أوَّلًا، كان هناك رُعب الجثث التي تراصَّت في الشاحنة. وقتها علِمتُ بلا أدنى شكٍّ أنَّني يجب أن أخدم طَوالَ حياتي كلَّ ما يقاوم مثل هذا الشرِّ– أن أخدم الله".

ثُمَّ جاء ذلك الحدث مع تشَك. لقد كدت أتقيَّأ من الخوف أن يستدعيني القائد ويطلب منِّي أن أُصاحب المجموعة التالية من ضُبَّاط المخابرات الألمانيَّة. والخوف الأعظم هو أن أفعل ما فعله تشَك. إنَّ الوحش الذي في هؤلاء الضبَّاط، هو أيضًا في داخلي".

وبعد لحظاتٍ من الصمت أكمَل: "إنَّني أرى الربط بين ذاك وبين عملي الآن. ودون أن أكون ميلودراميًّا، أتساءل أحيانًا عمَّا كان يمكن أن يحدث إذا صادَقَ شخصٌ حسَّاس وماهر ذلك الشابَّ المدعوَّ آدولف هتلر وقتما كان يتجوَّل في شوارع فيينا في حالة التشويش التي كان فيها. ربَّما كان العالم ليتجنَّبَ سفك كلِّ هذه الدماء– ولكانت داشوا قد أُنقِذَت. ولولا ذلك، لا أعلم من كان يمكن أن يكون جالسًا على الكرسيِّ الذي تجلس عليه أنت الآن. وحتَّى لو كُنتُ سوف أقضي باقي سنوات حياتي مع «نكِرات»... فإنَّني تعلَّمت في

تلك الشاحنة في داشاو أنَّه لا يوجد نكرات، وتعلَّمتُ معنى «صورة الله» في الإنسان".

من كتاب: كُنتُ أتساءَل فقط

٦ شباط/فبراير

التقدُّم إلى الماضي

في صباح أحد أيَّام السبت، قرَّرت أن أشطب قائمة مهامِّي البيتيَّة وأذهب إلى السينما. وسرعان ما وجدت نفسي في قاعة السينما أشاهد فيلمًا بعنوان "اتِّباع الفوهرر" (Following the Fuhrer)، وهو فيلم عن الرايخ الثالث. في هذا الفيلم، وهو فيلم المخرج إروين ليسير (Erwin Leiser) الثاني عن ألمانيا في عهد هتلر، حاول المخرج أن يعيد خلق الحياة اليوميَّة في تلك الحقبة، فرَبَط بين المقتطفات الإخباريَّة المعروفة، وقصص دراميَّة صغيرة من الحياة اليوميَّة في ألمانيا في ذلك الوقت.

يستكشف الفيلم المنطقة الرماديَّة بين ما سوف يظهر بوضوح في سياق التأريخ اللاحق لتلك الفترة، وما كان يحدث فعلًا في الحياة اليوميَّة المعتادة. والآن، عندما ننظر إلى الوراء، فإنَّ شرور النازيَّة تظهر بصورةٍ واضحة، فالأفلام السينمائيَّة المُصوَّرة التي تصوِّر القصف، وحشود الجنود، ومعكسرات التعذيب، كلُّها تُوثِّق الشرَّ بوضوح. ولكنْ كان على المواطنين الألمان أن يتجاوبوا يوميًّا مع هذه الشرور، في صورة خيارات صغيرة معتادة يتَّخذونها وهم داخل ضباب كثيف من التشويش.

وعندما تمشَّيت عائدًا إلى المنزل بعد مشاهدة ذلك الفيلم، كنت أتأمَّل. إنَّنا لا نحبُّ أن نحسبَ الشرَّ أمرًا معتادًا، بل نُفضِّل أن تكون الشخصيَّات الشرِّيرة واضحة وأكبر من الحجم الطبيعيّ، مثل أدولف هتلر مثلًا. وبسبب شخصيَّة مثل هتلر، نشعر بأنَّنا على ما يرام، وربَّما نفشل في أن نرى أنَّنا نحن أيضًا لا نحتمل المختلفين عنَّا، بل نعبد آلهة غريبة أيضًا.

ثُمَّ بدأت أفكاري تتَّجه أكثر صوب بلدي، الولايات المتَّحدة. ما الذي سيتَّضح لصانعي الأفلام الذين، بعد أربعين سنة من الآن مثلًا، سوف يفحصون بعض الأشرطة التي سُجِّلت في زماننا؟ هل سيحسبون أنَّ زماننا كان شعلة مضيئةً للحرِّيَّة؟ أم أنَّ التاريخ سوف يطوينا معتبرًا إيَّانا الحضارة التي بسبب الأسلحة التي اخترعناها قُضِيَ على البشريَّة؟ كيف ستبدو بعد بضع عشرات من السنين، حالات الإجهاض التي يبلغ عددها مليون حالة سنويًّا؟ وكيف ستبدو حضاراتنا المادِّيَّة وتراجعنا الثقافيُّ والأخلاقيُّ؟

وبينما عادت كلُّ أفكاري إلى الداخل، تساءلتُ كيف لمخرج مثل إروين أن ينشر بعد عشرات السنين مشاهد يوميَّة عن حياتي الشخصيَّة بين الأحداث المعروفة التي تميِّز عصرنا المشوَّش؟ شعرتُ حينها بشيء من العجز أمام ذلك المصير المشؤوم- شعورٍ لم يَحضُرني منذ ستِّينيَّات القرن العشرين.

وعندما وصلت إلى المنزل، أخرجت قطعة مِمَّا تبقَّى من فطيرة بيتزا من علبتها الكرتونيَّة المحفوظة في الثلَّاجة، وسخَّنتُها في فُرن المايكروويف. ثُمَّ قرَّرت أن أُنجزَ قائمة مهامِّي المنزليَّة. وقضيت المتبقِّي من النهار أضع عوازل للصوت والغبار حول نوافذ البيت.

من كتاب: كُنتُ أتساءَل فقط

ليس لَيًّا للذراع

أتساءل في بعض الأحيان: كيف كان يسوع ليتصرَّفَ في هذا العالم الذي تسوده وسائل الإعلام واسعة الانتشار والخدمة التي تُدار بواسطة التقنيات الحديثة؟ لا أستطيع أن أتخيَّله مهمومًا بشأن تفاصيل إدارة مؤسَّسة ضخمة. ولا أستطيع أن أتصوَّره يسمح لأحد فنَّاني التجميل بأن يُجرِيَ تحسينات على مظهره قبل الظهور على التلفاز مثلًا. ومن الصعب أن أتخيَّل رسائل جمع التمويل يكتبها يسوع المسيح ويرسلها لدعم خدمته.

يميل الصحفيُّون إلى إجراء تحقيقات صحفيَّة تكشف الوُعَّاظ والمُبشِّرين الذين يَدَّعون قدرات شفاء معجزيَّة دون أدلَّة كافية تدعم ذلك. وعلى العكس تمامًا من هؤلاء، كان يسوع يميل إلى إخفاء قدراته المعجزيَّة الواضحة. سبع مرَّات في إنجيل مرقس قال للشخص الذي شفاه: "انظر لا تَقُل لأحد!"، وعندما كانت الجموع تزدحم من حوله، كان يهرب إلى موضع خلاء، أو يستقلُّ قاربًا إلى عبر البحيرة.

نستخدم في بعض الأحيان تعبير "عقدة المنقذ" لنَصِفَ ظاهرَةً مَرَضِيَّة تدور حول الهوس بحلِّ مُشكلات الآخرين. والمثير للعجب أنَّ المخلِّص الحقيقيَّ بدا متحرِّرًا تمامًا من هذه العقدة؛ إذ لم يكن يسوع يشعر برغبة قهريَّة في إقناع كلِّ سكان العالم في أثناء حياته، أو شفاء من لم يكونوا مستعدِّين للشفاء.

لم أشعر بتاتًا بأنَّ يسوع يلوي ذراع أيِّ إنسان أو يرغمه على أيِّ شيء ولو كان ذلك الشيء في مصلحة ذلك الشخص. على العكس، كان دائمًا ما يوضِّح نتائج كلِّ خيار، ثمَّ يُعيد القضيَّة إلى ملعب الإنسان ليقرِّر بنفسه. مثلًا، أجاب ذات مرَّة على سؤال رجل غنيٍّ بكلمات لا تنازل فيها البتَّة، ثمَّ تركه يمضي. ويضيف إنجيل مرقس هذه الملاحظة بوضوح عن الإنسان الذي رفض نصيحة يسوع بالقول: "نظر إليه يسوع وأحبَّه".

باختصار، أظهر يسوع احترامًا كبيرًا لحرِّيَّة الإنسان. ونحتاج في مجال الخدمة أن نتعلَّم من أسلوبه. وكما لاحظ إلتون تروبلد (Elton Tureblood) فإنَّ الرموز الكُبرى التي قدَّمها يسوع في دعوته للناس إلى دخول الملكوت، كانت رموزًا مُنفِّرة، مثل الحِمْل، وكأس الألم، ومنشفة الخدمة. وكان عندما يدعو الناس، يقدِّم دعوة هي أبعد ما تكون عن الترغيب والمناورة، فقد كان يقول: "احمل صليبك واتبعني".

"اكتشاف يسوع"، مجلَّة المسيحيَّة اليوم، ١٧ حَزِيران/ يونيو ١٩٩٦م

كيف كان يبدو؟

مع أنَّ الكثير من الدراسات أُجريت، فإنَّنا لا نزال نفتقر إلى بعض المعلومات الأساسيَّة عن يسوع؛ فالأناجيل الأربعة تُهمِلُ الكلام عمَّا يزيد على تسعة أعشار حياته، ولدينا فقط مشهدٌ واحدٌ من فترة مراهقته ولا نعرف شيئًا عن دراسته. أمَّا تفاصيل حياته الأسريَّة، فنادرة جدًّا حتَّى إنَّ الدارسين لا يزالون يختلفون حول عائلته وأقربائه. مسائل السيرة الذاتيَّة التي تشغل بال المعاصرين اليوم، لم تشغل بال كاتبي الأناجيل.

كما أنَّنا لا نعرف شيئًا عن شكل يسوع، مثل طوله، ولون عينَيه، إذ لم تظهر ليسوع صُورٌ شخصيَّة تقترب من الواقعيَّة إلَّا في القرن الخامس، ولم تكن هذه سوى تكهُّنات، فحتَّى ذلك الوقت، كان اليونانيُّون قد صوَّروه مثل شابٍّ بلا لحية شبيهٍ بالإله أپولو.

وذات مرَّة، كُنتُ أدرِّس في أحد دروس التعليم المسيحيِّ حيث عرضت على المُشاركين عشرات من الصور الفنِّيَّة التي تُصوِّر يسوع في هيئات عدَّة- أفريقيَّة، وكوريَّة، وصينيَّة- ثُمَّ سألتُهم: كيف تظنُّون كان شكل يسوع؟ اتَّفق الغالبيَّة على أنَّه كان طويل القامة (وهذا غير مُرجَّح من جهة يهوديٍّ من القرن الأوَّل)، كما أنَّ أغلبهم قال إنَّه كان وسيمًا، ولم يقل أحد إنَّه كان زائد الوزن.

ثُمَّ عرضتُ أحد أفلام بي. بي. سي (BBC) عن حياة المسيح والتي ظهر فيها الممثِّل الذي يمثِّل شخصيَّة يسوع وقد كان بدينًا، حتَّى إنَّ بعضًا من الحاضرين في الدرس حسبوا ذلك منفِّرًا. إنَّنا نُفَضِّلُه طويل القامة، ووسيمًا ونحيفًا.

كان يشير أحد التقاليد التي تعود إلى القرن الثاني الميلاديِّ إلى أنَّ يسوع كان منحني الظهر. وفي العصور الوسطى، اعتقد الكثير من المسيحيِّين أنَّه كان يعاني من الجذام. في كلِّ الكتاب المقدَّس لا أستطيع أن أجد إلَّا وصفًا جسديًّا واحدًا ليسوع، وهو نُبوَّة مكتوبة قبل ميلاده بمئات السنين، وفيها يصفه إشعياء، وسط فقرة يطبِّقها العهد الجديد على يسوع.

"لا صُورَةَ لَهُ وَلا جَمَالَ فَنَنْظُرَ إِلَيْهِ، وَلا مَنْظَرَ فَنَشْتَهِيَهُ. مُحْتَقَرٌ وَمَخْذُولٌ مِنَ النَّاسِ، رَجُلُ أَوْجَاعٍ وَمُخْتَبِرُ الْحَزَنِ، وَكَمُسَتَّرٍ عَنْهُ وُجُوهُنَا، مُحْتَقَرٌ فَلَمْ نَعْتَدَّ بِهِ...مَجْرُوحٌ لأَجْلِ مَعَاصِينَا، مَسْحُوقٌ لأَجْلِ آثَامِنَا. تَأْدِيبُ سَلاَمِنَا عَلَيْهِ، وَبِحُبُرِهِ شُفِينَا".

من الواضح أنَّ تمثيلاتنا المُبهرة ليسوع تُعبِّر عنَّا أكثر ممَّا تعبِّر عنه هو.

"اكتشاف يسوع"، مجلَّة المسيحيَّة اليوم، ١٧ حَزِيران/ يونيو ١٩٩٦م

الكَفُّ عن "تخفيف" يسوع

عندما بدأت أؤلِّف كتابًا عن يسوع، صدمني انطباعٌ واحدٌ أكثر من أيِّ انطباعٍ آخر: أنَّنا "خفَّفنا" يسوع. إنَّ يسوع الذي تعلَّمتُ عنه لمَّا كنت طفلًا كان لطيفًا وغير منفِّر، مثل تلك الشخصيَّات التي يقدِّمونها للأطفال في برامج التلفاز. بالتأكيد، كان يسوع يتميَّز فعلًا بصفات مثل اللطف والشفقة تجتذب الأطفال. لكنَّه لم يكن كذلك فقط.

لقد أدركت تلك الحقيقة عندما درست الموعظة على الجبل. "طوبى للفقراء، طوبى للمضطهدين. طوبى للنائحين". لهذه المقولات رَنَّة شاعريَّة مأثورة، إلَّا إذا صادف الأمر وكنت أنت فقيرًا أو مُضطهدًا أو نائحًا. المُشرَّدون المجتَمِعون حول النار في شوارع مُدننا الكُبرى، والمساجين الذين يُعذَّبون والذين تتناقل منظَّمة العفو الدوليَّة صورهم، وأُسَر ضحايا الإرهاب– من يفكِّر أن يُطَوِّبَهُم، أو يهنِّئهم؟

في كلِّ الأفلام التي صُنِعَت عن يسوع، كان التصوير الأكثر استفزازًا–وربَّما الأكثر دِقَّة– للموعظة على الجبل، هو ذلك الذي ظهر في الفيلم منخفض التكاليف الذي أنتجته البي بي سي بعنوان "ابن الإنسان" (Son of Man). كان الجنود الرومان قد غزوا لتوهِّم قرية جليليَّة للانتقام من بعض المعتدين على الإمبراطوريَّة، فصلبوا عددًا من الرجال اليهود الذين في سنِّ القتال، ودفعوا زوجاتهم المُنهارات إلى الأرض، بل قتلوا أطفالهم الرُّضَّع. وسط هذا المشهد المأساويِّ العنيف من الدماء والدموع والعويل على الموتى، يخطو يسوع وعيناه مشتعلتان صائحًا بصوتٍ عالٍ ليُغطِّي على صوت الأنين: "أقول لكم: أحبُّوا أعداءَكُم، وصلُّوا لأجل الذين يضطهدونكم".

يمكنك أن تتخيَّل ردَّ فعل القرويِّين على مثل هذا التصريح غير المقبول. لم تُخفِّف الموعظة على الجبل أوجاعهم، بل أثارت غضبهم.

لقد خرجت من دراستي ليسوع شاعرًا بالراحة والتعزية، وأيضًا بالرُّعب. لقد جاء يسوع إلى الأرض "مملوءًا نعمة وحقًّا"، كما كتب البشير يوحنَّا في إنجيله. لقد كان الحقُّ الذي يقدِّمه يريح حَيرتي العقليَّة، أمَّا نعمته فكانت تُهدِّئ حَيرتي الوجدانيَّة، لكنَّني أيضًا صادفت جانبًا مُرعبًا من يسوع، وهو جانب لم أتعلَّم عنه في مدارس الأحد. هل خرج أحد من محضر يسوع شاعرًا بالرِّضى عن حياته؟

قليلون جدًّا شعروا بالراحة وهم بالقرب من يسوع. ومن شعروا بذلك هم الأشخاص الذين لم يشعر

أحد بالراحة معهم. إنَّ يسوع الذي قابلته في الأناجيل لم يكن بتاتًا مُرَوَّضًا أو "مُخَفَّفًا".

"اكتشاف يسوع"، مجلَّة المسيحيَّة اليوم، ١٧ حَزِيران/ يونيو ١٩٩٦م

١٠ شباط/فبراير

طريقة أبطأ وألطف

تكشف التجربة في البرِّيَّة عن فرق عميق بين قوَّة الله وقوَّة الشيطان. الشيطان يملك القدرة على الإرغام أو الإبهار، أو فرض الطاعة بالقوَّة، أو التدمير. لقد تعلَّم البشر كثيرًا من هذا النوع من القوَّة، واستخدمت الحكومات هذا النوع من القوَّة بعُمقٍ وشِدَّة. يُمكن أن يُرغِمَ البشرُ بشرًا آخرين لكي يفعلوا أيَّ شيء يريدونه. إن قوَّة الشيطان خارجيَّة وعنيفة.

أما قوَّة الله، فهي على العكس من ذلك؛ فهي داخليَّة ومسالمة. تبدو هذه القوَّة أحيانًا مثل الضعف؛ ففي التزامها وجوبَ التغيير من الداخل إلى الخارج، وفي اعتمادها الدائم على الاختيار الحُرِّ للإنسان، ربَّما تشابه نوعًا من أنواع تخلِّي الملوك عن عروشهم. وكما يعرف كلُّ والدٍ ووالدة وكلُّ عاشق، يمكن أن يصير الحبُّ عاجزًا إذا قرَّر المحبوب أن يحتقره.

قال توماس ميرتون إنَّ "الله ليس نازيًّا". بالتأكيد، الله ليس كذلك؛ فقد اختار سيِّد الكون أن يكون ضحيَّة للكون، ويقف عاجزًا أمام فرقة من الجنود ليختاروا بكلِّ حرِّيَّة ما يفعلونه به.

كتب سورين كيركيغارد (Soren Kierkegaard) عن لمسة الله الخفيفة: "القوَّة العُظمى التي يمكن أن تضع يدها على العالم بكلِّ ثقل، يمكنها أيضًا أن تضعها بكلِّ خفَّة لكي يشعر الخلائق بالحرِّيَّة". في بعض الأحيان، أعترف أنَّني أتمنَّى أن تكون لمسة الله أكثر ثِقلًا. إنَّ إيماني يعاني جرَّاء الحرِّيَّة الزائدة، والإغواء الأكثر من اللازم ألَّا أومن. أريد أن يغمرني الله، ويغلب شكوكي بيقين كامل، وأن يعطيني دليلًا نهائيًّا قاطعًا على وجوده واهتمامه.

أريد من الله أن يأخذ دورًا أكثر فاعليَّة في شؤون البشر وفي تاريخي الشخصيِّ أيضًا. لماذا يجب على الله أن "يُكتِّف يديه" ويمنع نفسه من التدخُّل؟ أريد إجابات سريعة وباهرة لصلواتي، وشفاءً لأمراضي، وحماية وأمانًا لكلِّ من أحبُّهم. أريدُ إلهًا بلا غموض، إلهًا يمكنني أن أشير إليه لأصدقائي المتشكِّكين.

عندما أفكِّر في مثل هذه الأفكار، أرى في نفسي ترديدًا أجوَفَ للتحدِّيات ذاتها التي قدَّمها الشيطان ليسوع منذ ألفَي سنة مضت. إنَّ الله يقاوم مثل هذه التجارب الآن مثلما قاومها يسوع على الأرض، ليختار الطريقة الأبطأ والأهدأ والألطف.

من كتاب: يسوع الذي لم أكن أعرفه

معجزة ضبط النفس

كلَّما عرفت يسوع أكثر، أدهشني ما يسمِّيه إيڤان كارامازوف (Ivan Karamazov) "معجزة ضبط النفس". المعجزات التي اقترحها الشيطان، والآيات والعجائب التي طلبها الفرِّيسيُّون، والإثبات القاطع الذي أتوق أنا إليه- كلُّ هذه لا يُمكن أن تُشكِّل عقبة كبيرة أمام إله كُلِّيِّ القدرة. لكنَّ الأكثر عجبًا هو رفض يسوع أن يصنع مثل هذه المعجزات ليُرغمهم بقوَّته. إنَّ إصرار الله الشديد على حرِّيَّة الإنسان، لهو إصرارٌ مطلقٌ حتَّى إنَّه منحنا القدرة أن نحيا كما لو لم يكن موجودًا، وحتَّى أن نَبصُق في وجهه ونصلبه. كان يسوع بالتأكيد يعرف كلَّ ذلك وهو يواجه المُجرِّب في البرِّيَّة، موجِّهًا كلَّ قدرته الفائقة ليضبط نفسه.

أعتقد أنَّ الله يصرُّ على مثل هذا الضبط لنفسه لأنَّه لا توجد قوَّة إبهار أو إرغام يمكنها أن تصل إلى التجاوب الذي يريده الله منَّا. ومع أنَّ القوَّة يمكن أن تُجبر الإنسان على الطاعة، فإنَّ الحبَّ فقط هو ما يدعو الإنسان لأن يبادلَ الحبَّ بالحبِّ. والحبُّ هو ما ينتظره الله. قال يسوع: "وأنا إنِ ارتَفَعتُ عن الأرضِ أجذِبُ إلَيَّ الجميعَ". ويضيف البشير يوحنَّا: "قالَ هذا مُشيرًا إلَى أيَّةِ ميتَةٍ كانَ مُزمِعًا أنْ يَموتَ". إنَّ طبيعة الله هي عطاء النفس. إنَّه يؤسِّس دعوته إلى البشر على المحبَّة المُضحِّية.

أذكرُ استماعي لقصَّة إنسان كسير القلب كان يروي لي قصَّة ابنه الضالّ. لم يستطع الابن، جيك (Jake) أن يحتفظ بوظيفة، وأضاع كلَّ ماله على المخدِّرات والكحوليَّات، ونادرًا ما كان يعود إلى المنزل. وكان والده يصف لي مشاعر العجز بكلمات لم تختلف كثيرًا عن كلمات يسوع عن أورشليم. "كم أتمنَّى لو أستعيده إلى البيت، وأحميه وأحاول أن أؤكِّد له مقدار محبَّتي نحوه". ثُمَّ أضاف: "الأمر الغريب هو أنَّه رغم رفضه لي، فإنَّ محبَّته تعني لي أكثر ممَّا تعني لي محبَّة أولادي الثلاثة الآخرين المسؤولين والملتزمين. غريبٌ، أليس كذلك؟ هكذا هي المحبَّة".

لقد أعطتني هاتان الكلمتان الأخيرتان استبصارًا لسرِّ ضبط النفس الذي يمارسه الله أكثر ممَّا وجدت في أيِّ كتاب يدافع عن صلاح الله. لماذا يلتزم الله الطريق البطيء غير المُشجِّع الذي يُصرُّ على جعل البرِّ ينمو بدلًا من أن يجريه بالقوَّة؟ هكذا هي المحبَّة. للمحبَّة قوَّتها الخاصَّة، وهي القوَّة الوحيدة القادرة على الفوز بقلب الإنسان.

من كتاب: يسوع الذي لم أكن أعرفه

خجلٌ إلهيٌّ

لقد أدهشتني صفة ضبط النفس هذه في يسوع. تلك الصفة التي يمكن أن نُسمِّيها خجلًا إلهيًّا. لقد أدركت، عندما تشبَّعت بقصَّة يسوع في الأناجيل، أنَّني توقَّعت أن يتَّصف بالصفات نفسها التي كُنتُ أراها في كنيستي الأصوليَّة في جنوب أميركا التي عشت فيها طفولتي. كُنتُ دائمًا أشعر فيها بالضغوط العاطفيَّة الشديدة. كانت العقيدة تُقَدَّم لي بطريقة: "آمن ولا تطرح أيَّ سؤال". وباستخدام سُلطان المعجزة والسرِّ والغموض والسُّلطة الكنسيَّة، لم تترك الكنيسة أيَّ مجال للشكّ. كما تعلَّمت أيضًا أساليب للمناورة من أجل "ربح النفوس"، بعض منها كان يشتمل على الكذب وتصوير نفسي بصورة منافية للحقيقة أمام من أتكلَّم معه. لكنَّني الآن لا أجد أيًّا منها في يسوع.

إذا كُنتُ قد قرأت تاريخ الكنيسة بصورة صحيحة، فقد وجدتُ أنَّ الكثير من أتباع يسوع استسلموا للتجارب ذاتها التي قاومها هو بشدَّة. لقد أعاد فيودور دستويفسكي (Fyodor Dostoevsky) بمهارة بالِغة تمثيل مشهد التجربة، في غرفة تعذيب "المُفتِّش الكبير" (The Grand Inquisitor). كيف يمكن أن تُمارس الكنيسة التي أسَّسها ذلك الشخص الذي قاوم التجربة، محاكم التفتيش التي أرغمت الناس على الإيمان بالقوَّة لمدَّة وصلت إلى ما يقرب من خمس مئة سنة؟ وفي الوقت نفسه، وبصورة پروتستانتيَّة أخفُّ قليلًا في مدينة جنيف السويسريَّة، جعل المسؤولون حضور الكنيسة إجباريًّا على الشعب، وجعلوا التخلُّف عن المناولة (الإفخارستيَّا) جريمة يعاقب عليها القانون. والهراطقة هناك كانوا أيضًا يُحرَقون مربوطين على الأعمدة.

وهكذا يكشف التاريخ المسيحيُّ، بكلِّ خزي، المحاولات المستميتة التي اتَّبعها المسيحيُّون لتحسين أداء المسيح وإثبات أنَّهم أكثر منه حرصًا على "المسيحيَّة". وفي بعض الأحيان، كانت الكنيسة تتواطئ مع الحكومة لكي تصل إلى السُّلطة من أقصر الطرُق. كتب هيلموت تيلكه (Helmut Thielicke) عن افتتان الكنيسة الألمانيَّة بأدولف هتلر ما يلي: "إنَّ عبادة النجاح هي شكل من الوثنيَّة يروِّجه الشيطان بإصرار شديد. نستطيع أن نلاحظ على مدى سنوات بعد سنة ١٩٣٣م كيف وَلَّدَت النجاحات العظيمة شكلًا من السلوك القهريِّ؛ فتَحْتَ تأثير هذه النجاحات، توقَّف الرجال، بمَن فيهم المسيحيُّون، عن التساؤل عن اسم من تتمُّ فيه هذه النجاحات، وعن الثمن المدفوع فيها".

في بعض الأحيان، أنتجت الكنيسة صُورًا مُصغَّرة من هتلر. رجالٌ مثل جيم جونز (Jim Jones) وديڤيد

كورش (David Koresh). رجالٌ فهموا جيِّدًا القوَّة الممثّلة في تأثير المعجزة والسرِّ والسُّلطة. وفي بعض الأحيان، تستعير الكنيسة ببساطة أدوات المناورة التي يتقنها السياسيُّون، ورجال المبيعات، وخبراء التسويق.

من كتاب: يسوع الذي لم أكن أعرفه

أطفال وعُشَّاق

استوقفتني إحدى الصديقات منذ أيام ببعض الأخبار المثيرة، فقضت عشر دقائق تصف لي وصفًا حَيًّا الخطوات الأولى لابن اخيها البالغ من العمر سنة واحدة. إنَّه يستطيع أن يمشي! وأدركت بينما كُنت أستمع إليها، غرابة حالنا عند شخص قد يسترقُ السَّمع. كلُّ الناس تقريبًا يستطيعون المشي، ما المُهمُّ في الموضوع؟

لقد صدمني الإدراك بأنَّ الطفولة المبكِّرة تقدِّم لنا رفاهيَّة نادرة، نوعًا من الدهشة الذي سرعان ما يختفي لبقيَّة الحياة. إنَّ "أضواء الشُّهرة" التي يحصل عليها الوليد، يُمكن أن يُعاد إشعالها مرَّة أخرى عندما يأتي الحبُّ وتُضرم نيران الرومانسيَّة. وعند العاشق، كلُّ شامة في الوجه جميلة المنظر، وأيَّة هواية غريبة تُعدُّ طابعًا جميلًا في الشخصيَّة وعلامة على الفضول والإثارة. عندئذ، نحصُل مرَّة أخرى على بركة أن نكون مميَّزين جدًّا في عيني شخص آخر بعدها يتكفَّل روتين الحياة بالأمر.

عندما تأمَّلت في المعاملة التي نعامل بها الرُّضَّع والعُشَّاق، استطعت أن أُقَدِّر بصورة أعمق بعض التشبيهات البلاغيَّة في الكتاب المقدَّس. أكثر من أيَّة صورة بلاغيَّة أخرى، اختار الله تشبيهَي "الأطفال" و"العُشَّاق" ليصف علاقته بنا.

يمتلئ العهد القديم بتشبيهات العريس والعروس؛ الله يخطب وُدَّ الشعب، كما يخطب الرجل وُدَّ امرأة محبوبة. وعندما لا يستجيبون، يشعر الله بالرفض والجرح، مثل حبيب مهجور. وكثيرًا ما يستخدم العهد الجديد الصورة نفسها، مُصوِّرًا الكنيسة بوصفها "عروس المسيح". ثُمَّ يمكن أن يتغيَّر التشبيه، فيصف المؤمنين أنَّهم أولاد الله، مع كلِّ حقوق الأبناء الورثة وامتيازاتهم. لقد جاء يسوع (الابن الوحيد "المولود من الله") لكي يجعل من الممكن تبنِّينا نحن أيضًا لنكون أبناء وبنات في بيت الله. إنَّ الله ينظر إلينا كما يمكن أن ينظر كلٌّ منَّا إلى طفله الوليد، أو إلى معشوقة.

إنَّ عدم المحدودية تعطي الله قدرة ليست لنا: يستطيع الله أن يتعامل مع الخليقة كلِّها وكأنَّ كلَّ فردٍ فيها شخصًا خاصًّا مميَّزًا. فعندما أقرأ الكتاب المقدَّس، يبدو واضحًا لي أنَّ الله يقوم دائمًا بإشباع رغبة أبديَّة داخله لمحبَّة البشر الأفراد. أتخيَّل أنَّ الله ينظر إلى كلِّ خطوة من خطواتي إلى الأمام في "مسيرتي" الروحيَّة مثلما ينظر الوالد المشتاق لأن يرى خطوات رضيعه الأولى.

وربَّما عندما تنكشف أسرار الكون، سوف نعلم القصد من وراء الأبوَّة والأمومة والحبِّ الرومانسيّ. ربَّما يكون الله قد أعطانا هذه الأوقات التي نختبر فيها أن نكون مميَّزين لدى البشر لكي يوقظ لدينا إمكانيَّة المحبَّة

الأبديَّة التي يُعِدَّنا لها. تعدَّ تلك المحبَّة أكثر خبرات الحميميَّة التي نختبرها هنا على الأرض، مجرَّد لمحة منها.

من كتاب: كُنتُ أتساءَل فقط

١٤ شباط/فبراير

اقتصاديَّات العشق

هل فكَّرت يومًا كيف يعتمد ناتجنا القوميُّ بشدَّة على الحبِّ الرومانسيِّ؟ إنَّه يسود الفنون. افتح أيَّة محطَّة راديو للموسيقا والغناء وحاول أن تجد أغنية لا تتناول الحُبّ. وفي ما يختصُّ بالكتابة والنشر، فإنَّ روايات الحبِّ والعشق تفوق في مبيعاتها أيَّ نوع آخر من الكتب. وهل توجد مسلسلات تلفزيونيَّة طويلة، أو تمثيليَّات كوميديَّة تخلو من قصص الحبِّ الرومانسيِّ منسوجة بعناية في أيِّ حبك دراميٍّ؟

صناعات بأكملها تعتمد على الحبِّ الرومانسيِّ: الموضة والإكسسوارات والجواهر وصناعة التجميل. كلُّها صناعات تغرينا باستخدام التقنيات الأكمل لزيادة الجاذبيَّة بين الرجل والمرأة. عبارات مثل "الحصول على رجل"، أو "الفوز بامرأة" قد أصبحت تُلَخِّص حقيقة من حقائق الحياة في ثقافتنا، وفي كلِّ ثقافة. هذا، في تصوُّري، أسلوب حياة كونيّ.

لكنَّ هناك أيضًا ظاهرة جديرة بالملاحظة: إلى الآن، في قريتنا العالميَّة وثيقة الاتِّصال، أكثر من نصف الزيجات تحدث بين رجل وامرأة لم يشعرا قَطُّ بمشاعر الحبِّ الرومانسيِّ وربَّما لن يدركا مثل هذا الشعور إن صادفهم؛ إذ يتعامل المراهقون في أغلب البلدان الأفريقيَّة والآسيويَّة مع الزواج بصفته أمرًا مسلَّمًا به يُرتِّبه الأهل، بالطريقة نفسها التي نعدُّ فيها في الغرب الحبَّ الرومانسيَّ أمرًا مُسلَّمًا به.

في الولايات المتَّحدة وغيرها من الثقافات الغربيَّة، يميل الناس لأن يتزوَّجوا لأنَّهم شعروا بالانجذاب نحو صفاتٍ مُعيَّنة في الشخص الآخر. ومع الوقت يمكن أن تتغيَّر هذه الصفات وتتدهور، ولا سيَّما السمات الجسديَّة. كما يُمكن أن تظهر مفاجآت غير متوقَّعة.

على العكس، فإنَّ الأزواج والزوجات في الزواج المُرتَّب لا يبنون علاقتهم على الانجذاب المتبادل، بل على قرار الأهل، ويقبلون الشريك الآخر الذي بالكاد يعرفونه ويعيشون معه لسنواتٍ عدَّة. لذا فإنَّ السؤال عندهم ليس: "من سأتزوَّج؟"، بل "إذا كان هذا هو الشخص الذي سوف أتزوَّجه، ما نوع الزواج الذي سوف نبنيه معًا؟".

أشكُّ في أنَّ الغرب سوف يتخلَّى يومًا ما عن مفهوم الحبِّ الرومانسيِّ. مهما كان فهو لا ينفع كثيرًا بصفته أساسًا لاستقرار الأسرة. لكن في حواري مع مسيحيِّين من ثقافات مختلفة، بدأت أرى أنَّ "روح الزيجات المرتَّبة مُسبَّقًا"، يمكن أن تساعد على تغيير توجُّهاتنا. ربَّما نستطيع مثلًا أن نتعلَّم شيئًا من توقُّعاتنا العمليَّة للحياة المسيحيَّة.

(يتبع في التأمُّل التالي)

من كتاب: كُنتُ أتساءَل فقط

روح الزيجات المرتَّبة مُسبَّقًا

(يتبع من التأمُّل السابق)

كُنتُ دائمًا ما أجد التركيز اللاهوتيَّ على قضيَّة الألم أمرًا غريبًا. الناس في مجتمعنا يعيشون أطول، وفي صحَّة أفضل كثيرًا من ذي قبل، ويعانون أقل الألم الجسديَّ مقارنةً بما كانت عليه الحال في أيَّة حقبة سابقة في التاريخ. لكنَّ فنَّانينا، وكُتَّابنا الدراميِّين، وفلاسفتنا، ولاهوتيِّينا، يتعثَّرون في ما بين أنفسهم وهم يحاولون إيجاد طُرُقٍ جديدة لإعادة صياغة الأسئلة القديمة نفسها التي كان أيُّوب يسألها. لماذا يسمح الله بكلِّ هذا الألم والمعاناة في الحياة؟ لماذا لا يتدخَّل الله؟

وبصورةٍ دالَّة، فإنَّ الصرخات لا تأتي من العالم الثالث- حيث يكثر البؤس- أو من أشخاص مثل ألكسندر سولجنتسين (Alexander Solzhenitsyn) الذي عانى آلامًا شديدة، بل تأتي صرخات الألم والاعتراض بصورة أساسيَّة من الذين يعيشون في الغرب النرجسيِّ المستريح. وعندما أفكِّر في هذه الظاهرة الغريبة، أجد نفسي أعود مرارًا إلى الفكرة الموازية عن الزيجات المرتَّبة مُسبَّقًا.

وبناءً على هذا أقترحُ أنَّنا نحتاج إلى "روح الزيجات المَرَتَّبة مُسبَّقًا" في علاقتنا بالله. لقد خلقني الله هكذا: بملامح وجهي، وإعاقاتي ومحدوديَّاتي، وبُنية جسدي، وقدراتي الذهنيَّة. يمكنني أن أقضي الحياة معترضًا على هذه الصفة، أو تلك السِّمة، مطالبًا الله بتغيير "المادَّة الخام" التي خُلِقتُ منها، ويمكنني على العكس من ذلك، أن أقبل بتواضع نفسي بكلِّ عيوبي، وأعدُّها المادَّة الخام التي يمكن أن يبدأ الله في العمل فيها. لا أذهب إلى الله بقائمة من المطالب التي يجب أن تكون موجودة قبل أن أتعهَّد بالالتزام كما يحدث في الزواج، وإنَّما مثل الزوج في الزواج المَرتَّب مُسبَّقًا، أُعلن التزامي نحو الله بصورةٍ مُسبَّقة مهما كان شكل الحياة لاحقًا. هذا يتضمَّن مُخاطرة، بالطبع، فأنا لست متأكِّدًا بما سيأتي المستقبل.

وإذا قُلنا إنَّ الإيمان يعني أن تتَّخذ عهدًا أن تحبَّ الله وتلتصق به مهما حدث "في السرَّاء وفي الضرَّاء، في الصحَّة وفي المرض"، نجدُ الأمر المُفرح أنَّ روح الزواج المُرتَّب مُسبَّقًا تعمل في اتِّجاهين: فالله نفسه أيضًا يُلزِم نفسه من نحونا بصورة مبدئيَّة. إنَّ الإيمان يعني أنَّك تؤمن بأنَّ الله قد قطع على نفسه ذلك العهد نفسه، ويقدِّم يسوع المسيح الإثبات على ذلك. إنَّ الله لا يقبلني قبولًا مشروطًا على أساس أدائي، بل يحفظ عهده مهما كان، وهذه هي النعمة.

من كتاب: كُنتُ أتساءَل فقط

سُلَّم المَشَقَّات

سَجَّل القسُّ واللاهوتيُّ الألمانيُّ هيلموت تيلكه ذات مرَّة ملاحظة هي أنَّ "المسيحيِّين الأميركيِّين يفتقرون إلى لاهوت الألم". مَن يستطيع أن يختلف مع هذا؟ والأكثر من ذلك، كيف يُمكننا أن نتوقَّع أن يخرج لاهوتُ ألمٍ سليمٌ من مُجتمع عاش ما يقرب من قَرنين دون أن يتعرَّض لأيِّ غزوٍ خارجيٍّ، ويحلُّ كثيرًا من مشكلاته المناخيَّة بواسطة "التحكُّم في الحالة الجوِّيَّة"، ولديه قرص مُسكِّن لأيِّ شكلٍ من أشكال الآلام؟

لقد وجدت على الأقلِّ خمسة مبادئ كتابيَّة لقضيَّة الألم والمعاناة، لكن إذا ركَّزنا على واحدة بصورة حَصريَّة، فإنَّنا نخاطر ليس فقط بالحصول على لاهوت غير كُفء، بل أيضًا على لاهوتٍ مُهرطق عن الألم.

المرحلة ١: الإنسان الذي يعيش باستقامة لا يُمكن أن يتألَّم.

المرحلة ٢: الأشخاص الصالحون يتحمَّلون الصعاب، لكنَّهم سوف يحصلون على راحة في النهاية.

المرحلة ٣: كلُّ الأشياء تعمل معًا للخير.

المرحلة ٤: قد يُدعى بعض الأُمناء إلى احتمال الألم.

المرحلة ٥: عدم المبالاة المقدَّسة.

المرحلة ١: الإنسان الذي يعيش باستقامة لا يُمكن أن يتألَّم. وفي هذا نحصل على ما يُسمَّى "إنجيل الرفاهية" وهو ردُّ فعلٍ تلقائيٌّ لهذا المفهوم. عليك إذًا أن تعود إلى سفرَي الخروج والتثنية لتفهم مصدر هذا اللاهوت في عهد الله مع العبرانيِّين حيث وعدهم الله بالبركة إذا اتَّبعوه بأمانة، لكنَّ بني إسرائيل انتهكوا العهد.

المرحلة ٢: الأشخاص الصالحون يتحمَّلون الصعاب، لكنَّهم سوف يحصلون على راحة في النهاية. يبدو أنَّ كاتب جزء كبير من مزامير المراثي كان يؤمن بأنَّه "إذا فقط استطعتُ أن أُقنع الله ببرِّي، فسوف يُنقذني. لا بُدَّ أنَّ هناك خطأ ما قد حدث". لقد أصبحتُ أعتقد أنَّ مثل هذه المزامير التي تحاول تبرئة النفس أمام الله، يمكن أن نحسبها مزامير الإعداد. إنَّها تُساعد الأمَّة بأسرها لكي تفهم أنَّ الأبرار يتألَّمون أحيانًا، ولا يُنقَذون أحيانًا أخرى.

المرحلة ٣: كلُّ الأشياء تعمل معًا للخير. هذه العبارة الشهيرة المقتبسة من رومية ٨ كثيرًا يُساء فهمها لجعلها تعني أنَّ "الأشياء الصالحة فقط هي التي سوف تحدث لمن يحبُّون الله". لكنَّ ما يثير الاهتمام هو أنَّ

العكس تمامًا هو ما يقصده بولس الرسول. ففي باقي الأصحاح، يقدِّم تعريفًا لهذه "الأشياء" فيتكلَّم عن الشدَّة والضيق والجوع والعري والخطر والسيف. لكنَّه يُصرُّ أنَّ "في هذه جميعها يعظم انتصارنا (نحن أعظم من منتصرين)"، ولا يوجد قدر من المشقَّة يمكن أن يفصلنا عن محبَّة الله.

(يتبع في التأمُّل التالي)

من كتاب: كُنتُ أتساءَل فقط

دراسات عُليا في مدرسة الألم

(يتبع من التأمُّل السابق)

المرحلة ٤: قد يُدعى الأُمناء إلى احتمال الألم. تشرح رسالة بطرس الرسول الأولى منعطفًا في قضيَّة الألم؛ فبعيدًا عن المرحلة ١، حيث يتَّوقع البارُّ مناعة تامَّة من الألم والمشقَّة، فإنَّ هذا اللاهوت يفترض وجود الاضطهاد. فكلُّ المؤمنين الذين يحذون "حذو يسوع"، يعانون الظُّلم مثلما عانى هو.

المرحلة ٥: عدم المبالاة المُقدَّسة. يصل الرسول بولس إلى الحالة المتسامية في فقرة مثل فيلبِّي ١، التي فيها يختار بين الموت ليكون مع المسيح، والحياة لكي يُكمِّل خدمته. فتبدو قِيَمُهُ قد انقلبت رأسًا على عقب. من الواضح أنَّه أصبح يرى أن الفقر الذي عاناه في السجن هو أمرٌ مُحبَّبٌ لأنَّ مثل هذه "الضيقة" قد أتت بنتائج إيجابيَّة كثيرة. الثراء والفقر والراحة والمعاناة والقبول والرفض، حتَّى الموت والحياة- كلُّ هذه الأوضاع لم تَعُد تعني الكثير لبولس. وحده شيءٌ واحد أصبح يعنيه بصورة نهائيَّة: تمجيد المسيح، هدفٌ إذا كان من الممكن تحقيقه في كلِّ هذه الأوضاع، فلا شيء يهمّ.

أعلم أنَّه يُضايق بعض الأشخاص أن نضع قائمة من المراحل الكتابيَّة هكذا دون منظومة مُرتَّبة تصالح بين هذه المراحل وتضع نظامًا عامًّا نهائيًّا. لهؤلاء الأشخاص، أقترح ببساطة أن يتأمَّلوا المرحلة الأولى في ضوء المرحلة الخامسة. فما يُثير الفضول هو أن نجد أنَّ المرحلة الخامسة المتقدِّمة التي وصل إليها بولس، تعيده بالفعل إلى المرحلة الأولى. فعند بولس، الإنسان الذي يعيش عَيشًا روحيًّا سليمًا لن يُعاني- ليس دائمًا وباستمرار على الأقلّ. ويستطيع الله أن يستخدم كلَّ الأحداث في حياة بولس، سواء كانت مفرحة أم مؤلمة، لتكونَ أدوات لامتداد ملكوت الله.

لقد قابلت عددًا قليلًا جدًّا من الناس وصلوا إلى تلك الحالة العُليا التي تصفها المرحلة الخامسة، وهذا يؤكِّد ملاحظة هيلموت تيلكه عن الولايات المتَّحدة. كيف يمكن أن تُتقن أمَّة بوركت بكلِّ هذه البركات الماديَّة الحديث في تلك الحالة المتقدِّمة من الإيمان؟ ولكي نجد أشخاصًا وصلوا إلى هذه المرحلة يجب على العكس أن نبحث في أماكن أُخرى مثل باكستان، وكوريا الشماليَّة، وإيران لنتقابل مع مَن أكملوا دراسات عُليا في مدرسة الألم. للأسف، يبدو أنَّنا نُنفق الكثير من الوقت والمجهود لكي نُجادل حول إمكانيَّات المرحلة ١- أو على الأقلِّ نتوق إلى تلك "الأيَّام الجميلة الماضية" عندما كانت الولايات المتَّحدة تكسب جميع حروبها، وينطلق اقتصادُها إلى عنان السماء.

من كتاب: كُنتُ أتساءَل فقط

حدود المعجزات

يسوع، الذي من المفترض أنَّه كان يستطيع أن يصنع العجائب في أيِّ يومٍ من أيَّام حياته لو أراد، كان يبدو متردِّدًا بشأن المعجزات بصورةٍ مُثيرة للعجب. كان يسوع يستخدم المعجزات مع تلاميذه ليقدِّم إليهم دليلًا على هُوِيَّته ("صدِّقوني أنِّي في الآب والآب فيَّ، أو صدِّقوني بسبب الأعمال نفسها"). لكن في الوقت نفسه الذي كان فيه يُجري هذه المعجزات، كان يبدو كأنَّه يُقلِّل من شأنها. يُسجل مرقس الرسول سبع مناسبات منفصلة قال فيها يسوع لمن صنع له المعجزة: "لا تخبر أحدًا!".

لقد كان يسوع يَعلَم جيِّدًا التأثير السطحيَّ للمعجزات التي حدثت وقت موسى ووقت إيليَّا. كانت المعجزات تجتذب الجماهير الغفيرة، لكنَّها نادرًا ما كانت تشجِّع على الإيمان والتكريس طويل المدى. لقد كان يسوع يقدِّم رسالة قويَّة من الطاعة والتضحية، وليس عرضًا مُبهرًا للباحثين عن الإثارة. (من المؤكَّد أنَّه كانت للمتشكِّكين في عصره تفسيراتٌ أخرى للقوَّة التي كان يتمتَّع بها).

لكن باتِّساق واضح، كانت روايات الكتاب المقدَّس تعكس أنَّ المعجزات المُبهرة التي تُعقِّد الألسنة، والتي لا نزال نشتاق إليها- ببساطة لا تبني الإيمان العميق. والدليل على ذلك أنَّه ليس لدينا مثلًا أفضل من معجزة التجلِّي، عندما أشرق وجه يسوع كالشمس، وابيضَّت ثيابه كالنور. ولدهشة التلاميذ، ظهر موسى وإيليَّا معه في السحابة، وتكلَّم الله بصوتٍ مسموع. لقد كان الأمر أكبر ممَّا يستطيعون التحمُّل، فسقطوا على الأرض مرتعبين.

ماذا كان تأثير هذا الحدث الرهيب في بطرس ويعقوب ويوحنَّا؟ هل أسكت هذا الحدث تساؤلاتهم، وملأهم بالإيمان؟ بعد أسابيع قليلة، عندما احتاج إليهم يسوع أكثر من أيِّ وقتٍ مضى، تركوه وهربوا.

ومع أنَّ معجزات يسوع كانت انتقائيَّة جدًّا حتَّى إنَّها لم تَحُلَّ كلَّ أشكال المعاناة والإحباط البشريِّ، فإنَّها كانت أشبه بعلامات على إرساليَّته، وعرضًا موجزًا لما يمكن أن يفعله الله يومًا ما لكلِّ الخليقة. أمَّا لمن اختبروا هذه المعجزات- كالمفلوج الذي أُنزل من السقف- قدَّمت هذه الشفاءات دليلًا مقنعًا أنَّ الله كان يزور الأرض. وعند الباقين، فقد أيقظت أشواقًا لن تُشبع تمامًا حتَّى يُجدِّد الله الكون بالكامل، ويُنهي كلَّ ألم وموت.

لقد فعلت المعجزات تمامًا ما توقَّع يسوع منها. من جهة من اختاروا أن يؤمنوا، أعطتهم مزيدًا من الأسباب ليؤمنوا. أمَّا الذين قد صمَّموا على إنكاره، فهي لم تصنع شيئًا يُذكر. بعض الأشياء يجب أن تؤمن بها لتراها، وليس العكس.

من كتاب: عندما لا تمطر السماء

١٩ شباط/فبراير

إنكارٌ ذاتيٌّ

ما تداعيات مقولة المسيح إنَّني أحتاج لأن أفقد حياتي من أجله؟ ماذا يعني، بالتحديد، عندما يقول إنَّني يجب أن أُنكر تلك النفس التي عرفتها جيدًا على مدى سنين، وأحمل الصليب وأتبعه؟

لقد كان يسوع يعني شيئًا مهمًّا بهذه التصريحات الخاصَّة بإنكار الذات، وإلَّا لما كرَّرها كَتَبَةُ الأناجيل مرَّات عدَّة. بعد الكثير من التأمُّل، وصلتُ إلى الاستنتاجات التالية بشأن ما كان يعنيه.

يضرِبُ إنكار الذات أوَّلًا في هُوِيَّتي الأساسيَّة. إنَّني بالطبيعة كائن أنانيٌّ، وأقضي وقتي مع جسد ومع شخصيَّة فريدة لا مثل لها في هذا الكون. ويؤدِّي هذا إلى أن أبدأ برؤية العالم من منظوري، فأُصدر أحكامًا مبنيَّة على الكيفيَّة التي تتواءم بها الأشياء مع منظوري لها، وأبدأ بفرض ما أحبُّه وما أكرهه على الناس من حولي.

في مقالة "المشكلة مع فُلان" (The Trouble With X) يشير سي. أس. لويس إلى أنَّنا نلحظ خطأً مميتًا في كلِّ شيء نصادفه، حتَّى أقرب أصدقائنا؛ إذ نقول عنهم: "إنَّه شخص ممتاز، أستمتع بصُحبته. لكنْ أتمنَّى ألَّا يكون...". لكنَّنا لا يمكن أن نرى العيوب القاتلة في أنفسنا؛ فنعلِّل ضعفاتنا، ونحاول إيجاد تفسيرات تعفينا من المسؤوليَّة عنها، ربَّما بتفسيرات من خلفيَّاتنا الماضية أو أحوالنا الحاليَّة ونيَّاتنا الطيِّبة.

إنكار ذاتي يبدأ بالقبول الكامل والتائب للعيوب القاتلة التي فيّ. بغضِّ النظر عن الإنجازات والميِّزات الرفيعة والسمات المرغوبة، يجب أن أصل بنفسي إلى أرض التواضع التي فيها أعترف أنَّني لست مختلفًا عن أيِّ إنسان آخر عاش قبلي، وأعترفُ أنَّني خاطئ.

لا أستطيع أن أتخيَّل عثرة في المسيحيَّة أكثر من هذه. من السهل نسبيًّا أن أُلهِمَ الناس بأخلاقيَّات المحبَّة المسيحيَّة؛ فالكثير من الإنسانيَّة المتحرِّرة بُنيت على مشاعر مماثلة. لكنَّ كلَّ أنظمة حماية الذات فيَّ تصرخ ضدَّ هذه الخطوة المؤلمة التي فيها أُقرُّ وأعترف بأنِّي خاطئ. في هذا العمل أفقِد كلَّ مكوِّنات هُوِيَّتي وأقبل أن أُعرَف فقط بصفتي شخصًا متمرِّدًا على الله.

(يتبع في التأمُّل التالي)

من كتاب: نوافذ مفتوحة

مرايا وزُجاج

(يتبع من التأمُّل السابق)

لحسن الحظِّ، أنا لا أبقى في هذه الحالة المتواضعة. يقول پاسكال (Pascal) أنَّ "المسيحيَّة غريبة. فهي تدعو الإنسان ليدرك أنَّه خاطئ، بل ملعونٌ، وتدعوه في الوقت نفسه لكي يكون مثل الله. من دون هذا التضادِّ المتوازن، ربَّما تصيبه كرامة الدعوة إلى مشابهة الله بالكبرياء الرهيب، أو تصيبه فكرة الخطيَّة بالخزي المُميت".

بعد أن أخسر نفسي في اتِّضاعٍ وأتخلَّى عن الكبرياء التي أحاول بها أن أحمي نفسي، أجد فيَّ هُوِيَّة جديدة: هذه الحالة السامية التي يصفها بولس بتعبير "في المسيح". فليس عليَّ في ما بعد أن أُدافع عن أفكاري أو قِيَمي أو أفعالي. بل إنَّني أتخلَّى عن كلِّ ذلك في سبيل الهُوِيَّة التي أحصل عليها بصفتي ابنًا لله، وأتخلَّى أيضًا حتَّى عن مسؤوليَّتي أن أحدِّد لنفسي قيمي الأخلاقيَّة ورؤيتي للعالم.

يتلاشى فجأة إحساسي بالتنافسيَّة؛ فلا أعود أشعر بالحاجة إلى الصراع في الحياة، والبحث عن حُجج لأثبت نفسي. لقد أصبح دَوْري أن أدافع عن قضيَّة الله لا قضيَّتي، وأن أحيا بطريقة تجعل من حولي يُدركون صفات يسوع ومحبَّته، لا صفاتي أنا التي تميِّزني عَمَّن حَولي.

لقد وجدت هذه المسيرة أكثر صحَّة وأكثر مدعاة للاسترخاء والراحة. سندرك جميعًا ذلك بشكلٍ أو بآخر، لكنَّني أعتقد أنَّ الدرجة التي بها نُدرك هذه الحقيقة تحدِّد مدى صحَّتنا النفسيَّة. تشتعل الضغوط ويزداد داخلي القلق في اللحظة التي فيها أنسى أنَّني أعيش حياتي لكي أؤدِّي أمام جمهورٍ من شخص واحد هو المسيح، وأعود لكي أحيا بطريقة إثبات الذات في عالم يعيش على التنافس.

في السابق، كان دافعي الأساسيُّ في الحياة هو أن أرسم لنفسي صورة ملآنةً بالألوان المبهجة والأفكار الثاقبة العميقة، حتَّى إنَّ من ينظر إليها يتأثَّر بها. أمَّا الآن، فإنَّني أدرك أنَّ دوري هو أن أكون مرآة، تعكس بوضوح صورة الله. أو لعلَّ تشبيه الزجاج الملوَّن يكون أفضل، فالله سوف يُشرق بشخصيَّتي وجسدي.

من كتاب: نوافذ مفتوحة

تحيَّتان للشعور بالذنب

يعني الحبُّ ألَّا تحتاج لأن تقول أنَّك آسف. هذه عبارة من إحدى روايات الحُبِّ شديدة الرومانسيَّة من سبعينيَّات القرن العشرين. لقد أصبحت أومن بالعكس، وهو أنَّ الحبَّ يعني بالتحديد أنَّك يجب أن تعتذر. إنَّ الإحساس بالذنب، الذي يُقلَّل من شأنه كثيرًا، يستحق منَّا الشُّكر والعرفان؛ فيمكن فقط أن تدفعنا هذه القوَّة الشديدة نحو التوبة والتصالح مع الذين أسأنا إليهم.

لكنَّ الشعور بالذنب يُمثِّل أيضًا خطورة. لقد تعرَّفت إلى مسيحيِّين يعيشون الحياة في حالة من الوعي المُبالغ فيه بالعيوب، مرتعبين من كونهم ربَّما في يوم من الأيَّام ينتهكون قوانين الله. إنَّ المسيحيَّ الناضج يتعلَّم التفريق بين الذنب الكاذب الموروث من الوالدَين والكنيسة والمجتمع من ناحية، والذنب الحقيقيِّ الناتج من انتهاك قوانين الله الواضحة في الكتاب المقدَّس.

ينبع الخطأ الثاني مباشرة من الأوَّل. يميل بعض الناس إلى الانغماس في الذنب، كما لو كانوا غير واعين أنَّ الذنب، مثل الألم الجسديِّ، المقصود به توجيه الإنسان. فكما أنَّ أجسادنا تتكلَّم إلينا بلغة الألم، لكي نهتمَّ بمكان المرض أو الإصابة، فإنَّ أرواحنا أيضًا تتكلَّم إلينا بلغة الذنب، لكي نتَّخذ الخطوات الواجبة للشفاء.

الهدف في الحالتَين هو استعادة الصحَّة. في كتاب "**أساطير زماننا**" *(Legands of our Time)*، يُخبرنا إيلي ڤيسيل (Elie Wiesel) عن زيارته للبلدة التي نشأ فيها وهي سيغيت (Sighet) في المجر.

قبل ذلك الوقت بعشرين سنة، جُمع ڤيسيل وكلُّ اليهود الآخرين في تلك البلدة ورُحِّلوا إلى معسكرات التعذيب. وعندما زار ڤيسيل بلدته، تضايق عندما اكتشف أنَّ القاطنين الحاليِّين للبلدة طمسوا ذكرى هؤلاء اليهود تمامًا. لقد دهش ڤيسيل بحقيقة أنَّ نسيان الإنسان لخطيَّته ربَّما يكون شرًّا يعادل شرَّ ارتكابها في البداية؛ فما يُنسى لا يُشفى.

في قراءاتي للأبطال الروحيِّين، لاحظت أنَّ من نحسبهم الآن قدِّيسين هم من كان لديهم شعور منضبط بالخطيَّة. ولكونهم يَعُون النموذج الإلهيَّ المثاليَّ جيِّدًا، ويتوقون إلى القداسة، وهُم مُتحرِّرون من الكبرياء والدفاعيَّة التي تُعمي أغلب الناس، فإنَّهم يعيشون في وعيٍ كامل بعجزهم وتقصيرهم.

إن القدِّيسين الحقيقيِّين لا يُحبَطون كثيرًا بسبب أخطائهم؛ لأنَّهم يُدرِكون أنَّ الإنسان الذي لا يشعر بالذنب، لا يمكن أن يحصل على الشفاء. وهذا أيضًا ، بصورةٍ قد تبدو متناقضة، ينطبق على الإنسان الذي يعيش منغمسًا في الذنب أكثر من اللازم. إنَّ الإحساس بالذنب يقوم بدوره المرسوم عندما يدفعنا نحو الله الذي يَعِدُنا بالغفران والاسترداد.

عمود "الصفحة الخلفيَّة"، مجلَّة المسيحيَّة اليوم، ١٨ تشرين الثاني/ نوڤمبر ٢٠٠٢م

انتقاد يسوع

عندما يبدأ قائد جديد في تحريك المياه الراكدة، فإنَّ المقاومة سرعان ما تتبع. ففي فترة حياة يسوع على الأرض، صرَّح أنَّه المسيَّا، المُرسل من الله، وهذه دعوة مُفرطة في العَظمة والقداسة. وسرعان ما نشطت المقاومة ضدَّه بعدما ذاع صيته في الجليل. ويُخبرنا الأصحاح الثاني من إنجيل مرقس عن ثلاثة انتقادات أساسيَّة وُجِّهَت إلى يسوع في فترة حياته.

الانتقاد الأوَّل أَنَّهُ يُجدِّف. لقد شعر مُعلِّمو الشريعة بصدمة كبيرة عندما سمعوا يسوع يغفر الخطايا، فتذمَّروا قائِلين: "من يستطيع أن يغفر الخطايا إلَّا الله وحده؟". ويعترف يسوع بذلك- فقط الله هو الذي يغفر الخطايا- وهذه بالتحديد هي الرسالة من وجهة نظره.

وفي حياته، واجه يسوع المقاومة الأشدَّ من أكثر تابعي العهد القديم تقوى وتدقيقًا؛ إذ لم يستطيعوا قبول أنَّ إله العبرانيِّين المهوب المتعالي، يمكن أن يسكن بين البشر في جسد إنسان. وفي النهاية، أعدموا يسوع بسبب هذا الادِّعاء. (ومن يقبلون يسوع اليوم حاسبين إيَّاه "رجلًا صالحًا ومُعلِّمًا مستنيرًا" يتجاهلون تلك المشاهد التي يربط فيها يسوع نفسه بالله. وعندما تعامل الفرِّيسيُّون بعُنف مع يسوع، فهذا لأنَّهم سمعوه وفهموه جيِّدًا، لكنَّهم ببساطة رفضوا أن يصدِّقوه).

الانتقاد الثاني أَنَّه يُصاحب أصدقاءَ سيِّئي السمعة. كان يسوع يُبدي تفضيلًا واضحًا لنوعيَّات الناس الذين عادة ما يرفضهم المُجتمع. أما السياسيُّون والقادة الدينيُّون، فكان يستفزُّهم ويدعوهم بكلمات تُقلِّل من شأنِهم. حتَّى بعد أن أصبح مشهورًا، ظلَّ يأكل مع عشَّار منبوذ وأصدقائه الذين يحسبُهم المجتمع أدنياء. وعندما سمع النميمة التي تدور حول ذلك الأمر، قال يسوع ببساطة: "لا يحتاج الأصحَّاء إلى طبيب بل المَرضى. لم آتِ لأدعو أبرارًا بل خُطاةً إلى التوبة".

الانتقاد الثالث أَنَّه يُخالف التقاليد. عند الفرِّيسيين، كان تلاميذ يسوع يتهاونون نحو السبت. فكان ردُّ فعل يسوع: لقد حان وقت الرقعة الجديدة. فالرقعة القديمة قد خيطت مُنذ وقتٍ طويل، ولم يمض وقتٌ طويل قبل أن يؤسِّس يسوع "العهد الجديد". لدى الله بعض التغييرات للجنس البشريِّ، لا يُمكن أن يستوعبها العهد الحصريُّ الضيِّق الذي كان بينه وبين العبرانيِّين.

من كتاب: التَقِ الكتاب المقدَّس

٢٣ شباط/فبراير

اللغز الذي لا يُحَلّ

يُلَخِّص مثل الزارع جيِّدًا ردود الفعل المتباينة التي حصل عليها يسوع طوال خدمته على الأرض. ونحن الذين نعيش بعد ذلك الوقت بألفي سنة، ونحتفل بعيد الميلاد وبعيد القيامة، يمكن بكلِّ سهولة ألَّا نُدرك مدى عدم التصديق الذي صادفه يسوع عندما كان في الجسد.

لقد كان الجيران يشاهدونه يلعب في شوارعهم. كان يسوع مألوفًا جدًّا لهم حتَّى إنَّهم لم يُصدقوا أنَّه يمكن أن يكون مُرسلًا من الله، ويتساءلون: "أليس هذا هو النجَّار ابن مريم وأخو يعقوب ويوسي ويهوذا وسمعان؟ ما هذه الحكمة التي أُعطيت له، حتَّى تُجرى على يديه قوَّات؟" (مرقس ٦: ٢، ٣).

حتَّى أُسرة يسوع نفسها لم يستطيعوا المُصالحة بين المعجزيِّ والمُعتاد في حياة يسوع. ويذكر مرقس أنَّه ذات مرَّة جاءت أمُّ يسوع وإخوته ليُمسكوه لأنَّهم اعتقدوه "مُختلًّا" (٣: ٢١). وحتَّى الأشخاص العاديُّون لم يستطيعوا أن يقرِّروا من هو يسوع. ففي لحظة يقولون إنَّ "به شيطان وهو يهذي" (يوحنَّا ١٠: ٢٠)، وفي اللحظة التالية يحاولون أن يختطفوه ليجعلوه ملكًا. كان من المفترض أنَّ الكتبة والفريسيِّين الذين استغرقوا في قراءة الأنبياء لديهم أوضح مفهوم عمَّا يجب أن يكون عليه المسيَّا. لكن لم تسبِّب أيَّةُ جماعة المشكلات ليسوع مثل هذه الجماعة. فقد انتقدوا تعليمه، وأسلوب حياته، واختيارات أصدقائه. وعندما كان يُجري المعجزات، كانوا يُرجعون هذه القوى إلى الشيطان والأرواح الشرِّيرة.

عندما كادت الريح أن تعصف بالقارب الذي كان يستقلُّه يسوع، انتهر الريح والبحر "اسكت! ابكم!" حتَّى إنَّ التلاميذ انكمشوا مرتعبين في أماكنهم. ما هذا الإنسان الذي يصرخ في وجه الريح والمطر، كمن يؤدِّب طفلًا مشاغبًا؟ جعلهم هذا المشهد يقتنعون أنَّ يسوع لا يُشبه أيَّ شخص آخر. لكنَّنا نرى في المشهد نفسه أيضًا يسوع إنسانًا مثل كلِّ البشر، يغلبه النعاس في القارب من فرط التعب.

وظلَّت الكنيسة الأولى في جدلٍ حول ما حدث بالفعل عندما صار الله إنسانًا، لكنَّ عقائدهم لم تستطع حلَّ هذا اللغز. فبطريقة ما، كان يسوع مثل أيِّ إنسانٍ آخر- ينتمي إلى عرقٍ بشريٍّ، وله مهنة، وأُسرة وخلفيَّة اجتماعيَّة، وجسد. فهذا أمرٌ جديدٌ تمامًا في تاريخ الكون. وبين هاتَين الحقيقتَين، ألوهة يسوع وبشريَّته، يقع السرُّ الذي لا يُحلُّ بتاتًا.

من كتاب: التَقِ الكتاب المقدَّس

٢٤ شباط/فبراير

خارج السيطرة

في نهاية الأسبوع الأخير من شباط/ فبراير ٢٠٠٧، تكلَّمت عن يسوع التاريخ في لوس ألموس (Los Alamos) في نيومكسيكو (New Mexico).

عندما تكلَّمت لذاك المجتمع عن موضوع الصلاة في تلك الأمسيَّة رويت عن بعض من مغامراتي في تسلُّق الجبال. مثلًا، في اليوم الذي وصلت فيه مع زوجتي إلى قمَّة جبل ولسن (Mt. Wilson)، وكنَّا قد تجاوزنا خطَّ الأمان الذي بعده لا تنمو الأشجار، ظلَّلتنا سحابة سوداء وبدأت ضربات البرق تقترب، فسألتُ رفيقي الأكثر خبرة: "ماذا نفعل؟"، فأجابني: "في واقع الأمر ليس أمامنا الكثير لنفعله، فالصخر الجرانيتيُّ موصل جيِّد للكهرباء. أقترح أن نبتعد بعضنا عن بعض بما لا يقلُّ عن مئة ذراع– حتَّى إذا صُعق أحدنا، يستطيع الآخر أن يهرع لطلب النجدة. كما على كلِّ واحد منَّا أن يجلس القرفصاء ليجعل من نفسه هدفًا أصغر بقدر المُستطاع".

نظرنا أنا وزوجتي أحدُنا إلى الآخر، وفي النهاية، رفعت كتفيَّ باستسلام وقُلت لزوجتي: "عزيزتي، لقد عشنا حياة جيِّدة. لنذهب معًا". فثبَّتنا عَصوَيِ التسلُّق بين الصخور وجلسنا القرفصاء كما اقترح صديقنا، لكنَّنا جلسنا أحدنا بجانب الآخر، وأمسكنا بأيدي بعضنا بعضًا، ولمدَّة ساعة كاملة أغرَقَنا المطر، وكلُّ أشكال التساقط الثلجيِّ معًا. وطوال الوقت كنَّا نعدُّ الثواني بين كلِّ ضربة برقٍ كانت تضرب بجانبنا وصوت الرعد التالي لها.

وقلت لمستمعِيِّ المجتمعين في الكنيسة: "لقد تعلَّمت درسًا مهمًّا جدًّا في حياتي في ذلك اليوم: وهو أنَّني لست المُسيطر. يجب أن أقول لكم بصفتي كاتبًا حُرًّا، إنَّني مهووس بالسيطرة. وهذا مُتوقَّع؛ فحيث إنَّه ليس لي رئيسٌ يقول لي ما أفعله، يجب أن أنظِّم حياتي، وفي أغلب الأحيان، أسير في الحياة متصوِّرًا أنَّني المسيطر. لكنَّني فوق قمَّة جبل ويلسن تعلَّمت أنَّ هذا وهمٌ كبير".

ورُحت أقول إنَّ درس التسلُّق هذا ينطبق طوال الوقت: "فكلَّما ظننتُ أنَّني أسيطر على الأمور، أكتشفتُ العكس تمامًا. يمكن أن أموت بنوبة قلبيَّة الآن أمامكم قبل أن أُنهي عبارتي". فراح بعض الحضور يضحك بتوتُّر. وأكملتُ: "أو يمكن أن أُقتل في حادث سير في طريق عودتي إلى دَنفِر (Denver) غدًا– لعلَّ هذا مُرجَّح أكثر من الإصابة بصاعقة برق فوق قمَّة جبل ويلسن". فكان المزيد من الضحك.

ما أرهب كم كانت هذه الكلمات نبويَّة!

(يتبع في التأمُّل التالي)

مذكِّراتُ رحلاتٍ، أُضيفَت في بعض طبعات كتاب: الصلاة: هل تُحدث أيَّ اختلاف؟

٢٥ شباط/فبراير

أطول يوم في التاريخ

(يتبع من التأمُّل السابق)

في صباح الأحد في أثناء قيادتي السيَّارة عائدًا من لوس ألموس إلى دنفر انحرفت إلى طريق ضيِّق بعيد يقع بالكاد على حدود ولاية كولورادو، وذلك فقط لمشاهدة مناظر طبيعيَّة أكثر تنوُّعًا. وكان الجليد قد تساقط قبل ذلك الوقت بأيَّام، وقد باغتتني مرَّات عدَّة رُقعٌ من الجليد تُغطِّي الطريق. وفجأة، وبينما كان الطريق ينحدر عند أحد المنحنيات، بدأت مؤخِّرة سيَّارتي من طراز فورد إكسپلورر تتحرَّك يمينًا ويسارًا. وقاومَتْ ذلك حتَّى انزلق إطارُها الخلفيُّ الأيمن عن الأسفلت وتلطَّخ بالطين اللزج. ثمَّ انقلبت السيَّارة على جانبها نحو خمس مرَّات.

كانت الضوضاء الناتجة من تكسُّر الزجاج والبلاستيك والمعدِن في الوقت نفسه، تَصُمُّ الآذان. تهشَّمتْ كلُّ النوافذ، وتساقطت منها زلَّاجات الجليد، والأحذية، وحاسوبي المحمول، وحقائب السفر، سقطت كلُّها من قمَّة المرتفع إلى حقول كولورادو.

وفي النهاية، توقَّفت السيَّارة عن الانقلاب لتستقرَّ في وضعها السليم. أطفأتُ المحرِّك، وفككت حزام الأمان وزحفت تحت سقف السيارة المُطبَق لأخرج متعثِّرًا إلى الأرض. كان أنفي ينزف، وامتلأ بالجروح وجهي ورجليَّ وذراعَيَّ، وكنت أشعر بألم شديد أعلى ظهري، تحت الرقبة مباشرة.

تناثرت أشيائي حولي لنحو مئة متر، فتجوَّلت عبر مساحة من الأرض الصحراويَّة لكي أجد حاسوبي وهاتفي النقَّال.

بعد دقائق عدَّة، توقَّفت إحدى السيَّارات، وخرج منها زوج وزوجة يرتديان ملابس أنيقة واندفعا إلى المشهد وبدأا بإصدار الأوامر. كانا فنِّيَّين مُرخَّصَين في الإسعافات الطبِّيَّة، وكان الزوج رئيس هيئة الإسعاف في المقاطعة. وقاداني إلى سيَّارتهما، وطلبا سيَّارة إسعاف وجلسا بجانبي واضعين رأسي بوضع ثابت. وبعدما ثبَّتا عُنقي سألتهما: "ما الذي جعلكما تقودان سيَّارتكما في هذا الطريق النائي في صباح الأحد هكذا؟".

أجابت المرأة قائلة: "نحن نتبع طائفة المورمون. لقد بدأنا كنيسة مُرسلة في بلدة سان لويس الصغيرة، وكُنَّا ذاهبَين لمساعدة هذه الكنيسة لتقف على قدمَيها".

هكذا بدأ أحد أطول أيَّام حياتي الذي سوف أتذكَّره دائمًا. عندما جاءت سيَّارة الإسعاف، بدأ العاملون بربط جسدي بلوح صَلب مُخصَّص لذلك، وتثبَّتوا رأسي بشريط لاصق لمنع حركته كما ثبَّتوا عُنقي بوضع رأسيٍّ. وقُدنا السيَّارة لنحو ساعة لكي نصل إلى مدينة ألاموزا Alamosa)) الصغيرة حيث نُقلتُ متخبِّطًا على

سرير متحرِّك إلى غرفة الطوارئ.

(يتبع في التأمُّل التالي)

مذكِّراتُ رحلاتٍ، أُضيفَت في بعض طبعات كتاب: الصلاة: هل تُحدث أيَّ اختلاف؟

تهديد للحياة

(يتبع من التأمُّل السابق)

رقدت مدَّة ساعتَين في أكثر وضعٍ غير مريح فوق هذا اللوح، منتظرًا نتائج الأشعَّة. ثمَّ جاء الطبيب قائلًا: "لا توجد طريقة سهلة لقول ذلك يا سيِّد يانسي...". لقد كان لديَّ كسر في الرقبة، في الفِقرة العُنُقية الثالثة بالذات. الخبر السارُّ هو أنَّ الكسر لم يحدث في القناة العظميَّة التي يمرُّ بها النخاع الشوكيُّ، فلو حدث ذلك، لكان من المرجَّح أن ينتهي بي الأمر بشللٍ رباعيّ. أمَّا الخبر السيِّئ فهو أنَّ شظية العظم ربَّما شقَّت أحد الشرايين المهمَّة في الرقبة.

وقال لي الطبيب شارحًا: "لدينا طائرة جاهزة لنقلك إلى دنفر لإجراء جراحة. سوف نجري أشعَّة مقطعيَّة ملوَّنة، لنكشف أيَّ نزيف. الموقف مُهدِّدٌ للحياة. ربَّما تحبُّ أن تتَّصل بأحبَّائك".

على العموم، استلقيت مربوطًا بهذا اللوح مدَّة سبع ساعات في ذلك اليوم، وكان ذلك وقتًا طويلًا بما يكفي لأتأمَّل حياتي بالكامل. لقد كتبت مقالات عن أشخاص تغيَّرت حياتهم تمامًا في لحظة بسبب حادث تركهم بشللٍ نصفيٍّ أو رُباعيّ.

لقد نجوت من هذا المصير بأعجوبة. لكن إذا كان هناك تسريبٌ في شرياني الذي يغذِّي الدماغ، أو إذا تكوَّنت فيه جلطة، فسوف أواجه مصيرًا أسوأ من الشلل.

وبينما كنت أرقُد هناك، مُتأمِّلًا في ما عَلَّمته عن الصلاة، ومواجِهًا احتماليَّة الموت الوشيك، شعرت بسلام عجيب. تأمَّلت في حياتي الرائعة مع زوجتي، ومع عملٍ أتاح لي معنى عميقًا وحُرِّيَّة واسعة، وأقمتُ بكتاباتي علاقات عدَّة ومتنوِّعة بأشخاص لم أُقابلهم قَطُّ.

نظرت إلى الخلف، إلى حياتي، وشعرت بالقليل من الندم. وبينما كُنتُ أفكِّر فيما قد يكون في انتظاري، شعرت بثقة عميقة. رُغمَ من أنَّه لا يوجد من تربَّى في البيئة الكنسيَّة نفسها التي تربَّيتُ فيها وينسى تمامًا تلك الرائحة المُرعبة للنار والكبريت، فإنَّني شعرت شعورًا غامرًا بالثقة بالله. لقد عرفت إله الرأفة والرحمة والمحبَّة.

(يتبع في التأمُّل التالي)

مذكِّراتُ رحلاتٍ، أُضيفَت في بعض طبعات كتاب: الصلاة: هل تُحدث أيَّ اختلاف؟

ذهول النعمة

(يتبع من التأمُّل السابق)

أمَّا ما حدث فهو أنَّ النتائج- شكرًا لله- كانت أفضل كثيرًا ممَّا كنت أرجوه؛ إذ لم تكشف الأشعَّة المقطعيَّة وجود نزيف من الشريان. وخرجت من المستشفى بعد ساعة واحدة من وصول زوجتي، وقد ارتديت دعامة رقبة صلبة لمنع رأسي من الحركة مدَّة ١٢ أسبوعًا. وبعد شهور عدَّة من العلاج الطبيعيِّ، التحم الكَسرُ، ولم يبْقَ إلَّا بعض الألم وبعض من الانحراف في فقرات العُنُق. ربَّما أحتاج إلى جراحة في العمود الفقريِّ لاحقًا، لكنِّي تقريبًا استعدت حياتي الطبيعيَّة.

وعندما أنظر إلى الخلف متذكِّرًا ذلك الموقف، أرى الكثير من المصادفات (أو اللقاءات الإلهيَّة؟) التي أسهَمَت في الوصول إلى ذلك المآل الجيِّد. هذان الزوجان المُورمون اللذان هما في الوقت نفسه مُسعفان مؤهَّلان، تصادف مرورهما في هذا الطريق في تلك الساعة المُبكِّرة من صباح الأحد. وفنِّيُّ الأشعَّة صاحب الخبرة الطويلة، الذي كان من المفترض أنَّه في إجازة نهاية الأسبوع جاء بديلًا لزميل مريض. وطبيب الطوارئ الذي هو من أوائل الخرِّيجين في كلِّيَّة طبٍّ مرموقة، والذي عاد ليخدم بلدته الصغيرة في كولورادو. وقبل كلِّ شيء: الإصابة نفسها، خطيرة لكنَّها ليست كارثيَّة كما كان يُمكن أن تكون.

الآن أعود بذاكرتي إلى ذلك اليوم الطويل الذي قضيته مربوطًا في ذاك اللوح في سيَّارة الإسعاف ثُمَّ في غرفة الطوارئ، واحسبه هديَّة فريدة.

كلُّنا سنواجه الموت! بعضنا بمرض مزمن طويل الأمد مثل السرطان، وبعضنا بحادث مفاجئ. ما حدث لي كان شيئًا ما في المنتصف- نافذة من الزمن قضيتها ممدَّدًا بين الحياة و"الموت"، مع احتمالٍ واردٍ بالموت في غضون دقائق أو ساعات، أو مع فرصة أن أخرج بأخبار سارَّة جدًّا، وفرصة جديدة بالحياة.

أتمنَّى ألَّا أنسى هذه النافذة من الزمن ما حييت، وما رأيته من خلالها. كنت أسير بضعة أسابيع بعد الحادثة في حالة، يُمكن أن أُسمِّيها "ذهول النعمة"، ناظرًا إلى السماء والأشجار والنجيل وزوجتي وأصدقائي، بعينَين جديدتَين تمامًا. وحتَّى عندما يلفتُ جسدي المترضِّض انتباهي لآلام وأوجاع جديدة، كانت الحياة تحمل لي في كلِّ ركن ما يدفعني إلى الفرح والشكر. في كلِّ يوم، كنت أستيقظ بشعور عميق من الشكر من أجل أبسط الأشياء: الطيور التي تطير من شجرة إلى الأخرى، وصوت خرير الغدير من بين الصخور والجليد بجانب بيتنا، والقدرة على تحريك إصبَعي أو ارتداء ملابسي بنفسي.

(يتبع في التأمُّل التالي)

مذكِّراتُ رحلاتٍ، أَضيفَت في بعض طبعات كتاب: الصلاة: هل تُحدث أيَّ اختلاف؟

كلُّ ما يهم

(يتبع من التأمُّل السابق)

حينما انتشر خبر هذه الحادثة، غمرني الدعم في الشهور اللاحقة من أصدقائي، وأفراد أسرتي، وأشخاصٍ لم أقابلهم من قبل. أسكُبُ في عمليَّة الكتابة بعضًا من روحي على الورق المطبوع، فأدركتُ من البطاقات والرسائل التي وصلتني روابط هائلة بَيني وبين غرباء. كتب لي أحدهم أنَّ "الكويكرز" (Quakers)، أو جمعيَّة الأصدقاء، كانوا يُصلُّون عبارة بالنيابة عنِّي هي: "لتُحمَلَ بالنور". لقد شعرت بأنَّني كُنتُ محمولًا بالفعل.

وعندما كانت زوجتي تعمل راعية دينيَّة في أحد دور المسنِّين، لَاحَظَت فرقًا واضحًا في الطريقة التي يواجه بها المؤمنون الموت بالمقارنة مع غير المؤمنين. كلاهما يشعر بالخوف والألم والحُزن. لكنَّ لدى المؤمنين المسيحيِّين إسهامًا يكاد يكون ملموسًا في حياة بعضهم بعضًا بواسطة العلاقة الغامضة التي تحدث في الصلاة. إنَّها الفرق بين زائر الدار الذي يقول "سوف أُصلِّي من أجلك- بأمانة، كلَّ يوم"، والزائر الذي يقول: "حظًّا سعيدًا. مع أطيب الأمنيات".

في الآونة الأخيرة، كان عددٌ كبيرٌ من الكُتَّاب يروِّجون نوعًا من الإلحاد الانتصاريّ. أستطيع أن أتفهَّم ما قد يدفع أحدهم لأن يختار الإلحاد، لكنَّني لا أستطيع أن أتفهَّم إمكانيَّة أن يكون هذا الموقف أشبه بأخبار سارَّة، وشيء يستحقُّ الترويج؛ فعندما كنت أرقد عاجزًا مربوطًا في لوح لتثبيت جسدي، كان من الممكن أن أشعر بالوحدة الشديدة وعدم القابليَّة للتعزية، لولا إيماني بأنَّني أرقد بين يدَي الله الذي يحبُّني ويعدني بمُستقبلٍ بعد الموت.

وأظلُّ أحاول أن أضع نصب عينيَّ تلك الرؤية الواضحة التي كانت لديَّ بينما كنت أرقد مربوطًا لسبع ساعات متَّصلة. لقد تعلَّمت حقيقة أنَّ الخطَّ الفاصل بين الموت والحياة شديد الدقَّة، و أدركت مدى التعزية التي يحملها الإيمان بأنِّي لست وحدي في هذه الرحلة. لقد تعلَّمت هذه الأمور بطريقة أشكُّ أنَّني سوف أستطيع يومًا ما أن أنساها.

إنَّ الوقت والطاقة اللذين نبذلهما في الأمور الماليَّة، وصورتنا الاجتماعيَّة وإنجازاتنا تكاد تكون بلا قيمة في مواجهة الموت الوشيك.

إنَّ ما يهمُّ في ذلك الوقت يتحوَّل إلى أسئلة قليلة: مَن أُحِبُّ؟ مَن سوف أفتَقِد؟ كيف قضيت حياتي؟ هل أنا مستعدٌّ للحياة الأخرى؟ والتحدِّي هو، كيف أحتفظ بهذه الأسئلة في مقدِّمة وعيي عندما أجلس إلى

مكتبي كلّ يوم وأواجه أطنان الأوراق والرسائل الإلكترونيَّة؟

مذكِّراتُ رحلاتٍ، أُضيفَت في بعض طبعات كتاب: الصلاة: هل تُحدث أيَّ اختلاف؟

٢٩ شباط/فبراير

أستاذ الشطرنج

كنت أفتخر في المدرسة الثانويَّة بقدراتي على لعب الشطرنج؛ فقد التحقتُ بنادي الشطرنج، وفي ساعة الغداء، كنت غالبًا ما أجلس إلى الطاولة مع غيري من المهووسين بهذه اللعبة، منغمسين في قراءة مراجع خاصَّة بها. درست تقنيات متنوِّعة، وكسبتُ أغلب مبارياتي، ثُمَّ وضعتُ هذه اللعبة جانبًا من حياتي مدَّة عشرين سنة. ثُمَّ في شيكاغو، قابلت لاعب شطرنج ممتازًا كان يعمل باستمرار على إتقان مهاراته منذ المرحلة الثانويَّة.

عندما لعبنا بضع مباريات، تعلَّمت معنى أن ألعب أمام أستاذ. كلُّ دفاع كلاسيكيٍّ قُمت به، كان يقابله بدفاع كلاسيكيٍّ أيضًا. وإذا لجأت إلى تقنيات خطرة غير تقليديَّة، أجده يُضمِّنُ تحرُّكاتي داخل خُطَّته للفوز. ومعَ أنَّني تمتَّعت بالحرِّيَّة الكاملة للقيام بأيَّة حركة أُريدها، فسرعان ما وصلت إلى الاستنتاج النهائيِّ أنَّه لا واحدة من استراتيجيَّاتي تصنع أيَّ فرق. لقد كانت مهاراته المتفوِّقة تضمن أنَّ كلَّ أهدافي كان ينتهي بها الأمر لتخدم أهدافه هو.

ربَّما يتعامل الله مع عالمنا، ومع الخليقة، بما يُشبه هذه الطريقة كثيرًا. يعطينا الله الحُرِّيَّة لنتمرَّد عليه وعلى خُطَّته الأصليَّة، مع ذلك، فإنَّنا في النهاية نخدم هدفه الأصيل وهو استرداد هذا العالم وافتداؤه. وإذا قبِلتُ هذا المُخطَّط- وأعترف أنَّها خطوة إيمان كُبرى- فإنَّ هذا سوف يُغيِّر الطريقة التي أنظر بها إلى كلِّ ما يحدث من خير أو شرّ. يُمكنني عندئذ أن أُقدِّم لله كلَّ أشكال الخير مثل الصحَّة أو الموهبة أو المال بوصفها تقدمةً لخدمة أهدافه الإلهيَّة. والشرُّ أيضًا، كالإعاقة أو الفقر أو الاضطرابات الأسريَّة أو الفشل، يمكن أن "تُفتَدَى" وتتحوَّل لتصبح هي نفسها أدوات تقودني إلى الله.

كثيرون يجدون التجربة المستمرَّة، حتَّى الإدمان نفسه، أشبه بالجرح الذي جعلهم يعودون إلى الله في احتياج شديد إليه، حتَّى إنَّ هذه الجروح تُصوِّر نقطة البداية لخليقة جديدة.

ربَّما يتَّهمني متشكِّكٌ بالتعليل المُبالغ فيه، وبأنَّني أُجادل لكي أجعل الدلائل توافق نتيجة نهائيَّة موضوعة مسبَّقًا. نعم، بالضبط. فالمسيحيُّ يبدأ بالاستنتاج أنَّ الإله الصالح سوف يستردُّ الخليقة ويعيدها إلى تصميمها الأصيل، ويرى كلَّ التاريخ يتحرَّك نحو هذا الهدف. عندما يلعب الأستاذ الكبير مع لاعب شطرنج هاوٍ، فالنصر مُفترض مُسبَّقًا مهما بدت الحال على رقعة الشطرنج في أيَّة مرحلة من المراحل.

عمود "الصفحة الخلفيَّة"، مجلَّة المسيحيَّة اليوم، ٢٢ أيَّار/ مايو ٢٠٠٠م

آذار/مارس

١. حجر رشيد
٢. العدسة المُكبِّرة للإيمان
٣. اقتراب الله
٤. يسوع البروزاك
٥. الرؤية الجديدة
٦. وجبات فخمة لمصلحة الفقراء
٧. نوال حياة
٨. أصعب مهنة في العالم
٩. مُرشد الظِّلّ
١٠. لاهوت من نكات قذرة
١١. مشكلة اللذَّة
١٢. لحظات الطَفو
١٣. رؤية المسيَّا
١٤. غير المرغوب فيهم
١٥. خسارة الحروب الثقافيَّة
١٦. بلا طُرُق مُختصرة
١٧. الإرشاد الليليّ
١٨. نظرة إلى الخلف
١٩. الحضور
٢٠. الصلاة بالطريقة السليمة
٢١. يسوع ونورمان العاصف
٢٢. التطويبات المعكوسة
٢٣. مكافآت مستقبليَّة
٢٤. إله عادل في النهاية
٢٥. مراهنة الله
٢٦. كنيسة منتصف الليل
٢٧. مُعلِّمون مدمنو خمر
٢٨. الاهتمام بالنَّكِرات
٢٩. التواضع الحقيقيُّ
٣٠. أيادٍ لا يمكن إسكاتُها
٣١. صلاحٌ يُذهِب العقل

فحصٌ كَنَسيٌّ

قرَّرت وزوجتي يومًا ما أن نُجري تجربة نبحث فيها في دليل الهاتف تحت عنوان "كنائس"، ونزور كلَّ كنيسة من الكنائس الأربعة والعشرين المُسجَّلة في دليل هاتفنا المحلِّيّ. وبحَدسٍ خاصٍّ من الصعب شرحه، عادةً ما كُنت أستشعر "حيويَّة" شعب الكنيسة بعد دقائق عدَّة من دخولنا الكنيسة. وعادةً ما تكون الأسئلة التالية هي التي تحدِّد ذلك: هل كان الناس يتجاذبون أطراف الحديث في بهو المدخل؟ هل كنتُ أسمع ضحكات؟ ما الأنشطة؟ وما القضايا التي تشير إليها نشرة الكنيسة؟

لدهشتي، لم تكن الحيويَّة مرتبطة باللاهوت؛ ففي اثنتين من أكثر الكنائس محافظة، جلس الأعضاء في كراسيِّهم متراخين وكانوا يؤدُّون الطقوس المعتادة بوجومٍ وبلا حماسة، في حين كانت كنيسة أخرى شديدة التحرُّر تعكس أكبر قدر من الطاقة والنشاط في المجتمع وفي العمل المُرسليّ. لقد أصبحت لديَّ الآن صورة واضحة للصفات التي أبحث عنها في الكنيسة التي تتمتَّع بالصحَّة.

١. **التنوُّع**. عندما أقرأ عن كنائس العهد الجديد، لعلَّ سمة التنوُّع هي السمة التي تظهر بوضوح أكثر من أيَّة سمة أخرى. ومنذ يوم الخمسين، فكَّكت الكنيسة حواجز العِرق والنوع والطبقة الاجتماعيَّة والمستوى الاقتصاديِّ- الحواجز ذاتها التي ميَّزت المجتمع الدينيَّ اليهوديّ. تعجَّب بولس، الذي كان يُفترض به بصفته معلِّمًا للناموس أن يشكر الله كلَّ يوم أنَّه لم يولد امرأة أو عبدًا أو أمِّيًّا، من هذه التغيير الجذريِّ الذي حدث له حتَّى كتبَ: "ليس يَهوديٌّ ولا يونانيٌّ. ليس عَبدٌ ولا حُرٌّ. ليس ذَكَرٌ وأُنثَى، لأَنَّكُمْ جميعًا واحِدٌ في المَسيحِ يَسوعَ". وعندما أدخل إلى كنيسة جديدة، كلَّما كان أعضاؤها متشابهين، ومشابهين لي، كنت أشعر بعدم الراحة.

٢. **الوحدة**. بالتأكيد لن ينجح التنوُّع بين مجموعة من الناس إلَّا إذا اشتركوا في رؤية واحدة. في صلاة يسوع العظيمة في يوحنَّا ١٧، أكَّد طِلبة واحدة أكثر من غيرها: "أن يكون الجميع واحدًا". إنَّ وجود ٣٨ ألف طائفة مسيحيَّة حول العالم يعكس فشَلنا في تحقيق طلبة يسوع. ربَّما أشتمُّ قَبَسًا من هذه الرائحة عندما أزور كنيسة جديدة وأستشعر "حيويَّتها".

٣. **الإرساليَّة**. الكنيسة، كما يقول الأسقف الأكبر وليَم تمبل (William Temple)، هي "المجتمع الوحيد المتعاون في العالم الموجود من أجل مصلحة مَن هم ليسوا من أعضائه".

تُركِّز بعض الكنائس، لا سيَّما في المناطق الحَضَريَّة، على حاجات جيرانها المباشرين، في حين تتبنَّى غيرها كنائس أخرى في بلاد أخرى، وتدعم هيئات إغاثة وتنمية، وترسل فرق عبر الحدود. أمَّا الكنائس المثيرة للحزن، فهي تلك التي لا تتجاوز اهتماماتها مبناها أو ساحة انتظار السيَّارات الخاصَّة بها.

عمود "الصفحة الخلفيَّة"، مجلَّة المسيحيَّة اليوم، عدد تشرين الثاني/ نوڤمبر ٢٠٠٨م

٢ آذار/مارس

كلُّ الأنواع مطلوبة

كان في كلِّ كنيسة حَضَرتُها قدرٌ من التعدُّديَّة. وعندما أعود بذاكرتي إلى الكنيسة التي نشأت فيها في أتلانتا، جورجيا، أشعر بالإعجاب بشخصَين كنت أجلس بجانبهما بالتناوب عندما تكون أمِّي تدرِّس في أحد صفوف مدارس الأحد. كنت أحبُّ الجلوس إلى جانب السيِّدة بايتون (Payton)؛ لأنَّها كانت ترتدي شالًا زاهيَ الألوان يتكوَّن ممَّا يشبه حيوانَي مينك يعضُّ كلٌّ منهما ذيل الآخر. وكنت طوال الاجتماع ألعب بعينَي حيوانَ المينك الصلبتَين اللامعتَين وأسنانهما المُدبَّبة، وجلدهما الطريِّ وذيليهما المرنَين. لقد كان هذا الشال يُعينُني على احتمال الكثير من العِظات المملَّة.

أمَّا السيِّد بونس (Ponce)، فلم توجد أيُّ حيوانات ملفوفة حول عنقه، لكنَّني كنت أعلم أنَّه أكثر الناس طيبة. كان لديه ستَّة أطفال، وكان يبدو سعيدًا جدًّا عندما يجلس أيُّ طفل آخر على ركبتَيه. كان رجلًا ضخمًا، وكنت أجلس على ركبتَيه راضيًا طوال الاجتماع دون أن تخذلني ركبتاه. كان يمتدح الصور التي كنت أرسمها على نشرة الكنيسة، وكان يرسم على يديَّ وجوهًا كانت تبتسم أو تغمز عندما كُنتُ أحرِّك أصابعي بطريقة معيَّنة.

أتذكَّر السيِّد بونس بسبب طيبته، وأيضًا بسبب شَعر أنفه النابت خارجًا من فتحتَيه والذي كنت أراه بسهولة من موقعي على ركبتَيه. إذا سألتَني وقتها من أحببتُ أكثر من الجميع، فربَّما يحتلُّ السيِّد بونس المكانة الأولى. لقد تُوُفِّيَ أبي عندما كان عمري سنة واحدة، وكان السيِّد بونس يقدِّم لي الحضور الذَّكَريَّ المُريح.

بعد ذلك، عندما صرت أكبر وأكثر تعقيدًا في تفكيري، عرفت المزيد من الحقائق: السيِّدة بايتون كانت غنيَّة، وهذا يفسِّر حقيقة حيوانات المينك التي كانت تلفُّ رقبتها. لقد كانت أسرتها تمتلك توكيلًا ناجحًا لبيع سيَّارات كاديلاك. أمَّا السيِّد بونس، فكان على العكس من ذلك، يقود شاحنة لجمع القمامة، ونادرًا ما كان يكسب المال الكافي لإعالة أسرته الكبيرة. عندما عرفت هذه الحقائق، أدركت لخزيي أنَّني لمَّا صرتُ راشدًا غالبًا ما لن أُصادِق السيِّد بونس. وربَّما كنَّا سنشترك في القليل من الاهتمامات.

إنَّني سعيدٌ، بل سعيد جدًّا، لتضمُّن كنيسة يسوع المسيح في طفولتي هذَين الصديقَين. والآن أرى أنَّ الكنيسة ينبغي أن تكون بيئةً يمكن أن يشعر فيها كلٌّ من السيِّدة بايتون صاحبة الشال ذي الفرو، والسيِّد بونس صاحب الأنف ذي الشعر بالترحيب المتساوي.

من كتاب: الكنيسة: لماذا نهتمّ؟

٣ آذار/مارس

زيارة باسيل

انضممت إلى وفدٍ من المسيحيِّين زارَ روسيا سنة ١٩٩١م، إبان انهيار الاتِّحاد السوفييتيِّ. وعندما قابلنا ذلك الأدب الجمَّ والاحترام الثابت تجاه المسيحيَّة، كان من السهل ألَّا نُدرك أنَّ الأمور لم تكن هكذا دائمًا، وأنَّ هذه الأمَّة تغيَّرت في توجُّهها من نحو الدين. لقد استحضرت زيارة باسيل (Basil) ذاكرة حيَّة لتلك الحقيقة.

كان باسيل لفترة يستمع مُشكِّكًا إلى تقارير تبثُّها إذاعة الدولة وتقول إنَّ مسيحيِّين من الولايات المتَّحدة كانوا في لقاءٍ مع مجلس السوفييت الأعلى والمخابرات الروسيَّة. هذا الانفتاح الجديد على الدين بدا غير قابلٍ للتصديق من جانب باسيل حتَّى إنَّه استقلَّ قطار الليل وسافَر مدَّة أربع عشرة ساعة من مولداڤيا لكي يقابلنا.

كان باسيل يتميَّز بكتفين عريضتَين وجسدٍ ضخم وملامح مزارع أكلت الشمس والرياح على جسده وشربت. وكانت لديه ابتسامة خاصَّة جدًّا؛ إذ كانت سِنَّان أماميَّتان علويَّتان مفقودتَين، وعندما كان يبتسم كان الذهب المحشوُّ في أضراسه الخلفيَّة يعكس بعض النور من بين الفراغات.

عندما فتح باسيل فَمَهُ وخَرَجَ أوَّل صوت من حَنجَرته، قفزتُ من مكاني، فقد كان يتكلَّم بنبرة صوت تصل إلى طبقة صوت قطار بضاعةٍ سريع. لم أسمع في حياتي صوتًا أعلى من ذلك يخرج من حَنجَرة إنسان. وسرعان ما عرفنا السبب.

سنة ١٩٦٢م، أُلقي القبض على باسيل وأُرسلَ إلى مُعسكر عمل بسبب اتِّهامه بتوزيع منشورات مسيحيَّة. في البداية، كان باسيل مرتبكًا من عقابه على خدمته لله. ثُمَّ في صباح يوم من أيَّامه في المعسكر، رأى في لمحة بصر أنَّ الله سمح له بفرصة جديدة.

كلُّ صباح قبل شروق الشمس، كان على المساجين في معسكر العمل أن يجتمعوا في الخلاء حتَّى أن يُنادي الحرَّاس على أسمائهم. وكان قادة المعسكر يُصِرُّون على الدقَّة الشديدة في المواعيد من جانب المساجين، ولكنَّهم لا يُصرُّون على القدر نفسه من الدقَّة من الحرَّاس. ونتيجةً لذلك كان آلاف المساجين يقفون في الخلاء دقائق عدَّة، قبل أن يحضر الحرَّاس، لا يجدون شيئًا يفعلونه. أمَّا باسيل الذي كان يحبُّ أن يعظ، قرَّر أن يبدأ كنيسة في تلك الدقائق.

وبينما كان باسيل يقصُّ علينا قصَّته في غرفتنا في الفندق، كان يتكلَّم بصوت عالٍ وبسرعة، ويشير بذراعَيه ويدَيه بحماسةٍ شديدةٍ مثل مغنِّي أوپرا. وبعد كلِّ بضع جُمل كان المترجم أليكس (Alex) يمسك بذراعَي باسيل المُشرعتَين في الهواء ويطلب إليه أن يُبطئ من إيقاعه ويخفض من صوته قليلًا. وفي كلِّ مرَّة كان باسيل يعتذر، وينظر إلى الأرض، ويبدأ مرَّة أخرى وفي غضون ثلاث ثوانٍ كان صوته يرتفع مجدَّدًا. لم

يكن لصوته مفتاحٌ للتحكّم، والسبب يعود إلى تلك الأوقات الصباحيَّة الباكرة في معسكر العمل.

(يتبع في التأمُّل التالي)

من كتاب: الصلاة مع المخابرات السوڤييتيَّة

كنيسة الدقيقتَين

(يتبع من التأمُّل السابق)

كان باسيل يعظ يوميًّا لمستمعين مُستأسَرين بالكامل. وفي أغلب الأوقات تكون لديه دقيقتان فقط قبل وصول الحرَّاس، وفي بعض الأحيان كان يصل الوقت إلى خمس دقائق، لذا كان الأمر يتطلَّب منه نحو أسبوعَين ليقدِّم عِظة واحدة. لقد كان عليه أن يصرخ بأعلى صوته لكي يسمعه آلاف عدَّة من السجناء، وقد جعل ذلك صوته أجشَّ. ومع الوقت، تأقلمت أحباله الصوتيَّة. وعلى مدار السنين- عشر سنوات في المُجمل- من الحديث في الخلاء للآلاف، تكوَّنت لديه عادة التكلُّم بأعلى صوته وبأقصى سُرعة، فأصبحت عادةً لم يستطع الإقلاع عنها.

ومُنذ أُطلق سراحه سنة ١٩٧٢م، كرَّس طاقته في بناء مبنى كنيسة غير مُرخَّصة في قريته. والآن، بعد تسع عشرة سنة، بعد أن تناقص الاضطهاد، وضع آخر لَبِنةٍ وغطَّى الكنيسة بسقف. وها هو يأتي إلى موسكو، لكي يشكرنا على كلِّ ما فعلناه، جالبًا إلينا فواكه طازجة من مولداڤيا، وطالبًا إلى أليكس ليونوڤيتش (Alex Leonovich)، وهو كارز روسيٌّ أميركيٌّ معروف ببرامجه الإذاعيَّة، أن يتكلَّم في حفل تكريس كنيسته.

قال باسيل: "مضت سنوات كثيرة لم أشعر فيها بأيِّ تشجيع". لكنَّه الآن كان يبكي من فرط التأثُّر ويرتعش صوته دون أن ينخفض بأيِّ قدر، ويقول: "لقد كُنت أحمل كلمات ذلك الرجل، الأخ ليونوڤيتش، في قلبي. كان هو الوحيد الذي يشجِّعني عندما كانت يداي مغلولَتَين خلف ظهري". ثُمَّ مدَّ يديه وأمسك ليونوڤيتش بكتفَيه، وقبَّله بالطريقة الروسيَّة: مرَّة، مرَّتين، خمس عشرة مرَّة- مرَّة عن كلِّ سنة من السنوات التي كان فيها ينتظر أن يعود ليونوڤيتش إلى روسيا.

وفي الختام قال باسيل: "والآن، مع هذه التغييرات لا أكاد أصدِّق. أتذكَّر أنَّه عندما جاء بيلي غراهام سنة ١٩٥٩م سمحوا له بأن يظهر في الشرفة دون أن يتكلَّم. وعندما أفكِّر أنَّكُم الآن هنا، تستطيعون التكلُّم إلى قادة بلادنا، لا أكاد أصدِّق. أيُّها الإخوة والأخوات، كونوا شجعانًا! إنَّ المؤمنين في قريتي يصلُّون من أجلكم في هذه الدقيقة. إنَّنا نؤمن بأنَّ زيارتكم سوف تساعد في وصول رسالة الله إلى بلادنا. ليبارككم الربُّ جميعًا".

فجأة، شعرت بخزيٍ شديد. فها نحن تسعة عشر متخصِّصًا يعيشون في ترفٍ من جرَّاء إيمانهم، يقيمون في فندق فخم. ماذا نعرف عن مثل ذلك الإيمان الذي كان عليه أن يُناطح الصخر لكي يحافظ على وجوده في

هذه الأمَّة التي كان على شعبها أن يتحمَّل كلّ هذه المعاناة؟

من كتاب: الصلاة مع المخابرات السوڤييتيَّة

٥ آذار/مارس

ثلاث دمعات

في ثلاث مرَّات نعرفها، دفع الألم يسوع إلى البكاء. فقَدْ بكى عندما مات صديقه لعازر. أَتذَكَّرُ شخصيًا سنةً رهيبةً مات فيها ثلاثة من أصدقائي في تتابع سريع.

لقد اكتشفت أنَّ الإنسان لا يُمكن أن يعتاد الفَقْدَ بتاتًا؛ إذ لم تَشفع لي خبرتي في حادثَتَي الوفاة الأُولى والثانية في تحمُّل الثالثة. في كلِّ مرَّة يصدمني الحزن كقطار الشرق السريع، فيسوِّيني بالأرض، ويتركني أحاول أن أستجمع أنفاسي، ولا أستطيع أن أفعل شيئًا سوى البُكاء. وما يعزِّيني بصورةٍ ما أنَّ يسوع شعر شعورًا مُشابها عندما مات صديقه لعازر.

وفي وقت آخر، انهمرت الدموع من يسوع عندما نظر إلى أورشليم وأدرك المصير الذي ينتظر هذه المدينة العظيمة. يشبه هذا الحزن حُزن الوالدَين عندما يبتعد أحد أبنائهما ويضلُّ طريقه، في سبيل ما يحسبه حرِّيَّة، ويرفض كلَّ ما كان قد تربَّى عليه. أو ألم رجل أو امرأة يشعران بالهجر من رفيق الحياة. حتَّى الله، بكلِّ ما لديه من قُدرة، لا يستطيع أن يفرض الحبَّ على إنسان.

وأخيرًا، تخبرنا الرسالة إلى العبرانيِّين أنَّ يسوع "قدَّم بصراخ شديد ودموع طلبات وتضرُّعات للقادر أن يخلِّصه من الموت". لكنَّه لم يخلِّصه من الموت. هل من المُبالغة أن نقول إنَّ يسوع نفسه طرح السؤال الذي كثيرًا ما يؤرِّق أغلبنا: "هل يهتمُّ الله؟"؟ ما عسى أن يكون المعنى الذي قصده يسوع عندما اقتبس ذلك المزمور المأساويّ: "إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟".

مرَّة أخرى، أجدُ عزاءً كبيرًا لي أنَّ يسوع عندما واجه الألم تجاوب معه كما أتجاوب أنا. اختبَرَ الحَزَن، والخوف، والهجر، ويكاد يكون اقترب أيضًا من اليأس. لكنَّه احتمل، لأنَّه كان يعرف أنَّ أباه في مركَز الكون، وهو إله المحبَّة الذي يُمكنه أن يثق به مهما بدت الأمور في أيِّ وقت من الأوقات.

كان تجاوب يسوع مع المتألِّمين يقدِّم لمحة من قلب الله. إنَّه ليس قلبًا لا يتحرَّك ولا يتأثَّر، بل هو قلبُ أبٍ مُحبٍّ يشعر ويقترب مِرارًا وتَكرارًا.

من كتاب: يسوع الذي لم أكن أعرفه

٦ آذار/مارس

الكُتَّاب مثل دود الأرض

ذات مرَّة سمعت أحد الكُتَّاب يصف كُتَّابًا آخرين أنَّهم أشبه بدود الأرض في المجتمع، وقال "إنَّنا نعمل على تهوية التربة". فبواسطة حفر أنفاقٍ في التربة، فإنَّ الكُتَّاب الذين هم في الأساس إنسانيُّون، يُدخلون الهواء والنور، وفي الوقت نفسه يخلقون مساحات يمكن أن يملأها القرَّاء بأنفسهم. تتمتَّع الكُتُب بلياقة خاصَّة بها؛ فدود الأرض الذي يصنع هذه الأنفاق لا يُحملِق في وجهك، مُهدِّدًا إيَّاك لكي توافق على ما يقول. إنَّهم يهضمون التراب، ويمضون في طريقهم.

لسنواتٍ، كُنتُ كُلَّما حضرتُ كنيسة، أو اجتماعًا مسيحيًّا، أضع حولي ما يشبه التروس الدفاعيَّة. كنت أثق بالمتكلِّمين المسيحيِّين بقدر ما يثق أغلب الناس بشهود يهوه الذين يقرعون الأبواب. كنت أعرف حِيَلهم جيِّدًا، وقدرتهم على التلاعب بالمشاعر كَمَن يعزف على آلاتٍ وتريَّة، ونفاقهم الذي لا يظهر إلَّا في كواليس مسرح الحياة. أمَّا الكُتُب، فهي شيءٌ آخر. أستطيع أن أقرأها بالمُعَدَّلِ الذي يُناسبني، وأدَع مشاعري تتجاوب بطريقة أكثر صدقًا، وأقلَّ مناورة وتأثيرًا.

تحافظ الكُتُب على الكُتَّاب الدينيِّين أمناء. فالكاتب لا يستطيع أن يُغلِق باب قاعة أو يُهدِّد مستمعيه، ولا يستطيع أن يؤخَذ في غيبة أمامهم. الكاتب لا يملكُ إلَّا الكلمة المجرَّدة على صفحة الكتاب ليدعها تتكلَّم عن نفسها.

نتيجةً لذلك، تقول ليز كيرتس هيغز (Liz Curtis Higgs) إنَّها أعطت كتاب "المسيحيَّة المُجرَّدة"[1] لمؤلِّفه سي. أس. لويس اختبار الصفحة الواحدة، أي أنَّها سوف تقرأ صفحة واحدة ثُمَّ تقرِّر إذا كانت ستتبعها بصفحة أخرى أم لا؟ ثُمَّ قرأَتْ صفحة ثانية، وثالثة، وقبل أن يمرَّ وقتٌ طويل كانت قد قرأَتْ الكتاب كلَّه وبدأَتْ في رحلة عودة ثابتة إلى الإيمان. وتشَك كولسون (Chuck Colson) في أوضاع مختلفة تمامًا، التقط الكتاب نفسه بشعور غامض أنَّ لِويس شخَّص مرضه الروحيَّ، وهو الكبرياء.

أشكُّ أنَّ سي. أس. لويس الأوكسفورديَّ، كان يفكِّر في أشخاص مثل ليز كيرتيس هيغز أو تشَك كولسون عندما كان يؤلِّف كتابه. لقد كان يقدِّم أحاديث إذاعيَّة ليبثَّ الرجاء والتجديد الروحيَّ في بريطانيا التي دمَّرتها الحرب العالميَّة الثانية. ليس لدينا نحن الكُتَّابَ، وأنا هنا أتكلَّم من خبرتي المتواضعة، أدنى فكرة عمَّن سيتجاوب مع كُتُبنا، وعن تأثير هذه الكتب.

مقدِّمة كِتاب: الحبر الذي لا يُزال: ٢٢ قائدًا مسيحيًّا بارزًا يناقشون الكتب التي شكَّلت إيمانهم

ليس تمامًا!

إنِّي أُحبُّ عملي ولا أستطيع أن أتخيَّل نفسي أفعل شيئًا آخر. لكنَّني أبدأ كتابتي بإحساس عميق بالاتِّضاع والوعي بأنَّنا، نحن الكُتَّابَ، مثل الطفل الذي ينظر من ثقب باب الحقيقة.

كتبتُ ذات مرَّة عن أحد أصدقائي واسمه لاري (Larry)، وهو واحد من أكثر الأشخاص الذين عرفتهم إثارة للإعجاب. ولكونه مزدوج الميل الجنسيِّ، كان لديه تاريخ من العلاقات العاطفيَّة بأشخاصٍ من الجنسَين. وهو أيضًا مدمنُ خمرٍ مُتَعافٍ، ويحضر جلسات مجموعات المدمنين المجهولين يوميًّا تقريبًا، وله عشرون سنة من الإقلاع عن التعاطي، كما أنَّه أصبح مُشيرًا لمساعدة من يسيئون استخدام العقاقير. لقد تربَّى صديقي هذا في طائفة المينونايت (Mennonite)، وتمرَّد على هذه الطائفة بالتطوُّع للحرب في ڤيتنام، لكنَّه منذ ذلك الحين صار ممَّن لا يؤيِّدون الحرب.

وفي أثناء مسيرة حياته، آمن بالمسيح. ويقول إنَّه اهتدى إلى الإيمان بفعل ترنيمتين هُما: "كما أنا" (Just As I Am) و"ما أعجب النعمة" (Amazing Grace). عندما استمع لاري لكلمات هاتَين الترنيمتَين، تكلَّم الله إليه في أعماق قلبه قائلًا له إنَّه بالفعل يريده كما هو. لقد كانت نعمة الله عجيبة إلى ذلك الحدّ. وظلَّ لاري يتبع الله بطريقته منذ ذلك الحين. ويعبِّر لاري عن أزمته بهذه الطريقة: "أعتقد أنَّني عالق بين «كما أنا» وبين «كما يريدني الله أن أكون»".

كتبتُ عن لاري باختصار في مقدِّمة مقالة نشرتها في مجلَّة "المسيحيَّة اليوم" حيث غيَّرت بعض التفاصيل لحماية خصوصيَّته. وبعد بضعة أسابيع جاءتني مكالمة تليفونيَّة من صديقي قال فيها: "لقد قرأت المقالة". انتظرتُ ولم أردَّ عليه. ثُمَّ جاءت من لاري هذه الكلمات المؤلمة: "فيليب، لقد عشت كلَّ حياتي محاولًا أن أكون شخصًا حقيقيًّا، شخصًا ثُلاثيَّ الأبعاد. لكنَّك اختزلتني في مثال توضيحيٍّ من فقرتَين".

كان لاري مُحقًّا؛ إذ أدركتُ في تلك اللحظة أنَّه حدَّد باختصار ما نفعله نحن الكُتَّاب: أنَّنا نختزل. نختزل روعة البشر إلى إحصائيَّات، وقصص توضيحيَّة، ومقدِّمات مقالات. الصحافة- وكلُّ الفنون بالتأكيد- ليست الواقع بل مجرَّد تصوير للواقع لن يفي الواقع حقَّه بتاتًا. لذا أُحاول أن أُذَكِّر نفسي بذلك في كلِّ مرَّة أتَّجه نحو لوحة المفاتيح لأكتُب. سوف أفعل ما بوسعي لكي أنقُل الحقيقة، لكنَّني سوف أفشل. لن أُعبِّر عن الحقيقة كما هي بالحقيقة. هذا أيضًا جزءٌ من مسيرة دعوتي.

"أدبيَّات الحقيقة: عن الكاتب بوصفه صحفيًّا"، من كتاب:
مقاطع من ماء: عشرون كاتبًا مؤمنًا يتأمَّلون مهنتهم

عندما ينهار الاقتصاد

في أسبوعٍ عاصف سنة ٢٠٠٨م عندما انهارت اسواق المال العالميَّة نحو سبعة تريليونات دولار، تلقَّيتُ مكاملةً من مجلَّة "تايم" (Time Magazine). سألني فيها المُحرِّر: "كيف يمكن أن يُصَلِّي المرء في أزمة كهذه؟". وبينما كُنَّا نتكلَّم، وصلنا إلى مقاربة للصلاة من ثلاث مراحل.

المرحلة الأولى بسيطة: صرخة غريزيَّة طلبًا "للنجدة!" مثل صلاة يسوع في جثسيماني حيث كان عرقه يتساقط كقطرات دمٍ، وشعر بأنَّ "نفسه حزينة جدًّا حتَّى الموت". لكنَّ صلاته تغيَّرت من "إن كان ممكنًا أن تُجيز عنِّي هذه الكأس" إلى "لتكن لا إرادتي، بل إرادتك". لقد أراحته الصلاة من القلق، وأعادت تأكيد ثقته بالآب المُحبِّ، وشجَّعته على مواجهة الصليب.

إذا كنتُ أُصلِّي بهدف الاستماع علاوةً على الكلام، فيُمكِنني أن أدخل إلى المرحلة الثانية، وهي مرحلة التأمُّل. لقد اختفت مدَّخرات حياتي، فما الذي يمكن أن أتعلَّمه من هذه المصيبة البادية؟ خطرت في بالي ترنيمة مدارس أحد: "الرجل العاقل يبنى بيته على الصخر...والبيت على الصخر يثبت". ثمَّ تقول: "الرجل الجاهل يبنى بيته على الرمل، فلتسقط الأمطار عليه...تسقط الأنهار ترتفع المياه".

تقدِّم الأزمات فُرَصًا جيِّدة لتعرُّف الأساس الذي نبني عليه حياتنا. إذا وضعنا ثقتنا الكاملة في الأمان المادِّيِّ، أو قدرة الحكومة على حلِّ المشكلات، فحتمًا سوف نرى البيت ينهار (والبيت على الرمل يُهدَم).

في أسبوع الانهيار الماليِّ نفسه، وصل سقف التضخُّم في زيمبابوي إلى ٢٣١ مليون في المئة. ويقود هذا إلى المرحلة الثالثة من الصلاة في وقت الأزمات: أحتاج إلى معونة الله لكي يرفع عينيَّ عن مشكلاتي لكي أنظر بعين الرحمة إلى البائسين بحقّ.

في أيَّام انهيار الإمبراطوريَّة الرومانيَّة، مكث المسيحيُّون ليخدموا ضحايا الطاعون، وكانت المُرضِعات يجمعنَ الأطفال الذين ألقت بهم أمَّهاتهم على قارعة الطريق. يا لها من شهادة إذا كان المسيحيُّون في الأوقات الصعبة يزيدون من عطائهم لبناء بيوت للفقراء، ومواجهة الإيدز في أفريقيا، وإعلان مبادئ الملكوت لثقافة تنحلُّ أخلاقيًّا ويدفعها الهوس بمشاهير الفنِّ والرياضة.

إنَّ ردَّ الفعل هذا يناقض كلَّ منطق. إلَّا إذا كُنَّا نأخذ بجدِّيَّة مغزى قصَّة يسوع عن البيت المبنيِّ على أساس أكيد.

عمود "الصفحة الخلفيَّة"، مجلَّة المسيحيَّة اليوم، عدد كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٩م

٩ آذار/مارس

المورمون والفرِّيسيُّون والإنجيليُّون

كان يمتدح أحد المنشورات التي قرأتها عن طائفة المورمون سمات عدَّة لهم: كالنشاط، والاعتماد على النفس، ومقاومة التدخُّل الحكوميّ. ويعدُّ المورمون الحياة الأخلاقيَّة العالية، والإنجازات الفائقة، والمواطنة المثاليَّة أدلَّة على صحَّة إيمانهم.

ومع أنَّ هناك جاذبيَّة واضحة لهذه السمات، فإنَّ شيئًا ما كان يلحُّ عليَّ بينما كُنتُ أقرأ هذا المنشور. فالفضائل التي كان يمتدحها لم ترتبط في ذهني بالمورمون، بل بالمسيحيِّين الإنجيليِّين المحافظين. في الواقع، كلُّ كلمة مكتوبة كان يمكن أن تكون مكتوبة في منشور يروِّج الإنجيليِّين. ألا نُحبُّ أن تُعرف عنَّا المواطَنة الصالحة والنشاط والأخلاق والرصانة؟

أحد شخوص الكاتب والكر پيرسي (Walker Percy) في روايته "**المجيء الثاني**" *(The Second Coming)* يعلِّق هذا التعليق:

إنَّني مُحاط بمسيحيِّين. عمومًا لطفاء ودودون، لا يختلفون كثيرًا عن باقي الناس... لكنْ إذا كان لديهم الحقّ، فلماذا هُم مُنفِّرون للآخرين؟ وهم في واقع الأمر منفِّرون للدرجة التي بها يعتنقون الحقَّ ويروِّجونه؟... هذا سرٌّ: إذا كانت الأخبار السارَّة حقيقة، فلماذا لا يشعر الإنسان بالسرور لسماعها؟

رَنَّ سؤاله الأخير في أذُنيَّ بقوَّة. هل يُمكن أن يهمل المسيحيُّون بسبب رغبتهم في الإشارة إلى صلاحهم، الحقيقة الأساسيَّة- أنَّ وقْعَ الإنجيل يجب أن يكون وقعَ خبرٍ عالي الجودة، حدث لأشخاص شديدي السوء؟

وحيث إنَّ المسيحيِّين الإنجيليِّين المحافظين (في الولايات المتَّحدة) منشغلون بفحص تقارير الكونغرس المتخصِّصة بالتعليلات الكتابيَّة للإجهاض، أو وزارة التعليم، أو قرارات دعم التبغ، أو القرارات المختلفة للمحكمة الدستوريَّة العُليا، فإنَّني أقترح توازنًا مهمًّا وتصويبيًّا. لماذا لا نقضي وقتًا أطول في كنائسنا لمناقشة تطبيقات مَثَل يسوع عن الفرِّيسيِّ والعشَّار؟ واحدٌ شكر الله من أجل بركاته، أنَّه لم يكن سارقًا، أو شرِّيرًا أو زانيًا، أو عشَّارًا. يصوم يومين في الأسبوع ويعشِّر كلَّ ما يقتني. والآخر كانت أخلاقيَّاته محلَّ شكٍّ، لا يرقى تاريخه إلى أيِّ تاريخ مُشرِّف أو لاهوت سليم. واحدٌ كان يصلِّي بلباقة، والآخر لم تكن لديه إلَّا كلمات بسيطة: "ارحمي يا الله، أنا الخاطئ". ولكن مَن الذي نزل إلى بيته مُبَرَّرًا؟

من المثير للاهتمام أنَّ الفرِّيسيِّين الأبرار لم يكن لهم تأثير تاريخيٌّ كبير، سوى لوقت قصير في ركن قصيٍّ من الإمبراطوريَّة الرومانيَّة. في حين تمكَّنَ تلاميذ يسوع من تغيير العالم، وهم لم يكونوا سوى جماعة من

الأشخاص المملوئين بالعيوب والاندفاع والعصبيَّة، لكنْ غمرهم الفرح بقوَّة الإنجيل الذي يقدِّم غُفرانًا مجَّانيًّا لأسوأ الخطاة والخونة.

من كتاب: كُنتُ أتساءَل فقط

١٠ آذار/مارس

رفقة يسوع

كان يسوع صديق الخطاة. كانوا يحبُّون أن يكونوا في صُحبته، ويشتاقون إلى رفقته. في الوقت نفسه، كان الكتبة والفرِّيسيُّون الأشدَّ تمسُّكًا بالشريعة يجدون ذلك صادمًا، بل كانوا يدعون إلى الغضب والثورة. ما سرُّ يسوع الذي افتقدناه؟

يقول المثل: "قُل لي من تصاحب، أقول لك من أنت". تخيَّل قلق الناس وخوفهم في القرن الأوَّل حينما كانوا يحاولون أن يطبِّقوا هذا المبدأ على يسوع الناصريّ. يذكُر الإنجيل ثماني مناسبات قَبِل فيها المسيح دعوات عشاء. ثلاث منها كانت مناسبات اجتماعيَّة طبيعيَّة بين الأصدقاء. والخمسة الباقية، كانت تناقِضُ كلَّ قواعد القبول الاجتماعيّ.

تعشَّى يسوع ذات مرَّة يسوع مع سمعان الأبرص. وبسبب عملي مع د. پول براند، الطبيب المتخصِّص في الجذام، تعشَّيتُ أيضًا مع مرضى البَرَص. وأستطيع أن أقول لكم إنَّ ألفَي سنة من التقدُّم الطبِّيِّ لم تفعل سوى القليل في تقليل الوصمة الاجتماعيَّة لهذا المرض. أخبَرني شخص راقٍ ومتعلِّم تعليمًا عاليًا في الهند، عن اليوم الذي كان يبكي فيه خارج الكنيسة حيث كانت ابنته تتزوَّج. لم يكن يجرؤ أن يدخل، وإلَّا فسيغادر جميع المدعوِّين الكنيسة، كما أنَّه لم يكن ممكنًا أن يستضيف حفل الزفاف في بيته، فمَن عساه يدخل بيت أبرص؟

في فلسطين، كانت هناك قوانين صارمة تؤكِّد هذه الوصمة؛ إذ كان على المُصاب أن يعيش خارج أسوار المدينة ويصرخ "نَجِس!" عندما يقترب من أيِّ إنسان. لكن يسوع تجاهل كلَّ هذه القوانين وجلس إلى مائدة رجل يحمل هذه الوصمة كما يحمل اسمه. وما زاد الطين بِلَّةً في العشاء أنْ جاءت امرأة مندفعة وسكبت طيبًا كثير الثمن على رأسه. وبحسب مرقس، ترك يهوذا المأدبة متقزِّزًا وذهب مباشرة إلى رؤساء الكهنة لكي يخون يسوع.

على الأقلّ، في مرَّة أُخرى، قَبِل يسوع ضيافة من فرِّيسيٍّ بارز. وكان بعض الفرِّيسيِّين يعملون بصفة عُملاء مزدوجين، إذ كانوا يتبعونه ويدعونه إلى ولائمهم حيث يفحصونه ويبحثون فيه عن علَّة. وبصورةٍ مثيرة لغضبهم، كان اليوم سبتًا، لكنَّ يسوع شفى رجلًا من البرص، وقارنَ ما بين ولائم التسلُّق الاجتماعيِّ التي يقيمها الفرِّيسيُّون، ومأدبة الله التي يُرتِّبها "للفقراء والعُرج والعُسم والمشلولين والعميان". لا يُسجِّل الإنجيل أيَّ ولائم أخرى مع مواطنين بارزين، إذ لم يكُن يسوع من المدعوِّين المُلاطِفين الذين لا يسبِّبون إزعاجًا.

من كتاب: يسوع الذي لم أكن أعرفه

١١ آذار/مارس

إيمان يُزعزع الأوضاع

زرتُ المجر سنة ٢٠٠٤م لكي أتكلَّم في مؤتمر للعاملين في مؤسَّسة "شباب من أجل المسيح" (Youth For Christ)، ثُمَّ استَقْلَلتُ القطار إلى النمسا لقضاء نهاية الأسبوع في قلعة تتبع هيئة "آي أف إي أس" (IFES)، وهي النسخة الدوليَّة من خدمة الطلَّاب الجامعيِّين "إنترڤارسيتي" (Intervarsity)، وحضرَ في المكانَين أشخاصٌ من أوروپَّا الشرقيَّة، واستمعت منهم إلى بعض القصص المدهشة.

معظم مَن قابلتهم كانوا من أوكرانيا ولاتڤيا. وفي مثل هذه البلدان، كانوا قد نشأوا على يد ملحدين واهتدوا إلى المسيحيَّة في مرحلة المراهقة. مثلًا، كان سيرغي (Sergey)، قد قَبِلَ المسيح عندما كان في الثانية عشرة من العُمر. وكان يقول لوالديه إنَّه ذاهب إلى دورة المياه في الخارج (لم تكن هناك دورات مياه داخل البيوت) ليتسلَّق السور ويصلِّي مع جيرانه المسيحيِّين. كان الإيمان في ذلك الوقت بالفعل عملًا من الأعمال التي تزعزع الأوضاع.

يقود سيرغي الآن خدمة صلاة كبيرة تجمع معًا آلاف الأوروپِّيِّين الشرقيِّين بواسطة البريد الإلكترونيّ.

أمَّا بيتر (Peter) من المجر، فكان يساعد الغربيِّين في تهريب الكتب المقدَّسة في أكياس بلاستيكيَّة سوداء، وكان والداه يوزِّعانها سرًّا. أوليغ (Oleg) من مولداڤيا، يقول إنَّ الپروتستانت كانوا يصوِّتون للمرشَّحين الشيوعيِّين في الانتخابات؛ لأنَّ الكنيسة أصبحت متصالحة جدًّا مع الوضع الحاليِّ، ويريدون الآن أن يُعيدوا إلى الكنيسة نقاءها عندما كانت تحت الاضطهاد.

وذات يوم في بودابست، زُرتُ بيت الرعب (House of Terror)، وهو متحف مثير للجدل على أعلى مستوى من الجودة يوثِّق التاريخ الحزين للمجر في القرن العشرين، حيث كانت المجر دولة محاطة بالقوَّتَين النازيَّة من ناحية والسوڤييتيَّة من الناحية الأخرى. إنَّ لدى هذا الشعب تاريخًا طويلًا من التعرُّض للغزو من المغول والمسلمين، والآن النازيِّين والروس. ويحتلُّ المتحف مبنى كان من قبل يُستخدم لمقرٍّ رئيسيٍّ للمخابرات النازيَّة ثمَّ الروسيَّة. وحُفِظَ على الزنزانات وغرف التعذيب كما هي. كما يعرض المتحف أجهزة التنصُّت والدعاية التي تتميَّز بها تلك الأنظمة الشموليَّة.

وبعد أن عدت إلى الولايات المتَّحدة بوقت قصير، شاهدت خطاب المرشَّح الرئاسيِّ جون كيري الذي يعترف فيه بخسارة الانتخابات والذي فيه كان يقول إنَّ من عظمة بلادنا أنَّنا في اليوم التالي للانتخابات، لا نزال أميركيِّين. بعد أن قضيت بضع ساعات في بيت الرعب، غاص الدرس عميقًا في وعيي.

مذكِّراتُ رحلاتٍ غير منشورة، المجر، ٢٠٠٤م

ليس مجدَّدًا؟

عودة إلى الرحلات، قضيت يومًا كاملًا في صيف ٢٠٠٨م في مدينة أوشڤيتز (Auschwitz)، وهي المدينة التي حدث فيها قتل جماعيٌّ يعجز العقل عن فهمه. كانت الثكنات الثلاث مئة في أوشفيتز ممتدَّة على مساحة عددٍ من الأفدنة، لكنَّهم كانوا يأتون بالمساجين إلى هنا لكي يموتوا لا لكي يعيشوا. وكانت محارق الأجساد تعمل على مدار الساعة للتخلُّص من الجثث التي أُعدِمت بالغاز، وكانت تُحرَق نحو عشرة آلاف جثَّة في اليوم- وقد قُضي على نحو مليون ونصف مليون إنسان معظمهم من اليهود.

كانت أوشڤيتز مكانًا مُرعبًا، لكنَّه كان يبدوا منهجيًّا ومنظَّمًا جدًّا، كما لو كانت شركة كبيرة قد استعانت بمستشارين لكي يصمِّموا برنامجًا للشرِّ الخالص. تخيَّل مثلًا، تأثير حادث الحادي عشر من أيلول/ سپتمبر على الولايات المتَّحدة، ثُمَّ تخيَّل أن يتكرَّر ذلك يوميًّا على مدى أربع سنوات، لا على يد إرهابيِّين، بل على يد حكومة منظَّمة ضدَّ مواطنيها.

لقد "تبنَّت" بلدانٌ عدَّة (مثل هولندا وفرنسا، وغيرهما) ثكنات مشابهة لتحكي قصص مواطنيها الذين قُتلوا في أوشڤيتز، كما أنشأت الدولة العبريَّة أيضًا متاحف مشابهة عدَّة. ويقود المرشدون السياحيُّون أفواجهم لمشاهدة معروضات ذات أسماء مثل "تقنيات الإبادة" أو "الغنائم". وتصوِّر إحدى الثكنات أوضاع الحياة التي عاش فيها ثمان مئة سجين مكدَّسين في غرفة مصمَّمة لمئتين فقط. وتعرِض إحداها أجهزة تعذيب المساجين، وأخرى تقدِّم تفاصيل تجارب طبِّيَّة يُستخدَم فيها المساجين بتعريضِهم لبعض أنواع العدوى أو الحروق لاختبار أنواع مختلفة من العلاجات، أو غمرهم في خزَّاناتٍ من المياه المثلَّجة لدراسة إجراءات الإفاقة.

ويعرض مبنى "الغنائم" آلافًا من الأحذية المأخوذة من المساجين، وكومة هائلة من النظَّارات، وتلًّا من الشَّعر البشريِّ يملأ عارضًا زجاجيًّا يصل ارتفاعه إلى مِترين (وجد الحلفاء طُنَّيْن من الشعر البشريِّ موضوعَين في مخازن في أوشڤيتز). يمكن أيضًا أن تزور حائط إعدام حيث أُعدم الآلاف رميًا بالرصاص، ثُمَّ "غُرَف الحمَّام" التي كان اليهود العُراة يُساقون إليها لكي يُعدموا بالغاز. ولسنوات لم يَنمُ نباتٌ في أوشڤيتز؛ لأنَّ المداخن استمرَّت تلفظ مسحوقًا ناعمًا من العظام البشريَّة غطَّى الأرض تمامًا. أمَّا الآن، فالأرض غنيَّة وخضراء، تشبه أفنية الجامعات، وتتخلَّلها طرقات للمشي ومبانٍ من الطوب الأحمر للمبيت.

ويتَّخذ الشعار "ليس مُجدَّدًا" في أوشڤيتز قوَّةَ صرخةٍ مُدَوِّية. ورغم ذلك، فقد رأينا التاريخ في أيَّامنا يعيدُ

نفسَه في رواندا ويوغسلاڤيا ودارفور، ولكن ليس بالقَدر نفسه من الإتقان في الشرّ.

مذكِّراتُ رحلاتٍ غير منشورة، پولندا ٢٠٠٨م

١٣ آذار/مارس

حدثَ بعد ظهر أحد الأيَّام

الصليب هو الصورة المركزيَّة للمسيحيَّة، وهذا دليلٌ حيٌّ، بكلمات فلانري أوكونور (Flannery O'Conner's)، أنَّ الله وجد أنَّ العالم "رُغمَ كلِّ رُعبه وشرِّه، يستحقُّ الموت من أجله".

في الأسبوع المقدَّس (أسبوع الآلام)، وجدت نفسي أتأمَّل ليس في التبرير النظريِّ للكفَّارة، بقدر ما هو في التطبيقات العمليَّة لها. عندما حاول أحدهم أن يسأل اللاهوتيَّ كارل بارت (Karl Barth) عن تاريخ نَيله "الخلاص"، أجاب بارت: "لقد حدث ذلك بعد ظهر أحد أيَّام سنة ٣٤ ميلاديَّة عندما مات يسوع على الصليب". لقد استطاع الصليب أن يهزم كلَّ العقبات التي تقف في وجه اتِّحاد الحبيب والمحبوب، مهما كلَّف الأمر.

وفي الوقت نفسه، فإنَّ الصليب يكشف حدود الإنجاز البشريّ. كانت جريمة يسوع بحسب بيلاطس البنطيِّ أنَّه ملك اليهود، وقد عُرِضت التهمة على لوحة عُلِّقَت على صليبه بلغات ثلاث، بصفتها إقرارًا ساخرًا ببطلان العدالة البشريَّة. كان مشهدًا علنيًّا عندما تآمرت كلُّ السلطات الدينيَّة العُليا في ذلك الوقت على إنسان بريء حيثُ طبَّق أشهر أنظمة العدالة في ذلك الوقت العقوبة الظالمة.

يعلِّق توماس ميرتون بالقول: "لم يرَ أحدٌ القيامة. لكنَّ الجميع شاهدوا الصلب. الصليب في كلِّ مكان". يجب أن يجعلنا هذا نتوقَّف عند علامة التناقض هذه، عندما نُجرِّب الآن أن ننتظر من العِلم أو السياسة أن يحلَّا أعمق مشكلات الإنسان. لقد كشف المسيح حقيقة أنَّ كلَّ القوى والمؤسَّسات التي يفتخر بها البشر ويضعون فيها رجاءهم، ما هي إلَّا آلهة مزيَّفة.

وفي الوقت نفسه، فإنَّ الصليب يكشف عن طبيعة غير متوقَّعة في شخص الله: التواضع. بحسب كلمات بولس، فإنَّ يسوع "الذي إذ كان في صورة الله [أي في طبيعته الجوهريَّة هو الله]، لم يحسب خُلسة أن يكون معادلًا لله، بل أخلى نفسه آخذًا صورة عبد صائرًا في شبه الناس، وإذ وُجد في الهيئة كإنسان وضع نفسه وأطاع حتَّى الموت!". بالفطرة، يتجاوب المساكين والمهمَّشون مع اتِّحاد المسيح وإيَّاهم، كما يظهر في العظات التي قُدِّمَت في أپالاتشيا (Apalachia) وهي من أفقر مناطق الولايات المتَّحدة في القرن التاسع عشر، أو في المجتمعات المُعدمة في أميركا اللاتينيَّة والتي تركِّز على الصليب. وعرف كُتَّاب الروايات ذلك أيضًا: غراهام غرين (Graham Green) وجورج برنانوس (George Bernanos) وإغنازيو سيلون (Ignazio Silone) كلُّهم جعلوا من الأسرار الكنسيَّة التي تحتفل بموت يسوع، محورًا لأرقى أعمالهم الأدبيَّة.

ماذا يمكننا أن نُضيف إلى ما قيل؟ إنّ الكفّارة تفي بالقاعدة اليهوديَّة التي تقول إنّ من جُرِحَ هو وحده القادر على الغفران. في الجُلجثة، اختار الله أن يكون هو المجروح.

عمود "الصفحة الخلفيَّة"، مجلَّة المسيحيَّة اليوم، عدد أيَّار/ مايو ٢٠٠٩م

١٤ آذار/مارس

الإله المحتجب

إنَّ شوق الإنسان إلى الحضور الفعليِّ لله يظهر في كلِّ مكان. لكنَّنا لا نجرؤ أن نضع افتراضات واسعة النطاق بشأن وعد الله بالحضور الحميم إلَّا إذا كُنَّا في الوقت نفسه نأخذ في حسباننا تلك الأوقات التي يبدو الله فيها غائبًا. لقد اختبر القدِّيسون العِظام هذه الأوقات، اختبرها أيُّوب، وبدرجة أو بأخرى يختبر كلُّ إنسان في وقت ما احتجاب الله.

يحتجُّ بعض الناس قائلين إنَّ الله لا يختبئ. يقول أحد الملصقات الدينيَّة التي تُلصق على السيَّارات: "إذا كُنتَ تشعر بأنَّك بعيد عن الله، فمَن من الذي تحرَّك مُبتعدًا". لكنَّ الذنب الذي يُشعِر به هذا المُلصَق ربَّما يكون ذنبًا كاذبًا. يصف سفر أيُّوب بالتفصيل وقتًا، يبدو فيه أنَّ الله هو الذي تحرَّك بعيدًا. معَ أنَّ أيُّوب لم يرتكب خطأً، وتضرَّع طلبًا للمساعدة، فإنَّ الله اختار أن يظلَّ محتجبًا. وإذا شككت من قبل أنَّ مواجهة احتجاب الله يمكن أن تكون جزءًا معتادًا من مسيرة الإيمان، فعليك أن تراجع أعمال النسَّاك المسيحيِّين، من رجالٍ ونساءٍ قضوا حياتهم في التواصل الشخصيِّ مع الله. ابحث عن واحد فقط منهم لا يصف وقتًا كان فيه يختبر "ليل النفس المُظلم".

للذين يُعانون، والذين يساندونهم، يقدِّم أيُّوب درسًا مهمًّا. الشكوك والشكوى هي ردود أفعال مشروعة، وليست علامات على ضعف الإيمان. بل إنَّها مشروعة جدًّا، حتَّى إنَّ الله حرص على أن يحتوي الكتاب المقدَّس عليها كلِّها. قد لا يتوقَّع المرء أن يجد أطروحات أعداء الله– مثل ما كَتَبَ مارك توين (Mark Twain) في كتابه "**رسائل من الأرض**" *(Letters from Earth)* أو ما كتَبَ برتراند رَسِل (Bertrand Russell) في "**لماذا أنا لستُ مسيحيًّا؟**" *(Why I Am Not a Christian)*– بين دفَّتي الكتاب المقدَّس، لكنَّ العجيب أنَّهم جميعًا يظهرون، إن لم يكن في أيُّوب، ففي المزامير أو الأنبياء. إذ يبدو أنَّ الكتاب المقدَّس يتوقَّع إحباطاتنا، كما لو كان الله يمنحنا مُسبَّقًا أسلحة الاعتراض، ويتفهَّم تكلفة الاستمرار على درب الإيمان.

وبسبب يسوع، يفهم الله فعلًا مشاعر الإنسان. في جثسيماني والجلجثة، وبطريقة لا يمكن التعبير عنها، اضطُرَّ الله نفسه لأن يختبر احتجاب الله. وقد لخَّص مارتن لوثر هذا الصراع الكونيَّ الذي حدث على خشبة الصليب بهذا التعبير: "الله يُصارع الله". في هذه الليلة المُظلمة، عرف الله المدى الكامل لشعور الإنسان بالترك من الله.

من كتاب: عندما لا تمطر السماء

١٥ آذار/مارس

حِكاية خائنَين

كان اسم "يهوذا" شائعًا ثُمَّ اختفى. لا يريد أيُّ أبٍ أو أُمٍّ أن يُسمِّيا ابنهما على اسم أسوأ خائن في التاريخ. لكنَّني الآن، ولدهشتي، عندما أقرأ رواية الأناجيل، أجد أنَّ البارز في شخصيَّة يهوذا هو اعتياده وليس خيانته؛ إذ لا تحتوي الأناجيل على إشارة أنَّ يهوذا كان مدسوسًا لاختراق الدائرة الداخليَّة وإتمام خديعته. كان يهوذا شخصًا عاديًّا جدًّا.

كيف استطاع يهوذا إذًا أن يخون ابن الله؟ وحتَّى بينما أطرح هذا السؤال، أُفكِّر في بقيَّة التلاميذ الذين هربوا من يسوع في جثسيماني، وفي بطرس الذي كان يحلف ويلعن: "لا أعرف الرجل!"، عندما ضُغِط عليه في فناء المحكمة، وفي الأحد عشر الذي رفضوا بعناد أن يصدِّقوا روايات القيامة. كانت خيانة يهوذا مختلفة في الدرجة، لكنَّها لم تختلف في النوعيَّة عن غيرها من صُوَر عدم الولاء.

لم يكن يهوذا أوَّل شخصٍ خان يسوع، كما لم يكُن الأخير، لكنَّه فقط الأشهَر.

وقد تمحورت الكثير من روايات شوساكو إندو (Shusaku Endo)، الروائيِّ المسيحيِّ اليابانيِّ، حول موضوع الخيانة. كان إندو يرى أنَّ أقوى رسالة ليسوع هي محبَّته الثابتة حتَّى لمن خانوه، بل محبَّته بالذات لمن خانوه.

عندما قاد يهوذا عصابة قتل إلى البستان الذي كان يسوع فيه، خاطبه يسوع بقوله: "يا صاحب". في ذلك الوقت، هرب باقي التلاميذ وتركوه، لكنَّه ظلَّ يُحبُّهم. وتآمرت الأمَّة التي ينتمي إليها على قتله، لكنَّه عندما عُلِّق عاريًا في أكثر الأوضاع خزيًا وإهانة، صرخ يسوع: "يا أبتاه، اغفر لهم".

لا أعرف تبايُنًا أكثر وضوحًا بين مصيرَين بشريَّين مثل التبايُن الذي بين مصير كلٍّ من يهوذا وبطرس؛ إذ كان كلاهما في موقع قيادة بين تلاميذ يسوع. كما شاهد كلاهما معجزات مدهشة. واختبر كلاهما تلك الدائرة المرهِقة من الأمل والخوف والإحباط. وكلاهما أنكرَ السيِّد عندما صار ثمن التبعية باهظًا. عند هذه النقطة، يتوقَّف التشابه في مسيرتهما؛ فيهوذا، نادمًا لكن ليس تائبًا، قَبِل النتائج المنطقيَّة لفعلته، فانتحر، وطواه التاريخ بوصفه أعظم خائن. مات غير مستعدٍّ لاستقبال ما جاء يسوع لكي يقدِّمه له ولكلِّ الخونة الخطاة. أمَّا بُطرس، فرغم الخزي، ظلَّ منفتحًا على رسالة النعمة والغفران التي جاء بها يسوع، وراح يقود نهضة روحيَّة لم تتوقَّف حتَّى الوصول إلى روما.

من كتاب: يسوع الذي لم أكن أعرفه

محنة الخزي

في ذكرى السنوات السابقة للحرب العالميَّة الثانية، يحكي پيير ڤان پاسن (Pierre Van Paassen) عن عملٍ مخزٍ قامت به قوَّات العاصفة النازيَّة عندما قبضت على معلِّم يهوديٍّ مُسنٍّ وجرَّته إلى مركز القيادة. ففي الرُّكن البعيد من الغرفة، كان زميلان يضربان يهوديًّا آخر حتَّى الموت. وبعد أن عرَّيا المعلِّم من ملابسه تمامًا، أمروه أن يعِظ العظة التي كان قد أعدَّها ليقدِّمها في السبت التالي في المجمع. وإذ طَلَبَ المعلِّم اليهوديُّ أن يرتدي غطاء رأسه، وافق الرجال النازيُّون ممتعضين.

حينها وقف المُعلِّمُ المرتعش يعِظُ بصوتٍ أجشَّ، عِظته عن معنى السير متواضعًا أمام الله، وطوال تقديمه للعظة كان يُلكز ويُنقَر من جانب الرجال النازيِّين الضاحكين، كما كان يستمع للصرخات الأخيرة لجاره الذي كان يُعذَّب حتَّى الموت في الطرف الآخر من الغرفة.

عندما أقرأ روايات الإنجيل عن السجن والتعذيب والإعدام الذي تعرَّض له يسوع، أتذكَّر ذلك الحاخام اليهوديَّ العاري الذي وقف ذلك الموقف المخزي أمام شُرطة النازيِّين. ولا أستطيع أن أتخيَّل مدى الإهانة والخزي الذي تحمَّله ابن الله على الأرض، عندما عُرِّيَ وجُلد، وبُصِقَ عليه، ولُطِمَ، وتُوِّجَ بالشوك.

كان قَصدُ القادة الدينيِّين والرُّومان من الاستهزاء بيسوع أن يكون نوعًا من التشهير بالجريمة التي أُدين بها. "المسيَّا، ها؟ عظيم، لنسمع منك نبوَّة". ثُمَّ يلطمونه ويقولون: "من ضربك؟". ثُمَّ يضربون مرَّة أُخرى ويقولون: "هيَّا، قُل، يا سيِّدنا النبيّ. أنت مسيَّا لا يعرف الكثير إذًا؟".

واستمرَّ الأمر كذلك طَوال اليوم، من هذه الألعاب التنمُّريَّة، في رواق رئيس الكهنة، إلى البلطجة المِهنيَّة التي قام بها حُرَّاس بيلاطس وهيرودس، إلى هُتاف الجمهور وصياحه وإهاناته طوال الطريق الصاعد إلى الجلجثة، وأخيرًا إلى الصليب حيث استمع يسوع إلى تيَّارٍ من الإهانات والتحدِّيات.

لقد تعجَّبت، وأحيانًا تساءلت بوضوح، عن هذا القدر من ضبط النفس الذي أظهره الله على مدار التاريخ، سامحًا لنماذج مثل جنكيز خان وهتلر وستالين أن يفعلوا ما شاءوا. لكن لا شيء- لا شيء- يُقارَن بضبط النفس الذي أظهره الله في تلك الجُمعة المظلمة في أورشليم. مع كلِّ ضربة سوط، وكلِّ تمزيقٍ للَّحم تحت اللكمات القاسية، ربَّما استعاد يسوع شريط التجربة في البرِّيَّة والصراع في جثسيماني. كانت فِرَق الملائكة جاهزة للتدخُّل عند إصدار الأمر. كانت كامةٌ واحدةٌ كفيلةً بإعلان انتهاء تلك المحنة.

من كتاب: يسوع الذي لم أكن أعرفه

تجريد الرياسات

لقد استغرقت الكنيسة وقتًا لكي تتصالح مع وصمة الصليب؛ فحتَّى القرن الرابع، لم يكن الصليب رمز الإيمان. (يلاحظ الدارسون أنَّ الصليب لم يكن مشهورًا في الفنِّ المسيحيِّ حتَّى مات كلُّ الذين شاهدوا الصليب الحقيقيّ).

أمَّا الآن، فالرمز في كلِّ مكان؛ إذ يصوغُ الفنَّانون الذهب على شكل أداة الإعدام الرومانيَّة تلك، ويرسم لاعبو البيسبول الصليب قبل أن يضربوا الكُرة، ومصانع الحلوى تصنع صُلبانًا من الشوكولاته لكي يأكلها المؤمنون احتفالًا بالأسبوع المقدَّس (أسبوع الآلام). وما يبدو غريبًا، أصبحت المسيحيَّة ديانة الصليب- ديانة وسيلة الإعدام. أي بلُغة العصر، ديانة المقصلة، أو الكرسيِّ الكهربائيِّ، أو غُرفة الغاز.

عادةً ما نفكِّر في الشخص الذي يموت ميتة مجرم أنَّه شخص فاشل. لكنَّ الرسول بولس يتأمَّل شخصيَّة يسوع، فيكتب: "جرَّد الرياسات والسلاطين أشهرهم جهارًا ظافرًا بهم فيه [في الصليب]". فماذا يقصد؟

على أحد المستويات، يُمكن أن أُفكِّر في أفرادٍ جرَّدوا في عصرنا الحاليِّ الرياسات والسلاطين. فضُبَّاط الشرطة العنصريُّون الذين حبسوا مارتن لوثر كِنغ في زنزانة السجن، والسوڤييتيُّون الذين رحَّلوا سولجنتسين، والتشيكيُّون الذين سجنوا ڤاسلاف هاڤل (Vaclav Havel) والفلپينيُّون الذين قتلوا بينينو أكينو (Benigno Aquino)، والسلطات في جنوب أفريقيا التي سجنت نيلسون مانديلا- كلُّ هؤلاء كانوا يظنُّون أنَّهم يحلُّون المشكلة، لكنَّهم في النهاية كشفوا عن وجوههم العنيفة الظالمة؛ فالقوَّة الأخلاقيَّة الثابتة تستطيع أن تُجرِّد السُّلطات الباطِشة.

وعندما مات يسوع، تعجَّب ضابط رومانيٌّ فظٌّ قائلًا: "حقًّا كان هذا الانسان ابن الله!". فقد رأى المفارقة واضحة بين قسوة زملائه من ناحية، وضحيَّتهم الذي غفر لهم وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة. الجسد الشاحب المُسَمَّر على خشبة الصليب فَضَحَ حقيقة أنَّ القوى الحاكمة في العالم تمثِّل آلهة مزيَّفة، تَعِدُ وعودًا سامية بالتقوى والعدالة، لكنَّها لا تستطيع أن تفي بها. التديُّن هو الذي اتَّهم يسوع، لا عدم التديُّن، والقانون هو ما قتله، لا التنصُّل من القانون. بواسطة محاكمات السُّلطات السياسيَّة والدينيَّة الفظَّة، وتعذيبهم ليسوع ومعارضتهم العنيفة له، فضحوا أنفسهم لكونهم سُلطة تحافظ على الوضع الحاليِّ، وتدافع فقط عن الكراسيّ. كلُّ هجمة على يسوع كانت تكشف فقدانهم لشرعيَّتهم.

من كتاب: يسوع الذي لم أكن أعرفه

١٨ آذار/مارس

نظرة خاطفة

(قراءة للجمعة العظيمة)

أتمنَّى أن يصِفَ شخص بموهبة ملتون (Milton) أو دانتي (Dante) المشهد الذي حدث في الجحيم في اليوم الذي مات فيه يسوع. لا شكَّ أن احتفالًا جهنَّميًّا قد عُقِدَ هناك؛ إذ بدا أنَّ حَيَّة سفر التكوين سحقت عَقِبَ الله، والتَهَم تنين سفر الرؤيا الطفل في النهاية، وانتهى المطاف بابن الله الذي أُرسِلَ إلى الأرض في مهمَّة إنقاذ، معلَّقًا على صليب مثل فزَّاعة حقولٍ رثَّة. يا له من انتصار للشرّ!

لكنه كان انتصارًا قصيرَ الأمد؛ ولعلَّها أكثر الحيل قوَّة في التاريخ: ما قصده الشيطان شرًّا، قصد الله به نفسه خيرًا. لقد صنع موت يسوع على الصليب جسرًا بين الإله الكامل، والبشريَّة المَعيبة عَيبًا مُميتًا. ففي اليوم الذي نسمِّيه الجمعة العظيمة، هزم الله الخطيَّة، واقتلع الموت، وتغلَّب على الشيطان، واستعاد أهل بيته مرَّة أخرى. ففي عمل من أعمال التحوُّل الكيمياويِّ العظيم، أخذ الله أسوأ عملٍ في التاريخ وجعل منه أعظم انتصار. لا عجب أنَّ هذا الرمز لم يختفِ، ولا عجب أنَّ يسوع أوصانا ألَّا نَنساه بتاتًا.

بسبب الصليب، لديَّ رجاء. وكما يقول إشعياء، فقد شُفينا. بجروح العبد المتألِّم وليس بمُعجزاته. إذا كان الله قادرًا أن يستخلص مثل ذلك الانتصار من بين فَكَّي ما بدا أنَّه هزيمة؛ وأن يُخرج قوَّة من أقصى لحظات الضعف، فماذا يمكنه أن يفعل في كلِّ ما يبدو فشلًا وصعوبة في حياتي الشخصيَّة؟

لا شيء- ولا حتَّى مقتل ابن الله- يُمكن أن يُنهي العلاقة بين الله والإنسان. في كيمياء الفداء، يمكن أن تتحوَّل أكثر الجرائم شرًّا إلى أقوى قوَّة للشفاء.

لقد جاء الشافي المجروح جُرحًا مميتًا، جاء مرَّة أخرى في فجر القيامة. إنَّه فجر ذلك اليوم الذي قدَّم الله لنا فيه نظرة خاطفة للصورة التي يبدو عليها كلُّ التاريخ من منظور الأبديَّة، عندما سوف نَنظُر من منظور جديد تمامًا، وفي ضوء آخر، إلى كلِّ نُدبة، وكلِّ جرح، وكلِّ إحباط في هذه الحياة. يبدأ إيماننا من حيث كان يُفترض أن ينتهي. بين الصليب والقبر الفارغ يحوم وعدُ التاريخ: الرجاء للعالم، ولكلِّ من يعيش فيه.

من كتاب: يسوع الذي لم أكن أعرفه

١٩ آذار/مارس

علامات الكَرْب

لماذا كان على يسوع أن يتألَّم ويموت؟

يحتاج السؤال إلى كِتاب بأكمله. وهو بالفعل سؤالٌ أجابت عنه كتبٌ عدَّة، لكن من بين الإجابات التي يقدِّمها الكتاب المقدَّس، تلك الإجابة الغريبة ومفادُها أنَّ الألم يمثِّل نوعًا من "الخبرة التعليميَّة" عند الله. تبدو هذه الكلمات للوهلة الأولى هرطقةً، لكنَّني ببساطة أردِّد ما تقوله الرسالة إلى العبرانيِّين: "مع كونه ابنًا تعلَّم الطاعة ممَّا تألَّم به" (٥: ٨). وفي مكان آخر، تقول الرسالة نفسها لنا إنَّ رئيس خلاصنا تكمَّل بالألم (٢: ١٠).

هذه الكلمات، الممتلئة بالغموض والسرِّيَّة، بالتأكيد تعني على الأقلِّ أنَّه كان للتجسُّد معنى عند الله، كما كان له معنى عندنا. على أحد المستويات، كان الله دائمًا يفهم الألم الجسديَّ، بعد أن صمَّم هذا الجهاز العصبيَّ الفريد الذي يحمل الألم إلى أدمغتنا إنذارًا بالخطر. لكن هل شعر روحٌ من قَبْل بألم جسديٍّ؟ ليس قبل التجسُّد. في ثلاث وثلاثين سنة على الأرض تعلَّم الله عن الفقر، والمشكلات العائليَّة والرفض الاجتماعيِّ، والإساءات اللفظيَّة، والخيانة. وتعلَّم أيضًا عن الألم. كيف تشعر عندما يترك المحقِّق علامات حمراء جرَّاء صفعات يده على وجهك في أثناء التحقيق؟ كيف تشعر عندما تغوص في لحم ظهرك قطع الحديد (المسمَّاة العقارب) المُثبَّتة في نهايات السياط؟ وكيف تشعر عندما يُدَقُّ مسمارُ حديدٍ غليظٌ في عضلات رسغك، وأوتاره وجِلده. على الأرض، تعلَّم الله كلَّ هذا.

بطريقة لا يمكن فهمها، وبفضل يسوع، سمع الله أنَّاتنا بصورةٍ مُختلفة عمَّا سبق. تعجَّب كاتب العبرانيِّين من اجتياز الله في كلِّ ما نجتاز فيه. "لأنْ ليس لنا رَئيسُ كهَنَةٍ غَيرُ قادِرٍ أنْ يَرثيَ لضَعَفاتِنا، بل مُجَرَّبٌ في كُلِّ شَيءٍ مِثلُنا، بلا خَطيَّةٍ" (٤: ١٥). لدينا رئيس كهنة تخرَّج في مدرسة الألم "قادِرًا أنْ يتَرَفَّقَ بالجهَّالِ والضالِّينَ، إذ هو أيضًا مُحاطٌ بالضَّعفِ " (٥: ٢). وبسبب يسوع، فإنَّ الله يتفهَّم أنَّاتنا كما هي بالحقيقة.

لذلك لا نحتاج بعد لأن نصرخ من عمق الهوَّة التي نحن فيها بعيدًا عن الله: "هل تسمعني؟". فعندما شارَكَنا حياتنا الأرضيَّة، أثبَتَ يسوع إثباتًا واضحًا مرئيًّا وتاريخيًّا أنَّ الله يسمع أنَّاتنا، بل يئنُّ معنا فيها.

"علامات الكَرب"، مجلَّة المسيحيَّة اليوم، ٨ تشرين الأوَّل/ أكتوبر ١٩٩٠م

يومٌ دون اسم

كانت الكنيسة التي عشت فيها طفولتي، تعبُرُ بسرعة على أحداث الأسبوع المقدَّس (أسبوع الآلام)، لكي تستمع إلى أجراس القيامة. لم تكن هناك خدمة يوم الجمعة العظيمة، وكنَّا نحتفل بعشاء الربِّ مرَّة واحدة كلَّ ثلاثة شهور. كُنَّا نحتفظ بأفضل ملابسنا، وأجمل ترانيمنا، وزينة كنيستنا القليلة، لعيد القيامة.

لكن عندما درستُ الأناجيل، اكتشفتُ أنَّ الرواية الكتابيَّة تفعل عكس ما تفعله كنيستي؛ فهي تُبطئ كثيرًا عندما تدخل في الأسبوع الأخير. فالأناجيل، كما قال أحد الكتاب المسيحيِّين المبكِّرين، هي أحداث الأسبوع الأخير لحياة يسوع، مضافٌ إليها مقدِّمات تطول بالتدريج بحسب تاريخ كتابة الإنجيل.

يقدِّم الكاتب والواعظ توني كامپولو (Tony Campolo) عِظة مثيرة يقول فيها: "اليوم الجمعة، لكنَّ الأحد آتٍ. لقد عرف التلاميذ الذين عاشوا اليومين، الجمعة والأحد، أنَّ الله عندما يبدو غائبًا، فهو عندئذ يكون أقرب ما يكون. وعندما يبدو عاجزًا، فهو أقوى ما يكون، وعندما يبدو ميتًا، فهو إنَّما يعبرُ من الموت إلى الحياة. لقد تعلَّموا ألَّا يُخرِجوا الله من حساباتهم بتاتًا".

تقفز عِظَة كامپولو فوق يوم يقع في المنتصف. لقد حصل اليومان، الجمعة والأحد على مكانهما المميَّز في رزنامة الكنيسة، لكنَّا في الواقع نحن نعيش حياتنا كلَّها في يوم السبت، اليوم الذي دون اسم.

ربَّما لذلك السبب، كرَّس كُتَّاب الأناجيل مساحة كبيرة للأسبوع الأخير من حياة يسوع على الأرض، أكثر من الأسابيع التي كان فيها يظهر لتلاميذه بعد القيامة. لأنَّهم كانوا يعرفون أنَّ التاريخ اللاحق للقيامة سوف يبدو أغلبه مثل السبت، اليوم الذي في المنتصف، أكثر من أن يكون مثل الأحد، يوم الفرح والاحتفال.

هل تستطيع أن تثق بالله أن يفعل أمرًا مقدَّسًا وجميلًا، من عالم فيه السودان ورواندا والعشوائيَّات الفقيرة في أغنى بلدان العالم؟

ويستمرُّ التاريخ البشريُّ في الزحف، بين وقت الوعد، ووقت إتمامه. اليوم هو السبت على كوكب الأرض، هل سيأتي الأحد في يوم من الأيَّام؟

"اكتشاف يسوع"، مجلَّة المسيحيَّة اليوم، ١٧ حَزِيران/ يونيو ١٩٩٦م

يسوع والاحتراق

كان راعي كنيستي في شيكاغو، بِل ليزلي (Bill Leslie)، يستخدم تشبيه مضخَّة قديمة تعمل يدويًّا. كان يقول إنَّه في بعض الأحيان يشعر بأنَّه مثل هذه المضخَّة. كلُّ واحد يأتي إليه ويضخُّ بقوَّة دقائق عدَّة، يشعر فيها بنوع من الاستنزاف يحدث في داخله. وفي النهاية، كان يقترب من نقطة "الاحتراق"، عندما لم يكن لديه ما يعطيه لاحقًا، فيشعر بالجفاف والتشقُّق.

في وسط ذلك الزمن، ذهب بِل في خلوة مدَّة أسبوع وعبَّر عن هذه الأفكار للمُرشدة الروحيَّة التي عُيِّنت له في هذه الخلوة، وهي راهبة حكيمة جدًّا. كان يتوقَّع منها أن تقدِّم له كلمات مُلطَّفة مشجِّعة عن أنَّه إنسانٌ رائع ومُضَحٍّ. على العكس من ذلك، قالت له: "بِل، يوجد شيء واحد تفعله عندما يكون إناؤك فارغًا وجافًّا. يجب أن تذهب إلى الأعمق". لقد أدرك في تلك الخلوة أنَّ عليه أن يعطي الأولويَّة لرحلته الداخليَّة إن كان يريد لرحلته الخارجيَّة أن تستمرّ.

في سجلِّ خدمة يسوع على الأرض، أرى فقط مرَّة واحدة كاد يقترب فيها من هذه الحالة التي تشبه "الاحتراق"، وذلك في بستان جثسيماني حينما سقط يسوع ممدَّدًا على الأرض وصلَّى وكان العرق يتساقط منه كقطرات دم. كانت صلاته تتَّسم بنبرة التوسُّل غير المعتادة عنده. لقد "قَدَّمَ بصُراخٍ شَديدٍ ودُموعٍ طَلِباتٍ وتَضَرُّعاتٍ للقادِرِ أنْ يُخَلِّصَهُ مِنَ الموتِ" كما يكتب كاتب العبرانيِّين (٥: ٧). لكن كان يسوع يعلم أنَّه لن يُنقَذ من الموت. وكلَّما نما ذلك الوعي داخله، شعرَ بالألم والكَرْب.

بصورةٍ ما، في جثسيماني، مرَّ يسوع بالأزمة بأن نقل الحِمل إلى الآب. لقد أتى لكي يُنَفِّذ مَشيئة الله، لذلك انتهت صلاته هكذا: "لكن لتكن لا إرادتي، بل إرادتك" (متَّى ٢٦: ٣٩).

أُصلِّي من أجل هذه الشعور بالانفصال عن المشيئة الذاتيَّة، بالثقة الكاملة بالله. أُصلِّي أن أرى عملي وحياتي كقربان أقدِّمه لله كلَّ يوم. الله والله فقط هو المؤهَّل أن يساعدني أن أسير بثبات على الأرض الزلِقة بين محبَّتي للآخرين ومحبَّتي لنفسي.

من كتاب: الكنيسة: لماذا نهتمّ؟

٢٢ آذار/مارس

نظرة من المستقبل

ذات مرَّة قال رجل حكيم اسمه جو بايلي (Joe Bayly): "لا تنسَ في الظلام ما تعلَّمته في النور". لكن في بعض الأحيان يهبط الظلام بكثافة حتَّى إنَّنا لا نكاد نتذكَّر النور. من المؤكَّد أنَّ الأمر بدا كذلك لتلاميذ يسوع.

في أثناء العشاء الأخير أعلن المسيح إعلانًا مدوِّيًا: "في العالَمِ سيكونُ لكُمْ ضيقٌ، ولكن ثِقوا: أنا قد غَلَبتُ العالَمَ" (يوحنَّا ١٦: ٣٣). في تلك اللحظة، كان هناك أحد عشر تلميذًا مستعدِّين بكلِّ سرور لأن يقدِّموا له حياتهم وبالفعل، بعد ذلك الوقت في المساء، استلَّ بطرس سيفًا للدفاع عن يسوع.

لكن في اليوم التالي، فقد الأحد عشر إيمانهم. من المؤكَّد أنَّ تصريحاتهم الانتصاريَّة التي أدلَوا بها في الليلة السابقة ظلَّت تُشعرهم بالذنب وهُم يشاهدونه- بأمان، من بعيد- يتألَّم على الصليب. لقد بدا الأمر كما لو كان العالم قد تَغَلَّبَ على الله. انسلُّوا كلُّهم بعيدًا في الظلام. وبطرس أقسم بأغلظ الأقسام إنَّه لم يعرف الرجل.

كانت مشكلة التلاميذ هي مشكلة منظور. أجل! لقد تبدَّدت ذاكرة النور الذي رأوه سابقًا، لكن بعد ذلك بأيَّام قليلة أشرق على هؤلاء الرجال نور القيامة الساطع. في ذلك اليوم، عرفوا أنَّه لا توجد ظُلمة لا يستطيع الله أن يُنيرها. لقد عرفوا معنى الحكم على الحاضر في ضوء المستقبل. وبفعل لهيب القيامة، اشتعل هؤلاء الذين كانوا جُبناء، بشجاعة جعلتهم يخرجون ويغيِّرون العالم.

اليوم، يحتفل نصف العالم بأعياد متتالية من الجمعة العظيمة إلى أحد القيامة. هذه الجمعة الحزينة المظلمة أصبح اسمها الجمعة العظيمة، بسبب ما حدث في أحد القيامة؛ ونتيجةً لذلك، فإنَّ لدى المسيحيِّين الرجاء أنَّ الله يومًا ما سوف يستردُّ هذا الكوكب لوضعه الطبيعيِّ تحت مُلك الله.

من الجيِّد أن نتذكَّر، عندما نقابل الظلام، وأزمنة الاضطراب، أنَّنا نعيش أيَّامنا في يوم السبت، ليلة القيامة. وكما عبَّر الرسول بولس: "فإنِّي أحسِبُ أنَّ آلامَ الزَّمانِ الحاضِرِ لا تُقاسُ بالمَجدِ العَتيدِ أنْ يُستَعلَنَ فينا" (رومية ٨: ١٨). ليس الأمر صدفة، فإنَّني أعتقد أنَّ يسوع نَطَق بهذه الكلمات الانتصاريَّة: "أنا قد غلبت العالم"، بينما كان الجنود الرومان يرتدون أسلحتهم استعدادًا للقبض عليه. لقد عرف أن يحكم على الحاضر في ضوء المستقبل.

من كتاب: أين الله في وقت الألم؟

٢٣ آذار/مارس

كيمياء الألم

تتضمَّن المسيحيَّة تبايُنات لا تعني الكثير إلَّا في ضوء حياة يسوع وموته. تأمَّل هذا التخالف: رغم أنَّ الفقر والألم "أمور سيِّئة" ومن الواجب أن أقضي حياتي محاربًا إيَّاها، ففي الوقت نفسه يمكن أن "نُطوِّب" الذين يعانوها. هذا النمط من الشرِّ الذي يتحوَّل إلى خير يجد تعبيره الأسمى في يسوع. لقد مجَّد يسوع الألم عندما اختار أن يقبله في نفسه، ليرينا أنَّ الألم يمكن أن يتغيَّر ويتحوَّل. لقد أعطانا نموذجًا أراد له أن يتكرَّر فينا.

يقدِّم يسوع المسيح المثال الكامل لكلِّ الدروس الكتابيَّة عن الألم. بسبب يسوع، لا يمكنني أن أقول عن أيِّ إنسان كلامًا مثل: "من المؤكَّد أنَّها تتألَّم بسبب خطيَّة ارتكبتها"؛ فيسوع الذي لم يرتكب خطيَّة، اختبر أيضًا الألم. لم يَعِد الله بتاتًا أنَّ الأعاصير سوف تنحرفُ عن بيوتنا لتتابعَ طريقها إلى بيوت جيراننا غير المؤمنين، أو أنَّ الميكروبات سوف تهرب من المؤمنين. لسنا مُستثنِين من مآسي هذا العالم، كما لم يكن الله نفسه مستثنى منها. تذكَّر أنَّ بطرس تلقَّى أكبر انتهار من يسوع عندما اعترض على أنَّ يسوع يجب أن يتألَّم (متَّى ١٦: ٢٣-٢٥).

إنَّنا نثور على الألم؛ ويسوع أيضًا ثار على الألم لذلك أجرى معجزات الشفاء. في جثسيماني، لم يُصلِّ قائلًا: "أشكرك يا ربُّ من أجل فرصة الألم". لكنَّه، على العكس، تضرَّع إلى الله لكي يهرب من الألم. لكنَّه رغم ذلك كان مستعدًّا لأن يجتاز في الألم لخدمة هدف أكبر. وفي النهاية، ترك لنا السؤال الصعب ("إن كانت هناك طريقة أخرى...") للوصول إلى مشيئة الآب، ووثق بأنَّ الله يمكن أن يستخدم الثورة الناتجة عن موته للخير.

في أعظم كيمياء تحوُّليَّة في التاريخ، أخذ الله أسوأ شيء يمكن أن يحدث- الإعدام الرهيب للابن البريء- وحوَّله إلى الانتصار النهائيِّ على الشرِّ والموت. لقد كان ذلك أشبه بحيلةٍ بارعة، لتغيير بنية الشرِّ لخدمة الخير. كانَ عملًا يحمل داخله وعدًا لنا جميعًا. لقد افتُدِيَ تمامًا ألمُ الصليب الفائق للتصوُّر؛ فبجروحه شُفينا (إشعياء ٥٣: ٥)، وبضعفه تقوَّينا.

من كتاب: أين الله في وقت الألم؟

٢٤ آذار/مارس

الإله المُتَألِّم

يُمكننا أن نحصل من العهد القديم على الكثير من التبصُّر بشأن ما "يشعر به الله". لكنَّ العهد الجديد يسجِّل لنا ما يحدث عندما يختبر الله ما يشعر به الإنسان. كلُّ ما نشعر به شَعَر هو به. وبصورة فطريَّة، نحن نريد إلهًا ليس فقط يعرف عن الألم، لكن يشاركنا فيه أيضًا. إنَّنا نريد إلهًا يتأثَّر بألمنا الشخصيّ. خَطَّ ديتريش بونهويفر (Dietrich Bonhoeffer) عندما كان لاهوتيًّا شابًّا هذه الكلمات على وُرَيقة في سجن النازيِّين: "فقط الإله المتألِّم يمكنه أن يُساعد". بسبب يسوع، لدينا مثل هذا الإله. يكتُبُ كاتب الرسالة إلى العبرانيِّين أنَّ الله يستطيع أن يتعاطف معنا في ضعفاتنا. وتعبِّر الكلمة ذاتها عن الكيفيَّة التي بها حدث ذلك؛ فكلمة " تعاطُف" باللغة اليونانيَّة تأتي من كلمتَين يونانيَّتَين، تعنيان معًا "التأَلُّم مع".

هل من قبيل المُبالغة أن نقول إنَّه، بسبب يسوع، صار الله يفهم مشاعر الإحباط التي نشعر بها تجاه الله نفسه؟ وإلَّا فكيف نفسِّر دموع يسوع، أو صراخه من فوق الصليب؟ يُمكِنُنا جميعًا أن نَسكُب أسئلتنا بشأن ما يبدو غيابًا للعدالة الإلهيَّة وصمتًا واحتجابًا، في تلك الصرخة الرهيبة: "إلهي إلهي لماذا تركتني؟". لقد "تعلَّم" ابن الله الطاعة ممَّا تألَّم به، كما يكتب كاتب العبرانيِّين. يُمكِن أن يتعلَّم المرء الطاعة عندما يُجرِّب ألَّا يُطيع، ويتعلَّم الشجاعة، عندما يُجرِّب أن يهرب.

لماذا لم يلوِّح يسوع بسيف في جثسيماني، أو يستدعي فرقة من الملائكة؟ لماذا لم يستجب لتجربة الشيطان أن يُبهر العالم؟ لهذا السبب: لأنَّه لو كان قد فعل، لفشل في أهمَّ إرساليَّة له، وهي أن يعيش ويموت مثل واحدٍ منَّا. هذه هي الطريقة الوحيدة التي يُمكن بها أن يعمل الله "من داخل القوانين" التي وضعها للخليقة.

في الكتاب المقدَّس كلِّه، لا سيَّما في الأنبياء، يمكننا أن نرى الصراع الدائر داخل الله نفسه. فمن ناحية، يحبُّ الله البشر الذين صنعهم، وعلى الجانب الآخر، لدى الله رغبة شديدة في القضاء على الشرِّ الذي استعبَدهم. على الصليب، حلَّ الله هذا الصراع؛ فعليه امتصَّ ابن الله كلَّ القوَّة المدمِّرة التي في الوجود، وحوَّلها إلى قوَّة محبَّة.

من كتاب: عندما لا تمطر السماء

٢٥ آذار/مارس

حجر العثرة

إنَّ موت يسوع المسيح هو حجر الزاوية في الإيمان المسيحيِّ، وأهمُّ حقائق مجيئه وإرساليَّته. ما الإسهام في قضيَّة الألم الذي تقدِّمه ديانة مبنيَّة على حدث مثل الصليب، حيث تألَّم الله نفسه؟

رأى بولس الرسول أنَّ الصليب "حجر عثرة" في سبيل الإيمان، وجاء التاريخ ليثبت ذلك؛ إذ يتساءل معلِّمو الناموس اليهود عن مسوِّغ يجعل الله أن يرى ابنه يموت وهو الذي لم يحتمل أن يرى ابن ابراهيم يُذبح. ويُعَلِّمُ الإسلامُ أنَّ الله أكثر رِفقًا من أن يسمح ليسوع بأن يذهب إلى الصليب، لذلك استبدل به أحد الأشرار. والآن، يشرح فيل دوناهيو (Phil Donahue)، الشخصيَّة التلفزيونيَّة الأميركيَّة الشهيرة اعتراضه الأساسيَّ على المسيحيَّة بالعبارة التالية: "كيف يُمكِن أن يسمحَ إله كلِّيُّ العلم، وكلِّيُّ المحبَّة لابنه بأن يُقتَل على الصليب لكي يفديني من خطيَّتي؟ إذا كان الله «كُلِّيَّ المحبَّة» هكذا، لماذا لم ينزل بنفسه ويذهب إلى الجلجثة؟".

لقد فاتت كلُّ هؤلاء المعترضين الفكرة المحوريَّة في الإنجيل، وهي أنَّ الله، بصورةٍ معجزيَّة غامضة، هو الذي جاء إلى الأرض ومات. لم يكن الله "هناك في السماء". لقد كان في المسيح، كما يقول بولس، مُصالحًا العالم لنفسه. وبتعبير لوثر، أظهر الصليب "صراع الله مع الله". لو كان يسوع مجرَّد إنسان، لكان موته يعبِّر عن قسوة الله؛ لكنَّ حقيقة أنَّه ابن الله، تُثبِتُ على خلاف ذلك، أنَّ الله يتَّحِد بالكامل بالبشريَّة المتألِّمَة. على الصليب، امتصَّ الله كلَّ الآلام البشريَّة الرهيبة.

عند بعض الناس، تشي صورة ذلك الجسد الشاحب في تلك الليلة الظلماء بالهزيمة. فما الخير في إله لا يستطيع أن يتحكَّم في ألم ابنه؟ لكنَّ صوتًا آخر يمكن أن يُسمع: إنَّه صوت الله يصرخ لكلِّ البشر: "أُحبُّكم". لقد كُثِّف كلُّ الحبِّ الإلهيِّ على مدى التاريخ البشريِّ على الصليب، في تلك الشخصيَّة الوحيدة، الذي قال إنَّه يستطيع أن يستدعي الملائكة في أيَّة لحظة لتنقذه، لكنَّه اختار ألَّا يفعل ذلك- من أجلنا. في الجلجثة، قَبِل الله قواعد العدالة التي لا تُكسَر.

وهكذا فإنَّ الصليب، مع كونه عثرة لبعض الناس، هو حجر الزاوية في الإيمان المسيحيّ. أيُّ مناقشة حول السؤال عن كيفيَّة اتِّفاق الألم مع خُطَّة الله تقودنا نحو الصليب.

من كتاب: أين الله في وقت الألم؟

تأثير غير منظور

في العهد القديم، كانت مواجهة الألم صدمة رهيبة للمؤمنين المُخلصين؛ إذ كانوا يتوقَّعون أن يُكافئ الله الأمناء بالخير والرفاهية والراحة. لكنَّ العهد الجديد يكشف لنا تغييرًا كبيرًا. لاحظْ نُصحَ بطرس الرسول للمسيحيِّين المتألِّمين قائلًا: "لأنَّكُمْ لهذا دُعيتُمْ. فإنَّ المَسيحَ أيضًا تألَّمَ لأجلِنا، تارِكًا لنا مِثالًا لكَيْ تتَّبِعوا خُطواتِهِ" (١بطرس ٢: ٢١).

وتذهب فقرات أخرى إلى ما هو أبعد من ذلك، مستخدمة عبارات لن أحاول أن أشرحها. يتكلَّم بولس عن "شركة آلام [المسيح]" ويقول إنَّه يرجو أن "يتمِّم في جسده، ما يزال ناقصًا من آلام المسيح".

قضى هاري بور (Harry Boer) وهو قسٌّ خدم في الجيش في الحرب العالميَّة الثانية، الأيَّام الأخيرة من هذه الحرب بين جنود البحريَّة في مسرح عمليَّات المحيط الهادئ. ويكتب: "شهد الفيلق الثاني الكثير من العمليَّات والخسائر، لكنَّني لم أقابل أيَّ مُجنَّد أو ضابط شكَّ للحظة في النتيجة النهائيَّة للحرب. ولم أقابل أيَّ جنديٍّ من جنود البحريَّة تساءل، رغم يقينه بأنَّ النصر كان مؤكَّدًا، عن سبب عدم تحقيقه الآن مباشرة. لقد كانت المسألة أن نُناضل بصبرٍ حتَّى يستسلم العدوّ".

وبحسب بولس، انتصر المسيح في الصليب على القوى الكونيَّة- هازمًا إيَّاها ليس بالقوَّة، بل بالمحبَّة الباذلة للذات. يمكن أن يؤكِّد لنا صليب المسيح النتيجة النهائيَّة، لكن تبقى أمامنا المعارك المختلفة لنخوضها. وصلَّى بولس أن "يعرف المسيح، وقوَّة قيامته، وشركة آلامه" متَّحدًا على الأرض بألم حياة المسيح ونُصرتها (فيلبِّي ٣: ١٠).

لن نستطيع أن نعرف، في هذه الحياة، الأهمِّيَّة الكاملة لما نفعله فيها؛ لأنَّ الكثير ممَّا يحدث ليس منظورًا لنا. فمثلًا، عندما تمارس دولةٌ الاضطهاد ضدَّ المسيحيِّين، بسجن أحد الرعاة بسبب ممارسته الاحتجاج السلميّ، أو عندما ينتقل أحد الاختصاصيِّين الاجتماعيِّين إلى العيش في منطقة فقيرة لمساعدة سكَّانها، أو عندما يرفض زوجان الطلاق بوصفه حلًّا لعلاقتهما الزوجيَّة الصعبة، أو عندما يتمسَّك أحد الوالدَين بالأمل في عودة ابنهما الضالّ، أو عندما يقاوم أحد المهنيِّين الشباب استهواء الحصول على الثراء السريع- في كلِّ هذه التجارب والصعوبات، الكبيرة والصغيرة، هناك تأكيد على مستوى أعمق من المعنى، ألا وهو الشركة مع آلام المسيح الفدائيَّة ونُصرتها.

من كتاب: أين الله في وقت الألم؟

٢٧ آذار/مارس

القيامة والبداية الجديدة

أومن بالقيامة أوَّلًا لأنَّني تعرَّفت إلى الله. لقد عرفت أنَّ الله محبَّة، وأعرف أيضًا أنَّنا نحن البشرَ نريد أن نحتفظ بالذين نحبُّهم أحياء. إنَّني لا أترك صديقي يموت، فأحتفظ به في ذاكرتي وفي قلبي لوقت طويل بعد أن أتوقَّف عن رؤيته بعينَيَّ.

لسببٍ ما غير معلوم (وأتصوَّر أنَّ حرِّيَّة الإنسان تقع في قلب ذلك الأمر)، يسمح الله بوجود كوكب فيه يموت شابٌّ في ريعان الشباب بينما يُمارس رياضة الغطس مثلًا، أو تموت شابَّة في حادث مروِّع في طريق ذهابها إلى مؤتمر الإرساليَّات في كنيستها.

وحتَّى لو كان الله يسمح بذلك، أومن بأنَّه لا يرضى به؛ فإن كُنتُ لا أومن بأنَّ الله لا يرضى، فلا أومن عندئذٍ بإله مُحبّ. إنَّ المحبَّة الإلهيَّة سوف تجد في النهاية طريقة بها تتغلَّب على هذه الحالة. كتب جون دون (John Donne): "أيُّها الموت، لا تفتخر". لن يترك الله الموت ينتصر في النهاية. هناك تفصيلة من تفصيلات قصَّة القيامة كانت دائمًا ما تُثير تساؤلي: لماذا احتفظ يسوع بآثار جروح الصليب؟ من المفترض أنَّه كان يستطيع أن يحصل على ما يريد من أشكال جسد القيامة، لكنَّه اختار جسدًا يمكن تعرُّفه من آثار جروح يمكن لمسها. لماذا؟

أعتقد أنَّ قصَّة القيامة لن تكون كاملة دون هذه الآثار على يدَيه وقدمَيه وجنبه. عندما يتخيَّل البشر، فإنَّهم يحلُمون بأسنان لؤلؤيَّة متناسقة وجلد دون تجاعيد، وأشكال جسد جميلة مُغرية. إنَّنا نحلم بحالات غير طبيعيَّة- نحلم بالجسد الكامل. أمَّا لدى يسوعَ، كانت المحدوديَّة في هيكلٍ عظميٍّ وجلد بشريٍّ هي الحالة الاستثنائيَّة. لقد كانت آثار الجروح عنده رمزًا إلى الحياة على هذا الكوكب، أمرًا يذكِّره دائمًا بتلك الأيَّام التي عانى فيها الألم والمحدوديَّة.

إنَّني أضع رجائي في جروح يسوع. فمن منظور السماء، تُمثِّل هذه الجروح أفظع حدث في تاريخ الكون. لكن حتَّى ذلك الحدث، تستطيع القيامة أن تجعل منه مجرَّد ذكرى. بسبب القيامة، يمكنُني أن أرجو أنَّ كلَّ دمعة بشريَّة قد ذُرِفت، وكلَّ ضربة تلقَّيناها، وكلَّ ألمٍ نفسيٍّ، وكلَّ وجع قلب على فقدان محبوب- كلَّ هذه سوف تصبح ذكريات. إنَّ الندوب لا تختفي تمامًا، لكنَّها أيضًا لا تعود تؤلم. سوف تصبح لنا أجساد جديدة، في أرض جديدة وسماء جديدة. سوف نبدأ بداية جديدة- بداية القيامة.

من كتاب: يسوع الذي لم أكن أعرفه

٢٨ آذار/مارس

النور الساطع

يحكي الكاتب هنري نوين عن أسرة يعرفها في پاراغواي. الأب، وكان طبيبًا، عبَّر عن مُعارضته للنظام العسكريِّ هناك وانتهاكاته لحقوق الإنسان، فانتقم جهاز الأمنِ المحلِّيِّ منه بالقبض على ابنه المراهق وتعذيبه حتَّى الموت. وحاول أهل البلدة أن يحوِّلوا جنازة الصبيِّ إلى مسيرة احتجاج ضخمة، لكنَّ الطبيب اختار طريقة أُخرى للاحتجاج. في أثناء الجنازة، عرض الطبيب جثَّة ابنه كما وجدها في السجن- عاريًا، مجرَّحًا من الصدمات الكهربائيَّة التي عذَّبوه بها وآثار إطفاء السجائر في جسده. ومرَّ كلُّ أهل القرية بالجثَّة التي لم تكن في تابوتٍ معتاد، بل على فرشة سرير السجن الغارقة في دمائه. لقد كان ذلك أقوى احتجاج يمكن تخيُّله؛ لأنَّه عرض الظلم على مرأى من العالم.

أليس هذا ما فعله الله في الجلجثة؟ إنَّ الذين يحملون ضغينة تجاه الله بسبب ظُلم الحياة يقولون: "ينبغي أن يتألَّم الله، لا أنا أو أنت"، ثُمَّ يجدِّفون على الله. بالفعل تحمَّل الله تلك اللعنة في ذلك اليوم. إنَّ الصليب الذي حمل جسد يسوع، عاريًا مُجرَّحًا، فضحَ كلِّ أشكال العنف والظلم في هذا العالم. لقد كشف الصليب حقيقة العالم الذي نعيش فيه، وفي الوقت نفسه حقيقة الإله الذي نعبده. إنَّه عالم من الظلم الشديد، في مقابل إله المحبَّة الباذلة.

ليس أحدٌ معفًى من مأساة الإحباط- حتَّى الله لم يُعفى منها. لم يُظهِر يسوع أيَّة مناعة ضدَّ الظلم، ولا أيَّ مهرب منه، بل سار فيه ليخرج من الناحية الأخرى. وكما أنَّ الجمعة العظيمة قضت على فرضيَّة أنَّ هذه الحياة يجب أن تكون عادلة، فإنَّ أحد القيامة قدَّم الحلَّ للُغز هذا الكون. من الظلام خرج الضوء الساطع.

ذات مرَّة تلفَّظ أحد أصدقائي، الذي يصارع مع الإيمان بإله محبٍّ في وسط هذا العالم الغارق في الألم، بهذه العبارة: "لا يُبرِّر الله سوى القيامة!". هذه العبارة قاسية وليست لاهوتيَّة، لكنَّ داخل هذه العبارة تقع الحقيقة المجرَّدة. إنَّ صليب المسيح قد غلب الشرَّ، لكنَّه لم يغلب الظلم. لذلك كان ينبغي أن تكون القيامة الإجابة الساطعة أنَّه في يوم من الأيَّام سوف يستردُّ الله الواقع المادِّيَّ كلَّه إلى وضعه الصحيح.

من كتاب: عندما لا تمطر السماء

تغييرٌ جذريٌّ

في دراستي للكتاب المقدَّس، صُدمت بالتغيير الجذريِّ الذي حدث لُكُتَّابِهِ من حيث نظرتهم إلى الألم. يمكن أن نتتبَّع هذا التغيير لنجد أنَّ بدايته كانت الصليب. وعندما يتكلَّم كَتَبَةُ أسفار العَهد الجديد عن الأوقات الصعبة، فإنَّهم لا يُعَبِّرونَ عَن الغضب الذي كان يُعَبِّر أيُّوب عنه مثلًا، أو الأنبياء، أو الكثير من كتبة المزامير، بل يظلُّون يُشيرون إلى حَدَثَين- صليب المسيح وقيامته- كما لو كانا يُقَدِّمانِ مَعًا إجابةً دراميَّة مُصوَّرة عن سؤال الألم.

لقد كان إيمان الرسل، كما اعترفوا بحرِّيَّة، يستند إلى ما حدث في صباح أحد القيامة. لقد تعلَّم هؤلاء التلاميذ الدرس الذي فشلوا في تعلُّمه في ثلاث سنوات مع قائِدِهم: أنَّ الوقت الذي يبدو الله فيه غائبًا، هو الوقت الذي يكون فيه أقرب ما يكون. عندما يبدو الله ميِّتًا، فإنَّه ربَّما يكون في طريقه عائدًا من الموت.

لقد أصبح نمط الأيَّام الثلاثة- المأساة، الظُّلمة، ثُمَّ الانتصار- هو النموذج الذي يطبِّقه كَتَبَةُ العهد الجديد على كلِّ أشكال التجربة. يمكنُنا أن نتذكَّر يسوع، الدليل الأكيد على محبَّة الله، حتَّى وإن كنَّا لا نحصل على أيَّة إجابة عن سؤال "لماذا؟".

وتشهدُ الجمعة العظيمة أنَّ الله لم يتركنا في آلامنا، وهي آلامٌ وشرورٌ حقيقيَّة تصيبُ حياتنا. ويهتمُّ الله بها حتَّى إنَّه أراد أن يشترك فيها ويتحمَّلها بنفسه. لقد صار الله "مختبِرًا للحزن".

في ذلك اليوم، اختبر يسوعُ نفسُه صمتَ الله. لقد كان المزمور الذي اقتبسه على الصليب المزمور الثاني والعشرين (مزمور الألم) وليس المزمور الثالث والعشرين (مزمور الراعي).

ويكشف أحد القيامة، أنَّ الألم ليس ما ينتصر في النهاية. لذلك يكتب يعقوب الرسول: "احسِبوهُ كُلَّ فرَح يا إخوَتي حينَما تقَعونَ في تجارِبَ مُتَنَوِّعَةٍ". ويكتب بُطرس: "الذي بِهِ تبتَهِجونَ، مع أنَّكمُ الآنَ- إنْ كانَ يَجِبُ- تُحزَنونَ يَسيرًا بتجارِبَ مُتَنَوِّعَةٍ". ويكتب بولس: "بل نَفتَخِرُ أيضًا في الضيقات". ويستمرُّ الرسل في شرح كيفيَّة أنَّ الخير يمكن أن ينشأ من ذلك "الألم المُفتَدى"، وهذا الخير هو الشخصيَّة الناضجة والكثير من المجازاة.

إنَّ المسألة مسألة وقت، بحسب ما يقول بولس. فقط انتظر؛ فإنَّ المعجزة الإلهيَّة التي حوَّلت الجمعة الصامتة المُظلمة إلى صباح أحد القيامة، في يوم من الأيَّام ستُصبح يومًا ما بحجم الكون كلِّه.

من كتاب: عندما لا تمطر السماء

٣٠ آذار/مارس

الرجاء خلف الأسلاك الشائكة

في زيارة إلى ڤيرجينيا قابلت واحدًا ممَّن أحسبهم أبطالًا: يورغن مولتمان (Jurgen Moltmann). ولدهشتي وجدت ذلك اللاهوتيَّ الألمانيَّ شخصًا يفيض بالودِّ وروح الدعابة التي تُخفيها دراساته وكتاباته اللاهوتيَّة.

كان مولتمان يخطِّط لأن يَمتَهِنَ الفيزياء الكمِّيَّة حتَّى جُنِّد في سنِّ الثامنة عشرة في أوج الحرب العالميَّة الثانيَّة، وكُلِّف بالعمل في إحدى البطَّاريَّات المضادَّة للطائرات في هامبورغ، حيث شاهد مواطنيه يتفحَّمون في الغارات الجوِّيَّة هناك. وظلَّ يطارده السؤال: "لماذا بقيت على قيد الحياة؟". وبعد الاستسلام للبريطانيِّين، قضى الجنديُّ الشابُّ السنوات الثلاث التالية في سجن في بلجيكا، ثُمَّ اسكتلندا، ثُمَّ إنكلترا. وعندما عرف مولتمان حقيقة النازيَّة، شعر بحزن شديد بشأن الحياة كلِّها.

لم يكن لمولتمان خلفيَّة مسيحيَّة، لكنَّ قسًّا أميركيًّا في السجن أعطاه نسخة من أسفار العهد الجديد والمزامير مطبوعة للقوَّات المسلَّحة، وموقَّعة من الرئيس الأميركيِّ روزفلت. ولمَّا قرأ السجين هذه الكلمات: "وإن نزلتُ إلى الهاوية، فها أنت"، تساءل: "هل يُمكن أن يوجد الله في المكان المُظلم؟". وعندما قرأ أكثر، وجد كلمات عبَّرت بدقَّة عن إحساسه بالخواء، فاقتنع أنَّ الله "موجودٌ خلف الأسلاك الشائكة، بل هو أكثر وجودًا في مثل هذه الأماكن".

بعد ذلك نُقِل مولتمان إلى معسكر نورتن (Norton) الذي تقوده حركة الشبَّان المسيحيِّين (YMCA)، وهناك رحَّب السكان المحلِّيُّون بالجنود الألمان، وأحضروا إليهم طعامًا مطهوًّا في المنازل، وعلَّموهم العقيدة المسيحيَّة، ولم يزيدوا عليهم إحساسًا بالذنب تجاه الفظائع التي ارتكبها النازيُّون.

وعند إطلاق سراح مولتمان، بدأ يضعُ لاهوت الرجاء الذي تخصَّص فيه. إنَّنا في حالة من التضادِّ بين الصليب والقيامة، محاطون بالموت والفناء، إلَّا أنَّنا نأمل في البقاء والاسترداد. وهذا رجاء تضيئه أنوار قيامة المسيح.

يعطينا يسوع عربونًا للمستقبل الذي فيه يستردُّ الله هذا الكوكب إلى تصميمه الأصليّ. إنَّ القيامة هي بداية "فرح المفديِّين...وثورة الله على الموت". إنَّ مَن ليس له إيمان بالمستقبل، ربَّما بسبب الألم والمعاناة التي على هذا الكوكب، يظنُّ إمَّا أنَّ الله ليس كلِّيَّ الصلاح، وإمَّا أنَّه ليس كلِّيَّ القدرة. أمَّا الإيمان المستقبليُّ، فيسمح لي أن أومن بأنَّ الله أيضًا ليس راضيًا عن الحالة التي عليها هذا العالم، وينوي أن يصنع كلَّ شيء جديدًا.

في عبارة واحدة يعبِّر يورغن مولتمان عن المسافة بين جمعة الصليب وأحد القيامة: "إنَّ الله يبكي معنا،

حتَّى نضحك نحن معه ".

عمود "الصفحة الخلفيَّة"، مجلَّة المسيحيَّة اليوم، عدد أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٥م

"آريسوسيتادو!"

كاد بَد أوغل (Bud Ogle) أن يقطع يده نصفين بمنشارٍ كهربائيٍّ بينما كان يدرِّب مجموعة من المتطوِّعين على بناء بيوت للفقراء. وقبل أن يبدأ الجرَّاح بعلاج يده، أجرى إجراءً روتينيًّا يصوِّر فيه الصدر بالأشعَّة. وكانت المفاجأة اكتشاف ورم خبيث في الصدر. فاستُؤصل الورم في الوقت المناسب، وواجه بَد في الوقت نفسه، تداعيات جراحة اليد، وتعافٍ طويل الأمد من سرطان الصدر.

كان ذلك المزيج بين الأخبار السارَّة والأخبار السيِّئة رمزًا من رموز الخدمة التي يديرها بَد لمساعدة الفقراء من سكَّان المدينة.

"لقد كنت أتساءل عمَّا يمكن أن يكون في ذهن الله من جرَّاء هذه الحادثة. لكن ما حدث بعدها كان درسًا حاولت دائمًا أن أحتفظ به في ذهني بينما كنتُ أعتصر كُرات التنس لتدريب عضلات يَدِي حتَّى تعود إلى قوَّتها السابقة- الدرسُ هو أنَّ خلاصي وتعافيَّ اشتمل على ألم شديد".

كان بَد يقدِّم درسًا روحيًّا لكلِّ من كانوا يأتون إلى التطوُّع في الخدمة في أحياء شيكاغو الفقيرة. كان الدرس هو هذا: ستتعلَّمون أن تفشلوا. لا شيء يسير بحسب الخُطَّة الموضوعة. رُبَّما تُغلق إدارة المدينة ملجأً للمشرَّدين فجأة بسبب بعض الأخطاء الإداريَّة، ويُمكن أن ينتكس أحد القادة الواعدين ويعود إلى تعاطي الهيروين، ورُبَّما يفتعل بعض المهووسين الحرائق لتدمير مبنى جُدِّدَ حديثًا، أو تُكسَر نوافذ الكنيسة، أو تُطلِق بعض العصابات النار على أحد الأطفال على باب مقرِّ الخدمة. لكن بصورةٍ أو بأُخرى، في وسط الألم والفوضى، يتأصَّل الإنجيل.

"هذا ما يحدث في هذه الأماكن- يصير الفشل طريقة لتعرُّفِ نعمة الله. إنَّني أرى مدمني الكحوليَّات ينتكسون أربع مرَّات أو خمسًا أو ستًّا. وبعضهم لا يتعافى مجدَّدًا. لكنَّ آخرين يَقبلون بالتدريج نعمة الله في وسط الفشل. في خبرتي، يعتمد التعافي والتغيير على إيمان الشخص بأنَّ خطاياه قابلة للغُفران. إنَّ اكتشافنا أنَّ الله يغفر لنا مهما كانت درجة فشلنا يخلق فينا مساحة للشفاء".

في أثناء خدمة شروق الشمس صباح عيد القيامة، حكى سبعة أشخاص قصصهم، ثلاثة منهم وكان مدمنين حديثِي التعافي. قال أحدهم: "لقد كنت في عداد الأموات، أمَّا الآن فبمساعدة يسوع، وبمساعدتكم كلِّكم، أشعر بأنَّني أعود إلى الحياة مرَّة أخرى".

اكتسبت القيامة معنى جديدًا عند بَد؛ فبالألم والرجاء، وفي وسط الظلام، يشرق النور الساطع. وفي أثناء

الخدمة ثنائيَّة اللغة، نادى بَد، أوَّلًا بالانكليزيَّة ثمَّ بالإسپانيَّة: "لقد قام!". فجاءت الإجابة بالإسپانيَّة بصيحةٍ مدوِّية: "آريسوسيتادو!" (بالحقيقة قام).

"بَد أوغل، زراعة الرجاء في المدينة"، مجلَّة المسيحيَّة اليوم، ١٧ تشرين الثاني/ نوڤمبر ١٩٩٧م

1) المسيحيَّة المُجرَّدة للمؤلِّف سي. أس. لويس من منشورات أوفير للطباعة والنشر (الناشر).

نيسان/أپريل

الجوع إلى النعمة

رأيت في روسيا سنة ١٩٩١م شعبًا جائعًا إلى النعمة. كان الاقتصاد، بل المجتمع بأسره، في حالة تدهور سريع، وكان كلُّ واحد يلوم الآخر. لاحظت أنَّ المواطنين الروس العاديِّين يبدون كالأطفال الذين تعرَّضوا لعنف شديد: الرؤوس مُنكَّسَة، والكلام بطيء ومُتَقَطِّع، والنظرات زائغة. فبمن عساهم أن يَثِقوا؟

لن أنسى لقاءً فيه بكى أحد الصحفيِّين في موسكو- ولم أكن قد رأيت من قبل صحفيًّا يبكي- عندما كان رون نِكِل (Ron Nickle) من رابطة السجون العالميَّة يحكي عن كنائس تحت الأرض التي كانت تنمو وتزدهر في معسكرات العمل القسريِّ الروسيَّة. لسبعين سنة، ظلَّت السجون مستودعات للحقّ، والمكان الوحيد الذي يمكنك فيه أن تتكلَّم عن الله. لقد كانت السجون، لا الكنائس، هي الأماكن التي وَجَدَ فيها أشخاصٌ مثل سولجنتسين الله.

كما حكى لي رون نِكِل أيضًا عن حواره مع أحد الضبَّاط الكبار الذي كان يرأس وزارة الداخليَّة. كان هذا الضابط قد سمع عن الكتاب المقدَّس من بعض المؤمنين من كبار السنِّ وأُعجِبَ به، لكن حسبَه قطعة متحفيَّة، لا شيئًا يؤمن الإنسان به. لكنَّ الأحداث الأخيرة جعلته يعيد التفكير. في أواخر سنة ١٩٩١م، عندما أمر بوريس يلتسين (Boris Yeltsin) بإغلاق كلِّ مكاتب الحزب الشيوعيِّ القوميَّة والقُطْريَّة، كانت الوزارة التي يرأسها هذا الضابط هي المُكلَّفة بتفكيك الحزب الشيوعيِّ، وكان تعليقه أنَّه لم يعترض أيُّ مسؤول من مسؤولي الحزب على ذلك الإغلاق، وكان يقارن بين سهولة إغلاق الحزب الشيوعيِّ والحملة الصعبة التي استمرَّت لسبعين سنة لتدمير الكنيسة واستئصال الإيمان بالله من القلوب، وقال إنَّ "الإيمان المسيحيَّ قادر على تجاوز عُمر أيَّة أيديولوجيَّة. والكنيسة الآن تعاود الصعود أكثر من أيِّ شيء آخر هي ما رأته عيناي".

سنة ١٩٨٣م، رفعت مجموعة من هيئة شباب له رسالة (YWAM) لافتة صباح أحد القيامة في الميدان الأحمر تقول باللغة الروسيَّة: "المسيح قام!". وردًّا على ذلك، سجد بعض الروس من كبار السنِّ على الأرض وبكوا. وسرعان ما طوَّقَتِ الشرطة هؤلاء المرنِّمين مثيري المشكلات، ومزَّقوا اللافتة، واقتادوهم بعنف إلى السجن. وبعد أقلَّ من عشر سنوات، كان الجميع في الميدان الأحمر صباح عيد القيامة يهنِّئون بعضهم بعضًا بالتحيَّة التقليدية: "المسيح قام...بالحقيقة قام!".

من كتاب: ما أعجب النعمة

٢ نيسان/أپريل

المالك الغائب

تتَّفق أربعة أمثال في إنجيل متَّى والأصحاحات ٢٤ و٢٥ على مضمونٍ واحد مُختبئ في الخلفيَّة. تأمَّل البطل في كلٍّ من هذه الأمثال: صاحبُ بيتٍ يترك بيته خاويًا، ومالك أرض يترك كلَّ شيء لخادمه، وعريس يصل متأخِّرًا بعد أن ينام كلُّ المدعوِّين، وسيِّد يوزِّع وزنات ثُمَّ يمضي. بصورةٍ ما، تَوَقَّعَت أمثال يسوع الأربعة السؤال المركزيَّ لحقبة الحداثة، والذي سأله أشخاص مثل نيتشه وماركس وكامو وبيكيت: "أين الله الآن؟". الإجابة الحداثيَّة هي أنَّ المالك تركنا. نحن الآن أحرار لكي نضع بأنفسنا قوانيننا- فلسفة ما يُعرف باسم "غياب الله".

ومع الاستمرار في القراءة، صادفت مثلًا آخر. لقد كنتُ أعرف جيِّدًا الرسالة المتضمَّنة في مَثَل الخراف والجِدَاء، لكنَّني لم ألحظ من قبل العلاقة بينه وبين الأمثال السابقة له. يجيب هذا المثل الأخير عن السؤال الذي تثيره الأمثال الأربعة السابقة بطريقتَين:

أوَّلًا، يعطي هذا المثل لمحة عن عودة المالك، في يوم الدينونة، حيث سيكون هناك جزاء من نار- حرفيًّا.

ثانيًا، يعطي المثل فكرةً ثاقبة عن الزمن الذي يمرُّ بين اختفائه وعودته، وهي القرون التي يبدو الله فيها غائبًا. ويجيب متَّى ٢٥ عن ذلك السؤال إجابة عميقة وصادمة في الوقت نفسه. لم يهرب الله ولم يختفِ، لكنَّه تَخَفَّى في أَبعَد ما يَخطُرُ على البال من صُوَر التخفِّي- في صورة الغريب والفقير والجائع والسجين والمريض. تَخَفَّى في صورة المُهمَلين والمَدوسين في الأرض. "الحَقَّ أقولُ لكُمْ: بما أنَّكُمْ فعَلتُموهُ بأحَدِ إخوَتي هؤُلاءِ الأصاغِرِ، فبي فعَلتُمْ ". إنَّ مَثَل يسوع الأخير يضع على الكنيسة مسؤوليَّة ثقيلة، لكنَّه يقدِّم للعالم الحلَّ الدائم: أنَّنا يجب أن نقاوم الفوضى مُصِرِّين على حقيقة أنَّه يوجد قائد، ويوجد مالك لهذا الكوكب، الذي على العكس من رجال الشرطة والقانون من البشر، سوف يقدِّم العدالة الكاملة للجميع. وحتَّى يعود هذا المالك، تقع المسؤوليَّة علينا أن نُظهِرَه ونُمَثِّل حضوره. إنَّنا نمدُّ أيادينا إلى المحتاجين في كلِّ مكان لا من مُنطلق التسلُّط، بل من مُنطلق المحبَّة. وعندما نخدم المُحتاجين، فإنَّنا نخدم الله المُختفي فيهم.

عمود "الصفحة الخلفيَّة"، مجلَّة المسيحيَّة اليوم، ٢٠ تمُّوز/ يوليو ١٩٩٢م

٣ نيسان/أپريل

شركاء أحرار

لا يستطيع أحدٌ أن يختزل سرَّ التواصل بين الله والإنسان في معادلة بسيطة. يكتب الأسقف الإنكليزيُّ هيو لاتيمر(Hugh Latimer) إلى زميله الشهيد: "أشعر أحيانًا بالخوف الشديد، حتَّى إنَّني أودُّ أن أزحف لأختبئ في جُحر فأر؛ لكنَّ الله في بعض الأحيان يزورني من جديدٍ بتعزياته. يأتي ثمَّ يذهب". رُبَّما نختبر رِفعة روحيَّة في يوم من الأيَّام ونقضي الشهر التالي له تائهين في برِّيَّة من الفتور والجفاف. "الريح تهبُّ حيث تشاء"، هذا ما قاله يسوع لنيقوديموس. يأتي ويذهب.

في المرتفع الواقع خلف بيتي، يأتي كلَّ ربيعٍ زوجٌ من الثعالب الحمراء ليربِّيا صغارهما. وعندما أُصَفِّرُ لهم مُحَيِّيًا، يُخرج الصغار في بعض الأحيان رؤوسهم من جُحْرهم بين الصخور، ليشتمُّوا الهواء ويتفرَّسونا فيَّ بعيونهم اللامعة المنتبهة. وفي بعض الأحيان، أسمع صوت حركتهم في الداخل، وفي أحيان أخرى، لا أسمع أيَّ شيء وأفترض أنَّهم نيام. وذات مرَّة، عندما مرَّ بي زائر من نيوزيلاندا، أخذته إلى وكر الثعالب، لافتًا انتباهه أنَّه ربَّما لن يرى أيَّ شيء أو يسمعه، وقلتُ له: "إنَّها حيوانات برِّيَّة. لا نستطيع التحكُّم فيها. الأمر يعود إليهما إن كانت ستظهر أم لا".

فجأة، أخرج ثعلبٌ صغيرٌ شُجاعٌ أنفه من الجُحر في ذلك اليوم، فأصاب صديقي بالدهشة والإثارة. وبعد مرور أسابيع من زيارة صديقي هذا، وصلتني منه رسالة من نيوزيلندا يقول لي فيها إنَّ تأمُّل لاحقًا في تعليقي بشأن الثعالب، ساعده في فهم علاقته بالله، بعد أن مرَّ بفترة طويلة من الاكتئاب. في بعض الأحيان، كان يشعر بأنَّ الله قريبٌ منه جدًّا مِثل زوجته وأولاده. وفي أحيان أخرى، لم يكن لديه أيُّ شعور بحضور الله، ولا أيُّ إيمان يستند إليه. وفي نهاية رسالته كتب: "مِثلُ الثعالب البرِّيَّة تمامًا، الله لا يمكن السيطرة عليه".

يكتب يعقوب الرسول: "اقتَرِبوا إِلَى الله فيَقتَرِبَ إِلَيكُمْ". وتبدو هذه الكلمات أشبَه بمعادلة رياضيَّة بسيطة. لكنَّ يعقوب لا يقدِّم جدولًا زمنيًّا لتَحقيق الجزء الثاني من المعادلة، إن جاز التعبير، بل يُذكِّرني أنَّ الشركة مع الله تتضمَّن طرفين. ودون شكّ، لديَّ دورٌ مهمٌّ ألعبُه في هذه العلاقة. وكما يقترح يعقوب، يمكنني أن أنقِّي قلبي وأجعل روحي متَّضعة، وأتعلَّم أن أتحمَّل مسؤوليَّة الجزء الخاصِّ بي في العلاقة وأترك الباقي لله.

من كتاب: الصلاة: هل تُحدث أيَّ اختلاف؟

٤ نيسان/أپريل

الصلاة غير المستجابة

عندما كنت أكتب عن الصلاة غير المستجابة، اقترَحَت زوجتي عليَّ أن أُجري حوارات مع بعض الرجال والنساء المُسنِّين بشأن الصلاة. وقالت لي: "يُصلِّي أغلبهم منذ زمنٍ بعيد. بالتأكيد سوف يكون لديهم بعض الحكمة في هذا الشأن".

وقد كانت على حقّ. صاحبتُها إلى مركز التقاعد الذي تساعد فيه بصفتها راعية دينيَّة، وهناك استمعتُ إلى قِصص معجزات متتالية. ومنها قصَّة إحدى النساء التي شعرتْ ذات مرَّة بأنَّ عليها أن تترك جلسة كانت تلعب فيها الورق مع بعض الصديقات وتعود إلى المنزل. وعندما دخلت المنزل اكتشفت أنَّ شمعة كانت تركتها مشتعلة قد انصهرت تمامًا وبدأت النار تشبُّ في باقة من الورد الصناعيِّ- وصار حريق استطاعت أن تخمده باستخدام وسادة في الوقت المناسب. وآخر حكى عن قصص مثيرة عن البقاء على قيد الحياة من الحرب العالميَّة الثانية. وأُخرى حكت عن زوجها الذي اختنق وهو يأكل حلوى، في الوقت الذي كان مُسعِفان يمرَّان أمام المنزل، واستطاعا إنقاذه في الوقت المناسب.

وسمعتُ أيضًا عن صلوات من أجل سلام العالم وضدَّ الظلم. وتذكَّرتْ إحدى السيِّدات من أصل أفريقيٍّ صلاتها في طفولتها حين كانت تعدُّ مواطنة من الدرجة الثانية في ولايات الجنوب. من كان ليتخيَّلَ حينها التغيُّرات التي طال بها العمر لكي تشهدها؟

ومع أنَّني سألت أيضًا عن الصلوات غير المُستجابة، فإنَّ أغلبهم كان يريد أن يتكلَّم عن الصلوات المستجابة. لقد كانت لديهم قصص عن المآسي الأُسريَّة وانهيارات الصحَّة، لكن بصورة أو بأُخرى، لم تستطع هذه الخبرات أن تزعزع إيمانهم بالصلاة.

بعد لقائنا تمشَّيت قليلًا في جزء المبنى الذي كان يعيش فيه من يحتاجون إلى مساعَدةٍ إضافيَّة. كان هؤلاء إمَّا طريحي الفراش وإمَّا على كراسيَّ متحرِّكة. حاولت أن أتكلَّم مع هؤلاء أيضًا، لكنَّ النور في عقولهم كان قد خَفَتَ كثيرًا. كلُّ الأسرار التي تعلَّموها عن الصلاة تقع الآن في ما وراء قدرتهم على الاسترجاع!

وفي أثناء قيادتي السيَّارة عائدًا من المكان، كنتُ أكثر اقتناعًا من أيِّ وقت مضى أنَّ الحلَّ الوحيد والنهائيَّ للصلوات غير المستجابة هو ما كان بولس الرسول يقوله لأهل كورنثوس: "فإنَّنا نَنظُرُ الآنَ في مِرآةٍ، في لُغزٍ، لكن حينَئذٍ وجهًا لوَجهٍ. الآنَ أعرِفُ بَعضَ المَعرِفَةِ، لكن حينَئذٍ سأعرِفُ كما عُرِفتُ". لا يوجد إنسان، مهما كان حكيمًا أو روحيًّا يستطيع أن يفسِّر طُرُق الله، ويشرح سبب حدوث معجزة وعدم حدوث أخرى، وسبب تدخُّل الله في حالة بصورة واضحة، وعدم تدخُّله بتاتًا في حالة أخرى. ومع الرسول بولس، يُمكننا

فقط أن ننتظر ونثق.

من كتاب: الصلاة: هل تُحدث أيَّ اختلاف؟

صلوات من القلب

تعلَّمت أن أقول لله ما أريده بالضبط، مهما بدا مستحيلًا. أصلِّي من أجل السلام في الشرق الأوسط، والعدالة في أفريقيا، والحرِّيَّة الدينيَّة في الصين وغيرها من البلاد، والتشرُّد والعنصريَّة في أميركا؛ وذلك لأنَّني أرغب في كلِّ هذه الأشياء بشدَّة- وأكثر من ذلك، أعتقد أنَّ الله أيضًا يريدها.

حاوَل صديق لي في شيكاغو أن يجمع بعضًا من زملائه في خدمة الأحياء الفقيرة للصلاة من أجل انتهاء مشكلة الفقر في هذه المدينة، وتراجع تقريبًا كلُّ من سألهم واعترضوا قائلين: "لماذا نصلِّي من أجل شيء مثاليٍّ ومستحيل مثل هذا؟". أمَّا صديقي فكان لديه رأيٌ مختلف. ما معنى الصلاة إن كنَّا لن نعبِّر عن رغبات قلوبنا، لا سيَّما إذا كانت تتَّفق مع ما نعرف أنَّه رغبة قلب الله أيضًا؟ من يعرف ماذا يمكن أن يحدث عندما نصلِّي لكي تتحقَّق مشيئة الله على الأرض؟ لنتذكَّر الصلوات الكثيرة التي صلَّاها المسيحيُّون خلف الستار الحديديِّ في أوروپَّا الشرقيَّة، وفي ظلِّ الفصل العنصريِّ في جنوب أفريقيا، صلوات كانت تبدو وقتها مستحيلة ومثاليَّة.

إنَّ الله يدعونا لأنْ نطلب ببساطة ما نحتاج إليه ونريده. ولن يوبِّخنا الله، تمامًا مثلما لا يوبِّخ أبٌ طفله الذي تسلَّق إلى حضنه ويمليه قائمة بما يتمنَّاه هديةً لعيد الميلاد. يقول ڤيرنون غراوندز (Vernon Grounds) إنَّه عندما يسمع عن شخص يحتاج إلى الشفاء، فإنَّه يصلِّي هكذا: "يا ربُّ، أعلم أنَّ لك قصدًا ما، ولا شكَّ أنَّ لديك خُطَّة لحياة ذلك الإنسان، لكنَّني سأقول لك مباشرة ما أريده أن يحدث". إذا كان قد شُخِّص بمرض خطير، فسوف أطلب مباشرة الشفاء الجسديّ. أُمِرنا أن نصلِّي من أجل الشفاء، وقد أعلن يسوعُ بوضوحٍ رغبة الله في شفاء الإنسان واكتماله. وشهدت عشرات الدراسات لفاعليَّة الصلاة في الشفاء. الإيمان يعمل. الإيمان يجعل الروح والعقل والجسد تعمل معًا في تناغم، ويُضفي قوَّة إضافيَّة على عمليَّات الشفاء الموجودة بصورة طبيعيَّة في أجسادنا.

في بعض الأحيان، كان يسوع يسأل الإنسان: "أتريد أن تبرأ؟". لم يكن هذا سؤالًا بديهيًّا، كما يشهد الأطبَّاء، فإنَّ بعض المرضى لا يكادوا يتصوَّرون أنفسهم دون هُوِيَّة "المريض" هذه. في الصلاة من أجل الشفاء، كما في كلِّ طلبات الصلاة، يجب أن نقدِّم المشكلة بكلِّ أمانة، ونقول لله ما تشتاق إليه قلوبنا.

من كتاب: الصلاة: هل تُحدث أيَّ اختلاف؟

٦ نيسان/أپريل

التلامس مع الخواء

أشعر ببعض التعزية في الحقيقة التي تقول إنَّ كلَّ أساتذة الروحانيَّة مرُّوا بما يُسمَّى "ليل النفس المُظلم". في بعض الأحيان، يمرُّ هذا الليل بسرعة، وفي أحيان أخرى، يستمرُّ شهورًا، وربَّما سنوات. ولم أجد إلى الآن شاهدًا واحدًا يدَّعي أنَّه لم يمرَّ بفترةٍ من الجفاف. قضت تيريزا الأڤيليَّة عشرين سنة في حالة من عدم الصلاة قبل أن تُصبح من أساتذة الصلاة. كما اختبر وليَم كاوپر (William Cowper) فترات من الصلاة كان يشعر فيها بأنَّه يكاد يموت من فرط الفرح؛ لكنَّه وصف نفسه أيضًا لاحقًا بهذه الكلمات: "منفيٌّ بعيدًا عن محضر الله، كبُعد المشرق من المغرب".

لا تتكلَّم وسائل الإعلام الدينيَّة، علاوةً على بعض الكتب والدوريَّات الدينيَّة، كثيرًا عن صمت الله. بل على العكس، كثيرًا ما تفترض القصص التي يقدِّمونها أنَّ الله لا يكفُّ عن الكلام: يأمُرُ ذلك الخادم أن يبني كنيسة جديدة، ويوصي ربَّة البيت هذه أن تبدأ شركة على الإنترنت. في هذه الأجواء، الله يمثِّل النجاح، والمشاعر الطيِّبة، والشعور بالسلام والدفء. والمستمعون الذين تُسلِّيهم مثل هذه القصص المُلهِمة، عندما يواجهون الصمت الإلهيَّ، يُصدَمون ويحسبون أنَّه الاستثناء، ومن ثمَّ تُثارُ فيهم مشاعر النقص.

الاستثناء الفعليُّ هو التفاؤل المبتهج الذي يميِّز الإيمانَ الاستهلاكيَّ الحداثيّ؛ إذ تعلَّم المسيحيُّون على مدى قرونٍ ما عليهم أن يتوقَّعوه في رحلتهم الروحيَّة من المسيرة المضطربة التي خاضها السائح في كتاب "سياحة المسيحيِّ"[1]، ومن كتاب يوحنَّا الصليب (John of the Cross) "**ليل النفس المُظلم**" *(Dark Night of the Soul)*، ومن كتاب "**الاقتداء بالمسيح**" *(Imitation of Christ)* لمؤلِّفه توماس الكمپيسي (Thomas A Kempis). أمَّا المرشد المسيحيُّ الذي كتب أكثر من غيره بانفتاح عن حضور الله، فهو الأخ لورنس الذي كتب ذلك في أثناء غسيل الاطباق وتنظيف المراحيض.

عندما أختَبِرُ موسمًا من الجفاف الروحيِّ، أو الظلام والخواء، هل أتوقَّف عن الصلاة حتَّى تتدفَّق الحياة مرَّة أخرى في صلاتي؟ يصرُّ كلُّ أساتذة الصلاة والروحانيَّة على الإجابة بالنَّفي. إذا توقَّفتُ عن الصلاة، كيف أعرف أنَّ الحياة عادت إلى صلاتي، إلَّا بعد أن أُصلِّي؟ وكما اكتشف الكثير من المسيحيِّين، فإنَّ كسر عادة عدم الصلاة أصعب كثيرًا من كسر عادة الصلاة.

من كتاب: الصلاة: هل تُحدث أيَّ اختلاف؟

٧ نيسان/أبريل

رائحة الفضيحة

إنَّ النعمة، مثل الماء، تنساب نحو المكان المنخفض. ولا أعرف شخصًا يجسِّد تلك الحقيقة أكثر من جون نيوتن (John Newton) كاتب الترنيمة الأحبِّ على مدى العصور. وعلى خلاف كلِّ التوقُّعات تظلُّ ترنيمة "ما أعجب النعمة" (Amazing Grace) المكتوبة منذ أكثر من ٢٣٠ سنة، تعيش حتَّى الآن في وجدان الكثيرين.

دخل جون نيوتن الخدمة البحريَّة الملكيَّة مُرغَمًا، ثمَّ سُرِّحَ من الخدمة لاحقًا بدعوى عدم الخضوع وتحوَّل إلى العمل في تجارة الرقيق. وكان نيوتن معروفًا بالشَّتم واللعن والتجديف حتَّى بين زملائه في هذه البيئة الدنيئة. وإذ عمل على سفينة لتجارة الرقيق عبر المحيط الأطلسيِّ في أكثر أيَّام هذه التجارة ظلامًا وقسوة، تَرَقَّى في النهاية حتَّى صار قبطان هذه السفينة.

وبعد حادثة تحوُّل روحيٍّ دراميٍّ في عُرض البحر، وضع الله نيوتن على طريق النعمة. وبعد أن درس اللاهوت، عَيَّنَتْه كنيسة إنكلترا قسًّا في إحدى الأبرشيَّات. لم ينس نيوتن إحساسه بعدم الاستحقاق الذي كان يميِّز كلَّ حياته اللاحقة ولم يُنكره. وفي أثناء كتابته لمذكَّراته بعد وقتٍ قصيرٍ من انتقاله إلى بلدة أولني في إنكلترا، كتب موجِّهًا كلامه إلى الربِّ: "لقد أَعطَيتَ زنديقًا اسمًا ومكانًا بين أولادك، ودعوت كافرًا إلى خدمة الإنجيل".

تعلَّم نيوتن تحت إشراف أسماء لامعة في التاريخ المسيحيِّ مثل جون وسلي (John Wesley) وجورج وايتفيلد (George Whitfield)، وصار كارزًا حماسيًّا بالإنجيل، ثُمَّ سرعان ما صار قائدًا في حركة تحرير العبيد. بعدها، صار نيوتن صديقًا لشاعرٍ شابٍّ موهوب اسمه وليَم كاوبر، وكان يخدمه في أثناء نوبات الرغبة في الانتحار التي كانت تنتابه بسبب مرضه النفسيّ. وفي ذلك الوقت كان نيوتن أيضًا مرشدًا روحيًّا للسياسيِّ المرموق وليَم ويلبرفورس (William Wilberforce) وشجَّعه ألَّا يتخلَّى عن صراعه الممتدِّ لأربعين سنة للقضاء على العبوديَّة في الإمبراطوريَّة الإنكليزيَّة. ووقف نيوتن نفسه أمام البرلمان، ليقدِّم شهادة صادقة عن فظائع تجارة الرقيق المنحلَّة.

واجه نيوتن مقاومة وتهكُّمًا واتِّهامات مختلفة في حياته. سخر بعضهم من حماسته الكرازيَّة، وآخرون اتَّهموه أنَّه يسيء إلى مجهودات صديقه وليَم كاوبر، بدلًا من أن يساعده، في حين هاجم بعضهم حملته لتحرير العبيد مدَّعين أنَّها محاولة للتكفير عن ذنوب ماضيه. لكن لم يحاول نيوتن أن يدافع عن نفسه، ولم يُشِر إلى نفسه إلَّا بكونه عَمَلًا من أعمال النعمة الإلهيَّة. وهكذا، فإنَّ حياة نيوتن تضعه بوضوح داخل التقليد الكتابيِّ

الذي اشتمل أبطاله على قاتلٍ وزانٍ (الملك داود)، وخائنٍ (الرسول بطرس)، ومضطهدٍ للمسيحيِّين (الرسول بولس). ودائمًا ما تحمل النعمة رائحة الفضيحة.

مقدِّمة كتاب جون نيوتن: من العار إلى النعمة العجيبة

كبير الخَدَم

في برنامج الزيارة السياحيَّة لمدينة بلاينز في ولاية جورجيا، لا يزال بإمكانك أن تشاهد شقَّة الإسكان الشعبيِّ التي قطن فيها يومًا ما الرئيس الأميركيُّ الأسبق جيمي كارتر (Jimmy Carter). ومن هذه الأصول المتواضعة، صعد جيمي كارتر ليصبح سنة ١٩٧٦م أقوى رجل في العالم.

ومثل صعوده السريع، كان هبوطه سريعًا أيضًا. فبعد خسارته لانتخابات عام ١٩٨٠م، عاد إلى بلدته مُحطَّمًا، مُعَيَّرًا من زملائه الديمقراطيِّين، حتَّى إنَّ أحد استطلاعات الرأي وصفه بالرئيس الأسوأ. وعندما عاد وجد تجارة أسرته، التي جُمِّدت على مدى فترة رئاسته، وقد تكدَّس عليها ما يصل إلى مليون دولارٍ من الديون.

من هذا الوضع المتزعزع، بدأ كارتر إعادة البناء. وبعد أن ألَّف كتابًا ليسدِّد من عوائده ديونَه، أسَّس ما أسماه "مركز كارتر" في أتلانتا ليتبنَّى به البرامج التي كان يؤمن بها. وبسبب تأكيده الأساسيِّ مبادئ حقوق الإنسان، تطلَّعت إليه الكثير من الدول النامية بصفته قائدًا عظيمًا، وتجاوب كارتر مع هذا التطلُّع بواسطة برامج رائدة ورؤيويَّة. مثلًا، راقب برنامجه للديمقراطيَّة الانتخابات في كلِّ أنحاء العالم. كما أنَّ مساندته لمؤسَّسة "بيت من أجل البشريَّة" (Habitat for Humanity) جلبت الكثير من الدعم الماديِّ والمعنويِّ إلى هذه المؤسَّسة الناشئة. وعلاوة على ذلك، استهدفت مؤسَّسته عددًا من الأمراض الخطيرة التي تصيب البلدان الفقيرة، فوجَّه الدعم الماليَّ والخبرة العلميَّة لمواجهة مثل هذه المشكلات. ونتيجة لذلك، قُضي تقريبًا على دودة غينيا، وعَمَى النهر.

وكلَّ نهاية أسبوع، كان كارتر حاضرًا في بلدته، وكان يدرِّس في مدارس الأحد، ويجمع التقدمة في كنيسته المحلِّيَّة، كنيسة ماراناثا المعمدانيَّة. ويمكنك أن ترى الحرفَين الأوَّلَيْن من اسمه "ج. ك" اللذين حفرهما هذا الرئيس الأميركيُّ الأسبق في ورشة النجارة الخاصَّة به، والتي صنع فيها أيضًا خزانة التلفاز الموجودة في غرفة مدارس الأحد. وكلَّ شهرين، كان كارتر يأخذ دوره في جزِّ النجيل في فناء الكنيسة بينما تُنظِّف زوجته روزالين دورات المياه.

لقد تحسَّنت سمعة كارتر كثيرًا. وظلَّ يتعامل مع قادة العالم شخصيًّا، ويثير الاحترام والانتباه أينما ذهب. وقد انعكس الوضع عنده تمامًا، فهو الآن بين قائمة أكثر الرؤساء احترامًا في تاريخ الولايات المتَّحدة الأميركيَّة. ولو دخل مسابقةً لاختيار أفضل رئيس سابق، لفازَ بكلِّ تأكيد. ففي حين يترك الرؤساء الآخرون البيت الأبيض ليستمتعوا بلعب رياضة الغولف، أو ليستثمروا عائدات شهرتهم، كرَّست أسرة كارتر نفسها

للخدمة. هذا يُذكِّر المرء بمقولة يسوع الأكثر ترديدًا: "فإنَّ مَنْ أرادَ أنْ يُخَلِّصَ نَفسَهُ يُهلِكُها، ومَنْ يُهلِكُ نَفسَهُ مِنْ أجلي ومِنْ أجلِ الإنجيلِ فهو يُخَلِّصُها".

عمود "الصفحة الخلفيَّة"، مجلَّة المسيحيَّة اليوم، ٢١ أيَّار/ مايو ٢٠٠٢م

٩ نيسان/أپريل

وقت للضحك

قال الشاعر دبليو. إتش. أودن (W. H. Auden) أنَّ البشريَّة تتميَّز بثلاث مميِّزات على الأقلّ: أنَّنا الحيوانات الوحيدة التي تعمل وتضحك وتصلِّي. وأعتقد أنَّ قائمة أودن هذه تمثِّل إطارًا أنيقًا للتأمُّل الشخصيّ.

في العمل، لا أخجل من قول إنَّ المسيحيِّين يتفوَّقون؛ فأجدادنا اخترعوا ما يُسمَّى بأخلاق العمل البروتستانتيَّة. إنَّنا نُقدِّر أخلاق العمل بحقٍّ، حتَّى إنَّنا ندَعُ العمل يلتهم أيَّ شيء آخر. كنائسنا تُدار مثل شركات، ونُخصِّص وقت خلوتنا بوصفه أحد مهامِّ أعمالنا في المفكِّرة اليوميَّة (أو بصورة أكثر مثاليَّة، في برنامج كمپيوتر)، ورعاتنا يعملون تحت ضغط مثل مديري الشركات اليابانيِّين. لقد أصبح العمل للمسيحيِّين الإدمان المشروع الوحيد.

أمَّا فنُّ الصلاة، فيجب أن نكون قد امتزنا فيه الآن، لكن لديَّ شكوكي في هذا الأمر؛ فمن المُرجَّح أن نحوِّل الصلاة إلى نوع آخر من العمل، وهذا يفسِّر سبب تمحور الصلاة في أغلب الكنائس غالبًا حول التشفُّع فقط، إذ نادرًا ما نمارس الاستماع في صلاتنا.

لقد لاحظت أنَّ الصلوات الكتابيَّة (التي نراها مثلًا في سفر المزامير) تميل لأن تكون متفرِّقة ومتكرِّرة وغير مرتَّبة- شبيهة بالحوارات التي يمكن أن تسمعها في محلِّ الحلاقة أكثر من قوائم التسوِّق المكتظَّة بالطلبات. وأتعلَّم عن مثل هذه الصلوات من الكاثوليك مثلًا، الذين لديهم وعي أفضل بالصلاة بصفتها نوعًا من العبادة. والغريب أنَّ الذين كانوا يصلُّون طوال اليوم- مثل توماس ميرتون وماكرينا ويدركير (Macrina Wiederkehr) وجيرارد مانلي هوپكنز (Gerard Manley Hopkins) وتيريزا الأڤيليَّة، لا يحسبون الصلاة نوعًا من الواجب، بل يرَونَها نوعًا من الحوار الذي لا ينتهي.

وفي الكلام عن الضحك، الساق الثالثة في ثلاثيَّة أودن، يتقهقرُ المسيحيُّون في ذيل العالم في هذا الأمر. يتميَّز المسيحيُّون عن باقي الناس، كما يكتب سي. أس. لويس، ليس بأنَّهم أقلُّ سقوطًا من الآخرين؛ ولا بأنَّه محكوم عليهم أقلُّ من غيرهم أن يعيشوا في عالم ساقط، بل يتميَّزون بأنَّهم يعرفون أنَّهم في حالة السقوط، يعيشون في عالم ساقط. لذا، أعتقد أنَّ علينا ألَّا نجرؤ على خسارة القدرة على الضحك على أنفسنا.

ويخطر لي، في واقع الأمر، أنَّ الضحك يشترك في الكثير مع الصلاة. ففي العَمَلين، نقف جميعنا على قدم المساواة، معترفين بأنَّنا مخلوقات ساقطة. ولا نأخذ أنفسنا على محَمَل الجِدِّ كثيرًا. العمل يمكن أن يفرِّقنا ويقسِّمنا ضمن رُتَب ومستويات، أمَّا الضحك والصلاة فيوحِّدانِنا.

من كتاب: العثور على الله في أقلِّ الأماكن توقُّعًا

١٠ نيسان/أپريل

بحثًا عن كنيسةٍ جامعةٍ

قبل وقت ليس ببعيد، حضرت مؤتمرًا عُقِدَ على أرضٍ كان يعيش عليها أحد المجتمعات الطوباويَّة[2] (Utopian communities) في إنديانا، ويعود تاريخ هذا المجتمع إلى نحو قرن من الزمن. وعندما كُنتُ أتحسَّس الصنعة الدقيقة للمباني وأقرأ اللوحات التي تصف الحياة اليوميَّة للأتباع الحقيقيِّين، تعجَّبتُ من الطاقة التي كانت تدفع هذا المجتمع، وهو واحد من عشرات المجتمعات التي تولَّدت من الحماسة الدينيَّة والمثاليَّة الأميركيَّة.

وخطر ببالي أنَّه في الوقت الحاليِّ اختفى تقريبًا الدافع نحو الكماليَّة. لقد انحرفنا الآن نحو الاتِّجاه المعاكس، نحو نوع مضادٍّ لكلِّ ما هو طوباويٌّ ومثاليّ. كَوَّنت الكثير من الكنائس مجموعات مبنيَّةً على الخطوات الاثنتي عشرة، والتي تركِّز بالتحديد على عدم قدرة أعضائها أن يكونوا كاملين.

وأعترف بتفضيلي للاتِّجاه الحاليّ. وما أُلاحظه في الواقع البشريِّ هو أنَّ الميل نحو الخطأ أكثر كثيرًا من الميل نحو الكمال، ما دفعني إلى أن أرمي نفسي بين ذراعَي إنجيلٍ مبنيٍّ على النعمة. إنَّ أغلب المجتمعات الطوباويَّة- مثل ذلك الذي كنت أقف فيه- تحوَّلت في النهاية إلى متاحف؛ فالكماليَّة مثل السفينة التي جنحت عالقة في سلسلة صخور الخطيَّة الأصليَّة.

كيف يمكننا في الكنيسة أن ندعم مبدأ القداسة، والشوق إلى الحياة على أعلى مستوى من الرُّقيِّ، ونتفادى في الوقت نفسه الحياة في الوهم والتفاهة والتظاهر وإساءة استخدام السلطة، والكبرياء الروحيَّة والحصريَّة؟ أو لنطرَحِ السؤال بالطريقة العكسيَّة: كيف يُمكننا نحن المعاصرين أن نشدِّد على المساندة المجتمعيَّة (وليس الإدانة) والشفافيَّة وفحص الذات دون أن نستهدف ما هو أقلُّ ممَّا يجب أن نستهدفه؟ إنَّ الولايات المتَّحدة، لكونها مجتمعًا فردانيًّا، في حالة خطر دائم من إساءة استخدام الحرِّيَّة، وكنائسها في خطر شديد من إساءة استخدام النعمة.

وبينما تتخبَّط هذه الأسئلة في ذهني، أقرأ رسائل العهد الجديد، فأتعزَّى بعض الشيء بفعل حقيقة أنَّ الكنيسة في القرن الأوَّل كانت بالفعل في حالة من التذبذُب؛ ففي بعض الأوقات تكاد تجنح نحو الناموسيَّة الكماليَّة، ثُمَّ في وقتٍ لاحق تكاد تميل نحو فكرة أنَّ النعمة قد أَبطَلَت الناموس. يكتب يعقوب في اتِّجاه، ثُمَّ يأتي بولس ليكتب في الاتِّجاه المُعاكس. فكان لكلِّ رسالة دور تصحيحيٌّ تعليميٌّ للكنيسة، لكنَّ كلَّ الرسائل كانت تؤكِّد الطبيعة الثنائيَّة لرسالة الإنجيل. وبكلمات أخرى، فإنَّ الكنيسة يجب أن تكون الاثنين معًا: أن تكونَ شعبًا يسعى جاهدًا من أجل القداسة، وفي الوقت نفسه يستريح في النعمة أن يكونوا شعبًا يَدينون أنفسهم وليس الآخرين، ويعتمدون على الله لا على أنفسهم.

ويظلّ التذبذب مستمرًّا. تميل بعض الكنائس إلى هذا الاتّجاه، وبعضها الآخر إلى الاتّجاه الآخَر. وتتركني قراءتي للرسائل متمنّيًا كنيسة جامعة بين الاتّجاهين في اتّزان. فقد رأيت الكثير من الكنائس ينطبق عليها تعبير، إمَّا هذا وإمَّا ذاك.

من كتاب: العثور على الله في أقلّ الأماكن توقُّعًا

رجاء من مُتطرِّف يهوديّ

نحتاج إلى قصص تعكس الرجاء. كم هو سهل أن نَدين الكنيسة التي شُنَّت باسمِها الحروب الصليبيَّة أو ندين التضييق الإسلاميَّ على النساء! لكن هل نحن الآن أفضل في ما يتعلَّق باتِّخاذ القرارات الصالحة والعادلة؟

مِن الكُتُب التي قرأتُها في الآونة الأخيرة عن صِدام الحضارات، كتابٌ منحني بعض الرجاء اسمه "**أمام مدخل جنَّة عدن: يهوديٌّ يبحث عن الحقِّ مع المسيحيِّين والمسلمين في الأرض**" *(At the Entrance to the Garden of Eden)*، للكاتب يوسي كلاين هاليڤاي (Yossi Klein Halevi). وللوهلة الأولى، لم يبدُ هاليڤاي مُرشَّحًا لأن يكون ممَّن يشعلون شموع الرجاء؛ فهو تربَّى في مجتمع يهوديٍّ أرثوذكسيٍّ في بروكلين من الناجين من المحرقة النازيَّة (ووالده نفسه اختبر السجن في المجر)، لذا كبر ولديه خوفٌ من المسيحيِّين.

لكنَّه تشجَّع عندما انتقل ليعيشَ في الدولة العبريَّة، وبدأ يفكِّر في الأقلِّيَّتَين الرئيسيَّتَين فيها: المسيحيِّين والمسلمين. وبوصفه صحفيًّا وساعيًا نحو الروحانيَّة، تباحثَ مع جيرانه من هاتَين الأقلِّيَّتَين.

تعلَّم هاليڤاي مبكِّرًا أنَّ اليهود والمسلمين يشتركون في أشياء أكثر ممَّا يشتركون مع المسيحيِّين. وقد قال له شيخٌ لا يتمتَّع بالكثير من المعرفة: "نحن وأنتم، [يقصد اليهود والمسلمين]، لدينا شريعة دينيَّة، أمَّا المسيحيُّون فليس لهم. نحن وأنتم نصوم في أيَّام مُحدَّدة، أمَّا هم فلا. نحن وأنتم نُحَرِّمُ الصور، وأمَّا هم فيُصَلُّون للصور. نحن وأنتم نؤمن بإله واحد، أمَّا هم فيعبدون ثلاثة آلهة".

يقدِّم هاليڤاي نموذجًا للشخص صاحب الإيمان الواضح المحدَّد الذي يتعلَّم أن يحترم من يرون العالم بطريقة مختلفة، دون أن يتحوَّل إلى تلك الحالة الهُلاميَّة التصالُحِيَّة التي تقول "كلُّ شيء يصلح" وعندما يتأمَّل يسوع فإنَّه يكتب:

"يحتاج اليهود لأن يتصالحوا مع يسوع. ما نزال غاضبين وخائفين منه. لقد كان والدي يلوم يسوع على كلِّ مُشكلاتنا. لكنَّنا، إلى أن نعود لنرحِّب بيسوع بصفته واحدًا من إخوتنا، سوف نظلُّ نتعامل مع المسيحيَّة كأنَّها زائفة. لقد كان يسوع الوسيلة الإلهيَّة لتتميم هدف اليهود في نشر كلمة الله في كلِّ أنحاء العالم. وبسبب يسوع، لديَّ لغة روحيَّة مُشترَكة مع نصف البشريَّة".

ويستمرُّ هاليڤاي بقوله إنَّه يتمنَّى أن يوجد الآن في الدولة العبريَّة رجلٌ مثل يسوع، شخصٌ رؤيويٌّ

يهوديٌّ يتحدَّى البيروقراطيَّة الدينيَّة، ومؤمنٌ متحمِّس يعظ بالمحبَّة والغفران. إذا كان "متطرِّفٌ يهوديٌّ" يعترف بكونه متطرِّفًا، ويصل إلى تلك القناعة، ربَّما لا يزال هناك أمل للشرق الأوسط.

"حوار عن كتب تتناول موضوع الإسلام والشرق الأوسط"، فيليپ يانسي وجون ويلسون،
في دوريَّة كُتُب وثقافات. يوليو/ تمُّوز - آب/ أغسطس ٢٠٠٢م

١٢ نيسان/أبريل

بداية صحِّيَّة

عندما زُرتُ الهند، كنت في صحبة عاشقٍ حقيقيٍّ لهذا البلد، د. پول براند، الذي قضى نصف عمره تقريبًا هناك. وفي أثناء هذه الزيارة قادني د. براند في جولة لا تُنسى في المؤسَّسات الطبِّيَّة الهنديَّة.

الطبُّ في الهند لا يختلف كثيرًا، في بعض الأوجه، عن الطبِّ في الولايات المتَّحدة وأوروبَّا. لكنَّك عندما تذهب بَعيدًا عن المُدُن نحو قُرى الهند التي يبلغ عددها مليون قرية، فإن الطبَّ يصير مغامرة حقيقيَّة. فمثلًا، كيف يُعالج الطبيب الهنديُّ مَن أصابته الكوليرا بالجفاف في مكانٍ لا توجد فيه مياه نقيَّة؟ ولماذا يعلِّقُ محلول جوز الهند للمريض ليُعطى في الوريد؟ بالتأكيد لأنَّ المحلول السُّكَّريَّ في ثمرة جوز الهند، لا يقلُّ في درجة تعقيمه وقيمته الغذائيَّة عن أيِّ محلول غلوكوز طبِّيّ. لكنَّه يظلُّ عجيبًا أن ترى الأنبوب المطَّاطيَّ الطويل يَخرُج من ذراع المريض ليستقرَّ داخل ثمرة جوز هند خضراء لامعة.

ومثلًا، يتمتَّع مستشفى كلِّيَّة الطبِّ المسيحيَّة في ڤيلور (Vellore) بسمعة طيِّبة لكونه إحدى أفضل المؤسَّسات الطبِّيَّة في آسيا؛ فبدلًا من أن تُفرط من التدريب التقنيِّ المعقَّد للطلبة، أقامت هذه الكلِّيَّة على خلاف ذلك الاتِّجاه المعتاد مستشفى منفصل يتميَّز المبنى فيه بمساحات من الهواء الطلق والجدران المصنوعة من الطين والقشِّ لتحاكي الأحوال المتاحة في القُرى. وعلى الطلبة في هذا المستشفى أن يُضيفوا إلى تدريبهم في هذا المستشفى، القدرة على استخدام الموارد الطبِّيَّة المتاحة في أفقر القُرى الهنديَّة النائية.

علاوةً على ذلك، فإنَّ كلِّيَّة الطبِّ المسيحيَّة في الهند، تنظِّم رحلات منتظمة إلى القرى النائيَّة. ففي يوم محدَّد من كلِّ شهر، تنقل سيَّارة تابعة للكلِّيَّة الأطبَّاء الشبَّان ومساعديهم، فيتجمَّعون ويفردون أَسِرَّة الكشف، ويبدأون بإعطاء الحُقن الروتينيَّة وعمل الجبائر للعظام، وإجراء العمليَّات الجراحيَّة الصغرى، ليتلقَّى آلاف المرضى الرعاية الطبِّيَّة يومًا في الشهر في داخل قُراهم.

وعلى مستويات إحصائيَّة دالَّة، تتجلَّى ثمرة قرنَيْن من هذا العمل المُرسَليِّ المُخلِص في الإحصائيَّة الآتية: بين ما يزيد على مليار إنسان في الهند، أقلُّ من ٣٪ يعدُّون أنفسهم مسيحيِّين، لكنَّ المسيحيِّين مسؤولون عن أكثر من ١٨٪ من حجم الرعاية الصحِّيَّة هناك.

ورُغمَ الأخطاء الساذجة للمرسَلين الذين يتصرَّفون بطريقة سُلطويَّة، فقد قدَّم المسيحيُّون للهند عملًا أسطوريًّا في مجال الطبِّ والتعليم. حتَّى إنَّك إذا ذكرت كلمة "مسيحيٍّ" لأيِّ فلَّاح هنديٍّ- ربَّما لم يسمع مطلقًا بيسوع المسيح- فإنَّ أوَّل صورة سوف تتبادر إلى ذهنه هي صورة مستشفى، أو سيَّارة طبِّيَّة تصل إلى القرية شهريًّا لكي تقدِّم رعاية طبِّيَّة مجَّانيَّة باسم المسيح. بالتأكيد، ليس هذا كلَّ ما في الإنجيل، لكنَّه ليس بداية سيِّئة.

من كتاب: كُنتُ أتساءَل فقط

١٣ نيسان/أبريل

وجه الله

يدور الكثير من عملي في الكتابة حول مشكلة الألم. أعود مرَّة تلو الأخرى إلى الأسئلة نفسها، مثلما يعاود المرء لمسَ جرح قديم لم يُشفَ تمامًا بعد. وأستمع إلى قُرَّاء كُتُبي، وقصصهم المؤلمة تعطي وجوهًا بشريَّة لشكوكي.

أتذكَّر عندما اتَّصل بي شخصان في الأسبوع نفسه لكي يحكوا لي خبراتهم في الإحباط مع الله. كان أحدهم راعيًا روحيًّا للشباب في كولورادو عَلِمَ لتوِّه بحقيقة إصابة زوجته وطفلته بفيروس الإيدز. سألني: "كيف يُمكنُني في مثل هذا الوقت أن أتحدَّث مع مجموعة الشباب عن الإله المُحبّ؟". وآخر كان رجلًا أعمى، كان قبل أشهر قد دعا إلى بيته مدمن مخدِّرات متعافيًا ليعمل عملًا من أعمال الرحمة. لكنَّه اكتشف لاحقًا أنَّ هذا الرجل أقام علاقة غير شرعيَّة مع زوجته تحت سقفه، وقال تعليقًا على ذلك: "وكأنَّ الله يُعاقبني على محاولتي خدمة ذلك الإنسان". بعد أن قال هذه الجُملة، نفدت العُملات المعدنيَّة التي كانت معه، فصمت الهاتف العامُّ، ولم أسمع منه مرَّة أخرى.

لقد تعلَّمت ألَّا أحاول أن أقدِّم إجابة عن أسئلة "لماذا؟". لماذا صادف أن تحصل زوجة راعي الشباب على الزجاجة الوحيدة المُصابة بالفيروس؟ لماذا يضرب الإعصار إحدى القُرى في أوكلاهوما، ويعبر فوق قرية أخرى ولا يضربها؟ لماذا يُصاب طفل هذه المرأة بالذات في حادث التزلُّج في بوسطن؟ لماذا يُستجاب القليل فقط من ملايين الصلوات لطلب الشفاء الجسديّ؟

لكنَّ سؤالًا واحدًا لم يعد يؤرِّقني كما كان من قبل، سؤال: "هل الله يهتمُّ؟". أعرف طريقة واحدة للإجابة عن هذا السؤال، وقد ثبت لي أنَّ هذه الإجابة حاسمة: يسوع هو الإجابة. في يسوع، عرفنا وجه الله. إذا كُنتَ تتساءل عن شعور الله بشأن المعاناة على ظهر هذا الكوكب المتألِّم، انظر إلى وجه يسوع. بالتأكيد لم ينهِ يسوع معضلة الألم؛ فهو لم يشف إلَّا بشرًا قليلين جدًّا في ركنٍ قَصِيٍّ من الكرة الأرضيَّة- لكنَّه أجاب عن السؤال المُحيِّر: هل يهتمُّ الله؟

"هل أنا مُهمّ؟ هل يهتمُّ الله؟"، مجلَّة المسيحيَّة اليوم، ٢٢ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩٣م

١٤ نيسان/أپريل

الرهان

من الغريب أن نعتقد أنَّ إنسانًا واحدًا، هو أشبَهُ بنقطة صغيرة جدًّا فوق كوكب يكاد يكون تافهًا في الكون المترامي الأطراف، يمكن أن يُحدث فرقًا في حياة الكون؟ بالتأكيد هذا ما بدا عليه الأمر لأصدقاء أيُّوب. لكنَّ الأصحاحات الافتتاحيَّة والختاميَّة لسفر أيُّوب، تثبت أنَّ الله تأثَّر كثيرًا بردِّ فعل إنسانٍ واحد، حتَّى إنَّ الأمور الكونيَّة كانت على المَحَكّ. (في وقت لاحق، في رسالة للنبيِّ حزقيال، يُشير الله إلى أيُّوب بفخر– مع كلٍّ من دانيال ونوح– بصفته واحدًا من ثلاثة مفضَّلين لديه).

إنَّ المثال الذي يقدِّمه أيُّوب، والمرسوم بوضوح شديد، يكشف أنَّ الحياة على الأرض تؤثِّر في الكون. لقد أصبحت أومن بأنَّ مشهد الرهان الذي يأتي في الأصحاح الأوَّل من سفر أيُّوب (الذي يراهن فيه الشيطان أنَّه إذا صارت الأحوال سيِّئة عند أيُّوب، فسرعان ما سيهجر الله. ويقبل الله الرهان ويسمح بتجربة أيُّوب) يقدِّم رسالة من الرجاء العظيم لكلٍّ منَّا، لعلَّه الدرس الأقوى والأكثر استدامة الذي نتعلَّمه من هذا السفر. وفي النهاية، ينتهي الرهان بصورةٍ حاسمة، وهو أنَّ الله يهتمُّ بإيمان شخص واحد. يؤكِّد سفر أيُّوب أهمِّيَّة ردِّ فعلنا عند التجربة. إنَّ تاريخ البشريَّة– وفي واقع الأمر، تاريخ إيماني الشخصيِّ– مُتضمَّن في الدراما العظيمة لتاريخ الكون.

إنَّ الكتاب المقدَّس يمتلئ بإشارات أنَّ شيئًا شبيهًا بالرهان يحدث في حياة مؤمنين آخرين أيضًا. إنَّنا نحن البشر نُشكِّل النموذج الأوَّل، الذي يعرضه الله أمام العالم غير المنظور. يتخيَّل الرسول بولس نفسه في منصَّة عرض أمام جمهور عندما يكتب: "لأنَّنا صِرنَا مَنظَرًا للعَالَم، للملائِكة والناس". ويُعلِّق تعليقًا جانبيًّا مُدهشًا: "ألستُم تَعلَمون أنَّنا سنَدينُ مَلائِكةً؟".

نسكن، نحن البشر، كوكبًا كذرَّة رملٍ في الضواحي النائية من مجرَّة حلزونيَّة هي واحدة من مليار مجرَّة شبيهة، في القدر الذي نستطيع أن نراه حتَّى الآن من الكون. لكنَّ أسفار العهد الجديد تُصرُّ أنَّ ما يحدث هنا سوف يُحدِّد مستقبل هذا الكون. ويؤكِّد بولس أنَّ الخليقة كلَّها تقف على أطراف أصابعها متوقِّعة استعلان أبناء الله ومجيئهم إليه". الخليقة الماديَّة "تئنُّ" وتتمخَّض منتظرة أن تُعتَق من عبوديَّة الفساد، بواسطة التغيير الذي سوف يحدث للبشر.

من كتاب: عندما لا تمطر السماء

١٥ نيسان/أپريل

خارج الزمن

إنَّ إدراكنا لارتباطنا، الذي لا شفاء منه، بالزمن ربّما يساعدنا أن نفهم سبب عدم إجابة الله عن سؤال أيُّوب: "لماذا؟"، والإجابة بعرض بعض الحقائق الأساسيَّة عن الكون لا يكاد أيُّوب يفهمها، مصحوبة بالتحذير: "دَع الباقي لي". رُبَّما يتركنا الله جهلة بالكثير من الأمور لأنَّه لا أيُّوب ولا آينشتاين، ولا أنت ولا أنا، يمكنه أن يفهم المنظور "من أعلى".

لا نستطيع أن نفهم "القوانين" التي تنطبق على الله الذي يحيا خارج الزمن، على خلافنا نحن الذين في داخله. يستطيع الله أن يخطو داخله ويخرج. تخيَّل مثلًا التشويش الذي يكتنف كلمة مصطلح "المعرفة السابقة". هل كان الله يعلم مُسبَّقًا أنَّ أيُّوب سوف يظلُّ أمينًا مُخلِصًا له؟ من ثمَّ يكسب الله الرهان؟ إذا كان يعلَم، كيف يكون الرهان حقيقيًّا؟ وماذا عن الكوارث التي تحدث على الأرض؟ إذا كان الله يعلمها، ألا يكون هو المَلوم عندئذٍ؟

لكن- وربَّما تكون هذه الرسالة الأساسيَّة خلف حديث الله الحازم مع أيُّوب- لا نستطيع أن نطبِّق قواعدنا التبسيطيَّة هذه على الله. إنَّ مصطلح المعرفة السابقة نفسه يكشف المعضلة. فبصورةٍ ما، لا "يرانا الله مسبَّقًا" نفعل الأشياء قبل أن نفعلها، بل ببساطة يرانا نفعلها في حالة من الحاضر السرمديّ. وكلَّما حاولنا أن نكتشف دور الله في أيِّ حدث، رأينا بالضرورة الأمر "من أسفل"، وحكمنا على سلوك الله بمقاييسنا الهشَّة للأخلاقيَّات المرتبطة بالزمن. وربَّما يأتي يومٌ فيه نرى تساؤلاتنا التي من نوع "هل تسبَّب الله في تحطُّم هذه الطائرة؟" في ضوء جديد تمامًا.

يكشف جدل الكنيسة الطويل حول المعرفة السابقة والتعيين السابق عن محاولاتنا العاجزة أن نفهم ما يصبح ذا معنى لنا فقط عندما يدخل حيِّز الزمن. وفي بُعدٍ آخر، سوف نرى هذه الأمور بطريقة أخرى. يقول الكتاب المقدَّس إنَّ المسيح "اختير قبل الأزمنة الأزليَّة"، ويعني هذا قبل آدم وحوَّاء، وقبل السقوط، وأي قبل الحاجة إلى الفداء أصلًا. يقول هذا إنَّ النعمة والحياة الأبديَّة قد "أُعطِيَتَا في المسيح قبل الأزل". كيف يمكن أن يُقال عن شيء إنَّه "قبل بدء الزمن"؟ قبل خلق الزمن، دبَّر الله فداء كوكبٍ ساقط لم يوجد بعد!

لكنَّه عندما "خطا داخل" الزمن، كان على ابن الله أن يعيش، ويموت، بحسب قوانين هذا العالم المأسور في الزمن.

من كتاب: عندما لا تمطر السماء

١٦ نيسان/أپريل

دروس مأساويَّة

إلى التلاميذ في مدرسة "ڤيرجينيا التكنولوجيَّة" (Virginia Tech). المدرسة التي شهدت إطلاق نار أودى بحياة عشرات الأطفال:

كُنتُ أتمنَّى أنَّ أقول لكم إنَّ الألم الذي تشعرون به سوف يختفي، ويتبخَّر تمامًا، ولن يعود. لكنَّ الحقيقة هي أنَّ ما حدث في ١٦ نيسان/ أبريل ٢٠٠٧، سوف يظلُّ معكم إلى الأبد. لقد أصبحتم أشخاصًا مختلفين بسبب ما حدث في ذلك اليوم، وبسبب أفعال شخص مضطرب.

لا أستطيع إذًا أن أقول ما أريد أن أقوله، وهو إنَّ هذا سوف يمضي ويمرّ. على العكس، فإنَّني أُشير إلى الألم الذي تشعرون به، وسوف تستمرُّون تشعرون به، بوصفه علامة على الحياة والمحبَّة. إنَّني أرتدي مثبِّتًا للعُنق لأنَّني كسرت عنقي في حادث سيَّارة. وعندما استلقيتُ مربوطًا على لوحٍ خاصٍّ، لم يُعطوني أيَّ مُسكِّن للألم لأنَّهم؛ كانوا يحتاجون لأن يُتابعوا ردَّ فعل جسدي. وظلَّ الطبيب يختبر، ويُحرِّك أطرافي، ويسأل: "هل هذا يؤلم؟"، و"هل تشعر بهذا؟". لقد كانت الإجابة السليمة، والإجابة التي كُنتُ نتمنَّاها كِلانا هي: "نعم. هذا يؤلم! أستطيع أن أشعر بهذا"؛ فكلُّ شعور كان دليلًا على أنَّ نخاعي الشوكيَّ لم ينقطع. كان الألم دليلًا على الحياة، على الاتِّصال، وعلامة على اكتمال جسدي.

في الأسى، يقترب الحبُّ من الألم. لم يشعر الشابُّ تشو (Cho) بأيِّ حزن أو أسى عندما أطلق النار على زملائه لأنَّه لم يُحبَّهم. أمَّا أنتم، فتشعرون بالأسى لأنَّ لكم ذلك الاتِّصال، والذين ماتوا، كانوا منتمين إلى الكِيان الذي تنتمون إليه. وعندما يتألَّم هذا الكِيان، تتألَّمون معه. تذكَّروا ذلك بينما تتحمَّلون الألم. لا تحاولوا ببساطة تخدير ذلك الألم. اعترفوا به لأنَّه دليلٌ أنَّكم على قيد الحياة وتستقبلون الحياة والحُبّ.

إنَّ التحدِّي الذي أقدِّمه لكم هو أن تثقوا بالله الذي يستطيع أن يفتدي ما يبدو الآن غير قابل للافتداء. قبل إطلاق النار الذي حدث في هذه المدرسة بعشرة أيَّام، تذكَّر المسيحيُّون حول العالم يومًا قام فيه أشرارٌ على ابن الله وقتلوا الإنسان الوحيد البريء تمامًا الذي عاش على وجه الأرض. إنَّنا نتذكَّر ذلك اليوم ليس بوصفه الجمعة الحزينة، أو الجمعة المأساويَّة، أو الجمعة الكارثيَّة- بل الجمعة العظيمة. قاد هذا اليوم الفظيع إلى خلاص العالم، وأدَّى إلى القيامة.

"أين الله عندما نتألَّم: عظة قُدِّمت في مدرسة ڤيرجينيا، بعد أسبوعين

من إطلاق النار الذي حدث فيها"، مجلَّة المسيحيَّة اليوم، عدد حَزيران/ يونيو ٢٠٠٧م

١٧ نيسان/أبريل

الحفاظ على الإيمان

تكشف الفقرات القليلة الختاميَّة من الأصحاح العاشر من الرسالة إلى العبرانيِّين الكثير عن القرَّاء الأصليِّين لهذه الرسالة. لقد تسبَّب إيمانهم بالمسيح في إيذائهم، ومصادرة أملاكهم، وإهانتهم على الملأ، وربَّما حتَّى تَعَرُّضِهِم للسَّجن. في البداية قبلوا ذلك الاضطهاد برضا، بل ربَّما بفرح. لكن مع مرور الوقت، واستمرار التجارب، أصاب بعضًا منهم اليأس.

ولهؤلاء اليائسين، يقدِّم الأصحاح الحادي عشر من الرسالة تذكيرًا شديد اللهجة بماهيَّة "الإيمان الحقيقيّ". فمن السهل أن يُجرِّب الإنسان الظنَّ أنَّ الإيمان وصفة سحريَّة، إذا أجدتَها، فسوف تعيش غنيًّا، وبصحَّة جيِّدة، وتعيش حياة راضية، وتُستجاب كلُّ صلواتك. لكنَّ قُرَّاء الرسالة إلى العبرانيِّين يكتشفون أنَّ الحياة لا تسير وفق هذه المعادلات. والدليل على ذلك، يراجع الكاتب بصبر وجَلَد حياة بعضٍ من أبطال الإيمان في العهد القديم. (وقد سَمَّى بعض المفسِّرين هذا الأصحاح: قائمة الشرف لأبطال الإيمان).

يقول كاتب العبرانيِّين بوضوح أنَّه "بدون إيمان، لا يمكن إرضاء الله". لكنَّ الكاتب يستخدم كلمات مُحدَّدة لوصف ذلك الإيمان: "يصبر"، "يحتمل"، "لا ييأس". وبسبب هذا الإيمان، انتصر بعضٌ من هؤلاء الأبطال وهزموا جيوشًا، ونجوا من حدِّ السيف، وسدُّوا أفواه الأسود. لكنَّ آخرين لم يُصادِفوا نهاية سعيدة فجُلدوا، وطافوا في سلاسل، ورُجموا، ونُشروا إلى نصفين. ويُختتم الأصحاح بهذه العبارة: "فهؤُلاءِ كُلُّهُمْ، مَشهودًا لهُمْ بالإيمانِ، لَمْ يَنالوا المَوْعِدَ".

إنَّ صورة الإيمان كما تبدو من هذا الأصحاح لا تستقيم مع أيَّة معادلة مضمونة. في بعض الأحيان يؤدِّي الإيمان إلى الانتصار، وفي أحيان أخرى يتطلَّب جَلَدًا وعزيمةً لكي "نُثابر مهما كانت التكلفة". ولا يقدِّم الأصحاح الحادي عشر من الرسالة إلى العبرانيِّين نوعًا واحدًا من الإيمان بوصفه الأعلى فوق الباقين. يعتمد كِلا النوعين على الإيمان بأنَّ الله في النهاية هو صاحب السلطان وسوف يحفظ وعوده- سواء كان ذلك في هذه الحياة أم في الحياة الأخرى. عن هؤلاء يقول كاتب العبرانيِّين: "لذلكَ لا يَستَحي بهِمِ الله أنْ يُدعَى إلهَهُمْ، لأنَّهُ أعَدَّ لهُمْ مدينةً".

من كتاب: التَقِ الكتاب المقدَّس

١٨ نيسان/أبريل

أفضل

كثيرًا ما يسأل المتشكّكون: "هل تختلف الأديان كثيرًا؟ أوَلَيس أهمُّ شيء أن تكون مُخلصًا لما تؤمن به؟" لقد نوقِشَتْ مثل هذه الأسئلة "الحداثيَّة" على مدى آلاف السنين. كُتِبَتِ الرسالة إلى العبرانيِّين في ردِّ فعل على مجموعة من المجموعات في الكنيسة الأولى كانوا ممزَّقين بين الإيمان اليهوديِّ والإيمان الجديد بالمسيحيَّة.

كان بعضهم يفضلون التزام الروتين المعتاد في الديانة اليهوديَّة الذي تقف خلفه طقوس وتقاليد تمتدُّ لمئات السنين. كما أنَّ هناك أيضًا امتيازًا آخر، فقد كان اليهود في ذلك الوقت متمتِّعين بالحماية الرسميَّة للإمبراطوريَّة الرومانيَّة، بينما كان المسيحيُّون معرَّضين للاضطهاد. وكان السؤال، هل الإيمان بالمسيح يستحقُّ المخاطرة؟

تُصرُّ الرسالة إلى العبرانيِّين على أنَّ هناك أسبابًا حاسمة من أجلها يختار الإنسان المسيح. تدور كلُّ الرسالة حول كلمة أفضل. المسيح أفضل من الملائكة وموسى وطريقة العهد القديم كلِّها– أفضل من كلِّ ما يقدِّمه العالم.

رُغمَ ذلك، فإنَّ الكتاب (الذي لا يزال غير معروف) بعد أن يُسجِّل دَفقةً قويَّة من اللاهوت المبنيِّ على المزامير، يبدو كأنَّه يتوقَّف ليعيد التفكير ويكتب: "لكنَّنا لا نرى الكلَّ بعد مُخضعًا له." هل يمكننا أن نُطلق على عالم يتعرَّض فيه المسيحيُّون للتعذيب والإلقاء في السجون، أنَّه عالمٌ خاضعٌ للمسيح؟

ومن هذه النقطة، يشرح الكاتب أهمِّيَّة أن ينزل الله إلى العالم ويصبح إنسانًا. إنَّه لم يَمحُ كُلَّ المشكلات الإنسانيَّة بطريقة سحريَّة، بل عَرَّضَ نفسه للصعوبات نفسها التي يواجهها أيُّ إنسان. ويذهب كاتب العبرانيِّين إلى أبعد ممَّا يذهب أيُّ كاتب آخر في العهد الجديد في شرح طبيعة يسوع الإنسانيَّة.

في الأصحاح الثاني يقدِّم أسبابًا قويَّة لمجيء يسوع إلى الأرض. أوَّلًا، بموته، حرَّرنا من سُلطان الموت وانتزع لنا الحياة الأبديَّة. وثانيًا، باختباره للتجارب الإنسانيَّة، يمكنه أن يعين المجرَّبين أمثالنا. لا ملاك، ولا حتَّى الله بكونه بعيدًا في سماه، يمكنه أن يُحقِّق هذه الأمور. لقد جاء يسوع، في واقع الأمر، في مهمَّة إنقاذٍ لتحرير الإنسانيَّة من العبوديَّة. ودون المسيح، فإنَّنا نعيش في خوف مستمرٍّ من الموت وفي أسر دائم لفشلنا وخطايانا. فقط يسوع يمكنه أن يحرِّرنا. ولهذا فالإيمان به يستحقُّ المُخاطرة.

من كتاب: التَقِ الكتاب المقدَّس

١٩ نيسان/أپريل

حِمل أُمَّة كاملة

في رحلة إلى اليابان، وجدت نفسي في وقت متأخِّر من الليل في مكتب راعي أكبر كنيسة في طوكيو. لقد استغرقَتْ رحلة الطائرة المُتعِبة صباح ذلك اليوم بأكمله، وبعدها تحمَّلت يومًا مُرهِقًا من الاجتماعات. أردت فقط أن أذهب إلى غرفتي في الفندق وأنام، لكنَّ كرم الضيافة اليابانيَّة تطلَّب هذه الزيارة.

اجتذب الراعي رزمة من الأوراق، وبواسطة المترجم، قال لي إنَّه طوال حياته المهنيَّة، كان قلقًا بشأن هذا الأمر بالذات لكنَّه كان يخاف أن يتكلَّم عنه مع أيِّ إنسان.

وطوال العشرين دقيقة التالية، سكب الراعي دون توقُّف شعوره بالألم بشأن ٩٩٪ من اليابانيِّين الذين لم يقبلوا المسيح. هل سيحترقون جميعهم في النار بسبب جَهْلِهِم؟ لقد كان قد استمع إلى لاهوتيِّين يؤمنون بأنَّ لدى الناس فرصة ثانية بعد الموت، وذلك من تلك الفقرة الغامضة في بطرس الأولى عن أنَّ المسيح كرز للذين في الجحيم. وبعض اللاهوتيِّين الذين قرأ لهم، كانوا يؤمنون بالخلاص العامِّ مع أنَّ فقرات في الكتاب المقدَّس كانت تشير إلى خلاف ذلك. هل يمكن أن أقدِّم له أيَّ رجاء؟

فكَّرت معه بصوتٍ مسموع قائلًا إنَّ الله يجعل الشمس تُشرق على الجميع، صالحين وطالحين، ويريد أنَّ الجميع يخلُصون ولا يهلكون. وذكَّرته أنَّ ابن الله قضى آخر ما لديه من قوَّة للصلاة من أجل أعدائه. ثُمَّ ناقش الراعي معي نظرة سي. أس. لويس عن الجحيم في القصَّة الخياليَّة المثيرة التي قدَّمها في كتابه "**الطلاق العظيم**" *(The Great Divorce)*، التي تشير إلى أنَّ شخصًا مثل ناپليون كانت له فرصة ثانية بعد الموت، لكنَّه اختار أن يرفضها، وأنَّ الله يقول متردِّدًا لمن يرفضه رفضًا نهائيًّا "لتكن مشيئتك**!**".

في النهاية قُلت لصديقي: "ليست عندي إجابة لسؤالك، لكنَّني أومن بشدَّة بأنْ لا أحدَ يستطيع أن يقف أمام الله في النهاية ويقول له: «أنت ظالم!». ومهما كانت النهاية التي سوف يؤول إليها التاريخ، فسوف يؤول إلى جانب العدل المُصلَح بالرحمة".

ومثل أيُّوب، وصلتُ إلى هذه النتيجة لا بالملاحظة أو الجدل، بل بالاختبار الشخصيّ.

"سوف يستطيع الله أن يفهم شكوكي في عالم مثل هذا، أليس كذلك؟". كان هذا هو السؤال الذي سأله السجين الهولنديُّ إيتي هيلسم (Etty Hillesum) من معسكر التعذيب النازيّ. أومن بأنَّه بالتأكيد سوف يفهم؛ لأنَّ إعلان الله لنا يشتمل على تعبيرات غاية في البلاغة عن هذه الشكوك بالتحديد.

من كتاب: الصلاة: هل تُحدث أيَّ اختلاف؟

٢٠ نيسان/أپريل

صعقة مأساويَّة

"ياربُّ، إلى من نذهب؟" طرحَ الرسول بطرس هذا السؤال في لحظة من لحظات الحَيرة والارتباك. فالأمرُ لكثيرين، يحتاج إلى صعقة مأساويَّة لكي يُثارَ مثل هذا السؤال. لقد حدث هذا في لتل تاون في كولورادو، في مدرسة "كولومبين"(Columbine) الثانويَّة بالقرب من منزلي.

ما زال رجال الدين والآباء والأمَّهات وإداريُّو المدرسة وكلُّ مَن تأثَّروا بهذا الحادث يطرحون ذلك السؤال: "لماذا؟"، ولا توجد لدى أيٍّ منهم إجابة. إنَّ عُنصر الشرِّ يبدو ظاهرًا جدًّا في هذه المأساة بالذات- حيث أمطر مراهقون مملوؤون بالكراهية والعنصريَّة على زملائهم في قاعة الدرس بوابل من الرصاص من أسلحة أوتوماتيكيَّة- حتَّى إن أحدًا لم يستطع بصورة علانية أن يربط بين الله وهذا الحادث.

يجب أن تعيش في كولورادو لكي تُقدِّر الإجابة عن السؤال الآخر الذي تثيره هذه المأساة: هل يمكن أن يأتي أيُّ خيرٍ من مثل هذا الحادث المُرعب؟ هل يمكن افتداء حادثٍ مثل هذا؟ فيجب أن تزور حديقة كليمينت وتقرأ بنفسك التعليقات التي كتبها بخطِّ اليد أشخاصٌ من كلِّ أنحاء العالم. ويجب أن تحضر الكنائس التي امتلأت بالعابدين النائحين طوال الأيَّام والأسابيع التي تلت هذا الحادث. يجب أن تشاهد برنامج "ذا توداي شو" (The Today Show) حيث يضع كريغ سكوت (Craig Scott)، وهو أخو واحد من الضحايا، يده على كتف والد الصبيِّ الوحيد من الذين قُتلوا في الحادث من أصلٍ أفريقيٍّ ويعزِّيه، في الوقت الذي انهارت فيه كاتي كوريك (Katie Couric) على الهواء. يجب أن تستمع إلى أصدقاء كاسي بيرنال (Cassie Bernall) وهم يصِفون شجاعتها عندما وجَّه حامل السلاح سلاحه إلى رأسها وسألها: "هل تؤمنين بالله؟". فأجابت: "نعم، وأنت يجب أن تتَّبع طريق الله"، حتَّى كانت هذه آخر كلمات قالتها على الأرض. ويجب أن تستمع إلى صديقةِ ضحيَّة أخرى وهي تقول، ببراءة الرجاء، ورجاء البراءة: "إنَّ ما يعزِّيني هو معرفتي أنَّني سوف أراه مرَّة أخرى". يجب أن تحضر درس الفرقة الخامسة في المدرسة الحكوميَّة حيث جعلت المدرسة تلاميذها يسجدون على الأرض، ويُمسكون بأيادي بعضهم بعضًا، ويصلُّون بصوت مسموع. (في مثل هذا الوقت، حافظ اتِّحاد الحقوق المدنيَّة الأميركيُّ على نشاطٍ منخفض التأثير) في مدارس أخرى في دَنفر، اعتذر المدرِّسون لصفوفهم لأنَّهم لم يعترفوا أنَّهم مسيحيُّون، ودعوا التلاميذ إلى مقابلتهم بعد المدرسة لاستيعاب المأساة.

من الشرِّ، قد يخرج الخير.

عمود "الصفحة الخلفيَّة"، مجلَّة المسيحيَّة اليوم، ١٤ حَزِيران/ يونيو ١٩٩٩م

٢١ نيسان/أپريل

النهاية السعيدة

في "الحَبك الدراميِّ" للكتاب المقدَّس، نجد أنَّه ينتهي قريبًا من حيث بدأ. العلاقة المكسورة بين الله والبشر قد تُشفى في النهاية، واللعنة التي في تكوين ٣ قد تُرفع. فيُصَوِّر سفر الرؤيا نهرًا عظيمًا وشجرة الحياة على ضفافه مُستعيرًا صُورًا من جَنَّة عدن. لكن في هذه المرَّة تُستبدل بالجَنَّة مدينة عظيمة تعجُّ بالعابدين لله. لا موت ولا حُزن ولا ظلام في هذا المشهد.

يرى البشير يوحنَّا السماء بصفتها تتميمًا لكلِّ حلم يهوديّ: أورشليم تُستَرَدّ، وأسوار من اليَشب وشوارع من الذهب المتألِّق. من جهة شخص آخر- مثلًا، لاجئ يعيش في البلاد النامية- رُبَّما تمثِّل السماء لَمَّ شمل الأُسرة، وبيتًا يتوافر فيه الطعامُ وماءٌ نقيٌّ للشُّرب. فتُمثِّل السماء التحقيق لكلِّ شوق حقيقيٍّ عاشه الإنسان.

كما يَعِدُ سفرُ الرؤيا بأنَّ أشواقنا ليست مجرَّد خيالات، وسوف تتحقَّق. عندما نصحو في السماء الجديدة والأرض الجديدة، سوف نحصل أخيرًا على كلِّ ما تمنَّيناه. بصورةٍ ما، سوف تخرج من بين كلِّ الأخبار السيِّئة التي في سفر الرؤيا، أخبارٌ مُفرحة- بل أخبار مُذهلة في فرحها. وَعَد بالصلاح والاكتمال دون أيِّ عوائق أو شروط مخفيَّة. سوف تكون هناك نهاية سعيدة بعد كلِّ هذا الألم.

في الكتاب المقدَّس، ليست السماء مجرَّد فكرة تخطر على البال، أو اعتقاد اختياريّ. ولا يُقلِّل الكتاب المقدَّس بتاتًا من المأساة والإحباط البشريَّين- هل يوجد كتاب أمين مثله- أمين لدرجة الألم؟ لكنَّه يؤكِّد كلمة محوريَّة غاية في الأهمِّيَّة: أنَّ كلَّ هذا الألم مؤقَّت. ما نشعر به الآن، لن نشعر به دائمًا. إنَّ وقت تجديد الخليقة سوف يأتي.

وللذين يشعرون بأنَّهم عالقون في الألم أو في أُسرة مفكَّكة، أو في بؤس اقتصاديّ أو خوف- لكلِّ هؤلاء، ولكلِّ واحد منَّا، تَعِدُ السماءُ بوقت، أطول كثيرًا من كلِّ ما قضيناه على الأرض، من الصحَّة والاكتمال والسعادة والسلام. يبدأ الكتاب المقدَّس بهذا الوعد في سفر التكوين. وينتهي بهذا الوعد نفسه، ضمانًا لحقيقة مُستقبليَّة. سوف تكون النهاية بداية جديدة تمامًا.

من كتاب: التَقِ الكتاب المقدَّس

قمر جديد في الكون الأخلاقيّ

باستخدام التوراة لتكونَ نقطة بداية، دفع يسوع الشريعة في الاتِّجاه نفسه، ولكن أبعد ممَّا كان يجرؤ الفرِّيسيُّون أن يدفعوها، وأبعد ممَّا كان يجرؤ أيُّ راهب أن يعيش. لقد قدَّمت الموعظة على الجبل قدَّمت قمرًا جديدًا في الكون الأخلاقيِّ، ظلَّ يؤثِّر بقوَّته وجاذبيَّته منذ ذلك الحين.

لقد جعل يسوع من الشريعة مستحيلة التطبيق من الجميع، ثُمَّ حَمَّلَنا مسؤوليَّة تطبيقها. فمثلًا، كان لكلِّ مجتمع بشريٍّ في التاريخ قانون يمنع القتل، لكن لم يخرج أيُّ مجتمع بشيء يشبه هذا التعريف المُوَسَّع الذي قدَّمه يسوع للقتل عندما قال: "إنَّ كُلَّ مَنْ يَغضَبُ علَى أخيهِ باطِلًا يكونُ مُستَوْجِبَ الحُكمِ، ومَنْ قالَ لأخيهِ...يا أحمَقُ، يكونُ مُستَوْجِبَ نارِ جَهَنَّمَ".

كلُّ مجتمع لديه أيضًا نظرة دونيَّة نحو الانحلال الجنسيّ. لكن لم يفترض أيُّ مجتمع قانونًا بمثل هذا التشدُّد الذي قدَّمه يسوع: "وأمَّا أنا فأقولُ لكمْ: إنَّ كُلَّ مَنْ يَنظُرُ إلَى امرأةٍ ليَشتَهيها، فقد زَنَى بها في قَلبِهِ. فإنْ كانتْ عَينُكَ اليُمنَى تُعثِرُكَ فاقلَعها وألقِها عنكَ، لأنَّهُ خَيرٌ لكَ أنْ يَهلِكَ أحَدُ أعضائكَ ولا يُلقَى جَسَدُكَ كُلُّهُ في جَهَنَّمَ".

لقد استمعت إلى دعاوى عدَّة تُنادي بإخصاء مَن يرتكبون جرائم الاغتصاب المتكرِّرة، لكنَّني لم أسمع من قبل دعاوى تشويه الوجوه وقلع العيون عقابًا للشهوة الجنسيَّة. في واقع الأمر، فإنَّ الشهوة الجنسيَّة في أميركا هي نوع من الترفيه المُتأصِّل في المُجتمع، ويُحتفى به في الإعلانات التجاريَّة لسراويل الجينز والبيرة، والعدد السنويِّ من مجلَّة الرياضة المُصَوَّرة الذي يَعرِض الطرازات المختلفة للباس البحر النسائيّ، وفي العشرين مليون نُسخة من المجلَّات الجنسيَّة الإباحية التي تُباع شهريًّا. كَتَبَ جون أپدايك (John Updike): "كم يكون وقعه غريبًا على الأذن المعاصرة، أنَّ الشهوة الجنسيَّة التي تفور فينا لا شعوريًّا مثلما يتجمَّع اللعاب في الأفواه، هي شرِّيرة في ذاتها!".

عندما أتأمَّل هذه الوصايا وغيرها من الوصايا الشديدة في الموعظة على الجبل، أسال نفسي عن كيفيَّة التجاوب. هل يتوقَّع يسوع منِّي فعلًا أن أعطي كلَّ مَن يسألني؟ هل يجب أن أتخلَّى عن حقوق المُلكيَّة؟ هل عليَّ أن ألغي بوالص التأمين التي عملتها؟ هل ألقي بالتلفاز خارجًا لئلَّا أتعرَّض لتجارب الشهوة الجنسيَّة؟ كيف يمكنني أن أنقل هذه القيم المثاليَّة الأخلاقيَّة إلى حيِّز التطبيق اليوميّ؟

من كتاب: يسوع الذي لم أكن أعرفه

٢٣ نيسان/أپريل

شُعلة من القيم المثاليَّة

تعلَّمت من الروائيِّ الروسيِّ ليو تولستوي (Leo Tolestoy) احترامًا عميقًا للقِيم الإلهيَّة المُطلقة غير القابلة للتنازُل عنها. لقد انجذب تولستوي نحو المبادئ والقيم الأخلاقيَّة التي صادفها في الأناجيل كما تنجذب الفراشة نحو شُعلة النار، رغم أنَّ فشله أن يعيشها في واقع حياته قد استنفده تمامًا. لقد جاهد تولستوي أن يعيش الموعظة على الجبل حرفيًّا، حتَّى إنَّ تشدُّده في هذا الأمر جعل أسرته تشعر بأنَّها ضحيَّة لبحثه عن القداسة. مثلًا، بعد أن قرأ تولستوي عن أمر المسيح للشابِّ الغنيِّ أن يتخلَّى عن كلِّ شيء، قرَّر أن يُحرِّر عبيد أرضه، ويتخلَّى عن حقوق النشر الخاصَّة بأعماله الأدبيَّة، وأملاكه وأراضيه مترامية الأطراف. ثُمَّ ارتدى ملابس شبيهة بملابس الفلَّاحين، وصنع حذاءه بنفسه، وبدأ يعمل في الحقل مع العمَّال. وعندما رأت زوجته أنَّ أمان الأسرة المادِّيَّ يتبدَّد أمام عينيها، اعترضت بشدَّة، حتَّى بدأ يقدِّم بعض التنازلات.

وعندما أقرأ يوميَّات تولستوي، أستطيع أن أرى لقطات من ماضيَّ الشخصيِّ الباحث عن الكمال. تُسجِّل اليوميَّات صراعاتٍ عدَّة بين تولستوي وأسرته، لكن أكثر الصراعات كانت بين تولستوي ونفسه. في محاولة للوصول إلى الكمال، ظلَّ تولستوي يضع لنفسه قوائم جديدة من القواعد والقوانين. توقَّف عن الصيد، والتدخين، وشُرب الخمر، وأكل اللحم. وكتب مسودَّة بعنوان: "قواعد لتنمية الإرادة الوجدانيَّة. قواعد لتمنية المشاعر السامية والتخلُّص من المشاعر الوضيعة". لكنَّه لم يستطع بتاتًا أن يصل إلى الانضباط الشخصيِّ الضروريِّ للتقيُّد بهذه القواعد. وأكثر من مرَّة، اتَّخذ تولستوي عهدًا علنيًّا بالعفَّة، وطلب غرف نوم منفصلة. لكنَّه لم يستطع بتاتًا الحفاظ على عهوده لوقت طويل، ومن دواعي خزيه، حملت زوجته ستَّ عشرة مرَّة معلنة عن عجزه الحفاظ على القواعد التي فرضها على نفسه.

في بعض الأحيان، استطاع تولستوي تحقيق صلاح عظيم. فمثلًا، بعد فترة توقُّفٍ طويلة كَتَبَ روايته الأخيرة "**القيامة**" *(Resurrection)*، في عامه الحادي والسبعين، وكانت لمساندة مجموعة تُسمَّى "الدوخوبور" (Doukhobors)، وهي من الأناباپتست (Anabaptist)، كانت هذه المجموعة تتعرَّض للاضطهاد من جانب الحاكِم- فتبرَّع بكلِّ عوائد هذه الرواية لمساعدتهم على الهجرة إلى كندا. كما أنَّه كانت لفلسفة السِّلم التي كان يتبنَّاها، والتي استنبطها مباشرة من الموعظة على الجبل، تأثير ممتدٌّ بعد وفاته في أشخاص يُعدُّون أحفاده في الفِكر، مثال غاندي ومارتن لوثر كنغ الابن.

(يتبع في التأمُّل التالي)

من كتاب: يسوع الذي لم أكن أعرفه

٢٤ نيسان/أپريل

حياة غير سعيدة

(يتبع من التأمُّل السابق)

على كافَّة المقاييس، باء تَطَلُّع تولستوي إلى القداسة بالفشل. باختصار، فشل في تطبيق ما كان يعظ به. وقد عبَّرت زوجته عن ذلك بصورةٍ جيِّدة (في رواية تُظهر تحزُّبها):

"يوجد القليل من الدفء الحقيقيِّ فيه؛ إذ لا تأتي طيبته من قلبه، ولكن فقط من مبادئه. سوف تُخبركم يوميَّاته أنَّه كان يساعد العُمال في حمل دِلاء المياه، لكن لم يعرف أحدٌ أنَّه لم يُعط زوجته أيَّة راحة- في كلِّ هذه السنوات الاثنتين والثلاثين- لم يُعطِ طفله شربَة ماء ولا أمضى خمس دقائق بجانب فراشه في مرضه، ولم يُعطني فرصة أن أستريح قليلًا من عملي المضني".

إنَّ سعي تولستوي المحموم نحو الكمال لم يؤدِّ بتاتًا إلى أيِّ سلام أو سكينة. وحتَّى وقت وفاته، ظلَّت يوميَّاته تدور وتعود إلى نغمة الفشل نفسها، لتكشف عن الهوَّة الواسعة بين القيم العُليا للإنجيل وواقع حياته الفعليّ.

كان ليو تولستوي عمومًا إنسانًا غير سعيد. اعترض بشدَّة على الكنيسة الأرثوذكسيَّة الروسيَّة في عصره حتَّى حُرِم من شركتها. كما فشلت كلَّ خُططه للتطوير الذاتيِّ. في بعض الأوقات، كان يضطرُّ إلى إخفاء الحبال من أرضه، والمسدَّسات من بيته لكي يقاوم ميله إلى الانتحار.

وفي النهاية، هرب تولستوي من شهرته وأُسرته وأرضه وهويَّته، ومات متشرِّدًا في محطَّة قطار ريفيَّة نائية.

وبالنظر إلى أمثلة الفشل هذه، ماذا يمكنُني أن أتعلَّم من الحياة المأساويَّة لليو تولستوي؟ لقد قرأت الكثير من كتاباته الدينيَّة، ودائمًا ما يُلهمني احترامه الشديد لقيم الله المُطلقة. يذكِّرنا تولستوي، على خلاف هؤلاء الذين يقولون إنَّ الإنجيل يحلُّ مشكلاتنا، في العديد من المجالات- مثل قضايا العدالة والمال والعِرق والمشكلات الشخصيَّة مثل الكبرياء والطموح- أنَّ الإنجيل يُضيف إلى أحمالنا. لقد اتَّخذ تولستوي سؤال المسيح بجِدِّيَّة شديدة: "ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كلَّه وخسر نفسه؟".

الإنسان المستعدُّ أن يُحرِّر عبيد أرضه ويوزِّع ممتلكاته في طاعة بسيطة لأمر المسيح ليس إنسانًا يسهلُ تجاهله. ليت تولستوي استطاع أن يعيش قيمه المثاليَّة! ليتني أستطيع أنا!

(يتبع في التأمُّل التالي)

من كتاب: بالكاد نجوت

٢٥ نيسان/أبريل

الترَنُّح في الطريق

(يتبع من التأمُّل السابق)

ردَّ تولستوي على مُنتقديه قائلًا: "لا تحكموا على قِيَم الله المقدَّسة بسبب فشلي في تطبيقها. لا تحكموا على المسيح بسببنا نحن غير الكاملين الذين نحمل اسمه". وتكشف فقرة واحدة مأخوذة من رسالةٍ شخصيَّةٍ لتولستوي، عن تجاوبه مع مثل هؤلاء المُنتقدين بالقرب من نهاية حياته. وتمثِّل هذه الفقرة مُلَخَّصًا لمسيرته الروحيَّة، والتي كانت في وقت من الأوقات تأكيدًا واضحًا للحقِّ الذي آمن به بكلِّ قلبه، وصرخة مدوِّية طلبًا للنعمة التي لم يدركها بالتمام.

"وماذا عنك، يا ليف نيكولايفيتش (Lev Nikolayevich)؟ إنَّك تعظ جيِّدًا، لكنْ هل تعيش ما تعظ به؟ إنَّ هذا هو السؤال الأكثر طبعيَّة بين الأسئلة، والسؤال الذي يوجَّهُ إليَّ دائمًا، وعادة ما يُوَجَّه بنغمة انتصاريَّة، كما لو كانت طريقة لإسكاتي: «أنت تعظ، لكن كيف تعيش؟». ويكون جوابي هو أنَّني لا أعظ، وأنَّني عاجزٌ عن ذلك، لكنَّني بكلِّ شغف أودُّ ذلك. إنَّني أستطيع أن أعظ فقط بواسطة أفعالي، وأفعالي شرِّيرة...وأجيب بأنَّني مذنب وشرِّير ومستحقٌّ للاحتقار بسبب فشلي في عَيش قيمي ومبادئي...

هاجِموني، فأنا نفسي أفعل ذلك، لكن هاجموني أنا وليس الطريق الذي أتَّبعه والذي أُشير إليه لكلِّ من يسألني «أين هو؟». إذا كُنتُ أعرف الطريق إلى البيت وأسير نحوه بخطوات مترنِّحة، هل تَرَنُّحي هذا يغيِّر من حقيقة أنَّه الطريق الصحيح للبيت؟ إذا لم يكن هذا هو الطريق الصحيح، دلُّوني إذًا على طريقٍ آخر؛ لكنَّني إذا ترنَّحت مُبتَعِدًا عن الطريق، فيجب أن تساعدوني، وتعيدوني إلى الطريق الحقيقيِّ، وأنا أيضًا مستعدٌّ لمساندتكم. لا تُضلُّوني، لا تفرحوا بتيهاني، ولا تهتفوا بفرح: «انظروا إليه! لقد قال إنَّه ذاهب إلى بيته، لكن ها هو يزحف نحو بركة من الطين!». لا تفرحوا بانتصاركم عليَّ، بل ساعدوني وساندوني".

(يتبع في التأمُّل التالي)

من كتاب: بالكاد نجوت. اقتباس من كتاب إيه. أن. ويلسون بعنوان "الأسد وخليَّة النحل: الكتابات الدينيَّة لتولستوي"

الحقُّ دون نعمة

(يتبع من التأمُّل السابق)

أشعر بالحزن عندما أقرأ كتابات تولستوي الدينيَّة. إنَّ رؤيته الثاقبة للقلب البشريِّ جعلته روائيًّا عظيمًا، لكنَّها جعلته أيضًا مسيحيًّا مُعَذَّبًا. فهو مثل سمكة سالمون تسبح ضدَّ التيَّار لتضع بيضها؛ فكان يصارع طَوال حياته، وفي النهاية انهار من الإنهاك الأخلاقيّ.

لكنِّي أشعرُ في الوقت نفسه بالعرفان لتولستوي من أجل سعيه الذي لا يتوقَّف نحو الإيمان الحقيقيِّ والذي أثَّر فيَّ تأثيرًا لا يُمحى. في البداية صادفت رواياته في مرحلة من عمري كُنتُ فيها أعاني الآثار المتأخِّرة من ظاهرة "الإيذاء الكَنَسيّ"؛ فالكنائس التي ترعرعت فيها احتوت على الكثير من المزيَّفين، أو على الأقلّ، هكذا كُنتُ أراها في صَلَف شبابي. وعندما لاحظت التبايُن بين القِيَم المثاليَّة للإنجيل والعيوب الفاضحة في من يتبعون هذا الإنجيل، جُرِّبتُ بشدَّة أن أتخلَّى عن هذه المبادئ، وكأنَّها غير قابلة للتطبيق.

ثُمَّ اكتشفت تولستوي. وكان عندي الكاتب الأوَّل الذي حقَّق الهدف الأصعب، وهو أن يجعل الصلاح مُمكن التصديق وجذَّابًا مثل جاذبيَّة الشرّ. لقد وجدت في رواياته وحكاياته الرمزيَّة وقصصه القصيرة مصدرًا للقوَّة الروحيَّة.

ومن ملاحظات إيه. أن. ويلسن (A. N. Wilson) في كتاب سيرة تولستوي أنَّ "حياته الدينيَّة كانت تعبيرًا عن الشريعة أكثر من النعمة، إذ كانت برنامجًا من تحسين الذات، أكثر من كونها رؤية لاختراق الله لعالم ساقط". لقد كان تولستوي يستطيع أن يرى نقائصه بوضوح شديد في ضوء كمالات الله. لكنَّه لم يستطع أن يأخذ الخطوة التالية: أن يثق بأن تتغلَّب نعمة الله على نقائصه.

وبعد قراءة تولستوي بوقت قصير، اكتشفتُ ابن بلده فيودور دستويفسكي. عاش هذان الاثنان، وهما الأشهر بين الكُتَّاب الروس، وعملا في الفترَة الزمنيَّة نفسها تقريبًا. ورُغمَ من أنَّهما قرأا أعمال بعضهما بعضًا بإعجاب، فإنَّهما لم يلتقيا قَطّ، وربَّما أيضًا كانا مختلفين على طرفَي نقيض. ففي حين كان تولستوي يكتب روايات مشرقة مُشمسة، كان دستويفسكي يكتب روايات عميقة تأمُّليَّة. وفي حين كان تولستوي يحاول مع برامج النُّسك الروحيِّ وتطوير الذات، كان دستويفسكي من آن إلى آخر يدخل في نوبات تبديد لصحَّته وماله في شرب الخمر والمقامرة.

لقد أخطأ دستويفسكي أخطاءً كثيرة في حياته، لكنَّه أنجز إنجازات هائلة في الأدب. كانت رواياته توصِلُ رؤية للنعمة والغفران، وهما قلب الإنجيل المسيحيِّ، مع زخم تولستوي.

(يتبع في التأمُّل التالي)

من كتاب: بالكاد نجوت

فرصة ثانية

(يتبع من التأمُّل السابق)

في وقت مبكِّر من حياة دويستويفسكي، اختبر قيامة من نوعٍ ما؛ إذ أُلقي القبض عليه لانتمائه إلى مجموعة عُدَّت خائنة للقيصر نيكولاس الأوَّل الذي حكم عليهم بالإعدام، ورتَّب لإجراء إعدام ساخِر لكي يؤكِّد في وعي هذا الشباب الثوريِّ خطورة ما اقترفوه من خطأ. فوقفت فرقة إطلاق النار في وضع الاستعداد، ووقف الشباب مكشوفي الرأس، ومرتدين أكفانًا بيضاء وأياديهم مربوطة بالحبال خلف ظهورهم، واقتيدوا في موكب مَهيب فوق الأرض المغطَّاة بالجليد أمام الجماهير المحملقة في بلاهة. وفي اللحظة الأخيرة، عندما جاء الأمر: "استعد، صَوِّب!"، وعُبِّئت البنادق ورُفعت، جاء فارسٌ راكضًا بحصانه حاملًا رسالة من القيصر تُفيد بأنَّ القيصر خَفَّفَ من عقوبتهم من الإعدام إلى الأشغال الشاقَّة.

لم يتعافَ دستويفسكي بتاتًا من آثار هذه الخبرة. لقد اختبر الوقوع بين براثن الموت فعلًا، وشعر بما يشعر به المُقبل على الموت، ومنذ تلك اللحظة أصبحت الحياة غالية عنده فوق أيِّ تقدير. وقتها قال: "الآن ستتغيَّر حياتي، سأولد مرَّة ثانية في هيئةٍ جديد". وحينما كان يستعدُّ لاستقلال القطار الذي سيُقلُّ المحكوم عليهم إلى سيبيريا، قدَّمت له امرأة تقيَّة نسخة من العهد الجديد، الكتاب الوحيد المسموح به في السجن. وحيث إنَّه كان يؤمن بأنَّ الله قد أعطاه فرصة ثانية لإتمام دعوته، انكبَّ على دراسة العهد الجديد في أثناء فترة سجنه. وبعد عشر سنوات، خرج من المنفى بقناعات مسيحيَّة لا تتزعزع، بحسب ما عبَّر في خطاب للمرأة التي أعطته نسخة العهد الجديد قائلًا: "إذا استطاع أحدهم أن يُثبت لي أنَّ المسيح خارج الحقيقة، فإنَّني أُفضِّل أن أظلَّ مع المسيح، على أن أكون في الحقيقة".

لقد كان السجن فرصة أخرى لدويستويفسكي، بَدَت في البداية لعنة، لكنَّها أرغمته أن يعيش بالقرب من اللصوص والقتلة والفلَّاحين السكِّيرين. لقد تسبَّبت الحياة المشتركة التي عاشها مع هؤلاء في إثراء الشخصيَّات التي رسمها في رواياته، مثل شخصيَّة القاتل راسكولنيكوف في "**الجريمة والعقاب**" *(Crime and Punishment)*. لقد كان تصوُّر دستويفسكي الليبراليُّ عن الصلاح البشريِّ الأصيل لا يفسِّر الشرَّ المحض الذي وجده في زملائه المساجين، وكان عليه أن يقوم يعدِّلَ لاهوته ليوافق هذا الواقع. وبمرور الوقت، استطاع أيضًا أن يرى لمحة من الله، حتَّى في أسوأ المساجين. واستطاع أن يؤمن بأنَّ الإنسان يستطيع أن يُحِبَّ فقط إذا حصل على الحُبّ.

(يتبع في التأمُّل التالي)

من كتاب: بالكاد نجوت

٢٨ نيسان/أپريل

مرشِدَينِ روحيَّين

(يتبع من التأمُّل السابق)

لقد تقابلتُ مع النعمة في روايات دستويڤسكي. ورغم أنَّ رواية "**الجريمة والعقاب**" تُصوِّر إنسانًا خسيسًا ارتكب جريمة خسيسة، فإنَّنا نَرى بَلسَم النعمة المُلطِّف يدخل حياة راسكولنيكوڤ بواسطة عاهرة اسمها سونيا، قبِلت الإيمان بالمسيح وتبعته من سيبيريا وقادته إلى الفداء. في رواية "**الأبله**" *(The Idiot)*، يقدِّم دستويڤسكي شخصيَّة مسيانيَّة في صورة أمير مُصاب بالصَّرع. بهدوءٍ وغُموض، يتحرَّك الأمير ميشكين (Myshkin) بين دوائر الطبقة العُليا الروسيَّة، كاشفًا ما فيها من نفاق، وفي الوقت نفسه مُنيرًا حياتهم باللُّطف والصلاح والحقّ.

وفي "**الإخوة كرامازوڤ**" *(The Brothers Karamazov)*، وهي واحدة من أعظم الروايات التي كُتبت يومًا، يرسم دستويڤسكي مقابلة بين إيڤان (Ivan)، وهو لا أدريٌّ عبقريٌّ، وأخيه التقيِّ أليوشا (Alyosha)، فيها يستطيع إيڤان أن ينتقد فشل الجنس البشريِّ وكلِّ نظام سياسيٍّ صُمِّم لمواجهة الأشكال المختلفة لذلك الفشل دون أن يقدِّم حلًّا. وليست لدى أليوشا أيضًا حلولٌ للمشكلات الفِكريَّة التي يثيرها إيڤان، لكنَّ لديه الحلَّ للبشريَّة: الحُبّ. ويقول أليوشا: "لا أعرف حلَّ مشكلة الشرّ، لكنَّني أعرف المحبَّة".

واليوم، ليست لدى أعدُّ هذين الروسيَّيْن مرشديَّ الروحيَّين. من تولستوي تعلَّمت الحاجة إلى النظر نحو الداخل، إلى قِيَم الله التي في داخلي. وتعلَّمتُ حقيقة أنَّني بعيد بصورةٍ بائسة عن المقاييس العُليا للإنجيل. لكن من دستويڤسكي، أتعلَّم المدى الكامل للنعمة الإلهيَّة. ليس فقط أنَّ قِيَم الله في داخلي، لكنَّ الله نفسه يسكن فيَّ. فحيث كَثُرَت الخطيَّة، ازدادت النعمة جدًّا- هكذا وصف الرسول بولس الأمر في رسالته إلى أهل رومية.

توجد طريقة واحدة لأيِّ واحد منَّا لكي يُنهيَ التوتُّر الناشئ بين القِيم المثاليَّة العُليا للإنجيل والواقع المُحبط لحياتنا البشريَّة: وهو أن نقبل حقيقة أنَّنا لن نكون بتاتًا على المستوى المطلوب، لكنَّنا غير مضطرِّين إلى ذلك. لقد وصل تولستوي إلى منتصف الطريق: أيُّ شيء يُشعرني بأنَّني مستريح تجاه قِيَم الله الأخلاقيَّة- أيُّ شيءٍ يُشعرني بأنَّني "وصلت أخيرًا" هو نوع قاسٍ من خداع النفس. ودستويڤسكي وصل إلى النصف الآخر الصحيح: أيُّ شيء يشعرني بالضيق تجاه محبَّة الله وغفرانه، هو أيضًا خداع قاسٍ. أمَّا الرسول بولس، فيؤكِّد أنَّه "لا شيء من الدينونة الآن على الذين هُم في المسيح يسوع".

من كتاب: بالكاد نجوت

٢٩ نيسان/أپريل

النعمة للجميع

القِيَم الأخلاقيَّة المُطلقة والنعمة المُطلقة: بعد تَعلُّم تلك الرسالة المزدوجة من الروائيَّين الروسيَّين، عُدت إلى يسوع ووجدت أنَّ هذا ما علَّمه في العهد الجديد، وتحديدًا في الموعظة على الجبل. وفي تجاوب يسوع مع الشابِّ الغنيِّ، وفي مثل السامريِّ الصالح، وفي تعليقاته عن الطلاق والمال وأيَّة قضيَّة أخلاقيَّة أخرى، لم يُقلِّل يسوع بتاتًا من المقاييس الإلهيَّة. وكما يقول: "فكونوا أنتُمْ كاملينَ كما أنَّ أباكُمُ الّذي في السماواتِ هو كامِلٌ"، و"تُحِبُّ الرَّبَّ إلهَكَ مِنْ كُلِّ قَلبِكَ، ومِنْ كلِّ نَفسِكَ، ومِنْ كُلِّ فِكرِكَ". ولم يستطع تولستوي، ولا فرنسيس الأسيزيُّ، ولا أيُّ إنسان أن يحفظ هذه الوصايا بالتمام.

لكنَّ يسوع نفسه، يقدِّم النعمة المُطلقة. لقد غَفَر للَّتي أُمسكت بالزنى، واللصِّ على الصليب، والتلميذ الذي أنكر أنَّه يعرفه. واستخدم ذلك التلميذ الخائن لتأسيس كنيسته. وفي تطوُّر تالٍ استخدم رجلًا اسمه شاول تميَّز باضطهاده للمسيحيِّين. النعمة مُطلقة وثابتة وشاملة. وهي تَمتَدُّ حَتَّى لِمَن سَمَّروا يسوع على الصليب. مِن الكلمات الأخيرة التي تكلَّم بها يسوع على الأرض هذه الكلمات: "يا أبَتاهُ، اغفِرْ لهُمْ، لأنَّهُمْ لا يَعلَمونَ ماذا يَفعَلونَ".

كنت أشعر طَوال سنوات بعدم الاستحقاق الشديد أمام القِيَم العُليا والمُطلقة التي تقدِّمها الموعظة على الجبل، حتَّى إنَّني لم أنتبه فيها إلى أيَّة إشارة عن النعمة. لكنَّ ما إن فهمت الرسالة المزدوجة، عُدت ووجدت أنَّ رسالة النعمة تَبرُز في الكلام كلِّه؛ إذ تبدأ الموعظة بالتطويبات- طوبى للمساكين بالروح، والحزانى، والودعاء. طوبى لليائسين الذين فقدوا كلَّ رجاء آخر- وتتحرَّك نحو الصلاة الربَّانيَّة: "اغفر لنا ذنوبنا...نجِّنا من الشرير". بدأ يسوع عظته بكلمات لطيفة لمن هم في احتياج، واستمرَّ نحو الصلاة التي تشكِّل نموذجًا لكلِّ برامج الخطوات الاثنتي عشرة.

"كلُّ يومٍ بيومه"؛ هكذا يقول مدمنو الخمر المتعافين في زمالة المدمنين المجهولين. أمَّا المسيحيُّون فيُصلُّون قائلين: "خبزنا كفافنا أعطنا اليوم". النعمة لليائسين والمحتاجين والمكسورين، والذين لا يقدرون على الحياة بمفردهم. النعمة للجميع.

من كتاب: يسوع الذي لم أكن أعرفه

٣٠ نيسان/أپريل

شبكة الأمان

كُنتُ أعدُّ طوال سنوات الموعظة على الجبل مسوَّدة للسلوك البشريِّ- نموذجًا لا يمكن أن يعيشه أيُّ إنسان. لكنَّني عندما قرأتها مرَّة أخرى، وجدت أنَّ يسوع أعطانا هذه الكلمات ليس لتعجيزنا، بل لكي يُخبرنا عن طبيعة شخصيَّة الله.

لماذا علينا أن نحبَّ أعداءنا؟ لأنَّ أبانا السماويَّ يُشرق بشمسه على الأبرار والأشرار. لماذا يجب أن نكون كاملين؟ لأنَّ أبانا الذي في السموات كامل. لماذا يجب أن نكنز كنوزًا في السموات؟ لأنَّ الله هناك وسوف يكافئنا بسخاء. لماذا يجب أن نعيش بلا خوف أو همٍّ؟ لأنَّ الله الذي يكسو الزنابق وعشب الحقل وعد أن يهتمَّ بنا. لماذا نُصلِّي؟ لأنَّه إن كان الآباء الأرضيُّون يعطون أولادهم خبزًا أو سمكًا، فكم بالحريِّ أبانا الذي في السموات يعطي خيرات لمن يسألونه؟

كيف فاتني ذلك؟ لم يُعلن يسوع مبادئ الموعظة على الجبل لكي نفعل مثلما فعل تولستوي، ونُقَطِّب جبيننا في حزن على فشلنا وتقصيرنا، ونُصمِّم أن نصل إلى الكمال. لقد أعطانا إيَّاها لكي يقدِّم لنا القياس الإلهيَّ الكامل الذي يجب ألَّا نتوقَّف عن محاولة الوصول إليه، ونُدرك في الوقت نفسه أنَّ أحدًا لن يستطيع الوصول إليه. إنَّ الموعظة على الجبل تُجبرنا أن نُدرك الهُوَّة التي لا تُعبَر بين الله والإنسان، وأنَّ أيَّة محاولة لجسر الهُوَّة بتخفيف المقاييس الإلهيَّة، تخطئ خطأً فادحًا.

إنَّ أسوأ مأساة يمكن أن نفعلها هي أن نحوِّل الموعظة على الجبل إلى شكل آخر من أشكال الناموسيَّة؛ فعلى العكس، إنَّ هذه الموعظة يجب أن تضع نهاية لكلِّ هذه المحاولات. إنّ ناموسيَّة الفريسيِّين، سوف تفشل دائمًا، ليس لأنَّها متشدِّدة أكثر من اللازم، بل لأنَّها ليست متشدِّدة بما يكفي. تُثبت الموعظة على الجبل بما لا يدعُ مجالًا للجدل أنَّنا جميعًا نقف على أرض مستوية من الفشل أمام مقاييس الله العالية: القتلة والغضوبين، والزناة واللصوص والشهوانيُّون. إنَّنا جميعنا في حالة من الفشل اليائس أمام الله. وفي واقع الأمر، إنَّ هذا هو الموقف الوحيد المناسب للإنسان الذي يريد أن يعرف الله. لأنَّنا سقطنا من النموذج الإلهيِّ العالي، فلا مكان نهبط إليه سوى شبكة الأمان التي تقدِّمها لنا النعمة الإلهيَّة.

من كتاب: يسوع الذي لم أكن أعرفه

1) كتاب سياحة المسيحيِّ لجون بَنيَن (٢٠١٧) من منشورات أوفير للطباعة والنشر (الناشر).

2) المجتمعات الطوباويَّة مجتمعات تقوم على فلسفة "المدينة الفاضلة" وقوانين صارمة تسعى إلى إيجاد مجتمع مثاليٍّ من كافَّة النواحي، عسى أن يجدَ جميع أفراده السعادة وتحقيق الذات (الناشر).

أيَّار/مايو

١ أيّار/مايو

الحياة المجتزأة

يحكي سورين كيركيغارد (Soren Kierkegaard) مثلًا عن رجل ثريٍّ يستقلُّ عربة تجرُّها الخيول ومُضاءة من الداخل، ويقودها فلَّاح يجلس خلف الأحصنة في العراء المُظلم والبارد. ولأنَّ الرجل الغنيَّ يجلس بالقرب من النور الاصطناعي داخل العربة، تفوته رؤية بانوراما النجوم خارجًا، وهو منظرٌ مجيد يتمتَّع به الفلَّاح بكلِّ حُرِّيَّة.

في العصور الحديثة، وبينما يُلقي العِلم مزيدًا من النور على العالم المخلوق، فإنَّ هذا النور يخفي بظِلاله رؤية العالم غير المنظور القابع وراءه.

إنَّني لست معاديًا للتقدُّم التكنولوجيّ. جهاز حاسوبي المحمول يُتيح لي أن أصل إلى نصِّ أيِّ كتاب كتبته في السنوات العشرين الماضية، علاوةً على آلاف الملاحظات والمذكِّرات التي دوَّنتها في تلك الفترة. ومع أنَّني حينما أقضي وقتي في خلوة في الجبال، أستطيع في ذلك الوقت، باستخدام هذا الحاسوب نفسه، أن أبعثَ برسائلَ إلى أصدقائي في أوروبَّا وآسيا. كما أنَّني أدفع فواتيري الشهريَّة إلكترونيًّا. لهذا ولأسباب أخرى، أشعر بالشكر والعرفان لفوائد العلم والتكنولوجيا.

لكنَّني أرى أيضًا المخاطر الكامنة في رؤيتنا الحداثيَّة للحياة. فمثلًا، للتصغيريَّة، وهي روح هذا العصر، تأثيرها السيِّئ في تصغير الأشياء. فالعِلم يُقدِّم خريطة العالم، مثل خريطة التضاريس مثلًا، بألوانها التي تُشير إلى الأماكن المزروعة والخطوط المُتعرِّجة التي تُمثِّل حدود المرتفعات والمنخفضات والتلال والصخور. وعندما أتسلَّق جبال كولورادو أعتمد على هذه الخرائط. لكن لا توجد خريطة ثنائيَّة الأبعاد، أو حتَّى ثلاثيَّة الأبعاد، يمكنها أن تُعطي الصورة الكاملة. ولا يمكن أن تنقل أيٌّ منها خبرة التسلُّق بكاملها: هواء الجبال المُنعش، والتلال المفروشة بالزهور البريَّة، ثُمَّ عشَّ طيور الترميجان الشبيهة بالحمام أعلى قمَّة الجبل، وجداول الماء المُزبِّدة، ثُمَّ تناول غداء بطعم الانتصار على قمَّة الجبل. اللقاء المُباشر يتفوَّق على الاختزال والتصغير اللذين تصنعه الخرائط بما لا يُقاس.

والأهمُّ من ذلك، أنَّ توجُّه الاختزال لا يدع مجالًا مُطلقًا لعالم غير منظور. بل يعدُّ أنَّ مِن المسلَّمات أنَّ العالم المادِّيَّ هو كلُّ ما هو موجود.

لا يمكن أن يُختبَر العالم غير المنظور أو يُمتَحَن. وبالتأكيد لا يمكن قياس الله أو اختزاله. لذا فإنَّ الكثير من الناس في المجتمعات التي اختبرت قدرًا كبيرًا من التطوُّر التكنولوجيِّ يعيشون حياتهم اليوميَّة ظانِّين أنَّ الله غير موجود. ويتوقَّفون فقط عند كلِّ ما يمكن اختزاله وتصغيره وتحليله، وتُصَمُّ آذانُهُم عن أيَّة إشاعات من عالم آخر. كما يقول تولستوي: "يختلط الأمر على المادِّيِّين، ويظنُّون أنَّ الحدود المادِّيَّة للحياة هي الحياة

نفسها".

من كتاب: إشاعات من عالم آخر

٢ أيَّار/مايو

ما بعد الإيمان

لديَّ جارٌ مهووس بالأناقة يعيش في بيت تحيط به عشرة أفدنة من الغابات، وفي كلِّ مرَّة يقود سيَّارته عبر الطريق الطويل المُتعرِّج الصاعد إلى بيته كانت تُضايقه أغصان أشجار البونديروزا الصنوبريَّة. وذات يوم اتَّصل يطلب إحدى خدمات تقليم الأشجار، فاكتشف أنَّ الأمر يمكن أن يكلِّفه خمسة آلاف دولارٍ لكي يقلِّم كلَّ هذه الأشجار. ولأنَّه فَزِعَ من المبلغ المطلوب، استأجر بنفسه منشارًا كهربائيًّا وأمضى أيَّامًا متقطِّعة مُعلَّقًا على سُلَّم ليقلِّم ما يستطيع الوصول إليه من أغصان. أمَّا الأغصان الأعلى، فلم يستطع الوصول إليها. فاتَّصل بعد ذلك بالخدمة نفسها مرَّة أخرى ليَحصُلَ رُبَّما على سعرٍ أفضل، فدُهِشَ بمن يقول له: "سيِّد رودريغز، ربَّما يكلِّفك الأمر ضعف المبلغ السابق؛ فنحن كُنَّا نُخطِّط أن نستخدم الأغصان القريبة لكي نصل منها إلى الأغصان الأعلى. الآن علينا أن نُحضر تلك الشاحنة الأعلى القادرة على الوصول إلى تلك الأغصان البعيدة".

بصورةٍ ما، يُذكِّرني المجتمع الحديث بهذه القصَّة. لقد قطعنا الأغصان القريبة التي بُنيت عليها الحضارة الغربيَّة، والآن يبدو من الخطر الوصول إلى الأغصان العالية. وفي هذا الصدد، تكتب آني ديلارد (Annie Dillard): "لقد استنزفنا النور من الأغصان الأساسيَّة في البستان المقدَّس، وأطفأناه في الأماكن العالية وعلى ضفاف مجاري الماء المقدَّسة".

لا يُحاول أيُّ مُجتمع في التاريخ أن يعيش بلا إيمان بما هو مُقَدَّس، وذلك حتَّى ظهر المجتمع الغربيُّ الحديث. إنَّ لمثل هذه القفزة تداعيات لم نبدأ في إدراكها إلَّا في الآونة الأخيرة. ونحن الآن نعيش في حالة من الارتباك بشأن الأسئلة الكبيرة التي كانت دائمًا تشغل الجنس البشريَّ، أسئلة المعنى والهدف والأخلاق. كان أحد أصدقائي المُتشكِّكين كثيرًا ما يطرحُ على نفسه في المواقف المختلفة هذا السؤال: "ماذا كان الملحد ليفعلَ؟" في سخرية مقصودة من العبارة المشهورة: "ماذا كان يسوع ليفعلَ؟". لكنَّه في النهاية تَوَقَّفَ عن السؤال لأنَّه لم يجد إجابات يُعتمد عليها.

إنَّ من شأن التخلُّص من كلِّ ما هو مقدَّس أن يُغيِّر رواية حياتنا بالكامل. في أوقات الإيمان العظيم، رأى الناس أنفسهم بصفتهم أفرادًا مخلوقين بيد إله مُحبٍّ له السلطان الكامل على العالم، ويسير به نحو الاسترداد والافتداء، وذلك مهما بدا عليه الأمر في أيَّة لحظة من لحظات الحياة. أمَّا الآن فالناس بلا إيمان يجدون أنفسهم ضائعين ووحيدين، دون رواية جامعة تلَمْلِمُ شملَ وجودهم، وتعطي الرجاء في المستقبل والمعنى للحاضر.

من كتاب: إشاعات من عالم آخر

٣ أيَّار/مايو

عالم دون الله

ڤاتسلاڤ هاڤل (Vaclav Havel)، الرئيس السابق لجمهوريَّة التشيك، وناجٍ من الثقافة الشيوعيَّة التي حاولت أن تعيش دون الله، يُلخِّص المشكلة في هذه الكلمات:

"أومن بأنَّه بفقدان الله، فَقَدَ الإنسانُ النظام المطلق والكونيَّ، الذي يُمكِّنُهُ أن يرى كلَّ الأشياء متناسقة ومرتبطة معًا، والأهمُّ، أن يرى نفسه في اتِّساق مع كلِّ ما هو موجود. وبالتدريج بدأ عالمه وشخصيَّته يتجزَّأان ويتفكَّكان إلى شظايا منفصلة وغير مترابطة".

شهد هاڤل اغتصاب الماركسيَّة لبلاده لكون ذلك نتيجة طبيعيَّة للإلحاد. ويقول: "إنَّني آتٍ من بلد تموت فيه الغابات، والأنهار تبدو مثل مجاري النفايات، وفي بعض أماكنه يُنصَح المواطنون ألَّا يفتحوا نوافذهم". وهو يتتبَّع السبب في كلِّ هذا ويُرجعه إلى ما يسمِّيه "صَلَف إنسان العصر الحديث الذي تَوَّجَ نفسهُ ربًّا على الطبيعة والعالم". أمثال هؤلاء البشر، يفتقرون إلى المرساة الفائقة للطبيعة: "أقصد الاحترام المتواضع للخليقة في مُجملها والوعي بمسؤوليَّاتنا تجاهها...إذا كان الآباء والأمَّهات يؤمنون بالله، فلن يحتاج أبناؤهم لأنْ يرتدوا أقنعة غاز في طريقهم إلى المدرسة ولن تَعمى عيونهم بالصديد".

إنَّنا نعيش أيَّامًا خطرة ونواجه أسئلة مُلِحَّة ليس فقط بشأن البيئة لكن بشأن الإرهاب والحروب والجنسانيَّة والفقر العالميِّ وتعريف الحياة والموت. إنَّ المجتمع يحتاج بشدَّة إلى بوصلة أخلاقيَّة أو "نظامٍ مُتَّسق" بحسب كلمات هاڤل. ونحتاج لأنْ نعرف مكاننا في الكون ومسؤوليَّتنا تجاه بعضنا بعضًا وتجاه الأرض التي نعيش فوقها. هل يمكننا أن نُجيب عن هذه الأسئلة دون الله؟

يُسبغُ الأدب المعاصر صورة البطل على مَن يتمسَّك بموقفه العاصي المتمرِّد في كونٍ لا معنى له. والفلسفة التطوُّريَّة تحسب الإنسان العاقل (هومو سابيان)، مجرَّد فصيلة، مثل غيرها من الفصائل مُقَدَّرٌ لَها أن تعيش السيناريو المفروض عليها من جانب الجينات الأنانيَّة. ماذا لو كان هناك ما يفوت كلتا الرؤيَتَين للعالم لتَرَيا شيئًا كبيرًا ومُنذِرًا من جهة مستقبلنا- مثل السكان الأصليِّين لأميركا الجنوبيَّة الذين تجاهلوا ببساطة ماضي سفن ماجلان في الإبحار؟

من كتاب: إشاعات من عالم آخر

٤ أيّار/مايو

ظلُّ السماء

تتسلَّل الإشاعات الآتية من عالم آخر حتَّى بين الذين يَقصِرونَ رؤيتهم للعالم على كلِّ ما هو مادِّيّ. العُلماء الذين لا يجرؤون على ذكر وجود إله أو مُصَمِّم لهذا الكون، يتكلَّمون عمَّا يسمَّى "المبدأ الأنثروپيَّ" الواضح في الكون. إنَّ الطبيعة منضبطة بدقَّة لتتيح إمكانيَّة الحياة على كوكب الأرض؛ فقوى الجاذبيَّة إذا تحرَّكت بقدر بسيط أكثر أو أقل، فإنَّ الكون لن يكون، كما أنَّ تغييرًا طفيفًا في القوَّة الكهرومغناطيسيَّة، سوف يجعل الجزيئات العضويَّة تتنافر فلا تتكوَّن المادَّة الحيَّة. وبحسب كلمات عالم الفيزياء فريمان دايسون (Freeman Dyson): "كما لو كان الكون يعلم أنَّنا آتون". ومن يعرفون الكون جيِّدًا، يُدركون أنَّه لا يبدو كأنَّه وُجِدَ صدفةً. بل يبدو كأنَّ هناك قصدًا وهدفًا منه. لكنْ ما ذاك القصد؟ ومَن الذي قصده؟

أجد روح احترام بين الكُتَّاب الذين يتناولون العلم المادِّيَّ، أكثر ممَّا أجده في كتابات بعض اللاهوتيِّين. فالأحكم من بينهم يعترف أنَّ معرفتنا التي تتَّسع باستمرار، لا يسعها إلَّا أن تكشف أعماق جهلنا. الأشياء التي كانت تبدو واضحة ومنطقيَّة مثل فيزياء نيوتن، قادت إلى ألغاز كبيرة. مثلًا، في مُدَّة حياتي، "اكتشف" علماء الفضاء سبعين مليار مجرَّة جديدة، واعترفوا أنَّهم تجاهلوا ٩٦٪ من المادَّة المُكوِّنة للكون ("الطاقة السوداء" و"المادَّة السوداء")، وعدَّلوا الزمن الذي حدث فيه الانفجار العظيم بنحو أربعة أو خمسة مليارات من السنين. وعلماء الأحياء الذين يُحملِقون في ميكروسكوپاتهم، اكتشفوا تعقيدًا مذهلًا في أصغر الخلايا وأبسطها.

لقد جعلت عمليَّة التصغير والاختزال، العالم أكثر تعقيدًا، وليس أقلّ. إنَّ جزيء الحَمض النَّوويِّ داخل كلِّ خليَّة يحتوي على شيفرة برمجيَّة مكوَّنة من ثلاثة بلايين حرف، وقادرة أن تُسيطر على تركيب الجسم البشريِّ كلِّه. وقد صرنا بصورةٍ متزايدةٍ أقدر على قراءة الشيفرة. لكن مَن الذي كتبها؟ ولماذا؟

هل يمكن أن يُرشدنا أحد إلى قراءة ليس فقط الشيفرة المصغَّرة في كلِّ خلية، بل أيضًا الشيفرة الكُبرى التي تحكم كوكبنا، بل الكون الذي نعيش فيه؟

إنَّ الإشاعات الآتية من عالم آخر تتسرَّب إلى الفنِّ أيضًا. الشعراء، والرسَّامون، والروائيُّون، وكُتَّاب المسرحيَّات– الذين يعرفون القليل عن خلق الكون– يشعرون بتأثيرات من عالم آخر، ولا يدرون مصدرها. يرى الفنَّانُ أنَّ العالم يقدِّم نفسه له بوصفه نوعًا من الإبداع، شبيهًا برباعيَّات بيتهوڤن أو هاملت شيكسپير. إذا كُنَّا بالفعل موسيقا الله وكلماته، فما اللحن الذي علينا أن نعزفه؟ وما الكلمات التي نتلوها؟ يتردَّد سؤال

ملتون (Milton) عبر الزمن: "ماذا لو لم تكن الأرض سوى ظلٍّ للسماء؟".

من كتاب: إشاعات من عالم آخر

٥ أيّار/مايو

أجزاء الجسم

كيف يمكنُنا أن نشعر بمحبَّة الله الآن بعدما صعد يسوع إلى الآب؟ تتركَّز إحدى الإجابات التي يقدِّمها العهد الجديد على تلك العبارة الغامضة التي تُستخدم أكثر من ثلاثين مرَّة: "جسد المسيح". لقد استقرَّ بولس، على وجه الخصوص، على هذه العبارة بصفتها صورة عن الكنيسة. عندما غادر يسوع، سَلَّم إرساليَّته إلى رجال ونساء متلعثمين وكثيري العيوب. صار هو يلعب دور رأس الكنيسة، تاركًا مهامَّ الذراعَين والساقَين والأذنَين والعينَين والصوت لهؤلاء التلاميذ على أخطائهم- وتركها أيضًا لي ولك.

تكشف القراءة المتأنِّية للبشائر الأربع أنَّ هذا التنظيم الجديد هو ما كان في ذهن يسوع من البداية. لقد كان يعرف أنَّ وقته على الأرض كان قصيرًا، وأنَّه أعلن عن إرساليَّة سوف تتجاوز موته وقيامته، فصرَّح قائلًا: "أبني كنيسَتي، وأبوابُ الجَحيمِ لن تقوَى علَيها" (متَّى ١٦: ١٨).

لقد كان قرار يسوع أن يعمل بصفته الرأس غير المنظور لجسد كبير فيه أعضاء كثيرون مؤثِّرًا في رؤيتنا للألم. فيعني هذا أنَّه يعتمد علينا لكي نساعد بعضنا بعضًا على التعايش مع الألم. تعبِّر عبارة "جسد المسيح" جيِّدًا عمَّا نحن مدعوُّون إلى فعله: أن نمثِّل في الجسد اللحميِّ المنظور شخصيَّة المسيح، لا سيَّما لمن يحتاجون إلى ذلك.

من المؤكَّد أنَّه كان في ذهن الرسول بولس شيءٌ مثل هذه العمليَّة عندما كتب هذه الكلمات: "الذي يُعَزِّينا في كُلِّ ضيقَتِنا، حتَّى نَستَطيعَ أنْ نُعَزِّيَ الذينَ هُم في كُلِّ ضيقَةٍ بالتَّعزيَةِ الّتي نَتَعَزَّى نَحنُ بها مِنَ اللهِ. لأنَّهُ كما تكثُرُ آلامُ المَسيحِ فينا، كذلكَ بالمَسيحِ تكثُرُ تعزيَتُنا أيضًا" (٢كورنثوس ١: ٤- ٥). وفي كلِّ خدمته طبَّق بولس الرسول هذا المبدأ، فجمع المساعدات من أجل الذين ضربتهم المجاعة، وأرسل مساعديه إلى المناطق المضطربة، معترفًا أنَّ عطايا المؤمنين هي عطايا من الله شخصيًّا.

من كتاب: أين الله في وقت الألم؟

تسليم كلِّ شيء

إنَّ "عيب" معرفة الله بالروح القدس اليومَ هو أنَّ الله عندما سلَّم إرساليَّته إلى الكنيسة، سلَّمها بالفعل كلَّ شيء. ونتيجةً لذلك، فإنَّ الكثيرين ممَّن يرفضون الله هم في الواقع يرفضون الأداء الضعيف التي تؤدِّيه الكنيسة بتمثيل الله. لكنَّ الكنيسة بالفعل قادت العالم في قضايا العدالة ومحو الأُمِّيَّة والطبِّ والتعليم والحقوق المدنيَّة. لكنَّ المخزي هو أنَّ العالم المتفرِّجَ حَكَم على الله أيضًا بسبب الكنيسة التي يشتمل تاريخها على الحروب الصليبيَّة، ومحاكم التفتيش، ومعاداة الساميَّة، وقَهرِ النساء، ومساندة تجارة الرقيق.

أجده أسهل كثيرًا أن أقبل حقيقة أنَّ الله حَلَّ في يسوع المسيح الناصريِّ أكثر من الناس الذي يحضرون كنيستي المحلِّيَّة وفيَّ شخصيًّا. لكنَّ العهد الجديد يُصرُّ على أنَّ هذه هي خُطَّة الله من البداية: لا سلسلة متَّصلة من التدخُّلات المعجزيَّة المُبهرة، بل التسليم المتدرِّج للإرساليَّة الإلهيَّة كلِّها إلى بشرٍ خُطاة مَعيبين. وطوال حياةِ يسوعَ، كان يخطِّط أن يموت، لكي نأخذ مكانه، نحن الكنيسة. وما قدَّمه يسوع من شفاء ونعمة وأخبار سارَّة من الله، إلى قليلين في حياته، يستطيع تلاميذه الآن أن يقدِّموه إلى الجميع. لذلك وضَّح قائلًا: "إنْ لَمْ تقَعْ حَبَّةُ الحِنطَةِ في الأرضِ وتَمُتْ فهي تبقَى وحدَها. ولكن إنْ ماتَتْ تأتي بثَمَرٍ كثيرٍ".

إنَّ انسحاب الله واختفاءه خلف الجلد البشريِّ، الذي يُشبه تنازل ملكٍ عن عرشه ليعيش بين الجنود البسطاء، يُتيح فرصة أن يشُكَّ الكثيرون، في بعض الأوقات، ويرفضون الله بالتمام بسبب مَن يمثِّلونه. كما أنَّ هذه الخُطَّة تضمن أيضًا أنَّ الملكوت سوف يتقدَّم بمعدَّل بطيء متثاقل، وأنَّ الله الذي يمارس أعلى معدَّلات ضبط النفس، لن يُلغي بتاتًا هذا الأسلوب مُتدخِّلًا في العالم بسرعة وقوَّة. لقد تطلَّب الأمر ثمانية عشر قرنًا لتحارب الكنيسة تجارة الرقيق، وحتَّى في ذلك الوقت، قاوم الكثيرون محاربتها. الفقر لا يزال يسود، وأيضًا يسود التمييز والاضطهاد، وفي أماكن كثيرة، لا تستطيع الكنيسة أن تفعل شيئًا للمساعدة.

والسؤال المطروح هو ما يعيده الله إلينا. إنَّنا نتضرَّع إلى الله "انزل إلينا" ونعترف بتردُّد أنَّ الله دائمًا موجود داخلنا، وما يفعله الله في العالم يشابه كثيرًا ما تفعله الكنيسة. باختصار، فإنَّ "العَيب" الأساسيَّ في معرفة الله بوصفه روحًا، يكمُن في تاريخ الكنيسة– وسِيَرنا الروحيَّة أنا وأنت.

من كتاب: محاولة اللقاء مع إله غير منظور

٧ أيّار/مايو

اختبار الجمال

لقد رأيت أدلَّة حضور الله في الأماكن التي لم أتوقع فيها ذلك. في رحلة إلى نيبيال، قادني أحد اختصاصيِّي العلاج الطبيعيِّ في جولة داخل مستشفى "المراعي الخضراء" التي تخصَّصت في إعادة تأهيل المُصابين بالجُذام. وبينما كُنَّا نمشي بين الطرقات المرصوفة في الفناء خارج المستشفى، لاحظت في أحد الملاعب أحد أقبح البشر الذين رأيتهم في حياتي. كانت يداها مربوطتان بالشاش وقدماها غير موجودتين، وتقف بدلًا منهما على ما تبقى من ساقيها. كان أنفها قد انكمش تمامًا، حتَّى إنَّني كُنتُ أرى جيوبها الأنفيَّة مُباشرة. أمَّا عيناها، فكانتا مُغطيَّتَين بنسيج مُتليِّف، ولا تُدخلان أيَّ ضوء- كانت عمياء تمامًا. وكانت الندب تُغطِّي بقعًا من الجلد على ذراعيها.

وبعد ذلك عُدنا من الطرقات نفسها فوجدنا هذه المخلوقة قد زَحَفَت إلى آخر حافَة الممشى، وهي تجذب نفسها على الأرض بأن تضع كوعيها على الأرض ثُمَّ تسحب باقي جسمها. ودون أيِّ تردُّد، انحَنَت زَوجَتي جانيت ووضعت ذراعها حول تلك المرأة، التي أراحت رأسها على كتف جانيت وبدأت تغنِّي باللغة النيباليَّة لحنًا سرعان ما تعرَّفناه كُلُّنا: "يسوع يحبُّني".

بعد ذلك قال لنا المعالج المرافق مشيرًا إلى تلك المرأة المشوَّهة: "إنَّ داهنمايا (Dahnmaya) واحدة من أكثر أعضاء كنيستنا تكريسًا. أغلب مرضانا هندوسيُّون. لكنَّ لدينا كنيسة صغيرة هنا، وداهنمايا تأتي في كلِّ مرَّة يُفتح الباب. إنَّها من جنود الصلاة، وتحبُّ أن تُحيِّي كلَّ زائر يأتي إلى المستشفى وتُرحِّب به. لا بُدَّ أنَّها سمعتنا نتكلَّم بينما كُنَّا نمشي في الطريق".

بعد شهور عدَّة سمعنا أنَّ داهنمايا تُوُفِّيت. وبالقرب من مكتبي، أحتفظ بصورة كنت قد التقطتها لها عندما كانت تُغنِّي لجانيت. وفي كلِّ مرَّة أشعر بأنَّني تَلَوَّثتُ بثقافتنا المهووسة بالجمال الجسديِّ- والتي يدفع فيها الناس مبالغ طائلة من المال للوصول إلى الجسد المثاليِّ المستحيل الوصول إليه في حين يعيش مستشفى مثل "المراعي الخضراء" على فتات التبرُّعات- فإنَّني أسحب هذه الصورة وأنظر إليها، لأرى سيِّدتين جميلتين: زوجتي التي تبتسم ابتسامة جميلة، مُرتَدية ثوبًا نيباليًّا زاهي الألوان كانت قد اشترته في اليوم السابق، وهي تمسك ذراع عجوزٍ بالتأكيد ترسب في أيِّ اختبار جمال. إلَّا إنَّها تنجح في اختبار واحد، وهذا الاختبار هو الأهمّ. فمن وراء قشرة هذا الجسد المُشوَّه، يسطع نور الحضور الإلهيّ. لقد وَجَد الروح القدس فيها بيتًا يسكنه.

من كتاب: الصلاة: هل تُحدث أيَّ اختلاف؟

٨ أيّار/مايو

الفشل المُقدَّس

زرتُ ذات مرَّة هنري نوين (Henri Nouwen) في "الفُلك" (L'Arch)[أ] وهو بيت لذوي الاحتياجات الخاصَّة الشديدة بالقُرب من تورنتو في كندا. تناولنا وقتها الغداء معًا في غرفته الصغيرة، ولكون نوين اختصاصيًّا نفسيًّا مشهورًا ولاهوتيًّا عَلَّم في جامعات مرموقة في الولايات المتَّحدة، كان ناجحًا جدًّا بصفته كاتبًا ومُتكلِّمًا في المؤتمرات، لكن هنا، بدت "الصناعة" الكنسيَّة بعيدة جدًّا.

بعد الغداء، احتفلنا بخدمة تناوُل خاصَّة بشابٍّ كان نوين يهتمُّ به اسمه آدم. وقد قاد نوين الخدمة احتفالًا بعيد ميلاد آدم السادس والعشرين. ولأنَّ آدم لم يكُن قادرًا على المشي أو الكلام، أو ارتداء ملابسه، وغير قادرٍ عقليًّا لدرجة شديدة، لم يُبدِ أيَّة علامة على الفهم. لكنَّه على الأقلِّ كان مُدركًا أنَّ أسرته حضرت. كان لُعابه يسيل طوال الوقت، وفي بعض الأحيان، كان يئنُّ بصوتٍ عالٍ.

قال لي نوين لاحقًا إنَّه يُمضي ساعتَين يوميًّا لتجهيز آدم، فيُحَمِّمَهُ ويَحلق له ذقنه وينظِّف أسنانه، ويمشِّط شعره، ويقود يدَيه ليأكل طعام الإفطار. ويجب أن أعترف أنَّه كانت لديَّ شكوك إنْ كان ذلك أفضل استثمار لوقت الكاهن المشغول. لكنَّ نوين أَصَّر قائلًا: "لم أتخلَّ عن أيِّ شيء. أنا، لا آدم، هو من يحصل على الفائدة الأكبر من هذه الصداقة".

لقد كان الأمر صعبًا عليه في البداية، كما يقول. لكنَّه تعلَّم في هذه المسيرة معنى أن يُحبَّنا الله– ونحن متخلِّفون روحيًّا، وعاجزون عن تنظيم حركتنا، ولا نستطيع أن نتجاوب معه إلَّا بما يُشبه الأنَّات والتأوُّهات التي لا مَعنى لها مثلما يئنُّ آدم.

لقد قال نوين أنَّه كان هناك طوَال حياته صوتان يتنافسان داخله. أحدهما كان يشجِّعه أن ينجح ويُحقِّق، في حين كان الآخر يدعوه فقط لأن يستريح في كونه "محبوب" الربّ. فقط في السنوات العشر الأخيرة من حياته، استمع إلى الصوت الثاني. وفي النهاية، وصل إلى نتيجة نهائيَّة وهي أنَّ "الهدف من التعليم والتشكيل من أجل الخدمة هو أن نستطيع باستمرار أن نُدرك صوت الله ووجهه ولمسته، في كلِّ شخص نقابله".

سوف أفتقد هنري نوين. يوجدُ مشهدٌ واحدٌ عندي يُعَبِّر عنه أفضل تعبير: الكاهن النشيط، أشعث الشعر، الذي يعظ بينما تتحرَّك يداه دون توقُّف كما لو كان يصوغ عظته من الهواء حوله، مُحتفلًا بخدمة تناول بليغة لرجلٍ هو طفلٌ غير مُتجاوب، دُمِّرَ عقله تمامًا حتَّى إنَّ أغلب الآباء والأمَّهات كانوا يفضِّلون إجهاضه. بالكاد أستطيع أن أتخيَّل رمزًا أفضل من ذلك إلى التجسُّد الإلهيّ.

عمود "الصفحة الخلفيَّة"، مجلَّة المسيحيَّة اليوم، ٩ كانون الأوَّل/ ديسمبر ١٩٩٦م

٩ أيَّار/مايو

تجريد الخوف من سلاحه

عانيت طوال سنوات خوفًا واضحًا مهولًا: صورة إله شديد الغضب والإدانة كما لو كان شُرطيًّا كونيًّا صارمًا. من عساه يريد أن يُصلِّي لمثل هذا الإله؟ كيف يمكنني أن أسعى إلى إقامة علاقة برفيق مُخيف كهذا؟ ومع الوقت، تناقصت دفاعاتي كلَّما اختبرت النعمة، وقابلت مرشدين موثوقًا بهم، ثُمَّ وبصورة فائقة، تعرَّفت إلى يسوع.

من جهة مسيحيٍّ أُصوليٍّ مُتعافٍ، يحتاج الأمر إلى شجاعة لكي تثق بالإنجيل لكونه بالفعل أخبارًا سارَّة من الإله الذي هو محبَّة، فبحثت عن مُرشدين يؤمنون بتلك الحقيقة الأكثر أساسيَّة في الإيمان، ولكنَّها الأقلُّ تحقيقًا على أرض الواقع. على مدى عشر سنوات، أقتفيَتُ آثار د. پول براند الذي قدَّم شفاءً ونعمة للذين يُعدُّون أدنى الناس على وجه الأرض: هندوس من أدنى الطبقات في النظام الطبقيِّ الهنديِّ، والمصابون بالجُذام. في بعض الأحيان، كُنَّا نُصلِّي معًا ودائمًا ما كُنتُ أتعَجَّب من إيمانه البسيط. لقد كان يُبدي روحًا شاكرة حتَّى بينما كان يعمل بأجر يقترب من حدِّ الفقر وفي أحوال صعبة. كان د. براند يواجه تَقَدُّمَ السِّن في حالة من الترَقُّب وليس الخوف. حتَّى عند النهاية، كان يرى الموت وكأنَّه عودة إلى البيت، وتتويجٌ لحياته وليس انقطاعًا لها.

أثبت هنري نوين أيضًا أنَّه مُرشدٌ جديرٌ بالثقة. كان شخصًا يعكس حقيقة أنَّ الصورة الحقيقيَّة لله تُهدِّئ من رَوع الإنسان ولا تُخيفه. ورُغم مخاوف نوين الداخليَّة، وضع ثقته في شخصيَّة الله. لقد تعلَّم عن الخوف أنَّك "يجب ألَّا تهرب من أمامه، بل ينبغي أن تشعر به بالتمام وتقف ثابتًا وتنظر إليه في عينيه...لذلك فإنَّني أُصلِّي حتَّى بينما لا أعرف كيف أُصَلِّي".

إنَّني أتعجَّب من أنَّ الكثير من الصلوات العظيمة التي رفعَها بولس الرسول صَلَّاها في رسائل السجن التي كتبها في غياهب الزنازين والأقبِية. لقد كانت الصلاة لبولس طريقته في الارتفاع فوق مخاوفه بشأن أوضاعه الحاليَّة، للوصول إلى ثقة كاملة برعاية الله الحانية. وبالطريقة نفسها، فإن الخُدَّام والمُطالِبِينَ بالحقوق المدنيَّة في ستِّينيَّات القرن العشرين، استغلُّوا أوقاتهم في السجن في الصلاة والترنيم بصوتٍ عال. يُمكن أن يحسبَ المتشكِّكون هذه الصلوات من أسوأ أشكال إنكار الواقع. لكن المؤمن يحسبها إيمانًا بواقع يتخطَّى الأوضاع المُحيطة، ويُجرِّد الخوف من أسلحته.

من كتاب: الصلاة: هل تُحدث أيَّ اختلاف؟

١٠ أيَّار/مايو

الأمان الكافي للفشل

عندما أتأمَّل افتراضاتي الشخصيَّة بشأن التواصل مع الله، أجدُ أنَّها كانت مُضَلِّلَة وتبسيطيَّة. منذ الطفولة، ورثت صورة عن الله كأنَّه مُدرِّس متشدِّد يضع درجات الامتحان. وكان هدفي، مثل كلِّ شخص آخر: أن أحصل على الدرجة العالية وأكسب رضا المُدرِّس. عندما تُحدِثُ شغبًا في قاعة الدرس، سوف يُرسِلُكَ المُدرِّسُ إلى آخر الغرفة لكي تقف في الرُّكن، أو يُرسلك إلى غرفة فارغة، أو إلى الردهة.

كلُّ شيء تقريبًا في هذا التشبيه الذي تعلَّمتُه، يتعارض مع الكتاب المقدَّس ويُشوِّه العلاقة بالله. في المقام الأوَّل يعتمد رضا الربِّ، لا على "السلوك الجيِّد" الذي أسلكه، بل على النعمة. لا يمكنني أن أحصل على الدرجات العالية بما يكفي لتجعلني أفي بمطالب الكمال التي يضعها المُدرِّس، لكنَّني شاكرٌ لكوني غير مضطرٍّ إلى ذلك.

علاوةً على ذلك، فإنَّ علاقتي بالله لا تتَّصل أو تنقطع بناءً على سلوكي؛ فالله لا يُرسلني إلى غرفة مهجورة في آخر الردهة عندما لا أُطيعه. على العكس تمامًا. فإنَّ الأوقات التي أشعر فيها بأعلى درجات الاغتراب عن الله، يمكن أن تجلب إحساسًا باليأس، وهذه الأوقات ذاتها هي التي تحدث فيها بداية جديدة للنعمة.

اختبأ إيليَّا في كهف شاعرًا بالشفقة على النفس والرغبة في الهروب من الله، لكنَّ هذا هو الوقت نفسه الذي فيه سمع همسًا لطيفًا يعزِّيه، وليس لومًا وتعنيفًا. بَذَل يونان قُصارى جَهده ليهرب من الله لكنَّه فشل. وفي أقصى درجات يأس بُطرس، اقترب منه يسوع واستردَّه بمحبَّة فائقة.

إنَّني أَميلُ لأنْ أُسقِطَ على الله فرضيَّات العلاقات البشريَّة، بما في ذلك فرضيَّة أنَّ الخيانة تدمِّر العلاقات تدميرًا لا رجعة عنه. أمَّا الله، فيبدو أنَّ نار محبَّته للبشر لا تُطفئها حتَّى أقسى أنواع الخيانة التي يتعرَّض لها من هؤلاء البشر (أو ربَّما قد اعتاد الله الخيانة من البشر)، فقال يسوع لبطرس: "على هذه الصخرة أبني كنيستي". وكما لاحظ لوثر، فإنَّنا دائمًا، وفي الوقت نفسه خطاة وأبرار وتائبون. ربَّما لا تقترب تعبيرات المحبَّة المتقطِّعة والمتلعثمة التي نقدِّمها، حتَّى من المستوى الذي يريده الله، لكنَّه كأيِّ أبٍ، يقبل ما يقدِّمه طفله، أيًّا كان.

من كتاب: محاولة اللقاء مع إله غير منظور

١١ أيَّار/مايو

الصلاة بوصفها علاجًا

أتذكَّر وقتًا من أوقات زواجي بجانيت كنَّا فيه على خلاف في كلِّ شيء تقريبًا. كنَّا لا نزال نتصارع مع نزعات القوَّة والسيطرة، ولم يرضَ أيٌّ منَّا أن يتنازل للآخر في أيِّ شيء. كلُّ قرار، صغيرًا كان أم كبيرًا، كان يتحوَّل إلى شدٍّ وجذب شديدَين. ورُغمَ تردُّدنا بهذا الشأن، فقد قرَّرنا أن نُجرِّب أمرًا لم ينفع معنا من قبل، وهو أن نصلِّي معًا. كُنَّا يوميًّا نجلس، ونُخرج ما في نفوسنا أمام الله. كُنَّا نُصلِّي بشأن القرارات والشخصيَّات التي سوف نقابلها في ذلك اليوم، وبشأن أصدقائنا وأفراد أُسرنا. ومع الوقت، بدأنا نرى صراع القُوَى بيننا في ضوء جديد تمامًا، عندما أخضعنا أنفسنا كلينا، لقوَّة أعظم. لقد أصبحنا الآن جنبًا إلى جَنبٍ أمام الله، ولم نَعُد نواجه بعضنا بعضًا في تضادٍّ. والآن، بعد مرور خمسٍ وعشرين سنة، ما زلنا نحافظ على هذه الممارسة.

لقد كتبتُ كتابًا عن العهد القديم بعنوان "**الكتاب المقدَّس الذي قرأه يسوع**" *(The Bible Jesus Read)*، وفيه تناولتُ المزامير التي تحتوي على شتمٍ ولعنٍ، والتي يطلب فيها كاتب المزمور إلى الله أن ينتقم له من أعدائه. في هذا الكتاب وصفتُ تدريبًا كنتُ فيه أتمشَّى ما أسمِّيه "مِشية الغضب" الأسبوعيَّة، وكانت فوق أحد التلال المُشرفة على منزلي. وفي أثناء تلك المشية، كنتُ أقدِّم لله مشاعر الاستياء التي أشعر بها تجاه بعض الناس الذين أساءوا إليَّ. لقد كان لإرغام نفسي أن أفتح مشاعر عميقة أمام الله، تأثيرٌ علاجيٌّ فعَّالٌ. وكتبتُ في هذا الكتاب أنَّني "عادة ما أعود شاعرًا وكأنَّني تخلَّصت من حملٍ ثقيل، ولم يعد الظُّلمُ مُلتصقًا بي كشوكة في الجسد، كما كان من قبل؛ إذ عَبَّرتُ عن غضبي بقوَّة وبصوت مسموع أمام شخص آخر هو الله. وفي بعض الأحيان، كنتُ أجد أنَّه في عمليَّة التعبير هذه تنتابني مشاعر تحنُّن على مثل هؤلاء الأشخاص، ويتكلَّم إليَّ روح الله عن أنانيَّتي، وروحي الديَّانَة، وعن عيوبي التي تعامل معها آخرون بنعمة وغفران، وعن رؤيتي المحدودة بصورة مثيرة للشفقة".

لقد صادفتُ هذه الفقرة من كتابي اليوم، وشعرت بالدهشة، كأنَّ شخصًا آخر هو الذي كتبها. لقد مرَّت سنوات عدَّة منذ الوقت الذي مشيت فيه آخر مِشية غضب. وإن كنتُ لا أزال أُصلِّي بينما أتمشَّى فوق هذا التلِّ مُراقبًا جحر الثعالب، ومتأمِّلًا في الإصابات التي أحدثتها الخنافس في أشجار البونديروزا الصنوبريَّة، ومُتتبِّعًا آثار أقدام الحيوانات على الجليد، لعلَّه من الأدقِّ الآن أن أسمِّيها "مشيات الشُّكر"؛ فمع الوقت تلاشى الغضب، ونلتُ الشفاء، وكان هذا قد حدث دون أعِيَه.

من كتاب: الصلاة: هل تُحدث أيَّ اختلاف؟

أعشاب وأزهار

عندما انتقلت إلى العيش في كولورادو، سرعانَ ما تَعَلَّمتُ عَن الأعشاب الضارَّة. لقد كانت تلك الفصائل غير المُرحَّب بها مثل الدانديليون، وزهور الأوكسي، والأشواك الروسيَّة، وغيرها، تنمو مثل الڤيروسات النباتيَّة في الجزء الذي كنت أقيم فيه من هذه الولاية، ممَّا يُهدِّد حياة الفصائل المحلِّيَّة. ولكوني أريدُ أن أكون مواطنًا صالحًا، اشتريتُ نازعة أعشاب وبدأت هذه الممارسة الروتينيَّة في فصلَي الربيع والصيف. كُنتُ أتمشَّى بُعيد الظهر على التلِّ المشرف على بيتي، باحثًا عن تلك الأعشاب الضارَّة. وحدث أن أصبحت هذه التمشيات فرصة للصلاة، حيث إنَّني في دقائق قليلة في منتصف النهار، أُصبحُ مُحاطًا بجمال الطبيعة، بعيدًا عن كلِّ المشتِّتاتِ التي يجلبها عليَّ جلوسي إلى مكتبي في البيت.

ذات يوم، عندما كانت زوجتي ترافقني، تجلَّى لي الحقُّ بشأن تلك التمشيات للقضاء على الأعشاب الضارَّة، وبشأن صلاتي أيضًا. لقد كانت عينا زوجتي المُدَقِّقَتان تساعدان كثيرًا في تحديد أماكن الأعشاب، لكنَّ الأهمَّ هو أنَّها استطاعت تغيير طبيعة المِشية تمامًا بتَعَرُّفِها أكثر من عشرين فصيلة من الزهور البرِّيَّة. لقد كُنتُ، في مشياتي هذه، شديد التركيز على العثور على الأعشاب الضارَّة، ففاتتني رؤية هذه الأزهار البرِّيَّة الجميلة التي تُزيِّن المروج، وهي الأزهار نفسها التي كُنتُ أنتزع الأعشاب لحمايتها!

وانتبهت إلى حقيقة أنَّني أفعل شيئًا مُشابهًا في ممارستي للصلاة، فأميل لأنْ أجيء إلى الله بمجموعة معقَّدة من المشكلات، لا تختلف كثيرًا عن الأعشاب الضارَّة المُتشابكة التي أجمعها في سلَّتي عائدًا إلى المنزل، فتفوتني فرصٌ كثيرة للشكر والتسبيح، تمامًا كما فاتتني رؤية الزهور البرِّيَّة الجميلة. لقد كانت صلواتي في الأساس أنانيَّة، حيث كانت أشبَهَ بمجهودات لتجنيد الله ليحقِّق أهدافي الأنانيَّة. إنَّني أنظر إلى الله فقط كأنَّه حلَّال المشكلات (نازع الأعشاب)، وتفوتني رؤية مظاهر عمل الله المُبدعة من حولي، وعندما لا أرى شيئًا يحدث، فإنَّ صبري ينفد.

لقد وجدتُ أنَّ هناك علاجًا لفُقدانِ الصَّبرِ في الصلاة: وهو الاستمرار في الصلاة. فمن المرجَّح أنَّك سوفَ تُصابُ بالإحباط إلى درجة إمَّا تُقلع فيها عن الصلاة، وإمَّا تغيِّر أسلوبك فيها. وصف جان نيكولاس جرو (Jean Nicolas Grou)، وهو ناسك من القرن الثامن عشر، حقيقة أنَّ الصلاة الصحِّيَّة يجب أن تكون متواضعة، خاضعة لله، مُحِبَّة، وواثِقة، ومُثابِرَة، أو بكلمات أخرى، كلُّ ما هو خلاف التعَجُّل ونفاد الصبر.

من كتاب: الصلاة: هل تُحدث أيَّ اختلاف؟

١٣ أيَّار/مايو

تسبيح الطواويس

حاولت في رحلة إلى أستراليا أن أستمتع بالحياة البرِّيَّة هناك بعيون العابد، فقضيت ثلاثة أيَّام في جزيرة فيليپ، وهي صالة عرض لخليقة الله الجميلة. في الصباح، كُنتُ أهرول برفقة الكناغر، بينما كانت الببَّغاوات تطير فوق رأسي، وحيوانات الكوالا نائمة فوق غابات اليوكاليپتوس. وفي الليل، كنتُ أراقب مناظر خلَّابة للطيور البحريَّة والبطاريق.

يعود نحو مليون من الطيور البحريَّة إلى جزيرة فيليپ كلَّ سنة في الرابع والعشرين من أيلول/ سپتمبر. وفي كلِّ ليلة، يطيرون نحو الشاطئ في صورة أمواج عابرة فوق الماء، صائدة في طريقها الأسماك الصغيرة. ولكونها طيورًا صعبة المِراس، فهي تهبط هبوطًا اضطراريًّا في هذه الجزيرة، وتصطدم بالأرض، ثمَّ تنتقل إلى أعشاشها مُتَرَنِّحَةً غاضِبَة. و تُهاجِرُ هذه الطيور مسافة تسعة آلاف ميل (نحو ١٤ ألف كيلومتر) من ألاسكا. والأكثر غرابة هو طُرُقها في تربية صغارها؛ فهي تُطعم صغارها إلى حدِّ السمنة، ثمَّ يُقلع الآباء والأمَّهات في أسراب، تاركين هؤلاء الصغار عديمي الخبرة ليحاولوا اكتشاف كيفيَّة الطيران، واصطياد الأسماك، والبحث عن طريق العودة إلى ألاسكا. والمدهش أنَّ نصفهم تقريبًا يجتاز الرحلة.

وأكثر ما يُسلِّي هو العرض الليليُّ الذي تقوم به البطاريق العائدة إلى أعشاشها بعد يوم طويل من الصيد. وعند الغسق، تطفو صوب الشاطئ في "أطواف" من عشرات أو عشرينات منها. وعلى طول الشاطئ، تجتمع هذه الطيور التي لا يصل طول أيٍّ منها إلى القدم، في صورة تجمُّعات وتشكيلات، لكي تستجمع شجاعتها لعبور مسافات الرمال الشاسعة. واحدٌ يُراوغ، ويتبعه بعضهم، ثُمَّ يهاجمهم الخوف، فيعودون مُلقين أنفسَهُم في البحر مرَّة أُخرى.

يقترح سي. أس. لوِيس أنَّ مُراقبة خليقة الله، دعوة مقدَّسة فيقول:

"لا تستطيع الحيوانات التقييم، والملائكة، كما أفتَرِضُ، أشكالٌ من الذكاء النقيِّ، فهُم يفهمون الألوان والمذاقات أفضل من أفضل علمائنا؛ لكن هل لديهم شبكيَّات ترى الألوان كما نراها؟ أو حلوقٌ تتذوَّق كما نتذوَّق؟ أتخيَّل أنَّ «جمالات الطبيعة» سرٌّ يشاركه الله معنا نحن البشر فقط. ربَّما كان هذا سببًا من الأسباب التي لأجلها خُلقنا.

كتبت فلانري أوكونور (Flannery O'Connor) ذات مرَّة مقالةً عن طواويسها وردود الفعل التي يحصلون عليها عندما ينشرون ريشهم ليقدِّموا، جرَّاء انعكاس النور عليها، "مجرَّة من الشموس الساطعة". وذات مرَّة، وفي ردِّ فعلٍ على هذا الجمال، صاح أحد سائقي الشاحنات المارَّة: "لنُحضر حِمْلًا من ذلك الجمال

الباهر!" وضغط مكابح سيَّارته فجأة. أمَّا أغلب الناس فيصمتون. وردُّ الفعل الذي كان مُفضَّلًا لدى فلانري، فهو ردُّ فعل سيِّدة سمراء مُسِنَّة، عندما صاحت قائلةً فقط: "آمين! آمين!".

أعتقد أنَّ الفنَّان الذي صمَّم الطاووس استمتع بردِّ الفعل هذا. وبالتأكيد هذا ما شعرت به فوق جزيرة فيليپ.

عمود "الصفحة الخلفيَّة"، مجلَّة المسيحيَّة اليوم، ٧ نيسان/ أبريل ١٩٩٧م

١٤ أيَّار/مايو

البَرِّيَّة المُهَدَّدة

يُعبِّر الله بوضوح عن شعوره تجاه مملكة الحيوان في خطابٍ بالغ الروعة في نهاية سفر أيُّوب. تأمَّلْ من قُرب، فتلاحظَ خطًّا دقيقًا يجمع بين العَيِّنات التي كان يتكلَّم الله عنها، لغرض البناء الروحيِّ لأيُّوب: اللبؤة والماعز الجَبَليُّ والحمار الوحشيُّ والنعام والفَرَس والصقر والنسر والغُراب وبهيموث.

البَرِّيَّة هي رسالة الله الخَفِيَّة إلى أيُّوب؛ فكلُّ هذه الحيوانات بَرِّيَّة حُرَّة في الطبيعة. ويحتفل الله بهؤلاء الأعضاء من الخليقة الذين لم يُرَوِّضهم الإنسانُ. مِنَ الواضح أنَّ الحيوانات البرِّيَّة تلعب دورًا مهمًّا في "العالم كما يراه الله". فهي تُذكِّرنا بأمرٍ نحبُّ أن ننساه: أنَّنا نحن أيضًا مخلوقات. كما تعلنُ الحيوانات لحواسِّنا بهاء ذلك الإله غير المنظور غير القابل للترويض.

من الصعب تجنُّب النغمة الوعظيَّة عندما نكتب عن الحيوانات البرِّيَّة؛ لأنَّ خطايانا في حقِّها عظيمة. في بعض البلدان الأفريقيَّة، انخفض عدد الفيلة إلى النصف، كما أنَّ وحيد القرن مهدَّد بالانقراض، وذلك بسبب الصيَّادين والجنود ببندقيَّاتهم الآليَّة. وفي كلِّ سنة، نُدمِّر مساحة من الغابات المطيرة– وكلُّ ساكنيها من الحيوانات– تعادل مجموع ولايات "نيو إنغلند" في الشرق الأميركيّ.

تركِّز أغلب الكتابات عن الحياة البرِّيَّة على الحيوانات المُهدَّدة بالانقراض، لكنَّني أجد نفسي أتساءل عن تأثير ذلك فينا نحن البشر. ما الذي فقدناه أيضًا، علاوةً على القدرة الفطريَّة على تقدير جمال الطبيعة البرِّيَّة؟ هل يمكن أن يكون نفورنا من السلطة، أو فقدانُنا الوعي بالله، نابعًا من ذلك الشعور الضامر بالحياة البرِّيَّة؟

ما إنْ ذكرَ الله أوصاف هذه الحيوانات، حتَّى لَمَس وترًا له نغمة الرهبة في قلب أيُّوب: فماذا عَنَّا نَحنُ الذين كبرنا ونحن نُلقي حبَّات الفول السودانيِّ عبر القضبان المعدنيَّة لبهيموث ولوياثان؟

لقد صَرَّحَ المتخصِّص في العلوم الطبيعيَّة جون موير (John Muir) بحزنٍ أنَّه "تعزية عظيمة...أنَّ أعدادًا غفيرة من المخلوقات، كبيرة الحجم وصغيرة الحجم، عاشت واستمتعت بمحبَّة الله، قبل أن يُخلق الإنسان".

السموات تحدِّث بمجد الله، والفَلَكُ يُخبرُ بعمل يديه، وأيضًا الحيتان التي تمخر عباب البحار، والأيائل التي تتقافز. ولحسن الحظِّ أنَّه في بعض أركان العالم، لاتزال آلاف الحيوانات تعيش وتستمتع بوقتها في محبَّة الله. وأقلُّ ما نستطيع أن نفعله هو أن نوسِّع لها مكانًا لتعيش– من أجلنا نحن أيضًا، ليس فقط من أجلها.

من كتاب: كُنتُ أتساءَل فقط

١٥ أيَّار/مايو

مُشارَكة القوَّة

كنتُ سابقًا أشعر بالدونيَّة الروحيَّة؛ لأنَّني لم أختبر إظهارات الروح، ولا أستطيع أن أشارك بأيَّة "مُعجزات" واضحة في حياتي. لكنَّني أصبحتُ أُدرِكُ أَنَّ الأمورَ التي أُعطيها قيمة عُليا، ربَّما لا يُعطيها الله القيمة نفسها. لقد كان يسوع كثيرًا ما يتردَّد في إجراء المعجزات، كما أنَّه عَدَّ رحيله عن الأرض وتركه لخدمته بين يدَي تلاميذه، نوعًا من التقدُّم. يبدو أنَّ الله، مثل أبٍ فخور، يفرح بأن يرى إنجازات أولاده المتواضعة، أكثر من أيِّ تعبيرات للقُدرة الإلهيَّة الفائقة.

ومن المنظور الإلهيِّ، إنْ أمكنني أن أتصوَّر، كان التقدُّم الأعظم في التاريخ البشريِّ هو ما حدث في يوم الخمسين، والذي فيه استعاد الروح القدس سُكناه في الإنسان، الذي كان قد فُقِدَ في جنَّة عدن. أريد دائمًا أن يتدخَّل الله بأعمال مباشرة مُبهِرة لا تُخطئها أيُّ عين. لكنَّ الله يريد أن "يُشارك قوَّته" مع البشر أمثالي، ويُتمِّم عمله بواسطة أناسٍ وليس بالرغم منهم.

إنَّ صَرخَة كُلِّ مُراهِق هي "خذوني على محمَل الجِدّ، عاملوني مثل راشدٍ لا طفل!". إنَّ الله يحترم هذا الطلب، فجَعلني شريكًا في عمل الملكوت، ومنحني الحرِّيَّة عالمًا تمام العلم إمكانيَّة أن أُسيء استخدامها. إنَّ الله يفعل ذلك من مُنطلق الرغبة في علاقة حُبٍّ ناضجة بشُركاء ناضجين وليس بأطفال مُدلَّلين.

في الزواج، يمكن أن يحقِّق الزوجان الوحدة، مع احتفاظهما بالحرِّيَّة والاستقلاليَّة. وسرعان ما يدرك الزوجان أنَّ الجمع بين شخصين من نوعين مختلفين (ذكر وأنثى) في علاقة بهذا القدر من القُرب يُنشئ خلافات ربَّما تتطلَّب العمر كلَّه للتعامل معها.

لن أستطيع بتاتًا أن اختزل العلاقة بالله في منظومة ثابتة مُتَوَقَّعَة، وللسبب نفسه، لا أستطيع أيضًا أن أختزل حياتي الزوجيَّة في أيَّة معادلة محسوبة ومضمونة العواقب. إنَّها حياة، وعلاقة نامية بشخص آخر كامل الحرِّيَّة. لا توجد علاقة أكثر تحدٍّ من علاقة الزواج. في بعض الأحيان، أُجَرِّبُ أن أطلبَ زواجًا بحسب "التقاليد القديمة"، فيه الأدوار واضحة مُحدَّدة سلفًا ولا تحتاج إلى إعادة مناقشتها دائمًا. كما أنَّني أتوق أيضًا إلى تَدَخُّلٍ من الخارج يغيِّر بصورةٍ فوريَّة وحاسمة أيًّا من الصفات التي تسبِّب المعاناة لزوجتي ولي. وإلى الآن لم يحدث هذا. إنَّنا نستيقظ كلَّ صباح ونستمرُّ في رحلتنا على أرضيَّة تزداد صلابة في كلِّ خطوة نخطوها فوقها. هكذا تعمل المحبَّة، بين الشُّركاء، المنظورين وغير المنظورين.

من كتاب: محاولة اللقاء مع إله غير منظور

١٦ أيَّار/مايو

أصوات الله

يمكنك أن تفكِّر في خطَّة الله في صورة سلسلة من الأصوات. الصوت الأوَّل عالٍ كالرعد، وله مزايا عدَّة. فعندما تكلَّم الصوت من فوق قمَّة جبل سيناء المُرتعد، أو عندما لحست النار المذبح الذي أقامه إيليَّا فوق جبل الكرمل، لم يستطع أحد أن يُنكر هذا الصوت. لكن، للعجب، فإنَّ هؤلاء الذين سمعوا الصوت وارتعبوا منه- بني إسرائيل عند جبل سيناء وعند جبل الكرمل- سرعان ما تعلَّموا تجاهله. ورُبَّما كان صوته العالي هو ما عاقهم. بل قليلون جدًّا سعوا في أثر ذلك الصوت المُخيف، وأقلُّ منهم كانوا يثابرون في ما ينبغي أن يُثابروا فيه حتَّى بعد أن صَمَتَ الصوت.

أمَّا الصوت الذي قدَّمه يسوع، الكلمة الذي صار جسدًا، فنجد فيه صوت الله قد اكتسب لَكنَةً يَتَمَيَّزُ بها يهوديٌّ يعيش في إحدى قُرى الجليل. لقد كان صوتًا بشريًّا طبيعيًّا، ومع كونه تكلَّم بسُلطان، لم يرتعب الناس ولم يهربوا. وقد كان صوت يسوع حنونًا بما يكفي لأن يرفضه بعضهم ويُجادلونه، بل يقتلون صاحب هذا الصوت.

بعد أن رحل يسوع، اتَّخذ الصوت أشكالًا أخرى. ففي يوم الخمسين، حَلَّت ألسنة من لهب على المؤمنين، وبدأت الكنيسة، جسد الله، تتشكَّل. كان هذا الصوت الأخير قريبًا مثل النفَس، ولطيفًا مثلَ الهَمس. إنَّه الصوت الأكثر عُرضة للرفض وتَعَرُّضًا للإهمال. يقول الكتاب المقدَّس إنَّنا يمكن أن "نُطفئ" الروح، ويُمكننا أن "نُحزِن" الروح- حاول أن تُطفئ عُلَّيقة موسى المُتَّقِدة بالنار أو صخور الجبال المُلتَهِبة فوقَ جبل سيناء مثلًا. لن تستطيع! لكنَّك تستطيع أن تُطفئ الروح. صوت الروح هو الصوت الأكثر حميميَّة. في لحظات ضعفنا، عندما لا نعرف أن نُصلِّي، فإنَّ الروح يشفع فينا بأنَّاتٍ لا يُنطَقُ بها. هذه الأنَّات هي طَلَقات الولادة المُبَكِّرة، ومخاض الخليقة الجديدة.

لا يُزيل الروح القدس الشعور بالإحباط من الله. إنَّ الأسماء التي يُعطيها الكتاب المقدَّس للروح القدس- هي المتشفِّع والمُعين والمُشير والمُعزِّي- وهي كلُّها تشير إلى حقيقة أنَّ المشكلات ستحدُث. لكنَّ الروح القدس أيضًا هو "عربون ما سوف يأتي"، كما يقول بولس، راسمًا تشبيهًا أرضيًّا من عالم التجارة والمال. إنَّ الروح يُذكِّرنا أنَّ مثل هذه الإحباطات وقتيَّة، وهي مجرَّد مُقدِّمة لحياة أبديَّة مع الله.

من كتاب: عندما لا تمطر السماء

حَمقى مُقدَّسون

عادة ما يُتمِّم الله عمله بواسطة "حمقى مُقدَّسين"، وهم الأشخاص الحالِمون الذين يغامرون بإيمان يبدو غير منطقيّ. أمَّا أنا، فأتناول قراراتي بحساباتٍ دقيقة وتَحَفُّظٍ شديد. في الواقع، هناك قانونٌ عكسيٌّ عجيب ينطبق على أمور الإيمان؛ فالعالم الحديث يحترم الذكاء، وجمال الشكل والثقة والدقَّة والتعقيد. أمَّا الله، فيبدو أنَّه لا يهتمُّ بهذه الأشياء كثيرًا. على العكس من ذلك، يبدو أنَّه يعتمد على البُسطاء غير المُتعلِّمين، الذين لا يعرفون إلَّا أن يثقوا به، وبواسطتهم تحدث العجائب. الشخص الأقلُّ موهبة، يمكن أن يكون أستاذًا من أساتذة الصلاة؛ لأنَّ الصلاة لا تتطلَّب إلَّا رغبة شديدة في قضاء الوقت مع الله.

ذات مرَّة، نظَّمت كنيستي في شيكاغو التي تتألَّف من خليط مُبهج من الأعراق والخلفيَّات الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة، خدمة صلاة طوال الليل في أثناء إحدى الأزمات الكُبرى. وعندما همَمنا بتنظيم هذه الخدمة، عَبَّر كثيرون عن قلقهم: "هل هذا إجراءٌ آمن؟ لا سيَّما أنَّ الكنيسة في منطقة شعبيَّة. هل علينا أن نستأجر حُرَّاسًا أو مُنظِّمين ليُشرفوا طوال الوقت؟ ماذا لو لم يأتِ أحد؟". وناقشنا لوقت طويل كلَّ الأمور العمليَّة الخاصَّة بالحَدَث.

وجاء التجاوب الأكثر حماسةً لليلة الصلاة من أفقر أعضاء الكنيسة، وهم مجموعة من المسنِّين الذين يعيشون في مساكن شعبيَّة. لم أستطع أن أمنع نفسي من التساؤل عن مقدار صلوات هؤلاء الأشخاص التي لم تُستَجب عبر السنين؟ ورغم أنَّهم عاشوا في هذه المساكن الشعبيَّة وسط الفقر والجريمة والمعاناة، فما زالوا يُظهرون ذلك الإيمان الطفوليَّ في قوَّة الصلاة.

تساءَلنا: "كم سنقضي من الوقت؟ ساعة أم ساعتين؟"؛ وذلك لأنَّنا كُنَّا نُفكِّر في الترتيبات الخاصَّة بالحافِلات التي ستُقلُّ الناس. فكان ردُّ هذه المجموعة من المُسنِّين: "لا بل سنقضي الليلة كلَّها في الصلاة".

يومها جاءت سيِّدة من خلفيَّة أفريقيَّة في التسعينيَّات من عمرها تتَّكئ على عصاها وبالكاد تستطيع أن تُبصر خطواتها، وشرحت لأحد أعضاء فريق الخدمة لماذا أرادت أن تقضي الليلة على مقاعد الكنيسة الصلبة، في منطقة سكنيَّة غير آمنة. قالت له: "توجد أشياء كثيرة في خدمة الكنيسة لا نستطيع القيام بها. فنحن لسنا متعلِّمين، وليس لدينا الكثير من الطاقة الجسديَّة مثلما لديكم أنتم الأصغر سنًّا. لكنَّنا نستطيع أن نُصلِّي. لدينا الوقت، ولدينا الإيمان. وبعضنا لا يكاد ينام أصلًا. يمكننا أن نُصلِّي طوال الليل إذا كانت هناك حاجة إلى ذلك".

وهذا ما فعلوه. وهذا ما جعل بعض من الشباب المُدلّلين في تلك الكنيسة الحَضَرية يتعلّمون درسًا مُهمًّا، وهو أنَّ الإيمان يَظهَرُ في أقلِّ الأماكن التي تتوقَّع ظهوره فيها، ويضعُف في أكثر الأماكن التي كُنت تتوقَّع أن تراه فيها قويًّا.

من كتاب: محاولة اللقاء مع إله غير منظور

١٨ أيَّار/مايو

التغييرُ الجذريُّ

نادرًا ما أستيقظ في الصباح مُفعمًا بالإيمان. إنَّني كثيرًا ما أشعر مثلما تشعر تلك السمكة الاستوائيَّة التي أحتفظ بها في حوض أسماكي المملوء بالماء المالح. هذه السمكة تفرزُ كيسًا سامًّا حول جسمها في الليل، ثُمَّ تنام في سلام مُطمئنَّة أنَّ أحدًا من جيرانها لن يتعرَّض لها. وفي الصباح، تصحو وسط سحابة من السُّمّ. عادة ما يختفي إيماني على مدى الليل، وأصحو وسط غيمة من الشكوك.

سأل بولس الرسول أهل كورنثوس قائلًا: "ألا تعلمون أنَّكُم هيكلُ الله وروح الله ساكنٌ فيكم؟" إذا كُنتُ هيكلًا لله، أفلا ينبغي أن أستيقظ بهذه المعرفة وأعيش في إدراك مستمرٍّ لذلك طوال اليوم؟ للأسف. هذا لا يحدث.

يكتب بولس في مكان آخر أنَّ الله قد ختمنا "بروحِ المَوْعِدِ القُدُّوسِ، الذي هو عُربونُ ميراثِنا، لِفداءِ المُقتَنَى". بعد عمليات زرع الأعضاء، يجب على الأطباء أن يستخدموا أدوية تثبِّط جهاز المناعة لكي لا يرفض الجسم العضو الجديد. لقد أصبحتُ أُدرك أنَّ الروح القدس يمارس قوَّته داخلي بحيث يمنعني من رفض تلك الهويَّة الجديدة التي زرعها الله فيَّ. إنَّ جهاز المناعة الروحيَّ داخلي يحتاج إلى تذكير يوميٍّ أنَّ حضور الله داخلي ليس أمرًا غريبًا أحتاج أن ألفظه، بل هو هويَّتي الحقيقيَّة التي ينبغي أن أعتنقها.

إنَّ اعتناق تلك الهويَّة الجديدة يتطلَّب عملًا إراديًّا. ينصحنا بولس بخلع الإنسان العتيق ولبس الجديد، كما يوصينا أن "نلبس الذهن الجديد" يوميًّا كمن يختار من خزانة ملابسه ما يجب أن يرتديه. لقد اكتشفت أنَّ هذه العمليَّة تحتاج دائمًا إلى إرادة وتصميم حقيقيَّين.

وبدلًا من أن نندفع من مهمَّة إلى أخرى في يومنا، علينا أن نتوقَّف قليلًا، لإدراك ما يُمكن أن نسمِّيه، الوقت الذي بين الوقت والوقت. قبل إجراء مُكالمة تليفونيَّة، توقَّف قليلًا لتفكِّر في الشخص الذي سوف تتَّصل به. بعد قراءة كتاب، توقَّف قليلًا لتتأمَّل كيف أثَّر ذلك الكتاب فيك. بعد مشاهدة برنامج تلفزيونيٍّ، توقَّف قليلًا واسأل كيف أضاف إلى حياتك. قبل قراءة الكتاب المقدَّس، توقَّف قليلًا واطلب من الروح القدس، مزيدًا من الانتباه.

من كتاب: محاولة اللقاء مع إله غير منظور

١٩ أيّار/مايو

موهبة مفقودة؟

لقد استمعت إلى القصَّة التالية من صديق يعمل مع الفئات المُهَمَّشة في شيكاغو:

جاءتني إحدى العاهرات في حالة مُزرية. كانت مريضة، وغير قادرة على شراء طعام لطفلتها البالغة من العمر سنتين. ومن وسط البكاء والنحيب، قالت لي إنَّها كانت تُؤجِّر ابنتها- ذات السنتين- لبعض الرجال المولعين بالجنس الشاذّ. واستطاعت أن تُحقِّق من إيجار طفلتها في الساعة أكثر ممَّا كانت تكسبه هي في ليلة كاملة. لقد كانت مضطرَّة أن تفعل ذلك، لكي تنفق على إدمانها على المخدِّرات. وبالكاد استطعت الاستماع لهذه القصة المأساويَّة. وسبب من الأسباب، هو أنَّها جعلتني تحت المسؤوليَّة القانونيَّة؛ فأنا الآن مُطالب بالتبليغ عن حالة من حالات الإساءة إلى الأطفال. لم أدرِ ما ينبغي أن أقول لتلك المرأة الشابَّة. سألتُها إن كانت قد فكَّرت ذات مرَّة أن تذهب إلى الكنيسة للمساعدة، ولن أنسى نظرة الصدمة النقيَّة الساذجة التي بدت على وجهها. صاحت: "الكنيسة! ما الذي يجعلني أذهب إلى هُناك؟ لقد كنتُ أشعر بالخزي الشديد بالفعل. وإذا ذهبت هناك، سيجعلونني أشعر بالمزيد".

الذي صدمني في قصَّة صديقي هو أنَّ النساء اللاتي يُشبِهنَ تلك المرأة كُنَّ يهرعن إلى يسوع وليس بعيدًا عنه. وكلَّما كان يشعر الإنسان بالخزي، كان يرى في يسوع الملجأ والملاذ. هل فقدت الكنيسة تلك العطيَّة؟ يبدو أنَّ المدوسين والمُزدرى بهم، الذين كانوا يتجمَّعون حول يسوع عندما عاش على الأرض بيننا، لم يعودوا يشعرون بالترحاب بين تلاميذ يسوع وتابعيه. فما الذي حدث؟

وكلَّما تأمَّلت ذلك السؤال، شعرت بالانجذاب إلى هذه الكلمة المحوريَّة: النعمة.

يكتب ستيفن براون (Stephen Brown) أنَّ الطبيب البيطريَّ يستطيع أن يتعلَّم الكثير عن مالك كلب لم يره من قبل بملاحظة الكلب نفسه. ما الذي يتعلَّمه العالم عن الله عندما يشاهد تابعيه على الأرض؟ عندما تتَّبع أصل كلمة "النعمة" كما تَرِدُ في اللغة اليونانيَّة، فستجد أحد الأفعال التي تحمل المعنى: "أفرح، وأحتفل". ومن خبرتي الشخصيَّة، فإنَّ الفرح والسعادة، ليست هي أوَّل الصور التي تتبادر إلى الأذهان عندما يفكِّر الناس في الكنيسة. لكنَّهم يفكِّرون في توجيه الإدانة والمقارنة. إنَّهم يحسبون الكنيسة مكانًا تذهب إليه بعد أن تنقِّي نفسك، وليس قبل ذلك. إنَّهم يفكِّرون في الأخلاقيَّات، وليس في النعمة.

من كتاب: ما أعجب النعمة

٢٠ أيَّار/مايو

آخر أفضل كلمة

بصفتي كاتبًا، ألعب بالكلمات طوال اليوم. أُداعبها، وأفحص إيحاءاتها المختلفة، وأفتحها وأعبِّئها في أفكاري. وقد اكتشفت أنَّ الكلمات تميل أن تفسد. وكما يفسد الطعام ويتعفَّن، فإنَّ الكلمات أيضًا يمكن أن تتعفَّن ولا تعني ما كانت تَعنيه مِن قَبل. خُذ كلمة "Charity" في اللغة الإنكليزيَّة مثلًا. عندما تأمَّل مترجمو نُسخة الملك جيمس الإنكليزيَّة أعلى مستويات المحبَّة، استقرُّوا على كلمة "Charity" التي كانت توحي بالمحبَّة ذات الفضل. أمَّا الآن، فنسمع من يقول مُحتجًّا: "لا أريد فضلك (charity)!".

ربَّما أدور وأعود مرَّة أخرى إلى كلمة "النعمة" (Grace) لأنَّها الكلمة اللاهوتيَّة الكُبرى التي لم تفسد بعد. وأُسميها "آخر أفضل كلمة" لأنَّني أجدها في كلِّ استخداماتها في اللغة الإنكليزيَّة قد احتفظت ببعض من المجد الذي في الأصل. إنَّ هذه الكلمة مثل بئر مياه جوفيَّة لا تنضب يقع خلف حضارتنا المتكبِّرة، لتذكِّرنا أنَّ الأشياء الجيِّدة لا تأتي من مجهوداتنا، وإنَّما من نعمة الله.

إنَّ النعمة عجيبة، وهي بالفعل هي آخر أفضل كلمة. فهي تحتوي على جوهر الإنجيل كما يمكن أن تعكس قطرة ماء صغيرة صورةً كاملة للشمس. إنَّ العالم متعطِّش إلى النعمة بطرق لا يكاد هذا العالم يدركها؛ فلا عجب إذًا إن كانت ترنيمة "ما أعجب النعمة" قد حفرت طريقها إلى قائمة أفضل عشرة أغنيَّات حتَّى بعد مئتي سنة من تأليفها. فلمجتمع قد جنحت سفينته بلا مرسى، لا أعرف مكانًا أفضل من النعمة لكي نُنزل فيه مرساة الإيمان.

مثل نغمات النعمة في الموسيقا، فإنَّ حالات النعمة تبدو عابرة. يسقط سور برلين في ليلة من النشوة الغامرة، ويقف الملوَّنون في جنوب أفريقيا في طوابير طويلة ليصوِّتوا في الانتخابات للمرَّة الأولى، ويتصافح إسحاق رابين وياسر عرفات في حديقة الزهور في البيت الأبيض- في لحظات من الزمن، تهبط النعمة على كوكبنا. لكن بعد أن سقط سور برلين، بدأت أوروبَّا الشرقيَّة سنوات كئيبة في المهمَّة الطويلة لإعادة البناء. وبعد الانتخابات، بدأوا في جنوب أفريقيا محاولة تعرُّف الكيفيَّة التي بها يديرون بلادهم. وتعرَّض عرفات لمحاولة اغتيال، وقُتل رابين في واحدة. إنَّ النعمة كنجم يحتضر، يُطلق ضوءه الخافت الأخير ليبتلعه ثقب "عدم النعمة" الأسود.

من كتاب: ما أعجب النعمة

٢١ أيّار/مايو

السقوط في النعمة

لم تأت النعمة إليَّ أوَّلًا في أشكال أو كلمات الإيمان. لقد كبرت في كنيسة كانت تستخدم كلمة "النعمة" كثيرًا لكنَّها كانت تعني شيئًا آخر تمامًا. النعمة مثل الكثير من الكلمات الدينيَّة، جُرِّدت من معناها لدرجة أنَّني لم أعد أستطيع الثقة بها.

لقد اختبرت النعمة في الموسيقا. في كلِّيَّة اللاهوت التي درستُ فيها، كان يُنظر إليَّ بوصفي مُنشَقًّا. كان الناس هناك يصلُّون من أجلي علنًا، ويسألوني إذا كُنت مُحتاجًا إلى إخراج الشياطين منِّي. شعرتُ بالمضايقة والاضطراب والحيرة. وبدأت أتسلَّق خارجًا من نافذة غرفتي في المهجع وأتسلَّل إلى الكنيسة التي كان فيها بيانو ضخم من نوع راقٍ. وفي ظلام الكنيسة، تحت ضوء خافت يمكِّنني من قراءة النوتة، كُنتُ أجلس، لساعة أو أكثر من كلِّ ليلة لأعزف مقطوعات بيتهوڤن، ومقدِّمات شوبان، وارتجالات شوبر. وكنتُ أشعر بأنَّ أصابعي تصنع نظامًا في العالم الذي لا نظام فيه. كان عقلي مشوَّشًا، وكان جسدي مشوَّشًا أيضًا، لكنَّني هناك استشعرتُ عالمًا من الجمال والنعمة والدهشة، خفيفًا كسحابة، ومُبهِرًا كجناح فراشة.

حدث شيءٌ شبيه بذلك في عالم الطبيعة. لكي أهرب من سحق الأفكار والأشخاص، كُنتُ أتمشَّى مِشيات طويلة في غابات الصنوبر المُرصَّعة بشجر القرانيا. وكُنتُ أتتبَّع المسارات المتعرِّجة لذبابات التنِّين عبر النهر، وأشاهد أسراب الطيور تحوم فوقي، وألتقط قطع الخشب لأشاهد الخنافس مختبئة داخلها. لقد أُعجِبتُ بالطريقة التي بها تستوعب الطبيعة كلَّ أشكال الكائنات المختلفة وتعطيها مكانًا. لقد شاهدتُ الدلائلَ التي تقولُ إنَّ العَالَمَ يَحتوي على العظمة المُبهرة، والخير العظيم، و آثارٍ واضحة للبهجة.

وفي الوقت نفسه تقريبًا، وقعتُ في الحبّ. شعرت بالضبط كمن يقع من رأسه إلى قدميه في حالة من الخِفَّة غير المحتملة، كما لو كُنتُ قد فقدت وزني فجأة. كما لو كانت الأرض قد مالت على محورها. لم أكن مستعدًّا للحبِّ كما لم أكن مستعدًّا أيضًا للخير وللجمال. فجأة، بدأ قلبي كأنَّه انتفخ وصار أكبر من صدري.

لقد كُنتُ أختبر ما يسمُّونه في دراسة اللاهوت: "النعمة العامَّة". إنَّها شيء مُبهر. لقد وَجدتُ نفسي أشعر بالعرفان، ولا أعرف من أشكر بالتحديد. شعرت بالرهبة والجلال ولا أحد لأعبده. وعُدتُ بالتدريج إلى إيمان الطفولة الذي كُنتُ قد تركته.

من كتاب: ما أعجب النعمة

٢٢ أيَّار/مايو

لماذا لا أحضر كنيسة ضخمة؟

إنَّني أقاوم التيَّار السائد الذي يُؤيِّد الكنائس الضخمة، مُفضِّلًا أماكن أصغر بعيدة عن الضوء. لم أفهم تمامًا السبب حتَّى صادفت تلك الملاحظة التخالفيَّة في كتاب جي. كاي. تشسترتون "**المهرطقون**" *(Heretics)*:

"إنَّ الإنسان الذي يعيش في مجتمع صغير يعيش في عالم أكبر. والسبب واضح: في المجتمع الكبير نستطيع أن نختار رِفقَتنا. أمَّا في المجتمع الصغير، رفقاؤنا اختيروا مُسبَّقًا".

بالتحديد! إذا كان لديَّ الاختيار، فسأرافق أشخاصًا يشبهونني- أشخاصًا لديهم درجات جامعيَّة، ويشربون فقط قهوة ستاربكس الداكنة، ويستمعون إلى الموسيقا الكلاسيكيَّة، ويشترون سيَّاراتهم بناءً على تقييمات عدد الأميال نسبة إلى الوقود. لكنَّني بعد بُرهة سوف أشعر بالملل مع من هُم على شاكلتي. المجموعات الأصغر (والكنائس الأصغر) تُجبرني أن أحتكَّ بالجميع.

يُعرِّف هنري نوين "المُجتمع" بوصفه المكان الذي يعيش فيه آخر شخص تتمنَّى أن تعيش معه. إنَّنا عادة ما نُحيط أنفسنا بمن نرغب جدًّا في العيش معهم، ممَّا يُشكِّل نوعًا من النادي أو الشلَّة. ليس هذا هو المجتمع. أيُّ إنسان يمكن أن يؤسِّس ناديًا، لكن لكي تصنع مجتمعًا، يتطلَّب نعمة ورؤية مشتركة، وعملًا شاقًّا.

لقد كانت الكنيسة المسيحيَّة أوَّل مؤسَّسة في التاريخ تجمع معًا وعلى قدم المساواة، اليهود والأمم، الرجال والنساء، العبيد والأحرار. وقد استفاض الرسول بولس في الكلام عن هذا بوصفه "السرَّ، المكتوم مُنذُ الدهور". وبتشكيل مجتمع من أشخاص مختلفين، يقول بولس، لدينا الفُرصة أن نلفت انتباه العالم بل العالم الروحيَّ الفائق للطبيعة (أفسس ٣: ٩-١٠).

للأسف، لقد فشلت الكنيسة في هذه المهمَّة في بعض النواحي. (نعم، يا بيلي غراهام، تظلُّ الساعة الحادية عشر من صباح الأحد هي الساعة الأكثر تفرقة عنصريَّة في أميركا). ومع هذا، حتَّى الكنائس التي تجمع البيض فقط أو الملوَّنين فقط تُظهر تعدديَّة في السنِّ ومستوى التعليم، والطبقة الاقتصاديَّة. الكنيسة هي المكان الوحيد الذي أزوره فأجد فيه الأجيال المختلفة معًا- من الرضَّع الذين لا يزالون على صدور أمَّهاتهم، إلى الأطفال الذين يلعبون ويقهقهون في الأوقات الخاطئة. ومن الراشدين المسؤولين والعارفين كيفيَّة التصرُّف بصورة مناسبة في كلِّ الأوقات، إلى المُسِنِّين الذين رُبَّما يأخذهم النعاس إذا طالت العِظة.

إنَّني أبحث قاصدًا عن الجماعة المتعبِّدة التي تحتوي على أشخاص لا يُشابهونني، وعادة ما أجدهم ولا

أستطيع تجنّبهم عندما أكون في كنائس أصغر.

عمود "الصفحة الخلفيّة"، مجلّة المسيحيّة اليوم، ٢٠ أيّار/ مايو ١٩٩٦م

٢٣ أيَّار/مايو

العناية الهادئة

كيف أساعد شخصًا آخر لديه احتياج؟ ماذا أستطيع أن أفعل لتخفيف خوف مثل هؤلاء الأشخاص؟ لقد تعلَّمت أنَّ مجرَّد الحضور البسيط هو أقوى ما يُمكِننا أن نُشارك به لتهدئة خوف شخص آخر.

إنَّنا مُحِقُّون في لوم أصدقاء أيُّوب الثلاثة بسبب ردود فعلهم المُتشدِّدة تجاه ألم أيُّوب، لكن ربَّما علينا أن نقرأ القصَّة مرَّة أخرى: فعندما جاءوا، جلسوا في صمتٍ بجانب أيُّوب لمدَّة سبعة أيَّام وسبع ليال قبل أن يفتح أيٌّ منهم فمه. وكما ظهر في ما بعد، كانت هذه هي الأوقات الأكثر بلاغة وحكمة في كلِّ الوقت الذي قضوه معه.

أنا أتجنَّب غريزيًّا المتألِّمين وأبتعد عنهم. فمن يعلم إن كانوا يريدون الكلام عمَّا أصابَهُم أم لا؟ هل يُريدون أن يعزِّيهم الآخرون أو يُخفِّفوا عنهم؟ ماذا يمكن أن يفعل حضوري؟ يدور عقلي بهذه التبريرات وتكون النتيجة أنَّني أفعل أسوأ شيء مُمكن: أظلُّ بعيدًا.

يحكي توني كامپولو (Tony Campolo) قصَّة ذهابه إلى جنازة لتعزية أسرة أحد معارفه، وبالخطأ ذهب إلى قاعة أُخرى كانت فيها جنازة رجل مُسِنٍّ وكانت زوجته هي الحاضرة الوحيدة في الجنازة. وإذ بدت وحيدة، قرَّر كامپولو أن يبقى معها في الجنازة، بل ذهب معها أيضًا إلى المقبرة.

وفي نهاية الخدمة التي في جوار المقبرة، وعندما غادرا المقبرة معًا، اعترف كامپولو لها أنَّه لم يعرف الفقيد. فقالت الزوجة: "أدركت ذلك، فأنا لم أعرفك. لكن لا يُهِم". وأمسكت ذراعيه واعتصرتها بشدَّة حتَّى تألَّم، وقالت: "لن تُدرِك بتاتًا كم كان ذلك يعني الكثير لي".

عندما أطرح السؤال: "من أكثر شخص ساعدك؟". لا يَذكر أحدٌ اسم فيلسوف. وعادة ما يصفون شخصًا بسيطًا هادئًا لا يدَّعي في نفسه شيء، شخصًا كان موجودًا عند الحاجة إليه- شخصًا لم يظلَّ ينظر في ساعته متعجِّلًا الرحيل، شخصًا كان يحتضن ويلمس بحنان، ويبكي، باختصار، شخصًا مُتاحًا، وموجودًا بشروط الشخص المُتألِّم وليس بشروطه هو.

من كتاب: أين الله في وقت الألم؟

٢٤ أيَّار/مايو

تَلامَس مَعَ الحُب

تلقَّيت نسخة من خطاب سيِّدة اختبَرَت لمسة شافية من جسد المسيح. ولمدَّة سبع سنوات، خدَمَت زوجها، وهو موسيقيٌّ كنسيٌّ معروفٌ مُصاب بمرض عصبيٍّ نادر. وبعدما مات، وفي ذكراه الأولى، أرسلت الأرملة خطاب شكر إلى الأصدقاء العديدين في الكنيسة. إليكم جزءًا منه:

"مُنذ أن بدأت الأعراض الأولى، أحطتموني بالمحبَّة والمُساندَة. لقد رفعتم من روحنا المعنويَّة بما لا يُحصى من الرسائل والبطاقات.

لقد زرتمونا واتَّصلتم هاتفيًّا، وعادة من أماكن بعيدة. أحضرتم طعامًا رائعًا. وساعدتمونا في مهام كثيرة. أصلحتُم أشياءنا المعطَّلة والمكسورة وتركتُم أشياءَكُم. نظَّفتم أفنيتنا، وأحضرتم بريدنا، وأخرجتم قمامتنا. وأحضرتم هدايا محبَّة لإضفاء البهجة على حياتنا.

لقد لعبتُم دور «الطبيب»... بل أصلح أحدُكُم ضرسًا هُنا في البيت. لقد فعلتم أشياء عبقريَّة جعلت الحياة أكثر سهولة لكلينا، مثل "سُترة السُّعال" (التي كانت تساعد نورم على السُّعال بسبب ضعف عضلات صدره)، ومفتاح الإنارة التي يعمل بالإشارة الذي كان نورم يستخدمه حتَّى الأيَّام الأخيرة من حياته. لقد شاركتمونا بآيات من الكتاب المقدَّس، و جعل بعض منكم خدمته أن يصلِّي بصورة منتظمة لأجل هؤلاء الذين كانوا يأتون بعلاجات التنفُّس. لقد جعلتموه يشعر أنَّه لا يزال جُزءًا حيًّا من خدمة الموسيقا في الكنيسة.

أمَّا عن الصلاة! يومًا تلو الآخر، شهرًا تلو الآخر، بل سنة تلو الأُخرى، كانت هذه الصلوات مثل المرساة التي نرسو عليها، والتي كانت ترفعنا في الأوضاع الصعبة، وتُعطينا قوَّة، لم يكن مُمكنًا الحصول عليها بطرق بشريَّة، وساعَدَتْنا لكي نطلب نحن أيضًا معونة الله. يومًا ما سوف نفهم شبب عدم شفاء نورم بالكامل هُنا. لكنَّنا نعلم أنَّه ظلَّ معنا مدَّة أطول وفي حالة أفضل عن المعتاد ممَّا لمُصابٍ بهذا المرض. إنَّ المحبَّة ليست كلمة قويَّة بما يكفي للتعبير عمَّا نشعر به تجاهكم".

لقد مثَّل أعضاء كنيسة تلك الأرملة حضور الله لها. فبسبب محبَّتهم واهتمامهم، لم تُعذِّبها الشكوك في محبَّة الله لها. لقد استطاعت أن تشعر بمحبَّته بواسطة اللمسة البشريَّة من جسد المسيح، كنيستها المحلِّيَّة.

من كتاب: أين الله في وقت الألم؟

مَسَالِك في الأدغال

عندما أبدأ كتابًا، أُشابه الذي يأخذ منجلًا ويشُقُّ طريقَهُ وَسط الأدغال الكثيفة، لا لأشُقَّ مسارًا للآخرين، ولكن لكي أشقَّ مسارًا لنفسي. هل سيتبعني أحد؟ هل ضللت طريقي؟ لا أعرف بتاتًا الإجابة بينما أكتب؛ فقط أستمرُّ في استخدام المنجل يمينًا ويسارًا.

لكنَّ هذه الصورة ليست دقيقة تمامًا، ففي أثناء شقِّي طريقي، أستخدم في واقع الأمر خرائط صنعها كثيرون: "سحابة الشهود العظيمة" التي سبقتني. إنَّ صراعاتي مع الإيمان تتميَّز بميزة الإيجابيَّة، وهي أنَّها تأتي من سلسلة نَسَب طَويلة وعظيمة؛ فإنَّني أجد تعبيرات كثيرة مألوفة عن الشكِّ والحيرة في الكتاب المقدَّس نفسه. لقد اتَّهم سيغموند فرويد الكنيسة أنها تُعَلِّم فقط الأسئلة التي تستطيع إجابتها. بالفعل بعض الكنائس ربَّما تفعل ذلك، لكنَّ الله بالتأكيد لا يفعل ذلك. في أسفار كتابيَّة مثل أيُّوب والجامعة وحبقوق، يقدِّم الكتاب المقدَّس أسئلة صريحة ومباشرة ليست لها إجابات.

وعندما أبحث، أجد أنَّ القدِّيسين العظام قد واجهوا الكثير من هذه العقبات، وساروا في المسارات المنحرفة نفسها، وكثيرًا ما شعروا بالطرُق أمامهم مسدودة كما أشعر، وكما يشعر قُرَّائي الذين يُراسلونني. وتميل الكنائس الحديثة أن تعرض اختبارات النجاح الروحيِّ، لا الفشل الروحيّ. هذه القصص من النجاح الباهر، تجعل الجالسين على مقاعد الكنيسة يشعرون شعورًا أسوأ. لكنَّك عندما تتعمَّق أكثر قليلًا في تاريخ الكنيسة، فإنَّك تجد قصَّة أخرى تمامًا- قصَّة الذين يُصارعون ليسبحوا ضدَّ التيَّار مثل الأسماك التي تبحث عن مكان آمن لتضع بيضها. لا أقول هذا لأُحبِط إيمان أحد، لكن لكي أضيف جرعة من الواقعيَّة للدعاية الروحيَّة التي تَعِد بأكثر ممَّا تستطيع أن تَفي به. فبطريقة عجيبة، يُثبِّتُ الفشل نفسه عقيدةَ الكنيسة. إنَّ النعمة مثل المياه، تنساب إلى أكثر الأماكن انخفاضًا. إنَّ ما نمتلكه في الكنيسة لكي نعطيه للعالم، هو تواضع وانسحاق وليس وصفة للنجاح. إنَّنا وحدنا، في مجتمعنا الذي يكاد يعبد النجاح، من يعترف أنَّنا فشلنا، وسوف نظلُّ نفشل. لذلك فإنَّنا نهرع إلى الله.

من كتاب: محاولة اللقاء مع إله غير منظور

رفقاء الشكوك

بمرور الوقت، أصبحتُ أكثر راحةً مع الغموض منها مع اليقين. إنَّ الله لا يلوي أذرعنا ولا يدفعنا نحو الرُّكن بحيث لا يكون لنا مخرج سوى الإيمان. إنَّ ما سوف نراه، سوف يكون دائمًا، كما يقول پاسكال: "كثيرًا حتّى إنَّنا لا نستطيع أن نُنكِر، وقليلًا لدرجة أنَّنا لا نستطيع أن نتيقَّن".

عندما أنظر إلى يسوع، الله الذي جعل نفسه منظورًا للعين البشريَّة، أرى رفض الله أن يُرغمنا على الإيمان به. لقد كان يسوع يجعل من الإيمان أصعب، لا أسهل. لم ينتهك بتاتًا حرِّيَّة الفَرد أن يُقرِّر بنفسه، حتَّى لو كان قراره هذا ضدَّ يسوع.

لم يكن في الكنيسة التي نشأتُ فيها مساحة للشكّ. كانوا يقولون لنا: "فقط آمن!". وأيُّ شخص لا يُطيع، فإنَّه يُخاطر بأن يُعدَّ مُنحرفًا ومُتَمَرِّدًا. في كُليَّة اللاهوت التي كُنَّا فيها، حصل أخي على تقدير "راسب" على خطاب تَجَرَّأَ، في السِّتِّينيَّات، أن يعُدَّ أنَّ موسيقا الروك ليست في حدِّ ذاتها، غير أخلاقيَّة. ومع أنَّ أخي كان موسيقيًّا كلاسيكيًّا، لم يكن حتَّى ممَّن يألَفون موسيقا الروك، فلم يستطع أن يجد أيَّ سَنَد كتابيٍّ لحُجَّة هذه الكليَّة ضدَّ موسيقا الروك.

لقد استمعت إلى أخي يتحدَّث أكثر من مرَّة- فهو كان مُناظِرًا تنافسيًّا- وأطَّلَعت على مُلَخَّص حديثه، وأيقنت أنَّه حصل على تقدير "راسب" لسبب واحد: الأستاذ لم يتَّفق مع استنتاجه. بل إنَّ ذلك الأستاذ قرَّر أيضًا أنَّ الله نفسه يعترض على هذا الاستنتاج. ترك أخي الكليَّة. كما ترك أيضًا الإيمان، ولم يعُد بتاتًا، وأعتقد أنَّ ذلك كان بصفة عامَّة لأنَّه لم ير حقًّا يُحرِّر، ولم يَجِد الكنيسة التي فيها مكانٌ للابن الضالّ.

أمَّا أنا، فقد كانت خبرتي مختلفة جدًّا عن خبرة أخي. ففي ترحالي الروحيِّ، وَجَدت كنيسة ملآنة بالنعمة ومسيحيِّين أتاحوا مساحة آمنة للشكوك. وألاحظ أنَّه في الأناجيل ظلَّ التلميذ توما في رفقة التلاميذ الآخرين، رغم أنَّه لم يُصدِّق رواية التلاميذ الآخرين عن القيامة، وهذا هو المجتمع الذي في وسطه ظهر يسوع ليقوِّي إيمانه. وبطريقة مُشابِهَة، كان أصدقائي وزملائي في مجلَّة "الحياة الجامعيَّة"، ثُمَّ في "المسيحيَّة اليوم"، و"كنيسة شارع لاسال" (LaSalle Street Church) في شيكاغو، يُشَكِّلون لي مكانًا آمنًا حَملني كلَّما اهتزَّ إيماني وتزعزع. إنَّني أشعر بالحُزن من أجل المتشكِّكين الذين يشعرون بالوِحدَة ويحتاجون إلى رُفقاء شكوك جديرين بالثقة.

من كتاب: محاولة اللقاء مع إله غير منظور

٢٧ أيَّار/مايو

مساحة للشكِّ

بعد أن تكلَّمت كثيرًا مادحًا الشَّكَّ، أحتاج أيضًا أن أعترف أنَّ الشَّك يُمكِنُ أيضًا أن يأخذ الإنسان بعيدًا عن الإيمان وليس نحوه. في حالتي، قادني الشكُّ إلى التساؤل بشأن أشياء كثيرة تحتاج إلى التساؤل بشأنها وأيضًا أن أبحث عن بدائل الإيمان وأمتحنها، ولم يكن أيٌّ منها مُرضيًا لي. إنَّني الآن ما زلت مسيحيًّا بفضل شكوكي. أمَّا لآخرين كثيرين، كان للشكِّ تأثيرٌ مختلف؛ فقد عَمِلَ فيهم كمرض عصبيٍّ يؤدِّي إلى شللٍ روحيٍّ متزايد ومؤلم. كُلَّ أسبوع تقريبًا، أردُّ على خطاب من شخص تُعَذِّبهُ الشكوك. وعذاب هذه الشكوك لا يقلُّ حدَّة أو إرهاقًا عن أيِّ عذاب آخر أعرفه.

رغم أنَّنا لا نستطيع السيطرة على الشكِّ، فإنَّنا نستطيع أن نتعلَّم توجيهه بطُرُق تجعَله مُفيدًا لا سامًّا. وفي بداية الأمر، أبدأ بالتعامل مع شكوكي بالتواضع الذي يتناسب مع حقيقة كوني مخلوقًا محدودًا.

إنَّ الطريقة التي نتعامل بها مع الموضوعات الصعبة يجب أن تتناسب مع حالتنا بصفتنا مخلوقات محدودة. خُذ مثلًا عقيدة سيادة الله التي يعلِّمها الكتاب المقدَّس بطريقة تجعلها لا تزال تقف في توتُّر مستمرٍّ مع الحُرِّيَّة الإنسانيَّة. إنَّ منظور الله كُلِّيِّ القدرة، الذي يرى فيه التاريخ كلَّه في وقت واحد، يُحيِّر اللاهوتيين، وهذا ببساطة لأنَّ هذا المنظور غير مُتاح لنا، بل لا يُمكِنُنا حتَّى تخيُّله. إنَّ أفضل عالم فيزياء في العالم يصارع لكي يشرح الأسهم متعدِّدة الاتجاهات الخاصَّة بالزمن. أمَّا التناوُل المُتَّضِع للأمور، فيقبل الفرق في المنظور حتَّى نعبد الله الذي يسمو فوق محدوديَّاتنا.

يجب أن نحاول أن نبحث في بعض الموضوعات التي تقع على جانبَي هذه العقيدة. لقد وجدتُ عزاءً، مثلًا، في وصف الجحيم الذي قدَّمه كتاب "**الطلاق العظيم**" *(The Great Divorce)* الذي فيه لا يزال الجحيم مكانًا يمكن فيه أن يختار الإنسان، ويواصل الاختيار. وكما يقول الشيطان بلسان الشاعر ميلتون (Milton): "خير لي أن أملُكَ في الجحيم، على أن أعبُدَ في السماء". لكنَّني ما زِلتُ أُصِرُّ أنَّ أهمَّ الأسئلة بشأن السماء والجحيم- من يذهب إلى أين؟ وهل توجد فرصة ثانية؟ وما شكل الثواب والعقاب؟ وما الحالة الوسيطة بين الموت والدينونة؟- كلُّها أشياء مُعتمة بنظري في أفضل تقدير. لكنَّني بصورةٍ متزايدة أشعُرُ بالعرفان للجَهل؛ لأنَّ الله الذي أعلن عن نفسه في يسوع المسيح هو الشخص الذي لديه الإجابات.

من كتاب: محاولة اللقاء مع إله غير منظور

٢٨ أيَّار/مايو

غياب البدائل

لكي أومن أنَّ الله موجود، يجب أن أُمارس الثقة والإيمان، وهذا مَطلَبٌ ضروريٌّ لأيَّة علاقة: أن تؤمن بأنَّ الطرف الآخر كائن وموجود. لكنَّني كلَّما حاولت أن أكتشف طريقة عمل الإيمان وطريقة مُمارسة الثقة، وجدتُ نفسي أتسلَّل من باب الشكِّ الخلفيِّ، لأنَّ أكثر وقت أُدرِكُ فيه احتياجي إلى الإيمان، هو وقت غياب ذلك الإيمان. إن كون الله غير منظور يضمن لي أن أختبر فتراتٍ من الشكّ.

كُلُّ إنسانٍ منَّا يتذبذب مثل بندولٍ من الإيمان إلى عدم الإيمان، ثُمَّ من عدم الإيمان إلى الإيمان مرَّة أخرى، وأين ينتهي به الأمر؟ بعضهم لا يجد الإيمان بتاتًا.

إنَّني أشعر بالقُرب من هؤلاء الذي يجدون أنَّه من المستحيل أن يؤمنوا أو يظلُّوا في حالة من الثقة في مواجهة ما يُشبه الغدر والخيانة. لقد كُنتُ في مكان مُشابه لذلك أكثر من مرَّة، وإنَّني لأَتَعَجَّب من طريقة منح الله إيَّاي في هذه الأوقات عطيَّة إيمان غير مُتَوَقَّعة. عندما أفحص فترات غياب الإيمان التي مررتُ بها، أجد فيها كلَّ سمات فقدان الإيمان. في بعض الأحيان، يُحبِطُني غياب الأدِلَّة، وفي أحيان أخرى، أتباعد بسبب الألم والجرح والإحباط، وفي أحيان أُخرى، أتحوَّل نحو العصيان المقصود. لكن شيئًا ما، يجتذبني كلَّ مرَّة عائدًا إلى الله. وأتساءل عن هذا الشيء.

"هذا الكلام صَعب. من يقدر أن يسمعه؟". قال تلاميذ يسوع هذه العبارة، وتظلُّ هذه الكلمات تتردَّد داخل كلِّ من يشُكّ. لقد وجد سامعو يسوع أنفسهم ينجذبون إلى يسوع وفي الوقت نفسه ينفرون منه، مثلما تتوَتَّر إبرة البوصلة عندما تقترب من المغناطيس. وكلَّما مرَّ الوقت، وغاصت كلمات يسوع في قلوب سامعيه، بدأوا واحدًا تلو الآخر يمضون ويتركونه، حتَّى بقي فقط الاثنا عشر. فسألهم يسوع: "ألعلَّكم أنتم أيضًا تريدون أن تمضوا؟". ربَّما قال هذه العبارة لهم بنبرة هي بين الحُزن والاستسلام. وكالعادة يكون بطرس أوَّل المتكلِّمين فيقول: " يا ربُّ، إلى من نذهب؟".

هذا عندي هو بيت القصيد. هذه الإجابة هي التي تجعلني أعود دائمًا. ولخزيي، فإنَّني أعترف أنَّ أحد أقوى أسباب بقائي بين القطيع، هو فقر البدائل الأُخرى، والتي بالفعل جرَّبت الكثير منها. يا ربُّ، إلى من أذهب؟ الشيء الوحيد الأصعب من أن تكون لديك علاقة بإله غير منظور هو ألَّا تكون لك هذه العلاقة.

من كتاب: محاولة اللقاء مع إله غير منظور

٢٩ أيَّار/مايو

علاقاتٌ يميِّزُها الشَّغَف

أيُّها تختار: الامتلاء أم الجفاف؟ النور أم الظلام؟ الانتصار أم الهزيمة؟ إذا ضُغطتُ لأجيب، سأقول: "الاثنين". إنَّ المسار الذي يضمن لك دائمًا حياة صلاة ناجحة، وحضورَ الله بفاعليَّة، وانتصارًا مستمرًّا على التجربة، هو المسار الذي رُبَّما يؤدِّي إلى جنوح سفينتك. إنَّ العلاقة بإله غير منظور سوف تتضمَّن دائمًا شكًّا وعدم يقينٍ ومواقف متغيِّرة متباينة.

لكنَّني أفضِّل أن أتجنَّب السؤال؛ لأنَّني أومن أنَّه السؤال الخاطئ. فعندما أنظر إلى الوراء نحو أبطال الإيمان، أجدهم يشتركون في شيء واحد: ليس الانتصار، والنجاح، بل الشغف. أيُّ تركيز على تقنية روحيَّة بوصفها الوصفة السحريَّة، يمكن أن يقودنا بعيدًا عن علاقة المحبَّة والشغف التي يعطيها الله قيمة أكبر من أيَّة قيمة. إنَّ الكتاب المقدَّس يشدِّد على العلاقة الشخصيَّة أكثر من النظام العقائديِّ، أو الخبرة الروحيَّة السرِّيَّة، والعلاقات الشخصيَّة لا يمكن أن تكون في حالة مستقرَّة متجمِّدة دائمًا.

إنَّ المُفَضَّلين لدى الله هُم الذين يتجاوبون بوَجد وشغف. جادَل موسى الله بكلِّ حرارة حتَّى إنَّه في مرَّات عدَّة أقنع الله أن يغيِّر خُطَطِه. يعقوب صارع مع الله طوال الليل واستخدم الحيلة لكي يحصل على البركة. انفجر أيُّوب بالغضب والثورة على الله. وداود كسر على الأقل نصف الوصايا العشر. لكنَّ ما يميِّزهم كلُّهم هو أنَّهم لم يتركوا الله أو ييأسوا منه، ولم يتركهُم الله ولم ييأس منهم. يمكن أن يحتمل الله الغضب واللوم، بل العصيان الكامل. لكنَّ شيئًا واحدًا هو الذي يوقف العلاقة: إنَّه عدم المبالاة. يقول الله لإرميا في اتِّهام صريح لإسرائيل: "لأنَّهم حوَّلوا نَحوي القَفا لا الوَجه".

إنَّني أتعلَّم من العمالقة الروحيِّين في الكتاب المقدَّس هذا الدرس المهمَّ عن العلاقة بإله غير منظور: مهما فعلت، لا تتجاهل الله. ادعُهُ إلى كلِّ جانب من جوانب حياتك.

تُمَثِّل أوقات الأزمات الشديدة لبعض المسيحيِّين، مثل التي مرَّ بها أيُّوب، أوقاتَ خطرٍ شديد. كيف يمكنهم التمسُّك بإيمانٍ بإله يبدو غير مُهتمٍّ وربَّما عنيف؟ آخرون، وأحسب نفسي من بينهم، يواجهون خطرًا أكثر خُبثًا، وهو تراكم التشتيت- حاسوب لا يعمَل، فواتير يجب دَفعَها، ورحلة مقبلة، وزفاف صديق، وانشغالات الحياة اليوميَّة- هذه الأشياء تقوم بالتدريج وبلا شعور بدفع الله من بؤرة الانتباه نحو الأطراف. في بعض الأيَّام أُقابل أشخاصًا وآكُل وأعمَل وأتَّخِذُ قراراتٍ، وكلُّ ذلك دون أن أعير الله أيَّ تفكير. هذا الفراغ أكثر خطورة من كلِّ ما مَرَّ به أيُّوب؛ لأنَّ أيُّوب لم يتوقَّف لحظة عن التفكير في الله في كلِّ ما مَرَّ به.

من كتاب: محاولة اللقاء مع إله غير منظور

٣٠ أيَّار/مايو

في بَطن الوَحش

بُنِي سجن زاغورسك (Zagorsk) في روسيا سنة ١٨٣٢م. وقد غرس بنَّاؤوه حجارة جدرانه تحت الأرض ليتجنَّبوا الحاجة إلى تدفئته. ولكي نصل إلى أروقة المساجين، كان علينا أن نعبر أربع بوَّابات حديديَّة، إلى أسفل، فأسفل، فأسفل عبر درجات حجريَّة مهترئة قادتنا بالتدريج إلى مصدر رائحة كريهة جدًّا- إلى زنازين المساجين في الطابق الأرضيّ.

كان حجم أوَّل زنزانة دخلتُها يقترب من حجم غرفة نومي في شيكاغو. قفز ثمانية صبيان في عمر المراهقة- كان أصغرهم يبلغ من العمر اثنتي عشرة سنة- ليقفوا في وضع الانتباه بمجرَّد أن فُتِحَ الباب. كان هناك أربعة أَسِرَّة فقط، ما يعني أنَّ كلَّ صبيَّين كانا يشتركان في سرير واحد. كانت هناك طاولة متهالكة، دون أيَّة قطعة أثاث أخرى. كان كلُّ سرير مغطًّى ببطانيَّة رقيقة قذرة، ولم تتوافر ملاءات أو أغطية للوسائد.

في أحد أركان الغرفة، كان هناك فتحة مُبطَّنة بالسيراميك، أمامها مكان لوضع القدمَين عند جلوس القرفصاء. هذه الفتحة كانت مكشوفة للناظِرين من كلِّ اتِّجاه وكانت مرحاضًا لقضاء الحاجة وأيضًا للاستحمام، ومع أنَّ المصدر الوحيد للمياه كان صنبورًا وحيدًا للماء البارد يقع على بعد نصفِ مترٍ من ذلك المرحاض. كان لهذه الزنزانة الأرضيَّة نافذة واحدة بطول ١٥ سنتيمترًا في أعلى أحد الجدران بالقُرب من السَّقف، وكان الثلج يغطِّيها ولم تُفتَح بتاتًا. ويتدلَّى بسِلك عارٍ من السقف مصباحٌ كهربائيٌّ واحد.

لم أرَ أيَّ ألعاب تسلية، ولا تلفاز، ولا أجهزة راديو من أيِّ نوع. ولدواعي الأمن، كان سجن زاغورسك يُغلِق على المساجين طوال اليوم، على مدى سنة، أو سنتَين، أو رُبَّما خمس سنين، يجلس فيها هؤلاء الصبية في هذا القبو المُظلم مثل الحيوانات مُنتظرين الحُرِّيَّة. وقد عَرَفتُ أنَّ أغلبهم مسجون بسبب قضايا سرقات تافهة.

أمَّا مدير هذا السجن، الذي يُعدُّ أسوأ سجن في الاتِّحاد السوفييتيِّ، فقد أثبت أنَّه رجلٌ مُخلِص وشُجاع. فقبل سنتَين، عندما قرَّرت الحكومة تخفيض تموين السجن من الموادِّ الغذائيَّة، اتَّصل مدير السجن برُهبان ديرٍ مشهور في منطقة زاغورسك طالبًا المُساعَدة، فما كان من الرهبان إلَّا أن اقتطعوا من مخازنهم ما يكفي السجن من خبز وخُضَر لإطعام المساجين على مدى فصل الشتاء. تأثَّر مدير السجن، الذي كان شيوعيًّا في ذلك الوقت، بردِّ فِعلهم المُضحِّي. وفي سنة ١٩٨٩م، سمح للرهبان بإعادة بناء كنيسة في قبو السجن- وكان هذا عملًا من أعمال الشجاعة القُصوى في إصلاحيَّة شيوعيَّة في الحكومة الإلحاديَّة التي كانت تُسيطر على البلاد آنذاك.

(يتبع في التأمُّل التالي)

من كتاب: الصلاة مع المخابرات السوڤييتيَّة

٣١ أيَّار/مايو

واحة في قبو

(يتبع من التأمُّل السابق)

كانت الكنيسة الصغيرة الواقعة في أبعد مستوى تحت الأرض أشبه بواحة من الجمال في ذلك القبو الكئيب؛ إذ صنع الكهنة أرضيَّة من الرخام ومنارات جميلة للشموع على الجُدران. وفي كلِّ أسبوع كان الكهنة يسافرون من الدير لإقامة خدمة في السجن. وفي هذه المُناسَبة، كان يُسمَح للمساجين بالخروج من زنازينهم، ممَّا كان يضمن حضورًا ممتازًا لهذه الخدمات.

سأل رفيقي رون نيكل (Ron Nikkel) الأخ الكاهن بونيفاتو بيتر (Bonifato Peter) إن كان ممكنًا أن يرفع صلاة من أجل المساجين. بدت الحيرة على وجه الكاهن وقال: "صلاة؟ تريد صلاة؟"، فأومأنا بالإيجاب.

بدا عليه التعمُّق في التفكير، ثُمَّ اختفى خلف المذبح في نهاية الغرفة وعاد حامِلًا أيقونة. ثُمَّ أحضر حامِلَي شموع ووعاءَي بخور، وعلَّقهما بصعوبة وأوقدهما. ثُمَّ خلع غطاء رأسه ورداءه. وبعناية شديدة رَبَط أكمامًا ذهبيَّة فوق أكمامه السوداء المُعتادة. ثُمَّ ربط وشاحًا ذهبيًّا حول عُنقه وتَرَكَهُ يتدلَّى على صدره مع صليبٍ ذهبيٍّ، وعندها صار مستعدًّا للصلاة.

لم يتلُ الأخ بونيفاتو صلاةً، بل غنَّاها من كتاب كان يُمسِكُه بيده الأخرى. أخيرًا، وبعد عشرين دقيقة من طلب رُون الصلاة من أجل المساجين خَتَم الأخ بونيفاتو صلاته بكلمة: "آمين". وخرجنا من السجن ليحتضنَنا الهواء الطلق خارجًا.

استدعى الإجراء المُعقَّد الذي حصل في الكنيسة هناك صراعًا داخليًّا شعرت به بينما كُنتُ أقف داخل الكاتدرائيَّات المهولة في روسيا؛ فالكنيسة الأرثوذكسيَّة الروسيَّة تبعث في صلاتها وعبادتها بصورةٍ هائلة قِيَم الاحترام والخضوع والرهبة والسرِّيَّة المُطلقة. لكنَّ الله يظلُّ بعيدًا، يمكن الوصول إليه فقط بعد الكثير من التحضير فكَّرتُ حينها في المراهقين الذين تركناهم في زنزانتهم في السجن القابع تحت الأرض. فإذا طَلَب إليه أحدهم الصلاة من أجل القوَّة للاحتمال، أو من أجل فردٍ مريض من أفراد أُسرته في الخارج، هل كان الأخ بونيفاتو سيتبع الطقس المُعَقَّد نفسه؟ هل يجرؤ أحد هؤلاء الصبية في زنزانتهم أن يُفكِّر في الاقتراب إلى الله بنفسه، مُصلِّيًا باللغة البسيطة اليوميَّة التي كان يُصلِّي يسوع بها إلى الآب؟

لكن عندما يظهر الاحتياج، فإنَّ الرهبان تجاوبوا، بالخبز، وحضورهم الفعليِّ، وإعادة تأسيس العبادة في أبعد مكان يمكن تصوُّره. لقد رأيت أفضل ما في روسيا وأسوأه في صباح يومٍ واحد في زاغورسك، وللحظة واحدة أتيا معًا بلا فواصل.

من كتاب: الصلاة مع المخابرات السوڤييتيَّة

حَزِيران/يونيو



١. حجر رشيد
٢. العدسة المُكبِّرة للإيمان
٣. اقتراب الله
٤. يسوع البروزاك
٥. الرؤية الجديدة
٦. وجبات فخمة لمصلحة الفقراء
٧. نوال حياة
٨. أصعب مهنة في العالم
٩. مُرشد الظِّلّ
١٠. لاهوت من نكات قذرة
١١. مشكلة اللذَّة
١٢. لحظات الطَفو
١٣. رؤية المسيَّا
١٤. غير المرغوب فيهم
١٥. خسارة الحروب الثقافيَّة
١٦. بلا طُرُق مُختصرة
١٧. الإرشاد الليليُّ
١٨. نظرة إلى الخلف
١٩. الحضور
٢٠. الصلاة بالطريقة السليمة
٢١. يسوع ونورمان العاصف
٢٢. التطويبات المعكوسة
٢٣. مكافآت مستقبليَّة
٢٤. إله عادل في النهاية
٢٥. مراهنة الله
٢٦. كنيسة منتصف الليل
٢٧. مُعلِّمون مدمنو خمر
٢٨. الاهتمام بالنَّكِرات
٢٩. التواضع الحقيقيُّ
٣٠. أيادٍ لا يمكن إسكاتُها
٣١. صلاحٌ يُذهِب العقل

١ حَزيران/يونيو

حسابات بَشِعَة

كان يتماشى تمامًا مع شخصيَّة بطرس الرسول أن يبحث عن معادلة رياضيَّة للنعمة: "كم مرَّة يُخطئ إليَّ أخي وأنا أغفر له؟ هل إلى سبع مرَّات؟". في هذا، كان بُطرس يحاول أن يكون كريمًا، حيث إنَّ معلِّمي الناموس في عصره اقترحوا ثلاث مرَّات فقط يُتوقَّع أن يغفر المرء فيهما لمن أساء إليه.

وبسرعة البَرق أجابه يسوع: "ليس إلى سبع مرَّات، بل إلى سبعين مرَّة سبع مرَّات". واستثار سؤال بطرس يسوع ليحكي واحدة من قصصه المُتَحَدِّية عن عبدٍ تراكَمَت عليه الديون حتَّى وصلت ما يُعادل ملايين الدولارات. وكونه مُستحيلًا أن تتراكم ديون على عبدٍ بهذا القدر، فهذا يُشيرُ إلى النقطة التي أراد يسوع أن يُشير إليها: لا تكفي مُصادَرَة أُسرته، وأولاده وكلِّ ما يملك، لتسديد ولو جزء ضئيل من الدين الهائل. إنَّه دَين لا يُمكن سداده. لكنَّ الملك أَخَذَتهُ الشفَقةُ، ألغى الدين مرَّة واحدة وأطلَق العَبدَ حُرًّا.

كُلَّما تأمَّلتُ في أمثال يسوع، جرَّبتُ استخدام كلمة "بَشِعَة" لوصف حسابات الإنجيل. إنَّني أومن بأنَّ يسوع رَوى مثل هذه القِصص عن النِعمة لكي يدعونا إلى أن نَخطو خارج حسابات الاستحقاق التي تتميَّز بها حياة عدم النعمة وندخل النطاق الإلهيَّ للنعمة غير المحدودة. وكما يُعبِّر ميروسلاڤ ڤولف (Miroslav Volf): "إنَّ لاقتصاديَّات النعمَة غير المُستَحَقَّة الأولويَّة على اقتصاديَّات الاستحقاق الأخلاقيّ".

مُنذُ أن كُنَّا في الحضانة ونحن نتعلَّم طريقة النجاح في عالم بلا نعمة: "الطائر الذي يصحو مُبكِّرًا هو الذي يحصل على الديدان ليُطعِم فراخَهُ"؛ "بلا ألَمَ لا مَغنَم"؛ "لا يوجد شيء اسمه غداء مجَّاني"؛ "طالِب بحقوقك"؛ "احصُل على ما دَفَعت ثمنه". إنَّني أعرف هذه القواعد جيِّدًا لأنَّني أعيش بمقتضاها؛ إذ أعمل مُقابِل ما أحصُل عليه، وأُحِبُّ أن أنتَصر، وأُصِرُّ على نوال حقوقي. وأريد أن يحصُل الناس على ما يستحقُّون، لا أكثر ولا أقلّ.

لكنَّني إذا كُنتُ أهتَمُّ بأن أسمع، فإنَّني أسمَعُ هَمسًا صارِخًا آتيًا من الإنجيل يقول إنَّني لم أحصُل على ما أستحق. لقد كُنتُ أستحقُّ العِقاب وحصلت على الغُفران. كُنتُ أستَحِقُّ الغضب، فحصلتُ على المَحبَّة. كُنتُ أستحِقُّ السِجن للوفاء بديوني، فحَصلتُ بدلًا من ذلك على سِجِلٍّ ائتمانيٍّ نظيفٍ. كُنتُ أستحقُّ دروسًا صارِمة تجعلني أجثو على رُكبتيَّ طالبًا الغفران، لكنَّني حصُلتُ على وليمة أُقيمَت عَلى شَرَفي.

من كتاب: ما أعجب النعمة

٢ حَزيران/يونيو

تعريف النعمة

يُخبِرنا اللاهوتيُّون أنَّ الله كائنٌ خارج الزمن. لقد خلق الله الزمن كما يختار الفنَّان أن يَخلِقَ مجالًا يُبدعُ داخله دون أن يكونَ محدودًا به. يرى الله المُستَقبَل والماضي وكأنَّهما حاضرٌ أبديّ. وإذا كان اللاهوتيُّون مُحِقُّون بشأن هذا الأمر الخاصِّ بالله، فهُم ساعدونا لنفهم حقيقة أن يدعو الله شخصًا مُتقلِّبًا ومتقلقلًا مثلي "محبوبًا"؛ فعندما ينظر الله إلى الرسم البيانيِّ لحياتي، فإنَّه لا يرى تَقَلُّباتٍ من الصلاح إلى الشرِّ وبالعَكس، وإنَّما يَرى خطًّا صاعدًا دائمًا نحو الصلاح. هذا الصلاح ليس صلاحي، وإنَّما صورةٌ لصلاحِ ابنهِ مُلتَقَطة في لحظة من الزمن ومُطبَّقة على طول الأبديَّة.

لقد كبرتُ بينما تبادَرَ إلى ذهني صورة عن إله الحسابات الذي يَزِن أفعالي الصالحة وأفعالي السيِّئة على مجموعة من الموازين ودائمًا ما يجِدَني مُقَصِّرًا. إنَّني لم أُدرِك إله الإنجيل، إله الرحمة والسخاء الذي يستمرُّ في البحث عن طُرُق يتجاوزُ بها القوانين الثابتة لعدم النعمة. إنَّ الله يُمزِّق المعادلات الرياضيَّة والجداول الحسابيَّة ويضع رياضيَّات جديدة تمامًا هي رياضيَّات النعمة- تلك الكلمة العجيبة التي تدهشنا حيثما لا نتوقَّع وتقلب كلَّ حساباتنا رأسًا على عقب.

تظهَر النعمة في صُورٍ كثيرة جدًّا، حتَّى إنَّني أجد صعوبة في العثور عليها. لكنَّني مُستعدٌّ أن أُحاول تعريف النعمة في علاقتها بالله.

تعني النعمة أنَّك لا تستطيع أن تفعل شيئًا يجعل الله يُحِبَّك أكثر- لا يوجد قَدر من الأفعال الروحيَّة البطوليَّة أو التنازُلات الضخمة، أو المعرفة التي يُمكن الحصول عليها من كُلِّيَّات اللاهوت، أو المجهود المبذول في الحملات الكرازيَّة، أو العمل الشاقّ من أجل قضايا البرِّ والعدل، يجعل الله يُحِبُّك أكثر ممَّا يُحِبُّك بالفعل.

ولا تستطيع أن تفعل شيئًا يجعل الله يُحبُّك أقَلّ- لا يوجد قدرٌ من العُنصريَّة، أو الكبرياء، أو المشاهد الإباحيَّة، أو الزنى، أو القَتل، تجعل الله يُقلِّل من محَبَّته لك.

تعني النعمة أنَّ الله يُحبُّك بأقصى ما يستطيع الله أن يُحبّ. وهذه المحبَّة قُصوى لا يستطيع شيءٌ أن يُنقِصها أو يزيدها.

يحكي برنان مانِنْغ (Brennan Manning) قصَّة كاهن أيرلنديٍّ كان يتمشَّى في أبرشيَّته الريفيَّة، فرأى فلَّاحًا ساجِدًا على جانب الطريق يُصلِّي. انبهر الكاهن وقال للرجل: "بالتأكيد أنت قريب جدًّا من الله". فرفع الفلَّاح عينيه ونظر إلى الكاهن، وفكَّر لحظاتٍ، ثُمَّ ابتسم وقال: "نعم، هو يُحِبُّني جدًّا".

من كتاب: ما أعجب النعمة

٣ حَزيران/يونيو

عمل غير طبيعيٍّ

في خِضَمِّ جَدَلٍ محموم بيني وبين زوجتي، خرجَتْ هي بصياغة لاهوتيَّة ثاقبة.

لقد كُنَّا في ذلك الوقت مُنهمكين في نقاشٍ مُنفَعِل حول تقصيراتي، عندما قالت فجأة: "أعتقد أنَّ من العجيب أنَّني أغفر لك بعضَ الأفعال الخسيسة التي قُمتَ بها!".

وحيث إنَّني أكتب عن الغفران، لا الخطيَّة، فسوف أتجاهل تفاصيل هذه الأفعال الخسيسة. لكن ما صَدَمَني في تعليقها هو بصيرَتُه الثاقبة لطبيعة الغفران. ليس الغفران مثاليَّةً أفلاطونيَّة نستمتع برشِّها في الهواء كما نستمتع برشِّ معطِّر الجوِّ من علبته الجميلة. إنَّ الغفران صعب، وحتَّى بعد أن تُغفَرَ "أفعالي الخسيسة"، يظلُّ الجرح عالقًا في الذاكرة. إنَّ الغفران عمل غير طبيعيٍّ، وما كانت تفعله زوجتي هو أنَّها كانت تحتجُّ على الظلم الذي يتضمَّنه الغفران.

تلتقط القصَّة الواردة في سفر التكوين هذا الشعور نفسه، وهي قصَّة المصالحة بين يوسف وإخوته. تَصَرَّف يوسف بقسوة في البداية وألقى بإخوته في السجن، ثُمَّ بعد قليل بدا كأنَّ الندم تغلَّب عليه، فترك الغرفة لينتحب مثل السكران. ثُمَّ عاد ليلعَبَ عليهم بعض الألاعيب، فيُخفي مالًا في أكياسهم، ثُمَّ يأخذ واحدًا منهم رهينة، ويتَّهم الآخر بسرقة كأسه الفضيَّة. وفي النهاية، لم يستطع يوسف أن يتملَّك زمام مشاعره، فاستدعاهم وفضح الحقيقة وغفر لهم في مشهد دراميٍّ مؤثِّر.

إنَّني الآن أنظر إلى هذه القصَّة كتصويرٍ واقعيٍّ لحقيقة أنَّ الغفران صعبًا ليس طبيعيًّا. هؤلاء الإخوة الذين كان يوسف يُصارع ليغفر لهم، هم الأشخاص نفسهم الذين أذوه ودبَّروا خططًا لقتله، ثُمَّ باعوه في العبوديَّة. وبسببهم قضى أفضل سنوات عمره في سجون مصر الرهيبة. ومع أنَّ حاله صارت أفضل لاحقًا وانتصر على الأحوال الصعبة؛ ومعَ أنَّه كان يريد من كلِّ قلبه أن يغفر لهم، لم يستطع أن يصل إلى نقطة الغفران بسهولة. لقد كان الجرح لا يزال يؤلم بشدَّة.

إنَّني أرى أنَّ قصَّة الأصحاحات ٤٢–٤٥ من سفر التكوين هي ببساطة أنَّ يوسف يقول لإخوته: "أعتقد أنَّ من العجيب أن أغفر لكم كلَّ الأفعال الخسيسة التي فعلتموها!". عندما اخترقت النعمة قلب يوسف، تَرَدَّدَ صَدى صَوت نوحه ومحبَّته في أركان القصر الملكيِّ حتَّى تساءَل سُكَّان القصر: ما هذا النحيب؟ هل وزير الفرعون مريض؟ لا. لقد كانت صحَّة يوسف على أفضل ما يُرام. إنَّه صوتُ غفرانه.

من كتاب: ما أعجب النعمة

٤ حَزيران/يونيو

الأسلحة السلميَّة

يتضمَّن فيلم ريتشارد أتنبورو (Richard Attenborough) بعنوان غاندي (Gandhi) مشهدًا جميلًا فيه يحاول غاندي أن يشرح فلسفته للمُرسَل المشيخيِّ تشارلي أندروز (Charlie Andrews) فيما هما يتمشَّيان معًا في المدينة في جنوب أفريقيا. ثُمَّ فجأة يجد الرجلان قاطعَي طريق شابَّين يعترضان طريقهما. ينظر القسُّ أندروز إلى قاطِعَيَّ الطريق ويُقرِّر أن يلوذ بالفرار. أمَّا غاندي فاستوقفه قائلًا: "ألا يقول العهد الجديد إنَّه من ضربك على خدِّك الأيمن فحوِّل له الآخر أيضًا؟"، فقال أندروز إنَّه كان يظنُّ أنَّ العبارة تُفهَم بَلاغِيًّا لا حَرفيًّا.

يردُّ غاندي حينها قائلًا: "لستُ مُتأكِّدًا. أعتقد أنَّه كان يقصد أن نَتَحَلَّى بالشجاعة ونَكونُ مُستعدِّين أن نَأخذ الضربة، بل الضربات، لنُعلِن أنَّنا لن نَرُدَّ الضربات ولن نجري هاربين ونتنازل عن مواقِفنا، وعندما تفعل ذلك فإنَّك تستدعي شيئًا ما في الطبيعة البشريَّة- شيئًا يجعل الكراهية تتناقص، والاحترام يتزايد. أعتقد أنَّ المسيح فَهِمَ ذلك، وعن نفسي، لقد رأيت هذا يعمل فعَّالًا حقًّا".

لقد تحوَّل منطق غاندي بالتدريج إلى عقيدة راسخة في داخله. العُنف ضدَّ إنسان آخر- حتَّى ولو ضدَّ جُنديٍّ يُطلق النار على جَمعٍ أعزل- تُناقِض كلَّ ما كان يؤمن به بشأن كرامة البشريَّة. لقد كان غاندي يؤمن أنَّك لا تستطيع تغيير قناعاتِ إنسان بواسطة العُنف. العُنف يشقُّ الصفوف ويصنع كراهية لا تنتهي ولا يؤدِّي بتاتًا إلى المُصالَحَة.

وإذا تَحَوَّلَ مُناصروه إلى العنف في أيٍّ من حملاته السياسيَّة، كان غاندي يُلغيها. وكان يقول: "لا توجد قضيَّة، مهما كانت عادلة، تستحقُّ سفك الدماء. يُمكنني أن أموت في سبيل قضيَّتي، لكن لا توجد قضيَّة تستحقُّ أن أَقتُل من أجلها".

ومُنذ غاندي، تبنَّى قادة سياسيُّون آخرون أسلوبه؛ فعَدَّ مارتن لوثر كنغ الابن نفسه السليل الروحيَّ لغاندي، وزار الهند واستورد هذه المبادئ والأساليب ليستخدمها في حملة الحقوق المدنيَّة للملوَّنين في أميركا. وقد أثبت هو وغيره أنَّ السِّلم يُمكن أن يُحرِّك الجبال في المجتمعات التي تتمتَّع بقدر من الانفتاح. لكن ماذا عن أماكن مثل ألمانيا النازيَّة، أو الصين الحديثة أو ميانمار/ بورما، حيث تسحقُ الأنظمة العسكريَّة أيَّ شكل من أشكال الاحتجاج؟ (من المُثير للسخرية أنَّ بعض القادة الهندوس، وهُم ورثة غاندي من حيث الدين والثقافة، يرون أنَّ هذه المبادئ كانت بسبب تأثُّر غاندي بالمسيحيَّة وأنْ ليس لها أصول في الهندوسيَّة).

سوف يستمرُّ علماء الأخلاق والسياسيُّون واللاهوتيُّون في الاختلاف حول ما إذا كان النضال المُسلَّح

مُبرَّرًا ومتى يكون ذلك. لكن بعد غاندي، لا يستطيع أحد أن يُنكر قدرة النضال السِّلميِّ على إحداث التغيير. لقد أدَّى إلى تحرير ثاني أكبر الأمم تعدادًا على وجه الأرض.

من كتاب: بالكاد نجوت

٥ حَزِيران/يونيو

نهاية الاحتجاج

كانت لمارتن لوثر كنغ الابن ضَعَفاتهُ لكنَّ شيئًا واحدًا كان مُحِقًّا فيه: أنَّه ظلَّ أمينًا نحو مبدأ السلام الذي كان يعتنقه؛ لم يكن يريد الاعتداء بتاتًا. وعِندما كان الآخرون يدعونه إلى الانتقام، كان يدعو هو إلى المحبَّة. كان المتظاهرون في مسيرات الحقوق المدنيَّة يضعون أجسادهم على المحَكِّ أمام رجال الشرطة بعصيِّهم وهرواتهم وكِلابهم الشرسة وخراطيم المياه ذات الضغط الهائل. هذا في واقع الأمر هو ما جعلهم ينتصرون. يُشير المؤرِّخون إلى حَدَثٍ واحِدٍ بصفته اللحظة الفريدة التي حصلت فيها الحركة على التأييد الشعبيِّ الكافي لنجاحها. وقَعَت هذه اللحظة على جسر خارج مدينة سيلما في ولاية ألاباما، عندما أطلق المأمور جيم كلارك (Jim Clark) لرجاله العنان في مواجهة المتظاهرين السود العُزَّل. لقد صُدِمَ الشَعبُ الأميركيُّ من جَرَّاءِ هذا المشهد من الظلم العنيف، لدرجة أنَّه وافق على تمرير مشروع قانون الحقوق المدنيَّة.

لقد كبرتُ في أتلانتا، في مدينة قريبة لمارتن لوثر كنغ الابن، وأعترفُ ببعضِ الخزي، أنَّهُ عندما كان يقود مسيرات في أماكن مثل سيلما ومونتغومري وممفيس، كُنتُ في صَفِّ رِجالِ الشرطة البيض الممسكين بالهروات والذين يقودون الكلاب الشرسة. لقد كُنتُ سريعًا في الانقضاض على أخطائه الأخلاقيَّة وبطيئًا في إدراك خطيَّتي العَمياء. لكن لأنَّهُ ظَلَّ مُخلِصًا، ومُقَدِّمًا جَسَدَهُ هدفًا وليس سلاحًا، استطاع أن يتغلَّب على موقفي الأخلاقيِّ عديم الإحساس.

لقد كان كنغ يقول إنَّ الهدف الحقيقيَّ، ليس أن نهزم البيض، بل أن "نوقظ شعورًا بالخزي داخل من يقمعوننا ونتحدَّى شعورهم بالتفوُّق. الهدف النهائيُّ هو المُصالحة، الهدف هو الافتداء، وهو خلق مجتمع المحبَّة". وهذا ما بدأه كنغ في قلب شخص عنصريٍّ مثلي.

مات كنغ، مثل غاندي، شهيدًا. وبعد موته، بدأت أعدادٌ متزايدة من الناس تتبنَّى مبادئ الاحتجاج السِّلميِّ بصفتها طريقة للمُطالَبة بالعدالة. في الفليِّبن، وبولندا، والمجر، وتشيكوسلوفاكيا، وألمانيا الشرقيَّة، وبلغاريا، ويوغسلافيا، ومنغوليا، وألبانيا، والاتِّحاد السوفيتيِّ، وتشيلي، أكثر من نصف مليار إنسان، تخلَّصوا من عبء القمع بطُرُق سلميَّة. في الكثير من هذه الأماكن، كانت الكنيسة هي التي تقود الطريق. وفي هذه الحركات، نظَّمَ المحتجُّون مسيرات في الشوارع حاملين شموعًا، مُغنِّين ومُصلِّين. وكما حدث في أيَّام يشوع، سقطت الأسوار.

من كتاب: يسوع الذي لم أكن أعرفه

٦ حَزيران/يونيو

الحَزَانَى

لأنَّني كتبت كُتُبًا ذاتَ عَناوينٍ مثل "**أين الله في وقت الألم؟**" وآخر بعنوان "**عندما لا تُمطر السماء**"[1]، فقد قضيتُ وَقتًا مَعَ الحَزَانى النائِحين. في البداية أخافوني. لقد كانت لَدَيَّ إجاباتٌ قليلة عن أسئلتهم، وشعرت بالحَرَج في وسط نوحهم. أتذكَّر تحديدًا إحدى السنوات عندما انضمَمتُ إلى مجموعةِ مُساندة في مستشفى قريبة، بناءً على دعوة أحد جيراني. كانت هذه المجموعة تُسمَّى "لنَجعَل لكلِّ يومٍ قيمة"، وهي مُكَوَّنَة من أشخاص يُحتضرون، وكُنت أُرافق جاري إلى اجتماعات هذه المجموعة على مدى سنة كاملة.

لا أستطيع أن أقول إنَّني "استَمتَعت" بهذه الاجتماعات؛ فهذه الكلمة ستكون خاطئة، لكنَّ هذه الاجتماعات أصبحت لي أحد أكثر الأحداث معنى في كُلِّ شهرٍ من شهور تِلكَ السنة. على عكس الحفلات التي يحاول فيها كلُّ شخص ترك انطباع إيجابيٍّ لدى الآخرين بالتعبير عن المكانة والإنجاز، لم يحاول أيُّ عضوٍ في هذه المجموعة إبهار الآخرين. الملابس والموضة والبيوت والأثاث والوظائف والسيَّارات الجديدة- ماذا تعني هذه الأشياء لأشخاص على وشك الموت؟ أكثر من أيِّ أشخاص آخرين قابلتهم، فإنَّ أعضاء مجموعة "لنجعل لكلِّ يوم قيمة" كانوا يركِّزون على الأمور ذات الأهمِّيَّة القُصوى. وقد وجدت نفسي أتمنَّى أنَّ بعضًا من أصدقائي الذين يتميَّزون بالسَّطحيَّة والاهتمام المُبالغ فيه بالمُتعة يحضرون هذا الاجتماع.

وفي ما بعد، عندما كتبت عمَّا تعلَّمته من المحزونين والمتألِّمين، بدأت أستمع إلى قصص تأتيني من أشخاص غرباء. لديَّ ثلاثة ملفَّات، يبلغ سُمك كلٍّ منها بضعة سنتيمترات، مملوءة بهذه الرسائل. وأعدُّها من بين أثمن مقتنياتي. كانت إحدى الرسائل مكوَّنة من ستٍّ وعشرين صفحة كَتَبَتهُ بحبرٍ أزرق على ورق مُسَطَّر، أُمٌّ كانت تجلس في غرفة الانتظار في المستشفى حيث كان الجرَّاحون يُجرون جراحة لابنتها المُصابة بورم في الدماغ. وجاءت رسالة أُخرى من شخص مصاب بشلل رُباعيٍّ "كتبها" بنفخ الهواء في أحد الأنابيب، بحيث يُترجمُ الحاسب الآليُّ هذه النفخات إلى حروف تطبعها الطابعة.

حيث من الناس الذين كتبوا لي لم تنته قصصهم نهايات سعيدة. لا يزالُ بعضُهم يشعرون بترك الله لهُم. وحصل بعضُهم على إجابة عن سؤالهم "لماذا؟". لكنَّني رأيت ما يكفي من الحزن والنوح لدرجة تجعلني أتمسَّك بوعد يسوع أنَّ الحزانى سوف يتعزَّون.

من كتاب: يسوع الذي لم أكن أعرفه

٧ حَزِيران/يونيو

الألم لأسباب خاطئة

لقد أصبحت أومن أنَّ الإسهام الأكبر الذي يُمكنُ أن يُقدِّمه المسيحيُّون هو أن يحموا الآخرين من أن يتألَّموا لأسبابٍ خاطئة، وذلك عندما يتعلَّموا ويُعلِّموا الآخرين أن "يحترموا" الألم. لعلَّ المنظور الأهمَّ بشأن الألم هو أنَّ كلَّ الألم هو ألم؛ لا يُهمُّ ما إذا كان الألم بسبب صداع نصفيٍّ أو التهاب في الحلق أو اكتئاب حادّ. أوَّل خطوة في مساعدة شخص يُعاني (أو في مساعدة أنفسنا في قبول ألمنا الشخصيّ) هو الاعتراف بحقيقة الألم واستحقاقه للتعاطف. بهذه الطريقة، يُمكننا أن نبدأ في إضفاء معنى على الألم.

على مستوى آخر، يُمكن أن يُضيف المسيحيُّون ألمًا آخر إلى الألم الموجود بالفعل. يُمكن أن يضيف زائرو المَرضى في المستشفيات إلى ألم المتألِّمين ألم الشعور بالذنب: "ألم تُصلِّ؟ أليس لك إيمان أنَّ الله سوف يشفيك؟"، أو رُبَّما نضيف المزيد من الحيرة: "رُبَّما الشيطان هو من يتسبَّب في هذا الألم؟ أم هو تدبير طبيعيّ؟ أو رُبَّما اختارك الله بالذات لتكون مثالًا للآخرين؟". لقد تعلَّمت أنَّ الألم مُسبِّبٌ أكيدٌ للشعور بالذنب. كُلُّنا نفعل أشياء ما كان يجب أن نفعلها، وعندما يضرِبنا الألم، من السهل أن نلوم أنفسنا، ونظنَّ أنَّ الألم الذي أصابنا عقابٌ لنا.

في إطار الألم الشديد، حتَّى التعليقات حسنة النيَّة يمكن أن تُسبِّب الأذى للمتألِّمين. "من المؤكَّد أنَّ الله أحبَّ ابنتك أخذها إلى الموطن السماويِّ مُبكِّرًا". رُبَّما نُجرِّب أن نعلِّق تعليقات كهذه، جاعلين الآباء والأمَّهات الثكالى يتمنَّون لو لم يُحبَّ الله ابنتهم إلى هذا الحدّ. أو عندما نقول: "إنَّ الله لا يُعطي أحدًا حملًا إلَّا إذا كان قويًّا بما يكفي ليحمله"؛ وهذا قد يجعل المتألِّم يتمنَّى لو كان إيمانه أضعف لكيلا يُجرَّب بما جُرِّبَ به.

لقد أجريتُ مقابلات مع ما يكفي من المتألِّمين لدرجة أنَّني أعرف أنَّ الألم الذي تُحدثه هذه التَعليقات يُمكنُ أن يفوق الألم الأصليّ. وَصفَت إحدى النساء المعروفات في الأوساط المسيحيَّة الألم الشديد الذي يسبِّبه التهاب مفصل الفكِّ الذي سيطر على حياتها، لكنَّها تقول إنَّ ما يؤلمها أكثر كثيرًا هو المسيحيُّون الذين يكتبون لها معلِّقين تعليقات مشوبة بالإدانة بناءً على مفاهيمهم الساذجة للسبب الذي من أجله يسمحُ الله بالألم. رُبَّما يكون الإسهام الأهمُّ الذي ينبغي أن يقدِّمه المسيحيُّون للمتألِّمين هو أن يحموا الناس من الألم لأسباب خاطئة يمكن تجنُّبها.

من كتاب: أين الله في وقت الألم؟

البحث عن الألماس

بصراحة، سيظَلُّ الكثير من الألم بلا معنى في رأيي إذا كُنَّا نبذل كلَّ جهودنا في محاولة الإجابة عن أسئلة "لماذا؟" التي لا يُمكن الإجابة عنها. لماذا قَضى سولجنتسين ثماني سنوات في معسكر أشغال شاقَّة فقط لأنَّه عَلَّق تعليقًا انتقاديًّا عابرًا بشأن ستالين في مراسلته أحد أصدقائه؟ لماذا مات ملايين اليهود لتحقيق نزوات ديكتاتور مجنون؟ ليس لهذه الأشكال من الألم معنى في ذاتها، وسوف تظلُّ كذلك إلَّا إذا وجد شخصٌ متألِّمٌ معنى شخصيًّا لألمه، وهو عندئذ يكون مثل عامل في منجم مُظلمٍ كئيب، وَجَد ألماسةً في وسطِ أكوام الفحم الأسود.

قال ڤيكتور فرانكل (Victor Frankl) الذي قضى وقتًا في أحد معسكرات التعذيب النازيَّة: "اليأس هو الألم دون معنى". لقد استطاع فرانكل وأيضًا برونو بيتلهايم (Bruno Bettelheim) استخلاص معنى من ألم المحرقة اليهوديَّة التي بلا معنى: بملاحظة سلوك البشر في مثل هذه الأحوال شديدة القسوة، استطاعا أن يحصُلا على تبصُّرات شكَّلَت الأساس لكلِّ أعمالهما اللاحقة. ولإيلي ڤيزل (Elie Wiesel) وآخرين، أصبح "تقديم شهادة" هو المعنى. وهم الآن يكرِّسون أنفسهم لتكريم من لم ينجوا.

في السجن، انكَبَّ دستويڤسكي على دراسة العهد الجديد وحياة القدِّيسين. فأصبح السجن له، وفيما بعد لمواطنه سولجنتسين، حاضنةً للإيمان. كلاهُما وصف مسيرةً اقتنعوا فيها بالمواجهة المُباشرة مع الشرِّ البشريِّ بالاحتياج إلى الفداء. ثُمَّ بالشهادة الحيَّة للمؤمنين في هذه المُعسكرات، رأيا إمكانيَّة التغيير. وكما وصف سولجنتسين ذلك بصورة جميلة في روايته الكلاسيكيَّة "**يومٌ واحدٌ في حياة إيڤان دينيسوڤيتش**" *(One Day in the Life of Ivan Denisovich)*، فإنَّ الإيمان بالله رُبَّما لن يُطلِق سراحك من المعسكر، لكنَّه يكفي لأن يحفظك كلَّ يوم بينما تقبع داخله.

وبالرغم من أنَّ ألمي الشخصيَّ يبدو تافهًا مقارنة بهؤلاء الروَّاد، فإنِّي أُحاول أن أستخلص معنى منه. ولذلك أبدأ بالوعد الكتابيِّ الذي يقول إنَّ الألم يمكن أن يصنع شيئًا قيِّمًا في حياتي. وأُراجع قائمة طويلة من هذه الوعود بدءًا من رومية ٥، حيث يذكر بولس الرسول الصبر، والشخصيَّة الناضجة، والرجاء، والثقة، وأسألُ نفسي: "كيف يمكن أن يحقِّق الألم كلَّ هذه الأشياء؟". يؤدِّي إلى المثابرة، أو الثبات، بأن يجعلني أُبطئ من إيقاعي ويُرغمني على الالتفات إلى الله، إنَّه يصنع فيَّ شخصيَّة ناضجة باستدعاء كلِّ مخزون القوَّة الداخليَّة وجعلها متاحة للتطبيق. وأستمرُّ في هذه القائمة من الوعود الكتابيَّة وأتساءل عن إمكانيَّة أن يصنع

الله معنى بواسطة عمليَّة الألم والمعاناة.

من كتاب: أين الله في وقت الألم؟

٩ حَزِيران/يونيو

الألم المُشترَك

في بعض الأحيان، يكون المعنى الوحيد الذي نستطيع تقديمه لمن يُعانون هو أن نؤكِّد لهم أنَّ ألمهم، الذي قد لا يبدو له معنى عندهم، له معنى عندنا.

تعمل زوجتي مع بعض من أفقر الناس في مدينة شيكاغو، فهي تدير برنامجًا خاصًّا بكنيسة شارع لاسال في شيكاغو يحاول أن يخدم المُسنِّين الذين يعانون الوحدة والهجر والذين لا يهتمُّ بهم أحد. في مرَّات عدَّة رأيتها تبذل نفسها في حياة شخص مُسِنٍّ، محاوِلةً أن تقنعه أنَّ لحياته قيمة وأهمِّيَّة. وبهذه الطريقة فهي "تُلطِّف" معاناته.

مِن بين مَن كانت جانيت تعمل معهم رجلٌ يبلغ من العمر تسعين عامًا اسمه السيِّد كرويدر (Mr. Kruider)، كان يجبُ إجراء عَمليَّة في عينيه لكنَّه كان يرفض ذلك على مدى عشرين سنة. ففي سنِّ السبعين، قرَّر أنَّه لا يوجد ما يستحقُّ أن يُنظَر إليه، وأنَّ الله أراده أعمى، وينبغي أن يستسلم لذلك، وظنَّ أنَّ هذا رُبَّما عقابٌ من الله بسبب نظره إلى الفتيات في شبابه.

أمضت زوجتي سنتين كاملتين من الجدل والمحاولات والمثابرة والمحبَّة من أجل إقناع السيِّد كرويدر أن يخضع لهذه الجراحة. وفي النهاية، وافق لسبب واحد: لأنَّ جانيت أكَّدت له أنَّ استعادة بصره سوف تعني الكثير لها. لقد يئس السيِّد كرويدر من الحياة فلم يعُد لها معنى عنده. لكنَّ جانيت أجرت عمليَّة "نقل معنى" له. لقد كان أمرًا ذا معنى لها أن تجعل رجلًا في سنِّ الثانية والتسعين، لا يستسلم. وأخيرًا وافق السيِّد كرويدر على إجراء الجراحة.

حرفيًّا، اشتركت جانيت في معاناة السيِّد كرويدر. وبزيارته كثيرًا، أقنعَتْه أنَّ هناك من يهتمُّ به، وأنَّ هناك من يرى أنَّ حياته وبصره لهما أهمِّيَّة عنده. لقد كان هذا المبدأ، وهو الاشتراك في المعاناة، هو محور كتاب هنري نوين عن الشافي المجروح، ورُبَّما بالفعل هذا هو الإسهام الأكيد والوحيد الذي يمكن أن نسهم به في جعل ألم الآخرين ذا معنى. فعندما نفعل ذلك، نحن نتَّبع ما صنعه الله معنا عندما شارَكَنا ألمنا. لقد شارَكَنا الله حياتنا بما فيها من ألم وفقر، أكثر كثيرًا ممَّا عَرَفَهُ أغلبُنا من الألم والفقر. لا يمكن أن يكون الألم دون معنى بتاتًا؛ لأنَّ الله اشترك فيه.

من كتاب: أين الله في وقت الألم؟

١٠ حَزيران/يونيو

دروس من المُعسكرات

في ربيع سنة ١٩٨٧م، بينما كان يُعرَض مسلسلُ "المحرقة" (The Holocaust)، أقامت كنيستي خدمة تعرُّف اليهود الذين تعرَّضوا للتعذيب، وكانت هذه الخدمة أشبه بطقس "يوم هاشوآه" للمسيحيِّين. وقرأ عددٌ من أعضاء الكنيسة، بما في ذلك الأطفال، اقتبسات ممَّا كتبه الناجون من هذه المعسكرات، مثل مذكَّرات تشايم كاپلان (Chaim Kaplan) في حيِّ اليهود في وارسو، وقصيدة لأحد الأطفال عن غياب الفراشات في حيِّ اليهود الفقير، وملاحظات ڤيكتور فرانكل (Victor Frankl) بصفته طبيب السجن، وقصص إيلي ڤيزل (Elie Wiesel) المُحزنة، وقصيدة نيلي ساكس (Nelly Sachs) عن مداخن المُحرقات، ومختارات بعنوان "لماذا يكرهنا المسيحيُّون" من رواية أندريه شڤارتز-بارت (Andre Shwartz-Bart) بعنوان **"آخر المُنصفين"** (*The Last of the Just*).

جلس شعب الكنيسة بهدوء مدَّة كلِّ هذه القراءات. أمَّا بعضهم، فاضطرَّ إلى المغادرة عندما أصبَحَتْ الأوصاف تُصَوِّرُ الأحداثَ بطريقةٍ بَشعة ومؤلمة. وقال لي أحد أصدقائي الذي احتمل الخدمة حتَّى النهاية وسمعَ كلَّ ما قيل: "هناك شيء يؤلمني أكثر من كلِّ البؤس والذنب الذي أشعر به عندما أُصغي إلى أصوات كلِّ هؤلاء اليهود. كلُّ ما أستطيع أن أفعله هو أن أشعر بهم وأتأسَّف لهم. لكنَّ ما يُضايقني أكثر من أيِّ شيء آخر، هو عندما أتساءل عن المواقف المُشابهة التي رُبَّما تحدث الآن ولا ندري عنها شيئًا. من السهل أن نلوم المسيحيِّين في الحرب العالميَّة الثانية لأنَّ ردَّ فعلهم لم يكن سريعًا وحاسمًا. لكن هل نتفاعل اليوم بالطريقة المناسبة؟ ماذا عن المواقف الحاليَّة في أماكن مثل كمبوديا وأوغندا؟ هل يجب أن نعقد اجتمعات كنسيَّة من أجل هذه الأمكان بدلًا من تلك بشأن الحرب العالميَّة الثانية؟".

إنَّ حقائق معسكرات تعذيب اليهود نُشرت بكلِّ أوصافها الدقيقة في إعلانات مدفوعة الأجر في مجلَّة نيويورك تايمز منذ سنة ١٩٣٩م، لكنَّ قليلين هم الذين صدَّقوها، ولم يتجاوب أحد، ولم تدخُل الولايات المتَّحدة الحرب إلَّا بعد سنتين، بعد أن تعرَّضت لهجوم مباشر من اليابانيِّين.

خارج أوشڤيتز، يوجد حقلٌ تغطَّى تمامًا، بسُمك عدَّة سنتيمترات، من غُبار عظام اليهود المحترقة التي لَفَظَتها مداخن المحرقات. وفي وقت أحدَث، قُتل ملايين الكمبوديِّين والرواندِيِّين، وما زال الكثيرون يُقتَلون في أماكن مثل دارفور والكونغو. ماذا كان ردُّ فعلنا؟

يبدو أنَّ هناك درسًا يبدو مهمًّا أكثر من غيره، وهو أنَّ العدالة يجب أن تأتي من الخارج. كلُّ ضحايا

المعسكرات كانوا ينتظرون خلاصًا يأتيهم من أحداث خلاص كونيَّة تتعلّق بنهاية العالم. لا يوجد قدر من الأخلاقيَّات أو الشجاعة، والإحساس بالجمال أو بثِّ الرجاء، يمكن أن يؤكِّد لهم إمكانيَّة البقاء على قيد الحياة سوى تدخُّل قوَّة خارجيَّة. وللأغلبيَّة الساحقة، كانت نجاتُهُم تَعتمد على تدمير هذا العالم الذي يسمح بمثل هذه المعسكرات.

من كتاب: نوافذ مفتوحة

١١ حَزيران/يونيو

إيمان تحت تهديد السلاح

على خلاف المتوقَّع، يمكن أن تغذِّي الأوقات الصعبة الإيمان وتقوِّي الروابط. وأرى ذلك بوضوح في العلاقات البشريَّة التي تميل لأن تتقوَّى عبر السنين في أوقات الأزمات. لدى زوجتي ولديَّ جَدَّات تَخطَّيْنَ سنَّ المِئة. وعندما أتحدَّث إليهنَّ وإلى أصدقائهنَّ، أستطيع تمييز شيءٍ يبدو عامًّا في ذكريات المُسنِّين: أنَّهم يتذكَّرون الأوقات العصيبة بشيء يُشبه الحنين. يتبادل المسنُّون قصصًا عن الحرب العالميَّة الثانية والأزمة الاقتصاديَّة الطاحنة؛ ويتكلَّمون بإعجاب عن أوقات صعبة مثل الأعاصير، والبيوت البدائيَّة الفقيرة التي عاشوا فيها في طفولتهم، وأوقات الدراسة الجامعيَّة حيث عاشوا على الحساء المُعلَّب والخبز الجافّ لثلاث أسابيع متَّصلة.

إذا سألتَ أُسرة قَوِيَّة مستقرَّة من أين يأتون بقوَّتهم، فسوف تسمع قصص أزمات. ولأنَّني رأيت هذه القاعدة مُعاشة بين الناس، فإنَّني أستطيع أن أفهم بصورةٍ أفضل واحدًا من أسرار العلاقة بالله. إنَّ الإيمان في النهاية يتلَخَّص في مسألة واحدة وهي الثقة بالعلاقة. هل لديَّ ثقة بمن أحبُّهم– أو بالله؟ إذا كُنتُ أقف على أرضيَّة صلبة من الثقة، فإنَّ أسوأ الأحوال لا يمكنها أن تُدمِّر العلاقة.

قضى المُفكِّر المسيحيُّ سورين كيركيغارد عمره يستكشف اختبارات الإيمان التي تضع أمانة الله حيِّز الاختبار. كان كيركيغارد رجلًا ذا شخصيَّة صعبة، وعاش طوال عمره يعاني عذابًا داخليًّا مستمرًّا. ومرَّة تلو الأخرى كان يلجأ إلى الشخصيَّات الكتابيَّة مثال أيُّوب وإبراهيم الذين صمدوا في وجه تجارب إيمان رهيبة. وفي وقت تعرُّضهم للتجربة، كان الأمر يبدو لأيُّوب وإبراهيم، كما لو كان الله يقف ضدَّهم. لا يمكن أن يتصرَّف الله بهذه الطريقة– لكنَّ من الواضح أنَّه يفعل. وفي النهاية، ما استنتجه كيركيغارد كان أنَّ أنقى أنواع الإيمان هو الذي يخرج من بوتقة الألم. إنَّه التوجُّه القائل إنَّه رغم أنَّني لا أفهم، فإنَّني سوف أستمرَّ في الثقة بالله.

يدور الإيمان لدى المؤمن حول الأزمة في العلاقة الشخصيَّة أكثر من الشكوك العقليَّة. هل يستحقُّ الله ثقتنا، مهما بدت الأمور في الوقت الحاضر؟

من كتاب: محاولة اللقاء مع إله غير منظور

١٢ حَزيران/يونيو

وَجها عُملة الإيمان

أتعلَّم أنَّ الإيمان الناضج، الذي يشتمل على الإيمان البسيط من ناحية وعلى الولاء والانتماء من ناحية أخرى، يعمل في مقاومة جنون الارتياب. إنَّه يُعيد ترتيب كلِّ أحداث الحياة حول محور الثقة بإلهٍ مُحِبّ. عندما تحدث أشياء صالحة، أقبلها بصفتها عطايا من الله، وعندما تحدث أشياءٌ سيِّئة، لا أعدُّها بالضرورة مُرسَلة من الله- إذ أرى دلائل في الكتاب المقدَّس على ذلك- ولا أجد فيها سببًا للانفصال عن الله. لكنَّني أثق بأنَّ الله يمكن أن يستخدم حتَّى هذه الأشياء السيِّئة للمنفعة. هذا، على الأقلّ، هو الهدف الذي أسعى إليه.

يرى المؤمن الحياة من منظورِ الثقة، لا الخوف. الإيمان المؤسَّس على الصخر يسمح لي بالإيمان أنَّه رغم فوضى اللحظة الحاضرة، فلا يزال الله صاحب السلطان، ورغم ما قد أشعر به من عدم القيمة، فلا تزال لي قيمة في عيني إله المحبَّة، وأنه لا ألم يستمرُّ إلى الأبد ولا ينتصر الشرُّ في النهاية. الإيمان يَرى أنَّ أحلك لحظات التاريخ، أي موت ابن الله، هي مقدِّمة إلى أكثر لحظاته إشراقًا.

تحدث الكثير من الأشياء في العالم، من الواضح أنَّها تخالف مشيئة الله. اقرأ الأنبياء، وهُم الذين عَيَّنَهُم الله للتكَلُّم بالنيابة عنه، والذين اعترضوا بقوَّة على الزنى الروحيِّ، والظلم الاجتماعيِّ، والعنف والخطيَّة والتمرُّد. واقرأ روايات الإنجيل، التي فيها يُقلق يسوع المؤسَّسة الدينيَّة بتحرير الناس من القيود والإعاقات التي عدَّها رجال الدين "مشيئة الله". إنَّني لا أجد مسوِّغًا للوم الله على ما يقاومه الله بوضوح.

لكنَّ سؤال المتشكِّكين لا يضمحلُّ تلقائيًّا. كيف يُمكنُني أن أشكر الله على الأشياء الصالحة في الحياة دون أن أحمِّله مسؤوليَّة الأشياء السيِّئة؟ يمكنُني أن أفعل ذلك فقط عندما أؤسِّس توجُّهًا من الثقة المبنيَّة على ما تعلَّمته في العلاقة به.

كثيرًا ما يُحَيِّرُني أسلوبُ الله؛ فهو يتحرَّك بإيقاع بطيء جدًّا، ويُفضِّل المتمرِّدين والضالِّين، ويقتصدُ جدًّا في استخدام قوَّته، ويتكلَّم بالهَمسِ والصَّمتِ. لكنْ حتَّى في هذه الصفات أرى دلائل صبره ورحمته ورغبته أن يخطب ودَّ الإنسان لا أن يُرغمه. وعندما أكون في حالة من الشكِّ، أُركِّزُ على يسوع، الإعلان الأكثر وضوحًا لله نفسه. لقد تعلَّمت أن أثق بالله، وعندما تحدث مأساة أو شرٌّ لا أستطيع أن أراه متوافقًا مع شخصيَّة الله التي أعرفها وأحبُّها، فإنَّني أبحث عن تفسيرات أخرى.

من كتاب: محاولة اللقاء مع إله غير منظور

١٣ حَزيران/يونيو

السُّمُّ اللذيذ

إنَّ المجتمع الذي يُنكر ما هو فائق للطبيعة، سوف ينتهي به الأمر رافعًا من قيمة الأشياء الطبيعيَّة إلى مستويات استثنائيَّة. تُخبرنا آني ديلارد (Annie Dillard) عن تجارب أغرى فيها علماء الحشرات ذكور الفراش بصُورٍ مُلَوَّنة من الورق المُقوَّى أكبر وأكثر إغراءً من إناث الفراشات اللاتي ينتمين إلى فصيلتهم. وبسبب الإغراء كان ذكور الفراش تتجمَّع حول هذه الصور المُلَوَّنة مرَّة تلوى الأُخرى "بينما الفراشات الحقيقيَّة الحَيَّة بجانبهم تفتح وتغلق أجنحتها هباءً".

يستخدم سي. أس. لويس عبارة "السُّمُّ اللذيذ الخاصُّ بالأبديِّ المزيَّف" ليصف الميول نفسها عند البشر؛ إذ نُقدِّس ما ليس مُقدَّسًا، ونُعطي قيمة لامتناهية لما هو مُتناه لكي نملأ فراغ عالمنا الذي فقد سحره.

يُعدُّ الجنس من هذه الأمور التي نُخطئ في ظنِّها لامتناهية. أتذكَّر أوَّل نظرة وقعت فيها عيني على مجلَّة "ﭘلاي بوي"، بعد سنوات قليلة من أوَّل إصداراتها. هذه النظرة عَرَّت أمامي حجابًا من الغموض، وأومأت إليَّ، بصفتي مُراهِقًا بدخول عالم جديد غير مُكتَشَف من الإغواء والوَعد بالإثارة واللذَّة. الآن تُعدُّ هذه المجلة من آثار الماضي، بعد أن تخطَّتِ الإنترنت بمراحل ما كانت قد تجرَّأت عليه هذه المجلَّة.

ولا أقصد مُهاجمة الجنس أو التحقير منه كأنِّي داعية أخلاقيٌّ منتمٍ إلى العصور الوُسطى. لكنَّني أُشير إلى أنَّ الغرب المُعاصر قد رفَّع الجنس إلى مستويات شبه إلهيَّة. فمثلًا، تُشير مجلَّة "الرياضة المُصَوَّرة" (Sports Illustrated) إلى الجميلات اللاتي يرتدين آخر صيحات ملابس السباحة بأنَّهُنَّ "آلهات" الجمال، كما تصوير محالُّ ڤيكتوريا سيكرِت (Victoria's Secret) عارضاتها في ملابس بأجنحة كالملائكة. كانت الأجيال السابقة تحترم العُذريَّة والبتوليَّة، لكنَّنا الآن نُقدِّم الجنس كأنَّه الخير الأسمى والسحر الذي لا يُقاوَم، ولا ينبغي أن يُقاوَم، والذي يبيع أيَّ شيء من السيَّارات الرياضيَّة إلى المشروبات الغازيَّة، إلى معجون الأسنان.

ذكر أحد الكهنة الذين أعرفهم أنَّه بدأ يتشكَّك في تلك القوَّة العُليا للجنس والتي تُصوِّرها الإعلانات وأغاني الروك المُصَوَّرة. فبحسب الدراسات، واحد من كلِّ ثلاثة أو أربعة ممَّن يراهم في المواصلات كلَّ يوم مارس الجنس في الليلة السابقة. لكنَّه يقول إنَّه بتأمُّل وجوهِهِم، لا يستطيع أن يرى أيَّ فرقٍ. فهُم لا يبدون أسعد، ولا أكثر شَبَعًا، ولا تطوُّرًا. وهو يسأل: "إذا كانوا يعِدون أنَّ للجنس تأثيرًا عظيمًا هذا مقداره– وأنا أتكلَّم بصفتي كاهنًا مُتبَتِّلًا– ألا ينبغي أن يكون أكثر ديمومة من هذا؟".

من كتاب: اشاعات من عالم آخر

لماذا نكونُ أنقياء؟

في تلك المرحلة من حياتي التي كُنتُ أصارعُ فيها مع التجارب الجنسيَّة، صادفتُ مقالة أحالتني إلى كتيِّب بعنوان "**ما أومن به**" *(What I Believe)* للكاتب الكاثوليكيِّ الفرنسيِّ فرانسوا موريا (Francois Mauriac) الذي فاز بجائزة نوبل في الأدب عن رواياته الباكرة. ما أدهشني هو أنَّ موريا، وهو رجل مُسنٌّ، قد كَرَّسَ مساحة كبيرة لمناقشة شهوته الجنسيَّة. ويشرح قائلًا: "يُمكن أن يحمل السنُّ المتقدِّم خطرًا كبيرًا لمضاعفة التجارب؛ فخيال الرجل المُسِنِّ يُمكن أن يقدِّم له بديلًا رهيبًا عَمَّا لم تعد الطبيعة تمنحه إيَّاه".

رفض موريا كلَّ أطروحات النقاء الجنسيِّ التي كان قد سمعها في تربيته الكاثوليكيَّة. ومنها مثلًا أنَّ "الزواج يعالج مشكلة الشهوة". فهذا لم يحدث له، كما لم يحدث لآخرين كثيرين؛ لأنَّ الجنس يشتمل على الانجذاب نحو الآخرين غير المعروفين، وتؤجِّجه فكرة المغامرة واغتنام الفُرصة.

ومنها أيضًا فكرة أنَّك "بالانضباط الشخصيِّ، يُمكن أن تتحكَّم في الشهوة". لقد وجد موريا أنَّ الشهوة الجنسيَّة هي مثل موجات المدِّ تأتي بقوَّة شديدة بحيث يُمكنها أن تكتسح أمامها كلَّ النِّيَّات الطيِّبة.

وأيضًا فكرة أنَّ "الشبع الحقيقيَّ لا يمُكنُ أن يأتي إلَّا في العلاقة الزوجيَّة الحصريَّة بشريك واحد". رُبَّما يكون هذا حقيقيًّا، لكنَّه قد لا يبدو كذلك لشخص لا يختبر تهدئة للدوافع الجنسيَّة حتَّى في الزواج.

وهكذا وزنَ الأطروحات التقليديَّة التي تحُثُّ على الفضيلة والنقاء الجنسيِّ ووجدها ناقصة. وفي النهاية وصل موريا إلى سببٍ واحد يجعل الإنسان يُحافظ على نقائه الجنسيِّ، وهو السبب الذي قدَّمه يسوع في التطويبات عندما قال: "طوبى لأنقياء القَلب لأنهم يعاينون الله". وبكلمات موريا، فإنَّ "عدم النقاء يفصلنا عن الله. إنَّ الحياة الروحيَّة تتبَّع قوانين صارِمة يمكن اختبارها والاعتماد عليها، مثل الحياة الماديَّة تمامًا...النقاء هو شرط المحبَّة الأسمى- هو شرط الحصول على أسمى ما يمُكن الحصول عليه: رؤية الله. نعم، هذا ما يقع على المحَكّ في النقاء الجنسيِّ، ولا أقلَّ من ذلك".

لم تُنه قراءة كلمات فرانسوا موريا صراعاتي مع الشهوة. لكنَّني يجب أن أقول بها لا يدع مجالًا للشكِّ، إنَّني وجدت تحليله حقيقيًّا. إنَّ محبَّة الله المُقدَّمة والمُتاحة لنا تتطلَّب أن تكون حواسنا مُنَقَّاة ومُنَظَّفة قبل أن نستطيع أن نستقبل محبَّة عُليا، لا يمكن الحصول عليها بطرقٍ أُخرى. هذا هو الدافع الحقيقيُّ وراء الحفاظ على النقاء. إنَّني عندما أحفاظ على الشهوة داخلي، أُحدُّ من إمكانيَّة الحميميَّة مع الله.

من كتاب: يسوع الذي لم أكن أعرفه

١٥ حَزيران/يونيو

صَدى الصوت

تعلَّمتُ طريقة صِحِّيَّة للتعامل مع الحياة من سي. أس. لِويس، الذي حصل على الوعي بحقيقة عالم آخر بواسطة اللذَّة التي وجدها في أشياء مثل أساطير شعوب شمال أوروبَّا، وجمال الطبيعة، وموسيقا ڤاغنر. لقد استشعر بواسطة أشواقنا، ليس فقط إشاعات من هذا العالم الآخر، وإنَّما "صَدى صوته" ذلك، وهو يقول إنَّ وَمَضَات الجمال، وَوَخَزات التوق إلى الفرح "ليست هي الشيء نفسه، ولكنَّها عبير الزهرة التي لم نجدها، وصدى اللحن الذي لم نسمعه، وأخبار من بلادٍ لم نزُرها بعد".

لقد أدركتُ أنَّني أحتاج أن أشتمَّ بعض الزهور وأستمع إلى بعض الألحان لكي أستطيع أن أفهم طبيعة الحياة على هذه الأرض. ورجعتُ عن تقسيم الحياة ضمن طبيعيٍّ وفائق للطبيعة، أو روحيٍّ وغير روحيٍّ، وبدلًا من ذلك بدأت أبحث عن طريقة لجمع الاثنين معًا، لأُحقِّق الوحدة التي أصبحتُ بصورة متزايدة أومن بأنَّ الله قَصَدَها.

وسألت نفسي: ما اللذَّات التي أستمتع بها؟ إنَّني أشعر برجفة إثارة غريبة في لقاء الطبيعة وفي تَسَلُّقي الجبال، عندما أتجاوز منطقة الأشجار إلى منطقة الصخور العارية حيث تبدأ العاصفة في الهبوب وتقترب صعقات البرق فأهرعُ إلى الأشجار حيث الأمان. وعندما أتقابل في أحد المسارات الجبليَّة الوعرة وجهًا لوجه مع دُبٍّ برِّيٍّ وأدرك أنَّه ليس مهمًّا القرار الذي أتَّخِذُهُ في تلك اللحظة، فالخياراتُ بيد الدبّ. وعندما أزور ثقافات غريبة ولا أستطيع أن أُميِّز أيَّ شيء آكله، أو أشمُّهُ، أو أسمَعُهُ. كما إنَّني أيضًا أستمتع بالمُتع البيتيَّة المُستأنسة: مثل الطعام الجيِّد، والقهوة، والمُثلَّجات الغنيَّة بالدهون، والخوخ، والتوت الأزرق، وغيرها من الفاكهة، لا سيَّما عندما ألتقطها بنفسي من حدائقها. والآن بعدما انتقلتُ من المدينة لأعيش في الريف، أفتقد الحياة الثقافيَّة للمدينة: حيث الأفلام الأجنبيَّة، والموسيقا، وعروض المسرح التي تظلُّ عالقة في ذهني لأيَّام.

لقد بدأت أستَمِع إلى أشواقي وملذَّاتي كأنَّها إشاعات من عالم آخر، وأدلَّة ساطِعة على طبيعة الخالق. لقد كُنتُ قد وَقَعتُ فريسة للخداع الذي يقول إنَّ العالم الطبيعيَّ ليس روحيًّا، أو إنَّ الله يقاوم السعادة والاستمتاع. لقد خَلَق الله المادَّة بكلِّ ما في ذلك من مُستقبِلات الإحساس في الجسم والتي بها أشعر باللذَّة. العالم الطبيعيُّ والعالم الفائق للطبيعة ليسا عالمين منفصلين، لكنَّهما تعبيران متمايزان عن الواقع المخلوق نفسه.

من كتاب: إشاعات من عالم آخر

١٦ حَزِيران/يونيو

عثرات الكتابة المسيحيَّة

كثيرًا ما يَشعُرُ الكُتَّاب المسيحيُّون بالحذر عند تناوُل خليقة الله: فهي ببساطة "مادَّة" غير جديرة بالانتباه مُقارَنة بما هو فائقٌ للطبيعة. وبصورة مُشابِهَة، يقول جاك إيلُل (Jacques Ellul) إنَّ العلم يتجنَّب الأسئلة الخاصَّة بما هو فائق للطبيعة للدرجة التي تجعله يعصب عينيه بطريقةٍ إلى اختناق التفكير في هذه المجالات. لقد حان الوقت للكُتَّاب المسيحيِّين أن يُعيدوا اكتشاف بيئتنا المادِّيَّة والسمات الحقيقيَّة للطبيعة البشريَّة.

إنَّنا عندما نتجنَّب الطبيعة نفصل أنفسنا عن الصور العظيمة والوسائط التي تحوِّل كلَّ ما هو فائقٌ للطبيعة وتشير إليه، فتَفقِدُ كتاباتنا ميزتها الأساسيَّة، وهي القدرة على مُحاكاة الطبيعة وتقليدها. فعندما يصف تولستوي الربيع، والسحر الذي تبوح به الزهيرات التي تُطلُّ برأسها من بين مساحات الجليد الذي بدأ ينصهر، فهو يستثمر فيها الحيويَّة والدلالة التي يستثمرها في وصف خبرة الإيمان المسيحيّ. هذا أيضًا تعبير عن عالم الله. ونتيجة لذلك، فإنَّ كلا الفقرتين تثيران مشاعر الشوق في القارئ مُرهف الشعور. إنَّ الناس يعيشون في عالم الطبيعة؛ لذا يجب أوَّلًا أن نؤكِّد هذا العالم ونستخلص منه المعاني العميقة، قبل أن نقود الناس إلى ما هو متجاوز للطبيعة.

شقَّ الطريقَ حديثًا بعض من الكُتَّاب الجيِّدين نحو محاولة الكشف عن الطبيعة بوصفها حاملة لما فائق للطبيعة. وكان كتاب آني ديلارد (Annie Dillard) بعنوان "**سائح عند نبع تنكر**" *(Pligrim at Tinker Creek)* أشبه بعلامة لهذا النوع من الكتابات. ويستخدم لويس توماس (Lewis Thomas) المقاربة نفسها، لكن من منظور أقلَّ وضوحًا من الناحية الدينيَّة. وقد أظهر التجاوبُ مع هذين الكاتبَيْن الجوع لدى القرَّاء لهذا التوجُّه الأكثر اكتمالًا في التعامل مع العالم. فالطبيعة وما فوق الطبيعة ليسا عالمين منفصلين، وإنَّما هُما تعبيران عن الواقع نفسه، ويجب على الكتابة الفعَّالة أن تتعامل معهما معًا.

إنَّ الإبداع والخَلق في أساسه مفهوم مسيحيّ. لم تكن هذه الفكرة موجودة بين اليونانيِّين، الذين استخدموا كلمة "تِكنا" ومنها كلمة "تكنولوجيا". كان الشُّعراء وكُتَّاب المسرح الإغريق العظماء يُفكِّرون من مُنطلق التنظيم والصنعة؛ إذ لم يكن لديهم نموذج الخلق من العدم الموجود لدى المسيحيِّين الذين يحاولون تقليده في إبداعِهِم. لذلك يصدمني أنَّنا نحن المسيحيِّين فَرَّطنا ببساطة في فرصتنا أن نستكشف هذا العالم المخلوق بروعة. وبدلًا من ذلك، نرتحل إلى العالم الفائق للطبيعة البعيد جدًّا عن متناوَل أغلب قرَّائنا الذين لا يستطيعون القفز إليه مُباشرةً.

من كتاب: نوافذ مفتوحة

كلُّ عطيَّة صالحة

لقد غمر الله العالم بعطايا صالحة، والطريقة التي بها نستخدم هذه العطايا هي التي تُحَدِّد ما إذا كانت هذه العطايا سوف تستمرُّ في كونها صالحة ومُشبِعَة. إنَّ الحياة المُتَّزنة تشبه ركوب الخيل؛ فإمكانيَّةُ سقوط المرء من فوق صهوتها إلى اليمين أو إلى اليسار متساوية. فقط إذا احتفظت باتِّزانك على السرج، يمكنك أن تحصل على مُتعة القيادة.

لم تتمتَّع الكنائس التي عرفتها في طفولتي وشبابي بهذا الاتِّزان في التعامل مع عطايا الله. لقد كانوا ينظرون إلى المتَع والرغبات بعينين متشكِّكتَين غير راضيتَين. وظَللتُ على مدى سنوات غير قادر أن أثق بأنَّ الله هو المصدر المُبتسم لكلِّ عطيَّة صالحة فوق سطح هذا الكوكب. "السارِقُ لا يأتي إلَّا ليَسرِقَ ويَذبَحَ ويُهلِكَ، وأمَّا أنا فقد أتَيتُ لتَكونَ لهُمْ حياةٌ وليكونَ لهُمْ أفضَلُ" (هذا ما قاله يسوع بالتحديد في خطابه إلى المؤسَّسة الدينيَّة). لقد جاء من عالم آخر لكي يرينا طريقة عيش هذا العالم.

وبمرور الوقت، حصل المسيحيُّون على سُمعةِ أنَّهم مضادُّون للمُتعة. فكُلَّما أنكرنا الرغبات الطبيعيَّة، أصبحنا "روحيِّين" في نظر التيَّار المسيحيِّ السائد. لقد تكلَّم بولس الرسول كلمات شديدة اللهجة ضدَّ مُرَوِّجي هذه الروحانيَّة المُتطرِّفة الذين كانوا بطريقة ما يَفتَرون على عطايا الله، حتَّى إنَّه صرَّح أنَّهم "في رياءِ أقوالٍ كاذِبَةٍ، مَوْسومَةً ضَمائرُهُمْ، مانِعينَ عن الزِّواجِ، وآمِرينَ أنْ يُمتَنَعَ عن أطعِمَةٍ قد خَلَقَها الله لتُتَناوَلَ بالشُّكرِ مِنَ المؤمِنينَ وعارِفي الحَقِّ. لأنَّ كُلَّ خَليقَةِ الله جَيِّدَةٌ، ولا يُرفَضُ شَيءٌ إذا أُخِذَ مع الشُّكرِ".

من الواضح أنَّ الله لم يخلق فينا رغبات لكي نُنكرها. كما يُصرُّ بولس الرسول أنَّ هذا العالم هو خليقة الله. بوصف الله خالِقنا أبًا محبًّا فهو الذي خلقنا يريد لنا الأفضل، والأكثر إشباعًا. لا تَعِد المسيحيَّة باللذَّة الشخصيَّة المُطلقة، ولا بحياة مُتمركزة حول المُتعة، لكنَّها تَعدُ بنظام للحياة يضيف اللذَّة الروحيَّة إلى اللذَّة الجسديَّة، ولا ينتقصَ منها، حتَّى نُحقِّق اللذَّات كما قصدها لنا الخالق. وإلَّا فإنَّنا نُخاطر بالإغراق في الأشياء لدرجة نُدمِّر فيها أنفسنا. يحدث سوء الاستخدام عندما نقصد اللذَّة كهدفٍ في حدِّ ذاتها بدلًا من أن تكون أمرًا يشير إلى ما هو أكثر منها. يُصلِّي پاسكال: "ما أكمل الرغبات الصالحة التي أعطيتني! فلتكُن أنت غايتها، كما كُنتَ مصدرها".

من كتاب: إشاعات من عالم آخر

١٨ حَزيران/يونيو

موسيقا الله

أصبح يوهان سباستيان باخ (Johann Sabastian Bach) المؤلِّف الموسيقيَّ الذي ارتبط اسمه بالكنيسة، وهو الذي وُلد في رحاب قلعة ڤارتبورغ (Wartburg) حيث تَرجم لوثر الكتاب المقدَّس إلى الألمانيَّة. وعندما تستمتع إلى موسيقاه، تَشعُرُ بأنَّ الله هو الذي كان يرعاه، وليس أحد الأثرياء المهتمِّين بالموسيقا كما كانت الحال في ذلك العَصر، بل كأنَّ الله نفسه كان يفحص كلَّ نغمة موسيقيَّة وكلَّ جُملة يكتبها. لقد كان باخ يَستَهِلُّ أغلَبَ مقطوعاته الموسيقيَّة بحرفين (JJ) يختصران في اللاتينيَّة عبارة "يا يسوع، أعنِّي"، ويُنهيها بثلاثة حروف (SDG) اللاتينيَّة تختصر عبارة "المجد لله وحده".

ومن بين أعمال باخ، فإنَّ "الآلام بحسب القدِّيس متَّى" (The Passion According to St. Matthew) تُعدُّ أعظم عمل كوراليٍّ كُتب في اللغة الألمانيَّة. كان هذا العمل قد قُدِّم مرَّة واحدة في أيَّام باخ، ولم يُثِر اهتمامًا كبيرًا، وظلَّ لا يُقَدَّم على مدى مئة سنة بالتمام. ثُمَّ في ١٨٢٩م، حصل فيلكس مندلسن (Felix Mendelssohn) على نسخة منه من مُعلِّمه، الذي، كما ادُّعِيَ، كان قد اشترى الأصل من تاجر جُبنٍ كان يستخدم هذه الأوراق التي ظنَّ أنَّها بلا قيمة لِلَفِّ بضاعته. وأحيى ماندلسن هذا العمل وقدَّمه على المسرح مُحدِثًا موجة من الاهتمام والحماسة لباخ لم تنتهِ حتَّى الآن.

لقد استمعتُ لهذا العمل العظيم في حفل صيفيٍّ قدَّمته أوركسترا وكورال شيكاغو السيمفونيُّ في حديقة راڤينيا (Ravinia Park) بالقرب من شيكاغو حيث اجتمع ثلاثة آلاف شخص للاستماع إلى عرض استغرق أربع ساعات. وقد هالَتني غرابة الجمهور الحاضِر: مجموعة من مُحبِّي الموسيقا من الطبقة العُليا، تَتَّزِن مع مجموعة من مُرتدي الجينز والمظهر البسيط ذوي الاهتمام العارِض بهذا النوع من الموسيقا، إلى جانب القليل من هُنا ومن هُناك من السكَّان اليهود للشاطئ الشماليِّ لشيكاغو. استمع كُلُّ هؤلاء مَبهورين بذلك السرد الكامل المُباشِر لقصَّة صَلب يسوع بحسب إنجيل متَّى.

لقد كان المشهد أبعد ما يكون عن تلك الليلة المُترِبة الدامية على قمَّة الجُلجُثة. لكن بصورةٍ ما، نسج هذا الأستاذ الموسيقيُّ سِحرهِ في الموسيقا. ونَقل العازفون المُحترفون الذين يتقاضون أجورًا، بواسطة المُوسيقا، مشاعر الألم والرعب التي سادت ذلك اليوم المُظلم بالغ الأهمِّيَّة لكلِّ البشريَّة، أفضلَ من أيِّ واعظٍ مُفَوَّه يَصِفُ ثقوب المسامير الغائِرَة، وآثار الأشواك النافِرَة.

مَن يعلم مدى تأثير ذلك العَرض؟ لم أسمع قطُّ بنهضة كنسيَّة قَدَحَ شرارَتَها عَرضٌ موسيقيٌّ كلاسيكيّ. لكن في داخلي، بصفتي مؤمنًا، شعرتُ بالتأثير الذي صنعَته هذه الموسيقا المكتوبة بعناية شديدة بقلمِ أعظم

عقليَّة موسيقيَّة، وهيَ تَصِفُ ذلكَ الحدث الواحد الذي قَسَمَ التاريخَ قسمين. إذا كان الفنُّ العظيم يُعبِّر عن "قَطراتِ النعمة" التي يمكن أن توقِظ فينا العطش لِما تحاول هذه الموسيقا وَصفَهُ، فبفضلِ تلك العقليَّة الفذَّة، يُمكن أن تتحوَّل قطرات النعمة هذه إلى فيضان من حضور الله. "المجد لله وحده".

من كتاب: نوافذ مفتوحة

١٩ حَزيران/يونيو

الانتباه

تعلَّمتُ درسًا عن الانتباه من أحد قادة الأوركسترا غريبي الأطوار في تلك السنة التي زار فيها الموسيقيُّ الرومانيُّ سيرجيو سيليبيداشي (Sergiu Celibidache) مدينة شيكاغو مع فرقته، فرقة ميونيخ الفيلهارمونيَّة. القليل من الأوركسترات يمكنها أن تعمل مع هذا القائد الذي يطالبُ باثني عشر إلى ثمانية عشر تدريبًا قبل أيِّ عرض يقدِّمه، وهذا بالمقارنة بأربعة تدريبات فقط يطلبها أغلب القادة الآخرين. إنَّه يُصرُّ على مُقارَبة شَرقيَّة للموسيقا، راغِبًا ليس فقط في مجرَّد تقديم عرض "مثاليٍّ" بالمقارنة بغيره من قادة الأوركسترا أو الفِرَق الموسيقيَّة، بل يسعى أيضًا إلى خلق لقاءٍ حقيقيٍّ بين الموسيقا والمستمعين من شأنه استلاب جُلَّ انتباهِهِم.

زار سيليبيداشي الولايات المتَّحدة أوَّل مرَّة في سنِّ الحادية والسبعين، وبعدها بخمس سنوات، عندما زار الولايات المتَّحدة مرَّة أُخرى، كان يحتاج إلى مساعدة للصعود إلى المنصَّة. لقد اختار لحفلته مقطوعاتٍ معروفةً، لكن ياَلَهُ من فَرق. لقد كان يتجاهل علامات الإيقاع التي وضعها المؤلِّف، حتَّى إنَّه مدَّ مقطوعة موسورجسكي (Mussorgsky) بعنوان "صُوَر في مَعرَض" (Pictures at an Exhibition) لتصيرَ ضِعْفَ زَمَنِها المُعتاد. وعندما كان يتناول جملة موسيقيَّة، كان يبدو أنَّه مهتمٌّ أكثر كثيرًا برسم السِّمات النغَمِيَّة لهذه الجُملة، أكثر من دمجها مع ما تليها من جُملٍ في التداعي المُتتالي للمقطوعة. لقد كانت مُقارَبَتُهُ للموسيقا تميل إلى التأمُّل أكثر من مُجرَّد الأداء.

إنَّ أجسادنا نفسها تتجاوب عندما نُعير انتباهنا؛ ففي حضرة هذه الأوركسترا، كُنتُ أميلُ إلى الأمام مع الموسيقا، وأُحرِّك رأسي يُمنَةً ويُسرةً، وأصنع من يدي وأصابعي شبه الكوب خلف أذنيَّ، وأُغلِقُ عينيَّ لفتراتٍ طويلة.

يكتب سايمون ڤايل (Simon Weil) أنَّ الشاعرَ يلتَقِطُ الجمال بتركيز انتباهه الشديد على شيءٍ حقيقيّ. هكذا أيضًا الحبيب. هل يمكنني أن أفعل الشيء نفسه في حياتي الداخليَّة مع الله؟ لا أحتاج دائمًا البحث عن استبصارات عقليَّة جديدة، وحقائق حديثة لم أعرفها من قبل؛ "إنَّ أبسط الحقائق واكثرها اعتياديَّة عندما تغمر النفسَ بأكملها، فهي كالإعلان".

وبالتأمُّل، أدركتُ، أنَّني أميل إلى فهم الحياة كأنَّها مسار متسلسل، سلسلة من اللحظات الفريدة؛ فأُنظِّم وقتي، وأُحدِّد أهدافي، وأتحرَّك إلى الأمام في سبيل تحقيقها. المُكالَمات الهاتفيَّة الطارئة، أو أيُّ حدث غير موجود في جدولي، أَعُدُّهُ نوعًا من المُقاطَعة والتشتيت. لكم هذا مُختلفٌ عن أسلوب يسوع الذي كان عادة ما يدع الآخرين- الذين يقاطعونه بصورةٍ ما- هم مَن يُحدِّد له جدول يومه. كان يسوع يُبدي اهتمامًا كاملًا

للإنسان الذي أمامه، سواء كان ضابطًا رومانيًّا أم امرأة مجهولة الاسم مُصابة بنزيفٍ مُزمن. وكان يستخلص دروسًا روحيَّة دائمة التأثير من أشياء عاديَّة جدًّا لا يلحظها أحد مثل زهرة برِّيَّة ومحصول قمح وكرمة وأغنام وحفلات زفاف وعائلات.

من كتاب: إشاعات من عالم آخر

٢٠ حَزيران/يونيو

مصدر السكينة

لقد زُرتُ كلكتا، في الهند، وفيها يجتاح الفقر والموت والمشكلات الإنسانيَّة المستعصية. ورأيت الراهبات اللاتي درَّبَتهُنَّ الأمُّ تيريزا يخدمن أفقر الفُقراء وأكثر الناس بؤسًا على ظهر هذا الكوكب: الأجساد نصف الميتة التي تُلتقط من شوارع كلكتا. ويقف العالم مَبهورًا من التزام هؤلاء الراهبات وتكريسهنَّ ونتائج خدمتهنَّ، لكنَّ شيئًا آخر في هؤلاء الفتيات يُبهرني بصورة أعمق: سكينَتهُنَّ. أتصوَّر أنَّني إذا هَممتُ بالعمل في مشروعٍ صَعبٍ مُرهِقٍ كهذا، ففي الأغلب سوف أتحرَّك بإيقاع محموم وأهِمُّ بإرسال تقارير صحفيَّة للمُمَوِّلين، وأتوسَّل من أجل المزيد من الموارد، وأبتلع المهدِّئات باستمرار، وأتَعَلَّق بكلِّ وسيلة من شأنها أن تساعدني لكي أتحمَّل اليأس والإحباط. أمَّا هؤلاء الراهبات، لم يكُنَّ كذلك بتاتًا.

تعودُ سكينَتُهُنَّ هذه إلى ما يحدث قبل أن يبدأ يومُ عَمَلِهنّ. ففي الرابعة صباحًا، قبل شروق الشمس بوقت طويل، تستيقظ هؤلاء الراهبات على صوت جرس ضخم ونداء: "لنُبارِكِ الربَّ". ويأتي الرَّدُّ: "شُكرًا للربِّ". ويبدأن في التقاطُر نحو الكنيسة الصغيرة مرتديات الساري الهنديَّ الناصع البياض، ويجلسن على الأرض بالطريقة الهنديَّة، ويصلِّين ويرنِّمن معًا. وعلى جدار تلك الكنيسة البسيطة يتعلَّق صليب وتحته كلمة "عَطِشتُ". وقبل أن يُقابِلنَ أوَّل "عميل"، يُغرِقنَ أنفَسَهُنَّ في العبادة وفي محبَّة الله.

لَم أستشعرُ أيَّ رُعبٍ في هؤلاء الراهبات اللاتي يُدِرنَ هذا البيت لإيواء المُحتَضَرين الذين بلا أهل ولا مأوى، لكنَّني أرى الاهتمام والرحمة، نعم، ولكن بلا هَوَس بشأن ما تمَّ وما لم يَتِمّ. في واقع الأمر، أسَّست الأمُّ تيريزا تقليدًا مُبَكِّرًا وهو أنَّ الراهبات يأخُذنَ يوم الخميس إجازة كاملة للصلاة والراحة. وكانت تشرح ذلك قائلة: "سَوفَ يَظَلُّ العمل موجودًا دائمًا، لكن إذا لم نَستَرِح ونُصَلِّ، فلن نكونَ موجوداتٍ للقيام به".

أُصلِّي أن أستطيع ذات يومٍ أن أحصُل على ما يُشبه هذه البساطة المُقدَّسة التي تجَسِّدها هؤلاء الراهبات. في الصباح، أطلب النعمة لكي أحيا من أجل الله فقط، لكن عندما يرنُّ الهاتف برسالة تدغدغُ شعوري بالقيمة والأهمِّيَّة، أو عندما أفتح خطابًا من قارئ غاضب، أجد نفسي أتقهقر إلى حالة من الوعي الزائد بالنفس، فيه يحدِّدُ الآخرون أو تُحدِّدُ الأحداث مستوى إحساسي بقيمة نفسي وسكينتي. إنَّني أشعر باحتياجي إلى التغيير وأستمرُّ فقط لأنَّ ذلك الإحساس هو الأساس الأكيد الوحيد الذي يَدُلُّ على إمكانيَّة حدوث التغيير.

من كتاب: محاولة اللقاء مع إله غير منظور

٢١ حَزيران/يونيو

الإيمان العامل

من مُنطلَق الأمانة، أشعر بوجوب أن أستكشف طريقة عمل الإيمان في الحياة اليوميَّة العمليَّة. اشتملت حياة إيماني الشخصيَّة على الكثير من المفاجآت. إذا لم تحتو الرحلة على بعض الانحرافات غير المُتَوَقَّعة عن المسار، فنحن لا نكاد نحتاج إلى الإيمان.

يصِفُ بَعضُ الرهبان نوعًا من الحياة المُتكاملة التي تتدفَّق فيها القوَّة الروحيَّة لتَغمُر كلَّ أشكال الحياة الأخرى. لكنَّ أغلبهم يعيشون في مجتمع روحيٍّ تُنظِّمُهُ أوقات الصلاة والعبادة المُحدَّدَة، وليست لديهم هواتف خلويَّة، أو تلفاز أو غيرها من الأشياء التي تُقاطِع أوقاتنا باستمرار. فماذا عنَّا نحن الباقين، الذين نُجابِه قوائم الواجبات اليوميَّة التي لا تكاد تنتهي ونعيش في ثقافة تتآمر لكي تُغرق كلَّ أوقات الصمت والتأمُّل المُتاحَة، وتملأ كلَّ أوقات التَوَقُّف التي يُمكنُ أن نَتَوَقَّف فيها؟

عندما أبدأ يومي في الصباح بالتمَركُزِ حَولَ الله بصورةٍ مَقصودة، فإنَّني أرجو أن يتدفَّق السلام وتَنهَمِرَ السكينة على بقيَّة يومي من تلك النقطة الهادئة في بداية اليوم. لكنَّني وجدت أنَّني حتَّى إذا حصلتُ فقط على نِصف الساعة هذه من الهدوء في يوم يتميَّز بالاضطراب، فإنَّ النتيجة النهائيَّة لن تكون على ما يرام. لقد كنتُ أظنُّ أنَّ الأمورَ المهمَّةَ في حياتي- زواجي، عملي، أصدقائي المُقَرَّبين، العلاقة مع الله- يجب أن تكون مُرتَّبة تمامًا. وأنَّ أيَّة منطقة فيها عيب، مثلًا برنامج حاسوب لا يعمل جيِّدًا، من شأنها أن تجعل النظام كلَّه ينهار. منذ ذلك الحين تعلَّمت أنَّ أطلب الله وأعتمد بشدَّة على نعمته حتَّى عندما- وبالذات عندما- تكون إحدى نواحي حياتي تتَّجه نحو الانهيار.

ووبصفتي واحدًا ممَّن يكتبون ويتكلَّمون علنًا عن الإيمان، فقد تعلَّمت أن أقبل كوني "إناءً خزفيًّا"، وأنَّ الله يُمكنه أن يستخدمني في الوقت ذاته الذي لا أشعر فيه بالاستحقاق ورُبَّما حتَّى أشعر بالرياء. يمكنُني أن ألقي خطابًا أو أعظ عظة كانت حقيقيَّة وحَيَّة بنظري عندما صِغتُها، رغم أنِّي عندما أقدِّمها، يكون عقلي مشغولًا بإعادة التفكير في حوار خرجت لتوِّي منه، أو أكون مشغولًا بجرحٍ تَعَرَّضتُ له من صديق. يُمكنُني أن أكتُب ما أومن أنَّه حقيقيٌّ حتَّى بينما أكون واعيًا وعيًا مؤلمًا بعدم قدرتي على الوصول إلى ما أدعو الناس إلى الوصول إليه.

إن مُمارَسَة الإيمان في الحاضر يعني الثقة بالله الذي يعمل في المواقف التي تواجهني بالرغم من فوضى بقيَّة حياتي. وكما علَّمتني حركة التعافي من الإدمان، فإنَّ كلَّ شعور بالعجز يدفعنا نحو الله.

من كتاب: محاولة اللقاء مع إله غير منظور

الله يحبُّ "الأحوال"

لدى البيوريتانيِّين (Puritans) مقولة تقول: "الله يحبُّ الأحوال"، بمعنى أنَّ الله تهمُّه حالنا التي نحيا بها أكثر من النتائج الملموسة. لقد كانوا يسعون إلى ربط كلِّ الحياة بمصدرها في الله، وذلك لإحضار العالَمَين معًا بدلًا من تقسيم العالم إلى ما هو مقدَّس وما هو مُعتاد.

إنَّ إرضاء الله لا يعني أنَّنا يجب أن نشغل أنفسنا بمجموعة جديدة من الأنشطة "الروحيَّة". وكما يقول البيوريتانيُّون، إنَّنا سواء كنَّا نُنَظِّف المنزل أو نعظ عظة روحيَّة، سواء كُنَّا نركِّب حدوات لأحصنتنا أو نُترجمُ الكتاب المقدَّس للهنود، فأيُّ نشاط يُمكن أن يكون تقدمةً لله. بهذه الروح، قدَّم توماس ميرتون (Thomas Merton) في ما بعد، تلك المُلاحظة التي تقول: "يُمكنك أن تعرف الكثير عن الراهب، من الطريقة التي يستخدم بها المقشَّة أكثر من أيِّ شيء يقوله".

إنَّني أجده نسبيًّا أسهل أن "أُقَدِّس" الله في الطبيعة وأصعب كثيرًا أن أمجِّده في الأحداث العاديَّة لحياتي. كيف يُمكنني أن أرى للأعمال الروتينيَّة المُعتادة التي تشغل يومي أيَّ نمط أو نَسَق ذي معنى؟ كيف يُمكنني أن أُحضِرَ العالَمَين معًا، وأرى الله في مسار يومي العاديّ؟

كان مارتن لوثر يرى دعوة روحيَّة كامنة في أيِّ عمل من الأعمال. فقد كان يقول: "أيُّ عمل يبدو قذرًا، مثل نقل السماد، أو غسل حفاضات الأطفال، هو عمل نقيٌّ ومقدَّس إذا كان يأتي من قلب نقيٍّ ومُقَدَّس". لقد كان لوثرُ يحثُّ الأشخاص العاديِّين- المُزارعين، وحَلَّابات البقر، والجزَّارين، وصانعي الأحذية- أن يعملوا أعمالهم كما لو كان الله نفسه يراقبهم.

رعاية والدٍ مُسِنٍّ، وتنظيف طفل، والجلوس أمام الباب مع جار، والبحث في شكوى زبون، وتركيب سلكٍ ضوئيٍّ، وإتمام واجبات التمريض، وتقطيع الأخشاب، وإعطاء بقشيش للنادِل، والتبضُّع لحاجات المنزل. إنَّنا نقضي أغلب أوقاتنا نفعل هذه الأشياء، بل إنَّنا غارقون في الروتينيِّ والمُعتاد. والأمر يحتاج إلى الإيمان لكي نثق بأنَّ لهذه الأشياء قيمة.

يكتُب بولس إلى أهل كنيسة كورنثوس: "أمَّا نَحنُ، فَلَنا فِكرُ المَسِيح". وهي الكنيسة التي كانت أقلَّ الكنائس من جهة ظهور فكر المسيح فيها. ماذا يعني أن نُمارس "فكر المسيح" في وسط الأمور العاديَّة؟

يكتب جوان شيتيستر (Joan Chittister)، أحد الكُتَّاب المنتمين إلى طائفة الرهبان البنديكتان، مُلَخِّصًا

الروحانيَّة في هذه العبارة: "أن نحيا الحياة العاديَّة بصورة غير عاديَّة... فإذا لم نكن روحيِّين في ما نفعله كلَّ يوم، فنحن لسنا روحيِّين بتاتًا".

من كتاب: إشاعات من عالم آخر

٢٣ حَزِيران/يونيو

تَصَرَّف كما لو كان

قال يسوع: "تعليمي ليس لي بل للذي أرسَلَني. إنْ شاءَ أحَدٌ أنْ يَعمَلَ مَشيئَتَهُ يَعرِفُ التَّعليمَ، هل هو مِنَ الله، أم أتَكلَّمُ أنا مِنْ نَفسي". لاحِظ التسَلسُل: اختَر أن تعمل مشيئة الله، والثقة سوف تتبع. هُنا يقدِّم يسوع مسيرة الإيمان بوصفها نوعًا من الارتحال الشخصيِّ خلف الله تبدأ في شَكٍّ وثقة هشَّة مُهتَزَّة.

يمارس بعض المُعالجين النفسيِّين مدرسةً من العلاج السلوكيِّ، فيها يُشجَّعُ العميل أن يتصرَّف "كما لو كانت" حالة ما حقيقيَّة مهما بدا ذلك غير منطقيّ. تقول هذه المدرسة إنَّنا نغيِّر السلوك، لا بالرجوع إلى الماضي؛ ولا بمحاولة ضبط الأفعال على الدوافع، بل بالتصَرُّف "كما لو كان" لا بدَّ من حدوث التغيير يجب أن يحدث. من السهل جدًّا أن نَتَحَرَّك والمشاعر تتبع، بدلًا من أن ننتظر المشاعر لنتحرَّك.

إذا كُنتَ تريد الحفاظ على زواجك لكنَّك لست متأكِّدًا إن كُنتَ تُحبُّ زوجتك، ابدأ بالتصرُّف كما لو كُنتَ تُحِبُّها: فاجِئها، أظهر عواطفك تجاهها، أحضر إليها الهدايا، كُن مُنتبهًا لها. عندئذ رُبَّما تجدُ مشاعر الحُبِّ تظهرعندما تتصرَّف كما لو كُنتَ تُحبُّها. إذا كُنتَ تريد أن تغفر لأبيك لكنَّك تجد نفسك غير قادر على ذلك، تصرَّف كما لو كُنتَ قد غَفرتَ له. قُل الكلمات: "يا أبي، أنا أغفر لك" أو "أُحِبُّك" حتَّى لو لم تكُن مُقتنعًا تمامًا أنَّك تعني هذه الكلمات. عادة ما يؤدِّي التغيير في سلوك طرفٍ، إلى تغيير في سلوك طرفٍ آخر.

يحدُثُ شيءٌ شبيهٌ أيضًا في علاقتي بالله. إنَّني أتمنَّى لو أنَّ كلَّ الطاعة تنبع من رغبة فطريَّة في إرضاء الله– لكن للأسف، لا يحدث الأمر هكذا. فمن جهتي، تشتمل حياة الإيمان في بعض الأحيان على التصرُّف كما لو كان الامر كلُّه حقيقيًّا. أفترِضُ أنَّ الله يحبُّني حبًّا لانهائيًّا، أو أنَّ الخير سوف ينتصر في النهاية، وأنَّ كارثة يُمكن أن تُفتَدى، بالرغم من أنَّه ليس لديَّ تأكيدٌ وليس لديَّ إلَّا إرشادات إلهيَّة قليلة تدفعني قُدُمًا. على أيَّة حال، أتصرَّف كما لو كان الله إلهًا مُحبًّا، وأعامِل جيراني كما لو كانوا بالفعل يحملون صورة الله، وأغفر لمن يسيئون إليَّ كما لو كان الله قد غفر لي أوَّلًا.

من كتاب: محاولة اللقاء مع إله غير منظور

٢٤ حَزيران/يونيو

الآن ومتى

بحسب ستانلي هاوِرواز (Stanley Hawerwas)، فإنَّ حياة الإيمان تتكوَّن من الصبر والرجاء. عندما يصادفنا شيءٌ يضع علاقتنا بالله محطَّ التجربة، فإنَّنا نعتمد على هاتَين الفضيلَتَين: الصبر الذي تُشكِّله ذكريات طويلة، والرجاء في أنَّ أمانتنا سوف تُثبِت أنَّها كانت تستحقُّ المخاطرة. ويُلاحظ هاورواز أنَّه كثيرًا ما أكَّد المسيحيُّون واليهود هاتين الفضيلَتَين، لأنَّنا نؤمن أنَّ الله الذي هو صالحٌ وأمين، يُسيطر على الكون، ومنه فإنَّ الصبر والرجاء يحافظان على الإيمان حيًّا في الأوقات التي تُلقي بظلال الشكِّ على ذلك الإيمان.

أتصوَّر أنَّني يمكن أن أعيد صياغة عبارات هاورواز قائلًا إنَّ الإيمان يتكوَّن من الحياة في الماضي وفي المستقبل. إنَّني أعيش في الماضي لكي أؤسِّس نفسي على ما فعله الله، بصفته نوعًا من الحصول على الثقة في ما يمكن أن يفعله الله مرَّة ثانية.

إنَّ العلاقة بإله غير منظور تتضمَّن بعض الإعاقات؛ فدون دلائل من الحواس في الحاضر، يجب أن ننظر إلى الماضي لكي نُذَكِّر أنفُسَنا بمن هو هذا الإله الذي دخلنا في علاقة به. إنَّ عبارة "إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب" كانت تُذكِّر الشعب المُختار بتاريخ الله معهم- تاريخٍ حمل لهؤلاء الثلاثة مواسم من التجارب والشكّ.

تنصحنا رسائل العهد الجديد بالنصيحة ذاتها: دراسة الكتاب المقدَّس بجِدٍّ واجتهاد، بوصفها خرائط الطريق الضروريَّة لمسيرة الإيمان. وفي ما وراء الكتاب المقدَّس، تُوجد أيضًا شهادة الكنيسة في العالم كلِّه وعبر كلِّ العصور عن أمانة الله. أين كان لإيماني أن يكون اليوم دون أشخاص مثل أغُسطينوس وتشسترتون ودستويفسكي وغورغن مولتمان وتوماس ميرتون؟ في مرَّات عدَّة، اتَّكأتُ على كلماتهم كما يتَّكأُ مسافرٌ مُنهَكٌ على أثرٍ تاريخيٍّ مُشَيَّدٌ على جانب الطريق.

وعندما أتناول مقالًا كنتُ قد كتبته منذ خمس وعشرين سنة، أتعجَّب من قدر الحماسة التي كنتُ أشعر بها تجاه أمرٍ أكاد لا أكون قد فكَّرت به منذ ذلك الحين. وبصورةٍ عامَّة، فإنَّني بالنظر إلى الماضي أستطيع أن أفهم أنَّ ما أشعر به وأومن به الآن، رُبَّما لن أستمرَّ في الشعور أو الإيمان به في ما بعد.

من كتاب: محاولة اللقاء مع إله غير منظور

٢٥ حَزيران/يونيو

حياة كاتب

طوال السنوات التي عشنا فيها في شيكاغو، أدارت زوجتي برنامجَ رعايةٍ للمُسنِّين بين أفقر الفقراء. وكان الحوار حول مائدة العشاء في بيتنا يدور عادةً هكذا:

"كيف كان يومك، يا جانيت؟"

"كان صعبًا. قابلت أُسرة بلا مأوى يعيشون في حديقة لنكولن ولم يأكلوا مُنذ ثلاثة أيّام. بعد الاهتمام بهم، علمت أنَّ مارتن الكبير (Big Martin) البالغ من العمر تسعة وثمانين سنة قد تُوُفِّي. ثمَّ اكتشفت أنَّ بعض أعضاء العصابات اقتحموا سيَّارة الكنيسة وكتبوا بالطلاء عليها ".

وبعد ملء هذه العناوين بتفاصيل هذه المغامرات، تسألني جانيت عن مُجريات يومي. عندئذ أشعر شعورًا بسيطًا من الرُّعب وأقول ما مفاده: "آه، فلأفكِّر في ما حدث اليوم. لقد كُنت أُحملق في شاشة الحاسوب طوال اليوم. ثُمَّ جاء طرد من شركة البريد السريع. آه، نعم، ونحو الثانية والنصف بعد الظهر عَثُرتُ على كلمة جديدة جيِّدة!".

لقد اختلفَ كثيرًا روتين حياتنا اليوميَّة، فضلًا عن اختلاف شخصيَّاتنا. كانت جانيت تعمل بنشاط وانفتاح اجتماعيٍّ في مكتبها. وكانت حياتها حافلةً بالمغامرات والبشر: كانت عادة ما تقدِّم الطعام لسبعين شخصًا في الوقت نفسه، وكانت تتعامل أسبوعيًّا مع مئات العُملاء.

بعد أن انتقلنا إلى كولورادو، بدأَتْ تعمل في بيت رعاية للمسنِّين. وعادة ما كان نزيلُ ذلك البيت يُتَوفَّى في غضون عشرة أيَّام من دخوله. وتعود جانيت إلى المنزل كلَّ يوم تقريبًا بقصصٍ عن العائلات التي تخوض يوميًّا أحداثًا حياتيَّة تعكس الشجاعة والغضب واليأس وجميعها تميِّزها المشاعر التي يثيرها الخسارة والأسى.

وفي هذه الأثناء، سواء كنَّا في شيكاغو أم كولورادو، كنتُ كعادتي أجلس في المنزل أُحملق في شاشة حاسوب مُحاولًا البحث عن الكلمة المثاليَّة. ويظلُّ "الحَدَث" الأساسيُّ في يومي يحدث نحو الظُّهر، عندما يصل ساعي البريد. ثُمَّ من وقت إلى آخر يدُقُّ جرس الهاتف. وأسبوعيًّا، أو نحو ذلك، أُقابل شخصًا على الغداء. لا يُمكنك أن تصف الروتين اليوميَّ لكاتب بأنَّه مُثير.

من كتاب: العثور على الله في أقلِّ الأماكن توقُّعًا

٢٦ حَزِيران/يونيو

شخصٌ يجلس ويَنقُر فقط

أستمع إلى قصص جانيت في عملها مع الفقراء المُسنِّين ونُزلاء دار الرعاية الصحِّيَّة وأقول لنفسي: "أعتقد أنَّني إذا كنتُ أعمل في وظيفتها، فلا يُمكن أن أُصاب بانقطاع أفكار الكتابة". لكن سُرعان ما يأتي الواقع ليفيقني من خيالاتي: "توجد مشكلتان، يا فيليپ: أوَّلًا، سوف تكون فاشلًا جدًّا في هذا العمل. وثانيًا، لن يكون لديك مزيدٌ من الوقت لتكتب". وهكذا ففي الصباح التالي، بعد تناول طعام إفطاري، أنزل إلى القبو لأواصل إحداث الصوت الذي يشبه صوت الحشرات التي تنخر في الخَشَب عندما أقضي يومي أنقر على لوحة المفاتيح.

وبمرور الوقت، أصبحتُ أُدرِك أنَّ هذه الفروق التي بيننا- في الشخصيَّة، والنظرة، والروتين اليوميِّ- في واقع الأمر تُشَكِّل قوَّة كبيرة. تقدِّم لي جانيت عينَين جديدتَين أنظر بهما إلى عالم لا أكاد أعرفه، حيث أجد التحدِّي والاستثارة. يتعرَّض إيماني الشخصيُّ للفحص عندما أستمع إلى محاولاتها أن تُدخِلَ الرجاءَ في حياة هؤلاء الذين ليس لديهم إلَّا القليل. وفي بعض الأحيان، مثلما يحدث الآن، تقتحم خبراتها كتاباتي.

لم أعُد أنظر إلى عمل جانيت نظرة المُنافَسَة. بل على العكس، أَتَعَجَّبُ وأُعجَبُ بالفَرق في الشخصيَّة والمواهب الروحيَّة التي تسمح لها بقضاء وقتها تتعامل مع مواقف من شأنها أن تُصيبني بالجنون إذا تعامَلتُ معها. لقد تعلَّمت أن أفتخر بعملها، وأن أنظر إليه بوصفه جزءًا من خدمتي الشخصيَّة لله. فعندما أخدِمُها، وأستَمِعُ إليها، يمكنني أن أُقَوِّيها وأعمل على أن يستمرَّ عملها الحيويّ.

في الأيَّام الجيِّدة، أتذكَّر هذه القاعدة، وأُصَلِّي من أجل جانيت، وأبحث عن طُرُق لمساعدتها في عملها الشاقِّ والمثير. أمَّا في الأيَّام السيِّئة- رُبَّما تجدُني جالسًا أمام شاشة حاسوب، أنظرُ بعينين سارحتين، حالِمًا بالروايات العظيمة التي كان يُمكن أن أكتبها إذا كُنتُ أقضي وقتي في عمل جانيت بدلًا من هذا القبو.

من كتاب: العثور على الله في أقلِّ الأماكن توقُّعًا

٢٧ حَزيران/يونيو

القوَّة الناعمة

كبرتُ في كنيسة جنوبيَّة أُصوليَّة كانت تُعَلِّم تعليمًا عُنصريًّا صريحًا، علاوةً على خوفٍ من الشيوعيَّة بطابعٍ أُخرويٍّ، وانتماء قوميٍّ يصل إلى حدِّ التعَصُّب. من جهتي، فتحَت القراءة لي طاقة نورٍ صغيرة، سرعان ما تحوَّلت إلى نافذة على عالم آخر. مثل رواية "**أن تَقتُل طائرًا يقلِّد أصوات الطيور**" *(To Kill A Mockingbird)* التي انتقدت بشدَّة افتراضات الفَصل العُنصريِّ التي كان يؤمن بها أصدقائي وجيراني. ثُمَّ بعد ذلك، عندما قرأت كُتُبًا مثل "**أسوَد على شاكلتي**" *(Black Like Me)* وكتاب مارتن لوثر كنغ الابن بعنوان "**خطاب من داخل سجن مدينة برمغنهام**" *(Letter from Birmingham City Jail)*، شعرت أنَّ كلَّ عالمي ينهار ويَتَبَدَّل. لقد اختبرت القوَّة التي سمحت لعقلٍ بشريٍّ واحد بأن يخترق عقلًا آخر دفعة واحدة.

لقد أصبحتُ بصورة خاصَّة أُقَدِّرُ ذلك الجانب من الكتابة الذي يُشَجِّعُ على الحُرِّيَّة. كان يستطيع المُتكلِّمون الذين يأتون إلى كنيستنا أن يُعَلُّوا أصواتَهُم! ويستطيعون أن يلعبوا على وتر المشاعر مثلما يلعب العازف على آلته الموسيقيَّة. لكنَّني عندما أقرأ بمفردي في غرفتي أُصوِّتُ بالموافقة على الكتاب في كلِّ مرَّة أقلِب الصفحة. بواسطة القراءة، قابلت مُمَثِّلين آخرين للملكوت أمثال سي. أس. لويس، وجي. كاي. تشسترتون، والقدِّيس أُغسطينوس- الذين قفزتْ أصواتهم الأكثر هدوءًا من فوق حواجز الزمن لكي تُقنعني أنَّ مسيحيِّين آخرين قد عاشوا في مكان آخر وزمن آخر عرفوا النعمة مثلما عرفوا الناموس، واختبروا المحبَّة دون أن يفقدوا قُدرتهم على التمييز، واحتفظوا بهدوء المنطق مع شغف الوجدان.

أعتقد أنَّني أصبَحتُ كاتبًا، لأنَّني في خبرتي الشخصيَّة اختبرت قوَّة الكلمات. لقد رأيت أنَّ الكلمات المُفسَدَة، التي غُيِّرت معانيها الحقيقيَّة، يُمكن أن تُستَعاد. لذلك رأيت أنَّ الكتابة يمكن أن تخترق المخابئ وتكشف الوعور، لتأتي بأكسجينٍ روحيٍّ إلى أشخاص محبوسين في صناديق لا تُمَرِّر الهواء. لقد رأيتُ أنَّ الله عندما أرسل إلينا جوهرَ تعبيرِهِ عن نَفسِهِ، أسماه "الكَلِمة". إنَّ الكلمة تأتي بأكثر الطرق التي يُمكن تخيُّلها قدرة على التحرير.

إنَّنا رُبَّما نكون على أبواب نوعٍ مختلفٍ من العصور المُظلِمة- عصور يمتلك الشيطان فيها موجات الأثير، وفيها تبدو الكلمات رماديَّة باهتةً بالمُقارَنة بإبهار نور وسائل الإعلام الأخرى وما يمتلئ به الواقع الافتراضيُّ من مواد. لكن لا يزال لديَّ أمل. بالرغم من موجات الهستيريا والسلطويَّة في تاريخ الكنيسة، فقد ظَلَّت كلمات الحقِّ على قيد الحياة، لتظهر في وقت لاحق بوصفها قُوى حَيَّة لتغيير أفرادٍ وثقافات بأسرها. لقد اختبرتُ بنفسي قوَّة الكلمات. وأُصلِّي أن تتَذَكَّر الكنيسة، في أزمنة يتزايد فيها الضيق والاضطهاد، أنَّ

الكلمات لها أقوى قدرًا من التأثير عندما تُحَرِّر وتُشَجِّع على الحُرِّيَّة.

من كتاب: العثور على الله في أقلِّ الأماكن توقُّعًا

٢٨ حَزيران/يونيو

الفنُّ والدعاية

كالمغناطيس ذي القطبين، يَشعرُ الكاتب المسيحيُّ اليوم أنَّه مشدود بقوَّتَين: رغبةٍ مُلحَّة أن يقدِّم ما يُعطي معنى للحياة، وميلٍ فنِّيٍّ نحو التعبير الشخصيِّ وجمال الشكل والبُنية. وتلك يمكن أن تُعيقها الرغبة في تقديم "رسالة"، فتكون النتيجة تجاذبًا متصارعًا ومُتقَطِّعًا بين تقديم فنٍّ وتقديم دعاية.

كلمة دعاية (Propaganda) ليست كلمة محبوبة، وهي تشير ضِمنًا إلى نوع من الرغبة في المناورة والتأثير واستخدام الوسائل المُشوَّهة للوصول إلى الغايات. لكنَّني أقدِّمها هنا في صورة أكثر قبولًا يستند إلى المعنى الأصليِّ للكلمة في اللغة الإنكليزيَّة الذي صَكَّهُ البابا أوربان الثامن (Urban VIII) عندما أسَّس "كُلِّيَّة الدعاية" في القرن السابع عشر لكي ينشر الإيمان المسيحيّ. وبصفتي كاتبًا مسيحيًّا، فأنا أعترف أنَّني أسعى إلى تقديم دعاية من هذا النوع؛ فالكثير ممَّا أكتُب قد شكَّلَتهُ رغبة في أن أجعل الآخرين يفكِّرون في وجهة نظرٍ أحسبُها حقيقيَّة.

ولمقاومة جَذب الأدب بعيدًا عن الدعاية، فإنَّ الكثيرين من الكُتَّاب المسيحيِّين يشعرون بشيء يجذبهم بعيدًا عن الأسلوب الفنِّيِّ في الكتابة، معتقدين أنَّ الفنَّ لا فائدة منه في وجه الحاجة المُلحَّة إلى تخليص النفوس. تميلُ الروايات التي يكتبُها مسيحيُّون محافظون إلى الأسلوب الدعائيِّ (إلى درجة مُجرَّد إضفاء لمسة روائيَّة على قصص الكتاب المقدَّس التاريخيَّة أو النبوَّات بالمجيء الثاني) ويتخلَّون تمامًا عن كُلِّ ما هو فنِّيّ.

وفي مكان ما في المجال المغناطيسيِّ بين قطبي الفنِّ والدعاية، يعملُ الكاتب (أو الرسَّامُ أو الموسيقيُّ) المسيحيُّ عمله؛ فتُغرينا إحدى القوى نحو استخدام طُرق فنيَّة ضعيفة وتقديم عِظات مباشرة غير مُزَيَّنة لغويًّا؛ في حين تجذبنا القوَّة الأُخرى نحو الغرق في الفنِّيَّات إلى درجة تغيير محتوى الرسالة في سبيل الحساسيَّات الفنِّيَّة. لقد أصبحت أعدُّ هذا التوتُّر توتُّرًا صحِّيًّا يجب التشديد عليه.

يجدُ الكثيرون النجاح عادةً عند الانحياز نحو أحد الجانِبَين؛ إذ يُمكن أن ينجح الكاتبُ في العالم المسيحيِّ عندما ينحاز نحو جانب الدعاية. لكنَّ النتيجة هي أنَّ الشقَّ الحادث بين العالَمَين المسيحيِّ والعلمانيِّ يزداد اتِّساعًا مع الأيَّام. وإذا كُنَّا نستمرُّ في الميل إلى جانب الدعاية، فسوف ينتهي بنا الأمر بأن نكتُب ونبيع الكتُب لأنفسنا فقط. على الجانب الآخر، فإنَّ الكاتب المسيحيَّ لا يُمكنه ببساطة أن يتبنَّى المقاييس الأدبيَّة التي يتبنَّاها العالَم، فليس هدفنا النهائيُّ التعبير عن النفس، إنَّما التعبير عن الله.

من كتاب: نوافذ مفتوحة

٢٩ حَزِيران/يونيو

كنيسة التلفاز

يقدِّم التلفاز المسيحيُّ إلى المسيحيِّين الاعتياديِّين دفقة من الحماسة تدفعُ الإيمان الشخصيِّ كثيرًا ما تكون غائبة في الكنيسة المحلِّيَّة. بعض المشاهدين الذين يعترضون بقوَّة على فلسفة البرنامج التلفزيونيِّ، يشعرون بالرغم من ذلك بالإلهام من الأمثلة التي تُقدِّمها هذه البرامج من أشخاصٍ لديهم قدرة على التعبير عن إيمانهم بالمسيح.

يأتي الخطر عندما يخلط المشاهدون بين الحماسة التي يقدِّمها التلفاز المسيحيُّ، رسالة الكنيسة المتجسِّدة وعملها. فمقارنة بالإبهار التلفزيونيِّ، تفتقدُ الكنيسة المحلِّيَّة إلى الرونق. الخدمات أكثر مللًا بالمقارنة؛ والرسالة تبدو مُعَقَّدَة ومُربكة. ورُبَّما الأكثر خطرًا هو التأثير الاعتياديُّ أو البديليُّ الذي يصنعه التلفاز، حيث يتبنَّى المشاهد اختبارات أشخاص آخرين تُروى أمامه ويشعر كأنَّه يختبرها شخصيًّا، دون أن تكون له اختباراته الروحيَّة الشخصيَّة الحقيقيَّة.

الاجتماع الكنسيُّ الذي تشاهده على التلفاز يختلف عن الاجتماع الحقيقيِّ في قاعة الكنيسة المحلِّيَّة حيث الأطفال المُصابون بالزُّكام والسعلة التي تُصدر أصواتًا مُزعجة، والمراهقون الذين يتململون في مقاعدهم، والأجداد الذين لديهم مشكلة في السمع، ورُبَّما بعض أعضاء الكنيسة الذين نعسوا في أثناء العظة. في واقع الأمر، أنت تختبر كنيسة التلفاز في وسطٍ أكثر أمانًا وانضباطًا: غرفة المعيشة الخاصَّة.

عندما تشاهد اجتماع كنيسةٍ مُتلفز، لا أحد يطلب منك أن تشارك في برنامج الزيارات. ولا يتحدَّاك أحد أن تُدرِّس الإنجيلَ بطريقة تَلقى اهتمام الفتية المراهقين، ولا يطلب منك أحدٌ أن تطهو وجبات للمساجين مثلًا. رُبَّما كلُّ ما هو مطلوب هو أن تقدِّم تبرُّعًا شهريًّا للقناة. ما الطريقة الأفضل للوصول إلى العالم برسالة الله؟ رُبَّما يستطيع العضو في الكنيسة الإلكترونيَّة أن يستنتج أنَّ الإجابة هي المزيد من التبرُّعات التي تُقدَّم إلى أحدث محطَّة تلفزيونيَّة، دون أن يفكِّر في ما إذا كان لإسهاماته الشخصيَّة قيمة أكبر. فكيف يُمكن أن تُحقِّقَ الخدمة التي يُقدِّمها إنسانٌ واحد، عندما تقارَن بعجائب الكرازة الإلكترونيَّة؟

يقدِّم الكتاب المقدَّس صورة واقعيَّة للحياة المسيحيَّة، بما في ذلك السير لأوقاتٍ طويلة مُملَّة عبر البرِّيَّة الروحيَّة، واختبار الفشل المُذِلِّ، والألم والصراع. هذه الأمور لا تظهر على التلفاز– إلَّا إذا ذُكرت في المقدِّمة المختصرة التي تعقبها اختبارات النصرة العظيمة. لذلك تظهر الصورة النهائيَّة للحياة المسيحيَّة كأنَّها حياة لا تتوقَّف فيها السعادة ولا ينقطع منها الفرح والنجاح، وفي واقع الأمر فإنَّ لهذه الصورة ردَّ فعلٍ سيِّئًا وخطيرًا، فالمُشاهد الذي لا تتَّفق خبرته مع ذلك الذي يشاهده، يمكن أن يبدأ بالشعور بالدونيَّة بصورة مُقلِقة، كما لو كان يفتقد إلى سحر الإيمان. باختصار: إنَّ الكنيسة الإلكترونيَّة يمكن أن تكون أشبه بالفم

للجسد، لكنَّها تفتقر إلى باقي أعضاء ذلك الجسد.

من كتاب: نوافذ مفتوحة

٣٠ حَزيران/يونيو

جبل مختلف

عزيزتي جانيت،

الآن، إذ أصبحنا نعيش في كولورادو، فإنَّنا نتسلَّق الجبال. وبمرور الوقت، تعلَّمنا أنَّ التسلُّق يتكوَّن من رفع قَدَمٍ ثُمَّ وضعها أمام الآخرى. ومهما كانت صعوبة التنفُّس؛ ومهما كانت شدَّة الألم التي تشعرين بها في ساقيكِ، فإنَّكِ في النهاية تصلين إلى القِمَّة.

رُبَّما يبدو الزواج لبعض الأزواج مثل ركوب "التلفريك" عَبر الجبال؛ أمَّا أنا وأنت، فقد تَسلَّقنا جَبَلًا. وقد تَعَلَّمنا أنَّ الزواج يعيش على الحُبِّ، لكنَّه ذلك النوع من الحُبِّ الذي تتطلَّبه الأبوَّة والأمومة، أو التلمذة المسيحيَّة؛ قرار صَلبٌ بالتقدُّم إلى الأمام، خطوة بخطوة، قَدَمًا بقدم. رُبَّما لهذا أشعر بالسعادة الشديدة اليوم بينما أحتفل بمرور ثلاث مئة شهر على زواجنا.

في بعض الأوقات، فكَّر كِلانا في إمكانيَّة أن نَفترَق ويعيش كلٌّ مِنَّا بمفرده، وذهبنا لطلب المشورة الزوجيَّة، وفعلنا ما وجب علينا أن نفعله. لكن اليوم، ما يؤثِّر فيَّ أكثر من أيِّ شيءٍ آخر- وأتكلَّم بتواضع وعرفان لله- أنَّه من بين ثنايا هذا الصراع، خرج كثيرٌ من الخير.

فأينما ذهبنا معًا- عندما خرجنا من الجنوب الريفيِّ بنَقلَة مُرعِبة إلى وسط مدينة شيكاغو، والسفر إلى القارَّات الأخرى- استطعتِ أن تتأقلمي، وكبُرتِ أكثر فأكثر. وهذا ما أحبُّه فيك: فعندما تَكبُرين لا تُصغِّرين الآخرين مِن حولك.

لمدَّة ١٢ سنة في شيكاغو ترأَّستِ برنامجًا يخدم المُسنِّين. خدمتِ السيِّدة التي انزلقت في حوض الاستحمام وظلَّت هناك مدَّة ثلاثة أيَّام قبل أن تصلها المُساعَدة. والعاهرات اللاتي تقدَّمن في السنِّ وشِخنَ وكُنَّ يواجِهنَ الموت دون أن يُشفق عليهنَّ أحد سواك. الأسرة المُكوَّنة من خمسة أشخاص يعيشون في سيَّارة قديمة. لقد أصبح هؤلاء هُم أولادك وبناتك، وكنتِ تتضايقين من أجلهم في اهتمامٍ لا يَنفَد.

الآن تعملين في مصحَّة لرعاية المُسنِّين. الضغوط التي لا تُحَلُّ، الحروب بين الإخوة والأخوات، والجروح التي لم تُغفَر، كلُّها تتصاعد على السطح في قلوب المرضى الذين يرقدون في غيبوبة، مُنتظرين الموت. تُقدِّمين المشورة والمُساندة لمثل هؤلاء، وتُصلِّين معهم.

إنَّني أتعجَّب من مهاراتك، لكنَّني أتعجَّب أكثر من كونك اخترتِ أن تُكرِّسي هذه المهارات لمساعدة المنسيِّين والذين يعانون معاناة شديدة ونهائيَّة. لأنَّني أكتُبُ علنًا، فإنَّني أحصل على الكثير من المكافآت العلنيَّة لما أفعل، لكنَّني أعتقد أنَّه في نهاية حياتي، سوف يكون أعظم وأقدسُ شيء فعلته هو أنَّني وفَّرتُ

مُناخًا ساعدك لكي تفعلي ما تفعلين. فمعًا تسلّقنا جبلًا. أنت وأنا.

(يتبع في التأمُّل التالي)

عمود "الصفحة الخلفيَّة"، مجلَّة المسيحيَّة اليوم، ٨ نيسان/ أبريل ١٩٩٦م

1) كتاب "عندما لا تُمطر السماء" للمؤلِّف فيليپ يانسي من منشورات أوفير للطباعة والنشر (الناشر).

تمّوز/يوليو

١ تمُّوز/يوليو

نَظرة من القِمَّة

(يتبع من التأمُّل السابق)

في السنة الماضية، كُنتُ في زيارة إلى مدينة پورتلاند في ولاية أوريغون. وعندما جاء وقت فراغي فكَّرت في خيارات عدَّة: كان من الممكن أن أقود سيَّارتي عبر الوادي الضيِّق المُحاذي لنهر كولومبيا وأتأمَّل شلَّالات الماء. وكان من الممكن أيضًا أن أستقلَّ القطار إلى وسط المدينة وأتناول حساء المَحار. وكان يُمكن أيضًا أن أتمَشَّى داخل أحد المراكز التجاريَّة وأحتسي القهوة من أحد المقاهي الصغيرة المنتشرة فيه.

وبدلًا من كُلِّ ذلك، قرَّرت البقاء في غرفة الفندق وطلَب خدمة الغُرَف، واستمررتُ في العمل على أحد كُتُبي. هذا ما فَعَلَتْهُ ٢٥ سنة لنا معًا؛ لقد جَعَلَتني غير قادر على الاستمتاع بمُفردي. أصبحتُ أفضِّلُ العَمل المُضني مثل مدمنِ عملٍ عندما لا نكون معًا، وأدَّخر تلك اللحظات المُمتعة لأُشارِكها مع المرأة الوحيدة القادرة على إيقاظ أحاسيسي.

لقد كُنتِ أنتِ، من علَّمني أن أتأمَّل الورود ذات الرائحة العطِرة، وزهور الرودودندرون الشبيهة بالجَرس ذات الأوراق دائمة الخضرة التي تتميَّز بها پورتلاند. ولم تحدُث مرَّة في ٢٥ سنة قضيناها معًا أن اقتربنا من نبع ماء دون أن تهرعي إليه وتخلعي حذائك، وتختبري درجة حرارة الماء بأصابع قدَمِك. تجعليننا نتوقَّف على جانب الطريق لنتناول الخوخ والتوت الطازج المقطوف حديثًا. ويجعلني هذا أشعر بالخيانة عندما أختبر مثل هذه المُتَع بعيدًا عن تلك التي أيقظتِ فيَّ القُدرة على اختبارها.

قبل الزواج، كان كلٌّ منَّا يتوق توقًا غريزيًّا أن يكون ما يريده الآخر لكي يُرضيه. المرأة الشابَّة تريد أن تبدو جميلة ومثيرة وتهتمَّ بالرياضة. والرجل الشابُّ يلاحظ النباتات والأزهار، ويدرِّب نفسه أن يسأل الأسئلة بدلًا من الإجابة بكلمات مقتضبة كما يميل أن يفعل الرجال عادةً. أمَّا بعد الزواج، فإنَّ تلك العمليَّة تُبطِئ من إيقاعها وبصورةٍ ما تبدأ في أن تُصبح معكوسة، فيُصِرُّ كلُّ واحدٍ على حقوقه. وكلٌّ منهما يقاوم التنازل من أجل رغبة الآخر.

بعد أن تمرَّ السنوات، رُبَّما تبدأ هذه العملية بصورةٍ خفيَّة تسير في الاتِّجاه العكسيِّ مرَّة أخرى. أشعر بميل جديد نحو ما يريده الطرف الآخر بنضج في هذه المرَّة، ليس بهدف الحصول على رفيق لكن بدافع رغبة حقيقيَّة في إرضاء الرفيق الذي قضى مَعي رُبع قرنٍ من الحياة.

أشعر بالحُزن من أجل الأزواج الذين يتخلَّون عن زواجِهم قبل الوصول إلى تلك المرحلة.

لقد تَسَلَّلَ مُنتَصَفُ العُمر إلينا كلِصٍّ، كما يفعل دائمًا، لكن منتصف العُمر هذا ليس سيِّئًا جدًّا. لم تعُد لدينا الرغبة نفسها بأن نُثبت للعالم ولا بعضنا لبعضٍ أيَّ شيءٍ. لقد بحثنا جيِّدًا في ما نريده في هذه الحياة وما

وصلنا إليه هو التالي: أنَّنا نريد بعضنا بعضًا. المنظر من قِمَّة الجبل يبدو جيِّدًا، جيِّدًا جدًّا، بعد أن وصلنا إليه.

عمود "الصفحة الخلفيَّة"، مجلَّة المسيحيَّة اليوم، ٨ نيسان/ أبريل ١٩٩٦م

٢ تمُّوز/يوليو

الوَهْج الدافئ

قابلت ڤيرنون غراوندز (Vernon Grounds) في الصباح التالي لعيد زواجه الخامس والستِّين وفي اليوم الذي ينبغي فيه أن ينضمَّ إلى مجموعة من الشخصيَّات المرموقة في وضع حجر الأساس للمبنى الجديد لكلِّيَّة لاهوت في دَنفر. خدم غراوند مدَّة ٢٣ سنة في منصبِ مُدير هذه الكلِّيَّة قبل أن يتقاعد ويشغل منصبًا استشاريًّا فيها. لقد كان رائدًا في المشورة المسيحيَّة والنشاط الاجتماعيّ.

ومن النافذة، شاهدنا جَمَاعَةً من الطلبة يمشون من قاعة الدرس إلى المكتبة متلاصقين في مواجهة الريح في يومٍ باردٍ مُمطر. حينها قال ڤيرنون:

"الكثير من هؤلاء الطلبة يبدون مهتمِّين جدًّا باستشعار حضور الله. إنَّهم يتوقَّعون أن يعيشوا في إشراقٍ مُستمرّ. وعندما يُخبرني طالبٌ عن حياته الروحيَّة غير المُشبِعة، فإنَّني أُشير إليه نحو آخرين، مثل هنري نوين الذي كان يصارع مع المشكلة نفسها، أو لويس سمِدِس (Lewis Smedes) الذي لم يشعر يتاتًا أنَّه صديق لله.

يجب ألَّا نتوقَّع علاقة بالله تظلُّ على مستوًى واحد ثابت طوال الوقت. صدِّقني، إنَّنا على مدار ٦٥ سنة من الزواج لم نظلَّ على حالٍ مستمرَّ من النشوة طوال الوقت. بدأت الرومانسيَّة لي كنار المدفأة المُشتعلة بقوَّة، ولسان حالي: «أنتِ تُنيرين حياتي». ثُمَّ بعض عشرات السنين، تهدأ النار وتتحوَّل إلى كومة من الفحم المتوهِّج الدافئ. تُفقَدُ بعضُ الحرارة، لكنَّ الفحم المتوهِّج جيِّدٌ أيضًا: يمكن أن تشوي عليه بعض من حلوى المارشمالو، وتدفِّئ قدميك. وهذا مستوى آخر من الرفقة والشركة ينفتح أمامنا".

ويقول غراوندز أنَّه اختبرَ مرَّاتٍ عدَّة النشوة الروحيَّة. لكنَّ هذه المرَّات نادرة. أغلب الوقت كان يُثابر ويواصل لأنَّه يضع قيمة عُليا للعلاقة بالله، تمامًا كما يضع قيمة عليا لعلاقته الزوجيَّة: "إنَّني أُدفِّئ قدمَيَّ على نار المدفأة".

عندما تجاوز الستِّين، بدأ يتأمَّل السنَّ المتقدِّمة أكثر فأكثر، ويُصلِّي في كلمات اقتبسها من روبرت فروست (Robert Frost) طالبًا أن "يحصل على أقصى ما يمكن أن يحصل عليه من شيءٍ يضمحلّ". ولم يَكُن يدرك وقتها أنَّ ثُلثَ عمره كان لا يزال أمامه.

في تسعة عقود، أخذ غراوندز نصيبه من التجارب. ويقول: "إنَّ لديَّ ثقة راسخة في قدرة الله أن يفعل كلَّ ما يريد- القيامة تُثبت ذلك- لكنَّني أومن أيضًا أنَّ القوى الروحيَّة الأُخرى تحاول أن تُحبِط قُوى الخير. إنَّني أقبل الغموض والتخالف. عندما تعيش كلَّ ذلك الوقت الطويل كما عشت أنا، لن تستطيع إلَّا أن

تقبلهما. إنَّنا، مثل الفيلسوف الصينيِّ الذي يمتطي صهوة حمار بالمعكوس، لا نفهم الحياة إلّا بالنظر إلى الخلف".

عمود "الصفحة الخلفيَّة"، مجلَّة المسيحيَّة اليوم، عدد أيَّار/ مايو ٢٠٠٦م

٣ تمُّوز/يوليو

الإيمان سلفًا

عندما كُنتُ أُراجعُ كومَةً من مجلَّات تايم القديمة، هَالَني اختلافُ العالم منذ ثلاثين سنة عَمَّا هو الآن. في ذلك الوقت، كانت تايم تنشر مقالات افتتاحيَّة بعنوان "العصر الجليديُّ الآتي"؛ أمَّا الآن فنحن نسمع عن الاحتباس الحراريّ. كانت خرائط العالم تُظهِر بقعةً حمراء كبيرة من الشيوعيَّة تمتدُّ عبر الهند الصينيَّة حتَّى حدود أفريقيا. وتنبَّأ خُبراء الاقتصاد بنهاية السيطرة الأميركيَّة على الاقتصاد وحالة من التساوي الدَّوْليِّ بين الولايات المتَّحدة وروسيا والصين واليابان وأوروبَّا.

وفي عَدَدٍ أحدث، صدر في آب/ أغسطس ٢٠٠١، بحثتُ بلا جدوى عن كلمات مثل "القاعدة" أو "أسامة بن لادن"، لأنَّه، بصورةٍ ما، فات المراقبون أن يتوقَّعوا تداعيات أحداث مهمَّة عاصرتُها في حياتي، مثل الحرب على الإرهاب ونهاية الحرب الباردة.

وعندما تأمَّلت نتائجنا الضعيفة في التنبُّؤ بالمستقبل، صدمني أنَّ الكتاب المقدَّس يشدِّد على الانتظار. انتَظَرَ ابراهيمُ سنوات طويلة من أجل طفل واحد. وانتظر العبرانيُّون أربعة قرون لكي يحصلوا على الخلاص من مصر. وانتظر داود في الكهوف حتَّى حصل على المُلك الموعود. وانتظر الأنبياء تَحَقُّقَ نبوَّاتهم الغريبة. والتلاميذ انتظروا يسوع بنفاد صبر لكي يُظهر قوَّته المسيانيَّة التي تاقوا إليها.

كانت كلمات يسوع الختاميَّة في نهاية سفر الرؤيا: "ها أنا آتٍ سريعًا"، وتلتها صلاة عاجلة تردَّد صداها: "آمِين تَعَال، أيُّها الرَّبُّ يَسوُع". وتظلُّ هذه الصلاة غير مستجابة حتَّى الآن.

في أحد معسكرات النازيَّة في الحرب العالميَّة الثانية، صَنَع السُّجَناء الأميركيُّون، دون علمِ الحرَّاس، جهازَ راديو بدائيَّ الصنع. وذات يوم، جاءت الأخبار عبر الراديو أنَّ القيادة العُليا الألمانيَّة قد استسلمت، وبذلك انتهت الحرب. ولم يعرف هذه الحقيقة الحُرَّاس الألمان بسبب فشلٍ في التواصل داخل الجيش الألمانيّ. انتشر الخبر وعمَّت الاحتفالات.

وطوال ثلاثة أيَّام متواصلة، تَكَادُ لا تَتَعرَّف السُّجناء بسبب تغيُّر هيئتِهِم وتعبيرات وجوهِهِم، استجابةً لسماعهم هذه الأخبار السارَّة. كانوا يُغنُّون، ويلوِّحون للحُرَّاس، ويضحَكون في مواجهة الكلاب الشرسة، ويُشاركون النكات على وجبات الطعام. وفي اليوم الرابع، استيقظوا ليجدوا أنَّ كلَّ الألمان هربوا تاركين البوَّابات غير موصَدة. لقد انتهى أخيرًا زمان الانتظار.

ها هو السؤال الذي أسأله لنفسي: لماذا، نحن المسيحيِّين عندما نواجه الأزمات الحاليَّة، نتجاوب بخوف

وقلق، في حين نعرف النتيجة سلفًا؟ لماذا لا نتصرَّف مثل جنود الحلفاء، ونُصَدِّق الأخبار السارَّة التي نؤمن بها قبل أن تصير واقعًا على الأرض؟ أَلَيسَ الإيمان هو تصديق ما ليس له معنى إلَّا بالنظر إلى الخلف؟

عمود "الصفحة الخلفيَّة"، مجلَّة المسيحيَّة اليوم، عدد آذار/ مارس ٢٠٠٥م

ما لا تستطيع السياسة أن تفعله

قبل ثلاثة أشهُر من المؤتمر الوطنيِّ الديمُقراطيِّ لعام ٢٠٠٨م الذي عُقد في دَنفر، ألقيتُ كلمة في غداء صلاة أقامته الولاية. وإذ كان تركيزنا مُنصَبًّا على الصلاة في تلك القاعة، كان السياسيُّون سيتناوبون بعد فترة وجيزة واحدًا تلو الآخر إعطاء الوعود للأمَّة بأخذها في اتِّجاه آخر من شأنِهِ تَصحيحُ كُلِّ ما هو خاطئ.

وعندما كنت أفكِّر في ما أقوله للقادة المجتمعين أمامي، تذكَّرت سطرًا كتبه الفيلسوف الألمانيُّ المُعاصر يورغن هابرماس (Jurgen Habermas) فيه يقول إنَّ الديمقراطيَّة تتطلَّب من المواطنين صفاتٍ لا تستطيع هي تقديمها. وإذ يُمكن أن يُقدم السياسيُّون رؤية سامية لمجتمع صحِّيٍّ ومزدهر وحرٍّ، لا توجد حكومة قادرة على التحلِّي بصفات الأمانة والرحمة والمسؤوليَّة الشخصيَّة التي يجب أن تتوافر في خلفيَّة هذا المجتمع لتَحملَه وتُمِدَّهُ بالقوَّة والاستمراريَّة.

لحُسن الحظِّ، ما زال السياسيُّون من كِلا الحزبَيْن في الولايات المتَّحدة يدركون أنَّ الإيمان يلعبُ دورًا حيويًّا في المجتمع الصحِّيّ. أصحابُ الإيمان مسؤولون أن يُمثِّلوا نوعًا آخرَ من الرؤى، وهو أنَّ هذا الكوكب هو مُلكٌ لله، وليس لنا، وعندما نَجرَحُهُ جُرحًا لا يُشفى، فإنَّ الله يبكيه ويبكينا. وأنَّ قيمة الإنسان لا يُحدِّدها المظهر أو الدَّخْل، أو الخلفيَّة العِرقيَّة، أو حتَّى حالة المواطَنة، لكنَّها عطيَّة مقدَّسة من الله غير قابلة للانتهاك. وأنَّ الرحمة والعدالة- رعايتنا لمن يسمِّيهم يسوع "أحد اخوتي هؤلاء الأصاغر"- ليست قِيَمًا نسبيَّة تُقَرُّ باتِّفاق السياسيِّين وعُلماء الاجتماع لكنَّها وَصايا مقدَّسة من الذي خلقنا.

أعترف بكلِّ حرِّيَّة أنَّنا، نحن المسيحيِّين، لا نعيش دائمًا هذه الرؤية. ونجده صعبًا أن نُحافظ على الالتزام نحو هذا العالم، والعالم الآتي- هذه الحياة والحياة الأخرى. إنَّنا نفعل حسنًا أن نتذكَّر أنَّ الكتاب المقدَّس لديه أكثر كثيرًا جدًّا ليقوله عن كيَّفية الحياة في هذه الرحلة أكثر ممَّا يقوله عن نهايتها.

يحتاج العالم إلى أشخاص مكرَّسين من أجل مخلوقات الله وأبنائه وبناته، قدر تكريسهم لله نفسه، وملتزمين نحو هذه الحياة كما هُم نحو الحياة الأبديَّة، ونحو هذه المدينة الأرضيَّة، كما تُجاه المدينة السماويَّة. لأنَّه، كما يقول يورغن هابرماس، فإنَّ ديمقراطيَّة الأحرار يجب أن تبحثَ في مكانٍ آخر، عن السمات التي يحتاج إليها مواطنوها.

عمود "الصفحة الخلفيَّة"، مجلَّة المسيحيَّة اليوم، عدد أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٨م

٥ تمُّوز/يوليو

العينان المَشفِيَّتان بالنعمة

في تفاعلات يسوع الاجتماعيَّة المختلفة، كان يُطَبِّقُ مبدأ "العَكس العَظيم للأمور" الذي يتردَّد صدى صوته في التطويبات. في هذا العالم، عادة ما ننظر بعين التقدير إلى الأغنياء والجميلات، والناجحين. أمَّا النعمة فتقدِّم عالمًا جديدًا ذا منطقٍ جديدٍ تمامًا. الله يحبُّ الفقراء، والذين يعانون، والمُضطهَدِين، فيجب علينا نحن أيضًا أن نُحبَّهم. لأنَّ الله لا يرفض أحدًا، يجب نحن أيضًا ألَّا نرفض أحدًا. وبواسطة النموذج الذي قَدَّمَهُ يسوع بنفسه، تَحَدَّانا أن نَنظُرَ إلى العالم بما يسمِّيه القدِّيس إيريناوس "عينان مشفيَّتان بالنعمة".

وتعكس أمثال يسوع هذه الإرساليَّة، لأنَّه كثيرًا ما كان يجعل من الفقراء والمضطهَدِين أبطال قِصصه. تحكي إحدى هذه القصص عن رجل فقير اسمه لعازر– الشخص الوحيد الذي أعطاه يسوع اسمًا في أمثاله القصصيَّة– تَعَرَّضَ للاستغلال من قِبَلِ شخصٍ غنيّ. في البداية، كان الغنيُّ يلبس الثياب الفاخرة ويملأ بَطنَهُ الأكلُ الشهيّ، في حين كان لعازر الفقير مغطًّى بالقروح، ويجلس خارج أبواب بيت الغنيِّ مع الكلاب. ثُمَّ يأتي الموت فيعكس الأوضاع تمامًا. ويسمع الرجل الغنيُّ هذه الكلمات آتية من إبراهيم، "أُذْكُرْ أَنَّكَ اسْتَوْفَيْتَ خَيْرَاتِكَ فِي حَيَاتِكَ، وَكَذلِكَ لِعَازَرُ الْبَلاَيَا. وَالآنَ هُوَ يَتَعَزَّى وَأَنْتَ تَتَعَذَّبُ".

غاصت هذه القصَّة المؤلمة كنصلٍ في قلوب المسيحيِّين الأوائل، الذين كان أغلبهم ينتمي إلى مستوى اقتصاديٍّ متواضع. وعلى مدى فترة من الزمن، عملت الكنيسة بجدٍّ لكي تتَّبع هذا المنطق الإلهيَّ الذي قدَّمه المسيح. لقد اشتُهر المسيحيُّون الأوائل في الإمبراطوريَّة الرومانيَّة بميلهم إلى مساندة الفقراء والمعذَّبين. فكان المسيحيُّون، على عكس جيرانهم الوثنيِّين، مستعدِّين دائمًا لافتداء جيرانهم الوثنيِّين عندما يُقبَضُ عليهم لتسديد ديون أو غير ذلك. وعندما ضَرَبَ الطاعون الإمبراطوريَّة، اهتمَّ المسيحيُّون بالمرضى، أمَّا الوثنيُّون فكانوا يهملونهم بمجرَّد ظهور أوَّل الأعراض عليهم. وطوال القرون القليلة الأولى، على الاقلِّ، أخذت الكنيسة وصايا المسيح بجدِّيَّة، فكانوا يستضيفون الغرباء، ويَكسونَ العُراة، ويُطعِمونَ الجَوعى، ويزورون المسجونين.

ووفقًا لمؤرِّخي الكنيسة، استمرَّت أعمال الخير هذه، حَتَّى انتصر قُسطنطين، الذي جعل الإيمان بالمسيح قانونًا وأسَّس كنيسة الدولة. منذ ذلك الحين، مالت الكنيسة إلى رَوحَنَة الفَقر وتركت مهمَّة الاهتمام بالفقراء للإمبراطور. وبمرور الوقت، أصبحت الكنيسة نفسها من المؤسسات الثريَّة.

من كتاب: يسوع الذي لم أكن أعرفه

٦ تمُّوز/يوليو

الإنجيل بعيون العالم الثالث

عندما أقرأ قصص يسوع وأدرس تاريخ الكنيسة الأولى، أشعر بالإلهام والاضطراب في آنٍ واحد؛ فعِندما أُقارن الكنيسة اليوم بنموذج يسوع الواضح، أتساءَل: كيف أصبحت الكنيسة مجتمع "المحترمين" الذي لم يعُد يشعر فيه المُهَمَّشون بالقبول والترحاب؟

أعيش الآن في كولورادو، حيث أحضُرُ كنيسة ينتمي الناس فيها إلى خلفيَّة عِرقيَّة واحدة (البِيض) ومستوى اجتماعيٍّ واحد (الطبقة الوسطى). وتُزعجني مقارنة تلك الكنيسة بكنيسة العهد الجديد التي نَبَتَت وتأصَّلَت في تُربة بالغة التنَوُّع. إنَّ كنائس الطبقة الوُسطى التي يعرفها الكثيرون منَّا لا تشُبه كثيرًا هذه الجماعة المتنوِّعة من المرفوضين اجتماعيًّا والموصوفين في الأناجيل وسفر الأعمال.

وعندما أحاول أن أعودَ بخيالي إلى زَمَنِ يسوع وأحاول أن أتخيَّل المشهد، أجد الفقراء والمرضى والعشَّارين والخطاة والعاهرات يتجمَّعون حول يسوع، بفعل رسالة الشفاء والغفران التي كان يُقَدِّمَها. أمَّا الأغنياء وذوو السلطان والتأثير فكانوا يقفون من بعيد، يُجَرِّبونه ويتجسَّسون عليه لكي يُوقعوا به. أعرف هذه الحقائق عن زمن يسوع، إلَّا أنَّني، من مكاني المريح في كنائس الطبقة المتوسِّطة في بلد غنيٍّ مثل الولايات المتَّحدة، من السهل أن أفقد رؤية المغزى الثوريِّ لرسالة المسيح. ولكي أصحِّح رؤيتي، قرأتُ عِظاتٍ تَخرُجُ من المُجتمعاتِ المسيحيَّة الفقيرة في العالم الثالث. إنَّ الإنجيل من منظور العالم الثالث يبدو مُختَلِفًا جدًّا عن الإنجيل الذي يُوعَظ به في الكثير من كنائس أميركا. مثلًا، لا يرى الفقراء وغير المتعلِّمين أنَّ إرساليَّة يسوع ("مَسَحَني لأُبَشِّر المساكين...لأنادي للمأسورين بالإطلاق، وللعمي بالبصر، وأطلق المنسحقين في الحرِّيَّة"). هي مجرَّد اقتباس قديم من النبيِّ إشعياء، بل يسمعونَها بوصفها أخبارٍ سارَّة. ولم يفهموا هذا القَلبَ العَظيمَ للأوضاع من منظور روحيٍّ رَمزيٍّ، وإنَّما عدُّوه وَعدًا إلهيًّا ورَجاءً مُنتظَرًا وتَحَدِّيًا يقدِّمه يسوع لتابعيه. فمهما كان العالم يعاملهم، يظلُّ الفقراء والمرضى يتمتَّعون بسبب يسوع بالثقة واليقين، أنَّ الله لا يرفض أحدًا ولا يوجد مرذولٌ لديه.

من كتاب: يسوع الذي لم أكن أعرفه

٧ تمُّوز/يوليو

عظة مُنَفِّرة

لي صديقة اسمها ڤيرجينيا ستم أوينز (Virginia Stem Owens) أعطت وظيفة كتابة مقال قصير عن الموعظة على الجبل لطلبة مساق الكتابة الذي تُدرِّسه في الجامعة في تكساس. وإذ كانت تتوقَّع منهم أن يكون لديهم احترامٌ مَبدئيٌّ للنصِّ، حيث إنَّ تكساس من الولايات التي فيها نسبة عالية من الإنجيليِّين، كانت ردود فعل طلبتها صادمةً لها. كتب أحدهم: "في رأيي الدين خدعة كُبرى". وكَتَبَ آخر: "هناك مقولة قديمة تقول إنَّك لا ينبغي أن تُصَدِّق كلَّ ما تقرأه، وهي تنطبق على هذه الحالة".

تذكَّرت ڤيرجينيا الوقت الذي سمعت فيه أوَّل مرَّة الموعظة على الجبل في مدارس الأحد، حيث كانت الصور التوضيحيَّة المرسومة بالألوان التي يقدِّمها الراعي تُصَوِّر يسوع جالسًا على تلَّة مكسوَّة بالعُشب الأخضر مُحاطًا بأطفال ذوي بشرة ورديَّة. ولم يخطر في بالها بتاتًا وقتها أن يكون ردُّ فعلها غاضبًا أو متقزِّزًا. أمَّا طلبتها فكان لهم رأيٌ آخر:

"ما تعظ به الكنائس متزمِّت إلى حدٍّ كبير ولا يسمح بأيَّة مُتعة دون التفكير دائمًا في ما إذا كان ذلك خطيَّة أم لا".

"لم أُحبَّ مقالة «الموعظة على الجبل». لقد كان من الصعب أن أقرأها، وقد جعلَتنِي أشعر أنَّني يجب أن أكون كاملًا، ولا أحد كامل".

"الأشياء المطلوبة في هذه الموعظة غريبة. أن تَنظُر إلى امرأة فهذا زنى. إنَّ هذه أكثر عبارة متطرِّفة وغبيَّة وغير إنسانيَّة سمعتها يومًا".

أمَّا ما كتبته ڤيرجينيا تعليقًا على هذه الحادثة فهو: "عند هذه النقطة بدأتُ أشعر بالتشجيع. لقد تَمَتَّعت ردود الفعل هذه بالصراحة والتلقائيَّة. لقد كان هذا هو الشيء الحقيقيّ، ردُّ فعلٍ أصيلٍ للإنجيل غير مُصفًّى عبر ألفَي سنة من الثقافة والحضارة المسيحيَّة...إنَّني أجده مُشجِّعًا بطريقة غريبة أنَّ الإنجيل يظلُّ مُنفِّرًا للآذان المُخلِصَة والجاهلة، تمامًا كما كان في القرن الأوَّل.

من جهتي، إنَّ هذا بصورةٍ ما يُؤكِّد قيمته. فبينما فَقَدَ الكتاب المقدَّس إلى حدٍّ بعيد حِدَّته وتحدِّيه بسبب الاعتياد الدينيِّ ولا سيَّما على مدى القرن الماضي، لكنَّ الأُمِّيَّة الكتابيَّة الحاليَّة والمنتشرة من شأنها أن تدفعنا نحو موقف يقترب من المُستمِعِين الأوائل للإنجيل في القرن الأوَّل".

من كتاب: يسوع الذي لم أكن أعرفه

٨ تمُّوز/يوليو

الجنس كما صَمَّمَهُ الله

لماذا يَلعبُ الجنس دورًا كبيرًا في حياة المُدُن الكُبرى، أكبر ممَّا يلعبه مثلًا في قُرى الأمازون النائية؟ صَيحات الملابس، ولوحات الإعلانات الكُبرى، والمُلصقات على وسائل المواصلات في المدينة، كُلُّها تعطي للجنس أهمِّيَّةً ودَورًا لم يكن له في الغابات البدائيَّة حيث الناس عُراة. يرى المتخصِّص في علم الاجتماع الفرنسيِّ جاك إيلل أنَّ التشديد المُعاصِر على الجنس والإفراط فيه علامةٌ على انهيار الحميميَّة. إنَّ فصلَ العمل الجسديِّ للجنس عن العلاقة الوجدانيَّة، يجعلنا نعمل فقط على تطوير "التقنيَّة". وهكذا تضاعفت الدراسات عن الجنس، والكُتب الإرشاديَّة عن الجنس، وڤيديوهات الجنس، دون أن يوجد فيها ما يواجه المصدر الحقيقيَّ للألم الذي نُعانيه.

إنَّني أقترح أنَّ الإشاعات من عالم آخر تتداخل في الأمر. الكثير من الحداثيِّين التقدُّميِّين لا يتمتَّعون سوى بقدر ضئيل من التسامي في حياتهم الخاصَّة. يتجنَّبون الكنيسة ويعتقدون أنَّ العِلمَ حَلَّ مُعظم ألغاز الكون. لكن يظلُّ الجنس سرًّا لا تنطبق عليه مبادئ التصغيريَّة العلميَّة الحداثيَّة. عندما تُطعم الجنس فهو لا يشبع، بل تزداد الشهيَّة الجنسيَّة. ولا يوجد قدر من المعرفة يستطيع أن يقلِّل من سحره: حتَّى من يمارس التعرِّي ممارسة وظيفيَّة، يشعُرُ بالإثارة عندما تحيِّيه زوجته وهي مُرتدية ملابسها الداخليَّة.

عندما يفقد مجتمعٌ ما الإيمان بآلهته، أو بالله، فإنَّ القوى الأقلَّ تظهر وتأخذ مكانَهُ مُحاوِلَةٌ تأليه نفسها. إنَّ الاشتياق الروحيَّ الذي سُدَّت أمامَهُ السبُل يبحث عن طُرُقٍ أُخرى. كتب جي. كاي. تشسترتون: "كلُّ رجل يقرع باب بيت دعارة، فهو [جوهريًّا] يبحث عن الله".

في أوروبَّا الحديثة وفي الولايات المتَّحدة، يكاد يكون الجنس قوَّة أسطوريَّة شبه مُقدَّسة. إنَّنا نختار الناس ذوي جاذبيَّة جنسيَّة أكثر ونضعهم في مَصاف الآلهة، ونمارس اهتمامًا كبيرًا بتفاصيل حياتهم، وننشر إحصائيَّات مفصَّلة عن أجسادهم، ونُحيطهم بالمُصوِّرين المُحتَرِفين المتخصِّصين في التقاط صور المشاهير، ونغدق عليهم المال والمكانة.

لم يعد الجنس يشير إلى شيء أبعد؛ بل أصبح هو الشيء الأبعد نفسه، ولم يَعُد يُشير إلى المقدَّس بل صار، هو نفسه، بديل المقدَّس.

ورُبَّما الأسوأ، أنَّ الكنيسة بسبب خجلها المبالغ فيه من الجنس، أسكتت الكلام عن الجنس الذي هو مثل إشاعة قويَّة من عالم آخر من شأنها أن تشير إلى ما هو أكثر تسامٍ منها، عندما تشير إلى خالق الإنسان ومُبدع الجنسانيَّة، الذي استثمر فيه معاني روحيَّة أكثر ممَّا يُمكن أن يتخيَّل أيُّ إنسان حداثيّ. لقد أفقدْنا الجنسَ

قَدَاسَتَهُ بالكبت والإنكار، وعلى مدار الوقت، ساعدت محاولاتنا الفجَّة للكبت والإنكار في جعل الجنس يتنكَّر في صورة المُطلَق بينما هو محدود. وتستمرُّ القوَّة الجنسيَّة في الحياة، لكنَّ قليلين منَّا يرون أنَّ هذه القوَّة تُشير إلى ذاك الذي صَمَّمَهَا.

من كتاب: إشاعات من عالم آخر

٩ تمُّوز/يوليو

الحياة الجيِّدة

لوقت طويل كُنتُ أُقاوِمُ التفكير في الله كرمزٍ للسُلطة؛ فالصوَر القاسية الآتية من أعماق طفولتي قد تركت فيَّ جروحًا وندوبًا عميقة. ومثل الكثير من الناس، كنتُ أرى الدين بصفته مجموعة من القواعد، ومنظومة أخلاقيَّة نتسلَّمها من العالم غير المنظور، وعلينا نحنُ الذين نعيش على وجه هذا الكوكب أن نطيعها وننفِّذها بحذافيرها. لماذا يهتمُّ الله إن كانت هذه المخلوقات التافهة تحافظ على قوانينه أم لا؟ لم أكن أدري. كنتُ فقط أستمع إلى التحذيرات شديدة اللهجة أنَّني إذا انتهكتُ هذه القوانين فسوف أدفع الثمن.

لكنَّني بدأت أُدرك أنَّني يُمكن أن أخضع للسلطة بفرح. عندما تبدأ برامج الحاسوب بالتصرُّف بطريقة خاطئة، أتَّصل بالدعم الفنِّيِّ وأتبع تعليماته بدِقَّة. عندما أريد أن أُجيد رياضة صعبة، مثل الغولف، أدفع لتلقي دروس. وعندما أمرض أو أتعرَّض لإصابة جسديَّة، فإنَّني أذهب إلى الطبيب.

لعلَّ الطبيب يقدِّم الصورة الأقرب لأن أحتفظ بها في ذهني عندما أفكِّر في علاقة الله بالخطيَّة. لماذا عليَّ أن أُطيع مفهوم الله عن الطريقة التي ينبغي بها أن أعيش حياتي؟ للسبب نفسه الذي يجعلني أطيع آراء الطبيب. إنَّني ألجأ إلى طبيبي واثقًا أنَّه يشترك معي في الهدف نفسه وهو أن أكون بصحَّة جيِّدة، لكنَّه يحمل حكمة وخبرة أكبر تؤهِّله لمساعدتي لكي أصل إلى هذا الهدف. تعلَّمتُ أن أنظُر إلى الخطيَّة بوصفها أخطارًا روحيَّة- مثل الموادِّ المسرطنة أو البكتيريا أو الفيروسات أوالإصابات- التي يجب أن أتجنَّبها. إنَّني أتعلَّم أن أثق أنَّ الله يريد الأفضل لي في هذا العالم، ولا يريد لي أن أحيا حياة محدودة مكبوتة.

عندما زُرتُ مَعرَضَ "عالم الجَسد" الذي يُسافِر ليُعرَضَ في بلدان عدَّة، شاهَدتُ مَعروضات من الأجساد البشريَّة المحفوظة واشتريتُ مُجلَّدًا لصور الأعضاء التي رأيتُها في العرض. لا أستطيع أن أفهم إمكانيَّة أن يعود أيُّ طبيب للتدخين بعد أن شاهَدَ الفرق بين شكل الرئة الصحِّيَّة السليمة ورئة المُدَخِّن الشَّرِه موضوعتَين جنبًا إلى جنب. وعندما أشعر بميولٍ نحو تجريب التبغ، ألجأ إلى هذا المُجلَّد. الكثير من المعروضات في هذا المعرض تكشف الطرُق التي يُمكِن أن يؤدِّي سلوك الإنسان فيها إلى الاضطراب في الجسد، مُعرِّضًا إيَّاه لضغوط ليس مُصَمَّمًا لاحتمالها. إنَّني أُذَكِّر نفسي بالرئتين عندما أُفكِّر في الخطيَّة؛ فهي تؤخِّر النموِّ، وتدمِّر الصحَّة، وتخنق قنوات الإمداد بالحياة الجديدة.

من كتاب: إشاعات من عالم آخر

١٠ تمُّوز/يوليو

اهتمامات مُشَوَّهَة

كان التفكير في الخطيَّة في طفولتي يُخيفُني، وكان في المراهقة يُنَفِّرُني. لكنَّني كُلَّما تعلَّمت أن أرى الله بمنظور أكثر دِقَّة، بصفتي والدًا مُحبًّا، فإنَّ دفاعاتي تتفتَّت. لقد كان لديَّ في السابق صورة كاريكاتوريَّة عن الله كأنَّه عجوزٌ متزمِّتٌ عصبيُّ المزاج ألَّف قائمة عشوائيَّة من القواعد بهدفٍ واضح وهو أن يمنع الجميع من قضاء وقت طيِّب. لكنَّني الآن أستطيع أن أفهم الهدف الحقيقيَّ من هذه القواعد.

يعرفُ كلُّ الآباء والأُمَّهات الفرق بين القواعد الموضوعة لفائدة الآباء والأُمَّهات ("لا تتكلَّم بينما أتحدَّث في الهاتف!". "نظِّف غرفتك- جدَّتُك آتية!")، وتلك الموضوعة لفائدة الأبناء ("ارتدِ ملابس ثقيلة- الجوُّ بارد في الخارج!"). إنَّ قوانين الله تقع في الفئة الثانية، فالله يعلم كيفيَّة عمل المجتمع الإنسانيِّ بأفضل صورة.

لقد بدأت أرى الوصايا العشر في ضوء هذا، بصفتها قواعدَ مصمَّمة لفائدة البشر أنفسهم. لقد أكَّد يسوع هذا المبدأ عندما قال: "السبتُ جُعل لأجل الإنسان لا الإنسان لأجل السبت". إنَّ الكتاب المقدَّس أكثر الكُتُب واقعيَّة، وهو يفترض أنَّ البشر سوف يتعرَّضون من وقت إلى آخر لتجربة اشتهاء الجار أو الجارة أو اشتهاء ما يملكه هؤلاء، أو العمل أكثر من اللازم، أو الانفعال على مَن يُسيئون إليهم. باختصار، هو يفترض أنَّ البشريَّة سوف تُصيبُ كلَّ ما تمتدُّ إليه يدها بالاضطراب.

تقدِّم كلُّ وصيَّة من الوصايا العشر وسيلة للحماية من هذا الاضطراب، وذلك بالنهي عنه. على خلاف الحيوانات، فإنَّ لدينا، نحن البشر، الحرِّيَّة أن نقول "لا" لغرائزنا البدائيَّة. وعندما نفعل ذلك، فإنَّنا نتجنَّب الضرر.

وإذا أخذنا الوصايا العشر معًا، فإنَّها تنسج الحياة على هذا الكوكب لتُشكِّل كُلًّا متكامِلًا ذا معنى، والهدف منه هو السماح لنا أن نعيش في سلام، في صورة مجتمعٍ صحِّيٍّ تحت سُلطان الله. ومنذ ٣٠٠ سنة، لاحظ المفسِّر الكتابيُّ متَّى هنري (Matthew Henry) هذه الملاحظة، فقال: "لقد سُرَّ الله أن يتبادَل المصالح معنا. عندما نطلب مجده، فإنَّنا بصورة حقيقيَّة فَعَّالة نحقِّق مصالحنا الشخصيَّة".

من كتاب: إشاعات من عالم آخر

١١ تمُّوز/يوليو

أوامر الطبيب

التقيتُ ذات مرَّة أحد هؤلاء الذين يرتدون أقنعة ويمسكون بمِشرَط، عندما أجرى أحد الجرَّاحين جراحة في قَدَمِي، وكان وقت التعافي الذي قضيته في السرير فُرصَةً للتأمُّل في الألَمَ الذي نختاره إراديًّا، في بعض الأحيان لخَيرِنا، وفي أحيان أُخرى لشَقائِنا.

في زيارةِ طبيبي حاولت أن أُقنعه أن يسمح لي بلعب مباراة للغولف قبل الوقت الذي كان قد حَدَّدَهُ لي لممارسة حياتي الطبيعيَّة من جديد. قُلتُ له: "بعض الأصدقاء يجتمعون معًا في هذه المباراة مرَّة واحدة فقط في السنة. هذا أمر مهمٌّ عندي. لقد قضيتُ وقتًا طويلًا أتَدَرَّبُ على الضربات مُستَخدمًا فَقَط الجزء العلويَّ من جَسدي، ومُحافِظًا على ساقيَّ وفخذَيَّ ثابتَين تمامًا، هل أستطيع أن أنضمَّ إليهم في هذه المُباراة؟". ودون لحظة من التردُّد، كانت إجابة الطبيب: "سوف يُحزنني جدًّا إذا لعبت الغولف في الشهرَيْن التاليَيْن".

في ما بعد، تَكَلَّمتُ مع زوجتي عن هذه الطريقة الغريبة في الإعلان عن الرفض. وقُلت مازحًا: "لماذا أهتمُّ إذا كان طبيبي يحزن أم لا؟ أنا لست طبيبه النفسيَّ".

لكنَّ الفكرة كانت واضحة جدًّا. لم تكُن لدى طبيبي مشكلة شخصيَّة مع لعبي الغولف. ولكونه يلعبها أيضًا، فهو يتعاطف معي. لكنَّه مهتمٌّ اهتمامًا حقيقيًّا بمصلحتي، لذلك سوف يكون غير سعيدٍ إذا فعلتُ شيئًا قبل الأوان من شأنه أن يضرَّ بتعافيَّ على المدى البعيد. إنَّه يريدني أن ألعب الغولف السنة المقبلة، والتي بعدها، ولبقيَّة عُمري، ولهذا السبب يرفض أن ألعب مباراة قبل الأوان.

وعندما تكلَّمنا معًا، بدأتُ أُقَدِّرُ اختيارات طبيبي الغريبة للكلمات. إذا كان قد أصدر قرارًا بهذه الطريقة: "لا غولف الآن!"، فرُبَّما كُنتُ سأعترض وأتمرَّد. لقد ترك لي الخيار الحُرَّ واختار أن يعبِّر عن تداعيات لعبي هذه المباراة بأكثر طريقة شخصيَّة مُمكنة، وهي أنَّ عصياني سوف يحزنه، وذلك لأنَّ وظيفته هي أن أستعيد صحَّتي.

إنَّ دور الطبيب في حياة المريض، يكشف صورة عن دور الله في حياتنا، لا سيَّما في ما يتعلَّق بالخطية. فما يفعله الطبيب معي جسديًّا ليقودني نحو الصحَّة الجسديَّة، يصنعه الله معي روحيًّا لتحقيق صحَّتي ونُموِّي الروحيَّيْن. إنَّني أتعلَّم النظَر إلى الخطايا لا بوصفها انتهاكًا لقائمة من القواعد العشوائيَّة التي يَضعها قاضٍ عَصَبِيُّ المزاج، بل بصفتها قائمة من المخاطر التي ينبغي تَجَنُّبُها بأيِّ ثمن، وذلك لمصلحتي.

عمود "الصفحة الخلفيَّة"، مجلَّة المسيحيَّة اليوم، ٦ كانون الأوَّل/ ديسمبر ١٩٩٩م

١٢ تمُّوز/يوليو

يسوع والألم

إنَّ حقيقة مجيء يسوع إلى الأرض حيث تألَّمَ ومات لا تقوم بإزالة حقيقة الألم من حياتنا، لكنَّها تكشف عن حقيقة أُخرى مهمَّة: أنَّ الله لا يجلس ساكِنًا ليشاهدنا نعاني وهو منعزل عَنَّا. لقد أصبحَ الله واحدًا منَّا. لذا ففي يسوع، أعطانا الله لَقطة شخصيَّة مُقَرَّبة تكشف موقفه من المعاناة البشريَّة. كلُّ أسئلتنا عن الله والألم يجب أن تُنقَّح بما نعرفه عن يسوع.

كيف تعامل الله– على الأرض– مع الألم؟ عندما كان يُقابل شخصًا مُتألِّمًا، كان يتأَثَّرُ بشِدَّة وعُمق وتراحُم (تأتي كلمة الرحمَة من الأصل اللاتينيِّ الذي يعني "أن تُعاني مع الآخر"). لم يقُل لأحد بتاتًا: "تَحَمَّل جوعَك! ابتلع حُزنَك واصمُت!". لكنَّه كان في كُلِّ مَرَّة يقابل شخصًا مُتألِّمًا، كان يشَفي أَلمه.

في بعض الأحيان، تجاوز يسوع تقاليد متأصِّلَة وهو يفعل ذلك، مثلما لَمَسَ (أو وافق على لمس) امرأة فيها نزيف مُزمن، أو عندما كان يلمس البُرص المُهمَّشين والمنبوذين، غير عابئٍ بصُراخِهم "نَجِس! نَجِس!".

إنَّ نموذج ردِّ فعل يسوع يجب أن يُقنعنا أنَّ الله ليس إلهًا يستمتع برؤيتنا نُعاني. إنَّني أشكُّ أنَّ تلاميذ يسوع عَذَّبوا أنفُسهم بأسئلة مثل: "هل يهتمُّ الله؟"، لأنَّه كان لديهم كُلَّ يومٍ دليلٌ منظور على اهتمام الله: كانوا ينظرون إلى وجه يسوع.

وعندما واجه يسوع بنفسه الألم، كان ردُّ فعله مثل ردِّ فعل أيٍّ مِنَّا. كان يميل نحو الابتعاد عن الألم، ولثلاث مرَّات سأل الله إن كان هناك طريقة أخرى. لكن لم تكُن هناك طريقة أُخرى، ثُمَّ اختبر يسوع، رُبَّما أوَّل مرَّة، ذلك الشعور الإنسانيَّ جدًّا، وهو شعور الهجر والترك.

في روايات الإنجيل عن ليلة يسوع الأخيرة على الأرض، أستطيع أن أُمَيِّزَ صراعًا مريرًا مع الخوف والشعور بالعَجز والرجاء– ما نشعر به كلُّنا عندما نُجابِه الألم.

يجب أن يُشكِّل سِجِلُّ حياة يسوع على الأرض إجابة أبديَّة عن سؤالنا: ماذا يشعر الله تجاه الألم البشريِّ؟ وفي الردِّ الإلهيِّ عن هذا السؤال، لم يُعطِنا الله نَظَرِيَّاتٍ عن مُعضلة الألم بل أعطانا نفسه. يُمكن أن تشرح الفلسفة الأمور الصعبة، لكن ليست لديها قوَّة لتغييرها. أمَّا الإنجيل، بوصفه قصَّة حياة يسوع، فهو يَعِدُ بالتغيير.

من كتاب: أين الله في وقت الألم؟

١٣ تمُّوز/يوليو

تعليم لا يستطيع أحد أن يُقدِّمه

في بعض الأوقات، بالرغم من تقديمنا أقصى مجهود لدينا لاحترام آلام الآخرين، فإنَّنا نُصادِفُ ألمًا خاليًا من أيِّ معنًى أو هدف. أُفكِّرُ بالتحديد في شَخصٍ مُصاب بمرض ألزهايمر، تحاول بناته رعايته، لكن في كلِّ يوم تنفطر قلوبهنَّ عندما يرون ذلك الجسد الحزين الخالي من المضمون الذي كان في يوم من الأيَّام أباهم. أو أُفكِّر مثلًا في الطفل المُصاب بإعاقة ذِهنيَّة شديدة ومُعامل ذكائه يتراوح بين ٣٠ و٤٠. رُبَّما يعيش هذا الطفل عُمرًا طويلًا راقدًا بلا حراك في مَهدٍ، غيرَ قادرٍ على الكلام أو الفهم، ويحتاج إلى ساعات طويلة مُكلفة من الرعاية الطبِّيَّة المُتخصِّصة.

تساءل د. يورغن تروغيش (Jurgen Trogisch)، وهو طبيب أطفال يعمل بين ذوي الاحتياجات العقليَّة الصعبة، قائلًا: "ما المغزى من حياة مثل هؤلاء؟ هل من معنى لحياتهم؟". ولسنوات عدَّة لم يستطع د. تروغيش الإجابة عن سؤال المَعنى. وعندما أدار دراسة تمهيديَّة لتدريب مجموعة من المُساعِدين الجُدُد، طَلَب في نهاية تلك السنة التدريبيَّة ملء استبانة. ومن بين الأسئلة التي وَجَّهها إلى هؤلاء الشباب: "ما التغييرات التي حدثت في حياتك عندما أصبحت منخرطًا تمامًا مع ذوي الاحتياجات الخاصَّة؟"

وها هي عَيِّنَة من بعض الإجابات:

- أوَّل مرَّة في حياتي أشعر أنَّني أفعل شيئًا ذا قيمة حقيقيَّة.
- أشعر الآن أنَّني أستطيع أن أفعل أشياء لم يدُر في خُلدي من قبل أنَّني أستطيع أن أفعلها.
- طوال وقتي هُنا، استطعت أن أكسب محبَّة سابين. ولقُربي الشديد منها طوال ذلك الوقت، لم أعُد أعدُّها من ذوي الاحتياجات الخاصَّة.
- إنَّني الآن أكثر تجاوبًا مع المعاناة الإنسانيَّة؛ فهي توقظ فيَّ الرغبة في المُساعَدَة.
- لقد جعلني هذا التدريب أتساءل عمَّا هو مُهمٌّ في الحياة.
- لقد أصبحت أكثر احتمالًا. لم تعد مشكلاتي الصغيرة تبدو مُهمَّة كما كانت من قبل، كما تعلَّمتُ أن أقبل نفسي بكلِّ نقائصي. وفوق كلِّ ذلك، لقد تعلَّمت أن أحترم المُتع البسيطة في الحياة.

عندما قرأ د. تروغيش هذه التعليقات وغيرها، أدرك إجابة السؤال الذي طرحه في البداية. رُبَّما لم يَظهر معنى الألم في حياة هؤلاء الأطفال، لكنَّه ظهر في حياة من ساعدوهُم، الذين تعلَّموا دروسًا لم تستطع تقديمها لهم أعقد وأعمق المناهج الدراسيَّة.

من كتاب: أين الله في وقت الألم؟

١٤ تمُّوز/يوليو

لماذا نُثابِر؟

هناك اختلافٌ جوهريٌّ بين العلاقة بإنسانٍ آخر والعلاقة بالله. فمثلًا إذا ذهبتُ إلى محلِّ البقالة، والتقيتُ إحدى جاراتي صُدفةً، سأقول لنفسي: لقد خاضت جودي لتوِّها خبرة طلاق. لذلك عندما أُقابل جودي، فهذا يدفعني إلى فعل شيء، فأسألها عن حياتها، وأطمئنُّ على أطفالها، ورُبَّما أدعوها إلى حضور الكنيسة. وأقول لزوجتي في ما بَعد: "يجب أن نتقابل مع جودي وأطفالها في وقتٍ ما".

أمَّا مع الله، فالترتيب يختلف؛ إذ إنَّني لا "أرى" الله، ونادرًا ما تُصادِفُني دلائل منظورة تُذكِّرني به، إلَّا إذا كُنتُ أنظُرُ حولي قاصِدًا. إنَّ عمليَّة النظر المقصود، والبحث عن الله، تجعل من اللقاء ممُكنًا. لهذا السبب، كانت المسيحيَّة تُصِرُّ دائمًا على أنَّ الثقة والطاعة تأتيان أوَّلًا، ثُمَّ المعرفة في ما بعد.

وبسبب هذا الاختلاف، فإنَّني أُثابرُ في التدريبات الروحيَّة مهما كان ما أشعر به. إنَّني أريد أن أعرف الله وأَتَعَرَّف إليه. وفي السعي المُضني في سبيل هذه العلاقة، يجب أن نأتي إلى الله بشروطه هو وليس شروطنا نحن.

ويضع أنبياء العهد القديم شروطًا لمعرفة الله، مثل ذلك العدد من نبوَّة ميخا: " قد أخبَرَكَ أيُّها الإنسانُ ما هو صالحٌ، وماذا يَطلُبُهُ مِنكَ الرَّبُّ، إلّا أنْ تصنعَ الحَقَّ وتُحِبَّ الرَّحمَةَ، وتَسلُكَ مُتَواضِعًا مع إلهِكَ". وتخبرنا رسائل العهد الجديد أنَّ التصرُّف بمحبَّة تجاه الله يقوِّي من العلاقة به ويؤدِّي إلى نموِّنا. أنا لا أعرف الله أوَّلًا، ثُمَّ أعرف مشيئته؛ بل أعرف الله بواسطة عمل مشيئته. وأدخل في علاقة حيَّة نشطة بالله، بمعنى أن أقضي وقتًا معه، وأهتمَّ بالبشر الذين يهتمُّ هو بهم، وأطيع وصاياه- سواء كنتُ أشعر بالرغبة التلقائيَّة المُباشِرة في ذلك أم لا.

تساءل توماس ميرتون مُوَجِّهًا كلامه إلى الله قائلًا: "كيف يُمكنُنا أن نبدأ بمعرفة هُويَّتك، دون أن نبدأ أوَّلًا أن نكون شيئًا ضئيلًا ممَّا هو أنت". الله قدُّوس، أي إنَّه آخر ومُختلف. لا يُمكنني أن أعرف الله دون وجود شيء من الأرضيَّة المُشتَرَكة بيننا؛ فلا يُمكنني مثلًا أن أعرف شخصًا فرنسيًّا دون بعض المعرفة باللغة الفرنسيَّة. ويضيف ميرتون:

إنَّنا نستقبل استنارَة فقط بصورة جُزئيَّة، وذلك عندما نقدِّم أنفسنا أكثر فأكثر وبالكامل لله بالخضوع المُحِبِّ المُتَّضِع. إنَّنا لا نرى أوَّلًا، ثُمَّ نَعمَل، بل نعمَل، فنَرَى...ولذلك السبب فإنَّ الذي ينتظر لكي يرى بوضوح قبل أن يؤمِن، لن يبدأ الرحلة بتاتًا.

من كتاب: محاولة اللقاء مع إله غير منظور

١٥ تمُّوز/يوليو

إتقان المُعتاد

يُختبَر الإيمان عندما يتضائل الشعور بحضور الله أو عندما تجعلنا اعتياديَّة الحياة نتساءل ما إذا كانت ردود فعلنا تَصنَعُ أيَّ فرقٍ. ونتساءل: "ماذا يُمكن أن يفعل إنسانٌ واحد؟ أيُّ فرقٍ سوف يصنَعُهُ مجهودي الفرديِّ الضئيل؟".

شاهدتُ ذات مرَّة مسلسلًا تلفازيًّا مبنيًّا على لقاءاتٍ شخصيَّة بالناجين من الحرب العالمية الثانيَّة. وكانت حلقة من هذا المُسلسل تدور حول تَذَكُّرِ مجموعة من الجنود يومًا مُحدَّدًا قضاهُ كلٌّ منهم. أحدهم قضى ذلك اليوم في حُفرة ضيِّقة؛ ومرَّة أو مرَّتين على مدى اليوم، مَرَّت دبَّابة ألمانيَّة فأطلق النار تجاهها. آخرون قضوا اليوم نفسه يُضيعون الوقت في لعب الورق. بعضٌ منهم قضوه في تبادُلٍ عنيفٍ لإطلاق النار. وعمومًا، مَرَّ اليوم مثل أيِّ يومٍ آخر لجنود المشاة على هذه الجبهة. في ما بعد، علموا أنَّهم في ذلك اليوم كانوا يشاركون في أكثر الاشتباكات حَسمًا في الحرب العالميَّة الثانية بأسرها، وهي معركة الثغرة. لم يشعر أيٌّ منهم بالحَسم في وقته، لأنَّ أحدًا منهم لم يَرَ الصورة الكاملة لِما كان يحدث في ذلك الوقت في كُلِّ الأماكن الأخرى.

تُحسَم الانتصارات الكُبرى عندما يؤدِّي الأشخاص العاديُّون أدوارهم المعتادة الموكلة إليهم- والشخص الأمين يقوم بدوره كلَّ يوم بلا جدال سواء كان في مزاجٍ جيِّد يُتيح له إطاعة أوامر قائده المباشرة أم لا. يجد الشخص الأمين في عمله المُمِلِّ كلَّ يوم مهما كان. إنَّنا نُمارس الإيمان بالتجاوب بأمانة مع المَهامِّ الموكلة إلينا.

في بعض الأحيان، أتمنَّى لو كان كتبة الإنجيل قد أضافوا إلى كتاباتهم سردًا لحياة يسوع العاديَّة قبل أن يتَّجه إلى الخدمة. هل كان يتشكَّك في جدوى الوقت الذي قضاه بصفته نجَّارًا في ذلك العمل المُمِلّ المُتكَرِّر.

تهاجمني الشكوك مرارًا كثيرة، أكثر ممَّا أرغب في الاعتراف به. وأتساءل بشأن الاختلافات الظاهريَّة في نصوص الكتاب المقدَّس، وبشأن الألم الإنسانيِّ والظلم، وبشأن الهُوَّة الهائلة بين المثاليَّات وحقيقة الحياة المسيحيَّة. في مثل هذه الأوقات، أستمرُّ في المسير، وأتصرَّف "كما لو كان" كلُّ شيء حقيقيًّا، مُعتمدًا على عادة الإيمان، وأُصلِّي من أجل مزيد من الثقة والطمأنينة، وهي تأتي، لكنَّها لا تمنَع هجوم الشكوك مرَّة أخرى.

من كتاب: محاولة اللقاء مع إله غير منظور

١٦ تمُّوز/يوليو

التناقُضات العنيفة

قال أندرو غريلي :(Andrew Greely) "إذا أراد إنسانٌ أن يتخلَّص من الشكِّ والتوتُّر والارتباك وكلِّ أنواع الاضطراب من حياته، عليه أن يبتعد تمامًا عن يهوه أو يسوع الناصريّ". لقد كُنتُ في سنوات شبابي أتوقَّع أنَّ العلاقة بالله سوف تؤدِّي إلى تنظيم حياتي وسبغها بطابع من العقلانيَّة الهادئة. على العكس، اكتشفت أنَّ حياة الإيمان تتضمَّن توتُّرًا حيًّا فعَّالًا.

طوال تاريخ الكنيسة، كان القادة المسيحيُّون يشعرون بالرغبة المُلحَّة في جعل كلِّ شيء منضبطًا ومنتظمًا، وجعل الناس يلتزمون السلوكيَّات والعقائد المسيحيَّة في صورة نهائيَّة يمكنها اجتياز "اختبار الكذب".

إلَّا أنَّني لا أجد هذا الميل في الكتاب المقدَّس، بل أجدُ غموضًا وضبابيَّة، مثلما تتميَّزُ أيَّة علاقة، لا سيَّما إذا كانت علاقة بين إله كامل وبشر ساقطين.

قال جي. كاي. تشسترتون، في عبارة أصبحت حجر الأساس في لاهوته: "تغلَّبت المسيحيَّة على صعوبة الجمع بين التناقضات العنيفة، بالاحتفاظ بها معًا، والاحتفاظ بها على الدرجة ذاتها من الشِّدَّة". إنَّ أغلب الهرطقات تأتي من تأكيد نقيض على حساب النقيض الآخر.

الكنيسة التي لا تشعُرُ بالراحة مع التناقضات الظاهريَّة تميل نحو الجنوح إلى جانبٍ على حساب الآخر، وعادة ما تكون لذلك نتائج كارثيَّة. أشعر بذلك عندما أقرأُ لاهوتيِّي القرون الأولى وهُم يحاولون فَهمَ يسوع، محور الإيمان، والذي كان بصورةٍ ما هو الله كُليًّا، وإنسان كُليًّا أيضًا. ثُمَّ أقرأُ لاهوتيِّي الإصلاح وهم يكتشفون النتائج العظيمة لسيادة الله، ثُمَّ يُجاهِدونَ لكي يَحموا تابعيهم من الوقوع في براثن القَدَرِيَّة.

الأوَّل يصير آخِرًا؛ سوف تجد حياتك عندما تفقدها؛ لا شيء يُهمُّ سوى المحبَّة؛ تمِّموا خلاصَكُم بخوفٍ ورِعدَة لأنَّ الله هو العاملُ فيكم أن تريدوا وأن تعملوا؛ لقد حَلَّ ملكوت الله لكنْ ليس بالتمام؛ ادخل ملكوت السموات كطفل؛ من يخدم هو الأعظم؛ قيمة النفس لا تُقاس بما يظنُّه الناس فيك، بل بما تظنُّه أنت فيهم؛ كلَّما زادت الخطية، ازدادت النعمة أيضًا؛ إنَّنا نَخلُصُ بالإيمان فقط، لكن الإيمان دون أعمال ميت.

كلُّ هذه المبادئ العميقة للحياة تظهر في العهد الجديد، ولا يوجد أيٌّ منها يُمكن أن يُختزل في مفهوم منطقيٍّ يسيرٍ خالٍ ممَّا يبدو مُتناقِضًا.

"الحقيقة ليست في المُنتَصَف، وليست في أحد النقيضين، لكنَّها في النقيضين معًا". قال هذا الراعي البريطاني تشارلز سيميون (Charles Simeon). ومع بعض التَرَدُّد، توصَّلتُ إلى أن أتَّفق معه.

من كتاب: محاولة اللقاء مع إله غير منظور

١٧ تمُّوز/يوليو

التغيير بالتلامُس

إنَّني أفهم أنَّ الحياة الروحيَّة قابليَّة موجودة في البَشَر، لكنَّها يُمكن أن تَتَطَوَّر فقط في إطار العلاقة بالله. قال القديس أغسطينوس مُخاطِبًا الله: "أدعوك إلى روحي التي سَبَقتَ أنت وهَيَّأتها لاستقبالك بالتَّوق الذي وضَعتَهُ فيها إليك". ومع أنَّنا جميعنا لدينا هذه الإمكانيَّة، فإنَّ أشواقنا الروحيَّة سوف تظلُّ غير مُشبَعَة حتَّى نتلامس مع الله، وعندئذ تصبح لدينا مهارة "التواصُل" مع الله. هذا يجعل صورة الولادة الجديدة التي يرسمها يسوع منطقيَّة إلى حدٍّ مؤثِّر. إنَّ التجديد، وهو العملِّية التي تجعلنا نتَّصل بالواقع الروحيِّ، توقِظُ فينا إمكانيَّة بدء حياة جديدة تمامًا. وبصفتنا أولادًا وبناتٍ لله، نُصبحُ ما نحنُ عليه بواسطة العلاقة مع الله ومع شعب الله.

أتذكَّر الشخص الذي أثَّرَ في حياتي المسيحيَّة أكثر من أيِّ شخص آخر، وهو الجَرَّاح المُرسَل بول براند؛ فعلى مدار ١٥ سنة من الزمن، كَتَبتُ ثلاثة كُتُبٍ مع د. براند. ورافقته في رحلات إلى الهند وإنكلترا، حيث أعدنا معًا تتبُّع الأحداث المهمَّة في حياته. قضيت مئات الساعات أسأله عن خبرته في الطبِّ والحياة والعلاقة بالله. كما أجريت أيضًا مقابلة مع مَرضاهِ السابقين وزملائه وأسرته وممرِّضات غرفة العمليَّات اللاتي عملنَ معه. كان د. براند رجلًا صالحًا وعظيمًا، ولديَّ تقديرٌ دائمٌ له من أجل الوقت الذي قضيناه معًا. وفي مرحلة من مراحل نموِّي الروحيِّ، عندما كان لي قليلٌ من الشجاعة للكتابة عن إيماني الشخصيِّ، كان في ذلك الوقت لديَّ الشجاعة الكاملة لكي أكتب عن إيمانه هو.

لقد تغيَّرتُ بسبب علاقتي بالدكتور براند. إنَّني الآن أنظر إلى العدالة، ونمط الحياة، وأمور المال بعينيه بصورة كبيرة؛ حتَّى إنَّني أنظر إلى الطبيعة أيضًا بصورة مختلفة، وأنظر إلى الجسد البشريِّ، ولا سيَّما الألم الجسديِّ، في ضوءٍ جديد تمامًا.

أثَّرَت فيَّ علاقتي بالدكتور براند بصورة بالغة، في عمق وجودي من الداخل. لكنَّني عندما أنظر إلى الخلف، لا يمكنني أن أتذكَّر مواقف حاوَلَ فيها أن يُغيِّرني عن طريق المناورة والرغبة في التأثير. لقد تغيَّرتُ مُختارًا سعيدًا، وذلك عندما تلامس عالمي مع عالمه.

وأعتقد أنَّ العَمَليَّة نفسها تَحدُثُ في العلاقة بالله. لقد أصبحتُ ما عليه بوصفي مسيحيًّا بالعلاقة بالله، بطرق غامضة لا أستطيع في أغلب الأوقات أن أصِفَها، لكن ما أستطيع دائمًا أن أقوله إنَّها لم تكن بتاتًا طُرُقًا مُناوِرَة أو ضاغطة. لقد تغيَّرت فقط بفضل التلامس مع الله.

من كتاب: محاولة اللقاء مع إله غير منظور

١٨ تمُّوز/يوليو

جُمهورٌ من شخصٍ واحد

عندما عملت صحفيًّا شابًّا في مجلة الحياة الجامعيَّة،كانت مُساعِدَتي تضعُ على مكتبها لوحة صغيرة مكتوبٌ عليها قصيدة من بَيْتَين فقط:

حياة واحدة فقط سريعًا تمُرُّ وتَفنَى
فقط ما تفعله للمسيح يَظَلُّ ويَبقى

وفي كلِّ مرَّة أقرأ هذه القصيدة أشعر بضآلتي. ومع أنَّني أومن بصدقها، فإنَّني دائمًا أتساءل عن كيفيَّة تطبيقها. عندما أُغيِّرُ الزيت في سيَّارتي، أو أُشاهد مباراة في كرة القدم الأميركيَّة للفريق الذي أشَجِّعُهُ، أو أتبادل القصص المُضحكة مع بعض الأصدقاء في أثناء استراحة القهوة في بيتي، أو أخَطِّط لنُزهة على بحيرة ميشيغان، أو أُصحِّح الأخطاء الإملائيَّة في مخطوطة أحد كُتُبي- هل هذه أعمال أفعلها من أجل المسيح؟ كيف يجب أن يؤثِّر إيماني في العالم غير المنظور في سلوكي اليوميِّ في العالم المنظور؟

بحسب يسوع، فإنَّ ما يَظُنُّهُ الناسُ فيَّ لا يَهُمُّ كثيرًا. أمَّا ما يَظُنُّهُ الله فيَّ، فهو ما يَهُمُّ أكثر جدًّا. يقول لك يسوع ما مفاده: صَلِّ في غرفة مغلقة لا يراك فيها أحد، بدلًا من الصلاة في العَلَن حيث رُبَّما تحصُل على المَديح بوَصفِكَ روحيًّا. بكلمات أخرى، عِش لله وليس للآخرين. إنَّني لا ألبَثُ أن أصنَعُ ضوضاءً باحثًا عن انتباه الآخرين. لذلك فإنَّ يسوع يدعوني أن أتخلَّى عن الصراع التنافُسِيِّ، وأثق بأنَّ رأي الله فيَّ هو كلُّ ما يَهُمُّ، في النهاية.

قالت الناسِكة مدام غويون (Madame Guyone) العبارة التالية: "توجد قاعدتان فقط للحياة الأخلاقيَّة في هذا الكون، الأولى هي أن نجعل من أنفسنا أو مصالحنا الشَخصيَّة المحدودة جدًّا مَركز حياتنا، والأخرى هي أن نجعل هذا المركز هو الله أو الصالح الكونيَّ العام". يُمكنُني أن أُلَخِّص مسيرتي الروحيَّة كُلَّها في أنَّني أُحاول أن أنقُل المركز الفاعل في حياتي من نفسي إلى الله.

إنَّني أسال نفسي: كيف يُمكن أن تختلف حياتي إذا كُنتُ أؤدِّي أمام جمهورٍ مُكَوَّن من شخص واحد؟ لا إذا كُنتُ دائمًا أسأل نفسي: "ما أريد أن أفعَل؟" أو "ما الذي سوف يجعلني أنال رِضا الناس؟"، ولكن "ماذا يريدني الله أن أفعل؟". إذا فَعَلتُ ذلكَ سَوف يتضاءَلُ شعوري بالكَرَامَةِ الشخصيَّة أو التنافُسيَّة، لأنَّني عندئذٍ لن أهتَمَّ بإثباتِ نَفسي أمام الآخرين. يُمكنني، بدلًا من ذلك، أن أهتمَّ بإرضاء الله، وذلك بالعيش بطريقة يُمكنها أن تَجذب الآخرين إلى أسلوب حياة يسوع.

من كتاب: محاولة اللقاء مع إله غير منظور

١٩ تمّوز/يوليو

تحدِّي الغفران

يواجه تحدِّي الغفران أيَّ إنسان يوافق أن يوقف إطلاق النار بصورته الأخلاقيَّة. عندما أشعر أنَّ ظُلمًا ما قد ارتُكِب في حَقِّي، يُمكنني في ذلك الوقت أن أجد مئة عُذر يجعلني لا أغفر. فأقول لنفسي مثلًا: ينبغي أن يتعلَّم دَرسًا. إنَّني لا أريد أن أُشَجِّع على السلوك غير المسؤول. سوف أترُكها قليلًا لتتألَّم قبل أن أغفر لها، فهذا سوف يكون في مصلحتها. إنَّها تحتاج أن تتعلَّم أن الأفعال لها نتائج. لقد كُنتُ الشخص الذي أُخطِئَ في حقِّه، عليه هو أن يبدأ بالاعتذار قبل أن أغفر له. كيف يُمكنني أن أغفر، بينما لا يَشعُر حتَّى بالأسف على ما فعل؟...وأبدأ في تجييش الحُجج حتَّى يحدث شيءٌ يُنهِكُ مقاومتي للغفران. عندما ألينُ للدرجة التي تجعلني مُستَعِدًّا لتقديمِ الغَفران، يبدو الأمر وكأنَّه نوع من الاستسلام، أو كأنَّهُ قفزةٌ من المنطِق الجامد إلى العواطف الرخوة.

لماذا أقفز هذه القفزة؟ عامل واحد يُعطيني الدافع: أنَّني، بصفتي مسيحيًّا، أُمِرتُ بذلك، وبصفتي ابنًا للإله الذي غَفَر. ويمكنني أيضًا أن أُمَيِّز ثلاثة أسباب منفعيَّة أخرى.

أوَّلًا، يمكن أن يوقف الغفران وحده دائرة اللوم والألم، ويكسر سلسلة عدم نعمة. من دونه، نظلُّ مُرتبطين بصورةٍ ما بمَن لم نستطع أن نَغفِرُ لهُم. ثانيًا، يَفُكُّ الغفران قيودَ الشَعورِ بالذَّنب لَدَى من ارتكَبَ الخطأ. كما أنَّه يتيح حدوث التغيير في الطرف المُذنب، حتَّى إذا كانت العقوبة العادلة تظلُّ مطلوبة. والسبب الثالث هو أنَّ الغفران يخلق ارتباطًا مُمتازًا بين الشخص الذي يغفِر والشخص المغفور له، وبذلك نُدرك أنَّنا لا نختلف عن الشخص الذي أساء في حقِّنا، وإن كُنَّا نُحبُّ دائمًا أن نفترض أنَّنا أفضل. قال سايمون ڤايل:

"إنَّ حقيقتي أنا أيضًا مختلفة عَمَّا أظنُّه في نفسي، ويأتي أن أعرفَ ذلك بالغفران".

إنَّ الغفران- غير المُستَحَقِّ غير المُكتَسَب- يمكن أن يقطع الربُط ويجعل عِبءَ الذنب يتدحرج بعيدًا. يُصوِّر العهد الجديد يسوع القائم من الأموات وهو يأخذ بيد بطرس في طَقسٍ غُفرانٍ من ثلاث خطوات. لم يكن هُناك داعٍ أن يعيش بطرس حياته بعدها حاملًا النظرة الكسيرة لشخصٍ ارتكب خيانة في حقِّ ابن الله. لا. على العكس، فعلى صخرة إيمان هؤلاء الخُطاة المُجَدَّدين، بنى المسيح كنيسته.

من كتاب: ما أعجب النعمة

٢٠ تمُّوز/يوليو

كفى دماء!

في سنة ١٩٨٧م، فجَّرت مُنظَّمة الجيش الأيرلندي الجمهوريِّ قنبلة في مدينة صغيرة غَرب بلفاست وسط مجموعة من البروتستانت كانوا مُجتَمِعين لتأبين ضحايا الحَرب في يوم المُحارِب. ولقي ١١ شخصًا حتفه في هذا الانفجار، وجُرِحَ ٦٣ آخرون. فما الذي جعل هذا العمل الإرهابيَّ يَعلَق في الأَذهان أكثر من غَيرِه. إنَّه ردُّ الفعل الذي بيَّنه أحد الجرحى وهو غوردون ويلسون (Gordon Wilson)، رجل تَقِيٌّ ينتمي إلى طائفة المُصلحين.

لقد دَفنَ الانفجار ويلسون مع ابنته البالغة من العُمر ٢٠ عامًا تحت متر ونصف المتر من الطوب والخرسانة. "أبي. أُحبُّكَ جدًّا". كانت هذه آخر كلمات قالتها ابنته الشابَّة، وهي تُمسك بيده، وهُم ينتظرون المُسعِفين.

كتبت إحدى الصحُف في ما بعد ما يلي: "لا يتذكَّر أحد ما قاله السياسيُّون في ذلك الوقت. لكن كلَّ من استمع لغوردون ويلسون لا يمكن أن ينسى ما قاله بتاتًا...لقد تعاظَمَت نعمة غفرانه فوق كلِّ المسوِّغات البائسة التي قدَّمها من قاموا بهذه العمل البغيض".

قال ويلسون وهو يرقد على سريره في المُستشفى: "لقد فقدتُ ابنتي، لكنِّي لا أحمل ضغينة. الكلام المرُّ لن يُعيد ماري ويلسون إلى الحياة مرَّة أخرى. سوف أُصَلِّي، الليلة وكلَّ ليلة، أن يغفر الله لهم".

كانت الكلمات الأخيرة التي نطقت بها ابنته، كلمات محبَّة، وأيضًا كان قرار أبيها أن يعيش على هذا المُستوى نفسه من المحبَّة. كَتَب أحد الصحفيِّين قائلًا: "لقد بَكَى العالم عندما سمع ويلسون يُجري مقابلة مُشابِهة مع هيئة الإذاعة البريطانيَّة في وقتٍ لاحق من ذلك الأسبوع".

وبعد أن خرج من المستشفى، قاد غوردون ويلسون حملة للمُصالحة بين البروتستانت والكاثوليك في أيرلندا الشماليَّة. و بسبب الضجَّة الإعلاميَّة التي أُثيرت حول ويلسون، قَرَّرَ المتطرِّفون البروتستانت الذين كانوا قد خطَّطوا للانتقام من هذا الانفجار أنَّ مثل ذلك العمل سوف يكونُ غباءً سياسيًّا مُنقطع النظير. وكتب ويلسون كتابًا عن ابنته، وتكلَّمَ في أكثر من موضع ضدَّ العُنف، وكرَّر باستمرارٍ هذه العبارة: "المحبَّة هي كلُّ شيء في النهاية". وتقابل مع منظَّمة الجيش الجمهوريِّ وغفر لهم شخصيًّا ما فعلوه، وطلب أن يوقفوا عمليَّاتهم قائلًا: "أعلم أنَّكم فقدتم أحبَّاء مثلي تمامًا. فيكفي ما يكفي. كفى دماء".

وفي النهاية، جعلت الجمهوريَّة الأيرلنديَّة الناشئة من ويلسون عضوًا في مجلس شيوخها. وعندما تُوفِّي سنة ١٩٩٥م، أكرمت الجمهوريَّة الأيرلنديَّة، و أيرلندا الشماليَّة، وكلُّ بريطانيا العُظمى ذكرى ذلك المواطن المسيحيِّ العادِيِّ الذي اشتُهِرَ بروح الغفران والنعمة غير العاديَّة.

من كتاب: ما أعجب النعمة

٢١ تمُّوز/يوليو

توبة سياسيَّة

شاهد العالم سنة ١٩٩١م دراما للغفران تُلعَب على مسرح السياسة العالميَّة. بعد أن اختارت ألمانيا الشرقيَّة مجلسها النيابيَّ بعد أوَّل انتخابات في تاريخها، اجتمع ممثِّلو الشعب لتولِّي مقاليد مُهمَّتهم. وكانت الكتلة الشيوعيَّة تَتَغَيَّرُ بصورة يوميَّة، وكانت ألمانيا الغربيَّة تؤجِّل تلك الخطوة الجذريَّة لإعادة توحيد شَطرَي ألمانيا، وكان أمام البرلمان الجديد مهامُّ ثقيلة في إدارة شؤون البلاد. لكنْ كان أوَّل عمل رسميٍّ عملوه أنَّهم قرَّروا التصويت على هذا القرار الاستثنائيِّ، الذي صيغ بلُغة اللاهوت أكثر من صياغته بلغة السياسة:

نحن أعضاء أوَّل مجلس نيابيٍّ مُنتخَب للجمهوريَّة الديمقراطيَّة الألمانيَّة...وبالنيابة عن مواطني هذه الأرض، نعترف بمسؤوليَّتنا عن الإذلال والإبعاد والقَتل الذي تعرَّض له الرجال و النساء والأطفال اليهود. ونشعر بالأسف، والخزي، ونعترف بهذا الحمل الثقيل الذي يحمله التاريخ الألمانيُّ...لقد أُنزل تعذيبٌ فائق على شعوب العالم في أثناء حُكم الاشتراكيَّة القوميَّة...إنَّنا نطلب من كلِّ يهود العالم أن يُسامحونا. ونطلب من شعب الدولة العبريَّة أن يغفر لنا من أجل النفاق والعُنف الذي ارتكبته السياسات الألمانيَّة الشرقيَّة تجاههم، ومن أجل الاضطهاد والإذلال الذي تعرَّض له المواطنون اليهود في بلادنا بعد سنة ١٩٤٥م أيضًا.

وقد مرَّر البرلمان الألمانيُّ الشرقيُّ هذه الوثيقة بالإجماع. ووقف الأعضاء على أقدامهم لفترة طويلة من التصفيق، ثُمَّ صمتوا للحظة في ذكرى اليهود الذين ماتوا في المُحرقة.

ما الذي أنجزه عمل مثل هذا من جانب البرلمان الألمانيِّ؟ لم يُعيدوا اليهود المقتولين إلى الحياة، ولم يُلغوا الفظائع التي ارتكبها نظام الحُكم النازيّ. لكنَّهم ساعدوا على فكِّ رُبُط الذنب التي كانت تخنق الألمان الشرقيِّين لنحو نصف قرن– خمسة عقود من الزمان كانت فيها حكومتهم تُنكر حاجتها إلى أيِّ نوع من نوال الغفران.

أمَّا ألمانيا الغربيَّة، فقد تابت بدورها رسميًّا عن الموبقات التي ارتكبتها. ودفعت ألمانيا الغربيَّة ٦٠ مليار دولار تعويضًا لليهود. إنَّ حقيقة وجود علاقة بين ألمانيا والدولة العبريَّة لَهي إعلان مُذهل عن ذلك الغفران المُغيِّر. إنَّ للنعمة قوَّتها الخاصَّة، حتَّى في السياسة العالميَّة.

من كتاب: ما أعجب النعمة

كسر القيود

شهد العصر الحاليُّ مشاهد دراميَّة علنيَّة للغفران حدثت في حياة الأمم التي كانت الشيوعيَّة تُسيطر عليها في السابق.

في سنة ١٩٨٣م، قبل انهيار الستار الحديديِّ، وفي فترة الحُكم العسكريِّ، زار البابا يوحنَّا بولس الثاني پولندا، حيث أقام قدَّاسًا هائلًا في الهواء الطلق. وسارت جماعات كبيرة من الناس، مُنَظَّمةً بحسب أبرشيَّاتها، عبر جسر پونياتوسكي (Poniatowski Bridge) حيث تدفَّقت صوب الملعب الذي أُقيم فيه القُدَّاس. وقبل الوصول إلى الجسر بقليل، كان الطريق يمرُّ مباشرة أمام مقرِّ اللجنة المركزيَّة للحزب الشيوعيِّ، وساعة تلو الأخرى كانت فصائل الذاهبين إلى القُدَّاس تُنشد في صوت واحد في أثناء مرورها أمام المبنى: "نحن نغفر لكم، نحن نغفر لكم!". وكان بعضٌ منهم يقولون هذا الكلام بإخلاص قلبيٍّ حقيقيٍّ، وآخرون كانوا يصيحون بشيء من الغضب، وكأنَّهُم يقولون: "أنتم لا شيء. لا تستحقُّون منَّا حتَّى الكراهية".

بعد مرور سنوات، عُثِر على جُثَّة القسِّ جيري پوپيلوسكو (Jerry Popieluszko) على وجه نهر ڤيستولا (Vistula). وهو قسٌّ يبلغ ٣٥ من العمر كَهرَبَت عظاته پولندا بأسرها. كانت عيناه قد اقتُلَعَتا وكذا أظافره. ومرَّة أخرى خرج الكاثوليك إلى الشوارع في مسيرات تحمل لافتات مكتوب عليها أيضًا: "نحن نغفر. نحن نغفر". لقد كان پوپيلوسكو يعظ الرسالة نفسها أحدًا بعد أحد للجموع التي كانت تملأ الميدان أمام الكنيسة، قائلًا: "دافعوا عن الحقّ. قاوموا الشرَّ بالخير". بعد موته استمرَّ الشعب يطيعه، وفي النهاية كانت روح النعمة السائدة هي التي أسقطت النظام.

وعبر ألمانيا الشرقيَّة بأسرها، شُنَّ صراعُ الغفران. هل يمكن أن يغفر قسٌّ في روسيا لضبَّاط المخابرات الروسيَّة الذين سجنوه ودمَّروا كنيسته تمامًا؟ هل يغفر الرومانيُّون للأطبَّاء والممرِّضات الذين قيَّدوا المرضى الأيتام في أَسِرَّتهِم بالسلاسل؟ هل يغفر مواطنو ألمانيا الشرقيَّة للجواسيس- الذين منهم أساتذة كلِّيَّات اللاهوت والقساوسة، والزوجات الخائنات والأزواج الخونة الذين وشوا بهم إلى الشرطة السرِّيَّة؟ عندما علِمَتْ ناشطة حقوق الإنسان ڤيرا ڤولينبرغر (Vera Wollenberger) أنَّ زوجها هو الذي أبلَغ عنها الشرطة السرِّيَّة، ما أدَّى إلى القبض عليها ونفيها خارج البلاد، هُرِعَت إلى الحمَّام وتقيَّأت.

لقد عَرَّفَ پول تيليك (Paul Thillich) ذات مَرَّة الغفران أنَّه تَذَكُّر الماضي لكي يُنسى. قاعدة يُمكن تطبيقها على الشعوب، مثلما تُطبَّق على الأفراد. لكنَّ الغفران ليس سهلًا بتاتًا، ورُبَّما يحتاج الأمر إلى أجيال، فما الذي

قد يكسر قيودًا استعبدت الناس لماضيهم التاريخيّ؟

من كتاب: ما أعجب النعمة

جسده

لقد دَبَّرَ الله طعامًا للعبرانيِّين التائهين في بَرِّيَّة سيناء، كما أنَّه حَرِصَ أيضًا ألَّا تبلى أحذيتهم. يسوع أيضًا أطعم الجموع الجائعة وسدَّد احتياجاتهم بصورة مُباشِرة. الكثير من المسيحيِّين عندما يقرأون هذه القصص المُثيرة ينظُرون إلى الخلف بشيء من الحنين أو رُبَّما حتَّى نوع من الإحباط. "لماذا لا يتصرَّف الله هكذا الآن؟ لماذا لا يسدِّد الله احتياجاتي بهذه الطرُق المعجزيَّة؟".

لكن يبدو أنَّ رسائل العهد الجديد تُصوِّرُ نمطًا مختلفًا. فنجد بولس لجأ وهو مأسور في زنزانة باردة إلى صديقه تيموثاوس لكي يهتمَّ باحتياجاته الجسديَّة. وكتب له: "الرِّداءَ الذي تركْتُهُ في ترواسَ عِندَ كاربُسَ، أحضِرهُ مَتَى جِئتَ، والكُتُبَ أيضًا ولا سيَّما الرُّقوقَ". وكتب أيضًا: خُذْ مَرقُسَ وأحضِرهُ معكَ لأنَّهُ نافعٌ لي للخِدمَةِ". وفي سياق آخر يكتب بولس أنه حَصلَ على "تعزية إلهيَّة" بمجيء تيطس. وعندما اندلعت المجاعة في أورشليم، قاد بولس بنفسه حملة جمع تبرعَّات بين كلِّ الكنائس التي أسَّسَهَا. لقد كان الله يسدِّد احتياجات الكنيسة الوليدة كَمَا سدَّد احتياجات العبرانيِّين، لكن بطريقة غير مباشرة، بواسطة أعضاء آخرين في جسد المسيح. لم يكُن بولس يُفرِّق بين "الكنيسة فعلت كذا، لكن الله فعل كذا". مثال هذا التقسيم يُمكن أن يكون خاطئًا في ضوء ما كان يكتبه دائمًا أنَّ الكنيسة هي جسد المسيح؛ لذلك فإن كانت الكنيسة قد فعلت شيئًا، فالله هو الذي فعله.

يمكن تتبُّع إصرار بولس على هذه الحقيقة رجوعًا حتَّى مقابلته الأولى مع الله. في ذلك الوقت كان بولس مُضطهِدًا عنيفًا للمسيحيِّين، مثل صائدي الجوائز في الغرب الأميركيِّ الذين كانوا يُطاردون المطلوبين للعدالة. لكنَّهُ في الطريق إلى دمشق رأى نورًا لامعًا بما يكفي ليُعمي عَينَيه لثلاثَة أيَّام، وسمع صوتًا من السماء يقول: "شاول، شاول، لماذا تضطهدني؟".

أضطهدك؟ أضطهد من؟ إنَّني فقط أطارد هؤلاء الهراطقة المسيحيِّين.

ثُمَّ سأل شاول بعد أن انطرح مُمَدَّدًا على الأرض: "من أنت يا سيِّد؟".

وجاء الردُّ: "أنا يسوع، الذي أنت تضطهده".

هذه العبارة تُلَخِّص التغيير الذي صَنَعَه الروح القدس في شاول. لقد كان يسوع قد صُلِبَ قبل ذلك الوقت بشهور. وكان شاول يُطارِد ويضطهد المسيحيِّين، وليس يسوع. لكنَّ يسوع، الحيَّ القائم من بين

الأموات، أخبر شاول أنّ هؤلاء الناس، هُم في واقع الأمر جسده. ما يؤذيهم يؤذيه. لقد كان درسًا لن ينساه الرسول بولس.

من كتاب: عندما لا تمطر السماء

٢٤ تمُّوز/يوليو

لماذا أومن

في أيَّام شكوكي، كنتُ أريد تدخُّلًا دراميًّا من السماء. لقد كُنتُ أريد دليلًا عن وجودٍ واقعٍ غير منظور. أمَّا في أيَّام إيماني، فمثال هذه التدخُّلات الفائقة للطبيعة تبدو أقلَّ أهمِّيَّة، جُزئيًّا لأنَّني أجد أنَّ التفسيرات المادِّيَّة للحياة غير كافية لتفسير الواقع. لقد تَعَلَّمتُ أن أنتبه إلى أشكال تواصل أقلَّ وضوحًا بين العالَمَين المنظور وغير المنظور. أستطيع أن أرى في الحُبِّ الرومانسيِّ شيئًا لا يكفي لتفسيره مُجَرَّد التجاذب الكيميائيّ. أستشعر في الجمال والطبيعة علامات دالَّة على الخالق العبقريِّ الذي لا أجدُ تجاوُبًا مُناسِبًا معَها سوى العبادة. لقد كُنتُ في بعض الأوقات، مثل يعقوب الذي أيقظَهُ حُلمٌ ليُدرك: "حقًّا لقد كان الله في هذا المكان، ولم أُدرِ ذلك".

في الرغبة، بما في ذلك الرغبة الجنسيَّة، أستشعر علامات التوق الأصيل في البشر للاتِّصال. وفي الألم والمعاناة، أرى الانزعاج الناتج من الإدراك أنَّ المحبَّة القويَّة لن تسمح لهما في البقاء. أشعر بواسطة الرحمة والكَرَم والعدل والغفران سِماتِ النعمة التي تُخاطبني من عالَمٍ آخر، لا سيَّما عندما أزور أماكن مثل روسيا، التي تَشَوَّهَت من جرَّاء غياب النعمة. إنَّني أستشعر في يسوع شخصًا عاش هذه الصفات بثبات واستقرار، لدرجة أنَّ العالم لم يستطع تحمُّله واضطرَّ إلى إسكاته والتخلُّص منه. باختصار، إنَّني أومن، لا لأنَّ العالَمَ غير المنظور يتداخل في هذا العالَم، ولكن لأنَّ العالَمَ المنظور يُلَمِّح دائمًا إلى عالَمٍ آخر عندما يُشير للنقص الذي يُعانيه مُتطلِّعًا إلى عالَمٍ أفضل.

استمعت ذات مرَّة إلى امرأة تقدِّم حياتها سِجِلًّا مرموقًا من الإنجاز. لكونها من أوائل الناشطات في مجال حقوق المرأة، استطاعَت أن تحصُل على شُهرة في عالم طبِّ الغدد الصمَّاء الذي يحتكره الرجال. في نهاية قصَّتها قالت ببساطة: "عندما أنظر إلى الوراء، فهذا ما يهمُّ: أنَّني أَحبَبْتُ وكنتُ محبوبةً، وكلُّ شيء آخر هو مجرَّد موسيقا تصويريَّة في الخلفيَّة".

المحبَّة، أيضًا، هي السبب في كوني أومن. وفي نهاية الحياة، ماذا أيضًا يَهُمّ؟ يكتب بولس: "المحبَّة لا تسقُط أبدًا". ويضيف عن المحبَّة أنَّها "تَحتَمِلُ كُلَّ شَيءٍ، وتُصَدِّقُ كُلَّ شَيءٍ، وتَرجو كُلَّ شَيءٍ، وتَصبِرُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ". لا يُمكن القول إلَّا إنَّ هذه هي محبَّة الله، لأنَّه لا توجد محبَّة إنسانيَّة تفي بكلِّ مقاييس الكمال هذه. وما تذوَّقته من المحبَّة يُقنعني أنَّ المحبَّة الكاملة لا يُمكن أن تَرضى بتلك القصَّة الحزينة لهذا الكوكب، ولن تهدَأ حتَّى يُهزَم الشرُّ، وحتَّى يسود الخير، ولن تسمح للإنسان، موضوع محبَّتها أن يمرَّ بالوجود مرور الكرام.

المحبَّة الكاملة تُثابر حتَّى تحقِّق هدفها النهائيّ.

من كتاب: إشاعات من عالم آخر

٢٥ تمُّوز/يوليو

العودة إلى الوطن

تعمل زوجتي جانيت مع المُسِنِّين بالقرب من مساكن شعبيَّة في شيكاغو، تُعَدُّ المجتمع الأفقر في الولايات المتَّحدة. نحو نصف عملائها من البيض، ونصفهم من السود. عاشوا كلُّهم أوقاتًا عصيبة من تاريخ العالَم- حربان عالميَّتان، والكَسَاد الكبير، والاضطرابات الاجتماعيَّة المتعدِّدة- وكلُّهم، وهُم في السبعينيَّات والثمانينيَّات من عُمرهم يعيشون في حالة من الوعي بالموت. لكنَّ جانيت كانت تُلاحِظُ اختلافًا واضِحًا بين البيضِ والسود في طريقة مواجهتهم للموت. كانت هناك استثناءات، لكن في الأغلب كان الكثير من البيض يشعرون بالخوف والقلق بازدياد. كانوا يَشكونَ من حياتهم وأُسَرِهِم، وتدهور صحَّتهم. أمَّا السود، فعلى العكس، احتفظوا بروحِ فُكاهة جيِّدة وروح معنويَّة عالية، بالرغم من أنَّ لديهم أسبابًا أكثر للشعور بالمرارة واليأس.

ماذا كان سبب هذا الفرق في النظرة بينهما؟ كانت النتيجة التي خرجت بها جانيت لتفسير السبب هي الرجاء، رجاءٌ يمكن تتبُّعه مباشرة إلى إيمانٍ راسخ لدى السود بالسماء. إذا كُنتَ تريد أن تسمع صُورًا معاصرة عن السماء، عليك بحضور جنازات للأميركيِّين من أصل أفريقيّ. فببلاغة مُميَّزة، يرسم الوُعَّاظ السود صورًا لغويَّة جميلة عن الحياة في السماء تتميَّز بالسكينة والجمال حتَّى أنَّ السامعين يبدأون في التململُ في مقاعدهم متشوِّقين إلى الذهاب إلى هُناك. من الطبيعيِّ أن يشعر أهل الفقيد بحزن الفقد والموت، لكن في مكانه السليم- وهو أنَّ الموت نوعٌ من الانقطاع الفُجائيِّ لسلسلة الحياة، تَراجُعٍ في معركة حُدِّدت نهايتها بالفعل وعُرِف مَن المُنتصر فيها.

إنَّني مقتنعٌ أنَّه لهؤلاء القدِّيسين المجهولين، الذين تعلَّموا انتظار الله والاستمتاع به بالرغم من صعوبات حياتهم على الأرض، سوف يكون الذهاب إلى السماء نوعًا من العودة إلى الوطن طال انتظارُها. لقد صارت التطويبات حقائق في حياتهم. فهؤلاء المحبوسون في الألم، والأُسَر المُفَكَّكة، والفوضى الاقتصاديَّة، والكراهية والخوف، والعُنف، يعِدُهُم يسوع بزمان أطول كثيرًا وأغنى كثيرًا من كلِّ الوقت الذي عاشوه على الأرض، يعِدُهُم بصحَّة وسلامة وسعادة وسلام. زمان مجازاة.

من كتاب: يسوع الذي لم أكن أعرفه

٢٦ تمُّوز/يوليو

تغيير الشخصية

حاولت بإصرار في المرحلة الدراسة الثانويَّة أن أُفكِّك شخصيَّتي وأُعيدَ تركيبها. بدايةً كنتُ أكره كوني جنوبيًّا. كانت هناك برامج تلفازٍ تُشعرني بالإحراج الشديد، مثل "بيڤيرلي هيليبيليز" (The Beverly Hillbillies) ، و"هيي هاو" (Hee Haw)، التي هزأت بطريقة ما من الجنوبيِّين، وكُنتُ أنكَمِشُ في مكاني عندما أسمع الرئيس ليندون جونسون (Lyndon Johnson) يستهلُّ خطابه بعبارة "أيُّها الأميركيُّون الإخوة..." بلكنة جنوبيَّة ثقيلة، لا سيَّما أنَّ بقيَّة الأُمَّة كانت تحكم على الجنوبيِّين في ذلك الوقت (الستِّينيَّات) أنَّهم متخلِّفون، وجَهَلة، وعُنصريُّون، وكُنتُ أريد أن أفصل نفسي تمامًا عن المنطقة التي وُلِدتُ وعِشتُ فيها.

وبدأتُ محاولة تغيير طريقة نُطقي، حرفًا بحرف، ونجحت بصورة كبيرة حتَّى أنَّه مُنذ ذلك الحين يندهش الناس حين يعرفون أنَّني نشأت في عُمق أعماق الجنوب. وبدأتُ حملة شخصيَّة لقراءة الكُتُب العالميَّة العظيمة لكي أستطيع أن أنزع من عن عينَيَّ تلك الستارة المَحلِّيَّة التي كُنتُ أرى من خلالها الأشياء. وابتعدت عن أيِّ سلوكٍ كان يتماشى مع ما هو "مُناسب" بحسب الأخلاقيَّات والذوق الجنوبيِّ، وتبَنَّيتُ فقط كلَّ ما كان "حقيقيًّا" و"أصيلًا". كمَّا أنَّني جاهدت لكي أتحكَّم في مشاعري وأجعلها خادمًا لي وليس سيِّدًا عليّ. كما أنَّني غيَّرتُ خطَّ كتابتي، لأُرغم نفسي على تشكيل كُلِّ حرف بطريقة مختلفة عمَّا كُنتُ أفعله من قبل.

على وجه العموم، نجح برنامج التحوُّل، معطيًا لي شخصيَّة تناسبت براحةٍ مع الحياة التي كنتُ أُريد أن أحياها في عشرات السنين التي تَلَت. أصبحتُ أقلَّ حساسيَّة وأكثر مرونةً وانفتاحًا ذهنيًّا- وهي سمات ليست ممَّا ينمو في الثقافة التي نشأتُ فيها، لكنَّها كانت سمات مُفيدة لي في عملي في الصحافة. لكنَّني لم أدرك، إلَّا بعد ذلك بسنوات، أنَّ هناك حدودًا للشخصيَّة المصنوعة ذاتيًّا. ففي أغلب الأمور المهمَّة لله، فشلتُ فشلًا ذريعًا. لقد كنتُ أنانيًّا، كئيبًا، فقيرًا في المحبَّة وقليل التعاطف والرحمة. وباستثناء التعفُّف، كنتُ أفتقر إلى ثمر الروح بحسب غلاطِيَّة ٥. ووصلتُ إلى الإدراك بأنَّ هذه السمات لا يُمكن تصنيعها. فهي تنمو فقط تحت إرشاد قوَّة داخليَّة- الروح القدس.

ومنذ ذلك الحين، جعلتُ الصلاة عبر هذه القائمة من الصفات ممارسةً منتظمة أقوم بها: المحبَّة، الفرح، السلام، طول الأناة، اللطف، الصلاح، الإيمان، الوداعة، التعَفُّف. هل أُظهِرُ المحبَّة في حياتي وعلاقاتي؟ هل أختبر الفرح، وأشعر بالسلام، وأُمارس الصبر؟ إنَّني بكلِّ اتِّضاع أعي أنَّ أيَّ تقدُّم إلى الأمام في هذه السمات يأتي نتيجةَ عمل الروح القدس. وأتَّفق مع جاي. هينريك أرنولد (J. Heinrich Arnold) أنَّ التلمذة المسيحيَّة

"ليست ما نفعله نحن، وإنَّما هي تتعلَّق بترك المجال لله لكي يحيا فينا".

عمود "الصفحة الخلفيَّة"، مجلَّة المسيحيَّة اليوم، ٢٥ تشرين الأوَّل/ أكتوبر ١٩٩٩م

مزيد من الأصالة

زار مارك ڤان دورين (Mark Van Doren) أستاذ الأدب السابق لتوماس ميرتون، والذي هو أيضًا موضوع فيلم "برنامج المسابقات" (Quiz Show)، تلميذه السابق في دير في كنتاكي بعد غياب دام ثلاثة عشر عامًا. لم يستطع ڤان دورين وأصدقاء آخرون لتوماس ميرتون أن يفهموا التغيير الذي اجتاحه. ما القوَّة التي بإمكانها أن تغيِّره من رجلٍ نيويوركيٍّ مُدمن على الحفلات الماجنة إلى راهب يُقدِّس الاختلاء والصمت؟ ويُعَلِّق ڤان دورين التعليق الآتي: "كان يبدو أكبر سنًّا بعض الشيء؛ لكنَّنا عندما جلسنا وتكلَّمنا لم أرَ اختلافًا مُهمًّا فيه. قلت له: «توم! إنَّك لم تتغيَّر قطُّ». فأجاب: «ما الذي يجعلني أتغيَّر؟ إنَّ واجبنا هنا هو أن نكون أنفسنا أكثر وليس أقلّ». لقد كان هذا التعليق مُختَرِقًا لي، ووقفت سعيدًا بتصحيحه لنظرتي".

يُقدِّم العهد الجديد مجال الروح بأنَّه ذروة عمل الله على الأرض، وعندما أُقارِنُهُ بما جَرى قبله، أستطيع أن ألتقط لَمَحَةً من السبب. كان الشعب في العهد القديم يقتربون إلى الله بخوفٍ ورعدةٍ، بواسطة سلسلة مُعقَّدة من الطقوس، وتحت إشراف كهنة متخصِّصين. أمَّا تلاميذ يسوع، فكان لهم اتِّصالٌ بصورة شخصيَّة أكثر من ذي قبل، رغم أنَّهم يبدون كأنَّهم لم يستوعبوا إلَّا جزءًا قليلًا ممَّا قاله، وحتَّى النهاية كانوا يسيئون فهم إرساليَّته. هذا و"يُشخصنُ" الروح القدس حضور الله بطريقة مُناسبة بصورةٍ فريدة لكلِّ نَفْسٍ بَشَرِيَّةٍ.

قال هنري نوين (Henri Nouwen) قُرب نهاية حياته إنَّ الصلاة أصبحت له في المقام الأوَّل وقت "الاستماع للبركات". وأضاف قائلًا: "إنَّ العمل «الحقيقيَّ» في الصلاة، هو أن أكون صامتًا وأستمع إلى الكلمات الجيِّدة التي تُقال عنِّي". وكان يعترف أنَّ هذا رُبَّما يبدو كأنَّه يحمل بعض الاعتداد بالذات، لكن ليس إذا كان يعني به أنَّه يرى نفسه بوصفه المحبوب، وبوصفه الهيكل الذي اختار الله أن يَسكُنَ فيه. وكلَّما نوين استمعَ إلى ذلك الصوت، تناقصت رغبته في تقييم نفسه بنظر الآخرين أو بما حقَّقه من إنجازات. كان يُصلِّي دائمًا كي يُعَبِّر ذلك الحضور الداخليُّ عن نفسه في حياته اليوميَّة، وفي الممارسات البسيطة مثل الأكل والشرب والحديث واللعب والعمل، وعلاقات المحبَّة المختلفة. كان يسعى من أجل الحرِّيَّة الحقيقيَّة في هُوِيَّةٍ مؤَسسةٍ على صَخرٍ "أثبتَ وأعمقَ من أيِّ مديح أو لومٍ إنسانيّ".

عمود "الصفحة الخلفيَّة"، مجلَّة المسيحيَّة اليوم، ٢٥ تشرين الأوَّل/ أكتوبر ١٩٩٩م

٢٨ تمُّوز/يوليو

اعتراف صريح

هناك موضوع يظهر فعليًّا في كلِّ رسالة من رسائل بولس الرسول: ما فائدة الناموس؟ تُشير كلمة الناموس لأغلب قُرَّاء بولس إلى تلك المجموعة من القواعد والطقوس المنصوص عليها في العهد القديم. وبفضل حياة بولس السابقة بصفته فريسيًّا، كان يعرف هذه القواعد جيِّدًا. وكُلَّما بدأ بالكلام عن "العهد الجديد" أو "الحرِّيَّة في المسيح"، أراد اليهود أن يعرفوا موقفه الحاليَّ من الناموس.

في رومية ٧، أكثر فصل في رسالة رومية يُعبِّر فيه بولس عن نفسه بصورة شخصيَّة، يكشف بولس بوضوح طريقة تفكيره في الأمر.

لم يوصِ بولس بتاتًا بإهمال الناموس بالكامل، فقد كان يرى أنَّ الناموس يكشف قاعدة أساسيَّة للأخلاق والسلوك الذي يُرضي الله. الناموس صالح لشيء واحد: وهو أنَّه يكشف الخطيَّة. "بل لَمْ أعرِفِ الخَطيَّةَ إلَّا بالناموسِ". يرى بولس أنَّ تلك القواعد، مثل الوصايا العشر، مفيدة وصالحة وبارَّة.

لكنَّ هناك مشكلة كبيرة في الناموس: فبالرغم من أنَّه يُثبِت أنَّنا سيِّئون، فهو لا يجعلنا أفضل حالًا. ونتيجة عُمُرٍ عاشه بولس في التمسُّك الصارِم بالناموس، كان لبولس ضميرٌ شديد الحساسيَّة، لكنَّ الناموس، كما يسرُدُ بولس بحُزن، لم يكن يفعل شيئًا إلَّا أنَّه جعله يشعر بالذنب طوال الوقت، فيعترف قائلًا: "ويحي أنا الإنسانُ الشَّقيُّ!". الناموس عرَّى ضعفاته، لكنَّه لم يُقدِّم قوَّة للتغلُّب عليها. الناموس- أو أيَّة مجموعة من القواعد والقوانين- تقود في النهاية إلى طريق مسدود.

يقدِّم رومية ٧ توضيحًا هامًّا للصراع الذي يبدأ عندما يخضع إنسانٌ غير كاملٍ لإله كامل. أيُّ مسيحيٍّ يتساءل: «كيف يمكنني أن أتخلَّص من خطاياي المِلِحَّة؟»، سوف يجد راحة في اعتراف بولس الصريح هذا.

أمام مقاييس الله، يشعر كلُّ واحدٍ منَّا بالعجز، وهذه بالتحديد هي النقطة التي أراد بولس أن يُشير إليها. لا توجد مجموعة من القواعد والقوانين يمكن أن تكسر الدائرة المُفرغة للفشل والذنب. إنَّنا نحتاج إلى عون خارجيٍّ لكي "نَعبُدَ بجِدَّةِ الرُّوحِ لا بعِتقِ الحَرفِ". ويحتفل بولس بهذا العَون في رومية ٨.

من كتاب: التَقِ الكتاب المقدَّس

٢٩ تمُّوز/يوليو

اللّٰه الذي في الداخل

الروح القدس هو الموضوع الرئيسيُّ في رومية ٨. وفي هذا الأصحاح، يقدِّم بولس الرسول عَرضًا شاملًا عن طريقة الروح القدس في إجراءِ تغييرٍ في حياة الإنسان. أوَّلًا، في رومية ٨، يرغب بولس في حلِّ المشكلة المُزمنة التي أثارها بكلِّ قوَّة، وهي مُشكلة الخطيَّة. فيبدأ بإعلانه أنَّه: "إذًا لا شَيءَ مِنَ الدَّينونَةِ الآنَ علَى الّذينَ هُم في المَسيحِ يَسوعَ". لقد تعامل المسيح بحياته وموته مع "مُشكلة الخطيَّة" تعاملًا تامًّا ونهائيًّا.

وفي مكان آخر (رومية ٤)، يستعير بولس كلمة من عالم البنوك ليشرح العمليَّة. فالله "يضع في حسابنا الائتمانيِّ" كَمالَ يَسوع الخاصَّ، حتَّى أنَّ تقييمَنا يكونُ وفقَ حياته هو لا حياتنا نحن. وبالمِثل، فإنَّ الله أيضًا نقل كلَّ عقوبة الخطيَّة التي نستحقُّها ووضعها على يسوع، بموته على الصليب. في هذه الصفقة التبادُليَّة، يخرج البشر مُنتصرين ومُحَرَّرين من لعنة الناموس.

ثُمَّ، كما هي العادة، يُصِرُّ بولس على الأخبار الأفضل: أنَّ يسوع المسيح لم يظلَّ ميتًا. ويبتهج بولس بأنَّ القوَّة نفسها التي أقامت يسوع من الأموات سوف "تُحيي" أجسادنا نحن أيضًا بروحه الساكِنِ فينا. الروح القدس يُعطي الحياة وهو وحده الذي يستطيع أن يكسر النمط البائس الميِّت الموصوف في رومية ٧.

من المؤكَّد أنَّ الروح لا يُزيل كلَّ مشكلات الحياة. لكنَّ "الله الذي في الداخل" يُمكن أن يصنع لنا ما لا نستطيع نحن أن نصنعه لأنفسنا. الروح يعمل إلى جانبنا في علاقتنا بالله، ليساعدنا في ضعفنا، حتَّى ونحن نُصلِّي ولا نعرف "ماذا؟" أو "كيف؟" نُصَلِّي.

ويُخبرنا بولس أنَّ ما يحدث داخل المؤمنين الأفراد هو الدراما المحوريَّة في التاريخ، فيقول: "لأنَّ انتِظارَ الخَليقَةِ يتَوَقَّعُ استِعلانَ أبناءِ الله". بصورةٍ ما، سوف تؤدِّي الانتصارات الروحيَّة داخلنا إلى تحرير وشفاء "أنين" الخليقة. لا يكاد الرسول يتمالَك نفسه بينما يتأمَّل هذه الأمور، فيُنهي رومية ٨ بإعلانٍ مُدَوٍّ أنَّه لا شيء- لا شيء بتاتًا، ولا شيءَ بالتأكيد- يُمكن أن يفصلنا عن محبَّة الله.

من كتاب: التَقِ الكتاب المقدَّس

٣٠ تمُّوز/يوليو

نافذة على المجد

من المُدهش أنَّ أكثر أسفار الكتاب المقدَّس بهجة ورجاءً- هي الرسائل إلى أهل فيلبِّي وكولوسِّي وأفسس- وهي تخرُجُ من الفَترة التي قضاها بولس في الإقامة الجبريَّة في روما. وهناك سببٌ مقنع لذلك: أنَّ السجن يُتيح له سلعة غالية وهي الوقت. لم يَعُد بولس يرتحل من مدينة إلى مدينة كما كان يفعل، أو يُطفئ الحرائق التي يُشعلها أعداؤه. طوال هذه الفترة، استقرَّ في أجواء لا تشتيت فيها، فاستطاع أن يكرِّس انتباهه نحو أفكارٍ سامية عن معنى الحياة.

يحكي سجينٌ قضى ١٤ سنة في سجن كوبيٍّ عن احتفاظه بروحه المعنويَّة مرتفعة ويقول: "أسوأ شيء كان الرتابة. لم تكن لديَّ نوافذ في زنزانتي، لذلك اختلقتُ نافذة ذهنيَّة رسمتُها في عقلي على الباب، ومن خلالها «شاهَدتُ» في ذهني مشهدًا جميلًا لجبل شاهق مُغطًّى بالأشجار وينابيع المياه التي تتدفَّق من بين الصخور. لقد أصبح المشهد حقيقيًّا لي، حتَّى أنَّني أصبحت أتخيَّله بلا مجهود ذهنيٍّ في كلِّ مرَّة أنظر إلى باب الزنزانة".

تُقدِّم لنا الرسالة إلى أهل أفسس ملمحًا لِما كان الرسول بولس "يراهُ" عندما كان يسمح لذهنه أن يتجوَّل بعيدًا عن رتابة الحياة في المكان الذي كان مأسورًا فيه. أوَّلًا، يتخيَّل النموَّ الروحيَّ في الكنائس التي تركها، فينفتح الستار على الفقرة التي يُعبِّر فيها عن شكره لله من أجل الحيويَّة الروحيَّة التي تتميَّز بها كنيسة أفسس. ثُمَّ نجده يطلب من أجلهم أن تنفتح "عيون أذهانهم" ليروا مشاهد أكثر مجدًا: "الغنى الذي لا يُستقصى" لنعمة الله.

هذه الرسالة مُفعَمة بالأخبار السارَّة. فيها يسأل بولس السؤال الأعظم: ما هدف الله الكلِّيُّ من الخليقة؟ ويحاول أن يرفع العيون عن أوضاع حياته لنرى الأمور الكُبرى في الوجود- الأمور الكونيَّة. وعندما يرفع الصوت إلى أقصى حدٍّ لكي يُعبِّر عن خُطَّة محبَّة الله، فإنَّنا لا نسمع أيَّة نغمة خافتة حزينة.

إذا كُنتَ تشعر بالإحباط، أو تتساءل إن كان الله يهتمُّ فعلًا أو إذا كانت الحياة المسيحيَّة تستحقُّ المجهود، فإنَّ الرسالة إلى أهل أفسس يُمكنها أن تؤثِّر فيك بقوَّة هائلة؛ فهي تصف "الغنى الذي في المسيح" المتاح للجميع.

من كتاب: التَقِ الكتاب المقدَّس

٣١ تمُّوز/يوليو

دورة حياة الإنسان

عندما يتأمَّل عالم الاجتماع الفرنسيّ، جاك إيلل، العالَمَ المعاصر، فهو يلاحظ نمطًا مميَّزًا: أنَّه عندما يتخلَّل إنجيلُ المسيح مجتمعًا ما، فهو بصورة تخالُفيَّة، يميل مع الوقت إلى ابتكار قيم مُناقِضة للإنجيل. فما سبب هذا التطوُّر الغريب؟

أجد الإجابة في كتابات غوردون كوزبي (Gordon Cosby)، الراعي المؤسِّس لكنيسة المُخَلِّص (Church of the Savior) في واشنطُن العاصمة. يُسجِّل كوزبي ملاحظته أنَّ المُجتمعات التي فيها التزام مسيحيٌّ عالٍ تبدأ بحسٍّ تكريسيٍّ قويٍّ يعبِّر عن نفسه بحياةٍ مُنضبطة تُركِّز على التكريس والتلمذة. هذا النوع من الحياة الجادَّة يصنع فائضًا اقتصاديًّا، لكنَّ هذا النجاح المادِّيُّ، يؤدِّي في النهاية إلى كسر روابط الانضباط ويقود إلى الفساد والتسيُّب والتفَسُّخ.

وسمَّى كوزبي هذا النمط "الدائرة الرهبانيَّة"؛ إذ كان الرهبان البينيدكتان الأوائل يعملون بجدٍّ شديد في إزالة الغابات وزراعة الأراضي، واستثمارِ الفائض في عمل مصارِف، وتربية ماشية، وتخزين الحبوب. وبعد ذلك بنحو ستَّة قرون، بحسب المؤرِّخ پول جونسون (Paul Johnson) "توقَّفت الأديرة البينيديكتيَّة عن أن تكون مؤسَّسات روحيَّة، وأصبحت شبه كلِّيَّات للعاطلين محفوظة فقط لأفراد الطبقة الاجتماعيَّة العُليا". أصبح رؤساء الأديرة يستولون على نحو نصف عائد النظام الرهبانيِّ للحفاظ على حياتهم المُرفَّهة. ويصف جونسون أغلب الرهبان البينيدكتان في هذه الحقبة أنَّهم "طبقة عُليا طُفيليَّة".

وقد كرَّر الدومينيكان، واليسوعيُّون، والفرنسيسكان هذه الدورة نفسها: دفعة قويَّة من التكريس والانضباط، تُنتجُ فترة من الوفرة والازدهار الاقتصاديِّ، ثُمَّ انجراف نحو المُتعة والتسيُّب حتَّى يأتي مُصلحٌ لإعادة إحياء المبادئ التي تأسَّست عليها الرهبانيَّة. كما واجه المُصلحون البروتستانت التحدِّي نفسه.

يُصَوِّر العهد القديم أنَّ أُممًا بأسرها يُمكنها أن تقع في هذا النمط المُتكرِّر نفسه. رُبَّما من الأفضل أن نُسمِّيها "الدائرة البَشريَّة" بدلًا من "الدائرة الرهبانيَّة". فمُنذ حياة آدم وحوَّاء الموجزة في الجنَّة، أظهر البشر عجزًا واضحًا في التعامل مع الوفرة والنجاح. إنَّنا نلجأ إلى الله عند الحاجة، وننساه عندما تصير الأمور على خير ما يُرام.

عندما لاحظتُ هذا النمط المتكرِّر في دولٍ عدَّة، فهمتُ أكثر سبب حذر يسوع من الغنى وتطويبه الفقراء والمساكين. من السهل على المُحتاج البائس أن يلجأ إلى الله. لذلك أقلق على مُجتمعي، الذي يعتمد بقوَّة على

ثرائه وقدراته ويملأ كلّ وقت فراغ بخيارات للتسلية والمُتعة. هل يمكننا في وقت الوفرة، أن نجد طريقة بها نكسر تلك الدائرة؟ إنَّ سلامة مُستقبلنا متوقِّفة على إجابة هذا السؤال.

عمود "الصفحة الخلفيَّة"، مجلَّة المسيحيَّة اليوم، عدد أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٤م

آب/أغسطس

١ آب/أغسطس

"إيڤانجيليكوس!"

عندما أعود من رحلاتي في الخارج وأقرأ في مجلَّاتٍ مثل "تايم" أو "نيوزويك" تقارير عن شخصيَّات إنجيليَّة أميركيَّة، فإنَّ كلَّ شيء في النهاية يصبُّ في السياسة، وهذا عادةً ما يعني الاستقطاب بين اليمين السياسيِّ واليسار السياسيِّ. كثيرٌ من الأميركيِّين يرون الإنجيليِّين المُحافظين في صورة كُتلة تصويتيَّة مُتجانسة مهووسة ببضعة موضوعات أخلاقيَّة. وهكذا يفوتهم إدراك الحيويَّة والحَماسة ومفهوم الأخبار السارَّة الذي تحمله كلمة "إنجيليّ" في الكثير من مناطق العالم الأخرى.

يحمل الإنجيليُّون في أفريقيا الطعام إلى السجون، ويرعون الأطفال الذين صاروا أيتامًا بسبب مرض الإيدز، ويديرون مدارس الإرساليَّات، ويُدرِّبون الكثير من قادة هذه القارَّة. وفي آسيا وأميركا اللاتينيَّة، يدير الإنجيليُّون برامج قروضٍ تُقيم مشروعات اقتصاديَّة متناهية الصِّغَر تُتيح للأُسر الفقيرة شراء ماكينات حياكة أو قُطعانًا صغيرة من الدجاج. وعلى مدى السنوات الخمسين الماضية، ارتفع عدد المُرسلين الأميركيِّين الذين تعولهم مؤسَّسات إنجيليَّة من ٤٠٪ إلى ٩٠٪.

زار صديقي منطقة تتحدَّث الإسپانية في ساوپاولو في البرازيل، وبدأ يشعر بالقلق لحظة ما شاهد صبيان تجَّار المخدِّرات يجوبون المناطق السكنيَّة حاملين أسلحة آليَّة في الشوارع الطينيَّة الضيِّقة بين البيوت الفقيرة، حيث أنابيب المياه البلاستيكيَّة تتدلَّى فوق الرؤوس، والأسلاك الكهربائيَّة المكشوفة تسحب التيَّار من خطوط الجهد العالي، ورائحة المجاري تفوح في كلِّ مكان. وتزايد قلقه عندما لاحظ أنَّ السكان القاطنين أكواخًا معدنيَّة يُحملقون فيه بغضبٍ بوصفه رجلًا أبيضَ مثيرًا للشكوك يقتحم منطقتهم. هل هو ضابط من ضبَّاط مكافحة المخدِّرات؟ هل هو شرطيٌّ مُتَخفٍّ؟ ثُمَّ لاحظ تاجر المخدِّرات الرئيسيُّ في المنطقة شعار الكنيسة الخمسينيَّة المحلِّيَّة التي كان يزورها صديقي، والمطبوع على ظهر القميص الذي يرتديه. فظهرت على وجه هذا التاجر ابتسامة عريضة وهتف قائلًا: "إيڤانجيليكوس!" أي المبشِّر أو حامل الخبر السارّ. وتحوَّلت نظرات الشكِّ والريبة على وجوه الجميع إلى ابتسامات.

لقد قدَّمت هذه الكنيسة عبر السنين مساعدات عمليَّة كثيرة لهذه المنطقة، حتَّى صار يُرحِّبُ بفرح بالزوار الأجانب لهذه الكنيسة. وفي الولايات المتَّحدة أيضًا، تنمو الكنائس الإنجيليَّة المحافظة بينما تتضاءل الكنائس البروتستانتيَّة التقليديَّة. ويقود الإنجيليُّون المحافظون نسبة كبيرة من الخمس مئة هيئة مسيحيَّة التي ظهرت بعد الحرب العالميَّة الثانية لمُجابَهَة المشكلات الاجتماعيَّة الناشئة في ذلك الوقت. كما تتضاعف في مدن كبرى كثيرة أعداد الكنائس كبيرة الحجم المبنيَّة على غرار كنيسة ويلو كريك (Willow Creek) بالقُرب من شيكاغو

والتي يبلغ تعدادها ٢٣ ألف نسمة، وكنيسة سادلباك (Saddleback) في جنوب كاليفورنيا.

وقد ظهرت هذه "الكنيسة الناشئة" التي يصعب تصنيفها لتخدم جيل ما بعد الحداثة. في واقع الأمر، كَشفَت دراسة حديثة أنَّ ثلاثة وتسعين من الكنائس الأسرع نموًّا في الولايات المُتحدة تَعُدُّ نفسها كنائس إنجيليَّة مُحافِظة.

"موزاييك غريب ونابض بالحياة"، مجلَّة المسيحيَّة اليوم، ٣ حَزِيران/ يونيو ٢٠٠٧م

٢ آب/أغسطس

كلمة في الشارع

قالت لي زوجتي مرَّة هذه العبارة: "إذا كنتَ تؤلِّف كتابًا عن الصلاة، يجب أن تعيش مع المُشرَّدين بعض الوقت"؛ إذ إنَّها من روَّاد خدمة سكَّان المدينة الفقراء. وأضافت: "إنَّ قاطِنِي الشوارع يُصَلُّون ضرورةً وليس رفاهيةً".

كان كلامها منطقيًّا؛ فعندما زُرت مقهًى للمُشرَّدين في دَنڤر، اصطدمت بنوعيَّة صلاتهم شديدة الواقعيَّة. وفي واقع الأمر، هالني التشابه بين صلواتهم والصلاة الربَّانيَّة. "خبزنا كفافنا أعطنا اليوم": كلُّهم لديهم قصص عن صلاتهم عندما ينفد الطعام في بيوتهم، وإذا بهم يجدون طعامًا بصوَرٍ مُعجزيَّة. ولكونهم يعيشون في الشارع، فإنَّ المؤمنين منهم كانوا يُصلُّون يوميًّا: "نَجِّنا من الشرِّير". وعندما يُصَلُّون: "اغفر لنا ذنوبنا"، فهُم يحملون بالفعل أسرارًا قديمة مدفونة من الخزي والندَم.

قال لي جون، وهو مُشيرٌ مُتمَرِّس: "سوف تُدهَش من عدد الأصوليِّين المسيحيِّين بين ساكني الشوارع. لا عَجَب؛ فعندما تزور أيَّة إرساليَّة لإنقاذ المُشرَّدين، فسوف تسمع بانتظامٍ عظات الجحيم والنار والكبريت. هناك يحصلون على جرعة ثابتة من خطاب الخطيَّة والباطل". وبعد عشرين سنة من الخدمة، خرج صديقي جون هذا بنظريَّة أنَّ ساكني الشارع يشتركون مع الأصوليِّين في نوع من "اضطرابات الصِّلة". في الطفولة، لم يتعلَّموا الالتحام بالوالدَيْن أو على الآخرين عمومًا، أو بالله بوصفه الآب. لذلك يستصعبون الالتزام أو الانفتاح على الآخرين أو الثقة بهم، وهكذا هم يحسبون العالم مكانًا غيرَ آمن وغريبًا.

وفي الوقت الذي قضيته مع المشرَّدين، تعلَّمت معنًى جديدًا للصلاة: أنَّها مكانٌ آمنٌ لمشاركة الأسرار. والأوفر حظًّا منَّا هم الذين لديهم شريك زواج أو صديق موثوق به يمكن أن يشارك معه أسراره. أمَّا من ليس له مثل هذه العلاقات، فعلى الأقلِّ له الله ليشاركه أسراره. (حقيقة أنَّنا لا نزال أحياءً، ومحبوبين، تكشف حقيقة أنَّ لدى الله استعدادًا لاحتمال هذه الأسرار أكثر ممَّا نعترف له بذلك).

قال لي جون: "إذا كُنتُ مُحقًّا بشأن اضطراب الصِّلة هذا، فإنَّ أفضل خدمة يمكن أن أقدِّمها لهؤلاء هي علاقة طويلة المدى. أتمنَّى أن يتعلَّم أهل الشارع على مدى الشهور والسنوات أن يثقوا بي بصفتي شخصًا يمكنه التعامل مع أسرارهم بصورةٍ سليمة. وأتمنَّى أن يتعلَّموا مع الوقت الثقة بالله. وأقول لمن يتعاملون مع المشرَّدين أنَّ النظر إليهم في العين رُبَّما يكون أهمَّ من الأكل أو المال. إنَّهم يحتاجون إلى التواصل أكثر من أيِّ

إنسان آخر، ويحتاجون إلى مَن يراهم بصفتهم أشخاصًا ذوي قيمة".

عمود "الصفحة الخلفيَّة"، مجلَّة المسيحيَّة اليوم، عدد كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٦م

٣ آب/أغسطس

المرض غير المرغوب فيه

لقد كان يسوع يعرف كلَّ شيء عن الوَصم الاجتماعيِّ الذي يُصاحب مرضًا مثل الإيدز أو الجُذام (البرص). كانت قوانين سِفر اللاويِّين تقضي أن يعيش الشخص المُصاب بالجُذام خارج المدينة، ويحافظ على مسافة لا تقلُّ عن مترَين بينه وبين أيِّ شخص آخر، ويرتدي مسوحًا (أي ملابس تشبه التي يرتديها المعزُّون الذاهبون إلى جنازة). أستطيع بسهولة أن أتخيَّل الغضب الذي سَرى بين الجموع عندما سارَ شَخصٌ كهذا بينهم. لا شكَّ أنَّهم منحوه مكانًا واسعًا، فأتى وألقى بنفسه عند قدمَي يسوع قائلًا: "يا سيِّد، إن أردتَ تقدر أن تُطَهِّرَني".

تحتوي الأناجيل الإزائيَّة الثلاثة، متَّى ومرقس ولوقا، هذه الجملة المُتفَجِّرة بالنعمة نفسها: "مدَّ يسوع يده ولَمَسَ الرَّجُل". من المؤكَّد أنَّ شهقة كُبرى صدرت من الجمع- ألم يمنع موسى تَصَرُّفًا كهذا؟ ورُبَّما ارتجف الأبرص. كَم شَهرًا مَضَى حُرِمَ فيه ذلك الإنسان من الإحساس باللمسة الدافئة لجسد بشريٍّ يُلامس جَسَدَه؟ وبسبب هذه اللمسة الواحدة من يسوع، انتهى مرضه. لقد أُعيد السلام إلى حياته.

صَنَع تجاوب يسوع مع المرض نَمَطًا مُتكرِّرًا تبعته الكنيسة من بعده، ويستمرُّ المسيحيُّون في اتِّباعه في التعامُل مع المرضى والفقراء والمنبوذين. في حالة الجذام، رغم من أنَّ الكنيسة في بعض الأحيان تُضيف إلى بؤس هؤلاء الناس برسالة "ملعونين من الله"، ففي الوقت نفسه، يظهر من حين إلى آخر أفرادٌ يقودون الطريق نحو العلاج. بعض الطوائف المسيحيَّة كرَّست نفسها لرعاية مرضى الجذام، كما أنَّ الاختراقات العلميَّة في هذا المجال، جاءت من مُرسَلين، وذلك لأنَّهم كانوا الوحيدين الذين قَبِلوا العمل مع مرضى الجذام.

الأمُّ تيريزا، التي تُدير الراهبات التابعات لها عيادة ومصحَّة لمرضى الجذام، قالت ذات مرَّة: "لدينا دواءٌ للمرضى بأمراض مثل الجذام. لكنَّ هذه الأدوية لا تُعالج المشكلة الأساسيَّة، وهي مرض الرفض. هذا المرض هو ما تحاول أخواتي الراهبات علاجه". وأضافت أنَّ المرضى والفقراء يعانون الرفض أكثر من الاحتياج المادِّيّ".

أخبرني أحد مدمني الخمر في أُستراليا أنَّه عندما كان يمشي في الشارع كان يسمع خطوات كلِّ من يسير نحوه أو يجتازه تُسرِعُ بعيدًا. إنَّ الوحدة والشعور بالرفض هما الفقر الأشدُّ وطأة ". لا يحتاج المرء أن يكون

طبيبًا أو صانع معجزات لكي يُسدِّد هذا الاحتياج.

من كتاب: يسوع الذي لم أكن أعرفه

أيُّما أيسر؟

تحكي الأناجيل عن شخص مشلول أراد بشدَّة أن يُقابل يسوع حتَّى أنَّه تكلَّم مع أصدقائه ليعملوا فتحة في سقف الغرفة التي كان فيها يسوع ويُدَلُّوه من خلالها! الرجل الذي قضى حياته في وضع أفقيٍّ سوف تمرُّ به لحظة واحدة من الشهرة العموديَّة.

من الواضح أنَّ يسوع كان يستمتع بمُقاطَعَة الناس له. لقد كان ينبهر دائمًا بالإيمان القويِّ عندما يأتي من أقلِّ الناس توقُّعًا. ظهر هذا النوعُ من الإيمان في تلك الفرقة المُكوَّنة من أربعة رجال. لكنَّ ردَّ فعل يسوع هذا حَيَّرَ الحاضرين. عندما رأي يسوع إيمانَهُم (وهذا يؤكِّد دور الأصدقاء الأربعة في الشفاء)، قال للمفلوج: "يا بُنيَّ، لا تَخَف. مغفورة لك خطاياك".

ما دخل الخطيَّة بالأمر؟ ومَن يكون يسوع ليغفر خطايا إنسان؟

أَسكَتَ يسوع الجدل بكلمات غامضة بدا أنَّها تُلَخِّص مَوقِفَهُ من الشفاء الجسديِّ: "أيُّما أيسر أن يُقال للمفلوج: «مغفورة لك خطاياك» أم أن يقال: «قُم وامشِ»؟". ولكي يُثبت وجهةَ نَظَره، بكلمة فقط، قام المشلول ووقف على قدميه، ولَفَّ الحَشيَّة التي كان يرقدُ عليها ومضى إلى بيته.

لم يقابل يسوع مَرضًا لم يقدر أن يشفيه، ولم يصادفْه عيبٌ خَلْقيٌّ لم يُصَحِّحْه، ولا شيطان لم يستطع إخراجه. لكنَّ غفران الخطايا يستلزم عملًا من ناحية المُستقبِل للغفران، وبعض ممَّن استمعوا لكلمات يسوع شديدة القوَّة عن النعمة والغفران مَضَوا غَيرَ تائبين.

"ولكن لكَيْ تعلَموا أنَّ لابنِ الإنسانِ سُلطانًا علَى الأرضِ أنْ يَغفِرَ الخطايا"، قالها يسوع بينما شفى الرجُل مقدِّمًا للمُتَشَكِّكين مثالًا توضيحيًّا فيه يخدم "الأدنى" ما هو "أسمى". لقد كان يسوع يعلم أنَّ للمرض الروحيَّ تداعياتٍ أسوأ من أيِّ مرض جسديّ. كُلُّ من شُفوا سوف يموتون في النهاية- ثُمَّ ماذا؟ لم يأت يسوع في المقام الأوَّل لكي يشفي خلايا الأجساد، بل لكي يشفي النفوس.

ما أسهل علينا، نحن الذين نعيش في أجساد مادِّيَّة، أن نُقلِّل من قيمة عالَم الروح. لقد خطر في بالي أنَّه رغم أنَّ يسوع كَرَّسَ وقتًا طويلًا يتكلَّم عن الرياء والتزمُّت والكبرياء، لا أعرف أيَّة خدمة مسيحيَّة على التلفاز كَرَّسَت نفسها لشفاء المشكلات "الروحيَّة" هذه؛ لكنَّني أعرف الكثير من المراكز التي تُركِّز على شفاء المشكلات الجسديَّة. عن نفسي، كلَّما أبدأ بالشعور بالكبرياء، أتذكَّر أنَّني بسهولة أتعذَّب من أقلِّ نوبة من الألم الجسديّ، وأنَّني قَلَّما أشعر بالألم من الخطيَّة.

من كتاب: يسوع الذي لم أكن أعرفه

٥ آب/أغسطس

حصيلة ارتحال

لقد قضيتُ الخريف الماضي أُطارِدُ حقيبة ملابسي من مدينة إلى مدينة طوال رحلة في المملكة المتَّحدة، والولايات المتَّحدة، بينما كُنتُ أقدِّم كتابي الجديد عن الصلاة. وفي الطريق، حصلتُ على رؤية شاملة للكنيسة.

يبدو المسيحيُّون في بريطانيا العُظمى أكثر جدِّيَّة بشأن إيمانهم من نُظرائهم في الولايات المتَّحدة. كان جمهور المستمعين البريطانيِّين يُبدون جوعًا إلى المُحتوى، في حين يُقبَل المُحتوى في أميركا بأفضل صورة عندما يكونُ مُغلَّفًا بعناصر التسلية.

وإذا كنتَ ممَّن يبنون استنتاجاتهم من شبكة سي. أن. أن، فستنظر إلى المسيحيِّين، ولا سيَّما الإنجيليِّين المحافظين، لكونهم مجرَّد كُتلة تصويتيَّة يتملَّقهم السياسيُّون ويناورون معهم. لكنَّني في الوقت نفسه قابلتُ عددًا لا حصر له من المسيحيِّين العاديِّين الذين يُكرِّسون أنفُسَهُم لقضايا مُلِحَّة مثل المُشرَّدين في پنسلفانيا، والمتسرِّبين من التعليم في أحياء نيوجيرسي الفقيرة، والطلبة من أصول آسيويَّة في جامعة هارڤرد، والمديرين التنفيذيِّين في سيليكون ڤالي (وادي السيليكون)، فضلًا عن الرحلات الإرساليَّة إلى البُلدان النامية.

لا يزال العالم ملآنًا بالألم. والكنيسة، رغم كلِّ أخطائها ومناطق فشلها، لا تزال مكانًا لشفاء الجروح والبحث عن المعنى في حالات الانكسار والصراع في العالم. قال لي رجلٌ مُسنٌّ يمشي بخطوات صغيرة تَحُفُّ بالأرض ذات مرَّة: "لقد أعطاني الله مرض پاركنسون. كيف يُمكنني أن أثق أنَّه يستمع إلى ما أقوله في الصلاة؟". قالت لي سيِّدة إنَّها كانت مُستمِرَّة في الصلاة بحرارة طوال ١٩ عامًا من العلاقة الزوجيَّة المُسيئة. وسمعتُ عن محاولاتِ انتحار، وعيوب خلقيَّة للأطفال المولودين، وأطفال صدمتهم شاحنات ومراهقات تعرَّضن للاغتصاب. وقالت لي امرأة، هي الآن خادمة متفرِّغة، عن فترة مُظلمة من حياتها بعد وفاة ابنها حيث قضت ١٨ شهرًا لا تستطيع أن تُصلِّي، بعدها صَرَخَتْ فجأة قائلة: "يا ربُّ، لا أريد أن أموت هكذا، مقطوعة الاتِّصال بك!". وبالرغم من ذلك، فقد قَضَتْ ستَّة شهور أُخرى بعد ذلك قبل أن تستطيع أن تُصلِّي مرَّة أخرى.

في أحد الاجتماعات، جاءت فتاة في العشرين من عُمرها إلى مُكبِّر الصوت ووَبَّختني لأنَّني لا آخذُ بصورة حَرفيَّة وعودَ الكتاب المقدَّس بخصوص الإيمان الذي يَنقُل الجبال. وافقتها، وقُلت إنَّني بالفعل أحتاج إلى جرعة إضافيَّة مِن إيمان الأطفال الصادق ذاك، لكنَّني في الوقت نفسه لا أستطيع أن أُسيئ إلى إيمان هؤلاء الذين يتألَّمون بأن أقول لهم إنَّ إيمانهم ناقص بصورة ما. مِن مثلِ هذه النفوس، أتعلَّم أنَّ الحياة ليست

مُشكلة تُحَلّ، ولكنَّها سُرٌّ غامِضٌ يُعاش. لا تُقَدِّم الصلاة ضمانًا أكيدًا، لكن الوعد الأكيد هو أنَّنا لسنا متروكين لنحيا هذا السرَّ الغامض بمفردنا.

عمود "الصفحة الخلفيَّة"، مجلَّة المسيحيَّة اليوم، عدد آذار/ مارس ٢٠٠٧م

٦ آب/أغسطس

السفر مع وسلي

في رحلتي عَبر بريطانيا، أحضَرتُ معي لقراءاتي الصباحيَّة مذكِّرات جون وسلي، وهي مذكِّرات يوميَّة لذلك المُبشِّر الذي لا يكِلُّ ولا يَمِلّ. وبالمُصادَفة، في بعض الأيَّام، كُنتُ أقرأ عن رحلة وسلي إلى مدينةٍ كُنتُ على موعد لزيارتها في تلك الأُمسيَّة.

لكن يا لَهُ من اختلاف! فقد كُنتُ أستقِلُّ سيَّارة مريحة بين المُدُن وأتكلَّم في أمسيَّات محجوزة مُسَبَّقًا أمام جمهور ودود. أمَّا وسلي، فكان يمتطي جوادًا تحت الأمطار والثلج، ويتكلَّم أربع أو خمس مرَّات في اليوم أمام جماهير عريضة في العراء، وكان يواجه مُعارِضين غاضبين.

وعندما انتهيت من مذكِّرات وسلي، انبهرتُ بقدرته على التحمُّل، وأسلوب حياته المُدَقِّق، وتكريسه المُطلق لمجموعات المؤمنين التي كانت تنمو وتتكاثر عبر بريطانيا. على الجانب الآخر، لم أستطع إلَّا أن أُلاحظ عدم تقدير وسلي لجمال الطبيعة وغِنى الثقافة المُحيطَيْن به. فمثلًا، عندما كان يتأمَّل حديقة زهورٍ كان ينتقل بسُرعة إلى العالم الروحيِّ ويكتب: "ماذا يُمكن أن يُسِرَّ المَرءَ إلَّا معرفة محبَّة الله". وعندما زار واحدًا من أعظم مباني إنكلترا التاريخيَّة كتب: "ما أقصر الوقت المُتبقِّي لهذا البيت! نعم، فالأرضُ كُلُّها سوف تحترق!".

كيف يُمكننا أن نحتفل بهذه الحياة وعطاياها من الفنِّ وجمال الطبيعة والموسيقا والحُبِّ البشريِّ، ونحن في الوقت نفسه نخدم الفقراء ونكنز لأنفسنا كنوزًا في ملكوت السموات؟

عَبَّرَ وسلي ذات مرَّة عن خطورة الغِنى قائلًا: "لا أرى إمكانيَّة، بحسب طبيعة الأشياء، أن تستمرَّ أيَّةُ نهضة دينيَّة لوقت طويل. لأنَّ الدين بالضرورة يُنتج نشاطًا في العمل وبساطة في الإنفاق، وهذان الأمران لا يُمكن إلَّا أن يُنتجا ثروة. لكن كُلَّما زادت الثروة، زاد الكبرياء، والغضب، ومحبَّة العالم بكلِّ صُورها". لقد عرفتُ أنَّه إذا استمرَّ النمط الحادث، فلن يكون هناك مسيحيُّون منتمون إلى طائفة الميثوديست في إنكلترا بعد نحو ثلاثين سنة.

وسرعان ما سافَرَت أفكاري إلى بلدي، التي هي الأغنى في العالم، لكنَّها، على الأقلِّ حتَّى الآن، واحدة من أكثر البلاد تديُّنًا. وتساءَلت: ما الذي سوف يتعلَّمه المؤرِّخون عن الكنيسة الأميركيَّة المُعاصِرة بعد مئتَي سنة من الآن؟ قفز إلى ذهني اقتباسٌ من جي. كاي. تشسترتون: "من السهل جدًّا أن تَسقُط: يوجد عددٌ لامُتناهٍ من الزوايا التي منها يمُكن أن يسقط المرء، لكنَّ زاوية واحدة تحفظ اتِّزانه ليقف".

عمود "الصفحة الخلفيَّة"، مجلَّة المسيحيَّة اليوم، عدد تشرين الثاني/ نوڤمبر ٢٠٠٧م

٧ آب/أغسطس

ماضٍ مُخزٍ

لقد تَرَعرَعتُ عُنصُريًّا، وأتذكَّر جيِّدًا عندما كان الجنوب يُمارس شكلًا قانونيًّا من الفصل العُنصريّ. كانت المحالُّ في وسط مدينة أتلانتا تضمُّ ثلاث دورات مياه: واحدة للرجال البِيض، وواحدة للنساء البِيض، وواحدة لذوي البشرة الملوَّنة. كانت محطَّات البنزين تضمُّ صنبورَيْن، واحد للبيض وواحد لذوي البشرة الملوَّنة. كانت الفنادق والمطاعم تخدم العملاء البيض فقط، وعندما جعل قانون الحقوق المدنيَّة من هذه الممارسات غير قانونيَّة، أغلق الكثير من أصحاب المؤسَّسات منشآتهم.

كان ليستر مادوكس (Lester Maddox) الذي انتُخِب فيما بعد حاكمًا لولاية جورجيا، واحدًا من أصحاب المطاعم المُحتَجِّين على هذا القانون الجديد، وبعد أن أغلق مطعمه للدجاج، افتتح نُصبًا تذكاريًّا لتخليد ذكرى ما سمَّاه "موت الحُرِّيَّة"، وصنع ما يُشبه ميثاق الحقوق الجديد ووَضَعه في كَفَنٍ مُبطَّن باللون الأسود. ولكي يكسب عيشه، كان يبيع العِصِيَّ الخشبيَّة ومقابض الفؤوس في ثلاث أحجام- الأب والأمُّ والطفل- وهي نُسَخٌ من العِصِيِّ الغَليظة التي كانت الشرطة تضربُ بها المتظاهرين المدافعين عن الحقوق المدنيَّة. وقد اشترَيتُ واحدة من هذه العِصِيِّ بنقود كسبتها من بيع الصحف.

كان لستر مادوكس في بعض الأحيان يحضر كنيستي (كانت أخته عضوًا فيها) التي فيها تعلَّمتُ حُجَّة لاهوتيَّة مُلتوية تعلِّل العنصريَّة.

وفي الستِّينيَّات، عيَّن مجلس الشمامسة في كنيستي فِرقَ مُراقبة لتُراقب أيَّام الأحد مداخل الكنيسة خشية أن يُحاول واحد من السود "المشاغبين" دخول الكنيسة.

وعندما أقرَّ الكونغرس قانون الحقوق المدنيَّة، أسَّست كنيستنا مدرسة خاصَّة لتكونَ ملاذًا للبيض، وتكون مُغلَقَة تمامًا في وجه التلاميذ السود. في ذلك الوقت، ترك كنيستنا بعض الأعضاء "المتحرِّرين" اعتراضًا على رَفض حَضانة الكنيسة قبول ابنة أحد معلِّمي الكتاب المقدَّس السود، لكنَّ أغلبنا أقرَّ هذا القرار برفض الطفلة. وبعد مرور سنة، رفض مجلس الكنيسة طالبًا منتميًا لمعهد كارڤر للكتاب المقدَّس (Carver Bible Institute) تقدَّم لعضويَّة الكنيسة (كان اسمه توني إيڤانز [Tony Evans] الذي أصبح بعد ذلك ذلك الراعي والمتكلِّم الشهير).

كُنَّا نُطلق على مارتن لوثر كنغ تسمية مارتن لوسيفر كون (أي الشيطان حيوان الراكون بغيض الرائحة). وكُنَّا نقول إنَّه شيوعيٌّ وعميلٌ ماركسيٌّ يتظاهر بكونه خادمًا مسيحيًّا. وللأسف مَرَّ وقتٌ طويل قبل أن أصبحتُ أُقَدِّر القوَّة الأخلاقيَّة لهذا الرجل، الذي رُبَّما، أكثر من أيِّ شخص آخر، حَمى الجنوب من حرب

عنصريَّة صريحة.

من كتاب: ما أعجب النعمة

٨ آب/أغسطس

قوَّة الروح

سَجَّلَ مارتن لوثر كنغ صراعَهُ مع الغُفران في كتابه "**خطاب من سجن مدينة برمنغهام**". أمَّا خارج السجن، فكان القسُس الجنوبيُّون يهاجمونه حاسبين إيَّاه شيوعيًّا، والجموع يصيحون "اشنقوا الزنجيَّ!"، وكان رجال الشرطة يضربون بهراواتِهم مُناصريه العُزَّل. كتب كِنغ أنَّه احتاج لأن يصومَ أيَّام عدَّة لكي يحصل على القوَّة الروحيَّة اللازمة لكي يستطيع أن يغفر لأعدائه.

بدَفع الشَرِّ ليَخرُجَ إلى العَلَن، كان كنغ يحاول أن يُخاطِب مخزون الغضب الأخلاقيِّ لدى الأمَّة. وبعد أحداث مدينة سيلما في ولاية ألاباما، فاض هذا الغضب. ففي سيلما، اخترق الجنود المُمتَطين صهوة جيادهم جموع المُتظاهرين بحوافر جيادِهِم وهُم يلوحون بهراواتِهِم يمينًا ويسارًا مُهَشِّمينَ الرؤوس وطارحين الأجساد أرضًا. وبينما كان البيض على الجانبين يهتفون ويلوِّحون، كان الجنود يُطلِقونَ الغاز المُسيِّل للدموع على جموع المتظاهرين.

شاهَدَ أغلب الأميركيِّين أوَّل لمحة من هذا المشهد عندما قاطَعَت قناة إيه. بي. سي. عرضها لفيلم يوم الأحد، الذي كان وقتها فيلم محاكمة نورمبرغ (Judgment at Nuremberg)، لتذيع تصويرًا لهذه الأحداث. ما رآه المشاهدون يُبثُّ بثًّا حيًّا من ألاباما كان يحمل شَبَهًا مُفزعًا لما كانوا يشاهدونه لتوِّهم في الفيلم السينمائيِّ الذي كان يُصوِّر فظائع النازيَّة في ألمانيا. وبعد ذلك بثمانية أيَّام قدَّمَ الرئيس ليندن جونسون مشروع قانون حقوق التصويت لسنة ١٩٦٥م للكونغرس.

لقد طَوَّر كنغ استراتيجيَّة رفيعة للحَرب، خاضها بقوَّة النعمة لا بقوَّة البارود. لم يرفض بتاتًا مُقابَلة الذين كانوا يُعادونه، إذ كان يقاوم سياسات لا شخصيَّات. والأهمُّ من كلِّ ذلك هو أنَّه كان يُقابل العُنف بالسِّلم، والكراهية بالمحبَّة. لقد كان يعظ مناصريه بعبارات مثل: "علينا ألَّا نطفئ عطشنا إلى الحُرِّيَّة بالشُّرب من كأس المرارة والكراهيّة".

من كتاب: ما أعجب النعمة

٩ آب/أغسطس

وقت للتوبة

في الرابع من تشرين الثاني/ نوفمبر سنة ٢٠٠٨م، سافرتُ إلى مَمفيس بالطائرة قبل إغلاق منافذ الاقتراع في الشرق مُباشرة. وعندما هبَطتْ الطائرة، عرفتُ أنَّ الولايات المتَّحدة قد انتخبت أوَّل رئيسٍ من أصل أفريقيّ.

في اليوم التالي، تجوَّلتُ في متحف الحقوق المدنيَّة الذي بُنِي حول النُّزُل الذي اغتيل فيه مارتن لوثر كنغ. وعلى مدى ساعات، درستُ المعروضات الخاصَّة بالمشاهد التي أعرفها جيِّدًا حينما كُنتُ مُراهقًا. طلبة الجامعة الشجعان في غرينزبورو في ولاية كارولينا الشماليَّة، الذين جلسوا إلى طاولة الغداء بينما أطفأ جماعة من الحَمقى البيض سجائرهم في رؤوسهم، ثمَّ دفعوهُم من فوق الكراسيِّ المرتَفِعة للطاولة ليسقطوا على الأرض ثُمَّ أخذوا يركلونهم بأقدامهم، بينما كان رجال الشرطة يشاهدون ويضحكون. وحافلة جولة الحُرِّيَّة (Freedom Ride) التي أُحرقَت في ألاباما. وصور الجثث التي لم تُدفن في ميسيسيپِّي. بالنظر إلى هذا التاريخ، يبدو من غير المعقول تَخَيُّل كُلِّ هذا العُنف يُوَجَّه نحو أناسٍ كانوا فقط يطالبون بأبسط مُكوِّنات الكرامة الإنسانيَّة: حقِّ التصويت، والأكل في المطاعم والإقامة في النُّزُل، والالتحاق بالجامعة.

وخارج المتحف، رأيتُ كلمات من خطاب كنغ الأخير: "لقد وصلتُ إلى قمَّة الجبل" منحوتةً في لوحات معدنيَّة. لقد كانت كلمات اشتعلت في حَنجَرَتي في يومٍ مُشمس بضع ساعاتٍ بعد انتخاب باراك أوباما: "رُبَّما لن أصل إلى هناك معكم، لكنِّي أريدكم أن تعلموا أنَّنا، نحن الشعب، سوف نصل إلى أرض الموعد". في اليوم التالي، غرِق كنغ في بركة من دمائه في البُقعة نفسها التي كُنتُ أقفُ فيها.

بلا شكٍّ لا أنتقص من أهمِّيَّة الخلاف في السياسات بين أوباما والكثير من المسيحيِّين. لكن على الأقلِّ أقول: هل نستطيع أن نستخدم هذه اللحظة بصفتها وقتًا للتأمُّل، ووقتًا للتوبة عن نصيبنا في خطيَّة العُنصريَّة التي تَمَيَّزَت هذه الأمَّة بها مُنذ تأسيسها؟ لقد استغرق المعمدانيِّين الجنوبيِّين ١٥٠ سنة لكي يعتذروا عن مساندتهم لتجارة الرقِّ. ولم تعترف جامعة بوب جونز حتَّى عام ٢٠٠٨م بخطئها عندما منعت الطلبة السود من الالتحاق بها قبل سنة ١٩٧١م، وكلمات الاعتذار التي قالوها في هذه المناسبة كانت: "لقد فشلنا في تمثيل الربِّ بصورة دقيقة، ولم نستطع إتمام وصيَّة محبَّة الآخرين محبَّتنا لأنفُسنا". هذه الكلمات تنطبق علينا جميعًا، لأنَّ كثيرًا من الإنجيليِّين المحافظين قاوموا بشدَّة حركة الحقوق المدنيَّة. هل نستطيع الآن أن نتجاوب مع دعوة قائدٍ مثل كنغ للشفاء والمُصالحة العرقيَّة؟

عمود "الصفحة الخلفيَّة"، مجلَّة المسيحيَّة اليوم، عدد آذار/ مارس ٢٠٠٩م

١٠ آب/أغسطس

الارتداد نحو الأمام

زُرتُ صديقَيْن يعملان في خدمة المناطق الفقيرة في المدينة، وسألت كلًّا منهما السؤال نفسه: "بصورةٍ تقليديَّة، يقول لنا الأشخاص الكنسيُّون أنَّنا عندما نُخطئ، أو «نرتدُّ» فإنَّ علاقتنا بالله تنقطع. أنتم تعملون مع هؤلاء الذين يعيشون مع الفشل بصورة يوميَّة. هل وجدتم أنَّ الارتداد يدفعهم بعيدًا عن الله أم يُقرِّبهُم منه؟".

كانت إجابة بَد (Bud)، الذي يعمل مع مُدمني المخدِّرات سريعة: "بلا أدنى شكٍّ، إنَّها تدفعهم نحوه. أستطيع أن أقصَّ عليك قصَّة تلو الأخرى عن مُدمنين استسلموا لإدمانهم، عالمين فظاعة ما يرتكبونه في حقِّ أنفسهم وحقِّ أُسَرِهِم. وعندما أُراقبهم، فإنَّني أفهم قدرة الشرِّ في هذا العالم. الشرُّ هو ما يريدون أكثر من أيِّ شيء آخر أن يقاوموه، لكنَّهم عاجزون. لكنَّ لحظات الضعف هذه هي اللحظات نفسها التي تجعلهم أقرب ما يكونون من اللجوء إلى الله طالبين المعونة. لقد فشلوا فشلًا ذريعًا. وماذا الآن؟ هل يمكنهم أن ينهضوا ويواصلوا، أم يظلُّوا مشلولين؟ بنعمة الله، بعض منهم ينهضون. في واقع الأمر، لقد قرَّرتُ أنَّ هناك مفتاحًا واحدًا يُحدِّد ما إذا كان مُدمن المخدِّرات سوف يُشفى أم لا: هو أنَّه يُصَدِّق بعُمقٍ أنَّه ابنٌ لله يُمكن أن يُغفَر لهُ، لا ابنًا لله لا يفشل بتاتًا، وإنَّما ابنٌ يُمكنُ أن يُغفر له".

كذلك أيضا ديڤيد الذي يُدير مركز رعاية صحِّيَّة لمرضى الإيدز، يوافق على ذلك ويقول: "لم أقابِل أشخاصًا روحيِّين أكثر من هؤلاء الرجال الذين في هذا المركز ممَّن يواجهون الموتَ عالمين أنَّهم بصورةٍ أو بأُخرى الذين جلبوا المرض على أنفسهم. أغلبهم التقط ڤيروس نقص المناعة من المُمارسات الجنسيَّة المُنفَلِتَة. إنَّ حياتَهُم تَتَميَّز بالفشل. لا أستطيع أن أشرح ذلك، لكنَّ لدى هؤلاء الرجال روحانيَّةً، واتِّصالًا بالله، لم أره في أيِّ مكانٍ آخر".

كتب فرنسيس السالسي (Francis de Sales): "الآن، كُلَّما ازدادت معرفتنا ببؤسنا، صارت ثقتنا بصلاح الله ورحمته أعمق؛ لأنَّ الرحمة والبؤس يتَّصلان بصورةٍ وثيقة، حتَّى أنَّ أحدهما لا يُمكن ممارسته دون الآخر". وينتقد فرنسيس بشدَّة هؤلاء الذين سقطوا، ثُمَّ غرقوا في بؤسهم قائلين: "ما أشدَّ بؤسي! إنَّني لا أصلُحُ لشيء". إنَّ التابِعين الحقيقيِّين لله يقومون من سقطاتهم بهدوء وتواضع وشجاعة.

من كتاب: محاولة اللقاء مع إله غير منظور

١١ آب/أغسطس

نَخدم أو نموت

أخبرني د. پول براند عن واحدٍ من أبرز زُوَّاره في ڤيلور (Vellore) في الهند، حيث يدير مستشفى لعلاج البرص. ذات يوم جاءَهُم راهبٌ فرنسيٌّ اسمه پيير (Pierre)، وطوال الأسابيع القليلة التالية مكث مع د. بول براند وزوجته وحكى لهم قصَّة حياته. وُلِدَ پيير في أُسرة عريقة، وخدم في البرلمان الفرنسيِّ حتَّى أصبح يشعر بخيبة الأمل بسبب بُطء إيقاع التغيير السياسيّ. وبعد الحرب العالميَّة الثانية، أصبح الآلاف مُشرَّدين في الشوارع يَستَعطون. ولم يستطع پيير أن يحتمل الجدل الذي لا ينتهي في البرلمان بين النبلاء والسياسيِّين، في حين يموت المُشَرَّدون جوعًا خارجًا في الشوارع.

وطوال شتاءٍ قارس بصورة استثنائيَّة، مات الكثير من المتسوِّلين الپاريسيِّين مُتجمِّدين في الشوارع. فاستقال پيير من منصبه السياسيِّ وأصبح راهبًا كاثوليكيًّا لكي يخدم بينهم. وأدرك أنَّ ما يستطيع أن يفعله هو أن يُنظِّم حياة هؤلاء المتسوِّلين؛ فبدأ بتعليمهم القيام بأعمال بسيطة بصورة أفضل، وقادَهُم أن يقسِّموا أنفسهم فِرَقًا تطوف المدينة لجمع العَبْوات الفارغة والخِرَق البالية. ثُمَّ قادهم إلى بناء مخزن من الطوب المُهمَل، وبدأ بإنشاء صناعة جديدة فيها يفرزون كمِّيَّات ضخمة من العَبْوات المُستعملة التي ترميها الفنادق والمحالُّ والشركات ويعيدون تصنيعها.

وفي النهاية، ألهم پيير هؤلاء المتسوِّلين بتحمُّل مسؤوليَّة مساعدة متسوِّل آخر أفقر منه. ونجح المشروع، وفي سنواتٍ قليلة أُسِّست مؤسَّسة خيريَّة باسم عمواس. لكنَّ هذه المؤسَّسة واجهت أزمة كبيرة؛ فبعد سنواتٍ من هذا العمل، لم يَعُد هناك متسوِّلون في پاريس. فأعلن پيير قائلًا: "يجب أن يجد فريقي من المتسوِّلين من يساعدونه! إذا لم يوجد من هُم أفقر من هؤلاء المتسوِّلين، سوف تبدأ هذه الحركة بالتحوُّل نحو الداخل. سوف يُصبحون مؤسَّسة غنيَّة قويَّة، وسوف يُفقَد التأثير الروحيُّ تمامًا، عندما لا يجدون من يخدمونهم".

وجد الأب پيير ضالَّتَهُ في مُستعمرة جُذامٍ في الهند، تَبعُدُ ثمانية آلاف كيلومتر عن پاريس، حيث تَقابَل مع مئات من مرضى الجُذام، الكثيرون منهم ينتمون إلى طبقة المنبوذين في الهند، وحالتهم أسوأ بكثير من أسوأ متسوِّلي پاريس. وعندما قابَلهم، ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة. وعند عودته إلى المتسوِّلين في فرنسا، وكَّلهم ببناء جناح في مستشفى ڤيلور في الهند. وعندما كان القائمون على المستشفى في الهند يشكرونه من أجل هذه العطيَّة السخيَّة، كان ردُّه: "لا! لا! أنتم الذين أنقذتمونا، يجب أن نخدم وإلَّا نَموت".

من كتاب: محاولة اللقاء مع إله غير منظور

١٢ آب/أغسطس

الاستسلام للسقوط

"مَنْ وجَدَ حَياتَهُ يُضيعُها، ومَنْ أضاعَ حَياتَهُ مِنْ أجلي يَجِدُها". كَرَّرَ يسوع هذه العبارة ستَّ مرَّات في الأناجيل. تُمَثِّل حياة يسوع نفسها هذا المبدأ، لأنَّه اختبر الفَقد بمُجَرَّد أن كَرَّسَ نفسه للخدمة العلنيَّة؛ فكانت الجموع تتبعه بمطالب متزايدة لا تنتهي. ثُمَّ بدأت المقاومة. وفي النهاية فقَدَ حياته.

تَكَلَّم برنارد دي كليرڤو (Bernard of Clairveaux) عن أربعة مراحل للنموِّ الروحيِّ: ١) أن نُحبَّ أنفسنا من أجل أنفسنا؛ ٢) أن نُحبَّ الله من أجل أنفُسنا، وذلك مِن أجلِ ما يستطيع الله أن يفعله لنا؛ ٣) أن نحبَّ الله من أجل الله، بلا أنانيَّة؛ ٤) وأخيرًا، أن نحبَّ أنفسنا من أجل الله، واعين بمحبَّة الله العظيمة لنا. ويمكنُني أن أُضيف مرحلة أخرى، تُمَثِّل مرحلة الأبوَّة أو الأمومة الروحيَّة: وهي أن نُحبَّ الآخرين من أجل الله.

إنَّ أفضل تأثير للمسيحيِّين في العالم هو تقديمِهِم للمَحَبَّة المُضحِّية، وهي القوَّة الأعظم والأقدر على تغيير العالم. إنَّ الآباء والأمَّهات يُعَبِّرون عن محبَّتهم بالسهر طوال الليل مع أطفالهم المَرضى، والعمل في وظيفتين لدفع مصاريف المدارس، مُضَحِّين برغباتهم الشخصيَّة من أجل أبنائهم وبناتهم. وكُلُّ من يتبع يسوع يتعلَّم نمطًا مشابهًا للحياة. إنَّ ملكوت الله يُقدِّم نفسه للآخرين بمحبَّة، لأنَّ هذا ببساطة هو ما فعله الله لنا.

لم ينتقص يسوع من أهمِّيَّة محبَّة النفس: كانت وصيَّته أن تُحِبَّ قريبك كنَفسَك. لكنَّ الاقتراح الذي قَدَّمَهُ هو أنَّ محبَّة النفس الحقيقيَّة، والإشباع الذاتيِّ الأكمل، يأتي من خدمة الآخرين، لا من النرجسيَّة والانحصار في الذات. إنَّنا نُطوِّر من أنفسنا، أو بكلماتٍ أُخرى، "نُحَقِّق" ذواتنا لكي ما نُشارك هذه العطايا والمواهب التي نُطوِّرها في أنفسنا مع آخرين كانوا أقلَّ حظًّا منَّا في هذه الأمور.

بعض طلبة الكلِّيَّات، يخرجون إلى الطبيعة البرِّيَّة في مُمارسات تأمُّليَّة كي "يجدوا أنفسهم". أمَّا الاقتراح الذي يقدِّمه يسوع لمثل هؤلاء هو أنَّ اكتشاف النفس لا يكون بالتأمُّل في الداخل، وإنَّما بالخروج من النفس إلى الآخرين، لا بالتأمُّل في النفس، بل بأعمال المحبَّة. في النهاية، كثيرًا ما تُثبتُ مقولة يسوع صِدقها: "من يضيع حياته، فهذا يجِدُها"؛ لأنَّ الاستسلام للسقوط، هو الذي يؤدِّي إلى الارتفاع.

من كتاب: محاولة اللقاء مع إله غير منظور

المحبَّة التي تحتمل

يتكلَّم الذين يصارعون مع معاناة طويلة العُمُر عَن دخول عنصر الإنهاك في المُعادلة. في البداية، مهما كان المرض، فإنَّهُم يَحصُلونَ على قَدرٍ منَ الاهتمام. تملأ البطاقات البريديَّة صندوق بريدهم، وتتزاحم باقات الزهور من أجلِ مكانٍ في المنزل. لكن مع الوقت، يتضاءل الاهتمام.

إنَّ المُشكلات المُزمنة التي لا تنتهي تزعجنا وتُحرِجنا. وفي كتابٍ من تأليف بتسي بيرنهام (Betsy Burnham) عن خبرتها الشخصيَّة، كتبت أنَّه في كلِّ مرَّة من المرَّات المتتالية التي فيها كانَ السرطان يُعاودُ الظهور، كان يأتي إليها عددٌ أقلُّ من الزوَّار. وعندما انتشَرَ المَرَض، أصبحت تَشعُر أكثر بالضعف والخوف والوحدة بصورة متزايدة. بعضٌ من أصدقائها المسيحيِّين أصبحوا يشعرون بالاستياء لأنَّ صلواتهم من أجل الشفاء لم تُستَجَب، كأنَّهم يلومونها أنَّها لم تَشفَ. هؤلاء فقدوا إيمانهم وابتعدوا، تاركين بتسي تشعر بالذنب وكراهية النفس فضلًا عن ألمها ومرضها الجسديّ.

ويُردِّدُ أهلُ الأطفال المصابين بعيوب خَلْقيَّة قصة بتسي نفسها. يبدأ الأمر بتعاطف واهتمام شديدَيْن عَقِب الولادة لكنَّه سرعان ما يخبو كلُّ شيء. وعندما تزداد احتياجات هؤلاء الأهل، وتتفاقم مشكلاتهم النفسيَّة والاجتماعيَّة، تكون عروض المساعدة قد تناقصت.

يضع بولس الرسول ضمن قائمة ثمر الروح، تلك الكلمة التي نُترجمها "طول أناة" وهي حرفيًّا تعني: المعاناة طويلة الأمد. إنَّنا نُحسِن صنيعًا إذا أعدنا إحياء هذه الكلمة وهذا المفهوم بحَرفيَّته لكي نُطبِّقهُ على أنواع المعاناة التي تدوم لوقت طويل.

سأقول هذا بحرص: إنَّني أومن أنَّنا في جسد المسيح مدعوُّون لإظهار المحبَّة عندما لا يبدو الله قريبًا ومُحِبًّا. الناس الذين يعانُون الألم، ولا سيَّما الذين يعانونه لوقتٍ طويل، عادة ما يشعرون أنَّ الله تركهم. لم يُعبِّر أحدٌ عن هذا أفضل من سي. أس. لويس في يوميَّاته المؤلمة التي احتفظ بها بعد وفاة زوجته ثُمَّ تحوَّلت في ما بعد إلى الكتاب "**مُراقبة الحُزن**" *(Grief Observed)*. يسجِّل لويس أنَّه في وقت احتياجه العميق، بدا الله بعيدًا جدًّا وغائبًا عن المشهد، وهو الذي كان يبدو دائمًا قريبًا. كما لو كان قد أغلق الباب في وجهه وأوصده من الداخل مرَّتين.

في بعض المرَّات، يجب أن نَنطِق بالصلوات التي لا يستطيع المتألِّم أن ينطق بها. وفي لحظات الألم أو الفقد الشديدَيْن، كثيرًا ما لا يُمكن استقبال محبَّة الله إلَّا من أشخاصٍ عاديِّين بلحم ودم مثلي ومثلك. بهذه الطريقة يُمكننا، بالفعل، أن نعمل بوصفنا جسد يسوع المسيح.

كُتيِّب مُساعدة المتألِّمين

شافون عاديُّون

لم يحاول حتَّى الله نفسه أن يُبرِّر الألم في رَدِّهِ على أيُّوب. داود، الملك العظيم، والرجل البارُّ أيُّوب، وفي النهاية ابن الله يسوع المسيح، كلُّهم تعاملوا مع الألم كما نتعامل معه نحن تمامًا. حاولوا تَجَنُّبَهُ، ورَأوهُ فَظيعًا، وفَعَلوا كُلَّ ما في وُسعِهِم لتخفيفه، وفي النهاية صرخوا إلى الله في يأس بسبب ذلك الألم. إنَّني شخصيًّا أجده مُحبِطًا ألَّا نحصل على إجابة شافية في النهاية لنُعطيها لَمَن يتألَّمون.

لكن إذا نظرنا إلى الأمر من زاوية أُخرى، فإنَّنا نجد المفاجأة وهي أنَّ غياب الإجابة هو في واقع الأمر أخبارٌ سارَّة. فعندما سألتُ أشخاصًا مُتألِّمين: "ما أكثر شيء ساعدك؟" لم يذكر أحدٌ اسمَ شَخصٍ يَحمل الدكتوراة من كلِّيَّة لاهوت جامعة ييل (Yale) مثلًا، أو أيِّ أستاذِ لاهوتٍ مشهور. إنَّ مملكة الألم مملكة ديمُقراطيَّة، وكلُّنا فيها نقف بجوار بعضنا مُجَرَّدِين من كلِّ شيء إلَّا إنسانيَّتنا الُمجرَّدة. كلُّنا لدينا القدرة نفسها على المساعدة، وهذه أخبار سارَّة.

لا يستطيع أحد أن يقدِّم عَبْوة محفوظٌ فيها "التجاوب الُمناسب مع لألم". ومهما عُدَّت بعض كلماتِ مُشجِّعة للكثيرين، سوف تُثبِتُ في مرحلةٍ ما فشلها عندما تُقَدَّمُ لإنسان مُعيَّن. وإذا ذهبتَ للمتألِّمين أنفسهم وسألتهم عن الأشياء التي خفَّفت عنهم، فلن تجد اتِّفاقًا. بعضهم يتذكَّر صديقًا ساعده بطريقة مَرِحة أن يُشتِّت انتباهه بعيدًا عن معاناته، في حين يظنُّ آخرون أنَّ مثل هذا الأسلوب مُهينٌ ويستخفُّ بالألم. آخرون يريدون مواجهة أمينة وصادقة ومُباشِرة، وغيرهم يرون أنَّ النقاش والكلام الكثير مُثير للاكتئاب.

على وجه العموم، فإنَّ ما يحتاج إليه المتألِّم هو المحبَّة؛ لأنَّ المحبَّة بصورةٍ فطريَّة هي التي تُحدِّد بدِقَّة ما يحتاج إليه الآخر. يُعبِّر جيان ڤانير مؤسِّس خدمة الفُلك (L'Arche) عن هذا الأمر جيِّدًا عندما يقول: "يطلبُ المجروحون الذين كسرهم الألم شيئًا واحدًا: قلبًا مُحِبًّا يُكرِّس نفسه لهُم- قلبًا ملآنًا بالرجاء لهم".

في واقع الأمر، فإنَّ إجابة السؤال: "كيف أُساعد المتألِّمين؟" هي نفسها إجابة السؤال: "كيف أُحبّ؟". وإذا سألتني عن فقرة كتابيَّة تعلِّمنا طريقة مساعدة المتألِّمين، فسوف أُشير لك إلى الأصحاح الثالث عشر من رِسالة كورنثوس الأولى وتصويرها البليغ للمحبَّة. هذا ما يحتاج إليه الُمتألِّم: المحبَّة، لا المعرفة والحكمة. وبحسب أسلوبه دائمًا، كان الله يستخدمُ دائمًا أشخاصًا عاديِّين لكي يحملوا شفاءه إلى المتألِّمين.

من كتاب: أين الله في وقت الألم؟

إحساس بالمكان

أشار أعضاء مجموعَةٍ للخِدمة في المستشفيات زُرتُها سابقًا إلى ما سمُّوه ظاهرة "الموت قبل الموت"، وهي تحدث عندما يَجعلُ أقارب المريض المُشرِفُ على الموت، بحُسن نيَّة، مريضَهم يموت قبل أن يموت، وذلك بأن يجعلوا شهوره الأخيرة دون مُشكلات. "لا. لا ينبغي أن تفعل ذلك! أعلم أنَّك كُنتَ دائمًا تُخرج القمامة، لكن ليس الآن. ليس في حالتك هذه. فلأُخرِجْها عنك"، أو "لا تُشغل نفسك بالفواتير. سوف تُسبِّب لنفسك قلقًا لا داعي له. سوف أتولَّى ذلك من الآن فصاعدًا".

وبالتَّدريج، فإنَّ كلَّ شيء يُعطي الإنسان شعورًا أنَّه لا يزال له دور في الحياة، يؤخذ منه. فمثلًا، تنصح الأمُّ ابنتها المريضة غير المتزوِّجة أن تبيع بيتها وتأتي لتعيش معها في بيتها. فتفعل ذلك، لتندهش أنَّها بذلك فَقَدَت إحساسها بهويَّتها الفرديَّة. وهكذا فإنَّ الإحساس بالقيمة والفاعليَّة، الذي تضاءَلَ بالفعل بسبب المرض، يتضاءل أكثر بسبب هذه النصائح.

من الواضح، أنَّ الإنسان المُصاب بمرض شديد يحتاج إلى الاعتماد على الآخرين ليواجه مطالب الحياة العمليَّة الصعبة. لكنَّ من السهل أن ننزلق في المساعدة الزائدة عن اللازم والتي تقضي على ما تبقَّى له من إحساس بالكرامة.

إنَّ المتألِّين في واقع الأمر يَشُكُّونَ في أنَّ هُناك مكانًا لهم في هذا العالم. عادة ما لا يستطيعون مواصلة العمل، والإجهاد بسبب المرض أو بسبب العلاج يجعل من كلِّ شيء أصعب. لكنَّهم، مثلنا جميعًا، يحتاجون إلى التمسُّك بشيء يُذكِّرهم أنَّ لهم مكانًا، وأنَّ الحياة لن تبقى سهلة عندما يختفون منها، وأنَّ موازنة البيت ستتقلقل دون خبرتهم الفذَّة التي طالما أبقتها ثابتة. الأصدقاء والأقارب الحُكماء يستطيعون استشعار ذلك الاتِّزان الدقيق بين عرض المساعدة من ناحية، وتقديم مساعدة أكثر من اللازم من ناحية أُخرى.

إنَّنا نعيش في ثقافة لا تُعطي "مكانًا" طبيعيًّا للمَرضى. نضعهم بعيدًا عن العيون، خلف جُدران المستشفيات ودور الرعاية. نجعلهم يستلقون في أسِرَّة، بلا شيء يشغل أوقاتهم سوى أجهزة التحكُّم في التلفاز.

إنَّنا، نحن أصدقاء وأحباب المرضى، يجب أن نبحث عن طرق لمساعدتهم تحافظ على إحساسهم بأنَّه لا يزال لهم مكان ومكانة. يرى بعض الناس أنَّ الحلَّ يتكوَّن من طرق عمليَّة جدًّا للخدمة، ويرى آخرون أنَّه، يمكن أن نقدِّم لهم فرصًا لمساعدة مرضى آخرين أشدَّ مرضًا منهم.

منظور للموت

منذ افتتاح دار القدِّيس كرستوفر لرعاية المسنِّين سنة ١٩٦٧م، استطاعت سيسيلي ساندرز (Cicely Sanders) والمُلقَّبة الآن بالسيِّدة سيسيلي، بعد أن كَرَّمتها الملكة إليزابيث الثانية أن تُقدِّم إلى ١٥ ألف شخص فرصة أن يموتوا بالطريقة التي يختارونها، دون تقنيات عالية تؤجِّل الموت بطريقة اصطناعيَّة. ويتضمَّن تصميم الدار الذي يحوي ٦٢ سريرًا الذي أنشأته كلَّ ما تَعَلَّمَته عن رعاية المحتَضَرِين. وتقول السيِّدة سيسيلي: "يستحقُّ كلُّ إنسان موتًا كريمًا". وهي تكرِّسُ كلَّ طاقتها لتقديم هذا الحقِّ لكلِّ مَرضَاها.

في البداية، تَدَرَّبَت ساندرز في مجال التمريض ورعاية حقوق المرضى. وقد جعلها عملها مع مرضى السرطان ومع المحتَضَرِين، ترى الأمر من منظور لا تستطيع أن تعلِّمه أيَّة مدرسة للتمريض. لقد وجدت سيسيلي أنَّه في المستشفيات الحديثة المزدحمة، يواجه المرضى الموتَ في حالة شديدة من الوحدة. وبدأت تشعُرُ بدافع داخليٍّ أن تقضي حياتها بين هؤلاء المرضى المحتَضَرِين.

وأصبحت ساندرز مؤهَّلة في الطبِّ سنة ١٩٥٧م في سنِّ التاسعة والثلاثين من عمرها. وبعد سنتين من ذلك، بينما كانت تقرأ كتاب تأمُّلات روحيَّة بعنوان "**النور اليوميّ**" *(Daily Light)* صادَفَت العدد المعروف من مزمور ٣٧: "سَلِّم للرب طريقك واتَّكل عليه وهو يُجري". عندئذٍ، شَعَرَت أنَّ الأوانَ قد آن لتعمل ما تشعر أنَّها قد دُعيت إليه. بعد يومٍ كامل من التأمُّل في الكنيسة المُلحَقة بالمُستشفى، بدأَتْ تكتب خطَّة العمل التي كانت قد اختمَرَت في ذهنها لسنواتٍ مَضَت. فقسَّمت أفكارها تحت عنوانَيْن كبيرَيْن: "الاحتياج" و "الخطَّة". ومن تلك الورقة وُلِدَت حركة دور رعاية المحتَضَرِين الحديثة.

وكما ترى سيسيلي، فإنَّ مُجتمع المحتَضَرِين يستقبل فوائد، ويقدِّم أيضًا فوائد. يحتاجُ المحتَضَرُون إلى رعاية الكنيسة وإمكانيَّاتها. لكنَّ الكنيسة أيضًا تحتاج إلى مجتمع المحتَضَرِين؛ فهُمْ يَستَدعون إلى وعينا الأمور الأبديَّة، ويُعلِّموننا أن نستمع، ويقدِّمون لنا طريقة لخدمة المسيح بخدمة الآخرين باسمه.

وتقول ساندرز: "إنَّ رؤيتي لخدمة المحتَضَرِين هي رؤية لله الذي يشاركهم رحلتهم أكثر ممَّا يستطيع أيُّ شخص منَّا، بمحبَّته المُضحِّية والغافِرة، وقوَّة عجزه- إن جاز التعبير- فهو إله لا يَمنع حدوث الأمور الصعبة التي تحدث في عالمه الحُرِّ والملآن بالخطر، لكنَّه يُصاحبنا بينما نجتازها".

"منظور للموت"، مجلَّة المسيحيَّة اليوم، ١٧ كانون الثاني/ ديسمبر ١٩٩٠م

١٧ آب/أغسطس

صراعنا الحقيقيُّ

تحاورت مع بوب سيپل (Bob Seiple) لمَّا كان رئيس هيئة الإغاثة "ورلد ڤيجين" (World Vision) بعد أن عاد لتَوِّه من رواندا وقت المجازر التي حدثت سنة ١٩٩٤م. قال لي وقتها إنَّه كان يقف على جسرٍ حين شاهد آلاف الجُثث تطفو تحته في النهر الذي أصبح لونه قرمزيًّا بسبب الدم. لقد قَتَلَ رجال قبائل الهوتو باستخدام المناجل نحو مليون من قبائل التوتسي- جيرانهم، وأعضاء كنائسهم نفسها، وزملائهم في المدارس- لأسباب لم يستطع أحد فهمها.

بدا سيپل مُرتجفًا بصورة سيِّئة بينما قال لي: "لقد كانت أزمة إيمان لي، ولا توجد تعبيرات تصف هذه الفظائع. استخدَمَ بعضهم كلمة "وحشيَّة"- لا، هذه إهانة للوحوش. الحيوانات تقتل لتأكل، وليس للمُتعة. يقتلون فريسة واحدة أو اثنتان في الوقت نفسه، لا مليونًا من فصيلتهم نفسها دون أدنى سبب".

وعندما كنتُ أستمع إلى سيپل، لم أستطع أنا أيضًا أن أجد أيَّة قوَّة في الطبيعة، تُفسِّر ما كان يحدث في رواندا. فقط قوَّة روحيَّة شرِّيرة من وراء هذا العالم يُمكن أن تكون التفسير- نوع القوى نفسها غير القابلة للتفسير التي جعلت هتلر يُبذِّر موارد ضروريَّة جدًّا في أثناء الحرب بأن يستخدمها في إبادة عرقيَّة لليهود.

لقد رأينا في الولايات المتَّحدة حديثًا، قوَّة روحيَّة مُظلمة مشابهة، وهي قوَّة الطمع التي دفعت مديري الشركات إلى امتصاص ملايين الدولارات في صورة أرباح، تاركين الشركات تتعرَّض للإفلاس، مُجْهِزين على مدَّخرات الحياة لآلاف من الموظَّفين الذين عَمِلوا بجدٍّ طوال عمرهم. وعندما واجه يسوع مثل هذه القوى الظلاميَّة التي كانت تدفع الناس إلى بناء قصور جميلة ومخازن غلال ضخمة، في حين كان الكثيرون في المنطقة في ذلك الوقت يعيشون عبيدًا. وبكلمات أخرى، عندما واجه يسوع نُظراء رؤساء مجالس الإدارات الطمَّاعين، استطاع أن يُميِّز أنَّ هذه قوى روحيَّة وأعطاها اسمًا روحيًّا وهو الإله الوثن مامون (المال).

لم أغيِّر إيماني بالقوى الروحيَّة الشرِّيرة؛ لأنِّي تعلَّمت شيئًا جديدًا عن العالَم. فقد تعلَّمت أن أُعيد صياغة ما أعرفه بالفعل بلُغة الكتاب المقدَّس. وأصبحت أقبل توكيد الرسول بولس أنَّ مصارعتنا الحقيقيَّة ليست مع لحم ودم، بل مع قوى غير مرئيَّة. إنَّ ما يحدُث على هذا الكوكب أكثر ما تستطيع عيوننا أن ترى.

من كتاب: إشاعات من عالم آخر

١٨ آب/أغسطس

تدنيس المال

كان يسوع ينظر إلى المال حاسبًا إيَّاه شيئًا ينبغي للإنسان أن يحمي نفسه منه، لا أن يرغب فيه. "حيثما يكون كنزك، فهناك يكون قلبك أيضًا". وهذه فكرة مُقلقة لمن يعيش منَّا في مجتمعات حافلةٍ بالكنوز المادِّيَّة الملموسة. لقد صَوَّرَ المسيحُ المَالَ بصفته قوَةً روحيَّةً سلبيَّة، فهو صَنم اسمه "مامون" يقاوم ملكوت السموات، لذلك قال يسوع بصراحةٍ شديدة: "لا تقدر أن تخدم سيِّدين: الله أو المال".

ولحماية أنفُسنا، تَحَدَّانا يسوع أن نفعل كلَّ ما من شأنه أن يجعلنا متحرِّرين من سلطة المال، ولو كان ذلك بالتخلُّص التامِّ منه وإعطائه كلِّه للفقراء. أتذكَّر أنَّني عندما قرأت كتاب جاك إيلل المثير للاهتمام بعنوان "**المال والنفوذ**" *(Money And Power)* صدَمَني بعضٌ من اقتراحاته. إنَّنا يجب أن نجد طرقًا بها نُدنِّس المال ونُقلِّل من قُوَّتِه الروحيَّة ومن تقديسنا له، حتَّى وإن كان ذلك بتوزيع رُزمٍ منه على الغرباء أو حتَّى أن ننثُره في الهواء في الشوارع. بَدَت لي هذه المفاهيم غير منطقيَّة وتكاد تكون مُبتذلة. وردُّ الفعل هذا من جانبي كشف لي حقيقة أنَّني قَدَّستُ المال وخضعت للقوَّة الروحيَّة له، وذلك لأنَّني حسبتُ أنَّ إضاعته نوع من الاحتقار لشيء مُقدَّس.

في الوقت الذي كُنتُ أظنُّ فيه أنَّني أستخدم المال لخدمة ملكوت السموات، أدركت أنَّني لم أفهم مغزى العطاء. لقد كُنتُ أقلق بشأن القَدر الذي سوف أعطيه ومن سيناله وأبحث عن الخدمات الخيريَّة المُختلفة التي تقدِّم أفضل خدمة باستخدام المال الذي سوف أُعطيه، وكُنتُ أنتظر إيصالًا يمكنُني خَصمُهُ من الضرائب ورُبَّما أيضًا خطاب شكرٍ من أجل جهودي.

هذا النوع من العطاء القلِق المحسوب هو العكس تمامًا لما يعلِّمه الكتاب المقدَّس عن العطاء. يصف الرسول بولس من يُسميه المعطي المسرور المبتهج كأنَّه في نوبة من الضحك، وهذه الفُكاهة هي بسبب أنَّ العطاء في جوهره غير منطقيّ. إنَّه يهدم هالة التقديس التي نضعها حول المال. إنَّنا بالغريزة نُخزِّن المال في خزائن حديديَّة؛ والعطاء هو نوع من تحرير المال من سجنه، لكي نُطلق النعمة لتعمل في مجتمع مبنيٍّ على التنافُس وسجلَّات الحسابات والوارد والدائن.

من كتاب: إشاعات من عالم آخر

١٩ آب/أغسطس

تخفيف القبضة

بسبب الحياة في وسط مدينة شيكاغو، أصبحت مُدركًا احتياجات مَن حولي التي تفوقُ أيَّ نمط عطاء منطقيّ. زوجتي، التي كانت تعمل بين المُسنِّين الفقراء، كانت تأتي إلى المنزل مُحمَّلة بقصص تفطر القلوب عن مُسنِّين على وشك أن يُطرَدوا من بيوتهم بسبب عدم دفع الإيجار أو على وشك أن يُقطَع التيَّار الكهربائيُّ عنهم. في هذه الحالة، مبلغ مئة دولار مثلًا كان يمكن أن يعينهم للشهر التالي، لكن حاول أن تجعل البيروقراطيَّة الحكوميَّة أو حتَّى جمعيَّة خيريَّة خاضعة للمُحاسبة أن تتجاوب بسرعة مع مثل هذا الاحتياج. فبدأنا بوضع أوراق فئة الخمسين والمئة دولار في ظروفٍ ودفعها من تحت فُتحة الباب، مع ورقة صغيرة مجهولة المصدر مكتوب فيها: "من شخص يهتمّ".

بدا الأمر كما لو كان نوعًا من السفاهة أن نُعطي نقودًا غير متأكِّدين أنَّها سوف تُستَخدَم بطريقة سليمة، وبلا إيصال. وسرعان ما أدركتُ أنَّ هذا التفكير هو السفاهة. إنَّني بذلك قد تَبَنَّيتُ نظرة اقتصاديَّة منطقيَّة ترفع المال إلى قيمة عُليا أكثر من اللازم، وأدركت أنَّني أحتاج أن أُدنِّس المال وأكسر سلطانه عليَّ، كما اقترَحَ جاك إيلل في كتابه عن المال. كُنتُ أحتاج أن أرى المال على حقيقته: أنَّه قرضٌ ائتمنني الله عليه لغَرَض استثماره في ملكوت السموات، الملكوت الوحيد الذي يَدفع عوائد أبديَّة. أوصانا يسوع أن نُعطي الفقراء في السرِّ، "وأبوك الذي يرى في الخفاء سيجازيك علانية".

كما كُنتُ أحتاجُ أيضًا أن أتعلَّم أن أضحك على هؤلاء المندوبين المُملِّين الذين يظهرون في التلفاز لكي يحذِّروني ممَّا قد يحدث إذا لم أختر الاستثمار المناسب، أو لم أشترِ وثيقة التأمين الصحيحة. أحتاج أن أعامل مجلَّة "فورتشن" (Fortune) المختصَّة بشؤون المال وبرامج المال على قناة سي. أن. أن، كما لو كانت موادَّ محظورةً، لأنَّني أدركت أنَّها تؤثِّر فيَّ تأثيرًا سيِّئًا. المال يؤثِّر فيَّ مثلما تؤثِّر الموادُّ المحظورة ومثلما يؤثِّر الكبرياء: فهو يقبض عليَّ مثلما تقبض الحَيَّات الضخمة على فرائسها وتعتصرُها حتَّى الموت؛ فهو يجتذبني في خيالات لا يستطيع تحقيقها. ومثل الشهوة والكبرياء، يقدِّم المال مجالًا للصراع الشخصيِّ لن "أتحرَّر" منه بتاتًا. إنَّها قوَّة ذاتُ شخصيَّة. هي في واقع الأمر إله، ويسوع حسبه كذلك.

من كتاب: إشاعات من عالم آخر

صمتٌ مُطبِق

إنَّنا لا نحتاج أن ننظُر إلى ما هو أبعد من الكتاب المقدَّس لنجد أمثلة عن غياب الله. قال إشعياء لله: "حجبت وجهك عنَّا". وتساءل إرميا: "لماذا تكون كغريب في الأرض. وكمسافر يميل ليبيت؟". أيُّ علاقة تتضمَّن قضاء أوقات من القُرب والحميمية وأوقات من الابتعاد، وفي العلاقة بالله، مهما كانت قريبة، فإنَّ البندول سوف يتمايل من جهة إلى أخرى.

لقد اختبرتُ شعور الهجر، في الوقت نفسه الذي كنتُ فيه أتقدَّم روحيًّا، متجاوزًا الإيمان الطفوليَّ للدرجة التي شعرت فيها بأنَّني يمكن أن أُساعد آخرين. ودون سابق إنذار، خيَّم الظلام. لسنة كاملة، بدت صلاتي لا تذهب إلى أيِّ مكان؛ لم أكُن أثق بتاتًا أنَّ الله يستمع إليَّ. لم يُعِدَّني أحدٌ لذلك بواسطة "خدمة الغياب"، فوجدت نفسي ألجأ للحصول على الراحة إلى الشعراء مثل جورج هربرت (George Herbert) الذي كان صريحًا بشأن أوقات جفافه الروحيِّ، ونظيره جيرارد مانلي هوپكنز (Gerard Manly Hopkins) الذي كتَبَ:

يا ربُّ، نرفع لك مزامير الصلاة
فلا نشعُرَ في العُلى حُضورا
إليك، مرتجفين، يُصليِّ الخطاة
فلا نَسمَعُ من سماكَ صوتًا غفورا
وكأنَّ صلاتنا تاهَت في الصحراء
وماتت ترانيمُنا في صَمتٍ موتًا وَقورا

بدَا أنَّ صلواتي هي أيضًا ضَلَّت طريقها، وماتت ترانيمي في صمتٍ مُطبِقٍ. وعندما لم تَبدُ أيَّة تقنية روحيَّة نافعة، اشتريتُ يائسًا كتاب الصلاة الذي يُستخدم في الصلاة الطقسيَّة وبدأت أستخدمه. وطوال السنة، قرأتُ ببساطة صلوات تردَّدت في فقرات الكتاب المقدَّس، مقدِّمًا هذه الصلوات لله ولسانُ حالي: "ليست لديَّ كلمات، رُبَّما لم يَعُد لديَّ حتَّى إيمانٌ. فأرجوك اقبل هذه الصلوات، فهي ما أستطيع أن أقدِّمه الآن. واقبل هذه الكلمات بديلًا عن كلماتي".

والآن أنظُرُ إلى الخَلف نحو هذه الفترة من الغياب بوصفها وقتًا مُهمًّا جدًّا من أوقات نموِّي؛ لأنَّني في هذه الأوقات كنتُ أسعى خلف الله بجِدِّيَّة أكثر من أيِّ وقتٍ سابق. لقد خرجت من هذه الأوقات بإيمان

مُتَجَدِّد وتقدير عميق لحضور الله بوصفه عطيَّة أكثر من كونه حقًّا مُكتَسَبًا.

من كتاب: محاولة اللقاء مع إله غير منظور

٢١ آب/أغسطس

في الانتظار

أحبُّ أن أرى نتائج مجهودي عندما أمضي شهورًا عدَّة في كتابة مقالة ثمَّ أراها تظهر بعد ذلك مطبوعة، وعندما أتسلَّق جبلًا ثُمَّ أفرح لدى الوصول إلى قمَّته. لكنَّ الصلاة تعمل وفقًا لقواعد أخرى، قواعد الله. نُصلِّي في السرِّ، ولا يُلاحظ أحدٌ المجهود المبذول، وتأتي النتائج- نتائج الله، لا نتائجنا، بُطُرُق مُبهرة، وبعد الوقت الذي كُنَّا نتوقَّعه بفترة طويلة. تعني الصلاة أن نفتح أنفسنا لله ولا نُحدَّ الله بمفاهيمنا المُسَبَّقة. باختصار، تعني الصلاة أنَّنا ندع الله يكون هو الله.

كثير من الصلوات في الكتاب المقدَّس تخرج من الانتظار. يعقوب ينتظر زوجة لسبع سنوات، ثُمَّ سبع سنوات أُخرى بعد أن تعرَّض للخداع من أبيها. ينتظر العبرانيُّون الخلاص من مصر قرونًا، وموسى ينتظر لعشرات السنين دعوة الله ليقودهم، ثُمَّ أربعة عقود أخرى قبل الوصول إلى أرض الموعد التي لم يدخُلها. مريم ويوسف، إليصابات وزكريَّا، حنَّة، وشمشون، مثل كلِّ اليهود، ينتظرون المسيَّا.

الله، الذي هو خارج الزمن، يطلب منَّا الإيمان الناضج الذي يتضمَّن، كما تَضَمَّن مع كلِّ هؤلاء، انتظارًا وتأخيرًا كان يبدو كأنَّه نوعٌ من امتحان الإيمان. الصبر هو أحد أهمِّ علامات النضج، صفة لا تظهر إلَّا بمرور الوقت.

يريد الأطفال الأشياء الآن؛ "هل وصلنا؟"، "لكنَّني أريد الحلوى...الآن!"، "هل يُمكن أن نفتح الهدايا الآن؟"، "هل انتهى وقت قصاصي؟". ومن جهة أُخرى، فإنَّ الأحبَّة يتعلَّمون الانتظار. ينتظر طلبة الطبِّ مرور فترة دراستهم وتدريبهم طويلًا قبل أن يصيروا أطبَّاءَ مؤهَّلين. ينتظر الآباء والأمَّهات برجاء، أن يعود الابن الضالّ. دائمًا ننتظر ما يستحقُّ الانتظار، وفي هذه الأثناء نتعلَّم الصبر.

كتب واحدٌ من كَتَبَة المزامير: "نَفسي تنتَظِرُ الرَّبَّ أكثَرَ مِنَ الْمُراقِبينَ الصُّبحَ". جاءت الصورة إلى ذهن الكاتب من مشاهدته لمراقبي الصبح الذين يَعُدُّون الدقائق حتَّى تنتهي نوبة مراقبتهم. وإنَّني أُصلِّي من أجل الصبر لاحتمال وقت التجربة، وأن أظلَّ أنتظر وأتوقَّع وأرجو وأومن. أُصلِّي من أجل الصبر اللازم لأكون صبورًا.

من كتاب: الصلاة: هل تُحدث أيَّ اختلاف؟

بلا توقُّف

قابلتُ واحدة من القلائل الذين أعرفهم شخصيًّا والذين يأخذون الصلاة على محمَل الجِدِّ كما كان يفعل مارتن لوثر، وجورج مولر، وغيرهم من عمالقة الصلاة. لدى مارشيا (Marcia) مكانها المُخصَّص للصلاة الذي تتبع فيه نموذج "القلعة الداخليَّة" الذي أسَّسته تيريزا الأڤيليَّة. لكنَّني عندما سألتها عن الصلاة، فوجئتُ بأنَّها تُكلِّمني عن كلِّ الساعات الأُخرى في يومها.

"الحوار يمكن أن يكون صلاة. خذ المرأة السامريَّة مثلًا، عندما كانت تتحدَّث مع يسوع بشأن الماء والجبال وأورشليم. ألم تكن هذه صلاة؟ إنَّني أحبُّ أن أنظر أيضًا إلى حواراتي مع الناس بوصفها صلاة. إنَّني أتحدَّث مع يسوع الكائن داخل هذا الإنسان أو ذاك. أسألُهُ، يارَبُّ، دَع هَذا الغَداء أو الشاي أو مهما كان، يَتَحَوَّلُ إلى صلاة. عندما أقرأ الكتاب المقدَّس، فهذه صلاة. إنَّني لا أقرأ المزمور الثالث والسبعين، بل أصَلِّيه. وبرغبة مُستمرَّة، أُرجع كلَّ ما أفعله إلى الله، وعندما أفعل ذلك، يَتَحَوَّلُ كلُّ شيء في حياتي إلى صلاة.

إنَّني رسَّامة. أُصلِّي بينما أرسُم، وتُصبح أعمالي الفنِّيَّة نوعًا من الصلاة. إذا طلبَ منِّي أحدٌ أن أساعِدَهُ في الصلاة، فإنِّي أقول له أن يبحث عن الشيء الذي يستمتع به أكثر من أيِّ شيء آخر، ويفعله لمجد الله. ولك، رُبَّما تكون الكتابة أو تسلُّق الجبال. اطلُبْ من الله أن يُذكِّرك، بينما تفعل ذلك، أنَّك تفعله من أجله. إنَّني عادة عندما أفعل ما أستمتع به، تأتي إليَّ طلبات كثيرة في ذهني. وبمُجرَّد أن يخطرَ شيءٌ على بالي، فإنِّي أصلِّي من أجله، وعلى العموم أثق بالله أنَّه سوف يجعل الأشياء المهمَّة تخطر في بالي.

إنَّ قضاء وقت مع الله هو المُهمّ. لماذا لا نجعل أنفسنا واعين أنَّ هذا الوقت الذي نقضيه هو مع الله، ثُمَّ نتصرَّف كما لو كُنَّا بالفعل معه".

عندما استمعت لمارشيا، أدركت أنَّني أُقسِّمُ حياتي أقسامًا لا علاقة لها بعضها ببعض. مفهومُ الصلاة لديَّ أنَّهُ عملٌ روحيٌّ منفصل بغرابة عن باقي أجزاء حياتي. وبدافع الإحساس بالواجب، أخصِّص الوقت للصلاة، في بعض الأحيان بسعادة وفي أحيان أخرى دونها، ثُمَّ بعد الصلاة أواصلُ العَمَلَ في الأمور "الحقيقيَّة" في اليوم. منذ أن تَعَلَّمتُ هَذا الدرسَ من مارشيا، بدأت أرى الصلاة بصفتها شيئًا مثل "الإحماء" قبل ممارسة الرياضة، ليس هو الهدف في حدِّ ذاته، لكنَّهُ وَسيلةُ الوصول إلى الهدف: والهدف هو زيادة وعيي المستمرِّ بالله على مدى كلِّ اليوم، وكلِّ الحياة.

من كتاب: الصلاة: هل تُحدث أيَّ اختلاف؟

صلواتٌ غيرَ مُناسِبَة

يؤكِّد العهد الجديد انخراط الله الوثيق في كلِّ تفاصيل حياتنا. أكَّد يسوع ذلك لسامعيه قائلًا: "وأمَّا أنتُمْ فحتَّى شُعورُ رؤوسِكُمْ جميعُها مُحصاةٌ". وبصراحة، أستصعبُ استيعاب هذه التصريحات بشأن اهتمام الله الشخصيِّ بالبشر، فكم بالحريِّ تطبيقها على الصلاة؟ كما قال أحد أصدقائي لي ذات مرَّة: "لا أستطيع أن أتخيَّل أيَّ إنسان يهتمُّ بهذه الصورة بحياتي، فكم بالحريِّ الله؟ لا بُدَّ أنَّ الله لديه أمور أكبر ليهتمَّ بها أكثر من اهتماماتي التافهة".

بعض الناس، مثل صديقي هذا، يكتمون صلواتهم، بسبب فقر الصورة الذاتيَّة لديهم، في حين يفعل آخرون الشيء نفسَهُ من مُنطَلَق التقوى. رفض الناسك مايستر إيكهارت (Meister Ekhart) أن "يُصلِّي لله الغنيِّ المُحبِّ من أجل مثل هذه التفاهات" مثل التعافي من مرض. وتفتخر كاثرين الجنوِيَّة (Cathrine of Genoa) أنَّها لم تطلب شيئًا لنفسها طوال ٣٥ سنة من الصلاة المستمرَّة. في بعض الأحيان أُجَرِّب أن أتبع مثالهم، بأن أمنع نفسي من أيَّة صلاة تبدو أنانيَّة أو غير مناسبة.

لكنَّني عندما أعود مرَّة أُخرى إلى صلوات الكتاب المقدَّس، فإنَّني أجده يُسجِّل بتَوَجُّه الرضا كلَّ أنواع الصلوات "الأنانيَّة"؛ فها هي امرأة عاقر تطلب طفلًا، وأرملة تريد مزيدًا من الزيت لطهو الطعام، وجنديٌّ يتوسَّل من أجل الانتصار في معركة. يصلِّي الناس من أجل المطر في وقت الجفاف، ومن أجل الانتقام من أعدائهم. تتضمَّن الصلاة الربَّانيَّة نفسها طلبًا للخُبز اليوميّ. صَلَّى بولس من أجل السلامة في السفر، والنجاح في العمل، والشجاعة في الكرازة. أمَّا يعقوب، فيحُثُّ قارئيه على طلب الحكمة والشفاء الجسديِّ في صلواتهم.

بعد مراجعة الصلوات الموجودة في الكتاب المقدَّس، توقَّفتُ عن القلق بشأن الصلوات غير المناسبة. إذا كان الله يعتمد على الصلاة بصفتها الوسيلة الأوَّليَّة للتواصل معي، فرُبَّما أُعيقُ نشوء حميميَّة مُمكنة بيني وبين الله عندما أختلق قانونًا يُحدِّد الصلاة المناسبة من غير المناسبة. وبحسب يسوع، فلا شيءَ تافه أكثر من اللازم. كلُّ ما يخصُّني- أفكاري ودوافعي واختياراتي ومزاجي- يجتذبُ اهتمام الله.

من كتاب: الصلاة: هل تُحدث أيَّ اختلاف؟

٢٤ آب/أغسطس

رأب الصدع

اختبر يسوع الألمَ والظلم والرعب الموجودين في هذا الكوكب مثلما لم يختبر أحد. ألم يكن من الواجب أن يملأ هذا الشعور وعيه في كلِّ ساعة من ساعات نهاره، ويمنعه من النوم ليلًا؟ ألم يكُن من المفترض أن تزلزل هذه الأمور عُمق نفسه؟

لا، بل ترك يسوع هَمَّ هذا الكوكب في يد الآب وقضى بدلًا من ذلك وقته بين الشخصيَّات العادية التي بلا أهمِّيَّة في المُجتمع: العشَّارين والصيَّادين والأرامل والعاهرات والمُهَمَّشين والمنبوذين. يقول هيلموت تيلكه (Helmut Thielcke) إنَّ تكلُّم يسوع مع الآب– أي الصلاة– كان أهمَّ عند يسوع من الكلام مع الجموع. "ولهذا السبب كان لديه دائمًا مُتَّسعٌ من الوقت للناس؛ لأنَّ كلَّ الوقت هو في يد الآب. ولهذا السبب أيضًا، كان السلام ينبع منه وليس الاضطراب. لأنَّ أمانة الله تُغلِّفُ الكون مثل قوس قزح: لم يحتج أن يبنيها، فقط أن يسير تحتها".

من يتبعون يسوع، يؤمنون أيضًا بأنَّ أمانة الله تُغطِّي العالَمَ مثل قوس قزح، ويسوع نفسه يقدِّم الإثبات الأقوى لهذه الأمانة. سوف تأتي أوقات تُجرَّبُ فيها هذه الأمانة إلى أقصى حدودها. وعندما أواجه هذه الأوقات، أصرخ إلى الله في صلاة من أعماق اليأس، وكأنَّها ضربة في الظلام لإنسان يحاول وسط الظلام، أن يستعيد الثقة بالصورة الكاملة التي لا يستطيع أن يراها الآن، ويصارع كي ينال لو لمحة صغيرة من المنظور الإلهيِّ للأمور. وعندما تكون الأمور على ما يُرام، عليَّ أن أعمل بجدٍّ أكثر لكي أُحافظ على الحوار قائمًا، وأومن أنَّ الله يهتمُّ بتفاصيل حياتي.

إنَّني أُصَلِّي بإيمان ودهشة أنَّ الله يرغب في علاقة مستمرَّة بي. أصَلِّي بثقة بأنَّ الصلاة نفسها هي الطريقة التي صمَّمَها الله لرأب الصدع وجَسْر الهُوَّة التي بيني وبين الأبديَّة. إنَّني أُصلِّي لكي أضع نفسي في مسار عمل الله الشفائيِّ في هذا العالم. أُصلِّي كما أَتَنَفَّس لأنَّني لا أستطيع إلَّا أن أفعل ذلك. ليست الصلاة بتاتًا شكلًا مثاليًا من التواصل، لأنَّني أنا، إنسانٌ غير مثاليّ، وكيان مادِّيٌّ يعيش على كوكب مادِّيٍّ غير مثاليّ، مُحاوِلًا أن أتواصَلَ مع كيانٍ روحيٍّ مثاليّ. بعض من الصلوات لا تُستَجاب، والوعي بحضور الله يزداد ويتناقَص، وكثيرًا ما أستشعر الغموض أكثر من الوضوح. لكنَّني أستمرُّ، مؤمنًا بما يقوله بولس: "الآنَ أعرِفُ بَعضَ المَعرِفَةِ، لكن حينَئذٍ سأعرِفُ كما عُرِفتُ".

من كتاب: الصلاة: هل تُحدث أيَّ اختلاف؟

٢٥ آب/أغسطس

النعمة العاملة

تعني النعمة أنَّه لا يوجد خطأ نرتكبه يُمكن أن يجعلنا غير مؤهَّلين لمحبَّة الله، ولا يوجد إنسان لا يُمكن افتداؤه، ولا توجد وصمة إنسانيَّة لا يُمكن تنظيفها. إنَّنا نحيا في عالم يَحكُمُ على الناس من سلوكهم ويُطالب بأن يدفع المجرمون والمُدانون والفاشلون أخلاقيًّا ثمن ما فعلوه ويتعايشوا مع نتائج أفعالهم. حتَّى الكنيسة تجد من الصعب أن تغفر للمُقَصِّرين.

النعمة غير منطقيَّة وغير عادلة ولا معنى لها إلَّا لمن يؤمن بعالمٍ آخر يحكمه الإله الرحيم الذي يقدِّم دائمًا "فُرصة ثانية".

وتُعلن ترنيمة "ما أعجب النعمة"، الترنيمة النادِرة التي تربَّعت من جديد على عرش قوائم الأغاني الأكثر شعبيَّة، ذلك الوَعد أنَّ الله يَحكُم على الناس، لا وِفق من هُم، بل وفق ما يُمكن أن يكونوا. لا بحسب ماضيهِم، وإنَّما بحسب مُستقبَلِهِم. كَتَبَ جون نيوتن (John Newton)، تاجرُ الرقِّ الخَشِن والمُستبيح، هذه الترنيمة وعبَّر فيها عن هذه النعمة التي افتدت "بائسًا مثله". لقد كَتَبَ نيوتن هذه الترنيمة بعد أن غيَّرتهُ قوَّة النعمة العجيبة.

عندما يُشاهِد العالَم النعمة وهي تعمل، فإنَّه يَصمُت. لقد عَلَّمَ نيلسون مانديلا العالم درسًا في النعمة عندما طلب من سجَّانِهِ أن يشارِكه مَنَصَّة الاحتفال ببدء رئاسته للبلاد، بعد أن خرج من السجن بعد ٢٧ عامًا وانتُخِب رئيسًا لجنوب أفريقيا. ثُمَّ بعد ذلك عيَّنَ مانديلا بتعيين الأُسقف ديزموند توتو رئيسًا للجنة حكوميَّة ذات اسمٍ صادِم: لجنة الحقِّ والمُصالحَة. لقد أراد مانديلا أن يوقف دائرة الانتقام والانتقام المُضادِّ التي تنشأ بطريقة تلقائيَّة، والتي رآها تحدث في البلاد التي يتولَّى الحُكم فيها عِرقٌ كان قد عانى الاضطهاد والقَهر.

وعلى مدى سنتين ونصف، استمع الجنوب أفريقيِّين في جلسات استماع هذه اللجنة، إلى تقارير الفظائع التي كانت قد ارتُكِبَت. وكانت القواعد واضحة وبسيطة: إذا أقرَّ الشرطِيُّ أو ضابط الجيش الأبيض بالخطأ وواجه مُتَّهِميه، واعترف بجُرمِهِ تمامًا، فلن يُحاكَمَ أو يُعاقَب بشأن هذا الجُرم. تذمَّر المُتَشدِّدون على هذا الأسلوب المُفتَقِر إلى العدالة والذي يُطلِق سراح المجرِمين بلا عقاب، لكنَّ مانديلا أصَرَّ أنَّ البلاد تحتاج إلى الشفاء أكثر ممَّا تحتاج إلي العدالة.

(يتبع في التأمُّل التالي)

من كتاب: إشاعات من عالم آخر

٢٦ آب/أغسطس

ما وراء العدالة

(يتبع من التأمُّل السابق)

في إحدى جلسات استماع لجنة الحقِّ والمُصالحَة، قَصَّ شُرطِيٌّ اسمه ڤان دي برويك (van de Broek) حادثة، فيها أطلق النار مع رجال شرطةٍ آخرين النار على شابٍّ عمره ١٨ عامًا وأشعلوا النار في جثته. وبعد ثماني سنوات، عاد ڤان دي برويك إلى البيت نفسه، وقبض على والد الشابِّ، وأجبر زوجته على مشاهدته مربوطًا في عمود خشبيٍّ بينما صبَّ الكيروسين على جَسَدِهَ وأحرَقَه حَيًّا.

وقَعَ صمتٌ على جلسة المَحكَمة عندما أُعطِيَت الفرصة لتلك السيِّدة المُسِنَّة التي فقدَت أوَّلًا ابنها، ثُمَّ زوجها، لكي تتجاوب مع اعتراف الشُّرطِيّ. سألها القاضي: "ماذا تريدين من السيِّد ڤان دي برويك؟". قالت إنَّها تريد منه أن يذهب إلى المكان الذي حرقوا فيه جُثَّة زوجها، ليجمع التُّراب حتَّى تستطيع أن تُقيمَ له مراسم دفنٍ مُحترمة. فوافق الشرطيُّ ورأسُهُ مُنكَّسٌ.

ثُمَّ أضافَت طلبًا آخر: "لقد سرق السيِّد دي برويك كلَّ أسرتي عنِّي، ولا يزال لديَّ الكثير من الحُبِّ لأقَدِّمَهُ. لذا أريده أن يأتي مرَّتين في الشهر إلى الحَيِّ الفقيرِ الذي أعيش فيه، ويقضي معي يومًا حتَّى أستطيع أن أكون أُمًّا له. وأريد أن يعرف السيِّد دي برويك أنَّ الله غَفَرَ له، وأنَّني أغفر له أيضًا. إنَّني أريد أن أحتضنه، حتَّى يُدرك أنَّ غُفرانه هذا حقيقيٌّ".

وبصورة تلقائيَّة، بدأ كُلُّ الحاضرين في القاعة يُرنِّمون "ما أعجب النعمة" في الوقت الذي تَقَدَّمت فيه هذه السيِّدة العجوز وسارَت في اتِّجاه منصَّة الشهود نحو الشرطِيِّ الأبيض ڤان دي برويك، أمَّا هُوَ فلم يستمع للترنيمة، لأنه سَقَط فاقدًا الوَعي من فُرط التأثُّر.

لم تُنفَّذ العدالة في جنوب أفريقيا في ذلك اليوم، ولم تُنفَّذ في أرجاء البلاد طوال الشهور التي أُجريت فيها الإجراءات المؤلمة من جانب لجنة الحقِّ والمُصالحة. لكنَّ شيئًا آخر ما وراء العدالة قد حدث.

قال بولس الرسول: "لا يَغلِبَنَّكَ الشَّرُّ بل اغلِبِ الشَّرَّ بالخَيرِ". لقد استوعبَ نيلسون مانديلا وديزموند توتو، أنَّه عندما يحدث الشرُّ، فإنَّ طريقة واحدة يُمكن بها التغلُّب عليه.

يُحفِّزُ الانتقام الشرَّ مرَّة أُخرى ويُعيد إشعاله، والعدالة تُعاقب الشرّ. لكنَّ ما يقضي على الشرِّ تمامًا، هو شيءٌ واحد: الخير، وذلك عندما يستطيع الطرف المجروح أن يستوعب الشرَّ ويحتويه، ويمنعه من التوغُّل داخل روحه. هذا هو الأسلوب الذي تَتَّبِعَهُ النعمةُ من عالمٍ آخر والتي أعلنها يسوع في حياته وفي موته.

من كتاب: إشاعات من عالم آخر

٢٧ آب/أغسطس

توسيع الدائرة

في رحلة إلى روسيا سنة ١٩٩١م، رافقتُ مجموعة من المسيحيِّين الذين صلُّوا بالفعل مع ضُبَّاط المخابرات الروسيَّة. وقال لي الضابط المسؤول وقتها: "لقد دعوناك لأنَّنا نُريد أن نتعلَّم معنى كلمة توبة". وبعد أن غادرنا، استمرَّ هذا الضابط في توزيع مليونَي نُسخةٍ من العهد الجديد لأفراد الجيش الروسيّ. في ذلك الوقت شعرتُ بالخزي، إذ أدركتُ أنَّني طوال سنوات الحرب الباردة، لم يخطُر لي أن أصلِّي من أجل القادة الروس. فلأنَّني كُنتُ أعُدُّهُم مجرَّد أعداء، لم أتَّخذ بتاتًا خطوة أن أُحضِرَهُم أمام الله سائلًا إيَّاهُ من أجل أن يُعطيني نظرته نحوه.

وماذا عن المتطرِّفين الذين الآن يقاومون الغَرب بأعمال عُنفٍ إرهابيَّة؟ كيف يُمكن أن يكون التأثير، إذا تبنَّت كلُّ كنيسة اسمًا من أسماء أعضاء "تنظيم القاعدة" وصَلَّت بإخلاص من أجل ذلك الإنسان؟

وأكثر من ذلك، هل علينا أن نفحص قلوبَنا في مواجهة كلِّ الأعراض التي لا نرضى عنها في مجتمعنا ونحسبها مُعادية؟ في مساء يوم ١١ أيلول/ سبتمبر سنة ٢٠٠١م، امتلأت كنيستي بالأعضاء الذين اجتمعوا تلقائيًّا ودون سابق إعلان من أجل خدمة صلاة. لوقتٍ محدود، مارس الأميركيُّون الوعي بأنفسهم. إنَّ الصلاة المصحوبة بالوعي بالأعداء، بل أيضًا من أجل الأعداء، تقدِّم لنا فُرصة للتأمُّل الذاتيِّ، فبطريقة عجيبة، أعداؤنا يُساعدونا لنعرف هويَّتنا، تمامًا مثلما يفعل أصدقاؤنا ذلك.

ذكر سي. أس. لويس في رسالته إلى أخيه أنَّه كان يُصلِّي كلَّ ليلة من أجل الأشخاص الذين يشعر أنَّه مُجرَّبٌ أن يكرَهَهُم، أكثر من غيرهم، ووضع هتلر وستالين وموسوليني على رأس القائمة. وفي رسالة أُخرى، كتبَ أنَّه صَلَّى من أجلهم، وكان يتأمَّل أنَّه كان يُمكن أن تتزايد قسوته هو أيضًا لتصل إلى مُعدَّلات شبيهة لما وصلوا إليه. وتذكَّرَ أنَّ المسيح مات من أجلهم، تمامًا مثلما مات لأجله. وقال لويس أيضًا إنَّه: "ليس مختلفًا كثيرًا عن هذه المخلوقات البَشِعة".

كُلُّنا تقريبًا لدينا قائمة بالأعداء. عند بعض الناس في الولايات المتَّحدة، رُبَّما تتضمَّن القائمة بعضًا من الأصوليِّين والجمهوريِّين المُنتَمين إلى اليمين المتطرِّف، أو العلمانيِّين والمُنتمين إلى الاتِّحاد الأميركيِّ للحُرِّيَّات المدنيَّة (ACLU). في أماكن أُخرى، يجابِهُ المسيحيُّون اضطهادًا مُباشرًا من حكومات وأديان مختلفة. التابعون الحقيقيُّون ليسوع المسيح، يشتركون معًا في التمسُّك المُدهش بوصيَّته أن يُحبوا أعداءَهُم، ويُصلُّوا لهؤلاء الذين يُسيئون إليهم. وعندما يفعلون ذلك، فإنَّهم يشتركون معًا في توسيع دائرة محبَّة الله لهؤلاء الذين يُمكن ألَّا يختبروها بصورة أخرى.

من كتاب: الصلاة: هل تُحدث أيَّ اختلاف؟

٢٨ آب/أغسطس

ثلاث أسئلة

هل الله غير عادل؟ هل الله صامت؟ هل الله محتجب؟ لقد تعلَّمت من سِفر الخروج وسِفر العدد أنَّ الإجابات السريعة لهذه الأسئلة الثلاثة رُبَّما لا تحلُّ المشكلات الدفينة الناتجة عن خيبة الأمل بالله. فبرغم أنَّ العبرانيِّين عاينوا حضور الله المُباشر، فقد كانوا أكثر الناس على وجه الأرض تَقَلُّبًا وارتدادًا. ففي عشر مرَّات مختلفة، تمرَّدوا على الله في سهول سيناء الحزينة المُنبَسِطة بلا مساراتٍ واضحة. وحتَّى على حدود أرض الموعد نفسها، بكلِّ خيراتها المُمتدَّة، كانوا لا يزالون يحِنُّونَ إلى "الأيَّام الخوالي" حيث كانوا "يتمتَّعون" بالعبوديَّة في مصر.

رُبَّما تُمِدُّنا هذه النتائج المُحزِنة بالتَبَصُّر في السبب الذي لا يجعل الله يميل إلى التدَخُّل المُباشِر هذه الأيَّام. يحلم بعض المسيحيِّين بعالمٍ يضجُّ كلَّ يوم بالمعجزات الخارقة والإعلانات المُبهِرة لحضور الله. أستمع إلى عظات حافلةٍ بالافتتان عن شقِّ البحر الأحمر، والضربات العشر، والمَنِّ اليوميِّ في البرِّيَّة، كما لو كان المُتكلِّم يتوق أن يُطلق الله قوَّة لصُنع هذه المعجزات اليوم بالطريقة نفسها. لكنَّنا إذا تتبَّعنا خطَّ سير ارتحال العبرانيِّين، فإنَّنا سوف نتوقَّف قليلًا لنتساءل، هل تَفَجُّر المعجزات بهذه الطريقة، يُغَذِّي الإيمان؟ من الواضح أنَّه لا يُغذِّي نوع الإيمان الذي يريد أن يُنمِّيه الله فينا، وإلَّا لكان الله قد فعله. يقدِّم العبرانيُّون دليلًا واضحًا على أنَّ الآيات والعجائب، ربَّما تجعلنا مُدمنين عليها، وليس مؤمنين بمن يفعلها.

صحيحٌ أنَّ العبرانيِّين كانوا شعبًا بدائيًّا، خارجًا لتوِّه من العبودية، لكنَّ القصص الكتابيَّة تحمل لنا نغمة ليست غريبة عنَّا اليوم. لقد تصرَّفَ العبرانيُّون، كما يقول فريدريك بوشنر، "مثل كلِّ واحد مِنَّا، ولكن فقط بصورة أشدّ".

لقد خرجتُ من دراستي لهم شاعرًا بالدهشة والحيرة في آنٍ واحد: لقد دُهشتُ عندما أدركتُ قلَّة تأثُّر الشعب عندما حلَّ الله ثلاث مُشكلاتٍ كُبرى تُسبِّب الإحباط من لله، وهي- غياب العدالة، وصَمت الله، واحتجابه عندما نحتاج إليه. لم يكُن الله غائبًا بتاتًا ولم يكن صامتًا أو مُحتجبًا للحظة، ومع كلِّ ذلك لم ينْمُ إيمان العبرانيِّين. وشعُرتُ بالحيرة بسبب أسئلة ثارت في داخلي بشأن أعمال الله في الأرض. هل تغيَّر الله؟ هل تراجَع؟ هل انسحب؟

من كتاب: عندما لا تمطر السماء

٢٩ آب/أغسطس

ضوء شمس مُباشر

لقد كنتُ دائمًا أتوقُ لأن يتدخَّل الله بصورة مباشرة واضحة لا رَيبَ فيها. لكن مِن قصص فشل العبرانيِّين المُحزنة، يُمكنني أن أفهم بعضًا من "سلبيَّات" التدخُّلات الإلهيَّة المُباشرة. مِنَ المُشكلات التي صادفوها بصورةٍ مُباشِرة، غياب الحُرِّيَّة الشخصيَّة. فالفرد العبرانيُّ الذي يعيش بالقرب مع هذا الإله القدُّوس، لا يجدُ شيئًا في حياته الخاصَّة، كالجنس، أو الدورة الشهريَّة، أو مُكوِّنات نسيج ملابسه، أو عاداته الغذائيَّة، يهرُب من أمام وجه قوانين الله التي تُراعي أدَقَّ التفاصيل. إنَّ كونَهم "شعبًا مُختارًا" كان له تكلُفة. وكما يعلم الله أنَّه يقترب من المُستحيل أن يعيش وسط شعب خاطئ، أدرك هذا الشعب أنَّه من المستحيل أيضًا أن يعيشوا مع إلهٍ قدوسٍ في وسطهم.

استمع إلى كلمات المُتَعَبِّدين أنفسهم: "سوف نموت! لقد ضِعناَ! لقد ضِعنا كُلُّنا! كلُّ من يقترب من خيمة الاجتماع، سيموت". ثُمَّ مرَّة أُخرى يقولون: "لا نريد أن نستمع للربِّ، ولا أن نرى ناره العظيمة مرَّة أخرى، وإلَّا فسوف نموت".

ذات مرَّة، وفي إطار تجربة، حدَّق العالِم العظيم إسحاق نيوتن في صورة الشمس المُنعكسة على مرآة، فكادَ الشعاع الباهر أن يحرق شبكيَّة عينه، وأُصيب بعمى مؤقَّت. وحتَّى بعد أن اختبأ لثلاثة أيَّام خلف نوافذ مُغلقة، لم يختفِ تأثير الشعاع، ولم يفارِق النور عينيه. وكتب: "لقد استخدمتُ كلَّ الوسائل لكي أُبعِدَ خَيالي عن نورِ الشمس، لكنَّني كُلَّما فكَّرتُ فيها، رأيتُ صورتها مع أنِّي الآن في الظلام". ولو أنَّ نيوتن حدَّق بضع دقائق أكثر، لفَقَد بصرِهِ حتمًا. إنَّ المُستقبِلات الكيميائيَّة التي تتحكَّم في البَصر لا تستطيع أن تتحمَّل القوَّة الكاملة لنور الشمس المباشر.

يوجد عبرةٌ يمكننا أن نَستَقِيها من اختبار إسحاق نيوتن، وهو يساعدنا في توضيح ما تعلَّمه العبرانيُّون من درس البرِّيَّة. لقد حاولوا أن يعيشوا مع إله الكون بصورة مرئيَّة وهو في وسطهم، ولكن في النهاية، من بين الآلاف الذين هربوا فَرِحين من أرض مصر، لم يستطِع إلَّا اثنين فقط أن يحتملا حضور الله هذا. إذا كنتَ بالكاد تحتمل ضوء الشمعة، فكيف تُحملِقُ في الشمس؟

تساءل النبيُّ إشعياء: "من مِنَّا يسكن في نارٍ آكلة؟". هل يمكن أن نكون شاكرين على احتجاب الله، بدلًا من أن نكونَ خائبي الأمل؟

من كتاب: عندما لا تمطر السماء

٣٠ آب/أغسطس

أنبياء قُدامى وأسئلة معاصرة

لقد كُنتُ كثيرًا ما أُخطئ في فَهمِ الأنبياء- ذلك إذا كُنتُ أهتمُّ بقراءَتهم من الأساس. لقد كنتُ أراهُم رجالًا عجائز ذوي رائحة عفنة، يروحون ويجيئون ليشيروا إلى الناس بإصبَع الإدانة والويلات، مثل إيليَّا الذي كان يُنادي بالدينونة على الأمم. ولكنَّني اكتشفتُ لذهولي، أنَّ كتابات الأنبياء القُدامى أكثرُ كتابات الكتاب المقدَّس "مُعاصَرَة". فهُم يتعاملون مع الموضوعات نفسها التي تُظلِّل مجتمعاتنا اليوم كالغيوم: صمتُ الله، والشرُّ الذي يبدو سائدًا، وألم العالَم الذي لا تبدو له نهاية. إنَّ تساؤلات الأنبياء تظلُّ، كما هي، تساؤلاتنا في العالم الحديث: غياب العدالة الإلهيَّة، وصمته البادي واحتجابه المُحيِّر.

لقد كان أنبياء العهد القديم، وهُم الأكثر حماسةً وشغفًا روحيًّا من أيِّ إنسان في التاريخ، يُعبِّرون عن مشاعر خيبة الأمل بالله. لقد تساءلوا: لماذا تزدهر الأُمم البعيدة عن الله؟ لماذا يوجد هذا القدر من الفقر والفساد في العالم؟ لماذا لا يوجد إلَّا القليل من المُعجزات؟ أين أنت يا ربُّ؟ لماذا تنسانا دائمًا؟ لماذا تتركنا كلَّ هذا الوقت؟ أظهِر نفسك، اكسر صمتك. وحَرفيًّا، من أجل خاطر الله، افعل شيئًا!

لقد كان الصوتُ المَدنيُّ لإشعياء، وهو الأرستقراطيُّ مُشير الملوك، الظاهر في أسلوبه الشخصيِّ غائبًا عن نبيٍّ آخر مِثل إيليَّا، كما يغيب أسلوب ونستون تشرشل مثلًا عن غاندي. إذ قال إشعياء: "حَقًّا أنتَ إلهٌ مُحتَجِبٌ يا إلهَ إسرائيلَ المُخَلِّصَ".

أمَّا إرميا، فبصوتٍ عالٍ اعترض على فشل "لاهوت الازدهار والنجاح". ففي زمانه، كان الأنبياء الحقيقيُّون يُلقَون في غياهب الأقبية والأبار الجافَّة، بل ويُنشَرون نِصفين. وشبَّه إرميا الله بإنسانٍ "كإنسانٍ قد تحَيَّرَ، كجَبَّارٍ لا يستطيعُ أنْ يُخَلِّصَ؟". ومثل كلِّ العبرانيِّين، فإنَّ النبيَّ كان قد تربَّى على قصص الانتصارات، إذ تعلَّموا في طفولتهم أحداث تحرير الله أجدادَهُم من العبودية، ونزوله ليسكُن بينهم، وقيادته إيَّاهُم حتَّى أرض الموعد. لكنَّهم رأوا الآن في رؤى المُستقبل بالتصوير البطيء، كلَّ هذه الانتصارات تتلاشى. وفي تضادٍّ واضح بين المشهد الذي لا يُنسى من عصر سُليمان الملك، يرى حزقيال النبيُّ مجد الله يرتفع، ويُخيِّم على الهيكل للحظة قبل أن يتلاشى.

ما رآه حزقيال في رؤيا، رآه إرميا في واقعٍ صريح ومرير. لقد دخل الجنود البابليُّون الهيكل ودنَّسوه، ثُمَّ أحرقوه تمامًا إلى الأرض، فهام إرميا على وجهه في شوارع أورشليم المهجورة في حالة من الصدمة والذهول مثلما فعل ناجٍ من انفجار هيروشيما.

من كتاب: عندما لا تمطر السماء

جيِّد جدًّا لدرجة لا تُصدَّق

لا يُمكن أن يكتمل مُلَخَّصٌ عن الأنبياء دون رسالة واحدة أخيرة: وهي إصرارُهم البالغ أنَّ العالم لن ينتهِ "بهزيمة كونيَّة نهائيَّة"، وإنَّما بفرحٍ عظيم. دائمًا ما كان أنبياء العهد القديم يَصِلونَ في النهاية إلى رسالة أمل ورجاء.

لقد كانت أصواتُهُم تتحوَّل إلى ما يُشبه تغريد الطيور عندما يتحوَّلون في النهاية إلى وصف الفرح الكائن في ما وراء أسوار هذا الزمان. في ذلك اليوم الأخير، سوف يجمع الله الأرض كبساط ويعيد نسجَهَا من جديد كثوبٍ اعتراه البَلَى. سوف ترعى الذئاب مع الحملان في الحقل نفسه، ويأكل الأسد العُشب مع الثور.

ويقول النبيُّ ملاخي إنَّنا سوف نتقافز من الفرح مثل عجول أُطلِق سراحها للتوِّ من حظائرها، ولن يكون هناك خوفٌ ولا ألم. لن يموت الأطفال الرُّضَّع في ما بعد، ولن تُذرَفُ الدموعُ بعد ذلك، وسوف يصير السلام كنهرٍ وسط الأمم، وسوف تحوِّل الجيوش أسلحتها إلى أدوات فِلاحة، ولن يشكو أحدٌ من اختباء الله في ذلك اليوم. سوف يملأ مجد الله الأرض بنورٍ تبدو الشمسُ مُظلمةٌ في بهائه.

من جهة الأنبياء، لم يكن التاريخ البشريُّ هدفًا في حدِّ ذاته، لكنَّه وقت انتقالِ، أو جملة اعتراضيَّة، بين عدن من ناحية، ومن ناحية أخرى، الأرض الجديدة والسماء الجديدة التي سوف يصنعها الله. حتَّى عندما يبدو كلُّ شيء خارج السيطرة، يظلُّ الله مُسيطرًا.

بعضُ الناس لا يرون راحة في رؤية الأنبياء للمستقبل، ويقولون "إنَّ الكنيسة استخدمت هذا الفكر لقرون لتسويغ العبوديَّة والقهر وكلَّ أشكال الظُّلم". ويظلُّ هذا الاتِّهام حقيقيًّا، حيث إنَّ الكنيسة أساءت بالفعل استخدام رؤية الأنبياء هذه. لكنَّك لن ترى في حياة هؤلاء الأنبياء ونبوَّاتهم محاولة إسكات الناس على الظلم الحاليِّ بوعودٍ بالعدل المستقبليّ. كانت لهؤلاء الأنبياء كلماتٌ حادَّة بشأن الحاجة إلى رعاية الأرملة واليتيم والغريب والضيف، وبشأن إصلاح وتنظيف مؤسَّسة الحُكم والمؤسَّسة الدينيَّة. إذ ليس على شعب الله أن ينتظروا ويَعُدُّوا الأيَّام والليالي منتظرين تدخُّل الله لإصلاح الأمور، بل عليهم هُم أيضًا إصلاح ما يمُكن إصلاحه، وعليهم أن يكونوا في حياتهم نموذجًا حيًّا حاليًّا للأرض والسماء الجديدَتَيْن، ليوقظوا في البشر بذلك الشوقَ لأن يروا ذلك مُكتمِلًا.

من كتاب: عندما لا تمطر السماء

أيلول/سبتمبر

١. حجر رشيد
٢. العدسة المُكبِّرة للإيمان
٣. اقتراب الله
٤. يسوع البروزاك
٥. الرؤية الجديدة
٦. وجبات فخمة لمصلحة الفقراء
٧. نوال حياة
٨. أصعب مهنة في العالم
٩. مُرشد الظِّلِّ
١٠. لاهوت من نكات قذرة
١١. مشكلة اللذَّة
١٢. لحظات الطَفو
١٣. رؤية المسيَّا
١٤. غير المرغوب فيهم
١٥. خسارة الحروب الثقافيَّة
١٦. بلا طُرُق مُختصرة
١٧. الإرشاد الليليُّ
١٨. نظرة إلى الخلف
١٩. الحضور
٢٠. الصلاة بالطريقة السليمة
٢١. يسوع ونورمان العاصف
٢٢. التطويبات المعكوسة
٢٣. مكافآت مستقبليَّة
٢٤. إله عادل في النهاية
٢٥. مراهنة الله
٢٦. كنيسة منتصف الليل
٢٧. مُعلِّمون مدمنو خمر
٢٨. الاهتمام بالنَّكِرات
٢٩. التواضع الحقيقيُّ
٣٠. أيادٍ لا يمكن إسكاتُها
٣١. صلاحٌ يُذهِب العقل

١ أيلول/سبتمبر

صرّافو النعمة

أحد الأساليب التي تجعلني أتأثَّر بالثورة التي قام بها يسوع، يدور حول الكيفيَّة التي ننظر بها إلى مَن هم "مختلفون". إنَّ نموذج يسوع يُبَكِّتني اليوم؛ لأنِّي أشعُرُ بتحوُّلٍ خَبيثٍ في الاتِّجاه المعاكس تمامًا. فكلَّما انكشفَ المجتمع، وزادَت المظاهر اللاأخلاقيَّة، ازدادَ سماعي لدعوات إلى إظهار قدرٍ أقلَّ من الرَّحمة، وقَدرٍ أكبرَ من الالتزام الأخلاقيّ، وهي دعوات تميل إلى العودة إلى أسلوب العهد القديم.

لقد صار أحَد المفاهيم التي استَخدمَها الرسولان بطرس وبولس من المفاهيم المفضَّلة عندي في العهد الجديد، ويشدِّدُ هذا المفهوم على أنَّ علينا أن نُقَدِّم نعمةَ الله إلى البَشر (أو نصرفَها). وتُعيدُ هذه الصورة إلى الذهن "مِرَشّ" العطر الذي استخدمَتْه النساء قديمًا قبل صناعة "السبراي" الحاليَّة. وقد كانت لهذا المرشّ كُرَة مَطَّاطية تأتي بقطرات العِطر مُندفعة من الثقوب الصغيرة متى ضُغِطَتْ، وكانت تكفي هذه القطرات الصغيرة لكلِّ الجسم، وكانت ضغطات قليلة كفيلة بتغيير رائحة جوِّ الغُرفة تمامًا. بهذه الطريقة يجب أن تعمل النعمة، كما أعتقد. إنَّها لا تغيِّرُ العالم أو المجتمع بأسره، لكنَّها تُثري الجوَّ المُحيط.

والآن أشْعُرُ بالقَلَق؛ لأنَّ الصورة الذهنيَّة السائدة عن المسيحيِّين تغيَّرت من صورة مِرشَّات العِطر إلى صورة أُخرى تقترب من مِرشِّ المُبيدات الذي يضعُه المزارعون على ظهورِهم للقضاء على الآفات الزراعيَّة. هناك بقٌّ!، فلنرُشَّه، هناك شرٌّ! فلنرُشَّه. وأعرف في الواقع بعض المسيحيِّين ممَّن أخذوا على عاتقهم مهمة "القضاء على الشرّ" في هذا المجتمع الموبوء من حولهم.

وأنا أشترك مَعَهُم في القلق الشديد على مجتمعنا. لكنِّي أُدهَش بالقوَّة المُغايرة التي يُقدِّمها يسوع، الذي أتى لأجل المرضى وليس الأصحَّاء، للخُطاة وليس للأبرار. ومع أنَّ يسوعَ لم يتغاضَ بتاتًا عن الشرِّ، فإنَّه كانَ مُستعدًّا دائمًا للغفران. وبصورةٍ ما نالَ لَقَبَ "مُحِبّ الخُطاة"، أمَّا أتباعه اليوم فيواجِهونَ خَطَرَ فقدان هذه السُّمعة. كما تكتب دوروثي داي: "أنا أُحبُّ الله فقط بقدر محبَّتي لأقلِّ شخصٍ أُحِبُّه".

من كتاب: ما أعجب النعمة

٢ أيلول/سبتمبر

سياسةُ الاستقطاب

كان الذين ينظرون إلى يسوع بوصفه قائِدَهم ومُخَلِّصَهم السياسيَّ يشعرون بالارتباك المستمرِّ عندما يتأمَّلون في اختياراته للذين يرافقونه. لقد صار يسوع يُعرَف بأنَّه صديق العَشَّارين، وهُم مجموعةٌ ربطَتْ مصيرَها بوضوح بالمُحتلِّ المُستَغِلّ، وليس بالشعب الخاضع للاستغلال. ومع أنَّ يسوعَ هاجمَ النظام الدينيَّ في عصره، فقد كان يُعامل قائدًا دينيًّا مثل نيقوديموس باحترامٍ بالغ. ومع أنَّه تكلَّمَ بوضوح ضدَّ أخطار المال والعُنف، فقد أظهَرَ محبَّةً ورحمةً نحو الشابِّ الغنيِّ، ونحو قائد المئة الرومانيّ.

باختصار، كان يسوع يُقدِّرُ الكرامة الإنسانيَّة لكلِّ إنسان، سواءٌ اتَّفقَ معه أم لا، وهو لن يؤسِّسَ ملكوتَه على أساسِ عرقٍ أو طبقةٍ اجتماعيَّةٍ أو أيٍّ من هذه التصنيفات التي تُقَسِّم البَشَرَ. فحتَّى لو كان الإنسانُ هو تلك السامريَّةُ مُختلِطةُ الجنس ذات الخمسة أزواج، أو كان ذلك اللصَّ الذي يُحتَضرُ على الصليب، فهذان كانا مَقبولَينِ في ملكوته. كانَ الإنسانُ أهَمَّ جدًّا من التصنيف الذي يندرجُ تحته أو الفئة التي ينتمي إليها.

هذه السِّمةُ في يسوع تُشعِرُني بالتَّبكيت كلَّما انخَرَطْتُ في أيَّة قَضيَّة أومنُ بها. كم هو سهلٌ الانضمام إلى سياسات الاستقطاب، لنجدَ أنفسنا مصطفِّين في فريقَين مقابلَ بعضهما بعضًا، ويصيح كلٌّ منهما مُهاجمًا "الأعداء" عَبر الخطوط الفاصلة ما بين القُطبين. كيف ما أصعب أن نتذكَّرَ أنَّ ملكوت الله يدعوني لأنْ أُحِبَّ تلك المرأة التي خرجت لتوِّها من عيادة الإجهاض (أجل، بل أن أُحِبَّ الطبيب الذي أجرى لها العمليَّة)، وذلك الرجل الذي يُحتَضَرُ جرَّاء إصابته بمتلازمة نقص المناعة المكتسبة (الإيدز) بعد أن عاشَ حياةً من الانفلات الجنسيّ، وأن أحبَّ أيضًا الثريَّ صاحب العقارات والأراضي الذي يستغلُّ خليقة الله. إذا لم أستطع أن أُظهر المحبَّة لمثل هؤلاء، فعليَّ أن أراجعَ نفسي: هل أفهمُ الإنجيل حقًّا؟

تميلُ الحركات السياسيَّة إلى رَسْم الخطوط الفاصلة بدِقَّة، والتشديد على الفروق، كما أنَّها تعيش على إدانة وجهة النظر المغايرة وشجبها. وعلى النقيض من ذلك، كانت محبَّةُ يسوع تخترقُ هذه الخطوط، وتتسامى فوق الفروق، "وتصرف" النعمة للجميع، بغضِّ النظر عن الخصائص الخاصَّة بكلِّ قضيَّة- سواء كان اللوبيَّ اليمينيَّ المُناصرَ للحياة والمُناهض للإجهاض، أم اللوبيَّ اليساريَّ الذي يرفع شعار السَّلام والعدالة- فإنَّ الحركات السياسيَّة تخاطر بأنْ تحاول دائمًا ارتداءَ عباءة القوَّة والسُّلطة التي من شأنها أن تخنقَ أيَّة فُرص للمحبَّة.

لقد تَعَلَّمتُ من يسوع أنَّه لا ينبغي لي، مَهما كان نوع النشاط الذي أنخرط فيه، أن أتخلَّى عن المحبَّة والتواضع، وإلَّا سأكون خائنًا لملكوت السموات.

من كتاب: يسوع الذي لم أكن أعرفه

٣ أيلول/سبتمبر

مُتاحٌ إلى حدٍّ صادم

تكلَّمَ راعي الكنيسة التي كُنتُ أحضرها في شيكاغو ذات مرَّة عن التغيير الكبير الذي أحدثَه "اقتراب الله". تحتاج فقط لأن تقرأ سفر اللاويِّين، ثمَّ تنتقلَ إلى سفر أعمال الرسل لتُدرك مقدارَ التَّغيير. كان على العابدين في العهد القديم أن يُطهِّروا أنفسهم جيِّدًا قبل دخول الهيكل، ويُقدِّموا قرابينهم لله بواسطة الكاهن. أمَّا في سفر الأعمال، فإنَّ أتباع الله (أغلبُهُم من اليهود الأتقياء) كانوا يجتمعون في البيوت ويُخاطِبون الله بكلمة "أبا" (Abba)، وهي كلمة أُسَريَّةٌ حميمةٌ مثل "بابا". وقبل أن يستخدمها يسوع نفسُه، لم يخطرْ في بال أيِّ يهوديٍّ أن ينطقَ بها ليدعوَ يهوه، الإله العظيم، خالق السماء والأرض. أمَّا مع يسوعَ، فصارت هي الكلمةَ المعتادةَ التي يستخدمها المسيحيُّون الأوائلُ لمخاطبة الله في الصلاة.

إبَّان حُكم الرئيس الأميركيِّ جون أف. كَنيدي (John F. Kennedy)، كان المصوِّرون يلتقطون أحيانًا مشاهدَ مُثيرةً للمشاعر. مثلًا، صورةٌ لرجال الحكومة جالسين حول مكتب الرئيس في حُلَلِهم الرَّماديَّة يناقشون قضايا ذات تداعيات عالميَّة كبرى، مثل أزمة الصواريخ الكوبيَّة. وفي تلك الأثناء، يدخل ابن الرئيس، ويُدعى جون الابن وهو طفلٌ تعلَّم لتوِّه المشي، ويتسلَّق المكتب الرئاسيَّ الضخم غير عابئ ببروتوكولات البيت الأبيض، ولا بأهمِّيَّة الموضوع الذي كان الكُبار يُناقشونه. لقد كان الطفل فقط يزور "بابا" في مكتبه. وأحيانًا، كان الطفل جون يتجوَّل في المكتب البيضاوي دون أدنى استئذان، فيترك والدُه كلَّ هذه الأمور، ويتابِعُهُ بسرور.

كانت كلمةُ "أبا" التي استخدمَها يسوعُ تعكسُ كيف أنَّ الله مُتاحٌ لأولاده بهذه الصورة الصادمة. فمعَ أنَّ الله هو سيِّد الكون، فإنَّه صار بابنه مُتاحًا مثل أيِّ أبٍ بشريٍّ شغوف بأبنائه. في رومية الأصحاح ٨، يرسم بولس الرسول هذه الصورة الحميمة بقُرب أكثر. فيقول إنَّ روح الله يعيشُ فينا، وعندما لا نعرف ماذا نُصلّي، فإنَّه "يشفع فينا بأنَّات لا يُنطَقُ بها".

نحن لا نحتاج لأن نقترب إلى الله وَفق تَسَلْسُلٍ للسُّلْطة، ولا نحتاج أيضًا لأن نهتمَّ بقواعد طهارة جسديَّة. فإذا كان ملكوت الله يحمل لافتة "ممنوع إلَّا للكاملين"، لَمَا أمكَنَنا الدُّخول. لقد جاءَ يسوع ليُعلنَ أنَّ الإله القدُّوسَ يُرحِّب بالمرأة الفقيرة ذات الفلسَين، وبقائد مئة رومانيّ، وبعشَّار بائس، وبِلِصٍّ مُعَلَّقٍ على صليبٍ بجانبه. فكلُّ ما نحتاج إليه هو أن ندعوه "أبا". وحتَّى إذا لم نقدرْ أن ندعوَهُ بكلمات مفهومة، فيُمكنُنا فقط أن نئنَّ؛ لأنَّ الله اقترب إلى هذا الحدّ.

من كتاب: ما أعجب النعمة

٤ أيلول/سبتمبر

لماذا نُصلّي؟

بصفتي صحفيًّا، أمضيتُ أوقاتًا مع شخصيَّات مشهورةٍ كانت تُشعرني بالضآلة الشَّديدة. فقد أجريتُ حوارَين مع رئيسَين للولايات المتَّحدة، وأعضاء فِرَقٍ موسيقيَّة مشهورة، وفائزين بجائزة نوبل، ونجوم تلفزيونيِّين، ورياضيِّين أولمبيِّين. ومع أنِّي أُعِدُّ أسئلتي وأراجعها جيِّدًا قبل اللقاء، فإنِّي نادرًا ما أنامُ نومًا جيِّدًا قبل هذه اللقاءات، ونادرًا ما أستطيع أن أحسبَ نفسي صَديقًا على قدم المساواة معهم.

وعلى النقيضِ من ذلك، فإنِّي في الصلاة أقترب من خالق كلِّ شيء. إنَّه شخصٌ يجعلني أشعرُ بالصِّغر على نحوٍ لا يُقاس. كيف أفعلُ أيَّ شيء سوى أن أصمتَ تمامًا بين يدَيه؟ وفوق كلِّ هذا، كيف يمكنني أن أعتقد أنَّه سيهتمُّ بما لديَّ لأقوله؟ إذا أخذتُ خطوةً إلى الوراء ونظرتُ إلى الصورة الكاملة، فإنِّي أتعجَّبُ من اهتمام هذا الإله العجيب، الكائن ما وراء المكان والزمان والفهم الإنسانيّ، بهذا الكوكب الضئيل في الكون الفسيح.

ولأنَّ هذا الإله ليس محدودًا بما يحدُّنا من زمانٍ ومكان، فهو قادرٌ أن يتدخَّلَ ويستثمرَ في حياة كلِّ إنسان. إنَّ لديه حرفيًّا كلَّ الوقت ليهتمَّ بكلٍّ منَّا. والسؤال المشهور: "من أين يجد الله الوقت ليستمعَ لملايين الصلوات التي تُرفَعُ في الوقت نفسه؟" تكشف حقيقة أنَّنا لا نستطيع أن نفكِّر خارج حدود الزمن. ولأنَّنا حَبيسو الزمن، فنحن لا نستطيع أن نستوعبَ الأبديَّة. والمسافة ما بين الله والبشريَّة هي مسافة لا يستطيع أحَدٌ أن يستوعبَها، لكنَّها هي ذاتُها ما يتيحُ لله أن يكونَ في علاقة مُحِبَّةٍ بنا.

عندما كان يسوعُ يعيشُ على كوكبنا، راضِيًا أن يكونَ محدودًا بالزمن، فَهِمَ أكثر من أيِّ شخص آخر الفرقَ الهائلَ ما بين الله والبشر. ومن الواضح أنَّه كان يعرفُ عَظَمَةَ الآب، كما كان يتأمَّلُ أحيانًا بنوعٍ من الحنين في هذه الصورة الكُبرى: "المجد الذي كان لي عندك قبل أن يكونَ العالم". لكنَّ يسوع لم يشكِّكَ قطُّ في اهتمام الله الذي يهتمُّ بالعصافير، ويحصي الشعر في رؤوس الناس.

لقد كان يسوع يقدِّرُ قيمة الصلاة حتَّى إنَّه كان يُمضي ساعاتٍ في الصلاة. فإذا كان عليَّ أن أجيبَ بجملةٍ واحدةٍ عن السؤال: "لماذا نصلِّي؟"، فستكون الجملة: "لأنَّ يسوع كان يُصلِّي". وعندما كان على الأرض، كان مُعرَّضًا لكلِّ شيء، مثلما نحن مُعَرَّضون- تعرَّضَ للرَّفض وللتَّجرِبة تمامًا مثلما تعرَّضنا نحن لهُما. في كلِّ الحالات كان تجاوُبه هو الصلاة.

من كتاب: الصلاة: هل تُحدث أيَّ اختلاف؟

٥ أيلول/سبتمبر

عملٌ ثوريّ

كانت إيتي هيليسم (Etty Hillesum) هي الفتاةَ اليهوديَّةَ التي حافظت على عادة كتابة اليوميَّات عندما كانت في معسكر التعذيب في أوشفتز. وقد كتبت عمَّا أطلقَتْ عليه اسم "الحوارُ الذي لا ينقطع" مع الله. لقد حصلَتْ هذه الفتاة على تجَلِّياتٍ روحيَّة مختَرَقة، حتَّى في هذا المكان القاحل معنويًّا. "أحيانًا عندما كنتُ أقفُ في أحد أركان المعسكر، قدماي مغروسَتان في أرضك، وعيناي مرفوعتان نحو سمائك، الدُّموع أحيانًا تنسابُ على خدَّيَّ، دموع مشاعر شكر وعرفان عميقة". لقد عرفَتْ إيتي الرُّعبَ، وكتبت قائلةً: "أريدُ أن أكونَ هُنا في عُمق ما يُسمِّيه الناسُ الرُّعب وأكون قادرة في الوقت نفسه أن أقولَ رُغم كلِّ شيء: «الحياة جميلة». أجل، أقفُ هنا في رُكنٍ قَصِيٍّ، حلقي جاف ومُصابة بالدُّوار والحُمَّى وعاجزة عن فعل أيِّ شيء، لكنِّي أعيش أيضًا مع نبات الياسمين، وذلك الجزء من السماء خلف نافذتي".

إنَّ الصلاة هي أحدُ أعمال الثورة، ونحن نُمارسُها في عالمٍ دائم التشكيك في الإيمان. ربَّما يكون لديَّ شعورٌ بالغُربة، لكنِّي بالإيمان أستمرُّ في الصلاة والبحث عن علاماتٍ أُخرى لحضور الله. لو لم يكن الله حاضرًا على مستوًى أقرب من الجزيئات في كلِّ الخليقة، فإنِّي أومن بأنَّ العالم ما كان ليتابعَ الوجود. إنَّ الله حاضرٌ في جمال الكون وفي غرابته اللذين كثيرًا ما يفشل البشر في إدراكهما. الله حاضرٌ في ابنه يسوع، الذي زارَ هذا الكوكب والآن يعملُ شفيعًا ومُحاميًا وممثِّلًا للبَشَرِ الذين يعيشون فيه أمام الله. الله حاضر في الجوعى والمُشَرَّدين والمَرضى والمَساجِين، كما قال يسوع في بشارة متَّى الأصحاح ٢٥، ونحن نخدم الله عندما نخدمهم. الله حاضرٌ في المُجتمعاتِ الفَقيرة في أميركا اللاتينيَّة، وفي كنائس البيوت السِّرِّيَّةِ في الصين، كما أنَّه حاضرٌ في الكاتدرائيَّات العظيمة التي شُيِّدَت لمجد الله. الله حاضر في الروح، الذي يشفعُ فينا بأنَّاتٍ لا يُنطَقُ بها، وهو يتكلَّم بِهَمْسٍ لكلِّ الذين يحوزون ضمائرَ متوافقةً مع موجَتِه.

لقد تعلَّمتُ أن أرى كيف أنَّ الصلاةَ ليسَتْ طريقتي في استحضار الله، بل هي طريقتي في التجاوُب مع حضوره المستمرِّ، سواء استطعتُ استشعاره أم لا. وكلَّما تعلَّقتُ أكثر من اللازم بالتقنيات، وغصتُ إلى عُمْق الشعور بالذَّنب لعدم الصلاة، أو تحوَّلتُ بعيدًا في إحباطٍ عندما لا تُستجاب الصلاة، فإنِّي أُذكِّرُ نَفسي أنَّ الصلاة تعني مُمَارَسَة رِفقة الله الحاضرِ على الدَّوام.

من كتاب: الصلاة: هل تُحدث أيَّ اختلاف؟

النظرُ إلى أعلى

ذات مرَّةٍ رأيتُ دَربَ التبَّانة (المجرَّة التي تنتمي الأرضُ إليها) وهي تَتلألأ وَسطَ الظَّلام الدامِس في مَجدٍ مَهيب. حدث ذلك عندما كنتُ في زيارة إلى مُعسكرٍ للَّاجئين في الصومال بالقرب من خطِّ الاستواء. كانت مجرَّتنا مُمتدَّةً عَبرَ فضاءٍ مُظلمٍ شاسعٍ مثل طريقٍ سريع مُرَصَّعٍ بشظايا الألماس. ومنذ تلك الليلة، صرتُ كلَّما استلقيتُ على الرمال الدافئة بَعيدًا عن أقرَب ضَوءٍ للشارع، أنظرُ إلى السماء التي لم تَعُدْ فارغةً كما بدَت، وأرى أنَّ الأرضَ لم تَعُدْ شاسعةً كما بدَت.

كُنتُ قد أمضيتُ اليوم السابقَ لتِلكَ الليلة أُجري حوارات مع عُمَّال الإغاثة حول الكارثة الكُبرى التي أَلَمَّتْ بالمكان في ذلك الحين. ومع أنَّ الأماكن والأسماء تغيَّرت– كردستان، رواندا، السودان، إثيوبيا– فإنَّ مشهدَ المعاناة الإنسانيَّة يَتشابه على نحوٍ كئيب. أمَّهات لا يستطِعنَ إرضاع أطفالهِنَّ رضاعةً طبيعيَّة، وأطفال يصرخون ويموتون، وآباء يبحثون دون رجاء عن خشب للوقود في أراضٍ بلا أشجار.

بعد ثلاثة أيَّام من الاستماع إلى قصص البؤس الإنسانيِّ، لم أستطع أن أرفعَ نظري بعيدًا عن معسكر اللاجئين ذلك الكائن في أرضٍ مجهولة، وفي دولة بائسةٍ في القرن الأفريقيّ. لكنْ بعدَ أن شاهدْتُ مشهدَ المجرَّة، تذكَّرتُ فجأةً أنَّ اللحظةَ الحاضرةَ ليسَتْ كلَّ الحياة. سيمضي التاريخ إلى الأمام، وقد ترتفعُ أو تهبطُ قبائلُ وحكوماتٌ وحضاراتٌ بأسرِها، وقد تقعُ الكوارث في إثرها، لكنِّي لا أجرؤ أن أَقصِرَ نِطاقَ بَصَري على مشاهِدِ الألَمِ مِن حَولي، بل أحتاج لأنْ أنظُرَ إلى أعلى نحو النجوم.

"هل تربِطُ أنتَ عقد الثريَّا؟ أو تفكُّ رُبُطَ الجَبَّار؟ أتُخرِجُ المنازِلُ في أوقاتها وتهدي النَّعشَ مع بناته؟ هل عرفتَ سُنَنَ السماواتِ، أو جعلتَ تَسَلُّطَها على الأرض؟" طرحَ الله هذه الأسئلة على أيُّوب، الذي كان مهووسًا بمعرفة سَبَبِ أَلَمِهِ، حتَّى إنَّه حصرَ رُؤيَتَهُ في حدود جِلْده المبتَلى. لكنَّ الغريبَ أنَّ هذا التذكير أفادَ أيُّوب. لم يزل جلدُهُ مُصابًا بالحَكَّة، لَكِنَّه نالَ رؤيةً أوسَعَ للكون الفسيح الذي يديره الله. من جهتي، فإنَّ خطابَ الله في سفر أيُّوب يحملُ نغمةً لا تَخلو من خشونة، لكنْ ربَّما هذه هي الرسالة الأهمّ، فمن حقِّ إله الكون أن يمارسَ بعضَ الخشونة، عندما يُهاجمه إنسانٌ صغيرٌ، مهما كانت وجاهة شكواه. وما دُمنا من الأجيال اللاحقة لأيُّوبَ، يجب ألَّا نفقدَ رؤيةَ الصورة الكبيرة التي تُرى واضحةً في ليلة يغيبُ فيها القمر، وتكسو النجومُ سماءَها.

من كتاب: العثور على الله في أقلِّ الأماكن توقُّعًا

٧ أيلول/سبتمبر

التكوين في البرِّيَّة

بعد ثلاث عشرة سنة في وسط مدينة شيكاغو، احتجتُ إلى بعض الوقت لأتأقلمَ مع الأوضاع الجديدة في جبال روكي. أجِدُ نفسي أفتقدُ إلى شخصيَّاتِ جيراننا: جامع علب الصفيح الذي كان يُسمِّي نفسه "تات الاستثنائيّ" (Tut the Uncommon)، والمريض العقليُّ الذي كان يجلس في القهوة طَوال اليوم مُتظاهرًا بتدخين سيجارة غير مُشتعلة، وذلك الشخص غريب الأطوار الذي كان يحوم في شارع كلارك حاملًا لافتة تقول: "أحتاج إلى زوجة".

في موقعنا الجديد، نرى حيوانات أكثر من البشر: الظباء التي ترعى فوق التلِّ خلف بيتنا، وناقر الخشب ينقر في جانب المنزل، والثعلب الأحمر الذي سمَّيناه "فوستر" الذي يمرُّ كلَّ مساء باحثًا عن طعام نقدِّمه إليه. منذ عدَّة أيَّام، جلس فوستر خارج الباب السِّلكيِّ الخارجيِّ ليستمع إلى البرنامج الإذاعيِّ لغاريسون كيلور (Garrison Keillor) الذي كنتُ أستمع إليه في أثناء تغطية جدران مكتبي بورق الحائط. كان فوستر في هذه الأثناء يميل برأسه وهو يستمع إلى موسيقا الجاز، لكنَّه عمومًا بدا مُستمتعًا بالبرنامج.

لم يمضِ وقتٌ طويلٌ منذ انتقالنا، حتَّى بدأتُ أقرأُ الكتابَ المقدَّسَ مرَّة جديدةً، مُبتدئًا بسفر التكوين. وسرعان ما اكتشفتُ أنَّ نبرةَ الكتاب المقدَّس تتغيَّرُ كلَّما تغيَّرت الأوضاع المحيطة بي. كُنتُ أقرأ قصَّة الخليقة في أثناء موسم الجليد. وكانت الجبال مكسوَّةً بالجليد من حولي، وتلمع في ضَوء الصباح. وكانت كلُّ شجرة صنوبر قد اكتست بعباءة بيضاء بلَّوريَّة. كان من السهل تَخَيُّل فَرَح الخليقة الأولى- وقتٌ وصفه الله لاحقًا لأيُّوب: "عندما ترنَّمت كواكب الصُّبح معًا، وهتف جميعُ بني الله".

في الأسبوع ذاته، قاطعَ قراءتي صَوتٌ مزعج. فقد ارتطم بنافذتي طائر صغير من طيور الصنوبر ذوي الذيل الملتوي والخطوط الصفراء المعقوفة على كلِّ جناح من أجنحته. وبعد الارتطام، سقط على بطنه على كومة من الثلج، يصارع لالتقاط أنفاسه وقطرات من دم أحمر تتساقط من منقاره. ظلَّ هناك عشرين دقيقة يتمايل رأسه كما لو كان في حالة دوار، ثمَّ رفرفَ في النهاية جاهدًا لينهضَ، ثمَّ سقط على الجليد ميِّتًا.

بينما تتوالى المآسي في العالم، شاهدت وقتها مأساة صغيرة. في أخبار الظهيرة، سمعت بمجزرة وقعت في الشرق الأوسط، ومذبحة في أفريقيا. وبصورةٍ ما، فإنَّ موت الطائر الصغير الذي شاهدته عبر النافذة، مَثَّلَ أمامي أهمِّيَّة ما كُنتُ أقرأُه في ذلك اليوم: فقد كانت لقطةً تمثِّل التحوُّل الهائل ما بين الأصحاحَين الثاني والثالث من سفر التكوين- ما بين جَمال الجنَّة البديع وسقوط الخليقة المُريع.

من كتاب: العثور على الله في أقلّ الأماكن توقّعًا

٨ أيلول/سبتمبر

بعد السقوط

يتضمَّن الأصحاح الثاني من سفر التكوين ملاحظةً تحريريَّة لم ألحَظْها من قبل. ففي مشهد لافت للنَّظر، يستعرض الله الحيوانات أمام آدم "كي يُسمِّيَها". يا له من إحساسٍ جديدٍ بالقوَّة والسُّلطان! خالق الكون بكلِّ اتِّساعه يتَّخذُ دورَ المتفرِّج، منتظرًا ما سيفعله آدم.

لقد أُعطينا، نحن البشرَ، "كرامة السببيَّة" كما يقول بلايز پاسكال (Blaise Pascal)، وتُثبتُ الأصحاحات التالية من سفر التكوين أنَّ هذه الكرامة هي أيضًا حِملٌ ثقيل. ففي وقتٍ قصير، أتقَنَ البشرُ أساسيَّات الحياة الأُسَريَّة والزراعة والموسيقا وصناعة الآلات. لكنَّهم أيضًا أتقنوا القتل والعهارة وغيرها من السِّمات الكئيبة التي يتميَّز بها جنسُنا. ولم يمرَّ وقتٌ طويلٌ حتَّى "ندم" الله على خَلْقِ الإنسان: "فحزِنَ الربُّ أنَّه عمل الإنسانَ في الأرض، وتأسَّفَ في قلبه" (تكوين ٦: ٦).

ويبدو الله في العهد القديم كلِّه كأنَّه يتراوح ما بين المُشاهِدِ والمُشارك. ففي أوقات، عندما يصرخ الدَّمُ من الأرض، ويتزايد الظُّلم لأبعادٍ غيرَ مُحتَمَلة، وعندما يتجاوز الشرُّ كلَّ الحدود، يتدخَّل الله على نحوٍ حاسم، وربَّما عنيف. فتُدخِّنُ الجبال وتنفتحُ الأرض، ويموتُ الناس. لكنَّ العهد الجديد يكشفُ عن الإله الذي يشاركُ بتفانٍ بالغ كَرَامة السببيَّة مع البشر حتَّى إنَّه صارَ ضحيَّة لهم. وهكذا اختار صاحبُ حقِّ تدمير العالم لو أراد- وكادَ أن يفعل ذلك مرَّةً في أيَّام نوح- أنْ يحبَّ العالم، بأيِّ ثمن.

أتساءل أحيانًا: كم كان صعبًا على الله ألَّا يتدخَّل في التاريخ. كيف كان يشعر وهو يرى مجدَ الخليقة- الغابات المطيرة والحيتان الضخمة والفيلة الرهيبة- تنقرضُ وتضمحل أحدُها وراءَ الآخَر؟ كيف كان يشعرُ وهو يرى العبرانيِّينَ أنفسهم يكادون يفنَون؟ كيف كان يشعر لَمَّا فَقَد ابنه الوحيد؟ ما ثمن ضبط النفس الذي تحلَّى به الله؟

كنت دائمًا أفكِّر في السقوط، من حيث تأثيرُه فينا نحن البشرَ، ولا سيَّما العقوبات المنصوص عليها في تكوين الأصحاح ٣. أمَّا الآن فيصدمني التفكير في تأثيره في الله. يُكرِّسُ الكتاب المقدَّس أصحاحَين فقط لوَصْفِ مجد الخليقة الأصليّ. أمَّا كلُّ ما يَتبع ذلك، فهو المسار المؤلم لإعادة الخلق.

من كتاب: العثور على الله في أقلِّ الأماكن توقُّعًا

٩ أيلول/سبتمبر

الفارقُ الكبير

تتبنَّى بعضُ الأديان مصطلح شهيد. وفي المسيحيَّة، انتصرَ المسيحيُّون الأوائل على روما لأنَّهم اختاروا المكافآت الأبديَّة بدلَ مجرَّد البقاء على قيد الحياة جسديًّا. رفضوا إنكار إيمانهم، وأصبحت دماء الشهداء بذار الكنيسة. (فرق محوريّ: أنَّ المسيحيِّين كانوا يموتون على يد روما، ولا يقتلون أحدًا).

نسمعُ اليومَ كلامًا قليلًا جدًّا في الغرب عن المجازاة الأبديَّة، بقدر ما نسمع عن التقنيات المختلفة لإبعاد الموت بعيدًا. الشباب من الشرق الأوسط مثلًا ممَّن يدرسون في الغرب، يشعرون بالانبهار الذي يصل إلى درجة الغيظ، من قَدر الطاقة المبذولة في الغرب للحفاظ على الحياة الجسديَّة. مثلًا، إذا استَطلعْتَ في أيِّ وقتٍ المجلَّات التي تُباع في المتاجر، فسوف تُحصي عددًا كبيرًا من العناوين التي تشير إلى بناء العضلات، أو الأنظمة الغذائيَّة، أو الموضة، أو النساء العاريات- وهي جميعها رموزٌ للاهتمام الذي نوليه للجَسَد.

التزمُّت الأخلاقيُّ هو تعبير مسيحيٌّ آخر تبنَّته بعض الأديان الأُخرى.

مثلًا، حينَما قاتلَ الجنود الأميركيُّون في حربَي الخليج الثانية والثالثة (١٩٩١ و٢٠٠٣م على التوالي)، كانت تلك المرَّة الأولى تقريبًا التي يعيشون فيها دون كحوليَّات ولا مجلَّات جنسيَّة، وذلك احترامًا للتقاليد الإسلاميَّة التي تسود البلدان التي كانت مشتركة في العمليَّات. قليلون منهم فقط أدركوا أنَّ الاختلافات في المعايير الأخلاقيَّة ما بين الإسلام والغرب هي اختلافات فلسفيَّة أيضًا، وليست مجرَّدَ ثقافيَّة.

فمن أجل تحديد ما هو أخلاقيّ، يميلُ المجتمع الأميركيُّ إلى تطبيق قاعدة "هل يؤذي هذا أحدًا؟" ومن ثَمَّ تُقنَّنُ الموادُّ الجنسيَّة الإباحيَّة، لكن ليس إذا تضمَّن الأمر عنفًا جنسيًّا وإساءةً جنسيَّةً للأطفال. يمكنك أن تسكرَ بصورة قانونيَّة، ما دُمتَ لا تكسر نافذةَ جارك، أو تقود سيَّارتك وأنت مخمور، مُعرِّضًا آخرين للخطر. لا بأس بالعنف على التلفاز؛ لأنَّ الجميع يعرفون أنَّه مجرَّد تمثيل.

غير أنَّ معايير الأخلاقيَّات تكشف المادِّيَّةَ الكامنةَ وراء مفاهيمنا. ففي حين نُعرِّف "الإيذاء" على أنَّه أقصى الصور مادِّيَّة، تراه المجتمعات الإسلاميَّة في شكل أكثر روحانيَّة. بهذا المفهوم الأعمق، ما الذي يمكن أن يكونَ مُضِرًّا أكثر من الموادِّ الجنسيَّة الإباحيَّة، أو من العُنف وإنْ كانَ شكلًا من أشكال التسلية، أو حتَّى التصوير الساخر للشرِّ والابتذال في المسلسلات التلفزيونيَّة الطويلة؟ من هذه المُنطلق، اكتسبَتِ الولايات المتَّحدة لقب "الشيطان الأكبر".

من كتاب: العثور على الله في أقلِّ الأماكن توقُّعًا

١٠ أيلول/سبتمبر

التعلُّم من الصِّدام

يمثِّل لامين سانيه (Lamine Sanneh) حالةً نادرة؛ فهو مواطنٌ من غامبيا الواقعة غرب أفريقيا. في سنوات مراهقته قرَّر اعتناق المسيحيَّة. والمفارقة هي أنَّ المُرسلَ الإصلاحيَّ الليبراليَّ الذي أعلنَ له لامين قراره، شعر بالحَرَجِ، بدل الفرح، وطلبَ إلى الشابِّ أن يُعيدَ التفكير. وأعادَ سانيه التفكير، وشعرَ بأنَّه "مدفوع على نحوٍ لا يُقاوَمُ" نحو الإنجيل، حتَّى إنَّه أقنع المُرسل بتعميده في النهاية.

ما زادَ المفارقات تعقيدًا، هو أنَّه استمرَّ في دراسته ليحصل على دكتوراه في التاريخ الدِّينيِّ، بينما كان يدرس اللاهوتَ المسيحيَّ. وإبَّانَ مسيرته الروحيَّة، ظلَّ على علاقةٍ وثيقةٍ بأسرته التي لا تعتنقُ المسيحيَّة. وبصفة سانيه أستاذًا في جامعة هارڤرد، ثمَّ جامعة ييل، أضافَ ميِّزاتٍ استثنائيَّةً إلى حوار الأديان.

ويحثُّ سانيه المسيحيِّين الغربيِّين أن يتجاوزوا شعورهم بالذَّنب بسبب الاستعمار والحروب الصليبيَّة، فقد تغيَّرَتِ الصورة العالميَّة. ففي كلِّ يوم، يعتنقُ المسيحيَّة ٧٥ ألفًا، ثلثاهم من أفريقيا. وهؤلاءِ المؤمنون النُّشطاء الجُدد يختبرون الإنجيل كما هو بالحقيقة، بوصفه خبرًا سارًّا.

وفي الوقت نفسه، يواجه المسيحيُّون في آسيا وأفريقيا مَدًّا حديثًا وعنيفًا من بعض الأديان الأخرى. فمثلًا لنفورِ المتديِّنين من الفساد والتفسُّخ الذي يَرَونَ أنَّ العَلمانيَّة الغربيَّة تتميَّزُ به، فإنَّ لهم مخطَّطَهم التبشيريَّ الخاص. ونرى أنَّ المعتدلين في بعض الدول يخسرونَ على الأرضِ في مواجهة المدِّ المتشدِّد، حيث يحاولُ المتشدِّدون أن يفرضوا نُسَخًا عنيفة من شرائعهم.

وعندما يخاطب سانيه معتنقي بعض الأديان الأُخرى، فإنَّه يحثُّهم على تعلُّم الدروس من كنيسة العصور الوسطى. فرَبْطُ الدِّين بالسياسة بصورةٍ وثيقة، سيؤدِّي إلى إفساد الدِّين، وإساءة استخدام السُّلطة. لقد جرَّبَ المسيحيُّون المزج ما بين الكنيسة والدولة، سواءٌ في جنيڤ السويسريَّة تحت إدارة كالڤن، أم في بريطانيا تحت حكم كرومويل، أم في إسپانيا وأميركا اللاتينيَّة تحت حكم محاكم التفتيش، فكانت تلك العهودُ نافعةً لوقت، لكنَّها أثارَتْ لاحقًا ردَّ فعلٍ عنيفًا.

يواجه المسيحيُّون وأتباع الأديان الرئيسيَّة الأخرى تحدِّيات متناقضة؛ فعلى الغربيِّين أن يتعلَّموا من الثقافات التي لا تدفع الدِّين خارج الصورة تمامًا، والتي ترى أنَّ الإيمان يؤثِّر في كلِّ جوانب الحياة، وتطلبُ إرشادَ القادة الدينيِّين في الأمور المجتمعيَّة والأخلاقيَّة.

وفي الوقت نفسه، على أتباع الأديان الأخرى أن يتعلَّموا من الغرب المسيحيِّ، الذي وجد أنَّ الديمقراطية الليبراليَّة هي الطريقة المُثلى لحماية حقوق الأقلِّيَّات في عالم صارَ متعدِّد الثقافات إلى حدٍّ كبير.

وإذا لم نتعلَّم كلُّنا هذه الدروس، الكوارثُ ستُحيقُ بنا، بما في ذلك "صدام الحضارات" الحادث حاليًّا.

عمود "الصفحة الخلفيَّة"، مجلَّة المسيحيَّة اليوم، عدد تمُّوز/ يوليو ٢٠٠٧م

١١ أيلول/سبتمبر

إمدادُ عمل الإغاثة بالطاقة

بعد أن حصلْنا على التصريح اللازم لعبور نقاط التفتيش، بعد أسبوعَين من هجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر على مركَز التجارة العالميّ، اصطَفَّ سُكَّان نيويورك- أجلْ سُكَّان نيويورك- على جانبَيِ الطريق مُلوِّحين ورافعين لافتات تحمل رسائلَ بسيطةً مثل: "نحن نُحِبُّكم. أنتم أبطالُنا. ليبارككم الرَّبّ. شكرًا لكم". كان العاملون في الإغاثة يستَمِدُّون الطاقة من هذا النوع من التشجيع مثلما كانت سيَّاراتهم تستمدُّ الطاقة من الوقود. كان لديهم القليل جدًّا من الأخبار السارَّة في أيَّامِهم. لقد كانوا يواجِهون ما تنوء به الجبال من مَهامَّ مُحبِطة، مثل رفع أطنان من الصُّلب المُلتَوي، والأتربة المُنهارة، والأجهزة المُحَطمَّة، والزجاج المُهَشَّم. لكنَّهم كانوا في كلِّ مرَّة يقودون سيَّاراتهم عبر الحواجز، يُقابِلون صفوفَ المُشجِّعين والمُلوِّحين من سكَّان نيويورك مثل النَّفَق الذي يخرجُ منه لاعبو كرة القدم الأميركيَّة. لقد كان المشجِّعون يُذكِّرون هؤلاءِ العاملين أنَّ هناك أُمَّةً بأكملها تُقدِّر خدماتهم. كنتُ في إحدى الحافلات الصغيرة التابعة لمنظَّمة "جيش الخلاص الخيريَّة" (Salvation Army) تومِضُ بأنوارها وتحصل على أعلى أصوات التشجيع.

كان مويسيس سيرانو (Moises Serrano)، وهو ضابطٌ في جيش الخلاص، هو قائدَ الحدث في المدينة. وكان يشغلُ منصبَه هذا منذ شهر فقط. كان سيرانو قد عملَ ستًّا وثلاثين ساعةً متواصلة، ونام أربعَ ساعات، ثمَّ عمِل أربعين ساعة، ونامَ ستَّ ساعات، ثمَّ أربعين أخرى، ونام ستَّ ساعات، ثمَّ استراحَ يومًا واحدًا. أمَّا مساعده، فقد أصيب بانهيار عصبيٍّ باكرًا، وقد لا يتعافى من تبِعاته بتاتًا. وكان معنا في الحافلة التي كنتُ فيها.

عَدَدٌ كَبيرٌ مِن أعضاء هذه المنظَّمة الخيريَّة الذين قابلتهم، وجرى استدعاؤهم من ولاية فلوريدا، هُم طاقم عمل الأعاصير المستعدين دائمًا بمخازن وشاحنات ملآنةٍ بكلِّ أنواع المؤن الأساسيَّة. وعندما سقط المبنَيان في مَنهاتن، حرَّكوا كلَّ شاحناتهم إلى نيويورك. قال لي قائد الفريق: "أقول لك الصِّدق، لقد جئت هُنا متوقِّعًا تعامُلًا صعبًا مع أهالي نيويورك (اليانكيز)[1]، لكنِّي وجدتُ العكسَ في الواقع، حيث ابتَسَموا لنا وأظهروا شكرَهُم وعرفانهم".

لقد قدَّرتُ جدًّا الصلابة المَرِحة لأعضاء جيش الخلاص. لقد كان ضُبَّاطُهُم يعملون في المشرحة، ويخدمون في الصفوف الأولى. لقد كانوا على مرِّ السنين قد نمُّوا قوَّةً داخليَّةً مبنيَّة على الانضباط والمُجتمع، الأهمُّ من ذلك أنَّهم نمُّوا هذه القوَّةَ على رؤية واضحة لمن كانوا يخدمونهم. ربَّما لدى جيش الخلاص تراتبيَّة قياديَّة، لكنَّ كلَّ الجنود والجُنديَّات كانوا يؤدُّون أمامَ جمهورٍ من شخصٍ واحد. كما قال لي أحدهم، إنَّ جنود

جيش الخلاص يخدمون لينالوا التحيَّة من الله وحده، وذلك في العددِ المشهور: "نَعِمَّا أيُّها العبد الصالح والأمين".

من كتاب: العثور على الله في أقلّ الأماكن توقُّعًا

١٢ أيلول/سبتمبر

واحةٌ عند المنطقة "صِفر"

كان مُمثِّلو جيش الخلاص مستعدِّين لتقديم المشورة والصلاة إلى كلِّ مَن يرغب فيهِا. وفي المنطقة "صفر" (موقع مركَز التجارة العالميِّ) كان أعضاء جيش الخلاص الذي يرتَدُونَ السُّترات الحمراء المُمَيِّزة للخُدَّام الروحيِّين مَقصِدًا لمن يريدون المشورة والصلاة. على العموم، كانوا هُناك للمساعدة في توفير الاحتياجات الإنسانيَّة الأساسيَّة: غسيل العيون التي ألهبَها الدُّخَان، وتوفير المُرطِّبات للشِّفاه الجافَّة، وأغطية الأحذية لمن يسيرون على مَعدِنٍ مُلتهِب. كانوا يديرون أيضًا محطَّاتٍ لتوفير المياه والأغذية البسيطة. كانوا يقدِّمون أيضًا أماكنَ للرَّاحة، ودجاجًا مطهوًّا هديَّةً من أحد المطاعم الشهيرة. وفي اليوم الذي وصلتُ فيه إلى هُناك، كانوا يوزِّعون ١٥٠٠ "بطاقة" هاتفيَّة ليتَّصِلَ العاملون ببيوتهم. كانوا كلَّ يوم يقدِّمون نحو ٧٥٠٠ وجبة طعام. لقد كانوا أشبَه بواحةٍ من الرحمة في برِّيَّة من الأطلال والرُّكام.

لقد درستُ الخرائطَ المنشورةَ في الصُّحُف، لكن لا يوجد تمثيل ثنائيُّ الأبعاد يستطيع أن يُعبِّر عن مقدار الدمار. فقد هُجرَتِ المباني في ثمانية ميادين، وتهشَّمتْ نوافذها، وكانت القِطعُ المعدِنيَّة الحادَّة تبرز من الأرضيَّات العالية فوق الأرض. آلاف المكاتب المُزوَّدة بأجهزة الفاكس والتليفونات والحواسيب كانت مُغطَّاة بالأتربة والرُّكام. في صباح الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، كان الناس يجلسون إلى هذه المكاتب وراء لوحات المفاتيح، ويُجرون الاتِّصالات التليفونيَّة، ويلتقطون أكواب القهوة لبدء يوم عملهم، ثمَّ فجأةً بدا كأنَّ نهايةَ العالم قد حَلَّت.

لقد كُنتُ أتأمَّل في وُجوه العاملين، الكُل مُتَجَهِّم. ولم أرَ ابتسامةً واحدةً في المنطقة صِفر. كيف يمكنك أن تبتسمَ في مكانٍ كهذا؟ لم يكن هذا الموقع يُقدِّمُ سوى الموت والدمار، وكان نصبًا تذكاريًّا يشهد عن أسوأ ما يُمكن أن يرتكبُه البشر بعضهم في حقِّ بعض.

وهُناك شاهَدتُ ثلاثة أكشاك مقامةٍ في مبنى مهجور يقع في الشارع أمام مركَز التجارة العالميّ، وكان مكتوبٌ على الأكشاك الثلاثة العناوين التالية: ضُبَّاط الشُّرطة من أجل المسيح، رجال الإطفاء من أجل المسيح، وعُمَّال الصحَّة من أجل المسيح (ويمثِّلُ هذا الأخير عملًا خيريًّا أُحِبُّ أن أدعمه). وكان القساوسة من جيش الخلاص قد أخبروني بأنَّ الشرطة وهيئة الإطفاء قد طالبا بإقامة خدمَتَيْ صلاة يوميًّا في الموقع. والصليب الأحمر، وهي هيئةٌ لادينيَّة، طلبَتْ إلى أعضاء جيش الخلاص أن ينضمُّوا إلى فرقها، فكان جوابهم بالقَول: "هل تمزحون؟ لهذا نحنُ هُنا!".

من كتاب: العثور على الله في أقلِّ الأماكن توقُّعًا

المَرذول

تبدو قصَّة حياة الروائيِّ اليابانيِّ شوساكو إندو (Shusaku Endo) شبيهةً بالحبك الدراميِّ لرواياته. ففي منشوريا، عاش غريبًا مُحتَقرًا بوصفه يابانيًّا مُحتلًّا. وعندما عادَ إلى اليابان، واعتنقَ الإيمانَ بالكاثوليكيَّة هو وأمُّه، عانى مرَّةً أخرى من ألم الاغتراب. لقد كانت الكنيسة في اليابان تؤلِّفُ ما نسبته أقلَّ من ١٪ من تعداد الشعب اليابانيّ. في المدرسة عانى جرَّاءَ تنمُّرِ زملائه لانتمائه إلى ذلك الدِّين الغربيّ. وجاءت الحرب العالميَّة الثانية لتزيدَ من شدَّةِ الإحساس بالاغتراب: لقد كان إندو ينظر دائمًا إلى الغرب حاسبًا إيَّاه وطنه الروحيّ، غير أنَّ الغربيِّين راحوا يضربونَ مُدُنَ اليابان.

بعد الحرب، سافر إندو إلى فرنسا ليدرسَ أدبَ الروائيِّين الكاثوليك الفرنسيِّين، مثل فرانسوا موريا (Francois Mauriac) وجورج برنانو (George Bernanos) لكنَّه تعرَّضَ للرَّفض هذه المرَّة على أساس عرقه لا دينه؛ إذ كانَ أوَّلَ طلّاب التبادُل الطلّابيِّ ما وراءَ البحار، وأوَّلهم في مدينة ليون (Lyons). لقد كانَ الحُلَفاءُ قد خلقوا تيَّارًا دائم من الدعاية العدائيَّة لليابانيِّين، ليجدَ إندو نفسَه من جديدٍ هدفًا للإيذاء العرقيِّ من مسيحيِّين مثله، وقد أطلقَ بعضُهم عليه لقبَ "المهووس ضيِّق العينَين".

قبل أن يعودَ إندو إلى اليابان من دراسته في أوروبَّا، زار الأراضي المقدَّسة ليبحثَ في حياة يسوع. وفي أثناء وجوده هناك، اكتشفَ اكتشافًا غيَّر حياتَه: أنَّ يسوعَ عرفَ أيضًا الرَّفضَ في حياتِهِ. بل إنَّ حياة يسوع كانت مُميَّزة بالرَّفض على الدَّوام. كان جيرانه يسخرون به، وكانت أسرته تتشكَّك في قواه العقليَّة. خانَه أقرب أصدقائه، واستبدلَ مواطنوه بحياته حياةَ مُجرمٍ معروف. وفي أثناء خدمته، كان يتحرَّك وسط المرفوضين والمنبوذين.

هذا التبصُّرُ الجديد في حياة يسوع، صدمَ إندو بقوَّة فيها الكثير من الإعلان الروحيِّ. لقد كان ينظر إلى المسيحيَّة من منظورٍ يابانيّ، بوصفها الديانة الغربيَّة القسطنطينيَّة المُنتصرة. لقد درس الإمبراطوريَّةَ الرومانيَّةَ المقدَّسةَ، والحملات الصليبيَّة، وأُعجِبَ بالكاتدرائيَّات الضَّخمة في أوروبَّا، وكان يحلمُ بالحياة في بلدٍ يمكن أن يكونَ المرءُ فيه مسيحيًّا دون عار.

والآن، وهو يدرس الكتاب المقدَّس في أرض المنشأ، رأى أنَّ يسوعَ نفسَه لم يتجنَّبِ العارَ وفقدان النعمة وقلَّةَ القبول. لقد جاء يسوعَ نفسه ليكونَ العبدَ المُتألِّمَ الذي صوَّره النبيُّ إشَعياء. "محتقرٌ ومرذولٌ من الناس، رجل أوجاع ومُختبر الحزن، وكمُسَتَّر عنه وجوهُنا". يسوع هذا بالتأكيد هو أكثرُ مَن يفهمُ الشعورَ بالرَّفض الذي كان يختبره إندو.

من كتاب: بالكاد نجوت

١٤ أيلول/سبتمبر

محبَّة الأُمّ

يقول المُعالج النفسيُّ إريك فروم (Eric Fromm) إنَّ الطفلَ الذي ينشأ في أُسرة مُتَّزنة ينالُ نوعَين من المحبَّة: محبَّة الأمِّ، وهي تميلُ لأن تكونَ غير مشروطة، وتقبَلُ الطِّفلَ مهما كان، ومحبَّة الأب، وهي تميل لأنْ تكونَ مشروطةً، وتمنح الرِّضى والقبول عندما يُظهر الطفل مقاييسَ معيَّنة من السلوك. ويقول فروم إنَّ الوضعَ المثاليَّ هو أن يستقبلَ الطفل هذين النوعَين ويختزنهُما. وبحسب الروائيِّ اليابانيِّ شوساكو إندو، فإنَّ اليابان، والتي يُتَّصَفُ الآباءُ فيها بأنَّهُم سُلطويُّون، قد فهمَتْ محبَّة الله الأبويَّة، ولم تفهَمْ محبَّته الأموميَّة.

لكي تحصل المسيحيَّة على أيَّة درجة من القبول من اليابانيِّين، فإنَّ عليها أن تؤكِّدَ محبَّة الله الأموميَّة، حيثُ اللهُ المحبُّ غافرُ الأخطاء وعاصب الجراح، فتلك المحبَّة تجتذب الناس بدلَ أن تُرغِمَهُم. ("يا أورشليم يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المُرسلين إليها. كم مرَّةً أردتُ أن أجمعَ أولادك، كما تجمع الدجاجة فراخَها تحت جناحَيها، ولم تريدوا").

يقول إندو: "في ديانةٍ أُموميَّة، يأتي يسوع من أجل العاهرات وعديمي القيمة والمُشَوَّهين حتَّى يغفرَ لهم"، ويرى إندو أنَّ يسوع جاءَ ليُقدِّمَ محبَّةً أموميَّةً لتُجريَ اتِّزانًا مع المحبَّة الأبويَّة التي يعكسُها العهد القديم. محبَّة الأمِّ لا تهجر الطفل حتَّى لو ارتكبَ جريمةً، وهي تغفرُ كلَّ أشكال الضَّعف. ويرى إندو أنَّ ما أبهرَ التلاميذ حقًّا هو إدراكهم أنَّ المسيح ظلَّ يُحِبُّهم حتَّى بعد أن خانوه. والأمرُ هُنا هو أنَّه ليسَ جديدًا أن يُثبتُ لك أحدٌ خطأك، أمَّا الجديدُ فهو أن يثبتَ لك خطأك ويظلَّ يحبُّك.

يُكمل كتاب إندو "حياة يسوع" تفاصيل صورة محبَّة المسيح الأموميَّة، حيث نقرأُ فيه:

"كان نحيلًا ولم يكن ضخمًا. لكنَّ شيئًا ما كان يُميِّزه: أنَّه لم يهجر مَن كانوا يعانون اضطراباتٍ من أيِّ نوع. فعندما كانت النساء تبكي، كان يبقى بجانبهن. وعندما كان المسنُّون يشعرون بالوَحدة، كان يجلس بجانبهم صامتًا. لم يكن هناك شيءٌ معجزيٌّ، لكنَّ عينَيه الغائرتَين كانتا تفيضان بالمحبَّة الأعمق من أيَّة مُعجزة. أما مَن هجروه، فلَم يَقُل عنهم كلمةَ لومٍ أو استياء. مهما حدث، كان رجلَ أوجاع، وكان باستمرارٍ يُصلِّي لأجل خَلاصِهِم".

كانت هذه هي كلُّ حياة يسوع. تقف مثالًا نقيًّا وبسيطًا وواضحًا.

من الكتاب: بالكاد نجوت

صحفيُّون في موسكو

أقلَقَني كثيرًا الاستقبالُ بالغَ التهذيب الذي وجدناه في موسكو. كانت الأمور تتغيَّر بسرعة شديدةٍ في الاتِّحاد السوڤييتيِّ عام ١٩٩١م. لكنِّي علمتُ أنَّ دولةً مُلحدةً بأكملها، لا يمكن أن تكون قد صارت وَدودةً نحو المسيحيِّين بين ليلةٍ وضُحاها، وكُنتُ أتوق إلى حوار صادق. كُنتُ أريدُ أن نتعرَّضَ، نحن المجموعة المكوَّنة من تسعةَ عشرَ قائدًا مسيحيًّا أميركيًّا، لبعض الأسئلة عالية التحدِّي حول الفَرقِ الذي يُمكن أن تُحدِثَه المسيحيَّةُ في دولة تتفكَّك كما كانَ بادِيًا. كُنتُ أعتقدُ مثلًا أنَّ مجموعةً من الصحفيِّين الساخرين الناقدين صَعبي المراس، هم مَن سيطرحوا مثل ذلك التحدِّي، لكنَّ ظنِّي خابَ. وإليكم ما حدث في نادي الصحفيِّين في موسكو. أوَّلًا، عرَّفنا بأنفسنا، نحن المسيحيِّين الأميركيِّين، الذين أُجلِسْنا على منصَّة سُلِّطتْ عليها الأضواء في مسرح صغير. بدا رون نيكل (Ron Nikkle) من زمالة السُّجون الدوليَّة شخصًا منفتِحًا، وهو بطبيعته شخصيَّةٌ متحفِّظة.

بدأ نيكل كلامه على النحو التالي: "قال ونستون تشرتشل إنَّك تستطيع أن تحكم على مجتمع ما من سُجونه. ووَفقًا لهذا المقياس، فإنَّ الاتِّحادَ السوڤييتيَّ والولايات المتَّحدة كلَيهما في حالة مأساويَّة؛ لأنَّ سجونَنا فظيعة. لقد زرتُ سجونًا حول العالم على مدى سنواتٍ عديدة، وتكلَّمتُ إلى اختصاصيِّين اجتماعيِّين وسلوكيِّين، وخبراء في العدالة الإجراميَّة. لم يَعرفْ أيٌّ منهم كيفيَّة تغيير السجون. لكنَّنا نؤمن- وقد شاهدت الكثير من الأدلَّة على ذلك- أنَّ السيِّدَ المسيحَ يستطيع أن يُغيِّر الإنسانَ من الداخل إلى الخارج. لقد كان يسوع نفسه سجينًا، ونفَّذَ فيه حُكم الإعدام، لكنَّه قام من الأموات، وبفضله يقومُ الكثير من السجناء اليوم".

بعد ذلك ذكرَ رون قصَّةَ سجين في الهند عاد إلى السجن بعد الإفراج عنه عشرات المرَّات في غضون واحد وعشرين عامًا. فلا يستطيع المجرم ببساطة أن يكسرَ الدائرةَ المفرَغة للجريمة. لكنَّه وجدَ المسيح يومًا ما. وعندما حارَتِ السُّلطات من غيابه عن قاعات المحاكم مدَّةً طويلةً، زارَه الحاكمُ المحلِّيُّ في بيته وسأله: ماذا حدث؟ أجاب السجين السابق: "للمرَّة الأولى في حياتي غفر أحَدٌ لي".

ساد القاعة صمتٌ، ثمَّ قام هؤلاءِ "الصحفيُّون الساخرون صَعبي المراس" بفعلٍ ما كنتُ لأتوقَّعَه ولا بعد ألف سنة: انفجروا كلُّهم في تصفيق حادّ. أمَّا قائمة الأسئلة بالغةُ التحدِّي التي وجَّهوها لرون فكانت على النحو التالي: "ما هذا الغفران؟ كيف نجدُه؟ كيف يمكن أن يعرفَ المرءُ الله؟". بعد ذلك قال لنا أحد الصحفيِّين إنَّ لدى أبناءِ مهنتهم في الاتِّحاد السوڤييتيِّ. مَيلًا خاصًّا إلى الاهتمام بالسجناء؛ فكثيرون منهم

أمضَوا فتراتٍ في السُّجون.

من كتاب: الصلاة مع المخابرات السوفييتيَّة

١٦ أيلول/سبتمبر

صلاحٌ دون الله

لاحظ مُحرِّرو صحيفة براڤدا (Pravda) بأسى أنَّ المسيحيَّة والشيوعيَّة تشتركان في بعض القِيَم العُليا، حتَّى إنَّ بعضَ الأشخاص أطلَقوا على الشيوعية لقب "هرطقة مسيحيَّة"؛ وذلك بسبب تشديدها على المساواة والمشاركة والعدالة والعمل على تحقيق التناغم العِرقيِّ ما بين البشر. لكنَّ ما كان فهو "أربعٌ وسبعون عامًا على الطريق دون تحقيق المبتَغى"، على حدِّ تعبير الروس الغاضبين في وصفهم لماضيهم الماركسيِّ، وقد علَّمتهم أنَّ التجرِبةَ الاجتماعيَّةَ الأعظم في تاريخ البشريَّة كانت خاطئةً على نحوٍ رهيب.

نادى الماركسيُّون التقليديُّون بالإلحاد، وحاربوا الدِّين بشدَّة، وذلك لسبب يتميَّز بالدَّهاء. فحتَّى يُلهِموا العُمَّال بالثورة العنيفة على ظالميهم، كان عليهم أن يقتلوا فيهم أيَّ رجاءٍ في حياةٍ أبديَّةٍ بعد هذه الحياة المادِّيَّة، أو أيَّ خَوفٍ من عقابٍ إلهيّ.

كتب قسٌّ رومانيٌّ اسمه جوزيف تون (Josif Ton) ذاتَ مرَّةٍ عن التناقض الذي يقع في قلب النظرة الماركسيَّة إلى البشريَّة.

"[إنَّهم يُعلِّمون] تلاميذهم أنَّ الحياةَ هي نتيجة تفاعل الموادِّ بمحض الصدفة المحكومة بقوانين داروِن للتَّكيُّف والبقاء، وأنَّه لا توجد حياة أبديَّة، ولا «مُخَلِّص» يُكافئ التضحية بالنفس أو يُعاقب الأنانيَّة أو الطَّمع. وبعد أن يتعلَّم التلاميذ ذلك، يُرسلوني لكي أُعَلِّمهم أن يكونوا رجالًا ونساءً نُبلاء وذوي أخلاق يبذلون كلَّ طاقاتهم في فعل الخير من أجل المجتمع. لكنَّهم، في واقع الأمر، يفتقرون إلى أيِّ دافع نحو الصلاح؛ ففي وسط عالم مادِّيٍّ تمامًا، لن يحصلَ على شيء إلَّا من يختطف ويمتلك. ما الذي يجعلهم يريدون أن ينكروا ذواتهم أو يكونوا أُمناء؟ ما الدافع الذي يدفعهم لأن يعيشوا حياةً أخلاقيَّةً لمنفعة الآخرين؟"

واعترف محرِّرو براڤدا أنَّه كان من الصعب عليهم تحفيز الناس لممارسة الرَّحمة والتعاطف. وَوجَّه إلينا هؤلاءِ المحرِّرون سؤالًا: "كيف تُصلِحون الناس، وتُغيِّرونهم وتزيدون من دافعيَّتهم؟" لقد بدَتِ الدولةُ كلُّها في حالة من الاكتئاب واليأس.

قال تي. أس. إليوت (T. S. Eliot) الذي رأى كثيرًا من أصدقائه يعتنقون حُلم الماركسيَّة: "أنَّ الجميع يبحثون عن مُجتمع مثاليٍّ بحيثُ لا يحتاج الناس فيه إلى الصَّلاح الفرديّ". وما كُنَّا نسمعه من القادة السوڤييت، والمخابرات السوڤييتيَّة، وصحيفة براڤدا، هو أنَّ الأمرَ انتهي بالاتِّحاد السوڤييتيِّ بالسيِّئَين معًا:

مجتمعٍ أبعدَ ما يكون عن المثاليَّة، وشعبٍ نسيَ كيف يكون الصَّلاح.

من كتاب: الصلاة مع المخابرات السوفييتيَّة

١٧ أيلول/سبتمبر

عندما كَتَبَ الله

ذات يوم بينما كُنتُ أتخبَّطُ في نوبةٍ من القلق والتشَكُّك الذي كثيرًا ما ينتاب الكُتَّابَ، وجَدتُ نفسي أتساءل ما إذا كان الله يعلَمُ شيئًا بما أجتازُ فيه. لقد تكلَّم الله، لكن هل كتب؟ جاءت إلى ذهني مباشَرةً الوصايا العَشر. لقد أعطى الله موسى لَوحَين من الحجر مكتوبًا عليهما "بإصبع الله" (خروج ٣١: ١٨). وعندما نزل موسى من جبل سيناء، كان العبرانيُّون قد انتَهَكوا أوَّلَ وصيَّتَين. وفي سَورةِ غضبه، كسرَ موسى اللَّوحَين، ما أدَّى إلى أوَّل إعادة كتابة يقوم الله بها.

المشهدُ الثاني للكتابة الإلهيَّة المعجزيَّة حدثَ في بابل (عراق العصر الحديث) وذلك في أثناء إحدى الولائم الكبرى، في عهد الملك بلشاصَّر، الذي دنَّس آنيةً ذهبيَّةً مأخوذةً من هيكل أورُشليم. وفجأةً ظهرَتْ يدٌ وكتبَتْ أربعَ كلمات على الحائط. وكانت تلك الليلة هي ليلةَ سقوط الإمبراطوريَّة البابليَّة في يد الفُرس.

تُسَجِّلُ الأناجيلُ حادثةً واحدةً كتبَ فيها يسوع، وذلك عندما أمسكَتِ السُّلطات الدينيَّة امرأةً مُتلبِّسةً بالزِّنى. كانت تستحقُّ عقوبةَ الموت رجمًا بحسب شريعة موسى. لكنَّ الرومانَ كان يمنعون اليهودَ من تطبيق عقوبة الإعدام. لم يقُلْ يسوع شيئًا، لكنَّه انحنى وكتب على الأرض. وعندما تكلَّم قال: "مَن كان منكم بلا خطيَّة، فليرْمِها أوَّلًا بحجر". في تلك اللحظة، انقلب الفَخُّ على المدَّعين. لقد بدأ عصرُ النِّعمة.

بعد ذلك تكلَّم بولس عن الناموس المكتوب على القلوب. وقال في رسالته إلى أهل كورنثوس: "ظاهرين أنَّكم رسالة المسيح، مخدومَةٌ منَّا، مكتوبَةٌ لا بحبرٍ بل بروحِ الله الحيّ، لا في ألواحٍ حجريَّة، بل في ألواحِ قلبٍ لَحميَّة" (٢كورنثوس ٣: ٣).

عند وَضْع هذه المشاهد معًا، فإنَّها تكشفُ المسيرةَ من الشريعة إلى النعمة. وعلى نحوٍ دالٍّ، يَنخَرِطُ فيها أقانيم الثالوث. ألواح حجريَّة، حائط، ثمَّ رملٌ في ساحة الهيكل- لم تصمدْ هذه الوسائط أمام عوامل الزمن. لكنَّ كتابة الله على القلوب تنتقل من جيلٍ إلى آخر في صورة حَيَواتٍ متغيِّرة. وقد كتبَ بولسُ الرسول إلى أهل أفسس قائلًا: "لأنَّنا نحن عَمَلُه [تحفةُ اللهِ الفنِّيَّة]" (أفسس ٢: ١٠)، وقد استخدمَ الكلمةَ اليونانيَّة "پويما" القريبة من كلمة "Poem" الإنكليزيَّة (وتعني قصيدة شعريَّة).

وبَعد استعراض مشاهد الكتابة الإلهيَّة، لم أعُدْ أشعُرُ بالثِّقل نفسه، فتأليفُ الكلمات على الورق شيء، وتحويل بشرٍ متقلِّبي المزاج والولاء إلى أعمال فنِّيَّةٍ مُقدَّسة، هو شيءٌ آخرُ تمامًا.

عمود "الصفحة الخلفيَّة"، مجلَّة المسيحيَّة اليوم، أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٧م

١٨ أيلول/سبتمبر

الفنُّ الداخليّ

كتب المؤلِّفُ التشيكيُّ المولِدِ ميلان كونديرا (Milan Condera) أنَّه كان دائمَ الاعتراضِ على مفهوم الألمانيِّ غوته (Goethe) أنَّ "الحياةَ يجب أن تُشبهَ العمل الفنّيّ". على العكس من ذلك، فإنَّ كونديرا كان يظنُّ أنَّ الفنَّ ظهرَ أصلًا في الوجود لأنَّ الحياةَ غير متوقَّعة، ولا شكل لها، وذلك إلى الحدِّ الذي تحتاج فيه إلى الفنِّ ليُقدِّمَ إليها بنيةً ومعنى تفتقر إليهما في الأساس. لكنَّ كونديرا اعترفَ أنَّ عليه أن يقدِّمَ استثناءً لذلك، وهو صديقه ڤاسلاڤ هاڤل(Vaslav Havel)، الذي بدأ كاتبًا مثل كونديرا، ثمَّ صارَ رئيسَ جمهوريَّة التشيك، وأحَدَ أقوى الأصوات الأخلاقيَّة في عالمنا. كان كونديرا يرى أنَّ حياةَ هاڤل تقدِّمُ نموذجًا لوَحدة الموضوع، والاستمرار الحثيث الواثق نحو الهدف.

ولأنِّي قرأتُ بعضًا ممَّا كتبه المؤلِّفان، فإنِّي أتساءل ما إذا كان الفارق بينهما يقعُ في وجهتَي النظر اللتَين تُشكِّلان خلفيَّة حياتهما. يرى كونديرا، حالُه حال أغلب المفكِّرين ما بَعد الحداثيِّين، أنْ ليسَتْ للحياة "رواية كُبرى" (Metanarrative)، ولا توجد بنية مَعنى يُمكنها أن تشرحَ مصدرَ الحياة (من أين أتت)، ولا مصير الحياة (إلى أين هي ذاهبة).

أمَّا هاڤل، فرأى أنَّ للحياةِ مِثلَ ذلك المَعنى العامّ. فقد كتب هاڤل في مزاج من الرثاء: "لقد صرتُ أكثَرَ فَأكثَرَ مُقتنعًا أنَّ أزمةَ غياب المسؤوليَّة الكونيَّة التي نحتاج إليها بشدَّة، تقعُ مَبدئيًّا في حقيقة أنَّنا فَقَدْنا اليقينَ أنَّ الكونَ والطبيعةَ والوجودَ وحياتَنا هي جميعًا عملٌ من أعمال الخَلقِ المقصود، أي أنَّ لهذا الوجود معنًى محدَّدًا، ويتَّجه صَوبَ قصدٍ معلوم".

إنَّ المسيحيَّ- ولم يحسب هاڤل نفسَه مسيحيًّا بصورةٍ واضحة- يرى ليس فقط الحياةَ في عمومِها عملًا فنِّيًّا، بل يرى أيضًا أنَّ حياةَ كلِّ فردٍ على حِدة هي عملٌ فنِّيٌّ كامِنٌ يحتاجُ إلى التفعيل. إنَّنا نشترك مع الله في استخدام الموادِّ الخامِّ لنخلقَ منها أشياءَ ذات جمالٍ يبقى. ونحن نكتبُ في حياتنا قصصًا قصيرةً هي جزءٌ من روايةٍ كُبرى نعلَمُ خطَّ حَبكِها الدراميِّ دون أن نعرف التفاصيل".

تقول المقولة التلموديَّة القديمة: "لستَ المسؤولَ عن إتمام العمل، لكنَّك مسؤولٌ أن تشتركَ فيه". العمل هو عمل الله، وهو استردادُ ذلك الكوكب التالف وافتدائه. والأمر عند اليهود والمسيحيِّين على حدٍّ سواء هو أنَّه لا بدَّ من الاشتراك في العمل، وهو أن نأتيَ بلمسةِ سلامٍ وعدلٍ ورجاءٍ وشفاءٍ إلى أيَّة منطقة يمكن أن تصلَ إليها أيادينا. وعند المسيحيِّين، يعني هذا أنَّهم يفعلون ذلك بوصفهم تلاميذ ليسوع المسيح، الذي جعلَ

ذلك الافتداءَ ممكنًا بصورةٍ لا نستطيع نحن القيامَ بها.

من كتاب: محاولة اللقاء مع إله غير منظور

١٩ أيلول/سبتمبر

توقيفُ روتيني اليوميّ

"كُفّوا واعلَموا: إنِّي أنا الربّ". أقرأُ في هذا العدد المعروفَ من المزمور ٤٦ وصيَّتَين على القدر نفسه من الأهمِّيَّة. أوَّلًا، يجب أن أكُفَّ، أي أن أصيرَ هادِئًا وساكنًا، والسكينة من الأمور التي تتآمر الحياةُ المعاصرةُ ضدَّها. منذ عشر سنوات، كنتُ أردُّ على الرسائل التي تصل إليَّ في غضون أسبوعَين، وكان هذا يجعل مُراسِليَّ سعداء. ومنذ خمس سنوات، صرتُ أرسل ردي بالفاكس في غضون يومَين، وكانوا يشعرون بالرِّضى. الآن يريدون ردًّا على البريد الإلكترونيِّ في اليوم ذاته، ويوبِّخونني لأنِّي لا أستخدم الرسائل النصّية المُباشرة على الهاتف النقَّال.

الغموضُ والسرِّيَّةُ والوعيُ بعالمٍ آخر، والاهتمام بالكينونة أكثر من الفعل، حتَّى لو على مدى دقائق قليلة من الهدوء، كلُّها أمور لا تأتي لي بصورةٍ طبيعيَّة في إطار إيقاع هذا العالم المحموم. يجب أن أجدَ الوقت بصعوبة لأسمَحَ لله بأَن يُغذِّيَ حياتي الداخليَّة.

في أثناء رحلةٍ روحيَّةٍ سَيرًا على الأقدام حتَّى مدينة أسيزي الإيطاليَّة، بدأَتِ الكاتبةُ باتريشيا هامپل (Patricia Hampl) تُدوِّنُ قائمة من الإجابات عن السؤال التالي: ما تعريفُ الصلاة؟ كتبتْ بضعَ كلمات: التسبيح، الشُّكر، التَّضَرُّع، إجراء الاتِّفاقيَّات، النحيب الذي بلا فائدة، التركيز. ثمَّ انقطعَتِ القائمة؛ لأنَّها اكتشفَتْ أنَّ الصلاةَ تبدو فقط كأنَّها ممارسة لغة: "بصورة أساسيَّة، الصلاة هي وَضعٌ يضَعُ الإنسان نفسَهُ فيه". وراحت تكتشف أنَّ "الصلاة هي ضَبْطٌ للبؤرة- ليسَتْ طريقةً للحدِّ من الرؤية، بل هي عادةٌ من ممارسة الانتباه على كلِّ ما هو موجود".

أجل، إنَّها عادةٌ من ممارسة الانتباه. كُفُّوا. في هذه الحالة من الهدوء والتركيز، يأتي كلُّ شيء إلى البؤرة. في هذا التوقيف لروتيني اليوميّ، ينضبطُ الكونُ كلُّه في مكانه الصحيح.

إنَّ وَصيَّة السكينة تُعِدُّني للوصيَّة التالية: "اعلَموا: إنِّي أنا الله؛ أتعالى بين الأمم أتعالى في الأرض". يُمكِنني بالصلاة فقط أن أومنَ بهذه الحقيقة وسط عالم يتآمرُ لقمع الله بدلَ تمجيده.

من كتاب: الصلاة: هل تُحدث أيَّ اختلاف؟

٢٠ أيلول/سبتمبر

تفكيكٌ عالميّ

يُصَوِّرُ المزمور ٢ الله وهو يضحك في السموات على الملوك والرؤساء الذين تجمَّعوا للتمرُّد عليه. وإذا ما تصوَّرْنا سجينًا أفريقيًّا، أو قسًّا يتعرَّضُ للمُضايَقة في الصين، أو مؤمنين مُضطهدين في كوريا الشماليَّة، فإنَّ الأمرَ يتطلَّبُ قفزةً فوق الواقع المُلموس للحصول على هذا الإيمان المَتسامي بأنَّ الله يتعالى فعلًا بين الأمم، ويتَعالى في الأرض. وأذكُرُ هُنا بولسَ الرَّسولَ وهو يرنِّم في سجن فيلبِّي، وأذكُرُ أيضًا يسوعَ وهو يُصحِّح مفاهيمَ بيلاطس قائلًا له: "لم يكن لك عليَّ سُلطان إنْ لم تكُن قد أُعطيتَ من فوق". حتَّى في لحظةِ الأزمة تلك، كانَتْ ليسوع تِلكَ النظرة الممتدَّة إلى ما قبلَ خلق المجموعة الشمسيَّة أصلًا.

"كُفُّوا واعلموا: إنِّي أنا الله". ويحملُ فعلُ الأمر "كُفُّوا" باللغة اللاتينيَّة معنى الإجازة، كما يشرح سيمون تَغويل (Simon Tugwell) قائلًا: "الله يدعونا إلى الحصول على إجازة، ويدعوا لأنْ نتوقَّفَ عن لعبِ دَورِ الله بعضَ الوقت، وندع الله يكون هو الله".

كثيرًا ما نحسبُ الصلاةَ عَمَلًا جادًّا، أو شيئًا يجبُ وَضْعُه في جَداوِلِنا وسطَ مواعيدنا وأنشطتنا المختلفة. يقول تَغويل إنَّ المقصودَ يكونُ قد فاتَنا حينها: "يدعونا الله لأن نستريحَ ونهرُبَ من مسؤوليَّاتنا. يقول لنا إنَّه يُمكننا أن نتوقَّفَ عن عمل كلِّ هذه الأمور المهمَّة التي نحاول أن نُتمِّمها بينما نحاول لَعِبَ دَورِ الله في عالمنا، ونتركها له ليهتمَّ بها". وفي سياقٍ متَّصِل، تسمحُ لنا الصلاةُ بأنْ نعترفَ بفشلنا وضعفنا ومحدوديَّاتنا، ونتركها لذلك الذي يتجاوَبُ مع الضَّعف والهَشاشة الإنسانيَّة برحمة لامُتناهية.

أن أترُكَ اللهَ يكون ذاتَه يعني بالتأكيد أن أتنازلَ عن قُمرةِ القيادة والتحكُّم. يجب أن أفكِّكَ هذا العالم الذي بنيتُه وصمَّمتُه بعناية ليلائمَ تحقيق أهدافي وخدمة قضاياي، ونَصَّبتُ نفسي مديرًا له.

آدمُ وحوَّاء، بُناة بُرج بابل، نبوخذنَصَّر، حُرَّاس السجن، علاوةً على كلِّ الذين يُصارعون الإدمانات المختلفة أو حتَّى الكبرياء- كلُّ هؤلاء يعرفون جيِّدًا خطورَةَ ذَلِك. إذا كان في وُسعِنا تتبُّعُ الخطيَّة الأصليَّة في الماضي وصولًا إلى رجل وامرأة كانا يريدان أن يصيرا مثل الله، فإنَّ أوَّلَ خطوةٍ في الصلاة هي أن "نتذكَّر" الله ونعترف به- أن نسترجع الحقَّ الكونيَّ. كما يقول ملتون (Milton): "لكي يعرفَ الإنسانُ أنَّه لا يُقيم في ممتلكاته الخاصَّة".

من كتاب: الصلاة: هل تُحدث أيَّ اختلاف؟

٢١ أيلول/سبتمبر

البدءُ من فوق

يقع منزلي على وادٍ ضيِّقٍ في ظلِّ جبلٍ ضخم بمحاذاة جدولٍ مائيٍّ صغير يُسمَّى جدول الدُّبّ (Bear Creek). وعندما ينصهرُ الجليدُ في الربيع وبعد الأمطار الغزيرة، يمتلئ الجدول ويفيض زابدًا على الصخور المُحيطة، ويتصرَّف كما لو كان نهرًا، وليسَ مجرَّدَ جدولٍ صغير، حتَّى إنَّ بعضَ الأشخاص غرقوا فيه. ذات مرَّة تتبَّعتُ هذا الجدول حتَّى منبعه فوق الجبل. وعندما وصلت إلى هُناك وَجدتُ نفسي واقفًا عند حقل جليديٍّ تملأه انخفاضات صغيرة مثل الأكواب، وهو ما يحدث عندما تصهَرُ الشمس الجليد، لذا فهي تُسمَّى "أكواب الشمس". وتحت هذه الطَّبَقة الجليديَّة، استطعتُ أن أسمعَ صَوتًا خفيضًا لرجرجة المياه الناتجة من انصهارِ الجليد، ثمَّ على حافَة هذا الحقل الجليديِّ بدأتْ تتسرَّب مساراتٌ (سواقٍ) للمياه، وهي تتجمَّعُ بدَورها لتصنعَ تجمُّعًا مائيًّا، ثمَّ بركةً جَبَليَّةً كبيرةً، وسرعان ما تنسكبُ هذه البِركة من فوق لتبدأ رحلتَها الطويلةَ نزولًا من فوق الجبل، وتنضمُّ في طريقها النازل إلى نُهَيرات أُخرى تؤلِّفُ معًا ذلك الجدول.

خطر في بالي، وأنا أفكِّر في الصلاة، أنِّي غالبًا ما أخطئُ في تحديد الاتِّجاه. فأنا آتي إلى الله بأحوالي واهتماماتي مبتدئًا من الأسفل، ثمَّ أُخبِرُ الله كما لو كان لا يعلمُ مُسبَّقًا. أتضرَّعُ إليه، كما لو كنتُ أرجو أن أغيِّرَ رأيَه، أو أتغلَّبَ على تَرَدُّدِهِ في بعض الأمور. وعلى العكس، ينبغي أن أبدأ من فوق حيث يبدأ التيَّار النازل إلى أسفل.

وعندما أغيِّر الاتِّجاه، فإنِّي أُدرك أنَّ الله يهتمُّ حقًّا بأموري- العمُّ المُصاب بالسرطان، والسلام العالميّ، والأُسرة المفكَّكة، المراهق المُتَمَرِّد- يهتمُّ الله بكلِّ هذه الأمور أكثر ممَّا أهتمُّ أنا. إنَّ النعمة مثل الماء، تنساب إلى أكثر الأماكن انفخاضًا. من عند الله تنسابُ ينابيعُ الرحمة.

لذلك عليَّ أن أبدأ مع الله، الذي يتحمَّل المسؤوليَّة الأولى عن كلِّ ما يحدث على وجه الأرض، وأسأله: ما الدَّور الذي يمكن أن ألعبَه في عمل الله في هذا الكوكب؟ صرخ عاموس النبيُّ قائلًا: "ليَجرِ الحقُّ كالمياه والبرُّ كنهرٍ دائم" أأقِفُ على الضِّفاف إذًا أم أقفزُ في التيَّار؟

عندما أتَّخِذُ هذه النقطة لبداية الصلاة، يتغيَّر منظوري تمامًا. عندها أنظرُ إلى الطبيعة، ولا أرى فقط زهورًا برِّيَّةً وأشجارَ حورٍ ذهبيَّةً، بل أرى في الواقع توقيعَ فنَّانٍ عظيمٍ مهوب. أنظر إلى الإنسان ولا أرى فقط "حيوانًا بائسًا عاريًا يمشي مُنتصبًا على ساقينَ" بل أرى شخصًا ذا هُوِيَّةٍ ومصيرٍ أبديٍّ مخلوقٍ على صورةِ الله. عندئذٍ يتصاعَدُ في داخلي الحَمدُ والشُّكر، وذلك في ردِّ فعلٍ طبيعيٍّ، وليس واجبًا مفروضًا.

من كتاب: الصلاة: هل تُحدث أيَّ اختلاف؟

٢٢ أيلول/سبتمبر

اتِّباع الطريق

قال يسوع: "أنا هو الطريق والحَقُّ والحياة". ربَّما يكوِّنُ الحقُّ والحياةُ الدافعَ الذي يجعلُ المرءَ يتَّبعُ يسوع. غير أنَّ العلاقة بالله، حالُها حالُ أيَّة علاقة، تتلخَّصُ في "الطريق"، أو المسيرة اليوميَّة التي فيها أدعو الله إلى الاطِّلاع على تفاصيل وجودي. ربطَ سورين كيركيغارد (Sorn Kierkegaard) ما بين بعض المسيحيِّين وصِبيَة المدارس الذين يريدون أن يبحثوا عن حلول مسائل الرياضيَّات في قسم الإجابات في نهاية الكتاب. لا أحد يتعلَّمُ الحساب إلَّا بمحاولة حلِّ المسألة خطوةً خطوة. في التشبيه الذي صاغه جون بَنيَن (John Bunyan) يُمكن أن يصل السائح إلى مقصده فقط باتِّباعِ الطريق، واجتياز أفراحه وصعوباته، والأجزاء الذي يبدو فيها كأنَّه انحرفَ.

لديَّ صديقٌ عازبٌ يصلِّي لله بحرارة أن يقلِّل رغبتَه الجنسيَّة، أو حتَّى يقضي علَيها؛ فهي تُسبِّب له تجاربَ مستمرَّةً، على حدِّ قَوله. حيث تشتِّتُ الموادُّ الإباحيَّة انتباهه، وتدفعه في غياهب دوامات من الفشل. وبكلِّ اللطفُ الذي أستطيع التعبير عنه، أقول له إنِّي أشكُّ في أنَّ الله سيستجيبُ تلك الطلبةَ كما يريده صديقي أن يستجيب، كأنْ يعيد مثلًا ضَبْطَ مستوى هرمون الذكورة في دمائه. الأغلبُ أنَّ على صديقي أن يتعلَّم الانضباطَ الجنسيَّ مثلما يتعلَّمها أيُّ شخصٍ آخر، مُعتمدًا على الله وعلى التدريبات المختلفة.

لسبب ما، تركَ الله هذا العالمَ الساقطَ يتحمَّل تَبِعات سقوطه وقتًا طويلًا. ويبدو لنا، نحن العائشين في هذا العالم، أنَّ الله يعطي قيمةً عُليا لنموِّ شخصياتنا، أكثر من حصولنا على الراحة، وأنَّه كثيرًا ما يستخدم الأشياءَ التي تُخرجُنا من راحتنا ليُشكِّلَ بها شخصيَّاتنا.

في حياتي الروحيَّة الشخصيَّة، أُحاول أن أظلَّ منفتحًا على الحقائق الجديدة، ولا ألومَ الله عندما لا تحدثُ الأمور كما توقَّعتُ. ولكنِّي أثقُ بأنَّ الله يقودني حتَّى في الفشل، نحو التغيير والنموِّ. وأنا أتوقُ أيضًا لأنْ أثق بأنَّ "أبي يعلمُ أكثر منِّي"، بأنَّه أدرى بالكيفيَّةَ التي يُدارُ بها هذا العالم. وعندما أتأمَّلُ في عصر العهد القديم، أرى أنَّ الله كان يتدخَّلُ بطريقة شديدة الوضوح، وهي الطريقة نفسها التي أتمنَّى منه دائمًا أن يتدخَّلَ بها في حياتي، لكنَّ النتائجَ لم تكن كما كنتُ أتوقَّع. وعندما أرسل الله ابنه- لا يُخطئ، ولا يُرغم أحدًا على الإيمان به، وهو شخصٌ ملآنٌ بالنِّعمة والشفاء- ما كان منَّا إلَّا أنْ قتلناه. يسمح الله أحيانًا بحدوث المآسي الشخصيَّة ليُحقِّقَ أهدافًا أعظم.

من كتاب: محاولة اللقاء مع إله غير منظور

٢٣ أيلول/سبتمبر

أبوابُ الجحيم

يذكُرُ إلتون تروبلَد (Elton Trueblood) أنَّ الصورةَ التي رسمَها يسوع لوَصْفِ مصير الكنيسة- "أبواب الجحيم لن تقوى عليها"- هي صورةٌ هجوميَّة، وليسَتْ دفاعيَّة. هي صورة المسيحيِّين وهم يحاولون اقتحامَ بوَّابات الجحيم، ويحقِّقونَ الانتصارَ. ومهما بدا الأمر في أيَّة مرحلة من مراحل التاريخ، فلن تحتملَ الأبواب التي تحمي قوى الشرِّ هجماتِ النعمة.

مَن يستطيع أن ينسى الصور الآتيةَ من الفيلبِّين، عندما سجدَ عامَّة الشعب أمام دبَّابات تزن الواحدة منها خمسين طنًّا، والتي توقَّفت كما لو كانت قد اصطدمَتْ بجدار غير منظور من الصلاة. الفيلبِّين هي البلد الوحيد في قارَّة آسيا الذي تسكنه أغلبيَّةٌ مسيحيَّة، وهو المكان الذي فيه تغلَّبتْ أسلحة النعمة على أسلحة الطُّغيان. عندما نزل بينينو أكينو (Benigno Aquino) من طائرته في مانيلا قبل اغتياله مباشرةً، كان يحمل في يده خطابًا يحتوي على هذا الاقتباس من غاندي: "إنَّ التضحية الطوعيَّة التي يتَّخذُها بريءٌ هي أقوى ردٍّ يعرفُه الله أو الإنسان على الطغيان المتغطرس". لم تسنح لأكينو الفرصة أن يقدِّم هذا الخطاب، لكنَّ حياتَه- وحياة زوجته- أثبتَتْ أنَّ هذه الكلمات نبويَّة، فقد أصيب نظام ماركوس بضربة قاتلة.

يقول السيناتور السابق سام نَن (Sam Nunn) إنَّ الحرب الباردة انتهت "ليس بجحيم نَوَويّ، بل بوَهج الشموع في كنائس أوروبَّا الشرقيَّة". لم تظهر مسيرات الشموع المُضاءة في ألمانيا الشرقيَّة بصورة واضحة في الأخبار المسائيَّة على شاشات التلفزة، لكنَّها ساعدَتْ على تغيير وجه الكرة الأرضيَّة. في البداية كانت بضعةَ مئات، ثمَّ ألفًا، وأخيرًا وصل تعدادُ المسيرات إلى خمس مئة ألف شخص، وهو يعادل تعداد مُدن بأكملها، خرجت إلى الشوارع تحمل الشموع المُضاءة، ثمَّ تحوَّلتْ هذه المسيرات إلى نَوباتِ صَلاةٍ طَوال الليل على ضَوء الشموع في لايبزغ (Leipzig)، فبعد اجتماعات الصلاة في كنيسة سان نيكولاي، كان المحتجُّون السِّلميُّون يُسيِّرونَ مسيرات في الشوارع المظلمة، ويرنِّمون الترانيم المسيحيَّة، وبدا رجال الشرطة بكلِّ أسلحتهم، عاجزين أمام مثل هذه القوة.

وأخيرًا في الليلة التي اجتذبت فيها مسيرة من هذه المسيرات في برلين الشرقيَّة مليون محتجٍّ، دُمِّرَ سور برلين البغيض دون إطلاق رصاصةٍ واحدة. وظهرَتْ لافتةٌ ضخمةٌ على طول شارع في لايبزغ تقول: "نشكرك أيَّتُها الكنيسة".

من كتاب: ما أعجب النعمة

٢٤ أيلول/سبتمبر

ترسانةُ النعمة

مثلما تدفع رياحُ الهواء النقيِّ سُحُب التلوُّث الراكدة، انتشرت الثورة السلميَّة في أرجاء العالم. ففي عام ١٩٨٩م وحده اختبرت عشر بلدان يصل تعداد سكَّانها في المجموع إلى نصف مليار نسمة، ثَورات سلميَّة. في الكثير من هذه البلدان لعبَتِ الأقلِّيَّة المسيحيَّة دورًا جوهريًّا. كان السؤالُ الساخرُ الذي أطلقَه ستالين: "كم فرقةً عسكريَّة لدى البابا؟". قد نالَ إجابةً وافية على سؤاله هذا.

ثمَّ في عام ١٩٩٤م، اندلعَتْ أكثر الثورات إدهاشًا. وكانت مُدهشةً؛ لأنَّ الجميعَ تقريبًا توقَّعوا حمَّاماتِ دم، لكنَّها لم تحدُث. كانت جنوب أفريقيا الموطنَ الأصليَّ للاحتجاج السِّلميّ؛ فهناك كان موهانداس غاندي (Mohandas Ghandi) يدرس تولستوي والموعظة على الجبل، وهناك وضعَ استراتيجيَّته للنِّضال السِّلميِّ (الذي تبنَّاه مارتن لوثر كنغ الابن من بعده). لقد أُتيحَتِ الفرصةُ لمواطني جنوب أفريقيا على مدى زمنٍ طويل أن يمارسوا التدريبَ على استخدام أسلحة النعمة. يحكي ولتر وينك (Walter Wink) عن امرأة سوداء كانت تمشي في الشارع مع أولادها عندما بصق عليها رجل أبيض. عندئذٍ توقَّفت، وقالت: "شكرًا لك، والآن هل يمكن أن تبصق أيضًا على الأطفال". تَسَمَّر الرجل في مكانه ولم يستَطع التجاوُب.

في إحدى قُرى السود التي كان البيض يريدون الاستيلاء عليها، وجدَ النساءُ منَ العرقِ الأسوَدِ أنفسهنَّ محاطات بالجنود والجرَّافات. ثمَّ أعلن الجنود باستخدام مكبِّرات الصَّوت أنَّ أمامَ سكَّان القرية دقيقتَين فقط لتَرْك بيوتهم قبل أن تسوِّيها الجرَّافات بالأرض. لم يكن لدى النساء أيُّ سلاح، وكان رجال القرية في أعمالهم. وإذ علَمَتِ النساءُ بالميول المتحفِّظة التي لدى الأفريكانز من العِرق الأبيض، والذين ينتمون إلى الكنيسة الهولنديَّة المُصلحة، وقفنَ أمام الجرَّافات وخلعْنَ ملابسهنَّ، ففرَّ رجالُ الشرطة البِيضُ، وظلَّتِ القريةُ قائمةً إلى يومنا هذا.

غير أنَّ التقارير الإخباريَّة بالكاد ذكرَتِ الدَّورَ الذي لعبَه الإيمانُ المسيحيُّ في جنوب أفريقيا. فبعد أن فقدَ فريق الوساطة برئاسة هنري كيسنجر (Henry Kissinger) كلَّ أملٍ في إقناع حزب الحرِّيَّة المنتمي للإنكاتا بالمشاركة في الانتخابات، اجتمَعَ دبلوماسيٌّ مسيحيٌّ كينيٌّ سرًّا بكلِّ القادة، وصلَّى معهم، وساعدَ في تغيير قناعاتهم (تسبَّب تعطُّلُ بوصلة عن العمل بصورةٍ غامضة في إحدى الطائرات في تأخير إحدى الرحلات ممَّا جعل ذلك الاجتماع ممكنًا).

من كتاب: ما أعجب النعمة

الغفرانُ الصعب

كَسَرَ نيلسون مانديلا سلسلةَ الافتقار إلى النعمة في جنوب أفريقيا عندما خَرَجَ من سجن دامَ سبعًا وعشرين عامًا برسالة الغفران والمصالحة بدلَ الانتقام. وقد صرَّحَ أف. دبليو. دي كليرك (F. W. De Klerk) نفسه، المُنتخب من أصغر كنيسة كالڤنيَّة وأكثرها تشدُّدًا في جنوب أفريقيا، أمام شعب كنيسته أنَّه شعر "بإحساس عميقٍ بالدَّعوة"، أي أنَّ الله دعاه لخَلاص كلِّ شعب جنوب أفريقيا، رغم أنَّه كان يعلَمُ أنَّ هذا قد يتضمَّن الرفض من جماعته التي ينتمي إليها.

أصرَّ الزُّعماءُ السُّود أن يعتذر دي كليرك عن الفصل العُنصريّ. فامتنع في البداية؛ لأنَّ أبيه كان من بين من بدأوا هذه السياسة. لكنَّ الأسقف ديسموند توتو (Desmond Tutu) كان يرى أنَّ من الضروريِّ أن تبدأ المصالحة في جنوب أفريقيا بالغفران، ولم يتنازل عن ضرورة اعتذار دي كليرك. وبحسب توتو: "درسٌ واحدٌ يجب أن نتمكَّنَ أن نعلِّمه للعالم، ولا سيَّما لشعوب مثل البوسنة ورواندا وبوروندي: أنَّنا مستعدُّون للغفران". وفي النهاية، اعتذر دي كليرك.

وبعد أن نالَتِ الأغلبيَّةُ السوداءُ النفوذَ السياسيَّ، بدأوا يفكِّرون في أمور الغفران. وبدا كلام وزير العدل لاهوتيًّا جدًّا وهو يضَعُ السِّياسة. لا يمكن أن يغفرَ أحَدٌ بالنِّيابة عن الضَّحيَّة نفسها، بل يجب على كلِّ شخص تعرَّضَ للظُّلم أن يغفرَ هو بنفسه. ولا يمكن أن يحدثَ الغفرانُ دون الكشف التامِّ عن الجُرم المرتَكَب: ما حدث، والذي ارتكبَه. ويجب أن يُكشَفَ كلُّ هذا بكلِّ وُضوح وشفَّافيَّة. كما أنَّ الذين ارتكبوا الفظائعَ يجب أن يطلبوا الغفران قبل أن يُغفَرَ لهم. وخطوة بخطوة، كان المواطنون يتذكَّرون ماضيَهم بكلِّ الألم ليستطيعوا أن يغفروه.

لقد اكتشفوا أنَّ الغفرانَ ليس سهلًا ولا واضحًا. يمكن أن نغفرَ مثلًا للألمان، لكنْ يجب وضعُ قيودٍ على الجيش الألمانيّ. يمكن أن نغفرَ للمعتدي على الأطفال، لكن يجبُ أن نبعدَه تمامًا عن أيَّة ضحيةٍ محتملة، ويمكنُ أن نغفرَ العنصريَّة الجنوبيَّة، لكنْ يجب أن نطبِّقَ قوانين تمنع حدوثها مرَّةً أخرى.

إلَّا أنَّ الأمم التي تمارس الغفران بكلِّ تعقيداته وصعوباته، قد تتجنَّب على الأقلِّ ويلات العكس، أي ويلات عدم الغفران. وبدلَ مَشاهِدِ المذابح والحروب الأهليَّة، شعر العالم بالمكافأة وهو يشاهد السُّود من مواطِني جنوب أفريقيا في طوابير طويلة مُمتدَّة أحيانًا أكثر من ١.٥كم، يرقصون مبتهِجين بسبب أوَّل فرصة لهم في التاريخ للتَّصويت في الانتخابات.

من كتاب: ما أعجب النعمة

٢٦ أيلول/سبتمبر

العطيَّةُ التي لا يريدُها أحد

يقول د. پول براند (Paul Brand) بإخلاصٍ شديد: "نشكرُ الله من أجل الألم". الألم بطبيعته مؤلم بما يكفي ليرغمَنا أن نُبعدَ إصبعَنا عن الفرن الُملتهب. هذه الطبيعة التي يتميَّز بها الألم، والتي تحمينا من الدَّمار. فما دامَتِ العلامةُ التحذيريَّة لا تُطالبُنا بردِّ فعل، فربَّما لا ننتبه لها.

لم يخطئ الله عندما صمَّم الألم، بل إنَّ الألم عطيَّةٌ إلهيَّة- العطيَّة التي لا يريدُها أحد. وأقول هنا إنَّ علينا أن نحسبَ الألم شبكةَ اتِّصالاتٍ أكثر من أيِّ أمرٍ آخر. إنَّها شبكةٌ هائلة من مستقبلات الألم تنتشر في كلِّ أرجاء الجسم، وتقف حارسةً بهدفٍ واحدٍ: حماية الجسد من الإيذاء.

ولا أقول إنَّ كلَّ الألم جيِّد؛ فأحيانًا ينتشرُ الألم ويتوهَّجُ بصورةٍ تجعلُ الحياةَ بائسةً. والأمرُ لمن يعاني التهابَ مفاصلَ مزمنٍ، أو يجتاز المراحلَ النهائيَّة للسرطان، هو أنَّ الألمَ يسودُ على نحوٍ يجعلُ التخلُّصَ منه هو النعيمُ بعَينه. أمَّا لأغلبنا؛ وفي أغلب الأوقات، تلعبُ شبكة الألم دورَ حمايةٍ مهمًّا، وتحفظ لنا الحياة على سطحنا كوكبِنا الخَطِر.

وعلى حدِّ وصف د. براند، فإنَّ "الشكوى الوحيدة الشرعيَّة التي يمكن أن نشتكيَها ضدَّ الألم هي أنَّنا لا نستطيع إيقافَه. إذ يمكنُه أن يثورَ ويخرجَ عن السيطرة، كما في حالة مريض السرطان في مراحله النهائيَّة، رغم أنَّنا استوعَبْنا الإنذارَ الذي يقدِّمه، وليس لدينا ما نفعله لعلاج سببِ الألم. لكنِّي على يقينٍ، بوصفي طبيبًا، أنَّ أقلَّ من ١٪ من الألم يقعُ تحت هذه الفئة التي يمكن أن نسمِّيها «الألم الخارج عن السيطرة». أمَّا ٩٩٪ من حالات الألم الذي يعانيه الناس، فهي آلامٌ مؤقَّتةٌ ناتجةٌ عن مواقفَ قابلةٍ للتَّصحيح تحتاج إلى الراحة، وبعض الأدوية، أو تتطلَّبُ تغييرًا في أسلوب حياة الإنسان".

أعترفُ أنَّ هذه الفكرة المدهشة عن "عطيَّة الألم" لا تجيب عن الكثير من المشكلات المرتبطة بالألم والمعاناة، لكنَّها نقطةُ بدايةٍ لمنظورٍ واقعيٍّ للألم. كثيرًا ما تكون الصدمةُ النفسيَّةُ الناتجةُ عن الألم شديدةً حتَّى إنَّنا لا ننتبه إلى القيمة الجوهريَّة الكائنة فيه.

من كتاب: أين الله في وقت الألم؟

٢٧ أيلول/سبتمبر

استخدامُ الألم

أجرَيتُ ذاتَ مرَّةٍ مقابلةً مع روبن غراهام (Robin Graham) أصغر شخص يُبحر حول العالم بمفرده (رُوِيَتْ قصَّته في كتابٍ وفيلمٍ يحملان عنوان "اليمامة" [Dove]). أقلع روبن في بداية رحلته لمَّا كانَ مراهقًا في سنِّ السادسة عشرة، ليس بحثًا عن مستقبله، بقدر ما كان يحاولُ تعطيله قليلًا. وفي مسار تلك الرحلة الطويلة، سحقَتْ عاصفةٌ عنيفةٌ من عواصف المحيط مُقَدَّمَ سفينتِه، وقطعَتْ موجةٌ عاتيةٌ ساريَتَه نصفين، ونجا بأعجوبة من الفَناء تحت الماء جرَّاء تلك الزوبعة العاتية.

كما اجتاز روبن أيضًا أوقاتَ يأسٍ وحزنٍ وركودٍ عندما مرَّ بأجزاءٍ من المحيط خالية تمامًا من تيَّارات الهواء أو الأمواج، بالقرب من خطِّ الاستواء، حتَّى إنَّ الأمرَ وصل به إلى إفراغ عُبُوَّةٍ من الكيروسين على قاربه، ثمَّ أشعلَ القاربَ وقفزَ إلى البحر. (سرعانَ ما جعلته عصفةُ ريحٍ يُغيِّر رأيَه، فقفز من البحر إلى القارب من جديدٍ ليُطفئَ النيران، ويتابعُ رحلته).

بعد خمس سنوات، دخلَ روبن ميناء مدينة لوس أنجلوس، فتلقَّى تحيَّةً لائقةً من قوارب تُطلق صفَّاراتها البخاريَّة، كما كان بانتظاره جماهيرُ ترفعُ لافتات، علاوةً على صحفيِّين وسيَّارات تطلق نفيرها. كان فرحه في تلك اللحظات على مستوًى آخرَ مختلفٍ عن أيَّة خبرةٍ أخرى اختبرها. ما كان ممكنًا في الواقع أن يشعرَ بمثل هذه المشاعر، لو كان عائدًا من نزهةٍ بحريَّةٍ عاديَّة على ساحل ولاية كاليفورنيا. لقد كان ألمه وعناؤه في رحلته حول العالم هو السبب في فرحة عودته المُنتصرة. كان عمره ستة عشر عامًا عندما بدأ الرحلة، وها هو يعودُ في سنِّ الحادية والعشرين.

وبسبب شعور روبن المتزايد بالقوَّة والصحَّة بسبب هذا الإنجاز، اشترى مباشرةً قطعة أرض في كاليسبل (Kalispell)، في ولاية مونتانا، وبنى عليها كوخًا خشبيًّا بعد أن قطَّعَ خشبَه بِيدَيه. حاول الناشرون ومنتجو السينما أغراءه بالذَّهاب في رحلات دعائيَّة حول البلاد، واستضافات في البرامج التلفزيونيَّة، ومبالغ ماليَّة كبيرة، غير أنَّه رفضَ كلَّ العروض المقدَّمة.

وأقول هنا إنَّ لدينا، نحن الحداثيِّين، ميلًا في بيئاتنا المضبوطة بدقَّة لأجل راحتنا أن نحسبَ الألمَ سببَ تعاستنا وعَدوَّنا الأكبر. ونظنُّ أنَّنا إذا تمكَّنَّا من استئصاله من حياتِنا تمامًا، فسوف نصيرُ سعداء. لكنْ كما يظهرُ من خبرة روبن، فالحياة لا تخضعُ لتلك التقسيمات السهلة. الألم هو جزءٌ لا يتجزَّأ من نسيج الأحاسيس الإنسانيَّة، وكثيرًا ما يكون مقدِّمةً ضروريَّةً للشُّعور بالسعادة والإنجاز. إنَّ مفتاح السعادة لا يقعُ في تجنُّب الألم بأيِّ ثمن، بل يقعُ في فَهْمِ دَورِه بوصفه إنذارًا يهدفُ إلى حمايتنا، واستغلاله ليعمَلَ لمصلحتنا، وليس ضدَّنا.

من كتاب: أين الله في وقت الألم؟

علاوةٌ فجائيَّة

عبَّرَ يسوعُ في بلاغةٍ وتكثيفٍ شديد عن الطبيعة التخالفيَّة للحياة في تصريحاته التي كثيرًا ما تكرَّرت في الأناجيل: "مَن وجدَ حياتَه يضيعها، ومَن أضاعَ حياتَه من أجلي فهذا يجدها". يأتي هذا التصريح عكسَ البحث عن "إشباع الذات" الذي ينادي به علم النفس المتقدِّم، والذي سرعان ما يظهرُ أنَّه ليس متقدِّمًا بما يكفي.

تُقدِّمُ المسيحيَّة التَّبصُّرَ الأبعد، وهو أنَّ الإشباع الحقيقيَّ يأتي ليس بتلبية احتياجات الذات، بل بخدمة الآخرين.

عندما أحاول أن أتذكَّر الكنائس العظيمة التي زرتُها، لا تأتي في بالي صور الكاتدرائيَّات العظيمة في أوروبَّا، والتي لا تُعدُّ سوى متاحفَ الآن، بل أتذكَّر مثلًا كنيسةً صغيرةً ملحقةً بمستشفى لعلاج الجُذام (البرص)، أو كنيسةً في حيٍّ فقير وسط مدينة نيوارك (Newark)، وهي كنيسةٌ بجدرانَ متآكلةٍ من الجير، وسقف متشبِّعٍ بالماء، أو كنيسةً إرساليَّةً في العاصمة التشيليَّة سانتياغو، مبنيَّةً بكتلة اسمنتيَّة، وسقف من الصاج المموَّج. في مثل هذه الأماكن التي أُنشئتْ وسط البؤس الإنسانيِّ، رأيتُ وفرةَ المحبَّة المسيحيَّة.

يقدِّمُ مستشفى الجذام في كارڤيل، ولاية لويزيانا، مثالًا عظيمًا لهذا المبدأ العامل. اشترت هيئةٌ حكوميَّةٌ الأرض، ووعدت بتطويرها، لكنَّها لم تجدْ مَن يُسوِّي الشوارع، ويُصلحَ أكواخَ العبيد الذين كانوا يعملون في المزرعة، أو يعمل على تصريف مياه المستنقعات. كانت وصمة الجذام تنجحُ في إبعاد الجميع.

وفي النهاية، انتقلَتْ طائفة من الراهبات تُسمَّى "أخوات المحبَّة" إلى كارڤيل لرعاية مرضى الجذام. كُنَّ يستَقيظنَ قبل شروق الشمس بساعتَين، ويَرتَدينَ مَلابسهِنَّ البَيضاء المُنَشَّاة في الجو الحارِّ. عَاشَتْ هؤلاءِ الراهباتُ بانضباطٍ أعلى من انضباط معسكرات تدريب مشاة البحريَّة الأميركيَّة. لكنَّهنَّ وحدَهنَّ اللاتي أبدَينَ استعدادهنَّ لتأدية هذا العمل. حفرْنَ الخنادق، ووضعْنَ أساساتِ المباني، وجعلْنَ من كارڤيل منطقةً قابلةً للحياة، وفوق كلِّ هذا، كُنَّ يَمَجِّدنَ الله ويجلبنَ البهجةَ إلى المرضى. لقد تَعَلَّمنَ أعمقَ مستوًى من تضافُر الألم واللذَّة في الحياة الإنسانيَّة، وذلك بواسطة الخدمة المضحِّية.

إذا أمضيتُ حياتي باحثًا عن السعادة من العقاقير أو الراحة والرفاهية، فستهربُ منِّي السعادة؛ "فالسعادة تبتعد عمَّن يطاردونها". لكنَّها تأتي على غير المتوقَّع، بوصفها نتاجًا جانبيًّا، أو علاوةً فُجائيَّة على الدعوة التي أستثمرُ فيها حياتي. وغالبًا ما يتضمَّنُ ذلك الاستثمار على ألم ومعاناة. ومن الصعب تخيُّل اللذَّة دون ألم.

من كتاب: أين الله في وقت الألم؟

٢٩ أيلول/سبتمبر

بَلَد قوس قزح

في عام ٢٠٠٦م، سافرتُ في جولةٍ تجوب عدَّة مُدن في جنوب أفريقيا لأتكلَّمَ عن النعمة العاملة. وفي حين تسعى دولٌ مثل كوريا الشماليَّة وإيران سعيًا محمومًا للحصول على أسلحة نوويَّة، عملَتْ جنوب أفريقيا على تفكيك أسلحتِها النوويَّة. وقد تكلَّم الجميعُ عن مُعجزة التغيير التي حدثَتْ هناك.

وعلى عكس توقُّعات الحرب الأهليَّة وحمَّامات الدم، اقترح نيلسون مانديلا (Nelson Mandela) وكبير الأساقفة ديسموند توتو طريقةً جديدةً ليسَتْ مبنيَّة على تحقيق العدالة، بل على تحقيق المصالَحة. فعلاوةً على استضافة مانديلا حارسه في السجن ليشهَدَ حفل تنصيبه رئيسًا لجنوب أفريقيا، عَيَّن مانديلا شرطيًّا أبيَض، وهو العدوُّ اللدودُ للسُّود، ليكونَ حارسَه الخاصّ. ثمَّ صارت لجنةُ الحقِّ والمُصالحة التي شكلها ديسموند توتو نَموذَجًا يُحتَذى في العالم بأسره.

لم يمضِ وقتٌ طويلٌ من رحلتي قبل أن أختبرتُ مَدَى التنوُّع في هذه الدولة التي تشبه قوس قزح. في الليلة الأولى تكلَّمتُ في كنيسة أسقفيَّة، أغلب أعضائها من البِيض الناطقين بالإنكليزيَّة والمُنحدرين من أصول بريطانيَّة. وبعد عدَّة أيَّام ذهبت إلى العاصمة، بريتوريا، حيث تكلَّمتُ أمام جمع من الأفريكانز البيض المتشدِّدين والمنتمين إلى الكنيسة الهولنديَّة المُصلحة، وكانوا قد انتقلوا منذ وقتٍ قليلٍ إلى مبنًى ضخمٍ يسعُ سبعة آلاف شخص، وهو أمرٌ يُعدُّ متناقضًا لمن يعرفون الكنيسة الهولنديَّة المُصلحة عريقة التقاليد. (لا أرغن، بل مجموعةٌ كبيرةٌ من الطبول). لقد كان الأفريكانز هم أكبر الخاسرين في التغيير الحادث- خسروا الكثير من النُّفوذ والسُّلطة والمال والمكانة- كما نالوا احتقارَ الكثيرين بوصفهم مُهندسي سياسة الفصل العنصريّ. كثيرون منهم تركوا البلاد، وصارَ مَن مَكَثوا أكثر تواضعًا وانفتاحًا من أيِّ وقتٍ مضى.

في الليلة التالية مباشرة، تكلَّمت في كنيسة راي ماكولي (Ray McCauley) الخمسينيَّة، والتي يبلغ عدد أعضائها ٤٣ ألفَ عضوٍ، يؤلِّفُ السُّودُ منهم ٨٠٪، و١٠٪ "ملوَّنون" أو من أعراقٍ مُختَلَطة. ورُغمَ أنَّك قد تكونُ متحفِّظًا من أسلوبِ عبادة الكاريزماتيِّين، فعليَّ أن أعترف أنَّ من الألطف جدًّا أن تتكلَّم إلى جمهور يُصفِّق، ويقول "آمين!"، ويومئ برأسه طَوال الوقت. ولأنَّ نسبةً كبيرةً من السودِ في جنوب أفريقيا اعتنقوا المسيحيَّة، فهذا يدعو للدَّهشة في ضَوء المعاملة التي تحمَّلوها من هؤلاء الذين جلبوا ذلك الإيمان إلى بلادهم. وهذه ملاحظة لها ما يوازيها في الولايات المتَّحدة حيث اعتنقَ العبيد دين مالكيهم.

مذكِّراتُ رحلاتٍ غير منشورة، جنوب أفريقيا، ٢٠٠٦م

٣٠ أيلول/سبتمبر

جَعْلُ اللّٰه مَنظورًا

في زيارة أجريتُها عام ٢٠٠٤م إلى جنوب أفريقيا، قابلتُ امرأةً جديرةً بالتّقدير، اسمها جوانا (Joana)، وهي تنتمي إلى عرق مختلط ما بين الأبيض والأسود، وهي الفئة التي تُعرَف هناك بِاسْم "الملوَّنين". عندما كانت طالبةً، كانت ثائرةً من أجل تغيير سياسة الفصل العنصريِّ، ثمَّ شهدَتِ المعجزةَ التي لم يتوقَّعها أحدٌ: التفكيكَ السِّلميَّ لهذا النظام البغيض. بعد ذلك، جلسَتْ مع زوجها ساعات طويلة تشاهد بثًّا حيًّا لجلسات استماع لجنة الحقّ والمصالحة.

وبدلَ أن تبتهجَ جوانا فقط بحرِّيَّاتها التي نالتْها مؤخَّرًا، قرَّرتْ أن تفتحَ مِلفَّ أكثر السجون عُنفًا في جنوب أفريقيا، وهو السجن الذي أمضي فيه مانديلا سنوات عدَّة. كان رجال العصابات المُغطَّاة أجسادهم بالوُشوم يُسيطرون على السجن، وكانوا على نحوٍ متشدِّد يطبِّقون قواعدَهم الخاصَّة التي بها يحصل المساجين الجددُ على عضويَّةِ عصابتهم بالهجوم على مساجين لا ترغب العصابة فيهم. أمَّا إدارة السجن فكانت تتجاهل ذلك، تاركة هؤلاء "الحيوانات" يضربون، بل يقتلون بعضهم بعضًا.

بدأت هذه المرأة الجذَّابة تدخلُ بمفردها أمعاء ذلك السجن. كانت الرسالةُ البسيطةُ التي تحملها هي رسالة الغفران والمصالحة، محاوِلةً أن تطبِّق على نطاق أصغر ما فعله نيلسون مانديلا في الأمَّةِ كلِّها. بدأتْ تنظِّمُ مجموعاتٍ صغيرةً، وراحتْ تُعلِّم المساجين ألعاب الثقة، وجعلتهم ينفتِحون بالتَّدريج ويشاركون بتفاصيل جرائمهم البشعة. وفي السنة السابقة لبداية زياراتها، كانت سجلَّات السجن قد سجَّلت ٢٧٩ حالة عنف، أمَّا في السنة التالية كانت هناك حالتَين فقط! كانت نتائج جوانا مبهرةً حتَّى إنَّ هيئة الإذاعة البريطانيَّة (بي. بي. سي.) أرسلَتْ فريقًا من لندن لتصوير فيلمَين وثائقيَّينِ مدَّةُ كلٍّ منهما ساعةً عن تلك السيِّدة.

قابلتُ جوانا وزوجها، الذي اشتركَ معها منذ ذلك الحين في عملها، في مطعم على البحر بمدينة كيپ تاون. وبحِسِّيَ الصحفيّ، ضغطتُ عليها للحصول على تفاصيل ما كان يحدث في السجن. توقَّفتِ الشوكةُ التي كانت تأكل بها في طريقها إلى فمها، ونظرت إليَّ وقالت، دون تفكير تقريبًا: "بالتأكيد يا فيليپ، كان الله موجودًا في السجن. كان عليَّ فقط أن أجعلَه منظورًا".

لقد فكَّرتُ كثيرًا في هذا التصريح الذي قالته جوانا؛ فهو تصريحٌ يصلحُ لأنْ يكونَ إقرارَ إرساليَّة لنا جميعًا، نحن الذين نريدُ أن نعرفَ الله ونتبعَه. الله دائمًا حاضر، في أقلِّ الأماكن توقُّعًا، وليس علينا سوى أن نجعلَه منظورًا.

1) يُعرَف أهلُ نيويورك عمومًا بأنّهم متكبِّرون ومتغطرسون ومنفِّرونَ (المترجم).

تشرين الأوَّل/أكتوبر

١. حجر رشيد
٢. العدسة المُكبِّرة للإيمان
٣. اقتراب الله
٤. يسوع البروزاك
٥. الرؤية الجديدة
٦. وجبات فخمة لمصلحة الفقراء
٧. نوال حياة
٨. أصعب مهنة في العالم
٩. مُرشد الظِّلّ
١٠. لاهوت من نكات قذرة
١١. مشكلة اللذَّة
١٢. لحظات الطَفو
١٣. رؤية المسيَّا
١٤. غير المرغوب فيهم
١٥. خسارة الحروب الثقافيَّة
١٦. بلا طُرُق مُختصرة
١٧. الإرشاد الليليّ
١٨. نظرة إلى الخلف
١٩. الحضور
٢٠. الصلاة بالطريقة السليمة
٢١. يسوع ونورمان العاصف
٢٢. التطويبات المعكوسة
٢٣. مكافآت مستقبليَّة
٢٤. إله عادل في النهاية
٢٥. مراهنة الله
٢٦. كنيسة منتصف الليل
٢٧. مُعلِّمون مدمنو خمر
٢٨. الاهتمام بالنَّكِرات
٢٩. التواضع الحقيقيُّ
٣٠. أيادٍ لا يمكن إسكاتُها
٣١. صلاحٌ يُذهِب العقل

مُستَمعون مأسورون

في كلِّ اللقاءات التي أجريتُها في زيارتي إلى جنوب أفريقيا عام ٢٠٠٦م، رويتُ قصَّة جوانا، التي تُجسِّدُ النِّعمة والمُصالحَة. عندما ذهبنا إلى كيب تاون، دَعَتنا إلى سجن پولسمور (Pollsmoor) حيث تعمل. إنَّه مكان مُدهش مُكوَّن من خمسة سجون منفَصِلة، ومُرتبطة بعضها ببعض بواسطة أنفاق تحت الأرض، وبمجموع مساجين يساوي ثمانية آلاف سجين، وهو ثلاثة أضعاف قدرتها الاستيعابيَّة الطبيعيَّة.

كان عدَّة مئات من السُّجناء مزدحمين في ما يُشبه غُرفةً للتمارين الرياضيَّة، وقادت جوانا الخدمة. كان لها حضور مُميَّز، وكانت تُحيِّي كلَّ سجين باسمه، وقد نالَتِ احترام السُّجناء والمسؤولين على حدٍّ سواء. في أغلب الأيَّام، كان يُسمَحُ للنُّزلاء بالخروج من زنازينهم مدَّة ساعةٍ فقط، لذا فقد كانت فرصةُ حضورِ خدمةٍ كنسيَّةٍ فرصةً مُرَحَّبًا بِها جدًّا من جانب المساجين. لن أتمكَّنَ بسهولة أن أنسى صَوتَ عدَّة مئاتٍ من الرِّجال يُرنِّمونَ بوَجدٍ: "قريبًا وقريبًا جدًّا، سنرى المَلِك...ولن يكون هناك بُكاء...ولا موت...".

بعد الاجتماع، أجرَينا زيارة إلى إحدى الزنزانات الثلاث التي وصفَها السجنُ بأنَّها "زنزانات مسيحيَّة". ٤٩ رجلًا ينامون في غرفة في حجم غرفة المعيشة العاديَّة. ثلاثة أدوار من الأسرة بعضها فوق بعضٍ، وكان بعضُهم ينامون على قطع من الفلِّين على الأرض. كان "المرحاض" كيسًا من أكياس القمامة، يخدم ٤٩ رجلًا، ويُفرَغُ مرَّةً يوميًّا، لذا فإنَّ الرائحةَ الناتجةَ صَدَمَتني كمَن يرتطمُ بجدارٍ.

هُناك، سمعنا بعضًا من القصص الشخصيَّة للسُّجناء: "أنا قاتل ومسجون هنا مدى الحياة، علاوةً على ثمانية وثلاثين عامًا...أنا مُغتَصِب...وقد قتلتُ زوجتي". واحدًا تلو الآخر كانوا يحكون كيف غيَّر الله حياتهم، وكيف باتوا الآنَ يتمنَّونَ أن يعيشوا من أجله، حتَّى لو لم يخرجوا من السجن. تديرُ جوانا وزوجها، جوليان، برنامجًا من العدالة الإصلاحيَّة، يسير بهؤلاء الرجال في مراحل الاعتراف والتوبة والاسترداد.

رَنَّمنا بعض الترانيم ثمَّ خَرَجْنا، في ما يُشبه الصَّدمة، إلى الهواءَ الطَّلقَ وجمالَ مدينة كيپ تاون.

مشهدٌ واحدٌ ظلَّ معي: فَبَدلَ الصُّوَر الجنسيَّة والكتابة على الحوائط، زيَّنَ هؤلاء المساجين جدرانَ زنزاناتهم بكلمات من الترانيم والتسابيح. كان هذا أكثر ما لمسني، في ضَوء ما قالَتْه لي جوانا في المطعم: "لقد كان الله بالتأكيد حاضرًا في هذا المكان".

مذكِّراتُ رحلاتٍ غير منشورة، جنوب أفريقيا، ٢٠٠٦م

٢ تشرين الأوَّل/أكتوبر

بطلٌ على خلاف المتوقَّع

أجريتُ ذاتَ مرَّةٍ مقابلةً مع دكتور سي. إيڤرت كوپ (Dr. C. Everett Koop) والذي كان يشغلُ وقتَها منصب الطبيب العامِّ للولايات المتَّحدة. كانت مؤهِّلات كوپ بوصفه مسيحيًّا إنجيليًّا مُحافظًا لا تشوبها شائبة. لقد كان هو وفرنسيس شيفر (Francis Schaeffer) الشخصان اللذان حشدا المسيحيِّين المحافظين لدخول المواجهة السياسيَّة الخاصَّة بمكافحة الإجهاض.

في دور كوپ بوصفه "طبيب الأمَّة"، زار مرضى الإيدز، بأجسادِهم النحيفة الهزيلة الملآنة بالقُروح القرمزيَّة، وكان يشعر بتعاطفٍ عميقٍ معهم، سواءٌ بوصفه طبيبًا أم مسيحيًّا. وقد تَعَهَّدَ أن يعتني بالضَّعيف والمُهمَل، ولم يكن هناك ضِعافٌ ومُهمَلون في الدولة مثل هؤلاء.

وتحدَّث كوپ على مدى سبعة أسابيع متتالية أمام مجموعاتٍ دينيَّة، بما فيها كنيسة جيري فالويل (Jerry Fal-well)، ومؤتمر الإعلام المسيحيّ، والمجموعات المحافظة اليهوديَّة، والكاثوليك. قدَّم كوپ كلَّ هذه الكلمات بالزيِّ الرسميِّ لخدمة الصحَّة العامَّة، وفيها أكَّد الاحتياج إلى التوقُّف عن الممارسات الجنسيَّة المنفلتة، وعن الخيانات الزوجيَّة. لكنَّه كان يضيف قائلًا: "أنا الطبيب الأوَّل للغَيريِّين والمثليِّين على حدٍّ سواء؛ للصغار والكبار، للأخلاقيِّين وللمنحلِّين". ووجَّه كلامَه إلى إخوته المسيحيِّين قائلًا: "ربَّما تكرهون الخطيَّة، لكنَّ عليكم أن تُحبُّوا الخُطاة".

كثيرًا ما كان كوپ يُعبِّر عن رفضه الشخصيِّ للانفلات الجنسيِّ- وكان يستخدم كلمة "اللواط" عندما كان يشير إلى الممارسات المثليَّة- لكنَّه بوصفه وزيرًا للصحَّة كان يعمل من أجل مصالح المثليِّين ويهتمُّ بهم. لم يَكَدْ كوپ يُصَدِّق ما رأته عَيناه عندما كان يتحدَّثُ إلى نحو ألفٍ ومئتَيْ مثليٍّ في بوسطن، وراحوا يتغنَّونَ باسمه: كوپ! كوپ! كوپ! وكان كوپ يقول: "لقد قَدَّموا إليَّ مُساندَةً لا تصدَّق، بالرُّغم ممَّا أقوله عن ممارساتهم. أعتقد أنَّ هذا لأنِّي الشخصُ الذي خرج ليقول إنَّه وزير صحَّة كلِّ الشعب، وسأصل إليهم حيثما هُم. وفضلًا عن أنِّي كنتُ أطالبُ بالتعاطف معهم، كُنتُ أُجَنِّد المُتطوِّعين ليذهبوا ويرعوهم".

لم يتنازل كوپ بتاتًا عن معتقداته؛ فهو إلى الآن يستخدم تلك الكلمة المُعبَّأة بالمشاعر السلبيَّة- "اللواط"- لكنْ لم ينَلْ أيُّ مسيحيٍّ مُحافظٍ الاستقبالَ الدافئ الذي حَظِيَ به كوپ من المثليِّين.

من كتاب: ما أعجب النعمة

٣ تشرين الأوَّل/أكتوبر

إساءةُ استخدام النعمة

لقد أدركتُ بشدَّةٍ إمكانيَّةَ "إساءة استخدام النعمة". جلستُ حتَّى وقتٍ متأخِّرٍ من الليل في أحد المطاعم، واستمعت إلى صديقي دانيال وهو يبوح لي أنَّه قَرَّرَ تَرْكَ زوجته بعد زواج دامَ خمسة عشر عامًا. لقد وجدَ على حدِّ وصفه: "مَن تجعلُني أشعرُ بالحياة، كما لم أشعُرْ من قبل".

كان دانيال، بوصفه مسيحيًّا، يعلَمُ جيِّدًا النتائج الشخصيَّة والأخلاقيَّة لما هو مُقدِمٌ عليه. فقرارُهُ يُمكن أن يتسبَّبَ في إيذاءٍ دائم لزوجَتِهِ وأولاده الثلاثة. غير أنَّه، كما يقول، يشعرُ بقوَّةٍ شديدة تجذبه نحو تلك المرأة الأصغر سنًّا، قوَّةً مغناطيسيَّة تصعُبُ مقاوَمتُها.

بعد ذلك ألقى دانيال القُنبلةَ عندما قال لي "يا فيليب، أنت تدرس الكتاب المقدَّس. هل تظنُّ أنَّ هناك إمكانيَّةً أن يغفرَ الله لي شيئًا فظيعًا كالذي أنا مُقدِمٌ عليه؟"

سَقَط سؤال دانيال على المنضدة التي كنَّا نجلس إليها كأفعى تتلَوَّى. وبينما كُنتُ أشربُ قهوتي رُحتُ أفكِّر طويلًا وعميقًا في تداعيات النعمة. كيف يمكنني أن أُقنعَ صديقي أن يعدِلَ عن هذا الخطأ الفظيع إذا كان يعلَمُ أن الغفرانَ مُتاحٌ؟

هُناك "شرطٌ" للنعمة. يقول القديس أغسطينوس: "يعطي الله حيثُما يَجِدُ أيدٍ فارغة". فالإنسان الذي يُكوِّرُ قَبضَتَيه بشدَّة لا يَستطيع أن يقبلَ عطيَّة الله. بكلماتٍ أخرى، لا بُدَّ للنِّعمة أن تُستَقْبَل. ويشرح سي. أَس. لِويس (C. S. Lewis) أنَّ ما سمَّيتُه أنا "إساءة استخدام النعمة" نابع من الخَلط ما بين التغاضي والغفران: "التغاضي عن الشرِّ هو ببساطة تجاهُلُه، والتعامل معه كما لو كان خيرًا وليس شرًّا. أمَّا الغفران فيحتاج لأنْ يُستَقبَل كما يُعطى، لكي يكونَ كامِلًا: الإنسان الذي لا يُقِرُّ بذنبه، لا يُمكن أن يستقبلَ غفرانًا له".

أمَّا ما قُلته لدانيال صديقي فكان التالي: "هل يُمكن أن يغفرَ الله لك؟ بكلِّ تأكيد. فأنت تعرفُ الكتابَ المقدَّس جيِّدًا، وتعرفُ أنَّ الله يستخدمُ القتلةَ والزُّناة. ألم يستخدم شقيَّين متهوِّرَين هما بطرس وبولس ليَقودا كنيسةَ العهد الجديد؟ الغفران مشكلتنا نحن وليس مشكلةَ الله. إنَّ ما نجتاز فيه لنرتكبَ الخطيَّة، يُبعدنا عن الله، أي إنَّنا نتغيَّرُ ونحن نُمارِس التمَرُّد- وليس هناك ضَمانٌ أنَّنا سنَعودُ من حيثُ ذهبنا. أنت تسألُني عنِ الغفران الآن، لكن هل سترغب بذلك الغفران لاحقًا، لا سيَّما إذا كان ذلك يتطلَّب توبةً وتغييرًا للطريق؟".

من كتاب: ما أعجب النعمة

٤ تشرين الأوَّل/أكتوبر

ثغرات

كما يقول أحد كَتَبة العهد الجديد، وهو يهوذا، فإنَّنا يمكن أن نكونَ ممَّن "يُحَوِّلون نعمةَ إلهنا إلى الدعارة". في البداية تأتي فكرةٌ ملتويةٌ من أعماق أذهاننا. أريدُ هذا الأمرَ. أجل، أعرف أنَّه خاطئٌ. لكنْ لِمَ لا أفعلُه؟ يُمكنني دائمًا أن أطلُبَ الغفرانَ لاحقًا. وسرعان ما تنمو هذه الفكرة لتصيرَ فكرةً مُلِحَّةً تقرَعُ بابَ الذِّهنِ بلا تَوَقُّف. وبمرور الوقت، تصيرُ النعمة "رُخصَةً للأَعمال غير الأخلاقيَّة".

لقد تجاوَبَ المسيحيُّون مع هذا الخطر بأساليبَ متعدِّدة. كان مارتن لوثر، وهو مُنتَشٍ بالنِّعمة الإلهيَّة، قد استهزأ بإمكانيَّة إساءة استخدام النعمة، فكتب لصديقه ملانكتون (Melanchthon): "إذا كنتَ كارزًا بالنِّعمة، فلا تكرِزْ بنعمةٍ مزيَّفة، بل بنعمةٍ حقيقيَّة. وإذا كانت النعمةُ حقيقيَّة، فلتكُنِ الخطيَّة أيضًا حقيقيَّة. كُن خاطئًا، وأخطِئ بشدَّة...من الكافي أن نُدرك، بغنى نعمة الله التي أعطانا إيَّاها في الحمل الذي يحمل خطيَّةَ العالم، أنَّ الخطيَّة لا تفصلُنا عن هذه النعمة، حتَّى لو زنَينا أو قتلنا آلافَ المرَّات في اليوم الواحد".

وآخرون، وهُم متخوِّفون من أن يمارِسَ المسيحيُّون الزِّنى والقتل آلاف المرَّات في اليوم، حاسَبوا لوثر على هذه المبالغة؛ فالكتاب المقدَّس يقدِّمُ النعمةَ بوصفها قوَّةً لعلاج الخطيَّة. فكيف يمكن أن يوجَدَ المرضُ والعلاجُ في الإنسان نفسه؟ ألا ينبغي أن "ننمو في النعمة" كما يوصينا بطرس الرسول؟ ألا ينبغي أن يزدادَ شبَهُنا بالله كما الابن بالوالد؟ كتب والتر ترويبيش (Walter Trobisch) قائلًا: "إنَّ الله يقبلنا كما نحن، لكنْ متى قَبِلَنا، فلا نستطيع أن نظلَّ كما نحن".

لقد صَكَّ لاهوتيُّ القرن العشرين ديتريش بونهويْفَر (Dietrich Bonhoeffer) تعبير "النعمة الرخيصة" ليُعبِّر به عن إساءة استخدام النعمة. كان بونهويْفَر يعيشُ في ألمانيا النازيَّة، وشعر بالصدمة من الطريقة الجبانة التي تجاوَبَ بها المسيحيُّون مع التهديد الذي شكَّله هتلر. كان الرُّعاة اللوثريُّون يَعِظونَ النعمة من على منابر الكنائس في أيَّام الآحاد، ثمَّ يصمتون طَوالَ الأسبوع بينما كان النازيُّون يتَّبعون سياسات العنصريَّة وقتل المرضى، وأخيرًا مارَسوا الإبادة العرقيَّة. ويشير كتاب بونهويْفَر "ثمن التبعيَّة" إلى الفِقرات العديدةَ من العهد الجديد التي تُطالب المسيحيِّين بالتحلِّي بالقداسة. لقد كان بونهويْفَر يؤكِّد أنَّ كلَّ دعوة للإيمان، هي دعوة للتلمذة والتشبُّه بالمسيح.

من كتاب: ما أعجب النعمة

٥ تشرين الأوَّل/أكتوبر

نتائجُ قصيرةُ المدى

ذَاتَ صَيفٍ اضْطُرِرْتُ إلى تعلُّم أساسيَّات اللغة الألمانيَّة كي أُنهيَ متطلَّبات الحصول على شهادةٍ عُليا. ويا له من صيفٍ بائِسٍ! الأمسيات الجميلة، التي كان فيها أصدقائي يُبحرون في بحيرة ميشيغان، ويركبون الدرَّاجات، ويحتَسون الكابتشينو في المقاهي، أمضَيتُها مع مُعلِّمي للُّغةِ الألمانيَّة محاوِلًا تعلُّمَ تَصريف الأفعال الألمانيَّة. كُنتُ أمضي خمس أمسيات في الأسبوع، وثلاث ساعات في كلِّ أمسية أحفَظُ المُفردات ونهايات الكلمات التي لن أستخدمَها مرَّةً أخرى. لقد تحمَّلتُ هذا التعذيب لهدف واحد فقط: النجاح في امتحان، والحصول على الشهادة.

ماذا لو وعدَني مُسجِّلُ الكلِّيَّة قائلًا: "يا فيليپ، نريدك أن تدرسَ جيِّدًا، وتتعلَّم الألمانيَّة، وتدخل الامتحان، لكنَّنا نعدُك مُسبَّقًا بأنَّك ستُحقِّقُ علامةَ النجاح. لقد جُهِّزَتْ شهادتك بالفعل". هل تظنُّون أنِّي كُنتُ سأمضي كلَّ تلك الأمسيَّات الصيفيَّة في تلك الشقَّة الحارَّة الخانقة؟ بالتأكيد لا.

باختصار، كانت هذه هي القضيَّة اللاهوتيَّة التي واجَهَها بولس الرسول في رسالته إلى أهل رومية. لماذا أتعلَّم الألمانيَّة؟ هناك أسبابٌ نبيلةٌ بالتأكيد: اللغات توسِّعُ العقل وتزيد من مساحة القدرة على التواصل– لكنَّ هذه الأسباب لم تدفعْني لأدرسَ الألمانيَّةَ من قبل. لقد كُنتُ أدرسُ لهدفٍ أنانيّ: الحصول على شهادة، والأفكار التي كانت تهدِّدني هي التي تسبَّبت في جَعْلي أُعيدُ ترتيب أولويَّاتي في ذلك الصيف. واليوم لا أتذكَّر إلَّا القليل من الألمانيَّة التي حشرتُها حَشرًا في عقلي. إنَّ "عِتق الحَرف"، على حدِّ تعبير بولسَ الرسولِ، يحقِّقُ نتائجَ قصيرة المدى.

ما الذي كان يُمكن أن يُلهِمَني لأتعلَّم اللغة الألمانيَّة طَوعًا؟ هُناك دافعٌ واحدٌ كان يمكن أن يكونَ قويًّا. إذا كانت زوجتي التي أحببتُها، لم تكن تتكلَّم سوى الألمانيَّةِ، لتعلَّمتُ هذه اللغة في وقت قياسيّ. لماذا؟ لأنِّي كنتُ عندئذٍ سأريد بشدَّة أن أتواصل مع المرأة التي أحببتُها. لسهرتُ الليالي أُصَرِّف الأفعال وأضعها بصورةٍ سليمةٍ في الجُمَل التي أصيغ بها رسائلَ الحُبِّ التي سأرسلها إليها، ولحسِبْتُ أيَّة إضافةٍ جديدةٍ إلى حصيلتي اللغويَّة كنزًا ثمينًا يُمكِّنني من إتقان التعبير عن نفسي أمامَ مَن أحبُّها. كنتُ سأتعلَّمُ الألمانيَّة دونَ تَذَمُّر، وسأحسب أنَّ العَلاقة نفسها هي المكافأة.

(يتبع في التأمُّل التالي)

من كتاب: ما أعجب النعمة

الحياةُ العاطفيَّة

(يتبع من التأمُّل السابق)

تساعدني هذه الحقيقة أن أفهم إجابةَ: "حاشا!" في الإجابة عن السؤال: "أنبقى في الخطيَّة لكي تزداد النعمة؟". هل يمكن أن يقولَ عريسٌ لعروسته في ليلة الزفاف الكلام التالي؟

"حبيبتي، أُحبُّك جدًّا، وأتوق إلى تمضية حياتي معك. لكنِّي أحتاج إلى تَوضيح بعض التفاصيل. الآنَ بعد أن تزوَّجنا، أريد أن أعرف الحدَّ الذي يمكنني به أن أخرجَ مع نساء أُخريات. هل يمكن أن أضاجِعَ بعضَهُنَّ؟ أو أُقَبِّل بعضَهُنَّ؟ هل تُمانعين أن أدخلَ في بعض العلاقات الغراميَّة من وقت إلى آخر؟ أعلمُ أنَّ مثل هذه العلاقات قد تجرحكِ، لكنْ لا تنسَي أيضًا أنَّها فُرصٌ عظيمةٌ لك لممارسة كَمٍّ كبيرٍ من الغفران".

ردُّ الفعل الوحيدُ المقبولُ على هذا "الدون جوان"، هو صَفعةٌ عَلى الوَجه، وكلمة كالتي قالَها بولس: "حاشا!" فمن الواضح أنَّه لا يفهمُ شيئًا عن الحُبّ.

وبالمثل، إذا تعاملنا مع الله بالتَّوَجُّه القائل: "ما أقصى ما يُمكِنُني فعلُه دون التَّعَرُّض للعقوبة؟"، فإنَّ مثل ذلك التوجُّه لا يفهمُ مشيئةَ الله من نحونا. وما يريده الله يتجاوَزُ بمراحل علاقةَ عبيدٍ بسَيِّدٍ يفرِضُ الطاعةَ فَرضًا. ليس الله رئيسًا في العمل أو مديرَ شركةٍ، ولا هو أيضًا جنِّيٌّ "نحكُّ" المصباحَ ليَظهَرَ ويُجيبَ طلباتنا.

بالتأكيد، يطلُبُ الله شيئًا أكثَرَ حَميميَّة من أكثر العلاقات قُربًا على وجه الأرض، وهي علاقة الزواج المُمتدَّة طَوالَ العمر. ما يريدُه الله ليس أداءً جيِّدًا، بل هو يريدُ القلبَ. فأنا أمارسُ "أعمالًا صالحة" لزوجتي لا لأنالَ منها اعترافًا بالفضل، بل لأعبِّر عن محبَّتي لها.

بالمثل، يريدُني الله أن أخدم "بجِدَّة الروح" لا "بعِتق الحرف". وليس قهرًا بل بدافع المحبَّة. يقول كليفورد وليَمز (Clifford Williams) إنَّ "التلمذة هي الحياة النابعة من النعمة".

من كتاب: ما أعجب النعمة

٧ تشرين الأوَّل/أكتوبر

لماذا الصلاحُ؟

إذا كان عليَّ أن ألخِّصَ الدافعَ الأساسيَّ ليكون المرءُ صالحًا بحسب العهد الجديد في كلمةٍ واحِدَةٍ، لاخترتُ كَلِمَة العرفان. يبدأ بولسُ الرسولُ أغلب رسائله بتلخيصٍ للغِنَى الذي لنا في المسيح. إذا فَهِمْنا ما فعله المسيح من أجلنا، فسنسعى بالتأكيد، وبدافع العرفان بالجميل، لأن نكون "مُستَحِقِّينَ" لمثل هذه المحبَّة العظيمة. سوف نجاهدُ من أجل القداسة لا لنجعلَ الله يُحِبَّنا، بل لأَنَّه يُحِبُّنا. وكما قال بولس الرسول في رسالته إلى تيطس، فإنَّ نعمة الله هي التي "تُعلِّمنا أن نُنكِرَ الفجورَ والشهواتِ العالميَّةَ، ونعيش بالتَعَقُّل والبِرِّ والتقوى في العالم الحاضر".

في كتاب ذكريات الكاتبة الكاثوليكيَّة نانسي ميرس (Nancy Mairs) "الوقتِ العادِيّ"، تروي هذه الكاتبةُ سنواتِ تمرُّدها على الصور الطفليَّة لله بوصفه "بابا" الذي يمكن فقط أن تُرضيَه عندما تتَّبع قائمة من الواجبات، وتتجنَّبَ مجموعةً من الممنوعات:

"كُنتُ أشعر دائمًا بالخطر أن أفعل شيئًا من المُحرَّمات. وكي أُكفِّرَ عنها، عَلَيَّ أن أَتَوَسَّلَ الغُفران من ذلك الكائن الذي خلَقَني وفي داخلي استعدادٌ للتَّعَدِّي؛ لأَنَّه يمنعني من سلوك كان يتوقَّع منِّي مبدئيًّا أن أتَّبعَه: الإله الذي يقف مُنتظرًا أن أخطئ ليَقبضَ عليّ".

لقد انتهَكَتْ مِيرس حقًّا الكَثيرَ من هذه القواعد والقوانين، وكانت باستمرارٍ تشعرُ بالذَّنْب. ثمَّ أعلَنَتْ على حدِّ تعبيرها: "تَعَلَّمتُ أن أنموَ وأزدهر، في كَنَفِ الإله الذي يطالِبُ بشيءٍ واحدٍ من شأنه أن يَجعلَ التَعَدِّي مستحيلًا: المَحَبَّة".

إنَّ أفضلَ سَبَبٍ يَدعو إلى الصَّلاح هو الرغبة أن تكونَ صالحًا. والتغييرات الداخليَّة تتطلَّبُ علاقةً ومحبَّة. تساءل القدِّيس أغسطينوس قائلًا: "مَن يستطيع أن يكونَ صالحًا إنْ لم يجدْ مَن يجعله صالحًا بواسطة المحبَّة؟" وعندما صاغ أغسطينوس التصريح المشهور: "أحبِبِ الله وافعلْ ما شئت"، كان جادًّا حقًّا؛ فالذي يُحبُّ الله بصدق سيكونُ ميَّالًا دائمًا إلى إرضائه، لذا لخَّص يسوع المسيح، ومن بعده بولسُ الرسول، الناموسَ كلَّه في وصيَّة واحدة: "تحبُّ الربَّ".

إذا استَحوَذَت علينا محبَّةُ الله العجيبة، فالسؤالُ المُراوِغ الذي دفعَ بولس أن يكتبَ الأصحاحَين السادسَ

والسابعَ من رسالته إلى أهل رومية- ماذا يمكن أن أفعلَ دونَ أنْ أُعاقَبَ؟- لن يَرِدَ في أذهاننا بتاتًا، بل سنُمضي كلَّ أيَّامنا نحاول أن نُدرك نعمة الله، لا أن نَستَغِلَّها.

من كتاب: ما أعجب النعمة

٨ تشرين الأوَّل/أكتوبر

خفِّضْ صَوتَ الضَّوضاء

الكاتب برنانماننغ (Brennan Manning) هو شخصٌ يقودُ خلواتِ صَمتٍ مرَّاتٍ عدَّة في العام. وقد قال لي ذات مرَّة أنَّ كلَّ الذين اتَّبعوا بَرنامجَه في خلوات الصَّمت هذه، سمعوا الله يُكَلِّمَهُم. شَعُرتُ بالفضول، والشكّ، فسجَّلتُ اسمي في إحدى هذه الخلوات. كانت لدينا الحرِّيَّة أن نمضيَ أغلبَ الأيَّام الخمسة للخلوة في ما نريد أن نفعلَه، لكنَّ المطلوبَ كان شيئًا واحدًا: ساعتان يوميًّا من الصلاة.

أشُكُّ في الواقع أنِّي خَصَّصتُ للصَّلاة يومًا أكثَرَ من ثلاثين دقيقة. في اليوم الأوَّل تجوَّلتُ حتَّى حَافَةِ مَرجٍ مكسُوٍّ بالعشب، وجلست مُستنِدًا إلى شجرة. لحُسن حظِّي، تجوَّلَ في المكان نفسه حيث جلستُ، قطيعٌ من الظِباءِ يبلُغُ عَدَدُه ١٤٧ ظبيًا. أن ترى ظَبيًا واحدًا فهذا أمرٌ مُثيرٌ، أمَّا أن تشاهد ١٤٧ منها في بيئتهم الطبيعيَّة فهو أمرٌ مُذهِلٌ. لَكِنِّي سِرعَانَ ما أدركتُ، أنَّ مُشاهَدَةَ ١٤٧ ظبيًا مُدَّةَ ساعَتَين دونَ أدنى تغيير، كان أمرًا مملًّا في الواقع.

بعد لحظاتٍ، بدأ الهُدوءُ الشَّديد للمشهد يُؤثر فيَّ. لم أعُد أفكِّر في العمل الذي تركتُهُ في البَيت، ولا في تواريخِ التَّسليم التي أمامي، ولا القراءات التي كَلَّفَنا بِها برنَان. استرخى جَسَدي، وفي الصَمتِ الكَثيف الخامِل، شَعَرَ عَقلي بالهُدوء والسَّكينة. يقول مايستر إيكهارت (Meister Ekhart): "كلَّما هدأ العقلُ، كانت الصلاة أكثرَ قيمةً وعُمقًا ودلالةً واكتمالًا".

لم أرَ أيَّ ظبي بعد ذلك رغم أنِّي كنتُ يوميًّا بعد الظهر أبحث في مساحات الحقول والغابات المحيطة في محاولة العثور عليهم. وإبَّان الأيَّام القليلة التالية، قُلتُ كلماتٍ كَثيرة لله. لقد كُنت قد بلغتُ الخمسين في تلك السنة، وكُنتُ أسألُ الله أن يرشدَني كيف أُعِدُّ رُوحي لِمَا تَبَقَّى مِن عُمري. كتبتُ قوائمَ كثيرةً وكثيرًا من الأمور التي انتابَتْ ذهني، والتي ما كانت لتَرِدَ إلى ذهني لو لم أكُنْ قد جلستُ هادئًا على هذا النحو في حضن الطبيعة على مدى ساعات. صارَ ذلكَ الأُسبوع نَوعًا من الفحص الروحيِّ الذي أشار إلى عدَّة مسارات أحتاج لأن أسيرَ فيها للمزيد من النموّ. لم أسمع صوتًا في هذه الأوقات، لكن في نهاية الأسبوع، كان عليَّ أن أوافق مع برنان أنِّي سمعتُ صوتَ الله.

لقد صرتُ أكثر اقتناعًا من أيِّ وقتٍ مضى أنَّ الله يجدُ وسائلَ للتواصل مع الذين يطلبونه، لا سيَّما عندما يخفِّضون صوتَ الضَّوضاء من حولهم.

من كتاب: الصلاة: هل تُحدث أيَّ اختلاف؟

٩ تشرين الأوَّل/أكتوبر

شركاءُ غيرُ متساوين

أن أدعوَ الله ونفسي مُجَرَّد شركاء غير متساوين، فهذه سطحيَّةٌ مُثيرةٌ للضَّحِك؛ فالفارق ما بين الإنسان والله أكبر من حتَّى أن نُعَبِّر عنه بهذه الطريقة. غير أنَّ الله لَمَّا دعانا لأن نؤدِّيَ عملَ الملكوت هنا على الأرض، فقد أقامَ نوعًا عجيبًا من التحالف، والذي يفوِّضُ فيه الله البشرَ أن يعملوا عمله، حتَّى إنَّه باتَ يُمكننا أن نقولَ إنَّنا نكتب معه التاريخ.

من الواضح أنَّ لهذه الشراكة شريكًا واحدًا سائدًا في حين يكون الآخر تابعًا- شيء يشبه مثلًا شراكة ما بين الولايات المتَّحدة ودولة مغمورة من العالم الثالث، أو ما بين مايكروسوفت ومُبَرمِجٍ هاوٍ في المرحلة الثانويَّة. إنَّنا نعلَمُ جيِّدًا ما يحدث عندما يُقيمُ البشر مثل هذه التحالفات غير المتكافئة: عادة ما يستخدمُ الطرفُ السائدُ كلَّ ثقله في السيطرة والسيادة، في حين يظلُّ الطرفُ الأضعفُ صامتًا. أمَّا الله، الذي ليس لديه ما يجعلُه مُهَدَّدًا من جانب أمثالنا، فهو يدعونا، على نقيضِ ما سبقَ، إلى التواصِلِ المستمر معه.

لقد تَعَجَّبتُ أحيانًا من الأسباب من وراء وَضْعِ الله قيمةً عُليا للأمانة، حتَّى إنَّه يَحتَمِلُ أحيانًا انفجاراتِ غَضَبٍ غَيرَ معلَّلة. وعندما أُراجِعُ الصلوات المُسجَّلة فَي الكتاب المقدَّس، يُذهلُني أن أرى أنَّ كثيرينَ كانت لَهُم نَغَمة التَّذَمُّر: إرميا يشكو جرَّاء تعرُّضِه للظُّلم؛ وأيُّوب يتساءل عن الله قائلًا: "ماذا ننتفعُ إنِ التَمَسناه؟"، ويتَّهم حبقُّوقُ الله بالصَّمَمّ. لذا يعلِّمُنا الكتابُ المقدَّس أن نُصلِّي بأمانةٍ.

يقترح والتر بروجمان (Walter Brueggemann) سببًا واحدًا واضحًا للصَّراحة في سفر المزامير: "لأنَّ الحياةَ هكذا، وهذه القصائد تتناول الحياةَ كلَّها وليسَ جزءًا منها". ويجد بروجمان الأمرَ مُنَفِّرًا أن يزورَ الكنائسَ الإنجيليَّةَ الحماسيَّةَ ويستمع فقط إلى الترانيم السعيدة، في حين نَصِفُ المزامير بأنَّها مَراثٍ وغضبٌ واعتراضٌ وشكوى بشأن عدم الاتِّساق الذي نختبره في العالم. على الأقلّ، من الواضح أنَّ الكنيسةَ التي تستمرُّ في ترديد "الترانيم السعيدة" في مواجهة الواقع الفجِّ تفعل أمرًا مختلفًا تمامًا عمَّا يفعله الكتاب المقدَّس.

ما أتعلَّمُه من صَلَواتِ الكتاب المقدَّس هو أنَّ الله يُريدنا أن نَجعَلَ كلَّ شيء ما بيننا. يريدنا أن نأتيَ إليه شخصيًّا بشكوانا. إذا سرتُ في الحياة أَتَصَنَّعُ ابتسامةً في حين قلبي كئيبٌ في داخِلي، فأنا عندئذٍ لا أكونُ أمينًا في العلاقة ولا أحترمها.

من كتاب: الصلاة: هل تُحدث أيَّ اختلاف؟

هل الصلاةُ مُهِمَّة؟

بعد دراسة الكيفيَّة التي كان يسوع يُصلِّي فيها، أدركتُ أنَّ المثال الذي يقدِّمه يجيبُ عن سؤال مهمٍّ بشأن الصلاة: أهي مُهمَّة؟ هل تصنع فرقًا حقيقيًّا؟ عندما تتسلَّلُ الشُّكوك وأبدأُ أتساءل عمَّا إذا كانت الصلاة مُجَرَّدَ شَكلٍ مُقَدَّسٍ من أشكالِ التكَلُّم إلى النفس، فإنِّي أُذَكِّرُ نَفسي أنَّ ابنَ الله، الذي أحضَر عوالِمَ إلى الوُجودِ بكَلِمَةٍ، ويَحمِلُ كُلَّ الأشياءَ بكلمة قدرته، شعر بالاحتياج الضاغط لأن يُصَلِّي. لقد كان يصلِّي كما لو كانت الصلاة تصنع فرقًا حقيقيًّا، وكما لو كان الوقت الذي يُخصِّصه للصلاة مُهمًّا بقدرِ أهمِّيَّة الوقت الذي كان يُخصِّصُه للاهتمام بالناس.

عندما عرفَ أحَدُ أصدقائي الأطبَّاء أنِّي أبحثُ في مجال الصلاة، قال لي إنَّ عليَّ أن أبدأ بثلاثِ فَرضِيَّاتٍ كُبرى: ١) الله موجود؛ ٢) يستطيعُ الله أن يسمعَ الصلاة؛ ٣) يهتمُّ الله بصلواتنا. ثمَّ تابعَ قائلًا: "لا يمكن إثباتُ صدق أيٍّ من هذه الفرضيات أو دحضِها. يجبُ إمَّا أن تؤمنَ بها وإمَّا لا تؤمن". وهو على حقّ، لكنَّ الأمرَ عندي هو أنَّ المثال الذي كان يسوع يعيشه في حياته، يقدِّمُ دليلًا قويًّا في مصلحة الإيمان. وإذا انتقَصْنا من قدر الصلاة، أو حَكَمنا أنْ لا قيمة لها، فإنَّنا نحكمُ عندئذٍ أنَّ يسوعَ كان مضلَّلًا.

لقد كان يسوع يتمسَّكُ بالصلاة كما لو كانت هي التي سوف تمدُّهُ بالحياة؛ لأنَّ بها كان يحصل على الإرشاد والطاقة ليَعلَمَ مَشيئةَ الآب ويَعمَلَ بها. ومَعَ ذلك، فقد كانَ يَشعُرُ أَحيانًا بالإحباط ممَّا يحيط به في هذا العالم ("أيُّها الجيل غير المؤمن، إلى متى أكونُ معكُم؟")، وفي أحيانٍ أخرى، كان يحاربُ التجارب ("لا تُجرِّب الرَّبَّ إلهَك")، وفي بعض الأحيان كان يشُكُّ ويَصرُخُ. ("إلهي إلهي، لماذا تركتني؟").

يثيرُ المتشكِّكون الأسئلةَ عن فائدة الصلاة، ويقولون: "إذا كان الله يعلَمُ كلَّ شيء أصلًا، فما الهدفُ من إخباره بالأشياء؟" ولمثل هذه الأسئلة، ليست لديَّ إجابةٌ أفضلُ من النموذج الذي كان يقدِّمه يسوع، الذي كان يَعرِفُ أكثر من أيٍّ منَّا حِكمَةَ الآب، لكِنَّه شعرَ في الوقت نفسه باحتياجٍ شديدٍ أن يَغمُرَ السماءَ بالأسئلة.

ورغم أنَّ يسوعَ لم يُقَدِّم أيَّ أدلَّة فائقة للطبيعة لفاعليَّة الصلاة، فإنَّ مواظبتَه على الصلاة تؤسِّس قيمةً للصلاة. لقد قال بصراحة: "اسألوا تُعطَوا"، وهذا أشبَه بانتهارٍ لكلِّ مَن يحسب الطِّلْبة شكلًا بدائيًّا من أشكال الصلاة. عندما فشل التلاميذ في شفاء الصبيِّ المصروع، كان لدى يسوعَ تفسيرٌ بسيطٌ: عدم الصلاة.

من كتاب: الصلاة: هل تُحدث أيَّ اختلاف؟

المجهولُ وغيرُ المتوقَّع

يبدو أنَّ الصلاة لم تكنْ شيئًا بسيطًا حتَّى ليسوع. مثلَ مَن يَكتُبونَ إليَّ بالرَّسائلِ، كانَ يسوعُ يَعلَمَ وَجَعَ القلوب عندما لا تُستَجابُ الصَّلوات، فصلاتُه الأطوَلُ تدورُ حول طلب الوَحدة: "ليكُنِ الجميعُ واحدًا". ولعلَّ مَن لديه أبسط معرفة بتاريخ الكنيسة يعلمُ أنَّ هذه الصلاة لم تُستَجَبْ.

وفي ليلةٍ أُخرى، طلبَ يسوعُ الإرشادَ من الآب قبل أن يختارَ الاثنَي عشرَ الذين كان سيُكَلِّفُهُم برسالته. لكنِّي عندما أقرأ الأناجيل أتساءل إنْ كانت هذه الجماعة من الأشخاص المُراوغين غير الأمناء تُشكِّلُ استجابةَ أيَّة صلاة. فهُمْ جماعةٌ كانَ من ضمنها، كما يذكر البشير لوقا: "يهوذا الإسخريوطيّ، الذي صار مُسَلِّمًا له"، هذا علاوةً على ابنَي الرَّعد وطموحهم السياسيّ، وسَمعان بُطرُس المُتَهَوِّر، الذي سرعان ما سنسمعُ يسوعَ ينتهرُه داعيًا إيَّاه "يا شيطان". وفي ما بَعد، عندما تَنَهَّدَ يسوع من فَرْط الإحباط بشأن هؤلاء الاثنَي عشر قالَ: "إلى متى أكون معكم، إلى متى أحتملكم؟". أتساءَلُ إنْ كان لِلَحظَةٍ تَشَكَّكَ في قِيَادَةِ الآبِ لَهُ عندما كان يُصَلِّي على الجبل.

في كتابٍ مُثيرٍ للتَّفكير، يتأمَّل اللاهوتيُّ راي أندرسون (Ray Anderson) في اختيار يسوع ليهوذا ليكونَ أحَدَ تلاميذه. هل عرف يسوع مصيرَ يهوذا في الليلة التي كان يصلِّي فيها؟ هل ذكَّر الآبَ في تلك الصلاة عندما تركَ يهوذا طاولَةَ العَشاء ليذهبَ ويخونَه؟ ويَستَخلِصُ أندرسون من خبرة يهوذا مبدأً مِحوريًّا عن الصلاة: "أنَّها ليست وسيلةً للتخلُّص من المجهول وغير المتوقَّع في الحياة، بل هي طَريقةٌ لدَمجِ المَجهول وغَيرِ المتوقَّع في عَمَلِ نِعمَة الله في حياتنا".

وصلوات يسوع نفسه لتلاميذه لم تُزِلْ كلَّ مَا هوَ "مَجهولٍ وغيرَ متوَقَّع". لقد استمرَّ هؤلاء الاثنا عشر يُفاجِئون يسوع بانتِظامٍ ويُحبطونه باهتماماتهم التافهة وإيمانهم الضعيف. وآخر الأمر، خذلوه كلُّهُم في لحظة احتياجه الشديد. لكنْ في النهاية، خاضَ أحدَ عشرَ منهُم عَمليَّةَ تَغييرٍ بطيئة، لكنْ مستمرَّة. لقد كان هذا نوعًا من الاستجابة المتأخِّرة لصلاة يسوع الأصيلة. لَانَ قلبُ يوحنَّا وصار "رسول المحبَّة". وعَبَّرَ سمعان بطرس عن "اتِّباعه لخطوات يسوع" بتَحَمُّلِ الألم كما تَحَمَّل يسوعُ الألم. الاستثناءُ الوحيدُ هو يهوذا، الذي خانَ يَسوعَ، لكنَّ هذه الخيانة قادَتْ إلى الصَّليب وإلى خَلاصِ البَشريَّة. وبأساليبَ غريبةٍ وغامضةٍ، تشمل الصلاة كلَّ ما هو مجهول وغير مُتَوَقَّع، وتدمجُه في عمل نعمة الله فينا.

من كتاب: الصلاة: هل تُحدث أيَّ اختلاف؟

١٢ تشرين الأوَّل/أكتوبر

مباراة مصارعة

لقد تكلَّمتُ عن المصارعة التي وقعَتْ في بستان جَسْثَيماني، حيث كان يسوع يصارع مع مشيئة الله ويقبَلُها فقط بوصفها خيارًا أخيرًا حيث لم يكن هناك طريقٌ آخر. وبَعدَ ذَلك، عندما اختار الله شخصًا أبعدَ ما يكون عن التَّوقُّع (شخص مشهورٌ بانتهاكه حقوقَ الإنسان يُدعى شاول الطرسوسيّ) ليحملَ رسالتَه إلى الأمم، اعترضَ أحَدُ قادة الكنيسة قائلًا: "قد سمعتُ من كثيرين عن هذا الرجل، كَم من الشرور فَعَلَ بقدِّيسيك في أورشليم". لكنَّ الله أوقفَ هذا الحوار بالأمر: "اذهب! لأنَّ هذا لي إناءٌ مُختار". وبعد ذلك بعدَّة سنوات، راح هذا الرجل، الذي صار اسمه بولس، يُساوِم مع الله، ويصلِّي من أجل إزالة أحَدِ أشكال المَرَض الجسديّ.

لماذا يقبلُ خالقُ هذا الكون وضابطُه أن يدخلَ في حوارٍ مع بشر في صورةٍ تبدو مثل الجَدَل أو المساومة؟ هل يطالب الله بهذا التدريب بوصفه جزءًا من تدريبنا الروحيّ؟ هل يمكن أنَّ الله- إنْ جازَ أن أستخدمَ هذه اللغة- يعتمد على انفجاراتنا العاطفيَّة هذه لتكونَ نافذةً ينظر بواسطتها إلى العالم أو إلى النَّفس البشريَّة، أو بوصفها جرسَ إنذارٍ قد يتطلَّبُ تدخُّلًا؟ لقد كان صراخ العبرانيِّين هو ما جعلَ الله يتدخَّل ويدعو موسى.

أكثر ما يعطيني فَهْمًا لما يريده الله منَّا في الصلاة هو أن أشبِّهَها بعلاقاتي بأقرب الناس لي. أتذكَّر أخي الذي يعرف وحدَه أسرارَ الخزي، والألم الذي عانيناه في طفولتنا. أتذكَّرُ زوجتي التي تعرفني أكثر ممَّا يعرفني أيُّ إنسانٍ على وجه الأرض، والتي أناقش معها كلَّ شيء بدايةً من الطعام الذي نطلبُه في المطاعم، إلى الولاية التي سنسكن فيها. أو ربَّما محُرّري، الذي يُمسك بيديَّ في كلِّ مرحلة محفوفة بالقلق من مراحل إنتاج أيٍّ من كُتُبي. مع كلِّ هؤلاء الناس، شُركائي الحميمين، أتصرَّفُ بطريقةٍ تذكِّرني بمشاهد المساومة تلك مع الله. أُقَدِّمُ اقتراحات، وأَتَراجَع، وأقبلُ وجهةَ نظر الآخر، وأصِلَ إلى تسوية، وأخرج من كُلِّ ذلك مُتغيِّرًا.

وحالي حالُ إبراهيم، أقتربُ إلى الله أوَّلًا في خوف ورعدة، لأدركَ أنَّ الله يريدني أن أتوقَّفَ عن الارتعاد أمامه، وأبدأ أجادله. وأنا لا أجرؤ أن أقبلَ بوَداعةٍ حالةَ هذا العالم، بكلِّ ما فيه من ظلمٍ وجَورٍ. ويجب أن أدعوَ الله وأطالبَه بوعوده، وبأن يحضر في شخصيَّته.

من كتاب: الصلاة: هل تُحدث أيَّ اختلاف؟

١٣ تشرين الأوَّل/أكتوبر

كنيسة خلف القضبان

كُنتُ أجلسُ وَسطَ خدمة كنَسيَّة بنكهة لاتينيَّة خمسينيَّة. ولولا وجود بعض المشاهد التي أصَرَّت أن تُذكِّرني بذلك المكانِ، لكان من السهل أن أنسى أنَّنا مجتمعون في أحد أكبر سجون تشيلي. أنظُرُ حولي بَينَ الحُضور: كلُّهم رجال، يرتدون تشكيلة من الملابس المُهترِئة، وتعلو وجوه عددٍ كبيرٍ منهم الندبات.

بعد الترنيم، قام الضيف الكنديُّ، صاحب الهيئة المميَّزة بالقميص الأبيض، واقترب من المنبر. أعلن قسِّيس السجن أنَّ هذا الرجل، رون نكيل (Ron Nikkle) قد زار سجونًا في أكثر من خمسين دولة؛ فالمؤسَّسة التي يرأسها، وهي زمالة السُّجون الدوليَّة (Prison Fellowship International)، تستهدفُ توصيل رسالة المسيح إلى المساجين، وتعمل مع الحكومات لتحسين أوضاع السجون. صاح نحو عشرة من النزلاء قائلين: "آمين!".

بدأ رون بقَوله: "إنِّي أحمل لكم السلام من إخوتكم وأخواتكم في المسيح في العديد من السجون حول العالم"، وكان رون يتوقَّف بين كلِّ جملة والتالية ليسمحَ للمترجم بأن يترجم ما يقوله إلى الإسبانيَّة. "أحمل إليكم تحيَّات باسكال (Pascal)، الذي يعيش في أفريقيا، في دولة مدغشقر. باسكال الذي تلقَّى تعليمه ليصبحَ عالمًا وكان يفتخر بكَونه مُلحدًا. ذات يوم قُبِضَ عليه بسبب اشتراكه في إضراب للطلَّاب، ثمَّ أُلقيَ في السجن المُصَمَّم ليسع ٨٠٠ رجل، لكنَّه كانَ مزدحمًا بنحو ٢٥٠٠ رجل. لقد كانوا يجلسون كوعًا بكوع على ألواح خشبيَّة دون فراش، أغلبهم يرتدون ملابس قذرة بالية، وأجسادهم مغطَّاة بالقمل. يمكنك أن تتخيَّل مستوى الصحَّة العامَّة هناك". كان عشراتُ النزلاء التشيليِّين، الذين كانوا يسمعون بشعف واهتمام، يصرخون بصوتٍ عالٍ قائلين: "آمين".

"لم يوجدْ لدى باسكال أي كتاب يقرأه في السجن سوى كتابٍ واحدٍ وهو الكتاب المقدَّس الذي أرسلَتْه إليه أسرتُه. كان يقرأ فيه يوميًّا رغم معتقداته الإلحاديَّة، وبدأ يُصلِّي. وفي نهاية ثلاثة شهور، صار باسكال يقود درس كتاب كلَّ ليلة في هذه الغرفة المزدحمة.

ولدهشته، أُطلِقَ سراحه بعد هذه الشهور الثلاثة. لكنَّ العجيب أنَّ باسكال ظلَّ يذهَبُ إلى السجن بعد الإفراج عنه! كان يزوره مرَّتين في الأسبوع: مرَّة للوعظ وتوزيع الكتب المقدَّسة، والمرَّة الثانية في أيَّام الجُمَع، كان يُحضر معه آنيةً ضخمة من حساء الخُضَر؛ لأنَّه أدرك أنَّ النزلاء يكادون يموتون من سوء التغذية. كثيرون منهم تعرَّضوا للسجن بسبب سرقة طعام. لقد كانوا جوعى حتَّى قبل أن يدخلوا السجن، وظلُّوا

جوعى هناك".

وعندما يغادر الزوَّار الأجانب، وسط العديد من الأحضان والتحيَّات، يبقى كلُّ السجناء لمزيدٍ من العبادة؛ لأنَّ كلَّ ما حدث لهم في ذلك الاجتماع كان مجرَّد وقتَ "إحماء".

من كتاب: العثور على الله في أقلِّ الأماكن توقُّعًا

أن ترنِّمَ في مكانٍ كهذا

طلبتُ إلى رون نيكل من رابطة السجون الدوليَّة أن يحاول تذكُّر أسوأ سجن زاره. فَكَّر للحظات ثمَّ أخبرني بالمرَّة التي كان فيها هو وتشَك كولسون (Chuck Colson) يزوران سجنًا في زامبيا. أدخَلَهُم "مُرشدهم" وهو سجين سابق اسمه نيغو (Nego) إلى سجن سرِّيٍّ داخليّ، مَبنيٍّ في الداخل لاحتواء أسوأ المجرمين. "اقتربنا من مبنى يشبه القفص الحديديَّ المُغطَّى بشبكة من الأسلاك. اصطفَّتِ الزنزانات حول فناء مساحته نحو ٥٦م٢. كان السجناء يمكثون ثلاثًا وعشرينَ ساعةً في اليوم في زنزانات أضيَقَ من أن يستطيعوا جميعهم الاستلقاء في الوقت نفسه، في حين يمكنهم ساعةً واحدةً التَّمَشِّي في الفناء الصغير. لقد كان نيغو قد أمضى اثنتَي عشرة سنة في هذا المكان.

قال رون: "عندما اقتربنا من السجن الداخليّ، استطَعْنا أن نرى مجموعاتٍ من العيون تحملقُ فينا من فَتحَةٍ بارتفاع ٥سم تحت البوَّابة الحديديَّة. وعندما انفتحت البوَّابة، كَشَفَت عن قذارةٍ لم أرَها في أيِّ مكان من قبل. لم توجد أيُّ تجهيزاتٍ صحِّيَّة، وكان السجناءُ يُرغَمون على التبرُّز في أواني طعامهم. كانت الشمس الأفريقيَّة اللاهبة تسخِّنُ هذه الزنزانات المعدِنيَّة إلى درجات لا تُطاق. كُنتُ أتنفَّس بصعوبةٍ بالغة في ذاك الجوِّ الخانق الكريه. وتعجَّبت قائلًا في نفسي: «كيف يمكن أن يعيشَ بشر في مكان كهذا؟»".

"لكنْ، عندما أخبرهم نيغو بِمَن نكون، ذهب ثمانون منهم إلى الجدار الخلفيِّ ونظَّموا أنفسهم في صفوف. وبدأوا يرنِّمونَ في تناغُم جميل من أربعة أجزاء. وهمس إليَّ نيغو قائلًا: «إنَّ خمسةً وثلاثين من هؤلاء الرجال محكومٌ عليهم بالإعدام وسيواجهون الموت قريبًا». لقد صدَمَني التضادُّ ما بين وجوههم التي يغشاها السَّلام وتُظلِّلُها السكينة، والفظاعة التي تغطِّي المكانَ المحيطَ بهم. وخلفهم مباشرة في الظلام، استطعت أن أتبيَّن رسمًا دقيقًا بالفحم على الجدار. كان الرسم ليسوعَ مصلوبًا. من المؤكَّد أنَّ المساجين أمضَوا ساعاتٍ يعملون على إنجازه. وصُدمتُ عندما أدركتُ أنَّ المسيحَ كان موجودًا هناك معهم، يشاركهم معاناتهم، ويعطيهم فرحًا يكفي لكي يرنِّموا في مثل ذلك المكان".

وتابعَ رون: "كان من المفترض أن أتكلَّم إليهم، وأقدِّم إليهم بعضًا من الكلمات الملهِمة عن الإيمان. لكنِّي لم أستطع إلَّا أن أتمتم ببضع كلمات التحيَّة. لقد كانوا هم المُعلِّمين، لا أنا".

من كتاب: العثور على الله في أقلِّ الأماكن توقُّعًا

بوقُ الألم الصارخ

يُمكِنُنا- أو بالأحرى يستطيع بعض الناس- أن يعتقدوا أنَّ الهدف الوحيد من الحياة هو أن يكونَ الإنسان مستريحًا. احصُل على كلِّ ما يمكنك الحصول عليه، ابنِ بيتًا جميلًا، استمتعْ بالطعام، مارِسِ الجنسَ، عِشْ حياةً جيِّدة. هذا كلُّ ما في الأمر. لكنَّ وجود الألم والمعاناة في الحياة يجعل من الصعب جدًّا أن نعتقدَ أنَّ هذا هو هدف الحياة، إلَّا إذا اخترنا أن نُعميَ أنفسنا.

من الصعب الإيمان بأنَّ العالم موجود فقط كي أستطيع أن أحتفلَ وأستمتعَ، عندما يذهب ثُلث العالم إلى الفراش كلَّ ليلةٍ جائعين. من الصعب الاعتقاد أنَّ الهدف من الحياة هو الشعور بالسعادة، عندما أرى شبابًا تحت العشرين تتهشَّم عظامُهُم على الطُّرُق السريعة. إذا حاولتُ الهربَ نحو الاستمتاع، يتهدَّدني الألم والموت ويرعبني ويذكِّرني بفراغ الحياة، إنْ كان هذا العالم هو كلُّ ما هو موجود.

أحيانًا أتَذَمَّرُ، وفي أحيانٍ أُخرَى أَصرُخُ. وأثِقُ بأنَّ الألمَ هو أحد الأدلَّة على أنَّ هناك شيئًا أفضلَ نتوقُ إليه، وأنَّ في الحالة الإنسانيَّة التي نعيشها مشكلة. هناك شيءٌ خطأ في هذه الحياة الملآنة بالحروب والعُنف والمآسي الإنسانيَّة. كلُّ مَن يَرضى بهذا العالم، ويعتَقدُ أنَّ الهَدَفَ الأَسمى لهذه الحياة هو الاستمتاع، يجب أن يعيشَ واضعًا قطنًا في أذنيه لئلَّا يَسمع؛ لأنَّ صوتَ نَفيرِ بوقِ الألم مرتفعٌ جدًّا.

دون شكّ، يمكنني أن أهاجمَ الله لكَونه يسمح بهذا البؤس. وعلى الجانب الآخر، يمكن أن يقرِّبني الألم من الله. يمكنني أن أومنَ بوعد الله أنَّ هذا العالم ليس كلَّ ما هو موجود، وأخاطر بأن أومن بأنَّ الله يُعِدُّ مكانًا أفضل لمن يسيرون خلفَه في هذه الأرض المحفوفة بالألم.

من الصعب أن تكون مخلوقًا. دون تلك الأمور السيِّئة مثل الألم والمعاناة التي تذكِّرنا بضعفنا واعتماديَّتنا، ربَّما نظنُّ أنَّنا نستطيع أن نديرَ هذا العالم، أو نظنُّ أنَّ لدينا الحكمةَ الكافيةَ لاتِّخاذ قراراتنا الأخلاقيَّة، وللعَيش على نحوٍ سليم دون صوت الألم الصارخ في آذاننا. إنَّنا مخطئون، كما تثبت قصَّة جنَّة عَدْن. عاش الرجل والمرأة في عالمٍ بلا ألم، لكنَّهما تمرَّدا على الله مع ذلك. ونحن أيضًا الذين جئنا بعد آدم وحوَّاء، لدينا الاختيار: إمَّا أن نثقَ بالله، وإمَّا أن نلومَه ولا نلوم أنفسنا بسبب الألم الذي في هذا العالم.

من كتاب: أين الله في وقت الألم؟

١٦ تشرين الأوَّل/أكتوبر

طلبُ المُعطي

تكشف القراءةُ السطحيَّة لسفر أيوب أنَّ محورَهُ يدورُ حولَ قضيَّة الألم. أمَّا في العُمق، فهناك قضيَّةٌ أخرى على المحكّ- قضيَّة الحرِّيَّة الإنسانيَّة. كان على أيُّوبَ أن يحتملَ ألمًا لم يستحقَّه ليُثبت أنَّ الله مهتمٌّ بصورةٍ أساسيَّةٍ ونهائيَّة بالمحبَّة المقدَّمة بحرِّيَّة.

لم يكن الرِّهان ما بين الشيطان والله أمرًا تافهًا في القصَّة. لقد كانت اتِّهامات الشيطان أنَّ أيُّوبَ كَانَ يُحِبُّ الله فَقط لأنَّه "سَيَّجَ حَولَهُ"، اتِّهاماتٍ تنالُ من شَخصيَّة الله نفسه. إنَّه اتِّهام بأنَّ الله نفسه لا يستحقُّ المحبَّة، والأشخاص المؤمنون الأمناء مثل أيُّوب يعبدون الله فقط لأنَّه "رشاهُم" كي يفعلوا ذلك. كانَ رَدُّ فعل أيُّوب، بعد زوال كلِّ أشكال الحماية، هو الذي يُثبِتُ اتِّهاماتِ الشيطان أو يَنقُضُها.

ولفَهْم قضيَّة الحرِّيَّة الإنسانيَّة هذه، ربَّما يساعدنا أن نتخيَّلَ عالمًا يحصل فيه الإنسان على كلِّ ما يستحقّ. مثل هذا العالم يكون عادلًا ومُتَّسِقًا، ويعرفُ فيه كلُّ إنسان بوضوح ما يتوقَّعه الله منه. عندئذٍ يسودُ العَدلُ. لكنَّ هناك مشكلةً ضخمةً في مثل هذا العالم المُنظَّم: أنَّه ليس بتاتًا ما يريد الله تحقيقه على الأرض. الله يريدُ مِنَّا المحبَّة- المحبَّة الحُرَّة المجَّانيَّة، ونحن لا نجرؤ أن نقلِّلَ من القيمة العُليا التي يوكلها الله للمحبَّة. إنَّ الله يرى أنَّ المحبَّة الحُرَّة المجَّانيَّة أمرٌ مهمٌّ جدًّا حتَّى إنَّه يسمح بأن يكون كوكبُنا سرطانًا من الشرِّ في هذا العالم، لكنْ لفترة محدودة.

إذا سارَ هذا العالم وَفقَ قوانينَ مُحكَمة تمامًا، فلن تكونَ هناك حرِّيَّةٌ حقيقيَّة. سوف نتصرَّف تصرُّفاتٍ سليمةً كي ننالَ المجازاة العادلة، وسوف تُلوِّث المصلحة الشخصيَّة كلَّ أعمال الخير التي نقوم بها. على العكس، فإنَّ الفضائلَ المسيحيَّةَ الموصوفة في الكتاب المقدَّس هي الفضائل التي تنشأ عندما نختارُ الله رغم التجارب والدوافع التي تحثُّنا أن نفعلَ العكس.

يريدنا الله أن نختارَ المحبَّة بحرِّيَّة، حتَّى لو تضمَّنَ هذا الاختيار ألمًا؛ وذلك لأنَّنا اخترنا الطاعةَ والالتزامَ تُجاه الله وليس تُجاه المشاعر الطيِّبة والمكافأة العادلة. يريدنا الله أن نتمسَّك به، مثلما فعل أيُّوب، حتَّى لو كانت لدينا كلُّ الأسباب لنتركَه ونكرَه بشدَّة. لقد تمسَّك أيُّوبُ بعدالة الله في الوقت الذي كان فيه هذا الإنسانُ أفضلَ مثالٍ في التاريخ عمَّا يبدو ظلمًا. لم يطلُبِ المُعطي من أجل العطيَّة، فبعد أنْ زالَتْ كلُّ العطايا، ظلَّ يطلُب المُعطي لذاته.

من كتاب: أين الله في وقت الألم؟

١٧ تشرين الأوَّل/أكتوبر

سيمفونيَّة مُفكَّكة

يتَصَرَّفُ أغلبنا وَفقَ مقياسٍ قِيَميٍّ مُختلف عَن مِقياسِ الله. يُمكن أن نجعلَ الحياةَ هي القيمةَ العُليا (ومن ثَمَّ يُصبح القتلُ أفظعَ جريمة). لكنَّ من الواضح أنَّ الله يعمل وَفق مقياسٍ ومنظورٍ آخر. بالتأكيد يضعُ الله قيمةً عُليا للحياة الإنسانيَّة، حتَّى إنَّه يعلنُ أنَّها "مقدَّسة"، بمعنى أنَّ الله وَحدَهُ، ولَيسَ إنسانًا، لَهُ الحَقُّ أن يأخذَ الحياة. وفي أيَّام نوح، مثلًا، لم يتردَّدِ الله في أن يمارسَ هذا الحقَّ، وفي مرَّات عديدة في العهد القديم أخذَ الله الحياةَ الإنسانيَّة لكي يوقِفَ انتشارَ الشَّرّ.

وبالمثل، فإنَّ هناك الكثير من الفِقراتِ الكتابيَّةَ التي تكشفُ كيف أنَّ هُناك بعضَ الأمورِ التي يحسبُها الله أفظَعَ من تَعَرُّضِ أولادِه للألم. لم يُستَثنَ الله نفسُه من الألم: تأمَّلِ الألمَ الرهيبَ في أن يصيرَ الله إنسانًا ويموتَ على الصليب. هل هذه الأمور تكشف أنَّ الله بلا الرحمة؟ أم تكشف أنَّ هناك بعضَ الأمورِ التي يراها الله أهمَّ من الحياة دون ألم، حتى لأكثر الناس ولاءً له؟

دائمًا ما يُغيِّرُ الكتاب المقدَّس الأسئلة التي نأتي بها بشأن قضيَّة الألم؛ فهو نادرًا، وعلى نحوٍ يُثيرُ الغُموض، ما يجيبُ عن السؤال الذي ينظر إلى الخلف: "لماذا؟". على العكس، فهو يثيرُ السؤال الذي ينظر إلى الأمام: "ما الهدف؟". إنَّنا لسنا موضوعين على الأرض فقط لكي نُشبِعَ رغباتنا، ونسعى وراءَ الحياة والحُرِّيَّة، والسعادة. إنَّنا هُنا لنتغيَّر ونصير أكثرَ شَبَهًا بالله. وربَّما تحدثُ هذه العمليَّة بواسطة نمطٍ عجيبٍ يسود على كلِّ الخليقة: فأحيانًا ما تظهَرُ اللَّذَّةُ على خلفيَّة الألم، وما يصيرُ الشرُّ خَيرًا، وربَّما يُنشِئُ الألم شيئًا له قيمةٌ كُبرى.

هل يتكلَّم الله إلينا بواسطة ألمنا؟ من الخطير، وربَّما لا يكون بحسب الكتاب المقدَّس أن نُعَذِّب أنفسَنا بالبحث الدقيق في كلِّ موقف صغير عن رسالة الله في كلِّ شكل من أشكال الألم. ربَّما تكون الرسالةُ ببساطةٍ هي أنَّنا نعيش، حالُنا حالُ غَيرنا من الناس، في عالم له قوانين صارمة ثابتة، لكنْ بالنَّظرِ إلى التاريخ الطويل، نستطيع أن نقول: أجل، الله يتكلَّم إلينا بالألم، أو ربَّما يتكلَّمُ إلينا رُغمَ الألم. تحتوي السيمفونيَّة التي يكتبها الله على نغمات فرعيَّة، وبعض النشاز، والمسارات المتطفِّلة على اللحن. لكنَّ الذين يسيرون على خُطى قائد الأوركسترا، سينالون قوَّةً متجدِّدة للانطلاق في الغناء الصادحِ عندما يحين الوقت.

من كتاب: أين الله في وقت الألم؟

إعادةُ تشكيل الألم

يقدِّم بولس الرسول تصريحًا قويًّا وشاملًا في رسالة رومية: "ونحن نعلم أنَّ كلَّ الأشياء تعمل معًا للخير للَّذين يحبُّون الله". أحيانًا يُساءُ تفسير هذا التصريح ليعنيَ فقط: "الأمورُ الجيِّدة هي التي ستحدثُ للذين يحبُّون الله". وكما يتَّضحُ من باقي الأصحاح، فإنَّ بولس كان يقصدُ العكسَ تمامًا. لقد استخدم الله أكثر الأحداث ألمًا في حياة بولس، ليتمِّمَ المشيئة الإلهيَّةَ في حياته. لعلَّ من الأدقِّ أن نقولَ إنَّ الله كان يعمل في بولس بواسطة الأوضاع الصعبة، بدلَ أن نقول إنَّ الله كان يعمل في الأوضاع الصعبة.

هل يضيف الله الألم إلى حياتنا كي يصنعَ به أمورًا جيِّدة؟ علينا أن نتذكَّر رسالة سفر أيُّوب. إنَّ الأسئلةَ عن سبب الألم تقعُ في نطاق الله، ونحن لا نستطيع أن نحصلَ على إجابةٍ عن هذه الأسئلة. ليس لدينا الحقُّ أن نستنتجَ تصريحاتٍ مثل: "عرفَ بعضُ الأقارب المسيح في إحدى الجنائز، فمن المؤكَّد أنَّ هذا هو السبب الذي جعل الله فلانًا يرقد". ليس دورَنا أن نفهمَ الأسباب، لكنَّ دَورَنا هو الكيفيَّة التي سنتجاوب بها مع الحدث. يُصِرُّ بولس وغيره من كتبة العهد الجديد أنَّنا عندما نتجاوب بالثقة في مشيئة الله، فإنَّ الألم دونَ شكٍّ سيعمل فينا للخَير. كما قال أيُّوب نفسه: "يُنَجِّي البائِسَ في ذُلِّهِ ويفتحُ آذانَهُم في الضيق" (٣٦: ١٥).

إنَّ مفهومَ الألم بوصفه قوَّةً مُنتجةً يُضيفُ بُعدًا آخرَ إلى خبرة الألم؛ فالبَشرُ يُقدِمون على الألم إذا كان له هدف، كما يشهد مثلًا الرياضيُّون في المنافسات الرياضيَّة، والنساء في الولادة. وبحسب الكتاب المقدَّس، فإنَّ ردَّ الفعلِ المسيحيَّ السليمَ على الألم يُعطي رجاءً مُشابهًا للمُتألِّمِ على فراش المرض. كلَّما اتَّكلنا على الله، ووثقنا بروحه الذي يشكِّلنا على صورته، فإنَّ الرجاءَ الحقيقيَّ يتشكَّل داخلنا. إنَّه "رجاء لا يخيب". ونستطيعُ حرفيًّا أن نصيرَ أشخاصًا أفضل بسبب الألم. فمهما بدا أنَّ الألم بلا معنى، فسوف يُعاد تشكيله عندئذٍ ليصيرَ شيئًا ذا معنى.

أين الله في وقت الألم؟ إنَّه فينا- وليس في الأشياء التي تؤلم- يعملُ على إعادة تشكيل السيِّئ ليصبحَ جيِّدًا. لا نقولَ إنَّ الله يأتي بالشرِّ على أمل أن يخرجَ منه الخير، بل يسعُنا أن نقولَ إنَّه عندما يقَعُ الشرُّ، فالله يُخرِجُ منه خيرًا.

من كتاب: أين الله في وقت الألم؟

الصالحُ والسيِّئُ والمفتَدى

كُنتُ أحاضِرُ عن الكتابة، وإذا بشخصٍ يطرحُ سؤالًا لم أتوقَّعه. "لقد كتبتَ ثلاثَةَ كُتُبٍ عن الألم. قُل لنا باختصار: ماذا تعلَّمتَ؟".

أجبتُ، على نحوٍ يبدو غريزيًّا، بهذه المعادَلة: "الألم جَيِّد. الألم سيِّئ. الألم يُمكن أن يُفتَدى". وبعد ذلك، عندما كان لديَّ الوقت للتأمُّل، قُلتُ إنَّ هذه الأفكار الثلاثة تُلخِّص ما تعلَّمتُه، ليس فقط بشأن الألم، بل بشأن أغلب أمورِ الحياة.

أوَّلًا، الألم جَيِّد. لقد تعلَّمتُ بسبب عملي مع المتخصِّص في الجذام (البرص) د. پول براند أنَّنا إذا فقَدْنا وظيفةَ الإنذار المُبَكِّر التي يقدِّمها الألم، فسوف نُدمِّر أجسادنا، وهذا بالتحديد ما يحدث في مرض الجذام.

لكنَّ الألم سيِّئٌ أيضًا. فزوجتي تشاهدُ يوميًّا في دارِ رعايةِ المرضى المُسنِّين التأثيرات المأساويَّة للألم الذي بلا فائدة؛ فألم مريض السرطان المُحتضَر هو أشبه بتعذيبٍ سادِيٍّ دون معنى.

لكنْ يمكن أيضًا أن يُفتَدَى الألم. فمن الإنسان المُحتَضِر، ومريض الجذام، ومن أشخاص آخرين مثل جوني إريكسون تادا (Joni Eareckson Tada) التي تعيش بإعاقة مستمرَّة، نتعلَّم أنَّه يمكن أن يخرجَ أمرٌ صالحٌ مِن أسوأ ما تقدِّمه الحياة.

تظهرُ هذه الثلاثيَّة الإيمانيَّة في أشكال متعدِّدة حتَّى إنِّي تبنَّيتُها كأنَّها عدسةٌ أرى بها الحياة. إنِّي أميلُ إلى الاعتقاد أنَّ مفهومَ الافتداء صارَ لأغلب المعاصرين أمرًا كريهًا، مثلما صارَتِ الكلمةُ أيضًا. فنحنُ كثيرًا ما لا نستطيعُ أن نقفَ على أرض الافتداء، فنُخطئ في اتِّجاه حسبان الألم جيِّدًا أكثر ممَّا يجب، أو نراه سيِّئًا أكثر ممَّا يجب.

الماركسيُّون القُدامى، ودعاة الدفاع عن البيئة، وأتباع العلم المسيحيِّ، والديمقراطيُّون الليبراليُّون، والمنادون بلاهوت الازهار، أو الغنى والصحَّة- كلُّ هؤلاءِ يُمجدُّون صلاحَ الطبيعة. وعلى الجانب الآخر، فإنَّ المُحافظون الجُدُد، والكالڤنيُّون، والنِّسْوِيُّون، ودُعاة حفظ السلام الأمَميُّون، ومحامو حقوق الإنسان، ومُحرِّرو الصُّحُف يُذكِّروننا دائمًا بالحقيقة المُرَّة للسُّقوط الإنسانيّ.

وبدل الاستقرار في مكانٍ ما من هذا الطَّيف، فإنِّي أسعى إلى إتمام الدائرة ورؤية العالم من العدسة الثالثة وهي الافتداء. والأمرُ عندي هو أنَّ الأصحاح الثامن من رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية هو الفِقرةُ الأكثر رجاءً وواقعيَّة في الوقت نفسه. فهو يؤكِّد صلاحَ الخليقة، ويؤكِّدُ سقوطها أيضًا. وهي تقرع جَرَسَ

التأكيد أنَّه مهما كانت كلُّ "الأشياء" التي تُصادِفَنا- وقد كانت الأشياء لدى بولس غايةً في الصعوبة- فكُلُّها يُمكن أن تُفتَدى وتعمل في النهاية للخير.

عمود "الصفحة الخلفيَّة"، مجلَّة المسيحيَّة اليوم، ١١ أيلول/ سبتمبر ١٩٩٥م

٢٠ تشرين الأوَّل/أكتوبر

ارتعاشٌ في الصين

أجريتُ حواراتٍ مع أربعة ممثِّلين لحركة كنائس البيوت في الصين، وذلك في إطار رحلة إلى العاصمة الصينيَّة بكِّين عام ٢٠٠٤م. وكان أكثر الزوَّار تأثيرًا فيَّ هو الأخ شاي (Shi)، وهو رجلٌ ذكيٌّ وحماسيٌّ يبلغ من العمر أربعة وأربعين عامًا، ولم يكن ممكنًا وضعُه في إطار ما يُسمَّى مسيحيَّة الفلَّاحين الصينيِّين البُسطاء. في سنوات مراهقته، تَرَأَّس شاي فرعَ محافظته لرابطة الشباب الشيوعيِّ، وخدم لاحقًا في الحرس الأحمر. كان معتادًا أن يمرَّ بإحدى الكنائس البروتستانتيَّة الوطنيَّة الصينيَّة المزدحمة في طريقه إلى مقرِّ الحزب. ذات يومٍ قرَّر أن يحضرَ الكنيسة، وعندما حضرَ واستمعَ إلى شهادات المسيحيِّين الصينين المُفعمة بالحياة، أصابتْه الحَيرةُ الشديدة. اشترى كتابًا مُقدَّسًا وقرأه. وبعد ذلك ببضعة شهور، أعلنَ لمسؤوله في الحزب أنَّه صارَ مسيحيًّا. صاح فيه الرئيس محذِّرًا إيَّاه أنَّه بهذه الطريقة يقطع على نفسه كلَّ فرص التقدُّم في الحياة، ويضحِّي بمستقبله السياسيِّ الواعد. وعندما غادرَ شاي الغرفة، اتَّصلَ المسؤولُ بوالد شاي ليبلغَه بخيانة ولده.

وعندما عاد شاي إلى المنزل، قابلَه والدُه عند الباب بأقسامٍ مُغَلَّظة قائلًا: "لقد فعلتَ أمرًا سيِّئًا جدًّا لنا. لقد حاربتُ الزعيمَ التايوانيَّ المسيحيَّ تشيانغ كاي تشيك (Chiang Kai-shek)، وحاربتُ المسيحيِّين في كوريا، والآن صارَ يسوع في بيتي!" ثمَّ طردَ الأبُ شاي من المنزل، وألقى بكلِّ ما يخصُّه في الشارع. وباتَ شَاي عدَّةَ أيَّامٍ في مَكتَبِ أَحَدَ أصدقائه. وعندما كان يشاهد والدَه في الشارع ويحاول الحديث إليه، كان الوالدُ يشيحُ بوجهه.

بعد ذلك بعشر سنوات، بدأ والد شاي يلين بالتدريج، وذلك بعد الشفاء المعجزيِّ لحفيده، وصارَ هو الآن أيضًا مسيحيًّا.

كان على الأخ شاي أن يسافرَ باستمرار ليهربَ من الشرطة. قال لي: "لم يُقبَض عليَّ من قبل، وذلك بفضل الكنيسة وإخفائها لي. ذاتَ مرَّةٍ هربت قبل وُصول الشرطة بثلاث دقائق فقط". وبفضل مهارات شاي القياديَّة، يشرفُ الآن على ٢٦٠ ألف مسيحيٍّ في محافظته. ويرى زوجتَه، التي هي أيضًا قائدةٌ كنسيَّةٌ مشهورة، مرَّةً واحدةً في السنة.

قبل أن أذهبَ إلى الصين، كُنتُ قد قابلتُ مُرسلًا طُردَ من هناك بعد الثورة الشيوعيَّة عامَ ١٩٥٠م، وقال لي التالي: "لقد شعرنا بالأسف الشديد على الكنيسة التي تركناها وراءنا. لم يكن هناك مَن يعلِّمُهم، ولا توجد مطابع، ولا كلِّيَّات لاهوت، ولا يوجد مَن يديرُ العيادات. لا توجد موارد، فقط الروح القدس".

ويبدو أنّ الروحَ القدسَ أدَّى دَورَه على أكمل وجه.

من كتاب: العثور على الله في أقلِّ الأماكن توقُّعًا

٢١ تشرين الأوَّل/أكتوبر

ما بين الاضطهاد والنُّموّ

في زياراتي إلى كنائس ما وراء البحار، يظهر لي اختلافٌ واضحٌ ما بين المسيحيِّين هناك والمسيحيِّين في أميركا الشماليَّة: مَوقفُهم من الألم والصعوبات في الحياة؛ فنحن الذين نعيش في راحة غير مسبوقة نبدو مهووسين بمشكلة الألم. ويتناول المتشكِّكون الألمَ بوصفه عقبةً أساسيَّةً في طريق الإيمان بالله، ويُصارِع المؤمنون لكي يقبَلوه. عادةً ما تركِّزُ اجتماعاتُ الصلاة في أميركا على الأمراض وطلبات الشفاء، في حين لا يكونُ الأمر كذلك في أماكنَ أخرى.

سألتُ رَجُلًا يزور كنائس البيوت غير المُسجَّلة في الصين إنْ كان المسيحيُّون هناك يُصلُّون من أجل حدوث تغييرات في السياسات العنيفة للحكومة. وبعد أن فكَّرَ لحظاتٍ، أجابَ أنَّهُ لَم يسمَعْ قَطُّ مسيحيًّا صينيًّا يُصلِّي من أجل تخفيف الضغوط. وأضاف: "هم يفترضون أنَّهم سيواجهون مقاومة، ولا يتخيَّلون أمرًا آخرَ بخلاف ذلك". ثمَّ ضربَ لي بعضَ الأمثلة:

تَعَرَّضَ أحد الرعاة للسَّجن مدَّة اثنتَين وعشرين سنةً مع الأشغال الشاقَّة بسبب إقامة اجتماع كنسيٍّ غير مُرَخَّص. وعندما خرجَ من السجن وعادَ إلى الكنيسة، شكر شعبَ الكنيسة على صلاتهم من أجله. وراع آخر مسجون، سَمِعَ أنَّ زوجتَه فقدَتِ البَصَر عندما كان في السجن، وكان يريد بشدَّةٍ أن يكون معها، فأخبَرَ مأمورَ السجن أنَّه أنكرَ الإيمانَ المسيحيّ. وبعد أن أُطلِقَ سراحُه، سرعانَ ما شَعَر بتأنيب الضمير، فسَلَّم نفسه مرَّة أخرى للشرطة، ليُمضيَ السنوات الثلاثين التالية في السجن.

وجدْتُ النمط نفسه في ميانمار (بورما سابقًا)، حيث كانت تحكُمها دكتاتوريَّةٌ عنيفةٌ تضطهد كلَّ أنواع الأنشطة الدينيَّة. قال لي الشخص الذي دعاني لزيارة البلد: "عندما تتكلَّم إلى الرُّعاة والقساوسة، يجب أن تدرك أنَّهم جميعًا على الأغلب أمضوا فترات في السجون بسبب إيمانهم". وعندما سألته إنْ كان مُناسبًا أن أتكلَّم عن أحد كُتُبي عن موضوع الألم، مثل "أين الله في وقت الألم؟" أو "عندما لا تمطر السماء"، فقال لي: "لا عليك. هذا ليس أمرًا نهتمُّ به هنا، فنحن نفترض مُسَبَّقًا أنَّنا سنتعرَّض للاضطهاد بسبب إيماننا. نريدك أن تتكلَّمَ عن النعمة؛ فنحن نحتاج إلى المساعدة لنتوافقَ بعضنا مع بعض".

من كتاب: إشاعاتٌ من عالم آخر

الله على وجه العموم

عادَ أَحَدُ أصدقائي مؤخَّرًا من زيارة لبلدان آسيويَّة يختبر المسيحيُّون فيها اضطهادًا. قال له المسيحيُّون في ماليزيا: "إنَّنا شاكرون للبركة التي نحن فيها؛ ففي إندونيسيا يَقتُلون المسيحيِّين، أمَّا هنا فعلينا فقط أن نحتملَ التمييز والتضييق على أنشطتنا". وفي إندونيسيا، حيث يموت المسيحيُّون بالفعل من أجل إيمانهم، فقد قالوا له: "إنَّنا شاكرون للبركة التي نحن فيها؛ لأنَّهم في ماليزيا لا يستطيعون نَشْرَ الكتاب المقدَّس بحرِّيَّة، أمَّا هنا فلا يزالُ في وُسعنا فعل ذلك". فالكنيسة في إندونيسيا تقدِّر قوَّة الكلمة.

بوصفي كاتبًا، أحظى بفرصة أن أزورَ العديد من البلدان، بما في ذلك البلدان التي تَضطهدُ المسيحيِّين. لقد لاحظتُ الفرقَ الواضحَ في صياغة الصلاة. عندما تأتي المصاعب، يميلُ المسيحيُّون الذين يعيشون في بلدان الرفاهية والوفرة، أن يُصلُّوا هكذا: "يا ربّ، خلِّصنا من هذه التجارب". وعلى العكس من ذلك، فقد استَمَعتُ للمسيحيِّين المضطهدين، والذين يعيشون في فقرٍ شديدٍ يصلُّون هكذا: "يا ربّ، أعطنا القوَّة لنحتملَ هذه التجارب".

أمضى آلن يوان (Allen Yuan) اثنتَين وعشرين سنةً في السجن مع الأشغال الشاقَّة لأنه كان يقودُ اجتماعًا مسيحيًّا غير مُرخَّصًا في الصين. وعندما خرج من السجن وعاد إلى الكنيسة، كان يشكر الله أنَّه أنهى الأشغالَ الشاقَّة دون أيَّة إصابةٍ أو مرضٍ، ثمَّ قال: "لقد استجاب الله صلواتي من أجل السلامة في السجن"، وكان فرحًا بذلك. لقد كان يعمل بالقرب من الحدود الروسيَّة دون ملابس مُدفِئة طَوال ذلك الوقت.

وبحسب بعض التقديرات، فإنَّ المسيحيِّين في البلاد المتقدِّمة يمثِّلون الآن فقط ٣٧٪ من المسيحيِّين المؤمنين في كافَّة أنحاء العالم. وعندما أسافر؛ وعندما أقرأ تاريخ الكنيسة، ألاحظ نَمَطًا مُتكرِّرًا، وظاهرة تاريخيَّةً غريبةً: أنَّ الله يتحرَّك جَغرافيًّا من مكانٍ إلى آخر- من الشرق الأوسط إلى أوروبَّا، وإلى أميركا الشماليَّة، ثمَّ إلى البلدان النامية. ونظريَّتي ببساطة هي أنَّ الله يذهبُ حيث يحتاجون إليه. إنَّ هذه فكرةٌ مخيفةٌ في بلد مثل الولايات المتَّحدة، حيث هناك خمسُ مئة قَناة تلفزيونيَّة فضائيَّة للتسلية وتشتيت الانتباه.

العثور على الله في أقلِّ الأماكن توقُّعًا

اعترافٌ كنسيّ

ربَّما يُعدُّ المزمورُ الحادي والخمسون، الذي كتبه داود ليكونَ قصيدةً للتذكُّر، النتيجةَ الأهمَّ لعلاقته الآثمة ببثشَبَع. أن يعترفَ مَلكٌ بِسَقطَةٍ أخلاقيَّة في السرِّ شَيءٌ، وأَن يَنظُمَ قَصيدَةً مُفَصَّلة تروي ذلك الاعتراف لتُغَنَّى في طول البلاد وعرضها، فهذا شيءٌ آخر تمامًا!

كلُّ الأمم لديها أبطالُها، أمَّا الأُمَّة العبرانيَّة فربَّما تكونُ الأمَّةَ الوحيدةَ التي تصنع ملاحمَ أدبيَّة تروي فيها فَشَلَ أبطالها. يَكشِفُ هذا المزمور البليغ، الذي يُستخدَمُ في خَدمات العبادة بوصفه مُرشدًا لممارسة الاعتراف: كيفَ أَنَّ الأُمَّةَ العبرانيَّة كانت في النهاية تَذكُرُ لداودَ تَكريسَهُ لله أكثر من إنجازاته السياسيَّة.

وخطوةً بخُطوَةٍ يأخُذُ المَزمورُ القارئَ (أو المُغَنِّي) عَبرَ مَرَاحِلِ التوبة، وهو يَصِفُ الاجترار العقليَّ الذي يمارسه المخطئ– "آه، لو أُتيحت لي الفرصة أن أجتازَ في الموقف مرَّةً أخرى، لفَعلتُ العكس"– مشاعر الخزي والذَّنْب الضاغط، ويأتي في النهاية الرَّجاءُ في بِدايَةٍ جَديدة تنبعُ من التوبة الحقيقيَّة.

يعيش داود تحت ناموس العهد القديم، الذي يحمل عقابًا صارمًا للجريمة التي ارتكبها: الإعدام رجمًا. لكنْ بطريقةٍ عجيبةٍ، يكشف المزمور الحادي والخمسين عن الطبيعة الحقيقيَّة للخطيَّة حاسبًا إيَّاها انتهاكًا للعلاقة بالله. فيصرخ داود قائلًا: "إليك وحدك أخطأت، والشرَّ قدَّام عينَيك صنعت". إنَّه يَرى أنْ لا ذبيحة طقسيَّة، ولا ممارساتٍ دينيَّة تقدرُ أَن تُزيلَ ذَنبَه؛ فالذبيحة التي يطلبها الله هي "القلب المُنكسر والروح المنسَحِقة"، وهاتان كانتا موجودتَين لدى داود.

في وسط صلواته، يبحثُ داودُ عن خيرٍ يَخرُجُ من قلب المأساة ليَرى بصيصًا من نور. إنَّه يُصلِّي إلى الله كي يستخدمَ هذه الخبرة لتكونَ درسًا أخلاقيًّا للآخرين. فقد يتعلَّمُ آخرون بقراءةِ قصَّةِ الخطيَّة التي اجتازَ فيها الابتعادَ عن مَواطِنِ السقوط تلك، أو قد يحصلون بقراءة اعترافه على رجاء في الغفران. لقد استجابَ الله بالكامل صلاة داود، بل صارت هذه الصلاة أعظم تُراثٍ له في مُلكِه. لقد سقطَ أفضلُ ملك على الأُمَّةِ العبرانيَّة، وكانت سَقطَتُه عظيمةً. لكنْ لا هو، ولا أيُّ شخصٍ آخر، يمكن أن يسقطَ بعيدًا عن محبَّة الله وغفرانه.

من كتاب: التَقِ الكتاب المقدَّس

٢٤ تشرين الأوَّل/أكتوبر

حماقةُ سليمان

كان كلُّ شيء يمكن تخيُّله يعمل في مصلحة سليمان. وهكذا كان من المتوقَّع أن يكون سليمان طائعًا لله شاكرًا معترفًا بالجَميل. كانت صلاته لتكريس الهيكل في ١ ملوك ٨ من أعظم الصلوات. لكنْ في قُرب نهاية مُلكه، بدَّد سليمان كلَّ البركات والميِّزات التي كان يتمتَّعُ بها. ذلك الشاعر الذي غنَّى للحبِّ الرومانسيّ، حطَّمَ كلَّ الأرقام القياسيَّة في الفجور الجنسيّ: سبع مئة زوجة، وثلاث مئة عشيقة! هذا الرجل الحكيم، الذي صاغَ أمثال الحكمة ووصايا، انتهَكَها جميعًا بإفراط لا مثيل له.

ولكي يُرضي زوجاته الأجنبيَّات، اتَّخذَ هذا الرجل التقيُّ، الذي بني لله الهيكلَ العظيم، خطوةً أخيرةً فظيعة: أنَّه أدخلَ عبادة الأوثان في مدينة الله المقدَّسة.

في جيل واحد، حَوَّلَ سليمان الأمَّة العبرانيَّة من أمَّة نشأت معتمدة على الله في بقائها على قيد الحياة، لتصير قوَّةً سياسيَّةً مُكتفية بذاتها ومواردها. وعلى ذلك الطريق، فَقَدَ سُليمانُ الرؤيَةَ التي دَعَاهُ الله ليَعيشَها. ومِمَّا يَدعو للسُّخرية، أنَّه عندما حان وقت وفاة سليمان، كانت الأُمَّة العبرانيَّة قد صارت شديدةَ الشَّبه بمصر التي كانت قد خرجت منها: دولةً استعماريَّةً تعيش على بيروقراطيَّةٍ مترهِّلةٍ وعمالة تقوم على السُّخرة، وعلى دينٍ رسميٍّ للدَّولة تحت سلطان الملك يقرِّره متى شاء. لقد زاحمَ النجاحُ الدنيويُّ الاهتمامَ بملكوت الله في حياة سُليمان والمملكة جَمعاء. وقد غابَتِ الرؤيةُ البسيطةُ الواضحةُ للأمَّة العبرانيَّة بوصفها أمَّةَ عهدٍ مع الله، فكانت العقوبةُ الإلهيَّة. بعد موت سليمان، انقسمَتِ الأمَّةُ مملكتَين وبدأتْ سلسلةُ التدهور والدَّمار.

ربَّما يُعبِّرُ اقتباسٌ من أوسكار وايلد (Oscar Wilde) أفضل تعبير عن سليمان: "هناك مأساتان فقط في هذا العالم: الأولى هي ألَّا يحصُل المرءُ على ما يُريده، والثانية هي أن يحصل الإنسانُ على ما يُريده". حصلَ سليمان على كلِّ ما أراد، ولا سيَّما في ما يتعلَّق بعوامِلِ القوَّة والمكانة والسلطان. وبالتدريج، قَلَّ اعتمادُهُ عَلى الله، وزادَ اعتماده على ما حوله من مظاهر القوَّة: أكبرَ "حَرَيم" في العالم، بيتٍ في ضعف حجم الهيكل، وجيشٍ مُدَجَّجٌ بالعَرَباتِ الحربيَّة، واقتصادٍ قَويّ. ربَّما أزالَ النجاح أيَّة أزمةِ خيبة أمل بالله يمكن أن يعانيها سليمان، لكنَّ المؤسفَ أنَّه أزال أيضًا من قلبه أيَّة رغبة في الله. وكلَّما استمتعَ بالعطايا، قلَّ اهتمامه بالمُعطي.

من كتاب: عندما لا تمطر السماء

الشوقُ إلى المزيد

مَن يُدهِشُهم وُجودُ سِفرٍ مِثلَ نَشيدِ الأنشاد في الكِتابِ المقَدَّس، رُبَّما يُصدَمون تمامًا بوجودِ سفرٍ مثل الجامعة فيه. يصرخُ كاتب هذا السفرِ الحافل بالإحباط قائلًا: "باطل الأباطيل الكلُّ باطل". ورغم أنَّ السِّفرَ لا يُعطي اسمًا لكاتبه، فإنَّه يحوي إشاراتٍ عريضةً أنَّ سليمان هو كاتبه، أو على الأقلِّ الذي أوحى به. يحكي هذا السفر قصَّةَ أغنى وأحكم وأشهر إنسان في العالم عندما سمح لنفسه بكلِّ أشكال اللذَّة التي حَلَمَ بها. وفي النهاية انهارُ ذلك الإنسان "الجامعة" (أي المُعلِّم) في نَدَمٍ ويأس شديدَين، فقد بَدَّدَ حَياتَه بالكامل.

وباكرًا في السِّفر، يُقَدِّمُ الأَصحاحَ الثالث، مُلخَّصًا مُكثَّفًا للسِّفر، مبتدئًا بقصيدة جميلة عن الوقت، ثمَّ يمتَدُّ من هناك ليناقشَ معنى الحياة، وهذا يتَّفقُ تقليديًّا مع بحث "الجامعة" عن المعنى. ويختمُ الكاتب السفر بقَوله إنَّ الله وَضَعَ على عَاتِقِ البشر "عبئًا" يجعلُهم من غير الممكن أن ينالوا الشبعَ الكاملَ على الأرض. بعد عُمر أمضاه الجامعة في البحث عن اللذَّة والسعادة، يسأل قائلًا: "هل هذا كلُّ ما هُناك؟" حتَّى اللحظات النادرة من السلام والسكينة التي حصل عليها، نالَها الفَسادُ جرَّاء تَهديدِ المَوت. وبحسب الجامعة، فإنَّ الحياةَ دونَ معنى بعيدًا عن الله، ولن يكونَ لها معنًى بصورةٍ كاملة؛ لأنَّنا لسنا الله.

لكنَّ الله أيضًا "وَضَعَ الأبَديَّة في قلوب البشر". إنَّنا نشعُرُ بشوقٍ دفينٍ إلى ما هو أكثر من هذه الحياة: نبحث عن سعادة تدوم إلى الأبد، ومحبَّةٍ لا تصير مُرَّة بمرور الأيَّام، وعمل مُشبعٍ بلا ملل.

وهكذا فإنَّ "الجامعة" يترَجَحُ ما بين حالتين: من جهةٍ، الشعورُ بالتَّدَهوُرِ المُستَمِرِّ نحوَ اليأسِ والإحباط، ومن جهةٍ أُخرى الانجذاب إلى أمرٍ أعلى. وبصورة كثيرة الشبه باليوميَّات الشخصيَّة، فإنَّ سفر الجامعة يسجِّل بحثَ الإنسان عن الاتِّزان. ورُغمَ أنَّ الصراعَ لا يُحَلُّ في هذا الأصحاح، فإنَّ بعضَ القرَّاء يتساءلون إنْ كان الصراع يُحَلُّ أصلًا. لكنَّ سفر الجامعة ينتهي بهذا التلخيص لحكمة الجامعة: "اتَّقِ الله واحفظ وصاياه، فهذا هو الإنسان كلُّه".

من كتاب: التَقِ الكتابَ المقدَّس

٢٦ تشرين الأوَّل/أكتوبر

صلاةٌ مفاجئة

في البداية، كانت كلِّيَّة اللاهوت عندي موطنًا لتنمية الشَّكّ. وقد استطعْتُ التعايُشَ فيها "بتقليد" السلوك الروحيِّ المتوقَّع. على الطالب أن يفعلَ كذا وكذا، على الأقلِّ، ليحصلَ على درجات جيِّدة. كانت هناك مثلًا تلك القضيَّة الكريهة المُسمَّاة "الخدمة المسيحيَّة". كانت الكلِّيَّة تطلب إلى كلِّ طالب أن يشترك في خدمةٍ منتظمة، مثل الكرازة في الشارع، أو خدمة السجون، أو زيارة دور المسنِّين والمَرضى. أمَّا أنا فاشتركت في "خدمة العمل الجامعيّ".

كلَّ سبت، كنتُ أزور مَركَزًا للطلبة في جامعة ولاية كارولينا الجنوبيَّة وأشاهد التلفاز. كان من المفترض بالتأكيد أن "أشهدَ"، كما كان عليَّ في الأسبوع التالي أن أرفعَ تقريرًا عن الطلبة الذين قد شهدت لهم بإيماني الشخصيّ. على الأرجح بدَتْ قِصَصي المُفبركةُ أصيلةً؛ إذ لَم يَشُكُّ أحدٌ فيها.

كان المطلوبُ أيضًا أَن أَحضُرَ اجتماعَ صَلاةٍ أُسبوعيًّا مَعَ أَربَعَةٍ من الطلبة المشتركين في خدمة العمل الجامعيَّة التي أخدم بها. كانت هذه الاجتماعات تتَّبع نظامًا ثابتًا: يصلِّي جو، ثمَّ كريغ، ثمَّ كريس، بعد ذلك جو الآخر، ثمَّ ينتظرني الأربعة بأدبٍ نحو عشر ثوانٍ. لم أكُنْ أُصلِّي بتاتًا: وبعد الصمت القصير، نفتح عيوننا ونعود إلى غرفنا.

وفي إحدى ليالي شهر شباط/ فبراير، ولدهشة الجميع، صَلَّيتُ. لا أعلم لماذا. لم أخطِّط لذلك. لكنْ بعد أن صلَّى جو وكريغ وكريس، وبعد أن انتهى جو الآخر من صلاته، وجدتُ نفسي أُصَلِّي بصوتٍ مَسموع. "يا ربّ" وبدأتُ أستَشعرُ أنَّ معدَّل التوتُّر في الغُرفة قد ارتفع.

وكما أذْكُرُ، قُلتُ شيئًا مثل: "يا ربّ، أعلمُ أنَّه يُفترَضُ بنا أن نهتمَّ بالطلَّاب العشرة الآلاف في جامعة ولاية كارولينا الجنوبيَّة الذين سيذهبون إلى الجحيم. وأنت تعلَمُ أنِّي لا أهتمُّ إنْ ذهبوا إلى الجحيم أم لا، إذا كان هناك جحيم أصلًا. ولا أهتمُّ إنْ كنتُ أنا أيضًا ذاهبًا إلى هُناك".

عليك أن تنضمَّ إلى كلِّيَّة لاهوتٍ لتستطيعَ أن تُقدِّر مدى وَقْعِ كلماتٍ كهذه على الحاضرين في الغرفة. فالأمر عندهم أقربُ إلى أنَّ شَخصًا مِثلي يمارسُ السحر الأسود، أو يقدِّم الأطفال ذبائحَ. لكنْ لم يحاول أحدٌ أن يوقفني، فأكملتُ الصلاة.

(يتبع في التأمُّل التالي)

من كتاب: عندما لا تمطر السماء

٢٧ تشرين الأوَّل/أكتوبر

عَكسُ الأدوار

(يتبع من التأمُّل السابق)

لسبب ما، عندما صَلَّيتُ، بدأتُ أتحدَّثُ بشأن مَثَلِ السامريِّ الصالح. من المُفتَرَض أن يكونَ لدينا، نَحنُ طَلَبَةَ كُلِّيَّةِ اللاهوت، اهتمامٌ بطلبة الجامعة مثلما كان اهتمام السامريِّ الصالح باليهوديِّ الغارقِ في دمائه ما بين حيٍّ وميت. لكنِّي لم أشعر بهذا الاهتمام، بل لم أشعُرْ تُجاهَهم بأيِّ شيء.

ثم حَدَثَ شيءٌ ما. في وسط صلاتي، رأيتُ هذه القصَّة في ضَوءٍ جديد. وبينما كنتُ أتكلَّم، رأيتُ المشهَدَ: رجلٌ سامريٌّ عتيقُ المَظهر، يلبس رداءً وعباءةً، ينحني مقتربًا من كائن يُغطِّيه التراب والدَّمُ في حُفرةٍ، ما بين الحياة والموت. لكنْ فجأةً في شاشة مخِّي الداخليَّة، تغيَّرت صورة الشخصَين. أخذَ السامريُّ الطيِّبُ وجهَ يسوع، وأخذَ اليهوديُّ، ضحيَّةُ السرقة بالإكراه على طريق السَّفر، وجهًا آخر أيضًا، وكان وجهًا يُشبِهُني.

في غمضة عَين، رأيتُ يسوعَ يقترب مُمسكًا بخرقة مُبلَّلةٍ ليُنَظِّفَ جراحي ويُوقف شلَّال الدَّم. ورأيتُ نفسي أفتح عَينيَّ وأضُمُّ شَفَتَيَّ. ثمَّ رأيتُ نفسي، وكأنِّي أنظرُ المشهدَ بالتَّصوير البطيء، أبصقُ على يسوع بكلِّ ما أوتيتُ من قوَّةٍ. رأيتُ كلَّ ذلك– أنا، الذي لم أومن بالرؤى، أو الأمثال الكتابيَّة، أو حتَّى يسوع. لقد أذهلتني الرؤيا، ثمَّ فجأةً توقَّفتُ عَن الصلاة ونَهَضْتُ وتَركتُ الغُرفة.

وطَوالِ هذه الليلة كُنتُ أُفكِّر في ما حدث. لم تكُن بالضَّبط رؤيا– كانَت أقرَب إلى مَثلٍ تَحَوَّلَ أمامي إلى حُلمٍ يَقَظة أُضيفَ إليه مُنعَطفٌ أخلاقيّ. لكنِّي لم أستطع أن أضعَه خلفَ ظهري وأواصل حياتي كما كانت. ماذا كان معناه؟ هل كان حقيقيًّا؟ لستُ متيقِّنًا، لكنِّي عرفتُ أنَّ شعوري بالاكتفاء قد تَبدَّدَ. لقد كُنتُ في أثناء وجودي في هذه الجامعة أجدُ الأمانَ في لاأدرِيَّتي. لَم يعُد الأمرُ كذلك. لقد صارتْ عندي رؤية جديدة لنفسي. ربَّما في شكوكي ولاأدريَّتي الساخرة، والواثقة بنفسها، كنتُ في ذات الوقت أشدَّ الناسِ احتياجًا.

كتبتُ رسالةً مُختصرة إلى خطيبتي في تلك الليلة، قُلت لها فيها بحذر: "أريد أن أنتظر بضعة أيَّام قبل أن أتحدَّثَ بالأمر، لكنْ ربَّما حصلتُ لتوِّي على الخبرة الروحيَّة الأهمِّ في حياتي".

من كتاب: عندما لا تمطر السماء

صورةٌ مجعَّدة

في إحدى الإجازات، كُنتُ أزور أمِّي، التي تعيش على بُعد أكثر من ألف كيلومتر. جَلَسنا نستعيدُ ذكرياتِ الماضي، كما يميل الأمَّهات والأبناء أن يفعلوا دائمًا. وسرعان ما نَزَل صندوق الصور القديمة من على رَفِّه في الخِزانة. وبدأتْ تفيض منه كُومة من المستطيلات الرقيقة التي توَثِّقُ مسيرةَ حياتي من الطفولة إلى المُراهقة: صورتي في زيِّ رُعاة البقر، ثمَّ في حُلَّة الأرنب في إحدى مسرحيَّات السنة الأولى من المرحلة الابتدائيَّة، ثمَّ حفلات عزف البيانو المتتالية، ثمَّ التخرُّج في المدرسة الابتدائيَّة، ثمَّ الثانويَّة، وأخيرًا الجامعة.

وبين تلك الصور وجدتُ صورَةَ رَضيع، واسمي مكتوبٌ عَلى الصورة من الخلف. صورة الوجه نفسها كانت مألوفةً؛ إذ كنتُ أبدو مثل أيِّ طفل: مُمتلئ الخدود، خفيف الشعر، ونظرة زائغة في عينَيَّ. لكنَّ الصورة كانت مُجَعَّدة ومُهترئة، كما لو كانت قد خرجَت من بين أسنان أحد الكلاب التي كنَّا نربيها في تلك المرحلة. سألتُ أُمِّي عن سبب احتفاظِها بهذه الصورة المُفسَدَة في الوقت الذي كان فيه العديد من الصور الجيِّدة.

هُناك أمرٌ يجب أن تعرفَه عن أسرتي: عندما بلغ عمري عشرة شهور، أُصيب والدي بشلل الأطفال الذي يُصيبُ النخاع الشوكيَّ في المنطقة القَطَنِيّة (أسفلَ الظَّهر)، وتُوُفِّيَ بعد ذلك بثلاثة أشهر، بعد عيد ميلادي الأوَّل مُباشرة. كان والدي مشلولًا تمامًا في سنِّ الرابعة والعشرين، وقد ضَعُفَت عضلاته حتَّى إنَّه اضطُرَّ لأنْ يعيش داخل أُسطوانة معدِنيَّةٍ كانت تعينُهُ على التنفُّس. كان القليل من الأشخاص يزورونَه؛ فالناس كانوا عام ١٩٥٠م مهووسين بالخوف من عدوى شلل الأطفال مثلما هُم الآن خائفون من عدوى ڤيروس الإيدز. أمَّا الزائر الوحيد الذي كان يأتي إلى أبي بكُلِّ إخلاصٍ وأمانةٍ فهو أمِّي، التي كانت تجلس في مكان خاصٍّ بحيث يُمكنه أن يراها بواسطة مرآةٍ مُثبَّتةٍ في جانب الأسطوانة التي يعيش فيها.

وشرَحَتْ لي أُمِّي أنَّها احتفظت بالصورة تذكارًا؛ لأنَّ هذه الصورة كانت مُثبَّتةً في رئته المعدِنيَّة التي كان يتنفَّس فيها. لقد طَلَب أبي تثبيت صورٍ لها ولولدَيه في هذه الرئة المعدِنيَّة، لذلك اضطُرَّت أمِّي لأن تُثبِّتَ الصُّوَرَ ما بين بعض المقابض المعدِنيَّة لهذه الرئة الاصطناعيَّة. لهذا السبب كانت هذه الصورة تحديدًا من بين صُوَر طفولَتي مُجَعَّدَة ومُهترئة.

(يتبع في التأمُّل التالي)

من كتاب: عندما لا تمطر السماء

٢٩ تشرين الأوَّل/أكتوبر

يوجدُ شخصٌ هُناك

(يتبع من التأمُّل السابق)

نادرًا ما قد رأيتُ والدي بعد أن دخلَ المستشفى، حيث لم يكنْ مسموحًا بإحضار الأطفال إلى جناح المشلولين. ثمَّ إنِّي كنتُ صغيرًا جدًّا، فحتَّى لو سُمِحَ لي بالدخول، ما كنتُ لأتذكَّرَ شيئًا.

وعندما أَخبرَتني أُمِّي بقِصَّةِ الصورة المُجَعَّدة، كان رَدُّ فِعلي غَريبًا وقويًّا. بدا غريبًا أن أتخَيَّل شخصًا يهتمُّ بي، رغم أنَّه يمكنُ القولُ إنِّي لم ألتَقيه بتاتًا. وفي الشهور الأخيرة من حياته، أمضى أبي ساعاتِ يَقَظَتِهِ يُحملِقُ في تلك الصوَر الثلاثة لأسرته- أسرتي. لم يكن هُناك شيءٌ آخَرَ في مجال بَصَرِه. ماذا كان يفعل طَوال اليوم؟ أكان يُصلِّي لأجلنا؟ أجل بالتأكيد. هل كان يُحبُّنا؟ أجل. لكن كيف يُمكنُ أن يُعبِّرَ إنسانٌ مشلولٌ عن محبَّته، ولا سيَّما حين لا يستطيع طفلاهُ أن يزوراهُ في غُرفَةِ مَرَضِهِ؟

لقد فَكَّرتُ كثيرًا في تِلكَ الصُّورَةِ المُجَعَّدَة؛ لأنَّها واحدة من الروابط القليلة التي كانت تربُطُني بذلك الرجل الغريب، أي أبي. كانَ رجلًا غريبًا ماتَ في عُمرٍ أقلَّ كَثيرًا من عُمري الحاليّ. إنَّه شخصٌ ليست لديَّ ذكرياتٌ معه، أمضى اليوم كلَّه، وكُلَّ يومٍ يفكِّر فيَّ، مُكرِّسًا نفسه لي، مُحِبًّا بقدر ما يستطيع. ربَّما هو على نحوٍ غامضٍ يفعلُ الشيءَ نفسه في بُعدٍ آخرَ من الوجود. ربَّما سيُتاحُ لي وقتٌ- وقتٌ طويل، لأُجَدِّدَ تلك العلاقة التي انتهَتْ بكُلِّ قسوةٍ قبل حتَّى أن تبدأ.

أذكُرُ تلك القصَّة لأنَّ المشاعر التي شعرتُ بها عندما أَرَتني والدتي الصورة المُجعَّدة هي المشاعر نفسها التي شعرتُ بها في تلك الليلة من ليالي شهر شباط/ فبراير في غُرفة إقامتي في الجامعة، عندما آمنتُ للمرَّة الأولى بإله المحبَّة، وأدرَكتُ أنَّه يوجَدُ شخصٌ هُناك- شخصٌ يُراقِبُ الحياةَ وهي تتكَشَّفُ بالتدريج على ظَهرِ هذا الكوكب. بل أكثر من ذلك، هناك شخصٌ يُحبُّني. لقد كان شعورًا مُفاجئًا من الرجاء العجيب- شعورًا غامرًا جديدًا يستحِقُّ أن أُغامِرَ بكلِّ حياتي لأقتفيَ آثارَه.

من كتاب: عندما لا تمطر السماء

٣٠ تشرين الأوَّل/أكتوبر

التعاملُ مع الإحباط

أعلَمُ جيِّدًا استجابتي التلقائيَّة لاحتجاب الله: أوَّلًا، أنتَقمُ بأن أتجاهَلَه. ومثل طفل يظنُّ أنَّه يستطيع أن يختبئَ من الكبار بأن يُغطِّي عينَيه بيدَيه الصغيرتَين المكتنزتَين، أحاولُ إبعاد الله عن حياتي. إذا لم يُظهِرِ الله نفسَه لي، فلماذا أعترف به؟

يقدِّم إلينا سفر أيُّوب تجاوُبَين آخرَين لمثل ذلك الإحباط من الله. أوَّلُ تجاوُبٍ يظهرُ من أصحاب أيُّوب. كان إحباطُ أيُّوبَ العميقُ من الله غير متوافِقٍ مع لاهوتهم. لقد كانوا يرَون خِيارًا واضحًا كالأبيض والأسود ما بين إنسانٍ يدَّعي البِرَّ، وإلهٍ يعرفون أنَّه بارٌّ. قالوا له أن يَكبتَ مشاعرَه، وكان لسانُ حالهم: نحن نعلمُ أنَّ الله ليس ظالمًا. عارٌ عليك أن تقول مثل هذه الأشياء المُتجاوِزة عنه!

أمَّا التجاوُب الثاني، فكان تجاوُبَ أيُّوب، الذي كان يُمثِّلُ لغوًا غير مُترابِط، وموقفًا صارخَ التناقض مع المنطق الذي يُصرُّ أصدقاؤه أن يُقدِّموه. "لماذا أخرجتني من الرَّحِم؟ كنتُ قد أسلمتُ الروحَ ولم ترَني عينٌ". هكذا هاجَم أيُّوبُ الله مُقدِّمًا احتجاجًا كان يعلم أنَّه لن يُجدي نَفْعًا، مثل طائرٍ يحاولُ الهَربَ فيرتطمُ مرَّةً تلو الأخرى بزجاج النافذة.

والسؤال هو: أيَّ التجاوُبَين يؤيِّدُه السِّفرُ؟ لقد كان الطرفان يحتاجان إلى بعض التصحيح، لكنْ بعد أن نُطِقتْ كلُّ كلمات العاصفة، أمرَ الله أصدقاءَ أيُّوبَ الأتقياء أن يذهبوا إلى أيُّوبَ تائبين نادمين طالبين أن يُصَلِّي من أجلهم.

إنَّ إحدى الرسائل الجريئة التي يقدِّمها سفر أيُّوب هي أنَّ في وسعكَ أن تقولَ لله أيَّ شيء. ألقِ على الرَّبِّ حُزنَكَ وشارِكْه بمشاعر نَوحِكَ أيًّا كانت. ألقِ أمامَه شكوكَكَ وغضبك ومَرارَتَكَ، بل أيضًا خيانتَكَ وإحباطَكَ– فالله قادرٌ أن يمتصَّها كلَّها.

كثيرًا ما يُصَوِّر الكتاب المقدَّس عمالقة الإيمان وهُم يعترضون على الله. يُفضِّلون أن يخرجوا من لقائه يعرجون، مثل يعقوب، بدلَ أن يُخرِجوهُ من حياتهم. من هذا المنظور، يقدِّم الكتاب المقدَّس شهادةً قبل الأوان لأحَدِ فرضيَّات علم النفس الحديث: لا يُمكنك إنكار مشاعرك، أو جَعْلَها تختفي، لذلك من الأفضل أن تُعبِّرَ عنها. يستطيع الله أن يتعاملَ مع كلِّ تجاوُبٍ إنسانيٍّ ما عدا واحدًا– لا يستطيع الله التعامل مع التجاوب الذي أميل بكلِّ أسفٍ إلى السقوط فيه على نحوٍ شبه غريزيّ: وهو تجاهُلُ الله أو العيش كما لو لم يكُنْ موجودًا. لم يكن هذا التجاوُبُ في أيَّة لحظةٍ تجاوُبَ أيُّوب.

من كتاب: عندما لا تمطر السماء

٣١ تشرين الأوَّل/أكتوبر

ضبطُ الأحوال

يحسبُ صديقي ريتشارد سفر أيُّوب أكثر أجزاء الكتاب المقدَّس أمانةً، لكنَّه يرى كأنَّ خاتمته لا ترتبطُ بموضوعه: "نالَ أيُّوب ظهورًا شخصيًّا من الله، وهذا مُسرٌّ، وما كُنتُ أنتَظِرُهُ طَوال السنين. لكنْ لأنَّ الله لم يزُرْني كما زار أيوب، كيف يمكن أن تساعدَني القصَّة في صراعاتي؟"

أعتقد أنَّ صديقي ريتشارد قد وَضَعَ إصبَعَه على أَحَدِ الخُطوط الفاصلة المهمَّة في قضيَّة الإيمان. فبصورةٍ ما، تُشبه أيَّامنا على الأرض حياة أيُّوب قبل أن يأتي إليه الله في العاصفة. إنَّنا نعيشُ أيضًا نقتَفي أدلَّة مُتفرِّقة وإشاعاتٍ، بعضُها يصُبُّ في مصلحة الاعتراض على وجود إلهٍ قويٍّ مُحبّ. نحنُ أيضًا نحتاج لأن نُمارِسَ الإيمانَ حيث لا يوجَدُ عِيان.

انبَطَحَ ريتشارد بوجهِهِ على الأرضيَّة الخشبيَّة في شقَّته مُتضَرِّعًا إلى الله أن "يكشف" له عن ذاته، مُراهِنًا بكلِّ إيمانه على استعدادِ الله أن يدخُلَ العالم المادِّيَّ المنظور كما فعل مع أيُّوب. غير أنَّ ريتشارد خسر الرهان. وأنا بصراحة أشكُّ في ما إذا كان الله يشعر بأيِّ نوعٍ من "الإلزام" أن يُثبت شيئًا لأحد. لقد فعل الله ذلك مرارًا في العهد القديم، وفي النهاية، ظهر بصورةٍ خاصَّةٍ في شخص المسيح. فما المزيدُ من التجَسُّد الذي نطلبه؟

أقولُ ذلك بحَذرٍ بالغ، لكنِّي أتساءل إنْ كانَتِ الرغبةُ الشديدةُ لدى البشر في الحصول على معجزة- حتَّى معجزات الشفاء- تعكس أحيانًا الافتقار إلى الإيمان بدل توافُره. مثل هذه الصلوات، ربَّما تكون مثل قائمة الشروط التي وضعها ريتشارد أمامَ الرَّبّ. فعندما نتوقُ إلى حلٍّ مُعجزيٍّ للمشكلة، فهل يعني هذا أنَّنا نجعل ولاءَنا لله مشروطًا بأن يُثبتُ الله لنا شيئًا في العالم المنظور؟

إذا أصْرَرْنا على براهينَ منظورة من الله، فقد يؤدِّي هذا إلى إحباطٍ دائم؛ فالإيمانُ الحقيقيُّ لا يحاول كثيرًا المناوَرة مع الله والضغط عليه ليفعل ما نريده، بقدر ما يهدف لأنْ يضعَنا في موقع يجعلنا نفعلُ مشيئته. وعندما بحثت في الكتاب المقدَّس، صدمَتْني حقيقةُ أنَّ قلَّة من رجال الله اختبروا مثلَ أيُّوبَ لقاءً دراميًّا مع الله. تجاوَبَ الباقون مع احتجاب الله، ليس بمطالبة أن يُظهِر نفسه، بل بالاستمرار في الإيمان رُغم استمرار احتجابه. ويُشيرُ الأصحاح ١١ من رسالة العبرانيِّين إلى أنَّ عمالقةَ الإيمان "لم ينالوا المواعيد، بل من بعيد نظروها، وصَدَّقوها وحَيَّوها".

من كتاب: عندما لا تمطر السماء

تشرين الثاني/نوفمبر

١. حجر رشيد
٢. العدسة المُكبِّرة للإيمان
٣. اقتراب الله
٤. يسوع البروزاك
٥. الرؤية الجديدة
٦. وجبات فخمة لمصلحة الفقراء
٧. نوال حياة
٨. أصعب مهنة في العالم
٩. مُرشد الظِّلِّ
١٠. لاهوت من نكات قذرة
١١. مشكلة اللذَّة
١٢. لحظات الطَفو
١٣. رؤية المسيَّا
١٤. غير المرغوب فيهم
١٥. خسارة الحروب الثقافيَّة
١٦. بلا طُرُق مُختصرة
١٧. الإرشاد الليليُّ
١٨. نظرة إلى الخلف
١٩. الحضور
٢٠. الصلاة بالطريقة السليمة
٢١. يسوع ونورمان العاصف
٢٢. التطويبات المعكوسة
٢٣. مكافآت مستقبليَّة
٢٤. إله عادل في النهاية
٢٥. مراهنة الله
٢٦. كنيسة منتصف الليل
٢٧. مُعلِّمون مدمنو خمر
٢٨. الاهتمام بالنَّكِرات
٢٩. التواضع الحقيقيُّ
٣٠. أيادٍ لا يمكن إسكاتُها
٣١. صلاحٌ يُذهِب العقل

١ تشرين الثاني/نوفمبر

من خلف الستار

يمكن أن يكونَ الاصطدام مع احتجاب الله أمرًا مُضلِّلًا. رُبما يُجرِّبُنا أن نرى الله كأنَّه عدوٌّ، ونفسِّرَ احتجابَهُ أنَّه لامبالاة. تؤكِّد هذه الحقيقةَ حادثةٌ في حياة شخصيَّة مشهورة في الكتاب المقدَّس. واجَهَ النبيُّ دانيال احتجابَ الله مواجَهَةً بسيطة نسبيًّا، أقولُ بسيطةً بالمُقارنة بما واجَهَهُ أيُّوب مثلًا. حارَ دانيال بشأن الصلاة غير المُستجابة: لماذا يتجاهَلُ الله طلباته المتكرِّرة؟ لقد كرَّسَ دانيال نفسَه للصلاة مدَّة واحد وعشرين يومًا. حَزِنَ وناحَ، وحرم نفسه الطعامَ الجيِّد. هجرَ أطايبَ الطَّعام، ولم يستخدم أيَّ دُهنٍ لجَسدِه. وطَوال ذلك الوقت كان يصرخ إلى الله، لكنَّه لم يَنَلِ الاستجابة.

وذات يومٍ، نالَ دانيال أكثر جدًّا ممَّا أراده. ظهرَ له كائنٌ فائقٌ للطبيعة، بعَينَين كاللهيب ووجه كالبَرق، على ضفاف النَّهر المجاور له. سقطَ كلُّ رُفقاء دانيال على الأرض مغشيًّا عليهم من الرُّعب. وعندما حاول دانيال الكلام إلى هذ الكائن المُبهِر، لم يستطع الكلام.

أخذ الزائر العجيب يشرح له سببَ ذلك التأخير. لقد أُرسِلَ هذا الملاك استجابةَ صلاةٍ في البداية، لكنَّه تعرَّضَ لمقاومةٍ من "ملك فارس". وأخيرًا بعد ثلاثة أسابيعَ من الإعاقة، وصلَتِ الإمدادات، واستطاع ميخائيل أن ينتصرَ على هذه المقاومة.

لن أحاولَ تفسيرَ هذا المشهد المُذهل وتلك الحرب الكونيَّة إلَّا من منظورٍ مُوازٍ لسفر أيُّوب. لقد لعبَ دانيال، حالُه حالُ أيُّوب، دورًا حاسمًا في الحرب ما بين القوى الكونيَّة للخير والشرّ، رغم أنَّ أغلب الأحداث كانت في مكان بعيدٍ عن مجال رؤيته. لقد بدَتِ الصلاة له بلا فائدة، وبدا الله نفسه لامُباليًا، لكنَّ لمحة "من خلف الستار" كشفَتِ العكس تمامًا. لقد كانت رؤيةُ دانيال المحدودة، مثل رؤية أيُّوب، تشوِّه مفاهيمَه.

إنَّ الصورةَ الكُبرى للكَون كلِّه في الخلفيَّة تحتوي على الكثير من النشاط، أكثر ممَّا نظنّ. وعندما نتمسَّك بالله في وقتِ الشِّدَّة، أو عندما نصلِّي ببساطةٍ، فإنَّ الكثير- بل الكثير جدًّا- يحدُث، وهو أكثر ممَّا نحلُم به. إنَّ الأمر يتطلَّبُ إيمانًا وثقةً كي نستطيعَ أن نُصَدِّق أنَّ الله لن يترُكنا ولن يتخلَّى عنَّا مهما بدا بعيدًا.

من كتاب: عندما لا تمطر السماء

٢ تشرين الثاني/نوڤمبر

صليبُ المسيح وصليبُ النازيَّة

كثيرًا ما ينقلبُ التحدِّي الذي تطرحُه الكنيسةُ أمامَ الدولة إلى صراع، لا سيَّما عندما تحسبُ الأنظمةُ الشموليَّةُ نفسَها "أربابًا" دون الله. وضعَتْ ألمانيا النازيَّة الاختبارَ الأقسى للعقيدة اللوثريَّة التي تفترض وجودَ مملكتَين: مملكة الله ومملكة العالم، وهو اختبارٌ فشلَتْ فيه الكنيسة عمومًا.

اعترف مارتن نيمولر (Martin Niemoller)، وهو أحد قادة مقاومة هتلر، أنَّ الكنيسة عمومًا افتقرت إلى الشجاعة الكافية لمقاومة هتلر. فبممارسة الإيمان الفرديّ، اعتادَتِ الخضوعَ للدولة، وانتظر أعضاؤها أكثر من اللازم ليُعبِّروا عن اعتراضهم. في الواقع، الكثير من القادة البروتستانت– بما في ذلك نيمولر نفسه– شكروا الله في البداية على ظهور النازيَّة، وهو النظامُ الذي بدا أنَّه البديلُ الوحيد للشُّيوعيَّة.

لسوء الطالع، كان القادة الإنجيليُّون مُنجذبين في البداية إلى وعد هتلر باستعادة الأخلاقيَّات إلى الحكومة والمُجتمع. وعلى حدِّ تعبير كارل بارت (Karl Barth)، فإنَّ الكنيسة "بما يُشبه الإجماع، رحَّبت بنظام هتلر، بثقةٍ حقيقيَّة، بل بأعلى درجات الرجاء". لم يكن للبروتستانت الألمان أيُّ تقليدٍ راسخٍ في مقاومة الدولة. تبنَّى المسيحيُّون الشعار "الصليب المعقوف على صدورنا، وصليب المسيح في قلوبنا"، وارتدى قساوستهم الزيَّ النازيَّ وغنوا الأغاني النازيَّة. كان الوقت قد تأخَّر جدًّا عندما أدركوا مرَّةً أخرى أنَّ الكنيسةَ واقعةٌ في إغواء قوَّةِ الدولة.

لكنَّ أقلِّيَّةً استيقظت وأدركت حقيقةَ الخطر النازيّ. نَشَر نيمولر سلسلةً من العظات تحمل ذلك العنوان الواضح المُتحدِّي: "يسوع وليس هتلر". لذلك أمضى سبع سنوات في المعسكرات النازيَّة، بينما أُعدِمَ ديتريتش بونهويْفَر في معسكر آخر. وفي النهاية، كان المسيحيُّون الأمناء هُم المجموعةَ الوحيدةَ ذاتَ الأهمِّيَّة داخل ألمانيا التي قاومَتْ هتلر. النقابات والبرلمان والسياسيُّون والأطبَّاء والعُلماء وأساتذة الجامعات والمحامون– كلُّ هؤلاء استثمروا وانتفعوا بوُجود هتلر في الحُكم. فقط المسيحيُّون، الذين يُدركون ولاءَهم لسُلطة عليا أعلى من الدولة، هم مَن قاوموا.

ربَّما تشعرُ الكنيسة في الولايات المتَّحدة بالعرفان؛ لأنَّه لم يكن عليها بتاتًا أن تواجه مثل ذلك الاختيار الصَّعب في مواجهة الطغيان. على العكس، فإنَّ الديمقراطيَّة الأميركيَّة رحَّبَتْ تاريخيًّا بالنشاط المبنيِّ على الإيمان الدينيّ. ومن كلمات روبرت بيلاه (Robert Bellah): "لم تترُكِ الكياناتُ الدينيَّة في الولايات المتَّحدة أيَّة قضيَّةٍ كُبرى في تاريخ الأمَّة لم تتكلَّم فيها بصوتٍ مسموع، في السرِّ وفي العَلَن".

"دولة اللانعمة"، مجلَّة المسيحيَّة اليوم، ٣ شباط/ فبراير، ١٩٩٧م

٣ تشرين الثاني/نوفمبر

دُخانُ اللانعمة

ماذا يعني أن يكونَ المسيحيُّون مدعوِّين إلى نشر رائحة النعمة الزكيَّة بدلَ دُخانِ اللانعمة الخانق؟ في الولايات المتَّحدة الحديثة، تقفز إلى الذِّهن إجابةٌ واحدةٌ عن هذا التساؤل. لقد سمحت الكنيسة لنفسها بأن تتورَّط في القضايا السياسيَّة حتَّى إنَّها صارت تتصرَّف وَفقَ مَوازين القُوى التي هي في الوقت نفسه، قوانين اللانعمة. وليس هناك مجالٌ آخرُ تتعرَّض فيه الكنيسة لخطر فقدان دعوتها، أكثر من المجال العامّ. أنا أسانِدُ حَقَّ المسيحيِّين، بل مسؤوليَّتهم أيضًا، أن يكونوا مُنخرطين في السياسة؛ ففي الحملات الأخلاقيَّة مثل تحرير العبيد، والحقوق المدنيَّة، ومناهضة الإجهاض، تَقَدَّمَ المسيحيُّون الصفوف. وأعتقد أنَّ وسائل الإعلام تُبالغُ في تضخيم "الخطر" الذي يُمثِّله اليمين الدينيّ. إنَّ المسيحيِّين الذين أعرفُهُم، والذين انخرطوا في السياسة، لا يشبهون إلى بعيدٍ الرسومَ الكاريكاتوريَّة التي يُصوِّرُهُم بها الإعلام. لكنِّي أشعرُ أيضًا بالقلق تُجاه ذلك الميل إلى استخدام مُصطلحات مثل "المسيحيُّون الإنجيليُّون" و"اليمين الدينيّ" على نحو متبادَل، وكأنَّهما أمرٌ واحد. تعكس الرسوم الكاريكاتوريَّة السياسيَّة أنَّ الرأي العامَّ صارَ ينظر إلى المسيحيِّين كأنَّهم دُعاةٌ أخلاقيُّون متشدِّدون يريدون التحكُّم في حياة الآخرين.

أعلمُ أنَّ بعض المسيحيِّين يتصرَّفون بلا نعمة؛ وأرى أنَّ ذلك ردَّ فعلٍ على الخوف. إنَّنا نشعر بالهجوم في المدارس والمحاكم، وأحيانًا في الكونغرس (البرلمان). في الوقت نفسه، نرى حولَنا تغيُّرًا أخلاقيًّا يجعل المجتمع يتحلَّلُ ويتفسَّخ. ففي مجالات مثل الجريمة والطلاق وانتحار الشباب والإجهاض وإساءة استخدام العقاقير والولادات غير الشرعيَّة- تتفوَّق الولايات المتَّحدة على غيرها من البلدان الصناعيَّة. لذلك يشعرُ المحافظون الاجتماعيُّون أكثر فأكثر أنَّهم يصيرون أقلِّيَّةً واقعةً تحت ضغط شديد، ويشعرون بأنَّ قِيَمَهُم تتعرَّض باستمرارٍ للهجوم.

كيف يمكن أن يرفعَ المسيحيُّون شأنَ القيم الأخلاقيَّة في مجتمع عَلمانيّ، وفي الوقت نفسه يحملون روحَ النعمة والمحبَّة؟ كما عَبَّرَ ناظِمُ المزمور: "عندما تنقلب الأعمدة، الصدِّيق ماذا يفعل؟". ونحن واثقون بأنَّ في خلفيَّة التشدُّد الذي يُبديه مسيحيُّون كثيرون من أصحاب الآراء القويَّة، يكمنُ قلقٌ عميقٌ بشأن عالم صارَ مكانُ الله فيه ضئيلًا. لكنِّي أعلمُ أيضًا أنَّه كما أشارَ يسوع إلى الفَرِّيسيِّين، فإنَّ الاهتمامَ الأخلاقيَّ وَحدَهُ لا يكفي؛ فالأخلاقيَّات بلا نعمة لا تحلُّ الكثير من مشكلات العالم.

من كتاب: ما أعجب النعمة

٤ تشرين الثاني/نوڤمبر

أسلحةُ الرحمة

أعتقد أنَّ الإسهاماتِ الأساسيَّةَ التي يجب أن يقدِّمَها المسيحيُّون إلى العالم هي تقديم النعمة. كما يقول غوردون ماكدونالد (Gordon McDonald) فإنَّ العالم يستطيع أن يفعلَ كلَّ ما تستطيع الكنيسة أن تفعله، لكنَّه لا يستطيع تقديم النعمة. وفي رأيي، لا يؤدِّي المسيحيُّون دورَهم كما ينبغي في تقديم النعمة إلى العالم، ونتعثَّر كثيرًا لا سيَّما في قضايا الإيمان والسياسة.

لم يسمَحْ يسوع لأيَّة مؤسَّسة بأن تتدخَّل في محبَّته للبشر. كانت السياسات اليهوديَّة العِرقيَّة والدينيَّة تمنعه من التكَلُّم مع امرأة سامريَّة، فما بالك بامرأةٍ سامريَّةٍ ذات خلفيَّةٍ أخلاقيَّة ليسَتْ فوق مستوى الشُّبْهات، يختارها يسوع لتكونَ مُرسلته إلى تلك القرية في السامرة. وقد اشتملَتْ مجموعة تلاميذه على عَشَّار، والذين كانوا يُعدُّونَ خَوَنَةً للأُمَّة اليهوديَّة، واشتملت أيضًا على واحدٍ من الغَيورين، وهُم على العكس طائفةٌ تتميَّزُ بالوطنيَّة الشديدة إلى حدِّ ممارسة العُنف والإرهاب. وفي سياق متَّصل، مَدَحَ يسوع يوحنَّا المعمدان الذي يتصرَّف بطريقة مُعاكِسة للثَّقافة السائدة، وقابلَ نيقوديموس، وهو فَرِّيسيٌّ مُدقِّقٌ، كما قابَلَ أيضًا قائدَ مِئة رومانيًّا. تَعَشَّى يسوع في بيت فَرِّيسيٍّ اسمُه سمعان، وفي بيت رجل يُفترَضُ أنَّه "نَجِس" وهو سمعان الأبرَص. كان يسوع يرى أنَّ الإنسانَ هو الأَهمُّ من أيِّ صفةٍ مرتبطةٍ به.

أعلم أنَّ من السَّهل أن ننجرفَ بفعل السياسة والاستقطاب الناتج عنها، ونظلَّ نَصرُخُ بآرائنا المختلفة في مواجهة "العدو" الذي على الناحية الأخرى. لكنَّ وصية يسوع تقول بوضوح: "أحبُّوا أعداءَكُم".

مَن عدوّي؟ أهو مَن يُنادي بالإجهاض؟ أهو المُنتج السينمائيُّ في هوليوود الذي يلوِّثَ ثقافتنا؟ أم السياسيُّ الذي يُهدِّد قِيَمَنا الأخلاقيَّة؟ أهو التاجر الذي يروِّجُ المُخدِّرات في أحياء المدينة الفقيرة؟ إذا كان نشاطي السياسيُّ أوِ الحقوقيُّ مبنيٌّ على دوافع سليمة، لكنَّه يقضي على المحبَّة، فيعني هذا أنِّي لم أفهم إنجيل يسوع، ويعني أيضًا أنِّي ما زلتُ عالقًا بالناموس، ولم أفهَمِ النعمةَ بعدُ.

صحيحٌ أنَّ القضايا التي تواجه المجتمع هي مسائلُ محوريَّةٌ، وربَّما لا يُمكن تجنُّب الحروب الثقافيَّة، لكنَّ المسيحيِّين يجب أن يستخدموا أسلحةً أخرى في هذه الحرب– "أسلحةَ الرحمة"، وذلك بحسب العبارة الرائعة التي كتبَتْها دوروثي داي (Dorothy Day)، أنَّ يسوعَ أعلنَ أنَّنا يجب أن نحملَ تلك العلامة الواحدة المُميَّزة: ليس الصوابُ السياسيُّ، ولا التفوُّقُ الأخلاقيّ، بل المحبَّة. وأضاف بولس قائلًا إنَّه دون محبَّة لا ينفعُ شيئًا– لا مُعجزةٌ، ولا عبقريَّةٌ لاهوتيَّة، ولا تضحيةٌ شخصيَّةٌ عظيمة (١كورنثوس ١٣).

من كتاب: ما أعجب النعمة

٥ تشرين الثاني/نوڤمبر

مُخفَّفَة

لا نجرؤ أن ننسى شعارَ جي. كاي. تشسترتون (G. K. Chesterton) الذي يقول إنَّ الحميميَّة ما بين الكنيسة والدولة، ربَّما تكون جيِّدةً للدَّولة، لكنَّها ليست كذلك للكنيسة. هُنا يقع الخطر الشديد؛ فالدولة التي تُدار بقوانين اللانعمة ستُغرِقُ في نهاية المطاف رسالةَ النعمة السامية المُفترَض أن تُقدِّمها الكنيسة.

وبسبب جوع الدولة الذي لا يشبَعُ للسُّلطة، فإنَّ الدولة قد تقرِّرُ أنَّ الكنيسة مفيدة، لا سيَّما إذا سيطرَتِ الدولةُ على الكنيسة. وهذا ما حدث بأكثر صورة دراميَّة مأساويَّة في ألمانيا النازيَّة عندما انجذب الإنجيليُّون الألمان إلى وعد هتلر باستعادة الأخلاق.

تعملُ الكنيسةُ بأفضلِ صورةٍ عندما تكونُ قُوَّةً مقاوِمَة، تصنع نوعًا من الاتِّزان أمام قوَّة الدولة الكاسحة. وكلَّما صارَتِ العلاقة ما بين الكنيسة والدولة دافئة وحميمة، خُفِّفَ تأثيرُ رسالة الكنيسة. يتغيَّرُ الإنجيل نفسه، ويتدَهوَرُ عندئذ ليَصيرَ نوعًا من الدِّين المَدَنيّ. الأخلاقيَّاتُ العُليا التي نادى بها أرسطو (Aristotle) وآلاسدير ماكنتاير (Alasdair McIntyre [1]) لا مكان فيها لرجل صالح يُبدي المحبَّة لرجل شرِّير– بكلمات أخرى، لا مكان فيها لإنجيل النعمة.

في المُجمَل، تعملُ الدولة دائمًا على تخفيف الطبيعة المطلَقة لتعاليم المسيح، وتحويلها إلى شكلٍ من أشكال الأخلاقيَّات الخارجيَّة– وهذا مُضاد تمامًا لإنجيل المسيح. ويذهب جاك إيلَل (Jacques Ellul) إلى أبعدَ من ذلك ليقولَ إنَّ العهد الجديد لا يُعلِّمُ بتاتًا ذلك الشيء الذي يُشار إليه مرارًا بالتعبير "الأخلاقيَّات اليهوديَّة–المسيحية"؛ إذ يأمرُ العهدُ الجديدُ الناسَ أن يتوبوا ويقبلوا الإيمان بالمسيح، ثمَّ يوصيهُم: "كونوا كاملين...لأنَّ أباكم في السموات هُوَ كامل". اقرأِ الموعظةَ على الجبل وحاوِلْ أن تتخيَّلَ حكومةً تُمارس هذه المبادئ بوصفها مجموعةً من القوانين.

يمكن أن تغلقَ الحكومةُ المحالَّ والمسارح يوم الأحد، لكنَّها لا تستطيع فَرضَ العبادة على الناس. يمكنها أن تقبض على أعضاء جماعة "KKK"[2]، لكنَّها لا تستطيع أن تشفي قلوبهم من الكراهية، ومن المؤكَّد أنَّها لا تستطيع أن تُعلِّمَهم المحبَّة. يمكنها أن تمرِّرَ قوانين تجعل من الطلاق أكثر صعوبة، لكنَّها لا يُمكن أن تجعلَ شريكَي الزواج يُحبَّان بعضهما بعضًا. يمكنها أن تقدِّم دَعمًا إلى الفُقراء، لكنَّها لن تستطيعَ أن تُرغمَ الأغنياء أن يُبدوا رحمةً وعَدلًا. يُمكِنُها أن تَمنَعَ البغاء وتُجرِّمَ الزنى، لكنها لا تستطيع أن تتحكَّم في شهوات القلوب. تستطيع أن تكافح السرقة، لكنَّها لا تستطيع أن تحاربَ الطَّمَع. يمكنها أن تجرِّمَ الغِشَّ، لكنَّها لن تستطيعَ أن

تمنعَ الكبرياءَ. يمكنها أن تشجِّع الفضيلة، لكنَّها لا تستطيع أن تفرض القداسة.

من كتاب: ما أعجب النعمة

٦ تشرين الثاني/نوڤمبر

مرآة أو نافذة

في وقتٍ باكرٍ من التجرِبة الشيوعيَّة، بنى ستالين قرية في بولندا اسمها نوا هوتا (Nowa Huta) أو "البَلدة الجديدة"، لتكون مَعرَضًا لما يُمكن أن يُقدِّمه الحُلم الشيوعيّ. قال إنَّه لا يستطيع تغيير البلاد كلَّها دَفعَةً واحدة، لكنَّه يستطيع بناءَ بلدةٍ واحدةٍ جديدةٍ ذات مصنع حَديد بَرَّاق، وشقق فسيحة، وحدائق غَنَّاء كثيرة، وشوارع واسعة، لتكونَ رمزًا لما سَوفَ يَتبَع. ثمَّ في ما بعد صارت نوا هوتا أحد معاقل مُنظَّمة "تضامُن" الشيوعيَّة ممَّا يَعكس، على خلاف نيات ستالين وأحلامه، فَشل الشيوعيَّة أن تجعلَ بلدةً واحدة تعمل.

ماذا لو استخدم المسيحيُّون الأسلوب نفسَه وَسطَ المُجتمع العَلمانيِّ، وحقَّقوا النجاح؟ قال بونهويْفَر: "يمثِّل المسيحيُّون في العالَمِ مُستعمرةً تنتمي إلى ما يحسبونَه وطنَهُم الحقيقيّ". ربَّما على المسيحيِّين أن يعملوا بمزيد من الجِدِّ نحو تأسيس مُستعمرات للملكوت تُمثِّل الوطن الحقيقيَّ وتُشير إليه. كثيرًا ما تَستخدِمُ الكنيسةُ مرآةً تعكسُ صورة المُجتمع نفسه من حولها، بدلَ أن تكونَ نافذةً تُطِلُّ على ملكوتٍ آخر، وتعكسُ طَريقةً أُخرى للحياة.

إذا كان العالم يحتقرُ الخاطئةَ الشرِّيرة، فعلى الكنيسة أن تُحبَّها. إذا كان العالم يمنعُ المعونةَ عن الفقراء الذين يُعانون، فيجب أن تقدِّم الكنيسة الطعام والشفاء. إذا كان العالم يَضطَهِد، فعلى الكَنيسة أن تَرفَعَ الاضطهاد. إذا كان العالم يُخزي المُهمَّشين اجتماعيًّا، فيجب أن تُعلنَ الكنيسة محبَّة الله المصالِحة. إذا كان العالم يبحث عن المكسب وتحقيق الذات، فعلى الكنيسة أن تميلَ إلى الخدمة والتضحية. إذا كان العالم يطالب بالانتقام، فيجب أن تقدِّمَ الكنيسةُ النعمة. إذا كان العالم يُقَسِّمُ الناسَ طوائفَ وجماعات، فعلى الكنيسة أن تجمِّعَهم وتوحِّدهم. إذا كان العالم يُدمِّر أعداءه، فعلى الكنيسة أن تحبَّهم. هذه، على الأقلِّ، هي رؤية الكنيسة في العهد الجديد: مُستعمرة للسَّماء في عالم قاسٍ.

ومثلَما يعيشُ المُتمرِّدين على الدول الشيوعيَّة، هكذا يعيشُ المسيحيُّون وَفقَ مجموعةِ قواعدَ وقوانينَ أُخرى. إنَّنا شعب "خاصّ"، كما كتب بونهويفر مُعَرِّفًا الكنيسة بكلمات مثل: غير مُعتاد وغير مُتوقَّع وغير مُساير. لم يُصلَب يسوع لأنَّه كان مواطنًا صالحًا؛ ولا لأنَّه كان ألطَفَ قليلًا من الباقين، بل استطاعَتِ القُوى الموجودة في عالمه في ذلك الحين أن تراه وترى أتباعه كما هُم بالحقيقة: أشخاصٌ يعملون على قلب الأوضاع؛ لأنَّهم كانوا يتلقَّون أوامرهم من سُلطة أخرى بخلاف روما أو أورُشليم.

كيف تبدو كنيسة مثل هذه، تهدف إلى قلب الأوضاع الروحيَّة في بلدٍ كالولايات المتَّحدة؟

من كتاب: ما أعجب النعمة

٧ تشرين الثاني/نوفمبر

قِمَّةُ الثورة

مع أنَّ الكتاب المقدَّس يتكلَّم عادةً عن مبادئ عامَّة أكثر ممَّا يقدِّم إرشادات محدَّدة بشأن المال، فإنَّه يقدِّم عملًا واحدًا مُتاحًا لنا جميعًا: يُمكننا أن نُجرِّدَ المالَ من قوَّته، ونحن نفعل ذلك بأن نُعطيَه للآخرين.

لم يكُن منطقيًّا أن تقدِّمَ أرملةٌ فَلسَيها إلى مؤسَّسة فاسدة ومتآكلة كمؤسَّسة الهيكل في أورشليم. غير أنَّ يسوعَ رأى في عملِ تلك المرأة مَظهَرًا مؤثِّرًا للرُّوح التي ينبغي أن تكونَ لنا تُجاه المال. أفضل وسيلةٍ لاستخدام المال هي إعطاؤه.

يحكي غوردون كوسبي (Gordon Cosby) من كنيسة المخلِّص في واشنطن قصَّةَ أرملةٍ كان دخلُها بالكاد يكفي لإطعام أطفالها الستَّة وكسوتهم. وكانت كلَّ أسبوع وبكلِّ أمانة تضع أربعة دولارات في طبق العطاء. اقترح أحد الشمامسة أن يذهب كوسبي إليها ليقول لها إنَّها يُمكن أن تستخدمَ المالَ في تسديد بعض احتياجات الأسرة بدلَ وَضعِها في طبق العطاء.

اتَّبَع كوسبي نصيحة الشماس، لكنَّه ندم على ذلك ندمًا شديدًا. كان ردُّ فعل الأرملة هو الحُزنَ الشديد، وقالت: "تريدون أخذَ الشيء الوحيد الذي يعطي لحياتي كرامةً ومعنًى". لقد كانت قد تعلَّمَتِ العَطاء، وكانت مُتَمَسِّكة بما تعلَّمَتْه مهما كانت العواقب.

المِفتاحُ هو التالي: الفائدة الأساسيَّة للعطاء هي تأثيره في المُعطي. أجل، يحتاج الناس في أفريقيا وفي الهند إلى مساعدتي المادِّيَّة، ودائمًا ما يُذكِّرني بذلك طلبُ التمويل العاجل. إلَّا أنَّ الحقيقةَ هي أنَّ احتياجي أنا إلى العطاء يفوق أيَّ احتياج آخرَ إلى الأخذ. تُذكِّرُني عمليَّةُ العطاءِ بمكاني على الأرض؛ فنحن نعيش جميعًا هنا بفَضْلِ نعمة الله- مثل الطيور في السماء والزهور التي في الحقل، كما يقول يسوع. هذه المخلوقات لا تقلق، ولا تهتمُّ بأمانها المستقبليّ، وعلينا نحن أيضًا ألَّا نهتمَّ. يقدِّم إليَّ العطاء فرصةً للتَّعبير عن إيماني وثقتي بالله الذي سيهتمُّ بي كما يهتمُّ بالعصافير الصغيرة وزنابق الحقل الكثيرة.

من كتيِّب: المال

٨ تشرين الثاني/نوفمبر

منافقو الكنائس

هل الكنيسة ضروريَّة حقًّا للمؤمن بالمسيح؟ قال ونستون تشرتشل (Winston Churchill) ذات مرَّة إنَّ علاقتَه بالكنيسة كانت مثل الدَّعامة الطائرة في البناء: كان يدعمها من الخارج. وقد حاولتُ تجرِبةَ هذه الاستراتيجيَّة مدَّةً من الزَّمن، وذلك بعد أن صرتُ أومن بالعقيدة بإخلاص، وكرَّست نفسي لله بأمانة ولم أكن وحدي. كثيرون يرَونَ أنفسَهم أتباعًا للمسيح، لكنَّهم لا يحضرون الكنائس. ولدى بعضهم قصصٌ شبيهة بقصصي، كما يشعرُ بعضُهُم بالاستنزاف، وربَّما بالخيانة، بسبب خبرتهم السابقة مع كنيسة كانوا يحضرونها. آخرون ببساطة يقولون إنَّهم "لا يحصلون على شيء من الكنيسة". السير خلف يسوع شيء، والسير خلف المسيحيِّين المتَّجهين نحو محراب الكنيسة يوم الأحد، شيء آخرُ تمامًا. فلماذا التعب؟ وتقول الشاعرة آن سيكستون (Anne Sexton):

دَقُّوا في يديه المساميرَ الغائرات

وبعد ذلك اعتَمَروا جميعُهم القَلَنْسُوات.

وعندما أتأمَّلُ في مسيرتي الروحيَّة، يمكنني أن أرى عدَّة حواجز تُبعِدُني عن الكنيسة. أوَّلًا، النفاق. سُئِلَ ذات مرَّة الفيلسوف المُلحد فريدريك نيتشه (Friedrich Nietzsche) عمَّا جعله سلبيًّا إلى هذا الحدِّ من نحو المسيحيِّين. فأجاب بالقَولك "سأُصدِّق ما يقولونه عن خلاصهم، لو بدوا أكثر قليلًا مثل أشخاصٍ نالوا الخلاصَ حقًّا".

أنا أقتربُ أيضًا من الكنيسة مُحمَّلًا بنُدوب وجراح أحدثَتْها في طفولتي الأصوليَّةُ المسيحيَّةُ بما فيها من مُطلَقات. في صباح الآحاد يرتدي المسيحيُّون أفضل ملابسهم، ويرسمون على وجوهم أفضل ابتساماتهم، لكنِّي أعلم من الخبرة الشخصيَّة الحقيقيَّة، أنَّ مثل هذه الواجِهات يُمكنُ جدًّا أن تُخفِيَ أرواحًا أكثر عُنفًا وشرًّا. لقد كان ردُّ فعلي سريعًا ومتطرِّفًا في مواجهة كلِّ أشكال النفاق. وظلَّتْ هذه هي حالي إلى أن صَدَمَني في أحَدِ الأيَّام السؤال التالي: "كيف يمكن أن تبدو الكنيسة إذا كان كلُّ مَن فيها يُشبهونني تمامًا؟" وقد أشعرَني هذا السؤال بالتواضع الواجب، فبدأت أركِّز على روحانيَّتي، بدل النظر إلى روحانيَّة الآخرين.

في ذلك الوقت، قَرَّرتُ أنَّ الله هو القاضي الحقيقيُّ في تحديد المُنافق من الصادق في الكنيسة. سأتركُ الحُكم بين يدَيِ الله القديرتَين. عندئذٍ بدأتُ أستَرخي وأَلينُ، وأصيرُ أكثرَ غفرانًا للآخرين. ففي النهاية، من لديه الزوج الكامل، أو الوالد الكامل، أو الأطفال الكاملون؟ إنَّنا لا نيأس من الأسرة بسبب عُيوبِ مَن فيها، فلماذا نيأس من الكنيسة؟

من كتاب: الكنيسة: لماذا نهتمّ؟

٩ تشرين الثاني/نوڤمبر

الهدوء

ما الذي غيَّر تَوَجُّهي نَحو الكنيسة؟ ربَّما يقول أحدُ المُتشكِّكين إنِّي قلَّلتُ توقُّعاتي في وقت ما في أثناء مسيرتي الروحيَّة، أو ربَّما "اعتَدتُ" الكنيسة على حالها، بعد عدَّة محاولات فاشلة. لكنِّي أشعرُ بشيء آخر كان يعمل في الخلفيَّة: لقد ملأَتِ الكنيسة فيَّ حَاجةً لم يكن مُمكنًا ملؤها بشكل آخر. كتبَ القدِّيس يوحنَّا الصليبيّ (Saint John of the Cross): "النفسُ الفُضلى عندما تكون وحيدة...فهي تكون مثل الجمرة المشتعلة بمفردها. مع الوقت ستخبو بدل أن تضطرمَ". وأظنُّ أنَّه على حقّ.

ليسَتِ المسيحيَّة مجرَّدَ إيمان عقلانيٍّ داخليّ، بل هي حياةٌ تُعاش فقط في مجتمع. ربَّما لهذا لم أتخلَّ عن الكنيسة تمامًا؛ فعلى مستوى عميقٍ أشعر بأنَّ في الكنيسة أمرًا أحتاجُ إليه بشدَّة. فكلَّما هجرتُ الكنيسة مدَّةً من الزمن، وجدتُ أنِّي أنا مَن يُعاني. يخبو إيماني وتَنمو قِشرَة اللَّامحبَّة فَوقي. وسرعان ما صارتْ كُلُّ رحلاتِ ابتعادي عن الكنيسة عَودةً إليها من جديد.

هذه الأيَّام، رغم ماضيَّ المتقطِّع في الذهاب للكنيسة، فإنِّي أكاد لا أتخيَّل نفسي دون الكنيسة. كيف تحرَّكتُ من كَوني مُتشكِّكًا في شأن الكنيسة إلى كوني مُدافعًا عنها، من مُشاهِدٍ مُنتَقِدً لها إلى مشاركٍ مُنخَرِط؟ هل يمكنني أن أحدِّدَ ما أعادَ تأهيل توجُّهي نحو الكنيسة؟

يمكنني أن أجيبَ بالقَول إنِّي تعلَّمتُ على مرِّ السنين مَا يجبُ أن أبحثَ عنه في الكنيسة. في الطفولة لم يكن لديَّ خيارٌ في الكنيسة أكثر ممَّا كان لديَّ خيار بشأن المدرسة التي كنتُ أرتادُها. لاحقًا، صرتُ أمارسُ اختياراتي بشأن الكنيسة، فأُجَرِّبُ هذه الكَنيسَةَ أو تلك، وهكذا. تعلَّمتُ بهذه العمليَّة أنَّ المِفتاحَ في تحديد الكنيسة المناسبة يقعُ فيَّ أنا. كان الأمر يتضمن طريقتي في رؤية الأمور. فبمجَرَّد أن تَعَلَّمتُ كَيفَ أنظُرُ، بدَأَتْ قضايا مثل الطائفة التي تنتمي إليها الكنيسة تُهمُّ أقلَّ فأقلّ.

وقد ساعدَتْني هذه الطريقة الجديدة في النظر لأتوقَّفَ عن مجرَّد تَحَمُّل الكنيسة، وأبدأ في محاولة أن أُحبَّها. عندما نبدأ في النظر إلى الكنيسة بوصفها أشخاصًا مُشارِكين، فسوف نستطيعُ عندئذٍ أن نُساعدَ في جَعلِها تصيرُ ذلكَ المكان الذي يريدها الله أن تُحقِّقه.

من كتاب: الكنيسة: لماذا نهتمّ؟

١٠ تشرين الثاني/نوڤمبر

مَنِ المستَمِعون؟

لقد اعتدتُ أن أتعامَلَ مع الكنيسة بروح المُستهلك المميِّز لما هو معروض. لقد كنتُ أرى خدمةَ العبادةِ وكأنَّها أداءٌ. أعطِني شَيئًا أُحِبُّهُ، أريدُ أن أتسلَّى قليلًا.

وعلى ذِكر الأشخاصِ الذين هُم على شاكِلَتي، قالَ سورين كيركيغارد (Soren Kierkegaard) إنَّنا نَميلُ لأنْ نحسبَ الكنيسةَ مسرَحًا: نجلس بين المستمعين، ونشاهد بانتباه الممثِّل الذي يحاول أن يجتذبَ إليه العيون. إذا تسلَّينا بما يكفي، فإنَّنا نُظهر شكرنا وعِرفاننا بالتصفيق والتحيَّة. لكنَّ الكنيسةَ يجب أن تكونَ على العكس من المسرح. في الكنيسة، الله هو المستمع لعبادتنا. والخادم أبعد ما يكون عن لعب دور الممثِّل الرئيس، ويجب أن يلعَبَ دَورَ المُحفِّز، أو المُساعد الخفيِّ الذي يجلس في نُقرةٍ تحت خشبة المسرح ويساعد الممثِّلين هَمْسًا.

إنَّ أهمَّ ما يحدثُ يكونُ داخل قلوب الشعب، وليس ما بين الممثِّلين على خشبة المسرح. يجب أن نتركَ خدمة العبادة طارحين السؤالَ الصحيح، ليس: "علامَ حصلتُ؟" بل "هل سُرَّ الله بما حَدَث؟" والآن أحاولُ أن أنظرَ أعلى من المنبر– أن أنظرَ إلى الله.

الإله نفسه الذي بذلَ الجَهدَ ليُحدِّدَ تفاصيل الذبيحة الحيوانيَّة التي يجب أن يقدِّمها الشَّعب في الهيكل، هو الذي قال لهم لاحقًا: "لا آخذ من بيتك ثورًا ولا من حظائرِكَ أَعتِدَةً، لأنَّ لي حيوانَ الوَعرِ والبهائمَ على الجِبالِ الأُلوفِ". عندما بالَغوا في التركيز على الأمور الخارجيَّة في العبادة، فقدوا الأمرَ الأَهَمَّ: لقد كان الله مُهتمًّا أكثر بذبيحة القلب، أيِ التوجُّهِ الداخليِّ من الخضوع والشكر. والآن عندما أرتادُ الكنيسة، أحاول أن أجعلَ تركيزي مُنصَبًّا على الروح الداخليَّة أكثر من الاسترخاء في مقعدي، مثل الناقد المسرحيّ الذي يحكمُ على ما يُقَدَّم.

أنا أستمرُّ لعدَّة أسباب في العِبادة بحسب التقليد البروتستانتيِّ الذي يُركِّزُ أكثر على الكلمة المنطوقة من على المنبر. لكنِّي لم أعُدْ أقلقُ كثيرًا بشأن أسلوب الموسيقا وترتيب خدمة العبادة، و"الزُّخرُف" الخارجيّ. إنَّ التركيز على الخارج وليس على هدف العبادة– اللقاء مع الله– يجعلني أفقدُ الرسالةَ الأهمَّ.

من كتاب: الكنيسة: لماذا نهتمّ؟

١١ تشرين الثاني/نوڤمبر

التشكيلةُ الغريبة

تحتوي كلُّ أسرة على أفراد ناجحين وآخرين فاشلين بائسين. في عيد الشُّكر، تجلس العمَّة ماري والتي تشغل منصب نائب رئيس إحدى الشركات بجانب العمِّ تشارلز، الذي يفرط في الشراب ولم يشغَل أيَّة وظيفةٍ يومًا. ورغم أنَّ بعض المجتمعين حول المائدة أذكياء وبعضهم الآخر ليسوا كذلك؛ ومع أنَّ بعضَهُم يتمتَّعون بالجمال وآخرون لم ينالوا منه حظًّا وافرًا، وبعضُهم بصحَّةٍ جيِّدة وغيرُهُم مُعاقون- فإنَّ الفروقَ في إطار الأسرة تَصيرُ بلا أهمِّيَّةٍ كبيرة.

يبدو ابن العمِّ جوني كما لو كان يحاول بأقصى طاقته أن يغتربَ عن الأسرة، لكنْ لا توجد طريقةٌ عمليَّةٌ يُمكن بها إقصاؤه؛ فهو ينتمي إلى الأسرة، حالُه حال كلٍّ منَّا؛ لأنَّنا ببساطةٍ وُلِدنا للأجداد ذاتهم، ولنا الجينات نفسها، وتتلوَّى الكروموسومات وتلتَفُّ داخل أنوية خلايانا. لا يستطيع الفشل أو النجاح أن يؤثرا في عُضويَّتنا في هذه الأسرة. يقول روبرت فروست (Robert Frost) عن الأسرة إنَّها "المكان الذي تذهب إليه؛ لأنَّك مقبولٌ هُناك مهما كانت الحال".

أعتقد أحيانًا أنَّ الله اخترع هذه المؤسَّسة الإنسانيَّة، وأعني بها مؤسَّسةَ الأسرة لتكونَ مجال تدريبٍ، نتعلَّمُ فيه ممارسة العلاقات بالمؤسسات الأخرى. تعمل الأُسَر بأفضل صورة ليس عندما تُخفي الاختلافات ما بين أعضائها، بل عندما تحتفل بها، حيث تبني الأسرةُ الصحيحةُ الأَعضاءَ الأضعفَ فيها، ولا تُضعِف الأقوياء. وكما عَبَّرت والدة جون وسلي (John Wesley): "مَنْ مِنْ أطفالي أُحِبُّ أكثر من الآخرين؟ أُحِبُّ المريضَ إلى أن يَشفى، والبعيدَ إلى أن يعود".

الأسرة هي تلك المؤسَّسة البشريَّة الوحيدة التي لا نختار الانضمام إليها. إنَّنا نُصبِحُ فيها ما إنْ نولَدُ. ونتيجةً لذلك، فإنَّنا نجدُ أنفسَنا بلا اختيار من جانبنا، وقد أُلقِيَ بنا وَسطَ تشكيلة غريبة من البشر غير المُتشابِهين.

أمَّا الكنيسة فهي تدعونا إلى خطوة أخرى: أن نختارَ طوعًا أن ننضَمَّ إلى تشكيلةٍ أُخرى غريبةٍ يجمعُنا بها شيءٌ واحد، وهو الانتماء إلى يسوع المسيح. لقد وجدتُ أنَّ مثل هذا المجتمع يُشبه الأسرة أكثر من أيَّة مؤسَّسةٍ بَشريَّة أخرى. وقد عَرَّف هنري نوين المجتمع أنَّه: "المكان الذي يعيش فيه آخرُ إنسانٍ كنتَ ترغب في العيش معه". وينطبق تعريفه هذا على الأسرة التي تجتمع في الأعياد، والكنيسة التي تجتمع صباح الآحاد.

من كتاب: الكنيسة: لماذا نهتمّ؟

١٢ تشرين الثاني/نوڤمبر

تغييرٌ حادثٌ

أستطيعُ أن أميِّز نمطًا متكرِّرًا في العهد القديم يكشفُ عن تردُّدِ الله في التدخُّل في التاريخ. الله ينتظر، ويبحث عن شريكٍ بشريٍّ يتعامل معه، ثمَّ يتحرَّك ببطء مُؤلم، ثمَّ يصنع بضع معجزات، ثمَّ ينتظر. وفي الأناجيل، يعود النشاطُ المعجزيُّ باندفاع بالغٍ وبقوَّةٍ عظيمةٍ تنبعُ كلُّها من شخص يسوع المسيح. لكنَّ يسوعَ نفسَه كان يتدخَّل بصورة شديدة الانتقائيَّة. يصنع معجزات ليس الهدف منها شفاء الجميع وإطعام الجميع والقضاء على المرض والجوع والألم، بل الهدفُ الأساسيُّ هو أن يقدِّم علامات على مُلك الله.

كما أنَّ يسوعَ أيضًا أعلنَ عن تغيير كبير. قال يسوع إنَّه "تأتي ساعة، وهي الآن حين الساجدون الحقيقيُّون يسجدون لله بالرُّوح والحقِّ لأنَّ الآب طالِبٌ مثلَ هؤلاء الساجدين". لقد غيَّر مكانَ حضور الله، وأعادَ وضعَه في أقلِّ الأماكن توقُّعًا- في البشر العاديِّين.

لم يُصمِّم الله هذا الكوكب ليكونَ مسرحًا يعرضُ على خشبتِه مهاراتِه في انتهاك قوانين الطبيعة، مثلما نتوق نحن البَشَر أحيانًا. لكنَّ الله يريد بصورةٍ أساسيَّة أن يتواصلَ شخصيًّا مع البشر- أن يُحِبَّ وأن يُحَبّ. وكي يستَعيدَ هذه العلاقة، كان يعمل ببطءٍ شديد، بل مؤلم في الكثير من الأحيان. ولأنَّه يختار دائمًا أن يعمل في البشر وبواسطتهم، كان هناك الكثير من الأخطاء، علاوةً على التقدُّم والتَقَهْقُر والاندفاع. ومقارنةً بالعهد القديم حيثُ المعجزاتُ العظيمةُ مثل شقِّ البحر وانهيار الأسوار، يبدو العهد الجديد كأنَّه تقهقَرَ، في حين هو في الواقع يتقدَّم تقدُّمًا حثيثًا نحو العلاقة الشخصيَّة الحميمة بالله.

أنا أعرفُ مسيحيِّين يشتاقون إلى حُكْم الله القديم حيث أعمال القوَّة التي تُغرق فرعون وتسوِّي أسوار أريحا بالأرض، وتحرق كهنة البعل. لكنِّي لا أشتاق إلى مثل هذه الأيام. إنِّي أومنُ بالملكوت الذي يمتدُّ بواسطة النعمة والحرِّيَّة اللذين هما هدفُ الله طَوال الوقت. إنِّي أقبلُ الطُّمأنينةَ التي يمنحُها يسوعُ لتلاميذِهِ حيث أخبرَهُم بأنَّ مُغادَرَتَه للأرض تُعَدُّ نوعًا من التقدُّم نحو الأمام؛ لأنَّه يفتَحُ البابَ لدخول المُشير (الروح القدس). ونحن نعرف كيف يعمل المشيرون: لا يُصدِرونَ أوامرَ، ولا يفرِضون التغيير بالقوَّة الخارجيَّة، بل يعملُ المُشير الجيِّد من الداخل إلى الخارج، إذ يدعو الصحَّة الداخليَّة النائمة إلى الاستيقاظ والعمل.

ولتحقيق العلاقة ما بين شريكَين غير متساوِيَين، تقدِّمُ الصلاةُ الوَسَط المثاليَّ. أغلب الوقت يتواصل المُشير، المُعزِّي، بصورةٍ خفيَّة وغير مُباشر: يُغذِّي عقلي بالأفكار الإيجابيَّة، ويُذكِّرني بتعليق حادٍّ قُلته، وما كان ينبغي أن أقوله، يُلهمني أن أختارَ اختيارًا أفضل المرَّة المقبلة، ويلقي الضَّوء على أخطار التجارب المخفية، ويزيد من حسَّاسيَّتي لاحتياجات الآخرين. إنَّ روح الله يهمس لي ولا يصيح في وجهي، ويمنحني

سلامًا لا عذابًا.

من كتاب: الصلاة: هل تُحدث أيَّ اختلاف؟

١٣ تشرين الثاني/نوڤمبر

لقاءاتٌ إلهيَّة

في المسار الطبيعيِّ للعناية الإلهيَّة، يعمل الله بواسطة الخليقة، وليس رغمًا منها. لذا فإنَّ من الصعب إثباتَ أغلَبِ استجابات الصلاة بأيِّ قَدْرٍ من التأكيد. فعندما نثقُ بشخص الله، فإنَّنا نرى في الأحداث أكثر من مجرَّد الصُّدفة. نستطيع أن نرى شراكةً حقيقيَّةً حميمةً ومتبادلة.

أتذكَّرُ وقوفي مُرتعبًا وسط العاصمة المجريَّة بودابست بعد طيران دامَ عشرَ ساعات. في حاسوبي المحمول أحمِلُ مُذكراتٍ للأحاديث التي سأقدمِّها. وبعد أن دخلْتُ الفندقَ الذي سأقيم فيه، اكتشفتُ أنِّي نسيتُ سلك الكهرباء في المطار الذي أمضيتُ فيه بضع ساعات قبل أن أقلعَ في رحلتي الأخيرة. كانت المحالُّ ستغلق بعد ساعة، واليوم التالي كان الأحد، ولا أعرفُ المكانَ الذي يمكنني فيه أن أحصلَ على قطع غيار لحاسوبي في ذلك البلد الغريب. صلَّيتُ صلاةً سَريعة، وبدأتُ أبحَثُ عَمَّن يَتكَلَّم الإنكليزيَّة. وقبل أن أفقدَ الأمل تمامًا، جاءني فتًى مع أمِّه قائلًا: "هل نستطيع أن نُساعِدَك؟" لقد أنهى هذا الشابَّ لتوِّه امتحانَ اللغة الإنكليزيَّة وكان ووالدتُه منطلقَين نحو محطَّة القطار المجاورة لأحد محالِّ الحواسب الآليَّة، وهو أحَد متجرَين فقط فيهما القطعةُ التي أحتاج إليها. هل هذه مجرَّد صُدفة؟

بعد ذلك بسنة، كنتُ أحضر مؤتمرًا يضمُّ ألفًا ومئتَيْ مشارك، وكانت لديَّ وجبةٌ واحدةٌ أتناولها بمفردي. اخترتُ مكانًا عشوائيًّا للجلوس. وعندما تجاذبت أطراف الحديث مَع مَن بجانبي، عرفتُ أنَّ الجالسين إلى الطاولة هم أفرادٌ من الأسرة نفسها- بنتان وأمُّهما. أمَّا والدُهما فهو يمكُثُ في المنزل في ميشيغان ويواجه المراحل الأخيرة من سرطان المريء، أي أنَّه يُحتضَرُ على بُعد أيَّام من الوفاة، لذا أتى نسيبان من أنسبائه ليَعيشا معه. أمَّا بنتاه فقد قادتا سيَّارتهما مدَّة عشرين ساعة من ولايةٍ أخرى، وأمَّهما التي لم تتركْ زَوجَها طَوال الشهور الستَّة الماضية، فقد جاءت أيضًا إلى هذا المؤتمر لتقابلَني أنا وزوجتي؛ لأنَّها كانت تعلَمُ أن زوجتي تعمل في دار رعاية المسنِّين المُقبلين على الوفاة. جاءت ومعها قائمةٌ بالأسئلة التي كانت تريد أن تسألها، ولديها بصيص رجاء إنْ كانت تستطيع أن تناقشها. هل أُمانع؟

"عندما أُصَلّي، تحدُث المُصادفات، وعندما لا أُصلي، فهي لا تحدث"، قال هذه العبارة رئيس الأساقفة وليَم تمپل (William Temple) وبدلَ تشريح تلك المُصادفات، أحاولَ أن أستخدمها لبناء إيماني، وأرى أنَّها "لقاءاتُ إلهيَّة"، وليست مجرَّد مصادَفات.

من كتاب: الصلاة: هل تُحدث أيَّ اختلاف؟

شركاءُ الملكوت

في يوم حافلٍ بعد أن أقامَ يسوعُ فَتاةً صغيرةً من المَوت، ثمَّ أَعَادَ البَصَرَ إلى رجلَين أعمَيَين، والنُّطقَ إلى أخرسَ، بدا يسوع مغمورًا باحتياجات الناس التي لا تنتهي. تَقَاطَرَت الجُموع، وشَعَرَ يَسوعُ بمشاعر رحمةٍ وتعاطفٍ تتزايد في قلبه نحو الشعب؛ "لأنَّهم كانوا مُنطَرِحين ومُنزَعِجين كغنم لا راعيَ لها". في مُقابل الاحتياج الإنسانيِّ بالغِ العُمقِ، قدَّم يسوعَ إحدى الوصايا القليلة المُباشرة بشأن ما نُصلِّي من أجله. "اطلبوا من رب الحصاد أن يُرسِلَ فَعَلَةً إلى حصاده".

أجل، لقد تَرَكَ يسوعَ تأثيرًا دائمًا في ذلك الرُّكن الصغير من فلسطين، لكنَّه يحتاج إلى شُركاء كي يحملوا الأخبار السارَّة عن ملكوت الله إلى روما، وإلى قارَّات العالم ما وراء البحار.

في القرن التاسع عشر، شعر وليَم كاري (William Carey) بالدَّعوة ليذهبَ إلى الهند ليكونَ أحَدَ الذين يرسلهم الله ليعمَلوا في حصاد حقوله. سَخر به الرُّعاة والقساوسة المُحيطين به قائلين: "يا بُنيّ، إنْ كان الله يريد أن يُخلِّص الوثنيِّين في الهند، فهو يستطيع أن يفعل ذلك دون الحاجة إلى أمثالنا". لقد فاتَهُم أن يفهموا مفهومَ الشراكة. في الواقع، ما يفعله الله في الأرض دون أمثالنا، قليلٌ جدًّا.

وبوصفنا شركاء في عمل الله على الأرض، فإننا نُصِرُّ أن تنفَّذَ مشيئة الله على الأرض، ونُكرِّس أنفسنا لهذا الأمر مهما كلَّف الأمر. لقد عَلَّمَنا يسوع أن نُصلِّي "ليأتِ ملكوتك، لتكنْ مشيئتك". وليسَتْ هذه الكلمات مجرَّد استدعاءاتٍ هادئةٍ لله للتدخُّل، بل هي مطالب شديدة. أعطنا عدالةً! أعِدْ ترتيبَ العالم المُضطرب!

إنَّ لدينا أدوارًا مختلفةً نلعبُها، نحن والله. وكما صَرَّحَ الله لأيُّوب، فإنَّنا، نحن البشرَ، نفتقدُ إلى القدرة على استيعاب التدبير الإلهيِّ والعدالة الكونيَّة، ولا نستطيع أن نجيب عن أسئلة "لماذا؟". لكنَّ دَورَنا هو أن نتبعَ خُطى يسوع، بأن نعمل من أجل الملكوت بأفعالنا وصلواتنا. ماذا يعمل الله في العالم؟ الإجابة هي سؤالٌ آخر: ماذا يفعل شعب الله في العالم؟ نحنُ جسد المسيح على الأرض. وإذا أردْنا استخدامَ تشبيه بولس الرسول المفضَّل، فإنَّنا "في المسيح"، وهي جملةٌ يكرِّرها العهد الجديد ١٦٤ مرَّة. فالذين نخدمهم، المسيح يخدمهم، والذين نغفر لهم، المسيح يغفر لهم. وعندما نُظهِرُ الرحمةَ للمُنكسرين، فإنَّنا نُظهِرُها بيدَيِ المسيح نفسه.

من كتاب: الصلاة: هل تُحدث أيَّ اختلاف؟

المسؤوليَّة المزدوجة

يخشى بعض الناس أن تؤدِّي الصلاة إلى نوع من السلبيَّة، بمعنى أنَّنا سننسحب إلى خندق الصلاة حاسبين إيَّاه بديلًا عن الفعل العمليّ. لم يرَ يسوع أيَّ تناقض ما بين الأمرَين: لقد كان يُمضي ساعاتٍ طويلةً في الصلاة، وساعاتٍ طويلةً أيضًا في الاهتمام باحتياجات الناس. كما مارَسَتِ الكنيسةُ في سفر الأعمال الأمرَينِ مَعًا، وتَصَرَّفَت في شراكة حقيقيَّة مع الله. لقد صلُّوا طلبًا للإرشاد بشأن الاهتمام بالأرامل، ثمَّ عيَّنوا شمامسةً كي يُتيحوا الوقت للقادة ليمارسوا الدَّور الحيويَّ وهو الصلاة. إذا توقَّفوا عن الصلاة، فقد يتوقَّفون عن الاهتمام بالأرامل. لقد كانوا يُصلُّون معًا بشأن القضايا الثقافيَّة الخلافيَّة التي كانت تواجهُهُم ما بين اليهود والأمم، ثمَّ أقاموا مؤتمرًا كي يقرِّروا تقليل بعض المطالب الدينيَّة أمام الأمم.

صلَّى بولس الرسول باجتهاد من أجل الكنائس الوليدة، لكنَّه كتَبَ أيضًا لهم ثمَّ زارَهُم. صلَّى وعمل بالدرجة ذاتها من التَّفاني. وفي رحلةٍ بحريَّة، بعد أن تيقَّنَ في صلاته بأنَّ كلَّ الرُّكَّاب سينجون من التحطم الوشيك للسَّفينة، أخذ زمام قيادة ٢٧٦ شخصًا على ظهر السفينة، وبدأ في إعطاء الأوامر لتنظيم مجهود الإنقاذ. تقدِّم لنا القصص الواردة في سفر الأعمال نموذجَ المسؤوليَّة المزدوَجة بصورةٍ تجعلُ من المستحيل التفريق ما بين عمل الله وعمل المسيحيِّين. ولعلَّنا نتذكَّرُ وصيَّةَ بولس لأهل فيلبي التي تبدو مفارقةً في ظاهِرِها، حيث قالَ لهُم: "تمِّموا خلاصَكُم بخَوفٍ ورِعدةٍ، لأنَّ الله هو العامل فيكم أن تريدوا وأن تعملوا من أجل المَسَرَّة".

لقد كنتُ في صراعاتي وإحباطاتي مع الصلاة، أركِّزُ على غياب التدخُّل الإلهيّ. لماذا لا يعمل الله عندما أطلبُه؟ إلَّا أنَّ رؤيتي تغيَّرت عندما فهمتُ أنَّ الصلاة هي شراكة، تفاعلٌ خَفِيٌّ ما بين الله والإنسان لإتمام عمل الله على الأرض. إنَّ الله يطلبُ إليَّ أن أرفَعَ نفسي واحتياجاتي واحتياجات عالمي أمامَه، ثمَّ ينسجُ هو صلواتي هذه في خُطَّته الكُبرى لحياتي- الخُطَّةِ التي أحاول بصعوبة أن أستوعبها.

من كتاب: الصلاة: هل تُحدث أيَّ اختلاف؟

١٦ تشرين الثاني/نوفمبر

زاويةُ الاستقرار

في الجبال التي أعيش بين أحضانها، يستخدم الجيولوجيُّون وعُمَّال المناجم التعبير الأنيق "زاوية الاستقرار" لوصف الزاوية المحدَّدة التي يستقرُّ عليها جلمود الصخر على جانب التَّلِّ دون أن يتدهوَرَ نحو الأسفل. أتذكَّرُ تلك الصورة عندما أفكِّرُ في العلاقة ما بين الصلاة والعمل. من وقتٍ إلى آخر تتحَرَّر إحدى هذه الصخور، وتتحرَّكُ ويحدُثُ انهيار صخريّ. وأحيانًا يحدثُ أمرٌ كهذا في الانهيارات الجليديَّة، عندما يحدث تراكم لرقائق جليديَّة دقيقة لا يكاد يكون لأيٍّ مِنها وزنٌ يُذكَر.

قال اللاهوتيِّين الألمان إنَّ سَرَّ تَميُّز ديتريش بونهويْفَر هو طريقته الخَلَّاقة في الجمع ما بين الصلاة والواقعيَّة العمليَّة، والتي تُنشئ روحانيَّةً تمزجُ التَّقوى والنشاطَ الإيجابيّ. وبينما كان بونهويْفَر مُختبئًا في أحد الأديرة مُنتظرًا أوامِرَ حركة المقاومة الألمانيَّة، كتب الفكرةَ المهمَّة التالية: "اليوم الذي يمرُّ بلا صلاة صباحيَّة ومسائيَّة وتشفُّع شخصيٍّ هو في الواقع يومٌ بلا معنى أو أهمِّيَّة". وبوصف بونهويْفَر راعيًا، استَمرَّ في الحِفاظِ على أوقات صَلَواته حتَّى بعد أن دخلَ السجن بتُهمة الاشتراك في انقلاب على هتلر.

أدركَ بونهويْفَر طبيعة الصلاة بوصفها شراكةً مع نشاط الله على الأرض. ووبَّخَ المسيحيِّين الألمان الذين تراجَعوا إلى ممارسة التَّقوى الشخصيَّة فقط متجاهلين الشرَّ المُحيط بهم حاسبين أنَّ هذا هو واقعُ الحال. لا نستطيع ببساطة أن نصلِّيَ وننتظرَ أن يفعلَ الله أمرًا بينما نحن مستَرخونَ. وفي الوقت نفسه، حذَّرَ بونهويْفَر من النشاط لمواجهة قوى الشَّرِّ دون الاعتماد على قوَّة الصلاة.

في ستِّينيَّات القرن العشرين وسبعينيَّاته، كادت الصلاة أن تختفيَ من أروقة كلِّيَّات اللاهوت الإنجيليَّة حيث كان التركيز الأكبر على الإنجيل الاجتماعيّ. وعندما كان يتحدَّثُ أحَدٌ بشأن حياة الصلاة الشخصيَّة، كان هذا يثير الشكوك، أو ربَّما يؤدِّي إلى إلقاء محاضرة عن مخاطر التَّقَويَّة. ونتيجةً لذلك، بدأ البروتستانت يزورونَ الأديِرةَ بحثًا عن الإرشاد الروحيّ. وتعلَّموا من نُشطاء مثل دوروثي داي وتوماس ميرتون أنَّ العَمَلَ الاجتماعيَّ الذي لا تُساندُه الصلاة سيؤدِّي إلى الإرهاق والإحباط.

سيشعر كلٌّ منَّا في طريقه الخاصِّ بالتوتُّر الحادث ما بين الصلاة والعمل- ما بين النشاط والتأمُّل. أتلقَّى بانتظام رسالة أخبار من مركَز النشاط والتأمُّل، وأرى أنَّ هاتَين الكلمتَين معًا تشتملان على كلِّ ما نحن مدعوُّون إليه في تبعيَّتنا ليسوع.

من كتاب: الصلاة: هل تُحدث أيَّ اختلاف؟

١٧ تشرين الثاني/نوفمبر

الضَّوء الخلفيّ

يُصِرُّ فيلسوفٌ صينيٌّ على امتطاء حماره ووجهُه إلى الخلف؛ لئلَّا يتشتَّتَ بفعل المكان الذي يهدف الذهاب إليه. وبدلَ ذلك يتأمَّل في المكان الذي كان فيه. يعملُ الكتاب المقدَّس بالطريقة نفسها على نحوٍ ما. تُلقي رسائل العهد الجديد الضَّوء إلى الخلف على أحداث الإنجيل حتَّى نفهمَها بطريقةٍ جديدة. كما أنَّ الإنجيل والرسائل يُلقيانِ الضَّوءَ على العهد القديم.

على مدى قرون طويلة، ظلَّت جملة "كما قيل بالأنبياء" إحدى أقوى الأمور التي تؤثِّر في الناس الذين يأتون إلى الإيمان. يُرجعُ يوستين الشهيد (Justin Martyr) الفَضلَ في قبوله الإيمان المسيحيَّ إلى الانطباع الذي أحدثَتْه فيه دقَّة حدوث نبوَّات العهد القديم كما هي واردة في الكتاب المقدَّس. كما أورَدَ عالمُ الرياضيَّات الفرنسي اللامع بليز پاسكال النبوَّات المتحقِّقة بوصفها أحد أقوى العوامل المؤثِّرة في إيمانه. واليوم، قليلٌ من المسيحيِّين لا يقرأون الأنبياء إلَّا للبحث عمَّا يُشبه مفاتيح سحريَّة تُخبرهم بالمُستقبل. لقد فقدنا الشعور بالوَحدة العميقة ما بين العهدَين التي كانت موجودة لدى المُصلحين.

إنَّ فهْمَ حضارتنا وفهمَ الكتاب المقدَّس هما سببان مهمَّان كي نقرأ العهدَ القديم، لكنْ ربَّما يكونُ أهمُّ سبب يجعلنا نقرأه هو أنَّه هو الكتاب المقدَّس الذي قرأه يسوع. لقد تتبَّعَ يسوعُ في فِقرات أسفار العهد القديم كلَّ الحقائق المهمَّة التي كان يحتاج لأنْ يعرفَها عن نفسه وعن إرساليَّته. لقد اقتبس منه لكي يُسوِّي الخلافات بينه وبين الفرِّيسيِّين والصدُّوقيِّين، بل حتَّى مع الشيطان نفسه. والصُّوَر البلاغيَّة التي استخدمها يسوعُ، مثل حمل الله والراعي وآية يونان والحجر الذي رفضه البنَّاؤون، هي كلُّها صورٌ آتِيَةٌ مُباشَرةً من صفحات العهد القديم استخدمها يسوع ليُعرِّف نفسَه.

ذاتَ مرَّة حاولَتْ إحدى الحكومات أن تقتطع العهد القديم من الكتاب المقدَّس. حَرَّمَت النازيَّة في ألمانيا دراسة هذا "الكتاب اليهوديّ"، واختفى دارسو العهد القديم من كلِّيَّات اللاهوت الألمانيَّة، واختفت دراسات العهد القديم من منشورات اللاهوت ودوريَّاته. وفي عام ١٩٤٠م، نشرَ بونهويْفَر في فعلٍ مُتمرِّدٍ كتابًا عن المزامير، وتعرَّضَ للغرامة لذلك السبب. وفي مرافَعات استئناف الحُكم، احتَجَّ مقنعًا بأنَّه كان يشرح كتاب الصلاة الذي استخدمَه يسوعُ نفسُه. وأشار بونهويْفَر إلى أنَّ يسوع اقتبسَ مِرارًا من العهد القديم، وليس من أيِّ كتاب آخر– مع أنَّ قائمةَ الكتب القانونيَّة العبريَّة لم تكن أُغلِقَت بَعد. علاوةً على ذلك، فإنَّ أغلَبَ العهد القديم يشيرُ صراحَةً وضِمْنًا إلى يسوع.

من كتاب: الكتاب المقدَّس الذي قرأه يسوع

١٨ تشرين الثاني/نوفمبر

معلوماتٌ من الداخل

بحسب إلين ستوركي (Elaine Storkey) فإنَّ سؤال "أجِب بسُرعة، كيف يبدو الله؟" جاءَ بذكاءٍ فطريٍّ على لسان فتاة صغيرةٍ في المستشفى، حيث أسرعَتْ إلى أخيها المولود لتوِّه وطرحَتْه عليه؛ فما دامَ أخوها آتِيًا من السماء، فيُمكِنُهُ أن يعطيها بعض المعلومات من الداخل.

يقدِّم العهد القديم إجابةً عن سؤال الفتاة، وهي إجابة ربَّما تكون مختلفةً عن الإجابة التي يقدِّمها العهد الجديد مثلًا. فدون العهد القديم، ستكون لدينا دائمًا رؤية فقيرة عن الله. ليس الله تركيبةً فلسفيَّةً، ولكنَّه شخصٌ يعمل في التاريخ: هو الذي خلقَ آدم، وأعطى الوعدَ لنوح، ودعا إبراهيمَ، وعرَّفَ نفسَه إلى موسى بالاسْم، وهو أيضًا مَن صَمَّم لنفسه خيمة ليسكُنَ فيها وسط شعبه في البرِّيَّة. فمنذ تكوين ١ والله يريد أن يُعرَف، والعهد القديم هو أكثر أشكال الوحي التي لدينا اكتمالًا بشأن شخصيَّة الله.

قال الروائيُّ جون أبدايك (John Updike) إنَّ "أدمغتَنا لم تعُدْ مُهيَّأةً للتَّوقير والمَهابَة". مثل هذه الكلمات، صارت تبدو قديمة. وكلَّما بدَتْ مفاهيمُها قديمةً لنا، تُهنا بعيدًا عن صورة الله التي يعلنُها لنا العهد القديم. إنَّنا لا نستطيع أن نضَعَ الله في صندوق ونوفيه شرحًا. إنَّ الله غامضٌ ومستحيلٌ على الاستئناس البشريّ. ليس الله إلهًا نستطيعُ بسهولةٍ أن نفهمه، ولا أحَدَ يقول لله ما ينبغي أن يفعلَه (وهذا هو محور خطاب الله لأيُّوبَ).

إنِّي أعترفُ أنَّ العهدَ القديمَ يقدِّم إلينا عدَّة مشكلات أميل إلى تجَنُّبها. كتب بولس الرسول: "هوذا لُطف الله وصرامَتَه". أُحِبُّ فقط اللُّطف، لكنِّي إذا اخترْتُ هذا وتركتُ ذاك أكونُ قد كَوَّنتُ لنفسي صورةً شخصيَّةً عن الله بدلَ الاعتماد على إعلان الله عن نفسه. إنِّي لا أجرؤ أن أتكلَّم بالنِّيابة عن الله دون أن أستمع إلى كلامِ الله.

والطريقة التي نفكِّر بها عن الله تُحدِثُ فرقًا كبيرًا في حياتنا. هل يقفُ الله بعيدًا كأنَّه صانع ساعات خلقَ الكونَ وتركَه يعمل وفقَ قوانينه الثابتة، ثمَّ وقف ليشاهدَه من بعيد؟ أم أنَّ الله أبٌ حنونٌ يُمسك في يدَيه ليس فقط الكون، بل أيضًا الرجال والنساء والأطفال؟ لا يوجد في الوجود مشروعٌ أهمُّ من أن نفهمَ الله كما هو بالحقيقة.

من كتاب: الكتاب المقدَّس الذي قرأه يسوع

١٩ تشرين الثاني/نوفمبر

تذكيراتٌ يوميَّة

مثل قرع الطبول الذي لا يتوقَّف، نستمعُ عبرَ صفحاتِ العَهدِ القديم إلى رسالة مُتكرِّرة أنَّ العالم متمحورٌ حول الله، وليس حولنا. وتوجد في قلب الحضارة العبرانيَّة تَذْكيراتٌ مستمرَّةٌ بهذه الحقيقة. كانوا يُكرِّسون أبكار حَيَواناتهم وأطفالَهم لله، وكانوا يضعونَ أجزاءً من الشريعة ملفوفةً حول رؤوسهم وأذرُعِهم، كما كانوا يُعَلِّقون مُعلَّقاتٍ على أبواب بيوتهم للتَّذكير، وكانوا يذكُرون كلمة "مُبارَك" نحو مئة مرَّةٍ في اليوم، حتَّى إنَّهم كانوا أيضًا يَضفِرونَ شُعورَهُم بطريقةٍ مميَّزة ويخيطون أهدابًا في ملابسهم للتَّذكير.

نادرًا ما كانت تمرُّ ساعة على يهوديٍّ تقيٍّ دون أن يصطدمَ بما يُذكِّرُهُ أنَّه يعيشُ في عالم الله. حتَّى التقويمُ العبرانيُّ كان حافلًا بالأعياد والأحداث الدينيَّة مثل الفِصْح، أو يوم الكفَّارة، وليس فقط مواسم الزرع والحصاد ودورة القمر. لقد كانوا يؤمنون بأنَّ العالم هو مُلكٌ لله. والحياة الإنسانيَّة "مُقدَّسَة"، ممَّا يعني ببساطةٍ أنَّها ملكٌ لله أيضًا.

تبدو هذه المفاهيم التي تميِّز العهد القديم غير أميركيَّة بتاتًا. ألا تضمن لنا الوثائق المؤسِّسةُ للأمَّة الأميركيَّة حقَّ الحياة والحرِّيَّة والسعي وراء السعادة؟ إنَّنا نتمرَّدُ عَلى أيِّ تَدَخُّلٍ في حرِّيَّاتنا الشخصيَّة، ونُقاوِمُ أيَّ شخص يضعُ لنا حدودًا يُمكن أن تعتديَ على مساحتنا الشخصيَّة. وفي بيئتنا العَلمانيَّة الصناعيَّة، يمكن أن نعيشَ أسبوعًا كاملًا، وليس مجرَّد يوم، دون أن نصادف أيَّ شيء يُذكِّرنا أنَّ هذا العالم هو عالم الله.

أذكُرُ أنِّي استمعتُ إلى رسالة في كنيسة كلِّيَّة ويتون (Wheaton College Chapel) في سبعينيَّات القرن الماضي، عندما كانت حركة "موت الله" في أوجِها. اختار الأستاذ روبرت ويبر (Robert Weer) أن يتكلَّم عن الوصيَّة الثالثة: "لا تنطقْ بِاسْم الربِّ إلهك باطلًا". قال ويبر إنَّنا عادة ما نُفَسِّر هذه الوصية من منظور ضَيِّق في صورة الامتناع عن القَسَم، ثمَّ راح يُوَسِّعُ المعنى إلى "لا تَعِشْ كما لو كان الله غير موجود". أو كما قال بصورة توكيديَّة: "عِش دائمًا واعيًا بوجود الله".

كلَّما درستُ الوصيَّةَ في بيئتها في العهد القديم، اتَّفقتُ أكثرَ مع ويبر. من أهمِّ ما يُقدِّمُه التراثُ اليهوديُّ العظيم في العهد القديم هو الحياة في إطار الوعي الدائم بمركَزيَّة الله في هذا الوجود.

من كتاب: الكتاب المقدَّس الذي قرأه يسوع

٢٠ تشرين الثاني/نوڤمبر

قبورٌ مُبَيَّضة

عندما أدرس حياة يسوع، هناك حقيقةٌ دائمًا ما تُدهِشُني، وهي أنَّ الجماعة التي تسبَّبَتْ في أقصى درجات الغضب لدى يسوع، هي الجماعة التي كانت، على الأقلِّ خارجيًّا، تُشبِهُه كثيرًا. يتَّفِقُ الدارسون أنَّ يسوعَ كان يُشبه إلى حدٍّ بعيدٍ الصورةَ المجتمعيَّةَ للفرِّيسيِّين. كان يُطيع التوراة وشريعة موسى، وكان يقتبسُ من ثقافة الفَريسيِّين، وينحازُ لهم في بعض الجدالاتِ التي جرتْ في المحافل العامَّة. ومع ذلك، فقد خَصَّ يسوعُ الفَرِّيسيِّين بأقصى درجات هجومه حتَّى إنَّه دعاهُم بالأفاعي وأولاد الأفاعي والأغبياء والمرائين والعُميان قادة العُميان! والقبور المبَيَّضة من الخارج!

ما الذي استَفزَّ مثل ذلك الغضب؟ لقد كان الفَرِّيسيُّون يشبهون كثيرًا ما تُسمِّيهم الصحافة أصوليُّو بعض الولايات الأميركيَّة، الذين كَرَّسوا حياتَهُم لاتِّباع الله. يدفعون عشورَهُم بدقَّة بالغة، ويُطيعون حتَّى أدَقَّ قوانين الشريعة، ويُرسلون المرسَلين ليَكسِبوا أشخاصًا إلى الإيمان، ونادرًا ما يتورَّطون في خطايا جنسيَّة أو جرائم عنيفة. لقد كان الفَرِّيسيُّون مواطنون مثاليُّون.

لقد كشفَتْ أشدُّ انتهارات يسوع للفَرِّيسيِّين أنَّه كان يرى خُطورة التزام قشور الشريعة دون روحِها. فمَخاطر هذه العقليَّة وسمومُها مخادِعةٌ وخبيثة، وليس من السهل إدراكُها. في لوقا ١١ ومتَّى ٢٣، أجرى يسوعُ تشريحًا أخلاقيًّا للفَرِّيسيِّين لتوضيح هذه المخاطر. وأعتقد أنَّ هذه المخاطر لا تزال تمثِّل المخاطر نفسها في عصرنا كما كانت في ذلك العصر.

على العموم، أدانَ يسوع تركيزَ الفَرِّيسيِّين على المظاهر الخارجيَّة وقشور الشريعة. فقال لهم يسوع: "لأنَّكم تُنقُّون خارج الكأس والصَّحْفة، أمَّا من الداخل فمملوءةٌ اختطافًا وشرًّا". لقد صارت تعبيراتُ محبَّة الله، بمرور الوقت، ممارساتٍ ظاهريَّةً لإبهار الآخرين. كان المتديِّنون في زمن يسوع يَظهَرون بمظاهرَ تُعبِّر عن الجوع والتَّعَب عندما كانوا يصومون ولو أصوامًا قصيرة، ويُصَلُّونَ بصورةٍ مُبالَغ فيها في العَلَن، ويربطونَ على أجسادهم مقاطعَ من الكتاب المقدَّس. وفي الموعظة على الجبل، أدان يسوعُ الدوافع الكامنة وراء هذه الممارسات التي لا تبدو مُضِرَّة.

ليو تولستوي (Leo Tolstoy)، الذي قاومَ طَوال حياتِه التمسُّك بقشور الشريعة، كان يفهم مدى ضعف الديانة المبنيَّة على المظاهر. وبحسب تولستوي، فإنَّ كلَّ الأنظمة الدينيَّة تميل إلى ترويج قواعدَ وأنظمةٍ خارجيَّة. أمَّا يسوع فرفضَ، على العكس من ذلك، تحديد مجموعةٍ من القواعد يمارسُها أتباعه كي يشعروا بها بحالة من الرِّضى عن النفس. لقد كان تولستوي يقول إنَّ دليلَ النُّضج الروحيِّ لا تُحدِّده درجة "طهارتك"،

بل درجة وعيك بعدم طهارتك؛ فهذا الوعي هو الذي يفتح الباب لنعمة الله.

من كتاب: ما أعجب النعمة

٢١ تشرين الثاني/نوفمبر

أنعمُ من كرة البلياردو

لقد كتبتُ عن التمسُّك بقشور الشريعة جُزئيًّا جرَّاءَ ما عانيتُه شخصيًّا بسبَبِها، وجزئيًّا لأنِّي أومن بأنَّ قشور الشريعة تُمثِّل تجرِبةً قويَّةً تتعرَّضُ لها الكنيسة. إنَّ قشور الشريعة تقف مثل مُمثِّلة إغراء على جانبَيِ طريق الإيمان تُغوينا أن نتَّخذ الطريق الأسهل. وهي تسخر بنا، واعدة ببعض منافع الإيمان، لكنها لا تستطيع أن تفيَ بأهمِّ شيء. كما يكتب بولس الرسول للمتمسِّكين بقشور الشريعة في عصره: "لأنَّ ملكوت الله ليس أكلًا وشُربًا، بل برٌّ وسلامٌ وفرحٌ في الروح القدس".

للوهلة الأولى، يبدو التمسُّك بقشور الشريعة صعبًا، لكنَّ طريق الحرِّيَّة في المسيح هو الطريق الأصعب. من السهل نسبيًّا ألَّا تقتل، لكنَّ الصعبَ هو الاقتراب من الآخرين بمحبَّة. من السهل أن نتجنَّب الزنى، لكنَّ الأصعب أن نحافظ على الزواج حيًّا وفعَّالا. من السهل دَفْعُ الضرائب، لكنَّ من الصعب خدمة الفقراء. عندما أعيش في الحرِّيَّة، عليَّ دائمًا أن أكونَ مفتوحًا لإرشاد الرُّوح القدس؛ فهذا يجعَلُني أكثر وعيًا بما أهمَلتُه أكثر من وعيي بما حقَّقتُه. لا أستطيع أن أختفي خلفَ قناعٍ من السلوك الخارجيِّ، مثل المرائين، ولا أن أختبئَ خلفَ مقارناتٍ تافهة مع مسيحيِّين آخرين.

كتب اللاهوتيُّ المُصلح جاي. غريشام ماشن (J. Gresham Machen): "تؤدِّي النظرة المتدنِّية إلى الشَّريعة إلى التمسُّك بقشور الشريعة في الدِّين، في حين تجعلُ النظرة السامية إليها الإنسانَ باحثًا عن النعمة". إنَّ التأثير النهائيَّ للتمسُّك بقشور الشريعة هو أنَّها تُخفِّض من نَظرة الإنسان إلى الله. ونحن نميل لأنْ نحسبَ الطوائفَ المسيحيَّة الأكثر تدقيقًا، أكثر "روحانيَّة". لكنَّ الحقيقةَ هي أنَّ الفروقَ ما بين جامعة بوب جونز (Bob Jones) وجامعة ويتون (Wheaton)، أو ما بين المنونايت (Mennonites) والمعمدانيِّين الجنوبيِّين (Southern Baptists)، جميعَها فروقٌ تافهةٌ إذا قارنتها بالإله القدُّوس.

قرأتُ ذات مرَّة أنَّ سطح الأرض مقارنةً بسطح غيرها من الكواكب أنعم من كرة البلياردو. والفرق ما بين ارتفاع قمَّة إيفرست وانخفاض قاع المحيط الهادئ يبدو شاسعًا لمن يعيشون على هذا الكوكب، لكنْ عند النظر من الكواكب الأخرى، فهذه الفروق تبدو ضئيلة جدًّا. هكذا الآن أرى الفروق السلوكيَّة التافهة ما بين طائفة مسيحيَّة وغيرها. وإذا ما قارنَّا أنفسنا بالإله القدُّوس الكامل، فإنَّ هامَةَ "إيفرست الأخلاقيَّة" تبدو مثل إحدى البثور. لا تستطيع أن تكسبَ قبولَ الله بالجَهد، بل يمكنك فقط أن تقبلَه بوصفه عطيَّةً.

من كتاب: ما أعجب النعمة

متسوِّلون فَرِحون

لَمَّا كنتُ طفلًا، كنتُ أتحلَّى بأفضل سلوكٍ لي صباح الأحد، وأرتدي ملابسي الجميلة أمام الله، وأمام مَن حَولي من المسيحيِّين. لم يدُرْ بخاطري قَطُّ أنَّ الكنيسة هي مكانُ ممارسة الصِّدق والأمانة. أمَّا الآن، فأريدُ أن أرى العالم من منظور النعمة، وأدركَ أنَّ العيوبَ هي من مُتطلَّبات النعمة؛ فالنور يمُرُّ فقط بواسطة الشُّقوق.

لكنَّ كبريائي لا تزال تُجرِّبُني أن أرتديَ أفضلَ واجهة ممكنة، وأنظِّفَ ما يبدو منِّي. قال سي. أس. لِويس: "من السهل أن نعترفَ مرَّةً واحدة بهذا الأمر، لكنْ يكاد يكون من المستحيل أن نُدرِكَ أنَّنا مرايا يأتي لمعانُها، إن كانَتْ لامعةً، من الشمس التي تُشرق عليها. فنقول لأنفسنا إنَّ لنا بالتأكيد ضَوءًا في ذواتِنا، ولو كانَ قليلًا. ونقول لأنفسنا إنَّنا لسنا مُجرَّد مخلوقات. إنَّ النعمةَ تأتي عندما نقبلُ احتياجنا بوصفنا أطفالًا بُسطاءَ لا يخجلون من احتياجهم ويعبِّرون عنه في فَرَحٍ واعتماديَّة تامَّة، أيْ عندما نُصبح «متسوِّلين فَرِحين»".

إنَّنا، نحن المخلوقات، المستوِّلين الفَرِحين، نعطي المجدَ لله بالاعتماد عليه. جُروحُنا وعيوبُنا هي الشُّقوقُ التي ينفذ نور النعمة عَبرَها. إنَّ مصيرَنا البشريَّ على الأرض هو أن نكونَ غيرَ كاملين وضُعَفاءَ ومائِتين، ولا يمكنُنا إلَّا بِقُبولِ هذا المصير أن نهرُبَ من قوَّة الجاذبيَّة ونقبلَ النِّعمة. عندئذٍ فقط يُمكننا أن نقتربَ إلى الله.

من الغريب أن يقتربَ الله إلى الخُطاة أكثر من "القدِّيسين". وأقصدُ بالقدِّيسين هنا أولئك المعروفين بتقواهم، أمَّا القدِّيسون الحقيقيُّون فهُم الذين لا يَفقِدون بتاتًا قدرتَهم على رؤية خطيَّتهم. وكما يشرحُ أحَدُ المحاضرين في مجال الروحانيَّة: "يربطُ الله في السماء كلَّ إنسان بخيط. عندما تخطئ، فأنت تقطعُ هذا الخيط، فيربطُه الله من جديد، جاعِلًا فيه عُقدةً- وهذا يقرِّبك إليه أكثر. ومرَّة تلو الأخرى تخطئ وتقطع الخيط، ومع كلِّ عقدةٍ جديدةٍ يظلُّ الله يجذبك إليه أقرب فأقرب".

بمجرَّد أن تغيَّرَتْ الطريقة التي أرى بها نفسي، بدأتُ أرى الكنيسةَ في ضَوءٍ مختلفٍ أيضًا؛ إذ رحتُ أراها بوصفها مجتمعًا للبشر العِطاش إلى النعمة. ونحن نشتركُ بالاعتراف بالضَّعْفِ حالُنا حالُ مدمني الكحول في طريق التعافي.

من كتاب: ما أعجب النعمة

٢٣ تشرين الثاني/نوڤمبر

إعلانُ "عدم" الاستقلال

استقرَّ اللاهوتيُّ النرويجيُّ أوليه هالسبي (Ole Hallesby) على كلمةٍ واحدة هي "العجز" بوصفها تُلَخِّص التوجُّهَ القلبيَّ الذي يقبلُه الله في الصلاة، وقد كتب عن هذا: "سواء اتَّخذَتْ شكلَ كلمات أم لا، فهي لا تعني شيئًا لله، وإنَّما تعني الكثيرَ لنا. فقط أولئكَ الذين يعترفونَ بعجزِهم هم الذين يُصلُّونَ صلاةً حقيقيَّة".

يا لَها من عقبة! إنَّنا منذ الولادة نتوقُ إلى الاعتماد على النَّفس. يحتفل الآباء والأمَّهات عندما يعتمدُ الأطفال على أنفسهم: كأن يذهَبوا إلى الحمَّام، أو يرتدوا ملابسهم، أو يُنظِّفوا أسنانَهم، أو يشدُّوا أربطة أحذِيَتهم، أو يقودوا الدرَّاجة، أو يمشوا بمفردهم إلى المدرسة.

إنَّنا، نحن الراشدين، نُحِبُّ أن نَدفَعَ أجرةَ مواصلاتنا، ونعيشَ في بيوت نملكها أو ندفعَ أُجرَتَها، ونتَّخذَ قراراتنا بأنفسنا دون الاعتماد على قوى خارجيَّة. وننظر نظرة دونيَّة إلى الذين يعيشون على الإعانات والتبرُّعات. وعندما نواجه تحدِّيًا غير متوقَّع، فإنَّنا نبحثُ عن كُتب "المساعدة الذاتيَّة". كما أنَّنا، بكلِّ أسفٍ، نتخلَّصُ أوَّلًا بأوَّل من التوجُّه القلبيِّ الأكثر قبولًا لدى الله والأكثر دقَّة في وصف حالتنا نحن البشر في هذا الكون. قال يسوع لتلاميذه: "بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئًا". وهذه حقيقة بسيطة نميل إلى تجاهُلها دائمًا.

والحقيقة هي أنِّي لستُ مُعتَمِدا على نفسي. لمَّا كنتُ طفلًا، لم أكن قادرًا على تعلُّم القراءة دون أن يعلِّمني أحد. وما كنتُ لأتعلَّمَ الكتابة لو لم يعلِّمَني المعلِّمونَ ويصحِّحوا أَخطائي مرَّةً تُلوَ الأُخرى. وبوصفي راشدًا، فأنا أعتمدُ على الدولة ومؤسَّساتها كي توصِلَ الكهرباءَ إلى بيتي، وعلى صانعي السيارات الذين يُنتِجونَ السيَّارات التي تُقِلُّني إلى حيثُ أريد الذَّهاب، وأعتمد على المزارعين ليُطعِموني، وعلى القساوسة ورعاة الكنائس ليُرشِدوني ويغذُّوني روحيًّا. إنِّي أعيش في شبكة من الاعتماد المستمرِّ، وفي مركَز هذه الدائرة يوجد الله الذي يمسكُ بيَدَيه كلَّ شيء.

تُرغمني الصَّلاة أن أتأمَّلَ في حقيقة نفسي. وبكلمات هنري نوين: "أن تُصلِّي هو أن تسيرَ في نور الله الكامل، وأن تقول ببساطة دون تراجع: «أنا إنسانٌ ولستُ الله»".

أغلَبُ الآباءِ والأُمَّهاتِ يَشعرونَ بغَصَّةٍ عندما يتجاوز أطفالهم مرحلةَ الاعتماد عليهم، رغم أنَّهم يعرفون أنَّ النموَّ شيءٌ صحِّيٌّ وطبيعيّ. مع الله تتغيَّر القاعدة. لن أتجاوز بتاتًا اعتمادي على الله. وحين أعتقدُ ذلك، فإنِّي ببساطةٍ أخدَعُ نفسي. يقعُ طلبُ المساعدة في أصل مفهوم الصلاة؛ فالصلاة الربَّانيَّة نفسُها تتكوَّن من

سلسلة من هذه الطلبات. والصلاة هي أشبَه بإعلان "عدم" الاستقلال عن الله.

من كتاب: الصلاة: هل تُحدث أيَّ اختلاف؟

٢٤ تشرين الثاني/نوڤمبر

عَقدُ الإيمان

لقد لاحظتُ أنَّ الأشخاصَ المنخَرِطين في الخدمة، ربَّما أكثر من غَيرهم من الناس، يعيشون وَفق "عقد إيمان" غير مُعلَن. فهُم يعتقدون أنَّهم ما داموا يكرِّسون الوقت والطاقة لعمل الله؛ فهُم يستحقُّون مُعامَلة خاصَّةً في المُقابل.

تشعرُ زوجتي بالضِّيق عندما تحرَّر بحقِّها مُخالفةُ سَيرٍ وهي تشتري الطعام الذي ستَطبخُه لخدمة المشرَّدين، أو عندما تكون في زيارة لمن لا يَجِدون مَن يسأل عنهم في المستشفيات، ويكون سببُ المخالفة أنَّها تجاوَزَتْ المدَّة التي يُقرِّرها عَدَّاد الانتظار بحسب المَبلَغ الذي أودَعَتْه. وفي الواقع، تكون قد تجاوزَتِ المدَّة لأنَّها شعرَتْ بالحاجة إلى تمضيةِ مَزيدٍ من الوقت في عمل الله. فتكون مُكافأتها: غرامة ورحلة تستغرق نصف يوم إلى محكمة المدينة!

وهناك أيضًا متطوِّعٌ في خدمة الأحياء الفقيرة في شيكاغو، والذي كاد أن يقطعَ يدَهُ وهو يشرحُ لأحد المُتطوِّعين كيفيَّة استخدام المنشار الكهربائيِّ في العمل لبناء بيوت للمُشرَّدين. أمَّا صديقي دوغلاس (Douglas) الذي عاشَ حياةً تُشبه حياةَ أيُّوب بأكثر من طريقة، فقد اختبرَ فشلَ الخدمة، وتُوُفِّيتْ زوجتُه بالسرطان، وتعرَّض لجروح بليغة هو وأحد أطفاله بسبب سائقٍ مخمور. لكنْ يظلُّ دوغلاس ينصح أصدقاءه: "لا تخلطوا ما بين الله والحياة. الحياة ليست عادلة، أمَّا الله فعادل".

عندما تَتنامَى الشكوك، أَلجأ عادةً إلى ذلك الأصحاح الثامن من رسالة رومية، وهو أصحاحٌ عظيمٌ حقًّا. وفيه يتساءَل بولس الرسول: "مَن سيفصلنا عن محبَّة المسيح؟ أَشِدَّة أم ضيق أم اضطهاد أم جوع أم عُري أم خَطَرٌ أم سَيفٌ؟" وفي هذا يُلَخِّص بولس تاريخَه الشخصيَّ في الخدمة. لقد تحمَّلَ كلَّ هذه التجارب من أجل الإنجيل، لكنْ كانت لديه الثِّقة الكافية ليؤمنَ بأنَّ الله يمكن أن يستخدمَ كلَّ هذه "الأمور"- التي هي ليسَتْ جيِّدة في ذاتها- لتحقيق الخير في النهاية.

لقد تعلَّم الرسول بولس أن يَنظُرَ إلى ما وراء المصاعب ليرى إلهًا مُحِبًّا سينتصر في النهاية ويصنع كلَّ شيءٍ حَسَنًا. "فإنِّي مُتيقِّنٌ أنَّه لا موت، ولا حياة، ولا ملائكة ولا رؤساء [شياطين]، ولا قوَّات، ولا عُلو ولا عُمق، ولا خليقة أخرى، تقدر أن تفصلنا عن محبَّة الله التي في المسيح يسوع ربِّنا". يُمكن أن تحملَ ثقَةٌ مثل هذه كلَّ ما يحدث من تعقيدات في الخدمة.

من كتاب: الكنيسة: لماذا نهتمّ؟

٢٥ تشرين الثاني/نوڤمبر

تحريضٌ على العمل

قد تبدو الصلاة في البداية نَوعًا من الانفصال والتوقُّف عن الاشتباك الفاعل مع القضايا، وتمضية وقتٍ للتأمُّل والنظر إلى الأمر من المنظور الإلهيّ. لكنَّ هذا المنظور يدفعنا مرَّةً أُخرى إلى تحقيق مشيئة الله وإتمام عمل الملكوت. إنَّنا عاملون مع الله، لذا فنحن نلجأ إلى الصَّلاة لأنَّها تُعِدَّنا للشَّراكة. كارل بارت الذي عاش في أيَّام أزمةٍ شديدةٍ في ألمانيا في أثناء الحُكم النازيّ، أعلن أنَّ الصلاة هي "العمل الحقيقيُّ والسَّليمُ للمسيحيّة". وقد أبدى بارت الملاحظة التالية قائلًا: "إنَّ أنشطَ العاملين والمفكِّرين والمحارِبين في خدمة الله، كانوا في الوقت نفسه، وعلى نحوٍ واضح، الأنشطَ في الصلاة".

في مدينة لوس أنجلوس الحديثة، في المطبخ الكاثوليكيِّ الذي يقدِّم الطعام إلى المشرَّدين يبدأ يوم العمل بالصلاة: "اجعلنا يا ربُّ مستَحقِّين أن نخدمَ إخوَتَنا وأخواتِنا الذين يعيشون ويموتون في الفقر والجوع. أعطِهم بواسطة أيادينا خُبزَ يَومِهم، وأعطِهم بمحبَّتنا المتفَهِّمة سلامًا وفرحًا".

ويروي أحَدُ المتطوِّعين أنَّ هذه الصلاة الافتتاحيَّة، عادة ما لا تكفي:

"أشعرُ أحيانًا بأنِّي انغمَسْتُ أكثر من اللازم في المسؤوليَّة الهائلة لهذا العَمل، وأشعرُ بأنَّ عليَّ أن أتراجعَ إلى الوراء قليلًا وأعيدَ كلماتِ الصلاة مرَّةً أخرى. عندئذٍ أتذكَّر ما يلي: «أجل، لستُ أنا المسؤول عن العمل، بل هو عمل الله. وبصورةٍ ما سيكفي الطعام، وسيكون هناك ما يكفي من الوقت لإعداده، وسيكون هناك ما يكفي من المتطوِّعين لتقديمه في هذا اليوم»".

وفي أثناء إعداد الطعام، يتطوَّعُ واحدٌ ليذهبَ ويُصلِّي مدَّةَ ساعة. ويُصِرُّ فريق العمل على هذه الممارسة، حتَّى لو كانوا يحتاجون إلى هاتَين اليدَين الإضافيَّتَين لتقطيع الخُضَر أو إعداد القهوة. إنَّهم يريدونه أن يكون عمل الله، وليس عملهم. ويعلَمون أنَّهم إذا تخلَّوا عن وقت الصلاة، سيستجيبون لضغط الثقافة السائدة التي تميل إلى جعلِهم مدمنين على العمل. علاوةً على ذلك، فإنَّ المجتمع كلَّه يجتمع في صبيحة يوم محدَّد من أيَّام الأسبوع مدَّةَ نصف ساعة من الصلاة التأمُّليَّة. أمَّا النُّشَطاء في الخطوط الأماميَّة، فتلعبُ الصلاة دورَ واحةِ الراحة، وكذلك دورَ غرفة الطوارئ في المستشفى.

من كتاب: الصلاة: هل تُحدث أيَّ اختلاف؟

عزفٌ منفرد

يزدادُ العطش للاختلاء عندما يكون المجتمع في حالة من الانهيار. هذا الميلُ مَوجودٌ في كلِّ الأديان. كان الأسينيُّون اليهودُ في القرن الأوَّل يهربون إلى الكهوف في الصحراء. كما أنَّ بوذا انسحب كي يُنقِّي نفسَه من الأوهام الاجتماعيَّة. وكانَ غاندي الهندوسيُّ يتبعُ نظامًا يفرض عليه الصمت التامَّ طَوال أيَّام الاثنين من كلِّ أسبوع، وهي ممارسة لم يكُنْ يقطعها حتَّى عندما يكون لديه اجتماع مع ملك إنجلترا.

يخلعُ الصَّمتُ والاختلاء عنَّا كلَّ الأقنعة وأشكال التخفِّي، ويكسر كلَّ اعتماد غير معلَّل على الأمور المادِّيَّة. يُصِرُّ هنري ديڤيد ثورو (Henry David Thoreau) قائلًا: "لم أجِدْ رفيقًا جديرًا بالرِّفقة أكثر من الاختلاء".

كان توماس ميرتون المدافعَ الأقوى عن حياة الصَّمت والاختلاء في بلادنا. فكان ميرتون يتوق إلى الانضمام إلى هؤلاء "البشر الذين رغم أنَّهم لا يزالون يعيشون على تلك الأرض البائسة الملآنة بالضَّوضاء، فإنَّهم يتذوَّقون الفرحَ العجيبَ الذي في الصمت والاختلاء، فهم الذين يسكنون كهوفَ الجبال في الأديرة البعيدة، حيث لا تستطيع أخبار هذا العالم ورغباته وشهواته وصراعاته أن تَصِلَ إليهم". لكنَّه كان يُصِرُّ أيضًا على أنَّ "التعليلَ الوحيدَ لحياة الاختلاء المقصود تلك، هو الاقتناع أن ذلك سيساعدُك أن تُحبَّ ليس الله فقط، بل الناس أيضًا".

لقد أثبتَ ميرتون أنَّ حياةَ الاختلاء لا تحتاجُ إلى العُزلة والانفصال عن هموم العالم. فلم تعرفْ بلادُنا أكثرَ حِدَّة في مراقبة السياسة والثقافة والدِّين من هذا الراهب (ميرتون) الذي نادرًا ما كان يتكلَّم، أو يغادر أرضَ الدَّير حيث كان يعيش.

ويُدهِشُني أنَّه في مثل تلك الأوقات من الأزمة الأخلاقيَّة التي نعيش فيها، لم تستَجِبِ الكنيسةُ بعدُ في صورةِ حركةٍ جديدةٍ نحو الصَّمت والاختلاء. لقد التقى إيليَّا وموسى ويعقوب الله بمفردهم. والرسولُ بولس ويوحنَّا المعمدان، بل يسوع نفسُه هَرَبَ إلى البرِّيَّة لينالَ غِذاء الروح.

ماذا إذا أخذَ كلُّ مسيحيٍّ ساعتَين كلَّ نهاية أسبوع للتمشِّي وسط الطبيعة، دون كلام؟ ماذا لو فعلْنا مثل غاندي، وبدأنا نمارسُ يومًا للصَّمت؟ لقد اختار هو يوم الاثنين، فماذا لو اتَّفقْنا أن نمارسَ هذا الصمت بعد الكنيسة كلَّ أحَدٍ؟ ولكي نكون أكثر راديكاليَّة، ماذا لو أسكَتْنا صوتَ كلِّ الأحداث الرياضيَّة في التلفاز والمذياع يوم الأحَد؟

يجب أن أتوقّف هُنا؛ فالرُّهبان والمعتزلون يذكِّروننا أنّ هذه الانضباطات الروحيَّة يمكن أن تخرجَ عن السيطرة.

عمود "الصفحة الخلفيَّة"، مجلَّة المسيحيَّة اليوم، ٦ نيسان/ أبريل، ١٩٩٨م

٢٧ تشرين الثاني/نوڤمبر

أمورٌ كَونيَّة

يمثِّل سفر أيُّوب حقيقةً مُذهلةً: أنَّ خيارات الإيمان التي نتَّخذُها تؤثِّر ليس فقط فينا وفي مصيرنا، بل أيضًا في الله نفسه. أليس هذا عجيبًا؟ وَبَّخَ أليفاز أيُّوب قائلًا: "هل ينفع الإنسان الله؟ بل ينفع نفسَهُ الفَطِن. هل من مَسَرَّة للقدير إذا تَبَرَّرت أو من فائدة إذا قَوَّمتَ طرقك؟" (أيُّوب ٢٢: ١-٣). وفي النهاية، ربَّما ظَلَّ أليفاز يجترُّ هذه الكلمات، وهو يقدِّمُ ذبائح بواسطة أيُّوبَ ويطلب الغفران. لقد تَسبَّبَ إيمانُ أيُّوبَ في أن يحصل الله على نصرٍ عظيمٍ على الشيطان، الذي كان يُشَكِّكُ في التجرِبة الإنسانيَّة بجملتها.

إنَّ جزءًا من تاريخ الكون كان على المحكِّ في أيُّوب، ولا يزال ذلك فينا نحن أيضًا، وفي ردود فعلنا الإيمانيَّة. يقدِّم الكتاب المقدَّس فقط إشارات إلى ذلك السرِّ الكامن وراء تلك الحقيقة:

عبارة يقولها يسوع في لوقا ١٠ فيما كان أتباعه يُعلِنون مجيء ملكوت الله: "رأيتُ الشيطان ساقطًا كالبرق من السماء".

هَمسةٌ مُثيرةٌ للاهتمام في رومية ٨ أنَّنا سنكونُ على الأرض فاعلين في خُطَّة افتداء الطبيعة. "لأنَّ انتظار الخليقة يتوقَّع استعلان أبناء الله" (رومية ٨: ١٩)، أو كما تترجمها إحدى الطبعات الإنكليزيَّة: "إنَّ أجمل أحلام الكَونِ هو أن يحصلَ على لَمحَةٍ من أبناء الله وبناته الأحياء الحقيقيِّين".

عبارة في رسالة أفسس: "لكي يُعَرَّفَ الآن عند الرؤساء والسلاطين في السماويَّات بواسطة الكنيسة، بحكمة الله المتنوِّعة" (أفسس ٣: ١٠).

توكيدٌ حاسمٌ من الرسول بطرس أنَّ هناك أمورًا خاصَّة بنا: "تشتهي الملائكة أن تَطَّلِع عليها" (١بطرس ١: ١٢).

وتُكرِّرُ مثل هذه الإشارات الرسالةَ المحورِيَّة لأيُّوب: أنَّ لردود فعلنا أهمِّيَّة. عندما تمسَّك أيُّوب بأرفع خَيطٍ للإيمان في مواجهة التجارب، حقَّق نصرًا كبيرًا لخُطَّة الله الكُبرى لافتداء الأرض. لقد منحَ الله أشخاصًا عاديِّين كرامةَ الاشتراك في افتداء هذا الكون، وهو يسمَحُ لنا بواسطة طاعتنا بأن نقاومَ الألم والظُّلم في عالَمنا، والذي عَبَّر عنه أيُّوب أقوى تعبير. ربَّما نستطيع قَولَ إنَّ الله يوافق على شكاوى أيُّوب من هذا العالم الساقط، وإنَّ خُطَّة الله لاستردادِ هذا العالم تعتمد على إيمان مَن يؤمنون به.

من كتاب: الكتاب المقدَّس الذي قرأه يسوع

٢٨ تشرين الثاني/نوڤمبر

علاجُ الرُّوح

تمنحُني المزامير نموذجًا للعلاج الرُّوحيّ. كتبتُ ذات مرَّةٍ كتابًا يحملُ عنوان "خيبة الأمل بالله".[3] في البداية كان الناشِرُ قَلقًا بشأن العنوان، واقترح بدلًا منه "التغلُّب على خيبة الأمل بالله". بدا الأمر أشبَه بالهرطقة أن يقدِّمَ هذا الناشر كتابًا يحمل مثل ذلك العنوان السلبيِّ إلى المكتبات المسيحيَّة التي تعجُّ رفوفها بالكُتُب عن الحياة المسيحيَّة الرائعة. لكنِّي وجدتُ أنَّ الكتاب المقدَّس يحتوي على قصصٍ مُفَصَّلة عن أشخاص شعروا بخيبة الأمل المؤلمة بالله– وهذه لغة مُخَفَّفة أيضًا.

ليس أيُّوبُ وموسى وحدَهُما اللذَين اصطدما بالله، فهناك أيضًا حبقُّوق وإرميا، وعددٍ من ناظِمي المزامير الذين لا نعرفُ أسماءَهم. بعض المزامير لو حمَلَتْ عناوينَ لكانت: "غاضبٌ من الله" أو "أشعر بالخيانة من الله"، أو "متروك من الله"، أو "يائس من الله".

تأمَّل مثلًا بعض الأعداد من المزمور التاسع والثمانين:

"حتَّى متى يا ربُّ تختبئُ كُلَّ الاختباء؟ حتَّى متى يتَّقِدُ كالنارِ غَضَبُك؟ إلى أيِّ باطلٍ خلقتَ جميعَ بني آدم؟".

أو هذه المشاعر في المزمور الثامن والثمانين:

"لماذا يا ربُّ ترفضُ نفسي؟ لماذا تحجُبُ وجهَكَ عنِّي؟...أبعدتَ عَنِّي مُحِبًّا وصاحِبًا. معارفي في الظُّلمة".

ربَّما يبدو غريبًا أن تتضمَّنَ الكتابات المقدَّسة هذه المشاهد من الفشل الرُّوحيّ، لكنَّ تضمينها يعكسُ في الواقع مبدأً مهمًّا من مبادئ العلاج.

من المتوقَّع مثلًا من المعالج الزواجيِّ أن يُحذِّر عملاءَه الجدد بالقَولِ: "ربَّما تسوء علاقتكما قبل أن تتحسَّن". فالاستياءات التي كانت مدفونةً على مدى سنوات طويلة قد تطفو على السطح. وسيظهرُ سوء الفهم قبل أن يُستبدل به الفهمُ الحقيقيُّ. في الواقع، تُعدُّ المزامير مثل التحليل النفسيِّ، والتي قد تساعدنا على الكَشْف عن عوامل عُصابيَّة فينا.

لم يَعُدِ المزجُ العجيبُ لمزامير الغضب ومزامير التسبيح ومزامير الاعتراف يصيبني بالاضطراب كما كان من قبل. بل على العكس، يدهِشُني باستمرار الاكتمال الروحي الذي يتميَّز به هؤلاءِ الشعراءُ العبرانيُّون الذين كانوا يريدون أن يُشرِكوا الله في كلِّ المشاعر التي يختبرونها في حياتهم اليوميَّة. إنَّنا لا نحتاج لأن

”نرتديَ أفضلَ ملابسنا“، أو ”نضعَ مستحضرات التجميل على وجوهِنا“. ليس هناك حواجزُ بيننا وبين الله، بل يسعُنا أن نثقَ به ونكونَ أُمَناءَ معه حتَّى النِّهاية.

كان الله يمثِّلُ للشُّعراء العبرانيِّين واقعًا أكثرَ صلابةٍ وثباتٍ من مشاعرهم أو تاريخهم المتقلِّب. لقد كانوا يُصارعون معه في كلِّ نواحي حياتهم، وفي النهاية، كان ذلك الصراع هو ما يُثبِتُ صِدْقَ إيمانهم.

من كتاب: الكتاب المقدَّس الذي قرأه يسوع

٢٩ تشرين الثاني/نوڤمبر

مِحوَرُ الأحداث

نختبرُ جميعُنا حياةً داخليَّةً وحياةً خارجيَّةً في الوقت نفسه. إذا حضرتُ معك حَدَثًا ما (وليكُنْ حفلًا مثلًا)، فسأعود إلى منزلي بحقائق "خارجيَّة" بشأن ما حدث، ومَن كانوا هناك، وستكونُ غالبًا مشابهةً جدًّا للحقائق التي ستعود أنت بها. أمَّا آرائي "الداخليَّة" الخاصَّة بذلك الحدث فستكون مختلفةً تمامًا عن آرائك وانطباعاتك الشخصيَّة. سترتبط ذاكرتي بالانطباع الذي تركتُهُ في الحفل. هل كانت ملاحظاتي ذكيَّة؟ هل كان حضوري ساحرًا؟ هل ضايقتُ أَحَدًا أو أحرَجتُ نَفسي؟ هل بَدَوتُ بصورَةٍ حَسَنةٍ أمامَ الآخرين؟ في الغالب ستطرح أنت التساؤلات نفسها، لكن عن ذاتك.

يبدو أنَّ داوُدَ كان يرى الحياة بصورة مختلفة. لقد كانت إنجازاته وفتوحاته المختلفة- مثل قتل حيوانات بريَّة بيدين مجرَّدتَين، أو انتصاره على جُليات، أو نجاحه في الهروب من شاول، أو قضائه على جيوش الفلسطيِّين- قد منحتْه شهرةً ونجوميَّة واسعتَين. لكن عندما كان يتأمَّل في هذه الأحداث ويكتب قصائد عنها، كان يجدُ طريقةً يجعل بها يهوه، إله إسرائيل، مِحوَرَ الأحداث فيها كلِّها. مهما كان معنى عبارة "ممارسة حضور الله" فإنَّ داوُدَ كان يختبرها. سواء كان يعبِّر عن هذا الحضور بقصائد تسبيح بِلُغةٍ فصيحة أم بِلُغة بسيطة معتادة- في كلتا الحالتَين كان يُضَمِّن الله في تفاصيل حياته.

لقد كانت لدى داود ثقةٌ أنَّه مُهمٌّ عند الله. وبعد إحدى المرَّات التي هرب فيها بعد أن كان قريبًا جدًّا من الوقوع في يد أعدائه كتب: "خَلَّصَني لأَنَّهُ سُرَّ بي" (مزمور ١٨: ١٩)، وعندما شَعَرَ بأنَّ الله تخلَّى عنه، أخبر الله بذلك الشعور. فهو أوَّل من قال: "إلهي إلهي لماذا تركتني؟". لقد كان يُسائِلُ الله، مُصرًّا أن يَفِيَ الله بوعوده في العلاقة.

وفي كلِّ حياة أيُّوب، كان يؤمن بصدقٍ بأنَّ العالم الروحيَّ، وإن كان غير منظور له، ليس أقلَّ حقيقةً من العالم "الطبيعيّ" عالم السيوف والرماح والكهوف والعروش. وتُشكِّل مزاميرُهُ سجلًّا لمحاولاته الواعية أن يعيدَ باستمرارٍ توجيهَ حياته اليوميَّة نحو حقيقة العالم الفائق للطبيعة. والآن بعد قرون، يمكننا أن نستخدم هذه الصلوات نفسَها بوصفها خطواتٍ تساعدنا على الإيمان، وطريقًا يقودنا من الوَلَعِ بأنفُسِنا، إلى مُمَارَسَة الحضور الفعليِّ لله.

من كتاب: الكتاب المقدَّس الذي قرأه يسوع

٣٠ تشرين الثاني/نوڤمبر

مدرسةٌ متقدِّمة

إنَّ عمليَّة "إدخال الله" في كلِّ تفاصيل الحياة هي عمليَّة أحتاج إليها. في عالم الثورة الصناعيَّة الحديثة سريعة الإيقاع، نميل إلى تقسيم حياتنا أقسامًا لا علاقة لبعضها ببعض. ونملأ يومنا بأنشطة متعدِّدة كإصلاح السيَّارة وتمضية الإجازة والذهاب إلى العمل، والاهتمام بالمنزل وباحتياجات الأولاد، ثمَّ نحاول أن نقتطعَ أوقاتًا للأنشطة "الروحيَّة" مثل الكنيسة والمجموعات الصغيرة والخلوة الشخصيَّة. لكنِّي لا أرى أيًّا من هذه التقسيمات في ثقافة المزامير.

بصورةٍ ما، فإنَّ داوُدَ والشعراء الآخرين الذين نظَموا المزامير يجعلون من الله النقطةَ المرجعيَّة لكلِّ ما في حياتهم، ممَّا يجعل كلَّ شيء ذا علاقة بالله. العبادة عندهم هي النشاط المحوريُّ في الحياة، وليست أمرًا يفعلونه وينتهون منه ليفعلوا أمرًا آخرَ بعدَه.

إنِّي أتعلَّم هذه العمليَّة اليوميَّة من إعادة التوجيه، والمزاميرُ تُشَكِّلُ لي خطوةً مهمَّةً في عمليَّة جعل الله محور حياتي اليوميَّة. إنِّي أحاول أن أجعلَ من الصلوات التي رفعَها الشُّعراءُ العبرانيُّون صلواتي أنا بصورةٍ صادقةٍ وأصيلة. لقد فَعَلَ ذلكَ كتبةُ العَهد الجديد، عندما اقتبسوا المزامير أكثر من أيِّ سفرٍ آخر. ابن الله نفسُه، عندما كان على الأرض فعلَ الأمرَ نفسه، معتمدًا على هذه المزامير لتكون لغةَ الحوار ما بين الإنسان والله.

أنا واثقٌ بأنَّ جَعْلَ المزاميرِ صلواتي الشخصيَّة هو أمرٌ يتطلَّب التزامًا حياتيًّا. وأنا أستشعرُ في هذه المزامير إحساسًا بالإلحاح، ورغبةً وجوعًا وعطشًا إلى الله من شأنها أن تجعلني أشعرُ بفقر جوعي إلى الله وضعف عَطشي إليه. لقد كان ناظِمُ المزامير يلهثُ خلف الله كما تلهث الأيائلُ المُرهَقَة العَطْشى التي تتدلَّى ألسنتها باحثة عن جداول المياه. لقد كانوا يستَلقون مُستيقظين طَوال الليل يحلمون "بجمال الرَّبّ"، وكانوا يفضِّلون أن يُمضوا يومًا واحدًا في ديار الربِّ، ويحسبونه خَيرًا من ألف يوم في مكانٍ آخر. لقد كانوا تلاميذَ في مدرسة الإيمان المتقدِّمة، ممَّا يجعلني أشعر بأنِّي في الحضانة لدى مقارنة نفسي بهم. لذلك أقرأ المزامير على رجاءِ أن أُصابَ بالعَدوى.

من كتاب: الكتاب المقدَّس الذي قرأه يسوع

1) فيلسوفٌ وعالِمُ أخلاقٍ اسكتلنديٌّ له كتابُ "بَعدَ الفضيلة"، أحَدُ أهمِّ الكُتُب المعاصرة التي تتناول الأخلاقَ في الحضارة الغربيَّة (المترجم).

2) اختصارٌ للاسم الكامل "Klan Klux Ku"، وهي جماعةٌ عنصريَّةٌ تأسَّستْ في أميركا عام ١٨٦٥م، من أهمِّ مبادئها الإيمانُ بتفوُّق العِرق الأبيض. كان لها دورٌ بارزٌ في محاربة حركة الحقوق المدنيَّة التي طالبَتْ في منتصف القرن العشرين بحقوق الملوَّنين في أميركا (الناشر).

3) تُرجِمَ هذا الكتاب إلى العربيَّة بعنوان "عندما لا تمطر السماء"، من منشورات أوفير للطباعة والنشر (الناشر).

كانون الأوَّل/ديسمبر

١. حجر رشيد
٢. العدسة المُكبِّرة للإيمان
٣. اقتراب الله
٤. يسوع البروزاك
٥. الرؤية الجديدة
٦. وجبات فخمة لمصلحة الفقراء
٧. نوال حياة
٨. أصعب مهنة في العالم
٩. مُرشد الظِّلِّ
١٠. لاهوت من نكات قذرة
١١. مشكلة اللذَّة
١٢. لحظات الطَفو
١٣. رؤية المسيَّا
١٤. غير المرغوب فيهم
١٥. خسارة الحروب الثقافيَّة
١٦. بلا طُرُق مُختصرة
١٧. الإرشاد الليليُّ
١٨. نظرة إلى الخلف
١٩. الحضور
٢٠. الصلاة بالطريقة السليمة
٢١. يسوع ونورمان العاصف
٢٢. التطويبات المعكوسة
٢٣. مكافآت مستقبليَّة
٢٤. إله عادل في النهاية
٢٥. مراهنة الله
٢٦. كنيسة منتصف الليل
٢٧. مُعلِّمون مدمنو خمر
٢٨. الاهتمام بالنَّكِرات
٢٩. التواضع الحقيقيُّ
٣٠. أيادٍ لا يمكن إسكاتُها
٣١. صلاحٌ يُذهِب العقل

١ كانون الأوَّل/ديسمبر

تخيَّلْ لو لَم توجَدْ سماءٌ

يُقَرِّر العُلماء المتخصِّصون في دراسة الإنسان أنَّ كلَّ المجتمعات الإنسانيَّة التي جرى اكتشافُها، تؤمنُ بحياةٍ بعد الموت. عندما تعرَّفتُ هذه الحقيقة، بدأتُ أتساءَل عن شكل المجتمع الذي لا يؤمن بحياةٍ بعدَ الموت. وعندما أطلقتُ العِنان لخيالي، وَصَلتُ إلى بعض الاستنتاجات، ومن أجل الحصول على عنوان مُناسِب، سأطلقُ على مجتمَعِيَ الأسطوريِّ اسمًا هو مقلوب كلمةِ أميركا، أي أكريما.

يُقدِّر الأكريميُّون قيمةَ الشباب فوقَ كلِّ شيءٍ آخر؛ لأنَّهم لا يؤمنون بوجودِ حياةٍ ما بعدَ انتهاء الحياة على الأرض، والشباب هو الذي يُمثِّل الرَّجاءَ والأمل. ونتيجةً لذلك، فإنَّ أيَّ شيء يَعِدُ بالحفاظِ على وَهم الشباب المُتجدِّد، يزدهر وينجح ما بين الأكريميِّين. الرياضةُ نوعٌ من الهَوَس القوميّ، فتُقدِّمُ أغلفةُ المجلَّات صورًا لوجوه دون أيِّ تجاعيد، وأجسادٍ منحوتةٍ رائعةِ الجمال.

لا يحترم الأكريميُّون التقدُّم في السِّنّ؛ فالمتقدِّمون في السِّنِّ هم تذكيرٌ مُزعجٌ بحقيقة نهاية الحياة. كما أنَّ صناعةَ الصحَّة في أكريما تروِّج دائمًا أمورًا مثل شفاء الصَّلَع، وكريمات الجلد المانعة للتجاعيد، وجراحات التجميل، وغيرها من الوسائل المعقَّدة لإخفاء آثار تقدُّم السنِّ أو الشيخوخة، وهي المُقدِّمة إلى الموت. في المناطق الأكريميَّة الأكثر تَبَلُّدًا في المشاعر، يضعُ المواطنون المُسنِّين في بيوت خاصَّة، معزولةٍ عن باقي الناس.

تشدِّدُ أكريما على "المَظهر" أكثر من "الجوهر". فالأنشطة مثل الحِميَة الغذائيَّة والتدريبات الرياضيَّة، وبناء الأجسام، مثلًا، نالَتْ مكانة تُقارِبُ طُقوس العبادات الوثنيَّة.

يعلنُ الجسدُ المبنيُّ جيِّدًا عن الإنجاز والنجاح في هذا العالم، في حين تجلبُ السِّمات الداخليَّة النبيلة، مثل الرحمة والتضحية والتواضع- القليل من المديح. ومن النتائج السلبيَّة الجانبيَّة، فإنَّ الأشخاصَ الذين يعانونَ تشوُّهات في الجسد أو إعاقات، يعانون أيضًا صعوبةً كبيرةً في المُنافسة في أكريما.

أمَّا الدِّين الأكريميُّ فيُركِّز بصورةٍ شبه حصريَّة على الكيفيَّة التي يعيش بها الإنسان هُنا والآن، حيث لا يوجد نظامٌ للمُجازاة بعد الموت. أمَّا الأكريميُّون الذين ما زالوا يؤمنون بإله، فهُم يبحثون عن علامات رضاه في صورة الصحَّة الجيِّدة والازدهار هُنا على الأرض. في وقت من الأوقات، اتَّبَع الكَهَنة الأكريميُّون ما أسموه "التبشير"، لكنَّهم الآن يُكرِّسون أغلب طاقتهم في رفع مستوى معيشة مواطنيهم.

يُنفقُ الأكريميُّون بلايين من عُملَتِهم كي يُحافظوا على الأجساد المُسِنَّة على قيد الحياة بفضل أجهزة حديثة، في حين يَسمحون بإجهاض الأجِنَّة بل يُشَجِّعون عليه. وليس هذا أمرًا مُتناقِضًا كما يبدو؛ لأنَّ الأكريميُّون يؤمنون بأنَّ حياةَ الإنسان تبدأ عند الولادة وتنتهي عند الموت.

إنّ مجرَّدَ التفكير في مجتمع كهذا يُخيفني. وأنا سعيدٌ بالتأكيد لأنِّي ما زلتُ أعيش في أميركا المعتادة، حيث تؤمن الغالبيَّة الساحقة بحياةٍ بعد الموت كما تؤكِّد استطلاعات الرأي من جورج غالوپ (George Gallup).

من كتاب: كُنتُ أتساءَل فقط

٢ كانون الأوَّل/ديسمبر

يأسٌ وجوديٌّ قديمٌ جدًّا

أوَّلَ مرَّةٍ رأيتُ هذه الجملة، كانت على الغلاف الأحمر الزاهي لكتاب أحضره أخي إلى البيت من كلِّيَّته بعنوان: "الوجوديَّة اليوم". ورغم أنِّي لم أعلم ما عَنَتْه كلمة وجوديَّة، فقد فتحَ هذا الكتاب لي الطريقَ نحو عالمٍ غامضٍ من الفلسفة الطليعيَّة. لقد كَبِرتُ في بيئةٍ أصوليَّةٍ مغلقةٍ بإحكام، مَحميَّة من التَّعرُّض لمثل هذه الملَوِّثات الخطيرة. لقد كانت ثقافة الضَّفَّة الجنوبيَّة لنهر السين (بيئة الفنَّانين والمثقَّفين في باريس) غريبةً عليَّ بقدرِ غرابة ثقافة واغادوغو عاصمة بوركينافاسو. لكنِّي قرأتُ ذلك الكتابَ ذا الغلاف الأحمر لَمَّا كنتُ مراهقًا يعيش في ستِّينيَّات القرن العشرين، ورُحتُ أقرأ عَيِّنات من روايات كامو (Camus) وسارتر (Sartre)، وكأنَّ شيئًا استيقظَ فيَّ للحياة.

المشاعر المتبلِّدة، واللامبالاة بالآخرين، والإحساس بالسَّير مع التيَّار، وعدم الشعور بالألم، والقبول المُستسلم لعالم أصابَهُ الجنون- كلُّ هذه الصفات تَسَرَّبَت بواسطة ذلك الدِّرع المُحكم الذي تمثِّله الأصوليَّة المسيحيَّة التي نشأت في ظلالها. إنَّ هذا أنا! لقد شعرتُ بهذا الشعور وأنا أقرأ كلَّ كتابٍ من كُتُب الوجوديَّة؛ فأنا ابنٌ لعصري قبل كلِّ شيء.

والآن عندما أتذكَّر هذه الأيَّام، أستطيع أن أرى أنِّي استطعتُ أن أتوحَّدُ مع اليأس الوجوديّ. لماذا أعيش؟ ما معنى هذا السيرك الذي نعيش فيه؟ هل يمكن أن يُحدِثَ إنسانٌ فرقًا وسط مليارات البشر على وجه هذا الكوكب؟ كانت هذه الأسئلة تضربُ عقلي كما تضربُ مَوجاتُ المحيط الصخور على الشاطئ بينما كنتُ أقرأ كتبَ هؤلاء الروائيِّين الفرنسيِّين، ومن بعدِهم روايات هَمينغواي (Hemingway) وتيرجينيڤ (Turgenev). لقد غَمَرَت عقلي كلُّ الأسئلة القويَّة التي تميَّزت بها حِقبة ستِّينيَّات القرن العشرين. وقدَّمَتِ الوجوديَّة شكلًا من أشكال الإجابة عن الأسئلة بأنَّها أَصَرَّت أنْ ليس لديها إجابة. ووجدتُ أنَّ الكتابات الأحدث- جون أبدايك (John Updike) وكيرت ڤونيغَت الابن (Kurt Vonnegut Jr.) وجون إيرڤنغ (John Irving) وجيرزي كوسنسكي (Jerzy Kosinski) وواكر پيرسي (Walker Percy) كُلُّهُم كانوا يقدِّمون نكهةَ العبث ذاتَها، وهي نكهة مُقبضة مثل رائحة دخان السيجار القديم.

ويذكر كارل يونغ (Carl Jung) أنَّ ثُلُثَ الحالات التي كان يُعالجُها لم تكن تعاني سوى "فراغِ الحياة وفُقدانِ المعنى". كما أنَّه كان يحسبُ أنَّ فقدان المعنى هو العُصابُ العامُّ الذي تعانيه البشريَّة في هذا الزمن، حيث يُعذِّب الناس أنفسهم بأسئلة لا يستطيع الدِّين ولا الفلسفة الإجابةَ عنها.

وبعد مرور بضعة سنوات من احتكاكي بالوجوديَّة في أثناء مراهقتي؛ وبعد أن بدأ الله يشفي مشاعر

الخواء واليأس التي كانت عندي، اكتشفتُ اكتشافًا صدمني صدمةً غريبة: أنّ شعور اليأس والخواء نفسه موجود، دونًا عن كلِّ الأماكن الأخرى، في قلب الكتاب المقدَّس، ولا سيَّما في سفر الجامعة، وهو السفر الغامض، الذي كثيرًا ما نتجاهله. ويحتوي هذا السِّفر على كلِّ الأفكار والمشاعر التي صادفتُها في كتابات هؤلاء الذين كانوا يكتبون عن اليأس الوجوديّ.

(يتبع في التأمُّل التالي)

من كتاب: الكتاب المقدَّس الذي قرأه يسوع

٣ كانون الأوَّل/ديسمبر

الوجوديُّون الأوائل

(يتبع من التأمُّل السابق)

أتساءلُ إنْ كان الوجوديُّون المُعاصِرون يقَدِّرون السُّخرية اللذيذة التي يُمثِّلها سفر الجامعة في الأصحاح الأوَّل والأعداد التاسع والعاشر عندما يقول: "فليس تحتَ الشَّمسِ جديدٌ. إنْ وُجِدَ شَيءٌ يُقالُ عنهُ: «انظُرْ. هذا جديدٌ!» فهو منذُ زَمانٍ كانَ في الدُّهورِ التي كانتْ قَبلَنا". لقد أدركت أنَّ ما كان يبدو كأنَّه صَرخةٌ لتحطيم التابوهات في ستِّينيَّات القرن العشرين، ما كان سوى تحقيقٍ للنبوَّات القديمة للجامعة المعلِّم الذي توقَّع منذ ثلاثة آلاف سنة المدى الكاملَ للخبرة الإنسانيَّة. وبصورةٍ مُذهلة، وضعَ مشاعره وأفكاره هذه في سفر صار أحد أسفار الكتاب المقدَّس. لقد كان سفر الجامعة بصدق، سفر الأزمنة كلِّها، ممَّا جعلني أبدأ بحثي لأفهم ذلك السفر الذي سبقَ عصره.

وما إنْ تخلَّصتُ من انبهاري الشديد برسالة الجامعة، حتَّى بدأتْ بعضُ الأسئلة المُلحَّة تظهَرُ. وقد صَدَمني السؤال الأوَّل على نحوٍ مباشر عندما قرَّرتُ أن أقرأ العهد القديم كلَّه مرَّةً واحدة. كيف تعايش سفر الجامعة مع أقرب جيرانه، وأعني بذلك سفر الأمثال؟ لا يُمكن تَخَيُّل سفرَين مختلفَين إلى هذا الحدِّ من الاختلاف. إذا قرأتَ هذين السِّفرين بصورة متتالية، فسوف تتساءَل ما إذا كان سفر الجامعة قد كُتِبَ ليكونَ ردًّا ساخرٍ على سفر الأمثال.

عرفَ سفرُ الأمثال الحياة وكيف تُعاش؛ فهو يطلبُ تعلُّمَ الحكمة، وممارسةَ الانضباط، واتِّباعَ القوانين، كي يعيش المرءُ حياةً طويلةً مزدهرة. أمَّا في سفر الجامعة، فتجدُ اختفاء النَّغمة التقريريَّة الواثقة التي تقول شيئًا يُشبه التالي: لقد عرفتَ كلَّ ما يجب معرفته في الحياة، وكلُّ ما عليك أن تتَّبع حكمة هذا الحكيم- ليحلَّ محلَّها اليأسُ والسُّخرية. فالنُّبلاءُ الكِرامُ ذوو الأخلاق العالية يُعانون أيضًا ويموتون مثل باقي الناس. الأشرار ينجحون ويسمنون، مهما أخبرتنا حكمة الأمثال بعكس ذلك.

"يوجَدُ باطِلٌ يُجرَى علَى الأرضِ: أنْ يوجَدَ صِدِّيقونَ يُصيبُهُمْ مِثلَ عَمَلِ الأشرارِ، ويوجَدُ أشرارٌ يُصيبُهُمْ مِثلَ عَمَلِ الصِّدِّيقينَ. فقُلتُ: إنَّ هذا أيضًا باطِلٌ" (الجامعة ٨: ١٤).

في السابق، كان يُحبِطُني هذا التفاوُت ما بين سفرَين متجاورَين من أسفار العهد القديم. ألا ينبغي أن يكونَ هناك اتِّساقٌ في الكتاب المقدَّس أكثر من ذلك؟ وبمرور الوقت بدأت، على العكس، أُقدِّرُ حقيقةَ أنَّ التنوُّعَ من مظاهر قوَّة العهد القديم. مثل سيمفونية طويلة تحتوي على ألحان ذات أمزجة متباينة، من البهيج إلى الكئيب، وكُلُّها تُشارك في إحداث التأثير الكلِّيِّ الذي يُقدِّمه الكتاب المقَّدس، والذي يعكسُ ما نختبره

جميعًا، فأحيانًا نختبر تجارب أيُّوب، وأحيانًا سكينة المزمور الثالث والعشرين، بينما نحن نستمرُّ في العيش في عالم أحيانًا ما يسير بحسب حكمة الأمثال، وأحيانًا أخرى يكشفُ تناقضاتٍ صارخةً كتلك التي يكشفها بأمانة سفر الجامعة.

من كتاب: الكتاب المقدَّس الذي قرأه يسوع

الأبديَّة في القلب

صادَفتُ ذاتَ مرَّةٍ مشهدًا جميلًا على بُعد أميال عدَّة خارج أنكوراج في ولاية ألاسكا (Anchorage, Alaska) حيث لاحظتُ أنَّ عددًا من السيَّارات توقفت على جانب الطريق السريع لمشاهدة مجموعةٍ صغيرةٍ من الحيتان البيضاء الفضِّيَّة كانت تتغذَّى على بُعد نحو خمسةٍ وعِشرين مترًا من الشاطئ. وقفتُ أربعينَ دقيقة مع مَن كانوا يشاهدون أستمع بحركة البحر الرتيبة، وأتابع أطيافَ الحيتان التي تطفو إلى السَّطح في رُسومٍ هِلاليَّة جميلة. كان الجَمعُ الواقِف صامتًا في ما يُشبه الرَّهبة الدينيَّة.

لو كان الجامعة المعلِّم حاضرًا في مشهدٍ كهذا، لفَهِمَ جَيِّدًا ردَّ فعل الجمهور الواقف لمتابعة هذه الحيتان؛ لأنَّه يُصِرُّ دائمًا أنَّنا لسْنا مجرَّدَ حَيَواناتٍ أخرى، وإنْ لم نَكُنْ آلهة. لقد "وضع الله الأبديَّة في قلوب البشر". وتنطبقُ مثل هذه الجملة الأنيقة على الكثير من أشكال الخبرة الإنسانيَّة. إنَّها بالتأكيد تشير إلى الغريزة الدينيَّة عند البشر– غريزةٍ تجدُ لنفسها تعبيراتٍ متعدِّدةً في كلِّ الثقافات والمجتمعات البشريَّة ممَّا يُحيِّر الباحثين في السلوك الإنسانيّ، لكنَّ قلوبنا تستقبل الأبديَّة بوسائلَ أُخرى أيضًا بخِلافِ الأساليبِ الدينيَّة. ليس الجامعة عَدَمِيًّا؛ فهو يرى بوضوحٍ باهرٍ الجمالَ الكامن في الخليقة.

يظلُّ سفر الجامعة عملًا أدبيًّا عظيمًا وسفرًا يحتوي على حقائقَ فلسفيَّةٍ عميقةٍ؛ لأنَّه يقدِّمُ جانبَي الحياة على هذا الكوكب: الوعد بالملذَّات المغرية التي تكاد تجعلُنا نُكرِّس أنفسنا للسَّعي وراءها، ثمَّ يقدِّم أيضًا الإدراك الحزين أنَّ كلَّ هذه الملذَّات لا تُشبعُ في النهاية القلبَ البشريَّ تمامًا. إنَّ عالم الله المحيِّر هذا كبيرٌ جدًّا علينا؛ لأنَّنا مخلوقون لبيتٍ آخر، هو الأبديَّة، فنحن نجد أنْ لا شيءَ على هذا الجانب من الفِرْدَوسِ الخارج عن الزمن، يُمكِنُهُ أن يُسكِتَ شعورَنا بعدم الرِّضى.

يكتب الجامعة: "...وأيضًا جَعَلَ الأبديَّةَ في قَلبِهِم، التي بلاها لا يُدرِكُ الإنسانُ العَمَلَ الذي يَعمَلُهُ الله مِنَ البِدايَةِ إِلَى النِّهايَة". هذه هي النقطةُ المحوريَّةُ في سفر الجامعة. الدرس نفسُه الذي تعلَّمه أيُّوب بينما كان جالسًا في التُّراب والرماد، تعلَّمه أيضًا الجامعةُ وهو يرتدي الثياب الفاخرة في القصور: أنَّنا، نحن البشرَ، لا نستطيع أن نكتشفَ سرَّ الحياة بأنفسنا.

فدونَ إدراك محدوديَّتنا، ودون إخضاع أنفسِنا لسُلطان الله، ودون أن نثق بأنَّ الله هو معطي كلِّ عطيَّةٍ صالحة، سينتهي بنا الأمر في حالة من اليأس والقنوط. وهكذا يدعونا سفر الجامعة لأنْ نقبلَ حالتَنا بوصفنا مخلوقاتٍ تحت سُلطان الخالق، وهذا أمر يفعلُه قليلون منَّا دون صراع.

من كتاب: الكتاب الذي قرأه يسوع

٥ كانون الأوَّل/ديسمبر

حربٌ غير تقليديَّة

تُسجِّل أسفار الملوك الأوَّل والثاني ويونان وعاموس وهوشع الجزءَ الأكبرَ من التاريخ المتأخِّر للقرنَين الأوَّلَين من حياة الأُمَّةِ العبرانيَّة المُنقسمة. بدأت المملكةُ الشماليَّة مسيرة الابتعاد عن الله مُنذ الأيَّام الأولى لنشأتها. لكنَّ الكتاب المقدَّس يُكرِّس مساحة أكبر كثيرًا لملوك المملكة الجنوبيَّة وأنبيائها. فمن بين الملوك العِشرين الذي حكموا المملكةَ الجنوبيَّة، وهم تسعةَ عشر رجلًا وامرأةً واحدة، كانَتْ هناك حفنةٌ منهم بدَتْ عليهم سِماتِ القيادة الروحيَّة غير الموجودة في المملكة الشمالية. وأثبتَتْ مملكة يهوذا الجنوبيَّة أنَّها أكثر أمانة في الحياة بما يتَّفق مع العهد الإلهيِّ، لهذا عاشت قرنًا ونصفِ القرن أكثرَ من المملكة الشماليَّة.

يُخبرنا الأصحاح العشرون من سفر أخبار الأيَّام الثاني عن ملك مُميَّز اسمه يهوشافاط، وهو أحَدُ ملوك يهوذا الأوائل. لم ينعَمْ أيٌّ من حُكَّام يهوذا بالسلام الذي كانَ إبَّانَ حُكمه، لذا فأغلبُ الأحداث التي تقع في أخبار الأيَّام الثاني، تَحدُثُ عَلى أرض المعركة. وباختصار فإنَّ فلسفةَ الحرب السائدة في هذا السِّفر هي التالية: إذا وثِقْتَ بقوَّتك العسكريَّة أو في قوَّة حلفائك، فستَخسرُ الحرب. عليك على العكس أن تتَّضِعَ وتعتمد على الله تمامًا- مهما كانت الأوضاع ضدَّك.

وكما يتَّضح بانتظام في حياة ملوك يهوذا، فإنَّ الاعتماد على الله فقط وقتَ الأزمات، كان يتطلَّبُ شجاعةً مُنقطعةَ النَّظير. حتَّى أفضلهم كان ينهَلُ من الكنوز الملكيَّة كي يشتري المساعدة من الحلفاء المجاورين. على العكس من ذلك، كان الملك يهوشافاط يُمثِّل حالة نموذجيَّة من ردِّ الفعل السليم روحيًّا. عندما تهدَّدَتهُ الجيوش الغازية، دعا الأمَّةَ كلَّها معًا في اجتماعِ صلاةٍ ضَخْمٍ. وفي يوم الحرب، أرسَلَ المرنِّمون في مُقدِّمَة جيشه ليسبِّحوا الرَّبَّ.

كانت مخطَّطات يهوشافاط تبدو مُناسبة لخدمة كنسيَّة منه إلى معركةٍ حربيَّة، لكنَّها نجحت في تحقيق المراد؛ إذِ انقلبَتْ قوَّاتُ الأعداء بعضها على بعض، وسار جيش يهوشافاط عائدًا إلى بلاده مُنتَصِرًا. هذه اللحظة المُشرقة من الإيمان القوميِّ تبدو ساطعةً وسطَ سجلٍّ تاريخيٍّ مُشوَّه. وبواسطة الصلوات العَلَنيَّة للملك يهوشافاط وحياته الخاصَّة، قدَّم مثالًا لما يُمكن أن يحدُثَ عندما يثِقُ قائدٌ ثقةً تامَّةً بالله.

من كتاب: التَقِ الكتاب المقدَّس

المُطالبة بإجابات

إنَّ لدى كلِّ إنسان شعورًا داخليًّا فطريًّا بالعدالة. فإذا دَهَسَ سائقٌ مُستهتر طفلًا وتابعَ طريقه غير مُبالٍ، فسوف يلاحِقُه السائقونَ الآخرون ولسان حالهم يقول: لا يُمكن أن يفلِتَ بفعلته. ربَّما نختلف حول القواعد الخاصَّة بالعدالة، لكنَّنا في النهاية نتبعُ قانونًا داخليًّا موحَّدًا.

وبصراحة، فإنَّ الحياة تبدو في أغلب الأحيان مُجحِفةً. ما "ذَنْب" طفل يولَد ويعيش في الأحياء الفقيرة في كلكتا الهنديَّة أو ريو دي جانيرو البرازيليَّة أو شمال برونكس في نيويورك الأميركيَّة؟ لماذا يُترَكُ أشخاصٌ مثل أدولف هتلر، أو جوزيف ستالين، ليتسلَّطوا على ملايين البشر؟ لماذا يموتُ أشخاصٌ صالحون لُطَفاء في ريعان شبابهم، في حين يعيش غَيرُهم من الأشرار حتَّى أرذَلِ العُمر؟

كلُّنا نطرح أسئلةً كهذه بصور مختلفة. وفي العهد القديم، نجدُ نبيًّا مثل حبَقُّوق يطرحُ على الله مُباشَرَةً هذه الأسئلة، وقد نالَ إجابةً لا تخضع لأيَّة قواعدَ. يستعمل حبقُّوق لغةً صريحةً، ولا يُجمِّل الكلام؛ فهو يُطالب بتفسير. لماذا لا يتجاوب الله مع الظُّلم والعُنف والشرِّ الذي يراه النبيُّ من حوله؟ وقد أجابَ الربُّ بالإجابة ذاتها التي أعطاها لأنبياء آخرين: أنَّ البابليِّين سيُعاقبون يهوذا سريعًا. لكنَّ مثل هذه الكلمات لا تُطمئن حبقُّوق؛ لأنَّ البابليِّين قُساةٌ همَجيُّون. هل يُمكن أن تكونَ تلك عدالة أن تُعاقَبَ أُمَّةٌ شرِّيرةٌ على يد أُمَّةٍ أشرَّ؟

لا تقدِّمُ نبوَّة حبقُّوق حلًّا لمشكلة الشرِّ. لكنَّ حوار حبقُّوق مع الربِّ يُقنعه بحقيقة واحدة مؤكَّدة: أنَّ الله لم يفقِدِ السيطرة. لا يمكن أن يتركَ إلهُ العدالة الشرَّ ينتصرُ في النهاية. أوَّلًا، سيتعامل الله مع البابليِّين بحسب أسلوبهم، ثمَّ سيتدخَّلُ بقوَّةٍ عظيمةٍ ليُزلزِلَ أساساتِ الأرض لئلَّا تَبقى أيَّة صورةٍ من صور الظُّلم.

"لأنَّ الأرض تمتلئ من معرفة مجد الربِّ كما تغطِّي المياه البحر" (حبقُّوق ٢: ١٤). واستطاعَتْ لمحةٌ من هذا المجد العظيم أن تغيِّر توجُّه النبيِّ من الغضب إلى الفرح. وفي إطار هذا "الجدل" مع الله، يتعلَّم حبقُّوقُ دروسَ إيمانٍ جديدةً، يُعبِّرُ عنها بجَمالٍ في الأصحاح الأخير. لقد أرضَتْ إجابات الله حبقُّوق حتَّى إنَّ السِّفر الذي يبدأ بالشكوى، ينتهي بأجمل الأغنيات في الكتاب المقدَّس.

من كتاب: التَقِ الكتاب المقدَّس

٧ كانون الأوّل/ديسمبر

الآن ولاحقًا

من أكثر السِّمات المُحيِّرة في الأنبياء هي أنَّهم لا يهتمُّون بأن يخبرونا ما إذا كانت الأحداث التي يتنبَّأون بها- من غزواتٍ أو زلازلَ أو مجيء قائدٍ جديد أو إعادة خلق الأرض والسماء- ستحدثُ غدًا أو بعد ألف سنةٍ، أو حتَّى بعدَ ثلاثة آلاف سنة. وهم في واقع الأمر يَضَعون النبوَّاتِ قريبةَ التحقُّقِ مع تلك التي ستتحقَّق بعد آلاف السنين، معًا في الفقرة نفسها، وبصورةٍ ضبابيَّة. (رُبَّما لم يعرف الأنبياء مفهوم التسلسل الزمنيّ. وفي سِياقٍ مشابِه، اعترفَ يسوعُ الإنسانُ بعدم عِلْمِه بالجدول الزمنيِّ الذي وضعَه الله).

ولتعقيد الأمور أكثر، أحيانًا ما يَصِفُ الأنبياءُ حدثًا من شأنه أن يتحقَّق مرَّتَين، مرَّة في المستقبل القريب، وأخرى في المستقبل البعيد. نبوَّة إشَعياء المشهورة: "ها العذراء تحبل وتلدُ ابنًا، وتدعو اسمه عِمَّانوئيل" (إشعياء ٧: ١٤) تتبعُ هذه الفئة؛ فالعددان التاليان يشيران إلى أنَّ النبوَّة تحقَّقتْ في زمن إشعياء نفسه (كثير من الدارسين يفترضون أنَّ هذا الطفل هو ابن إشعياء)، لكنَّ متَّى البشير يربط ما بين التحقيق النهائيِّ لهذه النبوَّة، وميلادِ يسوع العذراويِّ من المطوَّبة مَريَم العذراء.

ولدى دارسي الكتاب المقدَّس أسماءُ لهذه السِّمَة للأنبياء: وهي التحقُّق المزدَوَجُ أو التحقُّق الثلاثيُّ، أو جزء من كلٍّ، أو الرَّبط الثنائي الخلَّاق. غير أنَّ مثلَ هذه الأسلوب المعقَّد يُثير المزيدَ من التساؤلات. كيف لنا أن نعرف ما إذا كان النبيُّ يَصِفُ أمرًا في أيَّامه أم أمرًا لن يتحقَّق إلَّا في المستقبل القريب، أو البعيد، أو البعيد جدًّا؟ أم ربَّما يَصِفُ مزيجًا من هذه الأمور؟

أعتقد أنَّ هذا الأسلوبَ النبويَّ، المُحيِّر، يقدِّم إلينا لمحةً عن الطريقة التي ينظر الله بها إلى التاريخ. فالنبيُّ بوصفه "رائيًا"، لديه تَبَصُّرٌ بالمنظور الإلهيّ، والله كائن خارج الزمن ولا يتقيَّد بحدوده. ويقول الرسول بطرس إنَّ الحَمَل "معروفٌ سابقًا قبل تأسيس العالم، ولكنْ قد أُظهر في الأزمنة الأخيرة من أجلكم" (١بطرس ١: ٢٠). ويضيف بولس الرسول أنَّ الله اختار تابعيه "قبل تأسيس العالم" (أفسس ١: ٤) وبالمثل، فإنَّ رجاءَنا في الحياة الأبديَّة هو وَعْدٌ "قبل الأزمنة الأزليَّة" (تيطس ١: ٢).

وقبل وقتٍ طويل من النظريَّة النسبيَّة لآينشتاين، أسَّس كُتَّاب العهد الجديد بعض الحقائق، حاسبين إيَّاها أزليَّة حرفيًّا.

من كتاب: الكتاب الذي قرأه يسوع

٨ كانون الأوَّل/ديسمبر

الحاضرُ النبويّ

هناك معضلةٌ أنَّ النبوَّةَ تعملُ بأفضل صورةٍ بالمعكوس. يمكن أن ينظرَ أحد كَتَبَة العهد الجديد إلى الخلف ليوضِحَ كيف سدَّدَ يسوع متطلّبات العهد اليهوديِّ، وتحققَّت فيه نبوَّاتُ أنبياء العهد القديم، رُغم أنَّ أغلب الناس في زمانه لم يستطيعوا الوصول إلى هذا الرَّبط. كان معاصرو يسوع يبحثون عن ملكٍ مثل داوُدَ يحكمُ أورشليم، لكنَّ الله أرسل إليهم بدلَ ذلك ملكًا خادمًا يحكمُ ليس فقط الأمَّة العبرانيَّة، بل العالم كلَّه أيضًا.

وللسَّبب ذاته، يجب أن نتعامَلَ مع سفرٍ مثل الرؤيا بتواضع حَذِر. كتبَ يوحنًّا بأسلوبٍ ينطبق على عصره (فُرسان يركبون أحصنة، بابل الزانية، شوارع من ذَهب) لكنْ لا يعلم أحد على وجه اليقين الكيفيَّة التي ستتحقَّقُ بها هذه النبوَّات. لكنْ يمكننا أن نفترض أنَّ الله سيُحقِّقها بطريقة تفوقُ الوعدَ الأصليّ.

لقد تغيَّرَتْ قراءتي الشخصيَّة عندما بدأت أرى أنَّ الأنبياءَ أنفسَهم أكَّدوا المسير عكسَ الاتِّجاه، أي من المستقبل إلى الحاضر. لقد عرَّفوا الشوق الإنسانيَّ، وصوَّروا مستقبلًا مجيدًا كي يؤثروا في سلوك السامعين في أيَّامِهِم. لقد قدَّموا رؤيةً إلى العالم كما يريدُ الله كي يتمسَّك الناسُ به حتَّى في وقت اليأس والضيق الحاليَّين.

كنتُ في السابق ألجأ إلى الأنبياء للبَحثِ عن مفاتيحَ لمعرفة المستقبل البعيد، والبعيد جدًّا كذلك. هل سينتهي العالم بمحرقة نَوَويَّة؟ هل الاحتباس الحراريُّ مقدِّمة إلى نهاية العالم؟ في حين أنَّ رسالةَ الأنبياء ينبغي أن تؤثِّرَ في حياتي الحاضرة. هل أثقُ بإله مُحبٍّ وقادرٍ على كلِّ شيء، حتَّى في هذا القرن الفَوضَويّ؟ هل ألتصقُ بالرؤية الإلهيَّة للسَّلام والعدالة حتَّى لو تَبَنَّتِ الكنيسة خِطابَ الحرب والقهر؟ هل أومنُ بأنَّ الله يملك، حتَّى لو لم يبدُ هذا واضحًا في حالة العالم الحاضرة؟

إنَّنا فِطْريًّا نريدُ أن نطيرَ نحو المستقبل، في حين يجذبُ الأنبياءُ انتباهنا نحو الحاضر، بينما يطالبوننا أن نعيش هذا الحاضر في ضَوء المستقبل الذي يُصَوِّرونه. هل يمكننا أن نثقَ برؤيتهم ونقبلها حاسبين إيَّاها الواقعَ الحقيقيَّ للأرض، مهما كان لدينا من أدلَّة تشيرُ إلى العكس؟ هل يمكن أن نعيشَ الآن "كما لو كان" الله إلهًا مُحبًّا وكريمًا ورحيمًا وكُلِّيَّ القدرة؟ يذكِّرنا الأنبياء أنَّ الله كذلك فعلًا، وأنَّ التاريخَ سيعلنُ ذلك. وسيصيرُ العالمُ كما هو الآن العالمَ كما يريدُه الله.

من كتاب: الكتاب الذي قرأه يسوع

٩ كانون الأوَّل/ديسمبر

شعبُ الكتاب

كان نحميا بمفرده قائدًا مؤثِّرًا، لكنْ عندما انضمَّ إليه عزرا، صارَ عندها لا يُقهَر؛ إذ شكَّلَ الاثنان معًا فريقًا متكاملًا. وبسبب التشجيع الذي تلقَّاه نحميا جرَّاء اتِّصالاته السياسيَّة الجيِّدة، أَلهَمَ كثيرين من حوله بواسطة نموذج الإدارة التي تنخرط في العمل، وبواسطة استبشارِه الجَسور بالخَير. أمَّا عزرا فيقود بالقوَّة المعنوية أكثر ممَّا يقود بالشخصيَّة القويَّة؛ فقد استَطاعَ أن يتتبَّعَ نسبَه الكهنوتيَّ وصولًا إلى هارون أخي موسى، وقد بدا أنَّه شديدُ التصميم أن يُعيدَ إلى هذا الدور استقامتَه المفقودة.

عندما وصلَ إلى أورشليم قبل عودة السبي بعدَّة سنوات، صدمَتْه حالةُ التبَلُّد الروحيِّ التي أصابت اليهود هناك، فحَلَقَ شعرَ رأسه ولحيَتَه وألقى بنفسه على الأرض في صَومِ تَوبةٍ طويل، حتَّى إنَّ صورةَ الانسحاق التي بدت عليه دفعَتْ سكانَ الأرض من اليهود أن يتوبوا هُم أيضًا ويُغيِّروا أسلوبَ حياتهم.

أمَّا العمل الذي أُنجِزَ في نحميا ٨، فكان بعد أن أتمَّ نحميا العمل الشاقَّ في ترميم سور أورشليم. وعندما صارَ اليهود للمرَّة الأُولى في أمان من أعدائهم، تجمَّعوا معًا على أمل استعادة بعضٍ من الشُّعور بالهُوِيَّة القوميَّة. وبوصف عزرا قائدًا روحيًّا، خاطبَ الجمهورَ العظيم. وقفَ على منبر مبنيٍّ حديثًا وقرأ من وثيقة بلغَ عمرُها نحو ألف سنةٍ في ذلك الحين، وهي الوثيقة التي تضمُّ العهد الأصليَّ الذي قد قطعَه العبرانيُّونَ مع الرَّبّ. وبينما كان عزرا يقرأ، راحَ صوت البكاء والنحيب يعلو وينتشر ما بين الجموع. لكنَّ الكتاب المقدَّس لم يشرَحْ سببَ الدموع. هل يشعرُ الشَّعبُ بالذَّنب على تاريخهم الطويل من انتهاك عهدِ الله؟ أم هو الحنين إلى الأيَّام الخوالي عندما كانت الأُمَّة العبرانيَّة تتمتَّع بالاستقلال السياسيّ؟ مهما كان السبب، لم يكن الوقتُ وقتَ الدُّموع. أمرَ عزرا ونحميا بالإعداد لاحتفال ضخم. الله يريد الفرح، لا النَّوح. إنَّ شعبَه المختار يُعاد بناؤه، مثلما أُعيدَ بناء سور أورشليم الحجريّ.

لقد بدت الصورة المركَزيَّة في هذا الأصحاح– وهي صورةُ رجل يقف وحيدًا على منبر يقرأ من درج ملفوف– صورةً أصبحَتْ رمزًا للجنس اليهوديّ. لقد صاروا "شعب الكتاب". ورُغمَ أنَّ اليهودَ لم يستَعيدوا الأرضَ ولا استَعادوا الزهوَ القوميَّ الذي تمتَّعوا به قبلًا، فإنَّهم لن ينسَوا درس عزرا. لقد صارَ عزرا النموذجَ الجديدَ لليهود: الكاتبَ، تلميذَ الكتاب.

من كتاب: التَقِ الكتاب المقدَّس

١٠ كانون الأوَّل/ديسمبر

ما قرأه يسوع

عندما نقرأ العهد القديم، فإنَّنا نقرأ الكتاب المقدَّس الذي قرأه يسوع واستخدمه. هذه هي الصلوات التي صلَّاها يسوع، والقصائد التي حفظها، والتسابيح التي أنشدها. قصصُ قبل النوم التي استمع إليها في طفولته، والنبوَّات التي تأمَّل فيها. لقد كان يسوع يحترمُ كلَّ "نقطة وحَرف" من الأسفار المقدَّسة العبرانيَّة. وكلَّما فهمنا العهد القديم أكثر، فهمنا يسوعَ أكثر. قال مارتن لوثر: "العهد القديم هو رسالة عهد المسيح، الذي جعله يُفتَح بعد موته، ويُقرأ ويُعلَنُ عنه في كلِّ مكان بواسطة الإنجيل".

وفي فِقرةٍ شديدة اللهجة من إنجيله، يخبرنا لوقا عن ظهور يسوعَ بجوار تلميذَين في الطريق إلى عمواس. ومعَ أنَّ أنباء القيامة كانت قد بدأت تنتشرُ كالنَّار في الهشيم، فقد بدا أن هذَين التلميذَين لم يصدِّقا بعد، وهذا ما أدركه يسوع من نظرات عيونهما المُحبطة. وبنوع من الفكاهة العمليَّة، جعلَهم يسوع يُكرِّرونَ كلَّ ما حدث لذلك الرجل يسوع في الأيَّام القليلة الماضية؛ فهما لم يُميِّزاه بعدُ. بعدَ ذلك انتهرَهُما قائلًا:

"«أَيُّهَا الْغَبِيَّانِ وَالْبَطِيئَا الْقُلُوبِ فِي الإِيمَانِ بِجَمِيعِ مَا تَكَلَّمَ بِهِ الأَنْبِيَاءُ! أَمَا كَانَ يَنْبَغِي أَنَّ الْمَسِيحَ يَتَأَلَّمُ بِهذَا وَيَدْخُلُ إِلَى مَجْدِهِ؟» ثُمَّ ابْتَدَأَ مِنْ مُوسَى وَمِنْ جَمِيعِ الأَنْبِيَاءِ يُفَسِّرُ لَهُمَا الأُمُورَ الْمُخْتَصَّةَ بِهِ فِي جَمِيعِ الْكُتُبِ" (لوقا ٢٤: ٢٥-٢٧).

إنَّنا نحتاجُ اليوم إلى خبرة "طريق عمواس" لكنْ بالعَكس. التلاميذ في زمن الكنيسة الأولى كانوا يعرفون موسى والأنبياء، لكنَّهم لا لم يعرفوا كيف تكون علاقتهم بيسوع المسيح. أمَّا الكنيسة المعاصرة فتعرِفُ يسوع المسيح، لكنَّها تفقدُ بسرعة أيَّ اتِّصال لها بموسى والأنبياء.

من كتاب: الكتاب المقدس الذي قرأه يسوع

ما يريدُه الله

على مدى أسبوعَين في أحد فُصولِ الشِّتاء، مكثْتُ وحيدًا معزولًا في قُمرة صغيرة في جبال كولورادو. كُنتُ قد أحضرتُ معي حقيبةَ سفرٍ كبيرةً ملآنةً بالكُتُب والمذكِّرات، لكنِّي لم أفتَحْ إلَّا كتابًا واحدًا: الكتاب المقدَّس. بدأت من سفر التكوين وعندما أنهيتُ سفر الرؤيا، كان عليَّ أن أطلب شاحنة لتجرفَ المَمَرَّ المؤدي من مكان مكوثي إلى الطريق الرئيسيِّ؛ لأنَّ الثلوجَ كانَتْ قد تراكَمَتْ كثيرًا عليه.

أمَّا ما عملَه الصَّمتُ الجليديُّ والعزلة البعيدة عن كلِّ البشر، والتركيز التامُّ في شيء واحد هو أنَّ كلَّ هذا غيَّرَ تمامًا الطريقة التي كنتُ أقرأ بها الكتاب المقدَّس. وما صدمني أكثرَ الكلِّ في قراءتي اليوميَّة هو التالي: في كُتُب اللاهوت، يمكن أن تقرأ عن قدرة الله الكلِّيَّة، وعلمه الكامل، وعدم تغيُّره. وهذه المفاهيم موجودة في الكتاب المقدَّس، لكنَّها مدفونة داخله، ويجب استخراجها كما يُستخرَجُ الذَّهب من المناجم. فعندما تقرأ الكتاب المقدَّس، لن تُقابِل بخارًا ودخانًا، بل شخصًا حقيقيًّا. مرَّةً تلو الأخرى، يبدو الله مصدومًا بفعل السلوك الإنسانيّ. وأحيانًا بعد أن يقرِّر ردَّ فعل معيَّن، فإنَّه "يُغيِّر رأيَه".

إذا قرأتَ الكتابَ المقدَّسَ على نحوٍ متواصلٍ دونَ توقُّفٍ، كما فعلتُ في هذين الأسبوعَين، فلن يسعَك إلَّا أنْ تنتابَك سعادةٌ غامرةٌ مقرونةٌ بألمٍ أيضًا- باختصار سوفَ تغمُرُكَ مشاعرُ ربِّ الكَون. صحيح أنَّ الله "يقترض" صورًا من الخبرة الإنسانيَّة كي يتواصلَ معنا بطريقةٍ نفهَمُها، لكنَّ من المؤكَّد أنَّ هذه الصور تشيرُ إلى حقيقةٍ أبعدَ.

لقد أثَّرَ فيَّ إرميا النبيُّ أكثر من أيِّ سفرٍ آخر. فصورة المُحِبِّ الجريح التي في إرميا هي صورة مَهيبةٌ لا أكاد أفهَمُها. الإله الذي خلقَ كلَّ شيء موجود، فلماذا يختار طَوعًا أن يكون محلَّ ذلك الإذلال من جانب خليقته؟ لقد أثَّرت فيَّ تأثيرًا بالغًا حقيقةُ أنَّ الله يسمحُ بأنْ تؤثِّرَ فيه ردود فعلنا تُجاهَه إلى ذلك الحدّ.

عندما نستأنس الله، ونضعه في كلماتٍ ومفاهيمَ مرتَّبةٌ في أقسام بحسب حروفنا الألفبائيَّة، فإنَّنا نفقد قوَّةَ العلاقة الملآنة بالمشاعر القويَّة التي يمكن أن تكونَ بيننا وبينه والتي يطلبها الله أكثر من أيِّ شيء آخر. ربَّما لا تكون هناك خطورة أشدُّ من هذه لنا، نحن الذين نكتب ونتكلَّم أو حتَّى نفكِّر في الله. إنَّ محاولةَ وَضْع الله في مفاهيم مُجرَّدة، ربَّما هي أقسى إهانةٍ نوجِّهها إليه.

بعد أسبوعَين من قراءة كلِّ الكتاب المقدَّس، خرجتُ بأقوى إحساس بأنَّ الله لا يهتَمُّ كثيرًا بأن نحلِّلَه، لكنَّه يهتمُّ مثل الأب والمُحِبِّ أن يُحَبَّ.

من كتاب: كُنتُ أتساءَل فقط

المحبُّ المرفوض

يحملُ الكثيرُ من الناس في أذهانهم صورةً عن الله بوصفه قوَّةً غيرَ شخصيَّة- شيئًا يُشبِهُ قُوَّة الجاذبيَّة. يُصوِّر هوشع الله في صورة منافيةٍ تمامًا، وهي أنَّه إله ملآنٌ بالمَشاعِر، كالحُبِّ والوَجْد والغضب والدُّموع. إلهٌ ينوح على رفض العبرانيِّين له.

يستخدم الله قصَّة هوشع الحزينة ليوضِحَ بها مشاعرَه الأليمة. ويبدأ بالكلام عن رَعشة الحُبِّ الأولى عندما وجد الأمَّة العبرانيَّة، فكان كمن وَجَدَ عنبًا في الصحراء. لكنَّ تلك الأُمَّةَ خانَتْ ثقةَ الله مرَّة تلو الأخرى. فكان على الله أن يحتمل الخزي القاتل الذي يختبره المُحبُّ المجروح. وتَحمِلُ كلمات الله نغمة تشبه على نحوٍ صادِمٍ، الشفقة على النفس: "فأنا لأفرايم كالعُثّ، ولبيت يهوذا كالسوس" (هوشع ٥: ١٢).

هذه الصورة القويَّة للمُحبِّ المرفوض تشرح السبب الذي جعلَ مشاعرَ الله مترجِّحةً في هوشع ١١. فهو من جهةٍ يستعدُّ للقضاء على الأمَّة العبرانيَّة- لكنِ انتظر؛ فإنَّ الله يبكي الآن، فاتحًا ذراعَيه- لا، بل إنَّه يُعلنُ بكلِّ حزمِ الدَّينونةَ مرَّةً أُخرى. وتبدو هذه التقلُّبات في المشاعر غير منطقيَّة على نحوٍ يائس، ولا يستطيع أن يُقدِّرها إلَّا مَن تعرَّض للرَّفض من المحبوب.

هل هناك شعورٌ إنسانيٌّ أقوى من شعور الخيانة؟ اسألْ فتاةً في المرحلة الثانويَّة تركَها صديقُها وذهب مع فتاةٍ أُخرى لأنَّها أجمل. أو استمع في المذياع إلى أغنيات الحبِّ والهَجْر والخيانة. أو اقرأ في صفحة الحوادث عن جرائم القتل، وستجد نسبةً منها تطوَّرت من شجارات ما بين أحبَّةٍ حول الخيانة. يرسمُ الله بواسطة هوشع صورة بالألوان الطبيعيَّة، تبيِّنَ شعورَ مَن يُحبُّ ولا يحصل على شيء في المقابل. لا يقدرُ أحدٌ، ولا حتَّى الله كلِّيُّ القدرة، أن يفرضَ الحُبَّ على إنسان.

في الواقع، يتكلَّمُ كلُّ أصحاح من نبوَّة هوشع عن "زنى" شعب العهد القديم أو "عهارته". الله هو المحبُّ الذي لا يقبل أن يشاركَه أحَدٌ عروستَه المحبوبة. لكنَّ العجيب هو أنَّه يقبَلُها بعد أن تعودَ، ويلتصقُ بها، ويظلُّ مستعدًّا لأنْ يتحمَّل الألم، على أمل أنَّها ستتغيَّر في يوم من الأيَّام. ويُثبتُ هوشع أنَّ الله يتوقُ لا لأنْ يُعاقِبَ بل ليُحِبَّ.

من كتاب: التقِ الكتاب المقدَّس

هل أنا مُهمّ؟

عندما أقف في طابور المُحاسبة في محلِّ البقالة القريب من بيتي وأنظر حولي، فإنِّي أرى مراهِقين حَليقي الرأس يضعون أقراطًا في أنوفهم، وينتقون ما يريدونه من أكياس الأطعمة الخفيفة، وأرى شابًّا من المِهْنِيِّين المرفَّهين يشتري شريحةَ لحم وبعضَ أعواد الهِلْيُون، وثمرةَ بطاطا مشويَّة، كما أرى سيِّدة مُسنَّةً محنِيَّةَ الظَّهر بسبب هَشاشةِ العظام، تضغط بأصابعها مُسبِّبةً رضوضًا في ثمرات الخوخ والفراولة. وأسأل نفسي، هل يعرف الله كلَّ هؤلاء الناس بالاسْم؟ هل هم مُهِمُّون عنده حقًّا؟

أحيانًا عندما أشاهد مظاهراتِ المعترضين على الإجهاض من جهة، والمعترضين على الاعتراض على الإجهاض من جهةٍ أُخرى، أحاول أن أتخيَّل الأجِنَّةَ التي لم تولد والتي هي السبب من وراء هذا العُنف المُتبادَل. لقد رأيتُ من قبل أجِنَّة معروضة في آنية زجاجيَّة في المتاحف تشرح المراحل المتقدِّمة من تطوُّر الإنسان داخل الرحم. يحتجُّ المعارضون للإجهاض بأنَّ نحو ستَّة ملايين من هذه الأجنَّة يُقتَلون سنويًّا حول العالم. يقولُ اللاهوتيُّون أنَّ كلًّا منها يحمل صورةَ الله. فما رأي الله في ستَّة ملايين إنسان يموتون سنويًّا دون أن يَرَوا صورةَ الحياة خارج الرَّحْم؟ هل هُم مهمُّون؟

يقول الروائيُّ رينولدز پرايس (Raynolds Price) إنَّ هناك جملةً واحدةً يتوقُ كلُّ البشر إلى سَماعِها: "إنَّ صانع كلِّ الأشياء يُحِبُّك ويريدك". وقد أعلنَ يسوعُ هذه الجملةَ بصوت عالٍ مثل رعدٍ عَذْبِ الصَّوت. إن صانع كلِّ الأشياء هو صانع البشر أيضًا، وهؤلاء البشر هُم فصيلة غريبة، قد حسبها الله، لسبب غير مفهوم، مُستحقَّةً فرديًّا للاهتمام والحُبّ. لقد أظهَرَ الله شخصيًّا هذه المحبَّة، على تلال فلسطين الوعرة، وفي النهاية على صليب الجلجثة.

عندما زارَ يسوعُ الأرضَ في صورة عبد، أعلنَ أنَّ يدَ الله ليسَتْ أكبر من أصغر إنسان في العالم. إنَّها اليد التي نُقشت عليها أسماء كلِّ فردٍ فينا، والتي نُقشت عليها أيضًا الجروح التي تكلَّفَها الله؛ لأنَّه أحبَّ إلى هذا الحدّ.

وعندما أجدُ الآن نفسي غارقًا في الشَّفقة على ذاتي، تغمرني آلامُ الوَحدة الكونيَّة، والتي تعبِّر عنها بكلِّ صدقٍ وعمقٍ، أسفارٌ مثل سفرَي أيُّوب والجامعة، فإنِّي أعود إلى قصص الإنجيل عن أعمال يسوع وأقواله. إذا شعرتُ بأنَّ حياتي "تحت الشمس" لا تصنع فرقًا لدى الله، فإنِّي أُناقِضُ سببًا من الأسباب الأساسيَّة التي من أجلها جاءَ الله إلى العالم. فالإجابة عن السؤال "هل أنا مُهمّ؟" ليسَتْ سوى يسوعَ نفسِه.

من كتاب: الكتاب المقدَّس الذي قرأه يسوع

١٤ كانون الأوَّل/ديسمبر

هل يهتمُّ اللّٰه؟

خرج أيُّوب مُتردِّدًا بهذا الاستنتاج: أنَّ الله لا يهتمُّ به ولا بأيِّ إنسان متألِّم. تنهَّدَ أيُّوب قائلًا: "ما أخفض الصوت الذي نسمعه منه". وصَرَخَ ناظمُ المزمور طالبًا أيَّة عَلامَةٍ تدُلُّ على أنَّ الله يسمع الصلاة، أيَّ دليل أنَّ الله لم يتركه.

لا أعلم إلَّا طريقةً واحدةً للإجابة عن سؤال: "هل الله يهتمّ؟" والإجابة عندي أثبتَتْ أنَّها حاسمة: وهي يسوع المسيح. لم يحاولْ يسوعُ أن يقدِّمَ إجابةً فلسفيَّةً عن معضلة الألم، بل قدَّمَ إجابةً وجوديَّة. ورغم أنِّي لا أستطيع أن أعرفَ منه السبب في حدوث أمر سيِّئ، فإنِّي أستطيعُ أن أعرفَ منه كيف يشعر الله حِيالَ ذلك الأمر. لقد أعطى يسوع الله وجهًا تنسابُ الدُّموع عليه.

عندما أقرأ الكتاب المقدَّس كلَّه مرَّة واحدة، أجدُ اختلافًا هائلًا بين العهدَين القديم والجديد. في العهد القديم، أستطيع أن أجدَ عدَّة تعبيراتٍ عن الشكِّ والإحباط. وأسفارٌ كاملةٌ مثل إرميا وحبقُّوق وأيُّوب تدور حول هذا الموضوع المحوريّ. ولنِصف المزامير تقريبًا نغمةٌ داكنةٌ حزينة. وفي تناقضٍ صارخ، تضمُّ رسائل العهد الجديد أقلَّ القليل من هذا النوع من الألم. ودون شكّ، لم تَختَفِ معضلة الالم من الوجود البشريّ: الأصحاح الأوَّل من رسالة يعقوب، والأصحاحان الخامس والثامن من رومية، ورسالة بطرس الأولى كلُّها، وجزءٌ كبيرٌ من سفر الرؤيا يتعامل مع الأمر بالتفصيل. غير أنِّي لا أجدُ في أيِّ مكان ما يُشبِه بِقُوَّةٍ ذلك السؤال الحاسم "هل يهتمُّ الله؟". نجدُ مثلًا الاتِّهام الذي يقدِّمه المزمور ٧٧: "هل نسي الله رأفة؟".

أعتقد أنَّ السبب في التغيُّر الذي حدث هو أنَّ يسوع المسيح أجابَ عن هذا السؤال أمام الشهود الذين كتبوا الرسائل. في يسوع، يقدِّم الله وجهًا. كلُّ مَن يتساءلون عن شعور الله بشأن الألم على سطح كوكبنا الذي يئنُّ، يحتاج فقط لأنْ ينظر إلى هذا الوجه. بطرسُ ويعقوب ويوحنَّا تبعوا يسوع ما يكفي من الزمن كي ينطبعَ ذلك الوجه في عقولهم. عندما شاهدوا تفاعُلَ يسوعَ مع المرأة نازفة الدم، ومع قائد المئة الحزين على فقدان عبده، وعلى الأرملة المكلومة التي رحلَ ابنُها وحيدُها، وعلى المُسِنِّ الأعمى، وأدركوا بما لا يدع مجالًا للشَّكّ كيف يشعر الله تُجاه ألم البشر.

من كتاب: الكتاب المقدَّس الذي قرأه يسوع

اضطربَتِ اضطرابًا عظيمًا

في صُوَر الفنِّ المسيحي الذي يُصوِّر قصَّة الميلاد، نرى العائلة المقدَّسة في أيقونةٍ مطبوعة على ورق ذهبيّ، ونرى وجهَ المطوَّبة مريَم العذراء هادئًا وهي تستقبل رسالة الملاك بوصفها نوعًا من البَركة. لكنَّ هذه ليست بتاتًا الطريقةَ التي يسردُ بها البشيرُ لوقا القصَّة. لقد اضطربَتْ مريمُ "اضطرابًا عظيمًا" وكانت "خائفة" عند ظهور الملاك لها. وعندما أعلن لها الملاك تلك الكلمات السامية عن ابن العليِّ الذي لا نهاية لمُلكه، كانت مريمُ تفكِّرُ في أمور اعتياديَّةٍ تمامًا، فصرخت: "لكنِّي عذراء!".

في الولايات المتَّحدة الحديثة، حيث تحبل أكثر من مليون فتاة مراهقة سنويًّا خارج إطار الزواج، صارَ المصيرُ الذي كانت تخشاه مَريَم أقلَّ خطورةً بكثير. أمَّا في المجتمع اليهوديِّ الصغير في القرن الأوَّل الميلاديّ، فإنَّ هذه الأخبار التي أتى بها الملاك، لا يُمكن بتاتًا أن تكونَ أخبارًا مُفرحة. الشريعةُ اليهوديَّةُ تحسب المخطوبة التي تحمل قبل الزواج زانية، وتكونُ مُعرَّضةً للموتِ رَجمًا.

بعد عدَّة شهور، وُلِدَ يوحنَّا المعمدان وسطَ احتفالٍ عائليٍّ بكلِّ ما يشتمل عليه من القابلات والأقارب المحتفلين، والغناء الريفيِّ التقليديِّ احتفالًا بميلاد طفل يهوديٍّ ذَكَر. وبعد ذلك بستَّة أشهر، وُلِد يسوع بعيدًا عن البيت، بلا قابلة، ولا زيارة من الأقارب، ولا جوقة غناء ريفيَّة. وحيث إنَّ حضورَ ذَكَرٍ بوصفه رأسَ العائلة كان يَفي بالغَرَض في التعداد الرومانيّ، فهذا يثير التساؤل: هل اصطحبَ يوسُفُ امرأته الحُبلى إلى بيت لحم كي يُعفِيَها من حَرَجِ الولادة في قريَتها؟

عندما أقرأ قصَّة ميلاد يسوع، تنتابُني القُشَعْريرةُ عندما أفكِّر في أنَّ مصير العالم كان مربوطًا بردِّ فعلِ فتاةٍ ريفيَّة. كم مرَّةً راجَعَتْ مَريم كلمات الملاك كلَّما شعرت بابن الله يرفس في داخلِها؟ كم مرَّةً أعادَ يوسُفُ التفكير في لقائه الملاك قائلًا لنفسه إنَّ ذاك كانَ مجرَّد حُلم وهو يتحمَّل خِزْيَ العيش وسطَ قرويِّين يُتابعون تغيُّر شكل جسد خطيبته؟

من كتاب: يسوع الذي لم أكن أعرفه

أخبار سارَّة

عندما ذهبَ المرسلُ اليسوعيُّ ماتيو ريتشي (Matteo Ricci) إلى الصين في القرن السادس عشر، أحضرَ معه إلى الشَّرق فنًّا دينيًّا ليساعدَه على شَرْح القصَّة المسيحيَّة. وكان الصينيُّون مستعدُّون لتبنِّي صورًا للعذراء مريَم مُمسِكةً الطفلَ يسوع. لكنْ عندما أنتجَ صورًا للصَّلب وحاول أن يشرحَ أنَّ الطفلَ الإلهيَّ كبرَ ليواجهَ مصيره المحتوم، تجاوَبَ الجمهورُ بنُفورٍ ورُعب. لقد كانوا يُفضِّلون العذراء، وأصرُّوا على عبادتها رافضين الإله المصلوب.

عندما أقلِّبُ في رُزمة بطاقات عيد الميلاد التي لديَّ، أُلاحظ أنَّنا في البلدان المسيحيَّة نفعلُ الأمرَ نفسه؛ فنحن نريد الاحتفال بالأعياد الهادئة المُستأنَسة الخالية من أيَّة شُبهة أو فضيحة. وقبل كلِّ شيء نحاول أن نُنظِّفَ القصَّة المسيحيَّة من أيِّ أمرٍ يُذكِّرنا أنَّ القصَّة التي بدأت في بيت لحم انتهت عند الجُلجُثة.

في رواية الميلاد في بشارَتَي لوقا ومتَّى، يبدو شخص واحد هو مَن يُدرك طبيعةَ العمليَّة السرِّيَّة الغامضة التي وَضعها الله على مَسار التحقُّق التدريجيّ: وهو سمعان الشيخ، الذي أدرك أنَّ هذا الطفل هو المسيَّا المنتَظَر، وبصورةٍ فطريَّة فهمَ أنَّ صراعًا سيحدُثُ بالتأكيد. فقال: "إنَّ هذا قد وُضِعَ لسقوط وقيام كثيرين في إسرائيل ولعلامَةٍ تُقاوَم". ثمَّ تنبَّأ أنَّ سيفًا سيجوز في نفسِ مريَمَ أمِّه. وبصورةٍ ما، شعرَ سمعان بأنَّ الكثيرَ تغيَّر في العُمق، وإنْ لم يتغيَّرْ الكثيرُ على سطح الأمور. لقد وَصَلَتْ إلى العالم قوَّةٌ جديدةٌ ستقلبُ موازين القوى فيه.

في البداية، لم يبدُ أنَّ يسوع سيُشكِّلُ أيَّ خَطَرٍ على مَن هُم في مراكز السُّلطة. لقد وُلِدَ في عهد أغسطس قيصر وهو أوَّلُ مَنِ استخدمَ الكلمة اليونانيَّة "إنجيل" أو "بشارة" للتَّعبير عن النظام العالميِّ الجديد تحت قيادته. وقد تصوَّرَ كثيرون أنَّ حكمَه المستنيرَ والمستقرَّ سيَدومُ إلى الأبد، مقدِّمًا الحلَّ الناجعَ لمعضلة الحُكم.

وفي الوقت نفسه الذي يحتفل فيه أغسطس قيصر بإنجيله، وُلِد في رُكنٍ مغمورٍ من إمبراطوريَّته، الطفلُ يسوع، الذي لم يلحَظْ أيُّ مؤرِّخ مولده، ولم يُكتَب عنه. لكنَّ مَن كتبوا قصَّة حياة يسوع، اقتبسوا أيضًا كلمة "إنجيل" لتعبِّرَ عن نظامٍ عالميٍّ جديدٍ تمامًا. وفيه يأتي ذِكرُ أغسطس قيصر مرَّة واحدة فقط ليكونَ إشارةً عابرةً عندما أمرَ بإقامة التعداد الذي من أجله اضطُرَّ يوسف لأنْ يأخذ أسرته ويذهب إلى بيت لحم.

من كتاب: يسوع الذي لم أكن أعرفه

كم كانت هادئة

أتذكَّرُ أنِّي في أحد مواسم الميلاد، جلستُ في مسرحٍ جميلٍ في مدينة لندن أستمعُ إلى رائعة هاندل (Handel) "المسيَّا" يُقدِّمُها كورالٌ كاملٌ يُغنِّي عن اليوم الذي "فيه يُعلَن مجدُ الرب". كُنتُ قد أمضَيتُ نهارَ ذلك اليوم في متاحف لندن أشاهدُ بقايا مجد إنجلترا- جواهر التاج، وصولجان الحُكم المصنوع من الذهب الخالص، وعربة عُمدة لندن المغشَّاة بالذهب- وفكَّرتُ أنَّ مثل هذه الصور من الغِنَى والسُّلطان ربَّما كانت قد ملأَتْ خيالَ مُعاصِرِي إشعياء عندما سَمِعوا بهذا الوعد. عندما قرأ اليهودُ كلمات إشعياء، لا شَكَّ أنَّهم تذكَّروا أيَّام سليمان عندما "جعل الملك الفضَّة في أورشليم مثل الحجارة". لكنَّ المسيَّا الذي ظهر ارتدى نوعًا آخر من المجد، وهو مجد التواضع. يكتب الأب نيڤيل فيغز (Father Neville Figgis) "عندما يُنادى بأنَّ «الله كبير»، فهذه حقيقة لا تحتاج إلى كائن فائق للطبيعة لُيعلِّمها للبشر، أمَّا أن يكون «الله صغير»، فهذه حقيقة، فقط يسوع هو الذي علَّمها للناس". الإله الذي يزمجر، ويُحرِّك الجيوش والإمبراطوريَّات مثل بَيادِق الشِّطْرَنج، وُلِدَ في بلدة طفلًا لم يستطع الكلام ولا الأكلَ والتحكُّم في مثانته، بل كان يعتمد على يوسُفُ ومريَمَ ليُدبِّرا له مسكنًا وطعامًا وحُبًّا.

في لندن، رأيتُ لمحاتٍ من الطريقة التقليديَّة التي يستخدمها قادة العالم في التحرُّك: باستخدام الحُرَّاس الشخصيِّين، والموسيقات التي تُعزَفُ على آلاتٍ نُحاسيَّة، والملابس الزاهية، والجواهر المتألِّقة. لقد زارت الملكة إليزابيث الثانية الولايات المتَّحدة قبل عدَّة سنوات، وكان من دواعي سرور الصحفيِّين أن يكتبوا تقاريرَهم المفصَّلة عن مراسم الزيارة: كانت حقائبُ ملابس الملكة وزينتها تزنُ نحو ٩٠٠ كغم، بحيث كان لديها لكلِّ مناسبة طقمان، بالإضافة لطقم ملابس حِدادٍ في حال تُوُفِّي أحَدُهُم، وعشرون وحدة بلازما الدم، وعددًا كبيرًا من أغطية مقعد المرحاض شديدة النعومة، كما أحضرت معها مصفِّفَ شعرها الخاصَّ، ووصيفَتَين، وحشدًا كبيرًا من المرافقين.

على العكس من ذلك، كانت زيارة الله للأرض على نحوٍ أكثر تواضعًا، في حظيرة للحيوانات بلا مرافِقين، وبلا مكان لوضع الملك الوليد سوى مِذوَدٍ للبقر. كان يمكن أن يدهسَه أحَدُ البغال. "كم كانت هادئة، تلك الليلة التي فيها أعطى الله هذه العطيَّة العجيبة!".

من كتاب: يسوع الذي لم أكن أعرفه

١٨ كانون الأوَّل/ديسمبر

مقارَبة جديدة

مَن تربَّوا منَّا في ثقافة دينيَّة تمارس الصلاة الشخصيَّة أو غير الرسميَّة، ربَّما لا يُقدِّرون التغيير الذي أحدثه يسوع في الطريقة التي يُمكن بها أن يقاربَ الإنسان الله. في أغلب الثقافات الدينيَّة، الخوف هو الشعور الأوَّليُّ عندما يقترب الإنسان من الله.

ما من شكٍّ أنَّ اليهودَ جمَعوا ما بين العبادة والخوف. مَن "باركَه" الله بلقاءٍ مباشرٍ، كَانَ يَتَوَقَّعُ أن يَخرُجَ من هذا اللقاء ووجهُهُ يلمعُ مثل موسى، أو ربَّما يخرج بإعاقة حركيَّة مثل يعقوب. ووسط الشعب الذي كان يخصِّص لله في الهيكل قُدس أقداس لا يدخله إلَّا رئيس الكهنة مرَّةً في السنة، ويتهيَّب من نطق اسم الله، ظَهَرَ الله على نحوٍ مفاجئٍ مثل طفلٍ في حَظيرةِ حيوانات. في يسوع، وجدَ الله طريقةً للتواصل مع البشر لم تشتَملْ على الخوف.

في الواقع، لم ينجَحِ الخوفُ كثيرًا. ويتضمَّن العهد القديم الفشل أكثر من النجاح. لقد كان هناك احتياج إلى أسلوبٍ جديد ومختلف، وبِلُغةِ الكتاب المقدس نسمِّيه العهد الجديد. ولا يُشدِّدُ هذا العهد على الهوَّة السحيقة ما بين الله والإنسان، بل يعبُرُها.

لقد تَعَلَّمتُ كثيرًا عن التَجَسُّد عندما اقتنيت حوضَ سمكٍ ممتلئًا بالماء المالح. لم يكن الأمر سهلًا. ففي حين كان من المتوقَّع أن تكونَ أسماكي شاكرةً، بالنظر إلى المجهود المبذول من أجلهم، لم يكن الأمر كذلك. ففي كلِّ مرَّةٍ كان ظلِّي يُخيِّم فوق الحوض، كانت الأسماك تغوصُ للاحتماء بأقرب صدفة.

عند أسماكي، كُنتُ أنا إلهًا، وكانت تصرُّفاتي غير قابلة للفهم. أعمالُ الرحمة التي كنت أمارسُها من أجلهم كانوا يحسبونَها قسوةً، وكانوا يفسِّرون محاولاتي لشفائهم على أنَّها محاولاتٌ لتدميرهم. فبدأت أفكِّر في أنِّي لو أَرَدتُ تغييرَ مفاهيمِهم، عليَّ أن أدخُلَ في نوعٍ من التجسُّد. كما لو كان يجب أن أصيرَ أنا نفسي سمكةً كي أستطيع "التحدُّث" إليهم بلُغة يستطيعون فهمَها.

أن يصير الإنسان سمكة، هو أمرٌ لا يُقارَن بأن يصيرَ الله طفلًا. لكنْ بحسب الإنجيل، فهذا ما حدث في بيت لحم. الإله الذي خلقَ المادَّة، قرَّر أن يتَّخذ شكلًا داخلها، كما لو أنَّ فنَّانًا صارَ بقعةً على الصورة التي رسمها، أو روائيًّا صارَ شخصيَّةً في روايته. لقد كتبَ الله قصَّة باستخدام شخصيَّاتٍ حقيقيَّة على صفحات التاريخ الحقيقيِّ. فالكلمة صار جسدًا.

من كتاب: يسوع الذي لم أكن أعرفه

١٩ كانون الأوَّل/ديسمبر

المُزدَرى

أجِدُني أُقَطِّبُ جبيني كمَن يتوقَّع ألَمًا عندما أستخدم هذه الكلمة، ولا سيَّما لأصِفَ بها يسوع؛ فهي كلمةٌ صعبةٌ تُقال عن الخاسرين وضحايا الظُّلم. لكنِّي عندما أقرأُ قصَّة ميلاد يسوع، فإنِّي أقولُ هذا: رُغمَ أنَّ العالمَ يميلُ إلى الأغنياء والأقوياء، فإنَّ الله يميلُ إلى صفِّ المُزدَرين والمهمَّشين. وفي هذا السِّياق قالت مريَمُ العذراء في ترنيمتها الرائعة: "أنزَلَ الأعزَّاء عن الكراسيِّ ورفعَ المتَّضعين، أشبع الجياع خيرات، وصرفَ الأغنياء فارغين".

لازلو توكِس (Laszlo Tokes) وهو قسٌّ رومانيٌّ فجَّر سوء المعاملة الذي تعرَّض لهُ موجاتِ الاحتجاج على الديكتاتور الرومانيِّ تشاوشيسكو (Ceausescu). يُحكى عن مُحاولة القسِّ إعدادَ خدمةِ عيد الميلاد في الكنيسة الجبليَّة الصغيرة التي جرى نفيه إليها، وذلك في وقتٍ كان البوليس السرِّيُّ يقبض على المعارضين، وقد تفشَّى العُنف في طول البلاد وعرضها. لخَوفِ توكِس على حياته، أوصَدَ الأبواب، وجلسَ يقرأ مرَّةً أخرى قصَّة الميلاد في لوقا ومتَّى. وعلى خلاف ما يمكن أن يعظَ به الكثير من القساوسة في تلك المُناسبة، اختار النصَّ الذي يشير إلى مذبحة الأبرياء التي قام بها هيرودس. لقد كانت الفِقرةَ الأكثر قدرة على مُخاطبة أحوال شعب كنيسته. سيفهمون ما يعيشه المظلومون المُزدرون كلَّ يوم تحت القمع والخوف والعنف. وفي اليوم التالي، يوم الميلاد، انتشرت أنباء أنَّ تشاوشيسكو قُبِضَ عليه. قُرِعَت أجراس الكنائس، وعَمَّ الفرح أرجاءَ رومانيا، وسقطَ هيرودسُ آخر. يتذكَّر توكِس تلك الأيَّام قائلًا: "لقد صار لأحداث قصَّة الميلاد بُعدٌ جديدٌ بهيجٌ لنا. إنَّه بُعدٌ من أبعاد التاريخ الذي تحقَّق في حياتنا الحاضرة. لقد كانت أحداث عيد الميلاد عام ١٩٨٩م لمن عاشوها صدًى غنيًّا لقصَّة الميلاد. في ذلك الوقت بدَتْ حكمة التدبير الإلهيِّ وقُبح الحماقة الإنسانيَّة واضحَين للفهم مثل وضوح الشمس والقمر فوق تلال ترانسلفانيا الأزليَّة". للمرَّة الأولى منذ أربعين سنة، احتفلَتْ رومانيا بعيد الميلاد بوصفه عيدًا قوميًّا.

من كتاب: يسوع الذي لم أكن أعرفه

٢٠ كانون الأوَّل/ديسمبر

لا خوف

ربَّما تكون الكلمات الأولى التي ينطق بها أيُّ ملاكٍ لدى ظهوره لإنسانٍ في الكتاب المقدَّس، هي كلمات: "لا تخف!". وليس هذا مستَغرَبًا؛ فعند اتِّصال كائناتٍ سماويَّة بالأرضيِّين، من المتوقَّع أن يقعَ البشر على وجوههم من فرط الخوف الذي يُصيبُهم بما يُشبه الشَّلل. لكنَّ البشيرَ لوقا يتكلَّم عن ظهور الله على الأرض في شكل لا يُثيرُ أيَّ خوفٍ. في يسوع، الذي وُلد في مِذودٍ لإطعام البقر، وجد الله طريقةً للاقتراب لا تُثير الخوف. ماذا يمكن ألَّا يثيرَ الخَوفَ أكثر من طفلٍ وَليد؟

تخيَّل أنْ تصيرَ طفلًا مرَّة أخرى: تتخلَّى عن اللغة، وتفقد قدرتك على تنظيم حركة عضلاتك، وتصبح عاجزًا عن تناوُلِ الطَّعام، أو التحكُّم في الإخراج. لعلَّ هذا يعطيك فكرةً عن معنى "الإخلاء" الذي مارسه الله. وبحسب الكتاب المقدَّس، فإنَّ يسوع على الأرض كان هو الله والإنسان معًا. وبوصفه إلهًا، كان يصنع المعجزات ويغفر الخطايا ويهزم الموت ويتنبَّأ بالمستقبل. لقد فعلَ يسوع كلَّ ذلك باعثًا الرهبةَ في قلوب من حوله. أمَّا اليهودُ مَن اعتادوا صُورَ الله مثل عمود السَّحاب أو النار، كان يسوعُ يثيرُ فيهم أيضًا قدرًا كبيرًا من الحَيرة. كيف يمكن أن يكونَ طفلٌ في بيت لحم، ابنٌ لنَجَّار من الناصرة، هو مسيحُ الرَّبّ؟ لقد كان جسمُ يسوعَ الإنسانيُّ يمنعهم من التَّصديق.

كان المتشكِّكون الحائرون يتبَعونَ يسوع في كلِّ خدمته. لكنَّ البشر لوقا يكشفُ في الأصحاح ٢ كيف أنَّ الله كان يؤكِّد هُوِيَّةَ يسوع من الأيَّام الأولى. لم يكن لدى مجموعة الرُّعاة في الحقل أيُّ شكٍّ؛ فقد سمعوا رسالةَ الخبر السارِّ مباشرةً من جوقة الملائكة. وتعرَّفَ نبيٌّ ونبيَّةٌ مُسِنَّينِ إليه أيضًا. حتَّى المعلِّمون المشتكون في الهيكل بُهتوا.

لماذا يخلي الله نفسه ويأخذ صورة بشر؟ يقدِّم الكتاب المقدس أسبابًا كثيرة، بعضها لاهوتيٌّ، وبعضها عمليٌّ. إنَّ مشهدَ يسوعَ المراهقِ يُعَلِّمُ المعلِّمين في الهيكل تُعطي دليلًا باهرًا. وللمرَّة الأولى يمكن أن يُجرِيَ البشرُ العاديُّون حديثًا، أو ربَّما مناظرة، أو حوارًا مع الله الظاهر في الجسد. يمكن أن يتكلَّمَ يسوعُ مع أيِّ إنسان- والدَيه ومعلِّمِ الناموس والأرملةِ الفقيرة- دون أن يقول في البداية "لا تخفَ!" أو "لا تخافي!". في يسوع، اقتربَ الله من الإنسان.

من كتاب: التقِ الكتاب المقدَّس

٢١ كانون الأوَّل/ديسمبر

عيد ميلاد كونيّ

في الأصحاح الثاني عشر من سفر الرؤيا، يستخدمُ الرسولُ يوحنَّا رموزًا كونيَّة غريبة: امرأة حُبلى متسربِلةٌ بالشمس، وتنّينٌ أحمَرُ ضخمٌ ذو سبعة رؤوس، حتَّى إنَّ ذيلَه يُسقِطُ ثلث نجوم السماء، هروبٌ إلى الصحراء، حرب في السماء. ويتَّفق أغلب المفسِّرين أنَّ لهذا الأصحاح علاقةً بميلاد يسوعَ وتأثيره في العالم. يولَد طِفلٌ فيرتعدُ الكون.

يعني هذا أنَّ رؤيا يوحنَّا ١٢ يقدِّم الميلاد من منظورٍ كَونيٍّ، مُضيفًا مجموعةً جديدةً من الصُّور إلى مشاهد الرُّعاة والمذود ومذبحة الأبرياء. ما كان منظورًا على الأرض كان أشبَه بالأمواج السطحيَّة، أمَّا في الأعماق فهناك تصدُّعات تُزلزلُ أساساتِ الخليقة كلِّها. وفي حين كان الملك هيرودس يحاول قَتْلَ الأطفال الذكور في بيت لحم، كانت القوى الكَونيَّة في حالةِ حربٍ ضروس من خَلفِ السِّتار.

من منظور العالم الروحيِّ، كان ميلاد المسيح أكثر من مجرَّد ميلاد طفل، بل كان نوعًا من الغَزْو. إنَّ الميلادَ هو الاختراقُ الحاسم في الصراع الكبير من أجل إنقاذ الكون. ويرسم سفر الرؤيا صُورةَ هَذا الصِّراع في صُورَةِ قَتل التِّنِّين الذي يُقاوِمُ قُوى الخير في هذا الوجود.

ما الصورة "الحقيقيَّة" للميلاد؟ إنَّها صورةٌ واحدة. الصورةُ نفسُها، مَروِيَّةٌ من زاويتَين مختلفتَين. وتمثِّلُ هذه الرؤية لميلاد المسيح في رؤيا ١٢ نمطَ السِّفر كلِّه، الذي فيه يدمجُ يوحنَّا ما بين الأمور المنظورة وتلك غير المنظورة. في الحياة اليوميَّة، هناك تاريخان متوازيان يحدثان في الوقت نفسه: واحد على الأرض وواحد في السماء. أمَّا سفر الرؤيا، فيرفع الستار الفاصل لنراهُما معًا. ويتركُ هذا الانطباعَ أنَّنا ونحن نتَّخذُ قراراتنا اليوميَّة نؤثِّر في العالم غير المنظور.

يُصوِّر سفر الرؤيا التاريخَ بواسطة صُوَرٍ مُتقابلة: الخيرَ مقابل الشَّرّ، والحَمَلَ في مواجهة التِّنِّين، أورشليم أَمَامَ بابِل، العروس والزانية. لكنَّه يؤكِّد أيضًا أنَّه مهما كان ما يبدو من منظورنا المحدود، يظلُّ الله هو صاحبَ السلطان على كلِّ التاريخ. وفي النهاية سيُحقِّقُ الاشرارُ رَغمًا عنهم الخُطَّة التي وَضَعَها الله لهم. لقد كان بيلاطُسُ البنطيُّ وجنودُه الرومان أمثلةً على هذه الحقيقة. كانوا يظنُّون أنَّهم يتخلَّصون من يسوع بصلبه، لكنَّهم دون أن يَدروا أتاحوا الخلاص للعالم.

من كتاب: التقِ الكتاب المقدَّس

٢٢ كانون الأوَّل/ديسمبر

كَونَان مُتوازيان

يَميلُ الشَّك لأنْ يغمرَني أحيانًا. أنا لا أهتمُّ كثيرًا بالفروق ما بين العقائد الخاصَّة، لكنْ كثيرًا ما أضبطُ نفسي وأنا أتساءل عن المنظومة الكُبرى للإيمان.

مثلًا، أقفُ في مطار دَنفر، أشاهد أشخاصًا يبدون مُهمِّين يرتدون بدلاتٍ أنيقةً ويحملون على أكتافهم حقائب جلديَّة أنيقة كما يحمل الجنودُ السلاح. يقفون عند منصَّات القهوة يحتَسون الإسبرسو على عجل قبل أن ينطلقوا نحو الاجتماع التالي. أجِدُني أتساءل: هل يُفَكِّر أحدُهُم في الله؟

يشتركُ المسيحيُّون في إيمانٍ غريبٍ بكونَين متوازِيَين. أحَدُهُم يَتكوَّنُ من الزجاج والحديد وملابس صوفيَّة وحقائب جلديَّة ورائحة القهوة المطحونة حديثًا، أمَّا الآخر فيتكوَّن من ملائكة وقوى روحيَّة شرِّيرة وأماكن أخرى لا نراها تُسمَّى السماء والجحيم. نحن نقطنُ في العالم المادِّيِّ، أمَّا أنْ يحسبَ الإنسانُ نفسَه مواطنًا في العالم الآخر غير المنظور، فهذا أمرٌ يتطلَّبُ إيمانًا.

من وقتٍ إلى آخر، يتلامس العالمان أمامي، وهذه الأوقات هي المراسي لإيماني. عندما أمارسُ الغوصَ عند الشِّعاب المَرجانيَّة، تفتح ومضاتُ الألوان الزاهية والتصميمات البارعة للشِّعاب والأسماك نافذةً أمامَ عينيَّ، فأكاد أرى الخالق المبدعَ المبتهجَ بجمالِ خليقتِه. وعندما تغفر لي زوجتي ما لا يستحقُّ الغفران، فهذا أيضًا يفتحُ لي نافذةً، ويسمح لي بمشاهدة لمحاتٍ من النعمة الإلهيَّة.

صحيحٌ أنِّي أحصل على مثل هذه اللحظات، لكنْ تأتي أيضًا أبخرةٌ ودخانٌ سامٌّ من العالم المادِّيِّ، وتتسلَّلُ إلى روحي. الجاذبيَّة الجنسيَّة! السُّلطة! الثروة! القوَّة العسكريَّة! يقولون لي إنَّ هذه الأمورَ هي أهمُّ ما في الحياة، وليس الأهمُّ هو تعاليمَ يسوع الأخلاقيَّة اللطيفة في موعظته على الجبل. والأمرُ عندي هو أنَّ الحياة في عالم ساقط، تجعلُ الشكَّ أقرب إلى النِّسيان من عدم الإيمان.

وبصفتي مواطِنًا في العَالَمِ المَنظور، أعلمُ جيِّدًا الصراعَ اللازِمَ لالتزام الإيمان في عالم آخرَ غير منظور. وهنا يقلبُ ميلاد المسيح الأمورَ، ويُشيرُ إلى الصراع الحادث عندما ينزل الله ليحيا بحسب قواعد أَحَدِهما. في بيت لحم التقى العالمان ليتَصالَحا. وما أنجزَه يسوع المسيح على كوكب الأرض جعلَ من الممكن أن يُعيدَ الله التناغمَ إلى هذين العالَمَين. فلا عجبَ إذًا أن تنفجِرُ جَوقةُ الملائكة في الترنيم، موقِظةً ليس فقط مجموعةً من الرعاة المتبَدِّين، بل أيضًا الكونَ بأسره.

من كتاب: العثور على الله في أقلِّ الأماكن توقُّعًا

انقسامُ التاريخ

على خلاف أغلب الناس، لا أشعرُ بحنين إلى جوِّ روايات تشارلز ديكنز في موسم الميلاد. في طفولتي الباكرة، حَلَّتِ الأعياد بعد وفاة والدي بأيّام قليلة، فصارت كلُّ ذكرياتي عن موسم الميلاد مظلَّلةً بهذه الأحزان. ربَّما لهذا السبب، من النادر أن تتحرَّكَ مشاعري لرؤية مشاهد المغارة أو أشجار الكريسماس. لكنَّ عيد الميلاد اكتسب بمرور الوقت معانيَ أكبرَ وأعمقَ، في المقام الأوَّل بكَونِه إجابةً عن شكوكي، وترياقًا مُتجدِّدًا للنِّسيان الذي ينتابني من وقتٍ إلى آخر.

في عيد الميلاد، يلتقي العالمان، المادِّيُّ والرُّوحيُّ معًا. وعندما تقرأ الكتاب المقدَّس بالتوازي مع كتابٍ تمهيديٍّ عن الحضارة الإنسانيَّة، فسوف تُدركُ أنَّ هذا نادرًا ما يحدث. وتتأمَّل مثل هذه المراجع أمجادَ الحضارة المصريَّة القديمة، والأهرام والمعابد، أمَّا سفر الخروج، فيذكُرَ اسم قابلتَين عبرانيَّتين، ويتجاهَلُ ذِكْرَ اسم فِرْعَونِ البلاد تمامًا. وفي حين يمجِّدُ المرجعُ التاريخيُّ الإسهاماتِ الحضاريَّةَ لكلٍّ منَ اليونان وروما، فإنَّ الكتاب المقدس يحتوي على إشاراتٍ ضئيلةٍ إلى كلا الطرفَين، وأغلبها إشاراتٌ سلبيَّة، ويعامل الحضارات الإنسانيَّة العظيمة فقط بوصفها خلفيَّةً ثابتةً لعمل الله وسط الأمَّة العبرانيَّة.

لكنْ في يسوع، يتَّفق الكتابان للمرَّة الأولى. فتحتُ حاسوبي هذا الصباح وشاهدتُ التاريخ المعروضَ، وفيه اعترافٌ ضِمْنيٌّ بما يؤكِّده الإنجيل والتاريخ معًا. سواء كُنتَ تؤمن أم لا تؤمن، فإنَّ ميلاد يسوع كان مهمًّا حتَّى إنَّه قسمَ التاريخَ نصفين. وكلُّ ما حدث على ظهر هذا الكوكب، حدث إمَّا قبل ميلاد المسيح وإمَّا بعدَ ميلاده.

في الظلام البارد، ما بين تلال أورُشليم المتعرِّجة، دخل الله الزمان والمكان، وهو الذي ليس عنده قبل أو بعد. الإله غير المحدود خضعَ لحدود جلدِ طفلٍ وليدٍ، خضعَ أيضًا للمحدوديَّة القابلة للموت. حتَّى إنَّ أحدَ الرسلُ يكتب عنه لاحقًا: "هو صورة الله غير المنظور، بكر كل خليقة. الذي هو قبل كل شيء، وفيه يقوم الكُلّ". لكنَّ شهود العِيان القلائل لِلَيلة الميلاد الأولى لم يرَوا أيَّ شيءٍ من ذلك، بل كلُّ ما رأوه هو طفلٌ رضيعٌ يحاول للمرَّة الأولى أن يستخدمَ رئتَيه في التنفُّس.

من كتاب: العثور على الله في أقلِّ الأماكن توقُّعًا

٢٤ كانون الأوَّل/ديسمبر

النُّزول

ماذا يمكن أن يكونَ أقلَّ تهديدًا من وليد يحرِّك أطرافه بحركاتٍ فجائيَّة غير متوافقة، ولا تستطيع عيناه أن تركِّزا على ما تَرَياه؟ لقد خلعَ الملك رداءَه الملكيَّ. تأمَّلِ التنازل: التجسُّد، الذي شطر التاريخ شطرَين، كان شهودُه من الحيوانات أكثر من البشر. تأمَّل أيضًا المخاطرة. ففي التجسُّد، عبَرَ الله الهُوَّة السحيقة التي فصلت بينه وبين البشر. لكنَّ إزالة هذا الحاجز، جعل يسوع محدودًا ومعرَّضًا للخَطَر بشدَّة.

يقولُ فريدريك بوشنر في كتابه "**الظلام الجائع**" *(The Hungering Dark)*:

"يعني الميلاد لمن يؤمنون بالله أنَّ الله نفسَه لم يَعُدْ بمأمنٍ من البشر، وربَّما يكون هذا الجانب المظلم للميلاد، وهو يشكِّلُ رُعبَ الصَّمت والسَّلبيَّة. لقد أتى الله إلينا بطريقةٍ تجعَلنا قادرين أن نرفضَهُ ونُحبِطَهُ. من السهل جدًّا أن نُهَشِّم جمجمةَ طفل رضيع، وعندما يكبر إلى حدٍّ لا نستطيعُ معه تهشيمَ الجمجمة، سَمَّرنا يدَيه وقدمَيه إلى صليب".

كيف شعر الله يوم الميلاد؟ تخيَّل لِلَحظةٍ أنَّك صرتَ مولودًا جديدًا، أو أنَّك تحوَّلتَ من إنسانٍ إلى كائنٍ بَحَري دقيق لا يكاد يُرى بالعين المُجردة- ربَّما هذا التشبيه أقرب. في ذلك اليوم في بيت لحم، أخذ خالق كلِّ الأشياء شكل وليد ضعيف عاجز.

أمَّا التعبير الذي يستخدمه اللاهوتيُّون لوصف تخلِّي المسيح عن ميِّزاته الإلهيَّة فهو الإخلاء. والغريب أنَّه رغم أنَّ مثل ذلك التخلِّي تضمَّن الكثير من الإذلال، فإنَّه تضمَّنَ أيضًا نوعًا من الحرِّيَّة. لقد تأمَّلتُ أحيانًا ما يُمكن أن نُسمِّيه "عيوب" الأبديَّة. مَنَح الجسدُ المادِّيُّ المسيحَ حُرِّيَةَ أن يتصرَّف على قياس بشريّ، لكنْ دون تلك "العيوب".

لقد صار يستطيع أن يقول ما يريدُ قَولَه دون أن يقتلعَ صوتُهُ الأشجار. يُمكنه أن يعبِّرَ عن غضبه بأنْ يدعو هيرودس الملك ثعلبًا أو بأن يضفر سوطًا في الهيكل، بدلَ أن يزلزل الأرضَ بحضوره العاصف. ويمكن أن يتكلَّم إلى مَن يريد- إلى امرأةٍ زانية، أو رجل كفيف، أو أرملة مكلومة، أو أبرصَ- دون أن يسبقَ كلامَه بعبارة: "لا تخَف" (التي تنطقُ بها الكائنات السماويَّة عندَما تُقابِلُ البشر).

من كتاب: عندما لا تمطر السماء

٢٥ كانون الأوَّل/ديسمبر

تكلَّمَ "الكلمة"

في أثناء الأسبوعَين اللذين انعزلت فيهما في قُمرة صغيرة وسط جبال كولورادو، أغلقَتِ العاصفةُ الثلجيَّة الطُّرقَ، فلم يكُنْ لديَّ شيء أفعله سوى أن أقرأ الكتاب المقدَّس. رحتُ أقرأ ببُطء صفحةً تلو الأخرى. في العهد القديم، وجدْتُ نفسي أتوحَّدُ مع الذين وقَفوا أمامَ الله بشجاعة: موسى وأيوب وإرميا وحبقُّوق وناظِمو المزامير. وعندما رحتُ أقرأ، شعرتُ بأنِّي أشاهدُ مسرحيَّةً أبطالُها شخصيَّاتٌ إنسانيَّةٌ عاشت حياتها في انتصارات صُغرى ومآسٍ كُبرى. ومن وقتٍ إلى آخر يصرُخون صرخاتِ استغاثةٍ أو شكوى إلى مدير المسرح غير المنظور: "أنت لا تعلمُ كيف نشعر هُنا".

كان أيُّوب أكثرهم جسارةً عندما ألقى بهذا الاتِّهام في وجه الله: "ألك عَينا بشر، أم كنَظَرِ الإنسانِ تنظُرُ؟". كثيرًا ما كُنتُ أستطيع أن أسمعَ صدى صَوتٍ يدوي من مكانٍ بعيدٍ عن خشبة المسرح، من خلف الستار. "أجل! وأنت أيضًا لا تدري كيف تسير الأمور هنا". قيل هذا لموسى وللأنبياء وبأوضح صورة لأيُّوب. لكنِّي عندما وصلتُ إلى الأناجيل، لاحظتُ صَمْتَ الأصوات المتَّهِمة. إذا كان لي أن أستخدمَ هذه اللغة، فسأقولُ إنَّ الله "اكتشف" كيف تكون الحياة في حدود ذلك الكوكب. لقد اختبرَ شخصيًّا، الحزن والفقد، وذلك بحياةٍ قصيرةٍ مُضطربةٍ عاشَها ليس بعيدًا عن السهول المُتربة ذاتها التي كان يعاني فيها أيُّوب جرَّاءَ مصائبه.

من بين الأسباب الكثيرة للتَّجَسُّد، كانَتِ الإجابةُ عن اتِّهام أيُّوب له أنَّه لا يشعُر: "ألك عَينا بَشَر؟" أجل، لقد كان له حقًّا على مدى مدَّةٍ من الزمن.

أتمنَّى أحيانًا لو أستمعُ إلى صَوت الله من وسط العاصفة، كما أتمنَّى أن أحاوِرَه مباشرةً مثل أيُّوب. وربَّما لهذا السبب اخترتُ أن أكتبَ عن يسوع.

ليس الله أبكمَ؛ لأنَّ "الكلمةَ" تَكَلَّم، ليس فقط من العاصفة، بل من حَنجَرةِ إنسانٍ يهوديٍّ من الناصرة. في يسوع، استلقى الله على طاولة التشريح، مُمَدَّدًا في وَضْع الصَّلب كي يتفحَّصه كلُّ المتشكِّكين الذين عاشوا على وجه الأرض، بمن فيهم أنا.

من كتاب: يسوع الذي لم أكن أعرفه

يسوع في الأفلام

اتَّخذ بحثي عن يسوع اتِّجاهًا جديدًا عندما أقرضني المنتج السينمائيُّ مَل وايت (Mel White) مجموعةً من خمسةَ عشرَ فيلمًا عن حياة يسوع تراوحت ما بين الفيلم الكلاسيكيِّ الصامت "ملك الملوك" الذي أنتجَه عام ١٩٢٧م سيسيل بي. دي ميل (Cecil B. De Mille) إلى الأفلام الموسيقيَّة مثل "السحر الإلهيّ" (Godspell)، والإنجيل للجميع (Cotton Patch Gospel)، إلى المعالجة الحديثة الفرنسيَّة الكنديَّة "يسوع مونتريال" (Jesus of Montreal).

لقد راجعتُ هذه الأفلام جيِّدًا، دارسًا إيَّاها مشهدًا مشهدًا. ثمَّ لسنتَين تاليتين درَّستُ فصلًا دراسيًّا عن حياة يسوع، مُستخدِمًا هذه الأفلام بوصفها منصَّة انطلاق لمناقشاتنا في هذا الفصل الدراسيّ.

كان الفصل يعمل على النحو التالي: عندما كُنَّا نأتي إلى حدث كبير من أحداث حياة يسوع، كنت أتَفَقَّد الأفلام المختلفة وأختار منها سبع أو ثمانيَ معالجات متنوِّعة لهذا الحدث، تبدو جديرة بالاهتمام. وعندما كان الفصل يبدأ، كُنتُ أعرض مقتطفات من دقيقتَين وأربع دقائق من كلِّ فيلم، مبتدئًا من المعالجات الكوميديَّة إلى الأكثر صلابة وُصولًا إلى المعالجات الأعمق والأكثر إثارة للفكر. لقد وجدنا أنَّ مشاهدةَ الحدث بعُيون سبعة أو ثمانية مخرجين تساعدنا أن ننطلق خارج الصَّدء الذي اعتلى قصص حياة يسوع بسبب الاعتياد والتوقُّع الذي ترسَّب عليها عبر سنوات القراءة والاستماع في مدارس الأحد والكنيسة وغيرها. من الواضح أنَّ بعض من التفسيرات التي قدَّمتْها هذه الأفلام خاطئ، وهي تناقض بعضها بعضًا على نحوٍ فاضح. لكنْ أيُّ التفسيرات كانَ الخاطئ؟ ما الذي حدث فعلًا؟

النقطةُ الأهمُّ هي أنَّ هذه الأفلام ساعدَتْني أن أُعيدَ رؤيةَ إنسانيَّةِ يسوع؛ ففي حين تتكلَّمُ العقائد المتكرِّرة في الكنائس كثيرًا عن سبق وُجودِ المسيح وحياته المجيدة بعد القيامة، فإنَّها تتجاهل إلى حدٍّ بعيد، حياتَه الأرضيَّة. حتَّى الأناجيل نفسها كُتِبَت بعد مَوته وقيامته بعشرات السنين، لتقدِّم تقريرًا عن أحداث تمَّت في ماضٍ بعيدٍ نسبيًّا عن وقت الكتابة، مثل بُعد الحرب الكوريَّة مثلًا عنَّا اليوم. لقد ساعدتني هذه الأفلام أن أعودَ إلى الماضي أكثر لأستشعر حياة يسوع كما رآها معاصروه. كيف يمكن أن يشعر المرء وهو يقف على أطراف الجمع الكبير الملتفِّ حول يسوع؟ كيف كان يمكن أن يكون تجاوُبي مع ذلك الإنسان إذا كنتُ من معاصريه؟ هل كُنتُ سأدعوه لتناوُلِ العشاء مثلًا، كما فعل زكَّا؟ هل كنتُ سأمضي حزينًا مثل الشابِّ الغنيّ؟ هل كنتُ سأخونُه مثلما فعل يهوذا وبطرس؟

من كتاب: يسوع الذي لم أكن أعرفه

٢٧ كانون الأوَّل/ديسمبر

مَن كان هذا المسيح؟

في عام ١٩٧١م، شاهدت للمرَّة الأولى فيلم "الإنجيل بحسب القدِّيس متَّى"، من إخراج الإيطاليِّ بيير باولو باسوليني (Pier Paolo Pasolini)، وقد أثار عرض هذا الفيلم حفيظةَ المؤسَّسة الدينيَّة، التي نادرًا ما تلاحظ يسوع على الشاشة، والمثير كذلك أنَّه أثار المجتمعَ السينمائيَّ الذي يعرف باسوليني بوصفه مثليًّا وماركسيًّا أيضًا.

يُمكنُ أن يَفهَم تأثير فيلم باسوليني فقط من اجتازوا المراهقةَ في تلك المرحلة المضطربة. في ذلك الوقت، كان لذلك الفيلم القدرة أن يُسكت الجماهير الساخرة في المسارح الفنِّيَّة. وقد أدرك الطلبة الراديكاليُّون أنهم ليسوا أوَّل مَن أعلنَ رسالةً ثوريَّةً في مواجهة المادِّيَّة والنفاق الذي في المجتمع، ورسالةً مؤيِّدةً للسَّلام والمحبَّة. لقد فعل يسوع ذلك من قبلهم.

من جهتي، أقول إنَّ الفيلمَ ساعدَني أن أُجريَ إعادةَ تقييم مُقلِقة للصُّورة الذهنيَّة التي كانت لديَّ عن يسوع. ومن جهة المظهر الخارجيّ، يبدو أنَّ يسوع كان يُفضِّل أولئك المطرودين من كليات اللاهوت، وأولئك المرفوضين من أغلب الكنائس، فقد كانت ليسوع شهرةً بين مُعاصريه أنَّه "أكول وشِرِّيب خَمر". وهؤلاء الذين كانوا في السُّلطة، سواء كانت سلطة سياسيَّة أم دينيَّة، كانوا يحسبونه مثيرًا للمشكلات، ومُقلقًا للسِّلم المجتمعيّ. كان يسوعُ يتكلَّم ويتصرَّف من منطلَقاتٍ ثوريَّة؛ فكان يستهزئ بالشُّهرة، ولا يهتمُّ بأن تكونَ لديه أُسرةٌ أو أملاك، أو غيرها من المقاييس التقليديَّة للنَّجاح. لا أستطيع أن أتجنَّبَ حقيقةَ أنَّ الكلمات التي كانت في سيناريو فيلم باسوليني مأخوذة بالكامل من إنجيل متَّى، وأنَّ رسالتها لم تتناسب بصورةٍ واضحة مع مفهومي السابق عن يسوع.

في ذلك الوقت ذاته تقريبًا، أَسَّسَ بِل ميلِكين (Bill Milliken)، وهو من خدمة حياة الشباب (Young Life)، مجتمعًا علاجيًّا في الأحياء الفقيرة في وسط المدينة، كما أَلَّفَ كتابًا بعنوان "**وداعًا يسوع اللطيف**" *(So Long, Sweet Jesus)*. وقد عَبَّرَ هذا الكتاب عمَّا كان يحدثُ في داخلي. في تلك الأيَّام، كنتُ أعمل محرِّرًا في مجلَّة "الحياة الجامعيَّة" (Campus Life)، وهي إحدى منشورات مؤسَّسة شباب من أجل المسيح (Youth for Christ). وعندما كنت أكتب أو أحرِّر كتابات الآخرين، كنتُ أتساءل: مَن يكون هذا المسيح؟ كانت روحَ شكٍّ صغيرةً قد بدأت تحوم حولي وتهمس لي: هل تؤمن بهذا حقًّا؟ أم أنَّك تُساير الجوَّ حولك، وتُمارس ما يدفعون لك لكي تؤمن به؟ هل انضممَتْ إلى إحدى المؤسَّسات المُحافظة الآمنة– وهي النُّسَخ الحديثة للمجموعات الدينيَّة ذاتها التي شعرَتْ بالتهديد بسبب يسوع؟

من كتاب: يسوع الذي لم أكن أعرفه

لقد كنتَ هناك

تُصِرُّ باربرا توكمان (Barbara Tuchman) المؤرِّخة الحاصلة على جائزة پوليتزر على قاعدةٍ واحدةٍ في كتابة التاريخ: لا ينبغي أن نكتبَ من منطلق أنَّ القارئ يعرفُ الأحداث التي نتناولها. عندما كانت تكتب عن معركة الثَّغرة في الحرب العالميَّة الثانية مثلًا، كانت تُقاوِم إغراء أن تُضيف جملةً مثل: "ودون شكّ، كلُّنا يعلم كيف انتهت الأمور". في واقع الأمر، لم تعرفْ قوَّات الحلفاء التي خاضت معركةَ الثَّغرة كيف كان يمكن أن تنتهيَ المعركة. من ظاهر الأمور، كان يمكن أن تدفعَهم الرغبة في العودة إلى شواطئ نورماندي التي جاءوا منها.

المؤرِّخ الذي يريد أن يحتفظ بما يُشبه التوتُّر الموجود في دراما الأحداث كما كانت تتكشَّف، لا يجرؤ أن يستخدم النظرة المستقبليَّة لسرد الأحداث من منظور بَعديّ. على العكس من ذلك، فإنَّ المؤرِّخَ الجيِّد يحاول أن يخلق لدى القارئ التوتُّر نفسه الذي كان يشعر به مَن كانوا في قلب الأحداث، وهي تتكشَّف لحظة بلحظة وكأنَّه هناك.

وأرى أنَّ هذه هي المُشكلة في كلِّ كتاباتنا وتفكيرنا عن يسوع. إنَّنا نقرأ الأناجيل من عدسة مَن يعرف ما آلَتْ إليه كلُّ المجامع الكنسيَّة من نيقية إلى خلقدونيَّة، ومن محاولات الكنيسة أن تفهمَ هُوِيَّةَ يسوع. لقد كان إنسانًا يهوديًّا في الجليل له اسم وله أسرة، فكان شخصًا، بشكلٍ أو بآخر، مثل أيٍّ منَّا. لكنَّه كان بصورةٍ أُخرى مختلفًا عن كلِّ مَن عاشوا على وجه هذه الأرض.

لقد استغرقت الكنيسة خمسة قرون من الجدل المحموم كي تتَّفق على شكل من أشكال الاتِّزان المعرفيِّ ما بين "مثل أيٍّ منَّا" و"مُختلف عن أيٍّ منَّا". فالأمر للَّذين تربَّوا في الكنائس، أو حتَّى في ثقافة مسيحيَّة اسميَّة، هو أنَّ هذا الاتِّزان سيَميلُ بالتأكيد إلى كفَّة "مُختلف عن أيٍّ منَّا". كما قال پاسكال: "إنَّ لدى الكنيسة صعوبةً كبيرةً في أن تعلِنَ أنَّ يسوع المسيح كان إنسانًا، في مواجهة الذين يُنكرون ذلك، كما تجد أيضًا الصعوبة نفسها أن تُعلن أنَّه كان الله، والاحتمالات كثيرة في الاتِّجاهَين".

فلأَقُلْها بوضوح: إنِّي أَشدِّدُ على العقائد، لكنِّي أَتمنَّى في كتابتي أن أنظرَ قدرَ المستطاع إلى حياة يسوع "من أسفل"، وأشاهده كما كان يشاهده أيٌّ من الجموع الذين كانوا مُلتفِّين حوله. وأَتمنَّى، مُستخدمًا كلمات لوثر، أن "أجتذب يسوع، بأكثر عُمق مُمكن نحو إنسانيَّتي".

من كتاب: يسوع الذي لم أكن أعرفه

٢٩ كانون الأوَّل/ديسمبر

استئناسُ الأسد

يختلف يسوع كثيرًا عن نوعيَّة مستر روجرز (الرجل الوديع اللطيف صديق الأطفال) الذي قابلتُه في مدارس الأحد. ويختلف أيضًا عن الشخص الذي درستَ عنه في كلِّيَّة اللاهوت. أوَّلًا، يكمن الفرق في أنَّ يسوع الحقيقيَّ كان أقلَّ استئناسًا جدًّا من هذه الشخصيَّات. في الصورة السابقة التي كانت في ذهني عن يسوع، كان يشبه شخصيَّة ڤولكان (Vulcan) في فيلم حرب النجوم (Star Trek): يظلُّ هادئًا ساكنًا رابط الجأش، وهو يسير مثل إنسان آليٍّ وسط بشر قابلين للإثارة في السفينة الفضائيَّة الكُبرى، أي الأرض. ليس هذا مَن رأيتُ أنَّ الأناجيل أو أفلام يسوعَ الجيِّدة تُصوِّرُه. لقد كان الآخرون يؤثِّرون في يسوع بعُمق: كان يُحبِطُهُ العناد، ويُغضبه البرُّ الذاتيّ، كما كان الإيمان البسيط يجعله يتهلَّل. في الواقع، كان يبدو أكثر عاطفيَّةً وتلقائيَّةً من الإنسان العاديِّ، وأكثر وَجدًا وشغفًا من أغلب الناس.

كلَّما درستُ شخصيَّة يسوع، كان صعبًا عليَّ أن أضعَه في حيِّزٍ محدَّد لا يتعداه. لقد تكلَّم يسوع قليلًا عن الاحتلال الرومانيّ، لكنَّه أخذَ سَوطًا وطردَ مجموعةً مع المُنتفعين الصِّغار في الهيكل. كان يوصي باحترام الشريعة اليهوديَّة، وفي الوقت نفسه شاعتِ الأخبارُ عنه أنَّه كان ينتهك النَّاموس. كان يتألَّم كثيرًا من فرط التعاطف مع أحد الغرباء، وفي الوقت نفسه، ينتهر أقرب أصدقائه انتهارًا شديدًا قائلًا له: "ابعد عنِّي يا شيطان!". كانت لديه وجهات نظر لا يتنازل عنها تُجاه المال والزنى، لكنَّ الأغنياء والمنفلتين جنسيًّا تمتَّعوا بصُحبته.

في يومٍ تنساب منه المعجزات بلا حساب، وفي اليوم التالي كانت قوته لصُنع المعجزات تبدو كأنَّها توقَّفت بسبب عدمِ إيمان الناس. اليوم يتكلَّم بالتفصيل عن مجيئه الثاني، وغدًا لا يعرف لا اليوم ولا الساعة التي يأتي فيها ابنُ الإنسان. ذات مرَّة يهرب من القبض عليه، ثمَّ يسير نحو ذلك بخُطًى ثابتة. كان يتحدَّث ببلاغةٍ شديدة عن صُنع السلام، ثمَّ يوصي تلاميذه بشراء سيوف. كان يتكلَّم عن نفسه كلامًا عظيمًا يجعله في مركَز الجدل، لكنَّه عندما كان يُجري معجزةً، كان يميل إلى الحفاظ عليها سرًّا. كما قال والتر وينك (Walter Wink): إذا لم يكن يسوع قد عاش بالفعل، لما استطعنا أن نخترعَه بهذه الصورة بتاتًا.

كلمتان لا يُمكن أن يُطلقَهما المرء على يسوع الأناجيل: مُمِلّ، ومُتَوَقَّع. فكيف استطاعت الكنيسة أن تستئنس مثل هذه الشخصيَّة؟ أو بحسب تعبير دوروثي سايرز (Dorothy Sayers): "كيف قلَّمَتِ الكنيسةُ أظافرَ أسدِ يهوذا لتجعلَه قطًّا منزليًّا أليفًا يُناسِب رجال الدِّين الشاحبين، والنسوة العجائز؟".

من كتاب: يسوع الذي لم أكن أعرفه

السببُ الأساسيّ

يُصحِّحُ يسوع مفاهيمي الغائمة عن الله، ومن دونه، لخرجتُ بصورةٍ مختلفةٍ تمامًا عن الله. كان يمكن دونَه أن يكونَ إلهي إلهًا جامدًا ساكنًا بلا حراك أو تغيير. لكنْ بسبب يسوع، يجب أن أعدِّلَ هذه المفاهيم الغريزيَّة التي لديَّ (هل كان تغيير المفاهيم عن الله في محور إرساليَّته؟). يكشف يسوع عن إله يأتي باحثًا عنَّا، ويسمح لنا بالحرِّيَّة، ويُعَرِّض ذاتَه لرفضنا ولَومنا وإهانتنا. وفوق كلِّ شيء هو إله محبَّة.

قد لا يستطيعُ مَن تربَّوا في الثقافة المسيحيَّة استيعابَ صدمة رسالة يسوع، لكنْ في الواقع، فإنَّه بخلاف يسوع، ليست المحبَّة أبدًا هي الطريقة الطبيعيَّة لوصف ما يحدث ما بين البشر وإلههم. لم تنسب معظم الأديان الرئيسيَّة الأُخرى كلمة "محبَّة" إلى الله. وأرسطو قال بصراحة: "من الغريب لأيِّ إنسان أن يَدَّعي أنَّه يحبُّ زيوس"، أو أنَّ زيوس يُحبُّ إنسانًا. وفي تضادٍّ صادِم، يؤكِّد الكتاب المقدَّس أنَّ "الله محبَّة"، ويشير بوضوح إلى أنَّ المحبَّة هي السبب الأساسيُّ في مجيء يسوع إلى الأرض: "هكذا أحبَّ الله العالم حتَّى بذل ابنه الوحيد لكيلا يهلِك كلُّ مَن يؤمن به بل تكون له الحياة الأبديَّة".

أذكُر ليلةً طويلةً أمضيتها في مطار أوهير (O'Hare Airport) في مدينة شيكاغو أنتظر بصبر نافدٍ رحلةً تأخَّرتْ خمس ساعات. كانت الصديقة الكاتبة، كارين مينز (Karen Mains)، بالصدفة مسافرةً معي إلى المؤتمر نفسه. كنتُ في ذلك الوقت أؤلِّف كتاب "عندما لا تُمطر السماء"، وكُنتُ مُتأثِّرًا جدًّا بآلام الناس وأحزانهم وشكوكهم وصلواتهم غير المُستجابة.

استمعت كارين إليَّ في صمتٍ مدَّةً طويلة، ثمَّ من حيث لا أدري طرحتْ سؤالًا ظلَّ معي دائمًا: "هل سمحت يا فيليب ببساطةٍ لله بأنْ يُحبُّك؟ أعتقد أنَّ الأمر مُهمّ".

لقد أدركتُ مُباشَرَةً أنها سَلَّطَت ضَوءًا على الفجوة الشاغرة في حياتي الروحيَّة. ورغم أنِّي عشتُ طويلًا في قلب الإيمان المسيحيّ، فقد غابَتْ عنِّي الرسالة الأهمّ: أنَّ قصَّة يسوع هي قصَّة الاحتفال بمحبَّة الله. هل تتضمَّنُ القصَّةُ أيضًا ألمًا وإحباطًا؟ أجل، تتضمَّنُ ألمًا وإحباطًا لله، ولنا أيضًا. لكنَّ يسوع يُجسِّدُ الوعد بإله يفعل أيَّ شيء ليستعيدَ أُسْرَته الإنسانيَّة.

"اكتشاف يسوع"، مجلَّة المسيحيَّة اليوم، ١٧ حَزيران/ يونيو، ١٩٩٦م

التجسُّد المستمرّ

قبل الإصلاح بأكثر من قرنَين، اندلعَ جدلٌ لاهوتيٌّ ما بين اللاهوتيِّ الرائد توما الأكوينيِّ ولاهوتيٍّ ناشئ من إنكلترا اسمه جون دَنز سكوتس (John Duns Scotus) وكان الجدل حول السؤال: "هل كان يسوع ليأتيَ، لو لم يخطئ الإنسان؟".

في حين كان الأكوينيُّ يرى أنَّ التجسُّد هو علاج الله للكوكب الساقط، كان مُعاصره يرى أنَّ هناك شيئًا أكبر على المحكّ؛ فقد رأى سكوتس أنَّ الكلمة صار جسدًا ليُمثِّل التصميم الأصليَّ الذي رسمه الله للإنسان، وليس مجرَّد حلٍّ لمشكلة أو خُطَّة بديلة بعد فشل الخُطَّة الأساسيَّة. كان الأكوينيُّ يشير إلى فِقرات كتابيَّة تؤكِّد الصليب بوصفه تفاعُلًا لعلاقة الإنسان المكسورة بالله. أمَّا سكوتس فأشار إلى فِقرات من أفسس وكولوسِّي تتحدَّث بشأن المسيح الكونيِّ الذي فيه أصل كلِّ شيء، وهو يحمل الكلَّ نحو الغاية النهائيَّة.

وفي النهاية قرَّرتِ الكنيسة أنَّ لكلٍّ من المقاربتَين سندٌ كتابيٌّ، ويمكن قبولهما بوصفهما كلَيهما إيمانًا قويًا. ومعَ ذلك، فقد مال لاهوتيون كُثُر إلى اتِّباع توما الأكوينيِّ، لكنْ في السنوات الأخيرة، درسَ لاهوتيٌّ كاثوليكيٌّ هو كارل رانر، رأي سكوتس، وربَّما على الإنجيليِّين المحافظين أن يحذوا حذوَه.

إنَّ عبارة بولس "في المسيح" تشير إلى واقع صار حيًّا أيضًا في تشبيه الكنيسة بوصفها جسد المسيح؛ فالكنيسة تمدُّ التجسد على مدى الزمن.

وفي عظة جميلة في أكسفورد، طرحَ أوستين فارر (Austin Farrer) السؤال الذي يخطر ببال أيِّ إنسان يربط ما بين تشبيه بولس المتسامي للكنيسة بوصفها جسد المسيح، والواقع الملموس للكنيسة، ويقولُ السؤال: "ماذا علينا أن نفعل حِيال تلك الهُوَّة السحيقة بين كوننا جسد المسيح، وأدائنا الفعليّ؛ كسلنا، وأنانيَّتنا ونجاستنا وتفاهتنا وسخافة صلواتنا؟ هذه هي الهوَّة الكائنة بين ما فعله المسيح بنا وما نفعله نحن بأنفسنا".

يقول فارر إنَّ علينا أن نفعل الأمرَ نفسَه الذي فعله تلاميذ المسيح: في اليوم الأوَّل من الأسبوع نجتمع "ونستذكرُ القيامةَ مرَّة أخرى". نُذَكِّر أنفسنا، مقتبسين كلمات بولس الرسول، أنْ لا دينونة الآن على الذين هُم في المسيح يسوع، وأنَّنا مَوتى في الذنوب والخطايا، لكنَّنا أحياء في المسيح يسوع، وأنَّه إنْ كان أحد في المسيح فهو خليقةٌ جديدة. الأشياء العتيقة قد مضت، هوذا الكُلُّ قد صار جديدًا (رومية ٨: ١، ٦: ١١؛ ٢كورِنثوس ٥: ١٧). باختصار، نواجه الحقيقة الباهرة: أنَّ الله يُطلُّ علينا عبرَ النظرة الافتدائيَّة التي في ابنه

يسوع المسيح.

عمود "الصفحة الخلفيَّة"، مجلَّة المسيحيَّة اليوم، كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٨م

شكرٌ وعرفان

قالت لي برندا كوين (Brenda Quinn) التي قرأت بعناية نحو مليونَي كلمة في الكُتُب والمقالات المختلفة لتختار هذه التأمُّلات: "سيكون هذا أسهَلَ كتابٍ تكتُبُه، يا فيليب". هذا حقيقيّ، وذلك بسبب السلسلة الطويلة من الأصدقاء والمُحرِّرين والناشرين الذين عملوا معي على مدار ثلاثة عقود. ولن أجرؤ على ذِكْر أسمائهم فردًا فردًا، خوفًا من نسيان بعض الأسماء، لكنَّني أودُّ أن أشكر تحديدًا فريق العمل في مجلَّة "الحياة الجامعية" (Campus Life)، ومجلَّة "المسيحيَّة اليوم" (Christianity Today)، علاوة على العاملين في دُور نشر زوندرڤان (Zondervan) ودبلداي (Doubleday) وإيردمانز (Eerdmans) وهودر فايث–المملكة المتَّحدة (Hodder Faith UK)؛ فالغالبيَّة العُظمى من التأمُّلات المُختارة جاءت من هذه المصادر.

دون شكّ، يتطلَّب تحرير كتابٍ تجميعيٍّ مثل هذا ونشره، القدر نفسه من الجهد المبذول في كتابٍ أصليّ. وقد وجد جون سلوان (John Sloan) وبوب هدسون (Bob Hudson) وزملاؤهما في زوندرڤان طريقة لصَقْل الكلمات ووضعها في مواضعها المُناسِبة، ثُمَّ تحويل ٣٦٦ تأمُّلٍ مُختار من الصيغة الإلكترونيَّة إلى كتابٍ ورقيّ. وفي الوقت نفسه، أنجَزَت مُساعِدَتي ميليسا نيكولسون (Melissa Nicholson) بروحٍ مبتهجة العمل المُمِلَّ الذي قد لا يقدِّره أحد، بتتبُّع هذه النصوص الكثيرة المُقتطَفَة لتأخذ طريقها وترتبط بأيَّام وشهور مختلفة. وظلَّت برندا كوين منخرطة في العمل في كلِّ مراحله، مُحتملة بطول أناةٍ تفضيلاتي العشوائيَّة. لذا لكلِّ واحد منكم أقول: شكرًا جزيلًا.

فيليب يانسي

قائمة المصادر

1. Disappointment with God (Grand Rapids, Mich.: Zondervan, 1988)

عندما لا تمطر السماء (من منشورات أوفير للطباعة والنشر).

2. Soul Survivor (New York: Doubleday, 2001)

بالكاد نجوت (من منشورات أوفير للطباعة والنشر).

3. The Bible Jesus Read (Grand Rapids, Mich.: Zondervan, 1999)
4. Church: Why Bother? (Grand Rapids, Mich.: Zondervan, 1998)
5. Finding God in Unexpected Places (New York: Doubleday, 2005)
6. Guidance (Portland, Ore.: Multnomah, 1983)
7. Helping the Hurting (Portland, Ore.: Multnomah, 1984)
8. I Was Just Wondering (Grand Rapids, Mich.: Eerdmans, 1989, revised edition 1998)
9. In the Likeness of God (Grand Rapids, Mich.: Zondervan, 2004)

على صورته (من منشورات دار الكلمة)

10. Indelible Ink: Twenty-Two Prominent Christian Leaders Discuss the Books That Shape Their Faith, Scott Larsen, editor (Foreword by Philip Yancey) (Colorado Springs: Waterbrook, 2003)
11. The Jesus I Never Knew (Grand Rapids, Mich.: Zondervan, 1995)
12. John Newton: From Disgrace to Amazing Grace, by Jonathan Aitken (Foreword by Philip Yancey) (Wheaton, Ill.: Crossway, 2007)
13. Meet the Bible (Grand Rapids, Mich.: Zondervan, 2000)
14. Money (Portland, Ore.: Multnomah, 1985)
15. Open Windows (Westchester, Ill.: Crossway, 1982)
16. Prayer: Does It Make Any Difference? (Grand Rapids, Mich.: Zondervan, 2006)

الصلاة: هل تُحدث أيَّ اختلاف؟ (من منشورات دار الكلمة)

17. Praying with the KGB (Portland, Ore.: Multnomah, 1992)
18. Reaching for the Invisible God (Grand Rapids, Mich.: Zondervan, 2000)

محاولة اللقاء مع إله غير منظور (من منشورات دار الكلمة)

19. Rumors of Another World (Grand Rapids, Mich.: Zondervan, 2003)

إشاعات من عالم آخر (من منشورات دار الكلمة)

20. A Syllable of Water: Twenty Writers of Faith Reflect Upon Their Art, Emilie Griffin, editor (chapter 14 by Philip

Yancey) (Orleans, Mass.: Paraclete, 2008)

21

. What's So Amazing About Grace? (Grand Rapids, Mich.: Zondervan, 1997)

ما أعجب النعمة (من منشورات دار منهل الحياة)

22

. Where Is God When It Hurts? (Grand Rapids, Mich.: Zondervan, 1990)

أين الله في وقت الألم؟ (من منشورات دار الكلمة)

* ملاحظة: يمكنك أن تجد مصادر مقالات المجلّات أسفل كلِّ تأمُّلٍ جرى اقتباسُه منها.

فهرس المواضيع بالإنكليزيَّة
Subject Index



فيليپ يانسي

تربَّى فيليپ يانسي في عائلةٍ محافظة من الجنوب الأميركيّ، وكان يميلُ إلى النظر إلى الله على أنَّه "شرطيٌّ ساخط يبحثُ عن أيِّ شخصٍ يحاول التمتُّع بحياته ليقبضَ عليه". هكذا يُعبِّر يانسي عن "تعافيه" من كنيسةٍ أدَّت ممارساتُها إلى ترسيخ هذه الصورة الخاطئة عن الله.

وينعكسُ هذا في ما قالَه مرَّةً: "أنا أؤلِّف كُتبًا لنفسي. أنا حاجٌّ أتعافى من التربية الكنسيَّة السيِّئة، وأبحثُ عن الإيمان الذي يجعلُ تابعيه أكبر لا أصغر. أشعر بعرفانٍ غامرٍ لتَمكُّني من وَضْعِ كتاباتٍ حيَّة في ما يتعلَّق بالأسئلة التي لطالمَا أثارت اهتمامي".

للمؤلِّف عدَّة كتبٍ منشورة، وقد تُرجمَ منها إلى العربيَّة من أوفير للطباعة والنشر أربعة كتب: "**عندما لا تمطر السماء**"، و"**بالكاد نَجوت**"، و"**السؤال الذي لا يغيب**"، و"**النعمة المُغيَّبة**".

للمزيد عن هذه الكتب، انظرِ الصفحات التالية.



عندما لا تمطر السماء

(Disappointment with God)

ثلاثة أسئلة لايطرحها أحدٌ جهرًا:

1. هلِ الله ظالم؟
2. أهو صامت؟
3. أهو مُختبئ؟

يُجيب يانسي عن هذه الأسئلة بوضوح وصدق ويقينٍ مُستمَدٍّ من الكتاب المقدَّس. وهو يأخذ بأيدينا لتَخطِّي خيبات الحياة، وما يمكن أن تُنتِجه من شكوك ولامبالاة وسخرية، إلى إيمانٍ بالله أقوى وأحكم، إلى ثقةٍ بمحبَّة الله الفائقة لنا، وعطشٍ ليس فقط إلى ما يُعطيه الله، بل لمن هو الله في ذاته وصفاته وأفعاله.



بالكاد نجَوت

(Soul Survivor)

هذا الكتاب أشبَهُ ما يكونُ بتَكريمٍ وعرفانٍ بالجميل لثلاث عشرة شخصيَّةً استثنائيَّة غيَّرت حياة يانسي وعملَه. بالإضافة إلى سَرْدِ تأثيرهم فيه، يقدِّم يانسي لمحاتٍ حديثةً عن حياةِ كلٍّ واحدٍ منهم ورحلة إيمانه. من الصحافيِّ المشتَّت الذِّهن، جي. كاي. تشيسترتون، إلى الروائيَّين المعذَّبَين، ليو تولستوي وفيودور دوستويفسكي، إلى معاصرين مثل د. پول براند وآني ديلارد وفريدريك بوشنر- يقدِّم يانسي صورًا مُلهِمةً لهؤلاء الَّذين قدَّموا إليه نموذجًا لإيمانٍ حيٍّ وحياةٍ مشرقة.



السؤال الذي لا يغيب

(The Question That Never Goes Away)

نتساءل جميعًا: أين الله؟ أين أنتَ يا الله؟

يتناوَلُ يانسي هذا "السؤال" في مدينة نيوتاون، حيثُ وقعَتْ حادثةُ القتل في مدرسةٍ ابتدائيَّة، ثمَّ في اليابان حيث أودَتْ أمواج التسونامي بحياة ١٩.٠٠٠ شخص، وأيضًا في مدينة سراييڤو (يوغسلاڤيا السابقة) حيثُ اندلَعتْ حربٌ أهليَّةٌ دامية لَقِيَ فيها ١١.٠٠٠ شخصٍ حتفَهم.

إلى الذين يبحثون عن إجاباتٍ في عالمٍ تعصفُ به المآسي والآلام، ولا سيَّما في منطقتنا العربيَّة شديدة الاضطراب، والتي تَقِفُ على صَفيحٍ ساخنٍ من النزاعات والإرهاب وعدم الاستقرار- نتمنَّى أن تجدوا في هذا الكتاب العَزاءَ والرجاءَ من جديد، لتكونوا مجهَّزين للتَّجاوُب مع معاناتكم بطريقةٍ لم يخطرْ لكُم قَطُّ أنَّها قد تكون ممكنة، وستَقترِبون من الله بدلَ الابتعاد عنه.



النعمة المُغيَّبة

(Vanishing Grace)

في هذا الكتاب، يستعرض يانسي موضوع النعمة التي غُيِّبت في عصرنا الحاضر إذ يقول: "ينتابني بوصفي مسيحيًّا هاجسٌ عميقٌ يتعلَّق بكيفيَّة إظهار إيماننا للآخرين. لقد دُعينا لنكرزَ بالأخبار السارَّة عن الغفران والرجاء، ومع ذلك أواجِهُ باستمرارٍ أدلَّة تبيِّن أنَّ كثيرًا من الناس لا يحسبون رسالتَنا أخبارًا سارَّة".

ورغم ما تشير إليه البحوث بأنَّ الآراء الإيجابيَّة حول المسيحيَّة في انخفاض، فإنَّ الاهتمام بالروحانيَّات آخذٌ في الارتفاع، فلماذا هذا الانفصام؟ وكيف يستطيع المسيحيُّون أن يقدِّموا النعمة بطريقةٍ تُثير الانتباه والإعجاب إلى مجتمعٍ مُنهَك؟ وكيف يمكنهم أن يؤثِّروا في عالمٍ يصرخ طلبًا للنجاة؟ يجدِّد يانسي نداءَه للمسيحيِّين ليكونوا ممتلئين بالنعمة في سلوكهم كما هم في الإعلان عن إيمانهم؛ لأن كثيرًا من الناس، سواء في الكنيسة أم من خارجها، هم عطاش إلى النعمة.